BANTAM BOOKS

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

پول سوسمان
Paul Sussman



الواحة الخفية
THE HIDDEN OASIS

الواحة الخفية

THE HIDDEN OASIS

الواحة الخفية
THE HIDDEN OASIS

رواية

تأليف

پول سوسمان

Paul Sussman

ترجمة

مروان سعد الدين

مراجعة وتحرير

مركز التعريب والبرمجة

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل

Arab Scientific Publishers, Inc. SAL

بسم الله الرحمن الرحيم

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي
The Hidden Oasis
حقوق الترجمة العربية مرخّص بها قانونياً من الناشر
Bantam Books
بمقتضى الاتفاق الخطي الموقّع بينه وبين الدار العربية للعلوم ناشرون، ش.م.ل.

الطبعة الأولى
1433 هـ - 2012 م

ردمك 978-614-01-0390-0

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1 961+)
ص.ب: 5574-13 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان
فاكس: 786230 (1 961+) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

التنضيد وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت - هاتف 785107 (9611+)
الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف 786233 (9611+)

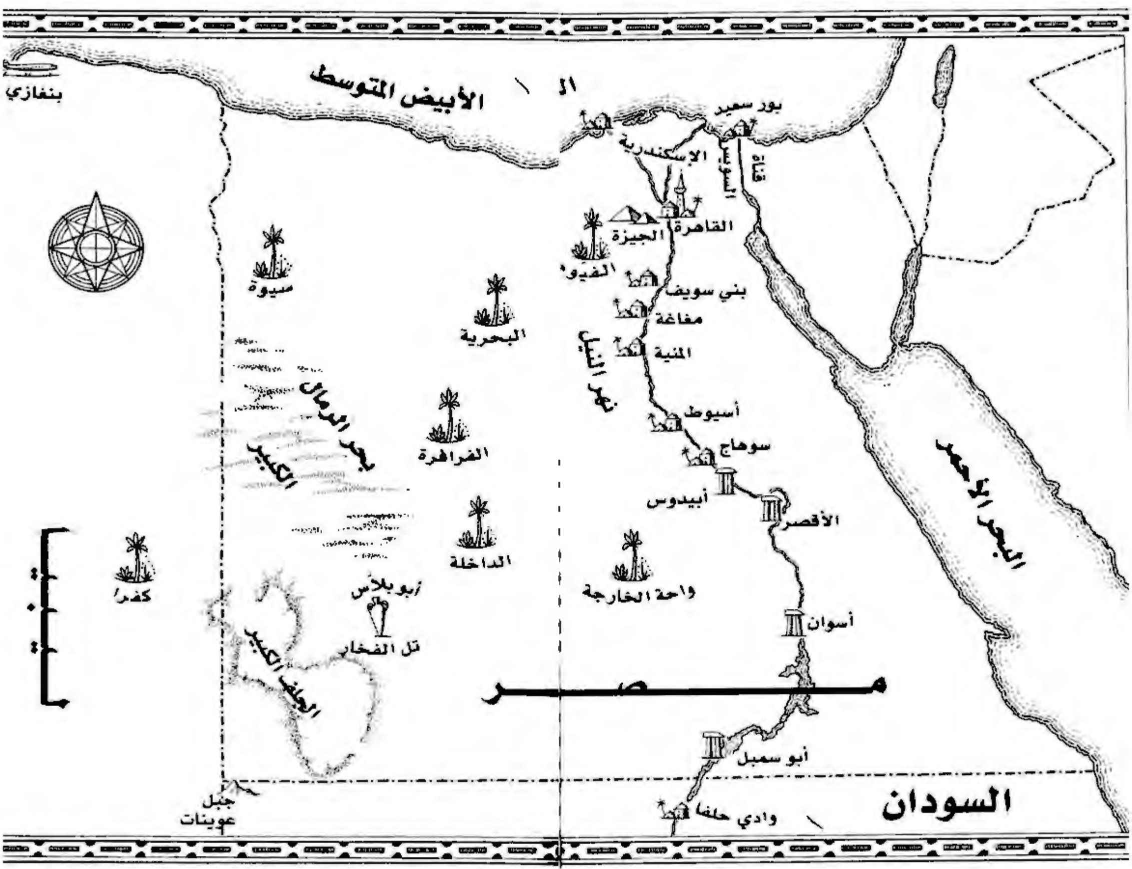
/

لقد أنعم الله عليَّ بالواحة الأكمل على وجه البسيطة،

مكانٌ آمن ودافئ ومليء بسعادة لا حدود لها.

واحتي اسمها عائلتي: إليكي، ليلى، عزرا وجود

هذا الكتاب لهم، مع حبي إلى الابد



البحر الأبيض المتوسط
بنغازي
بور سعيد
الإسكندرية
قناة السويس
القاهرة
الجيزة
الفيوم
بني سويف
مغاغة
المنية
نهر النيل
أسيوط
سوهاج
أبيدوس
الأقصر
أسوان
أبو سمبل
وادي حلفا
سيوة
البحرية
الفرافرة
الداخلة
واحة الخارجة
بحر الرمال الكبير
الجلف الكبير
أبو بلاص
تل الفخار
كفرا
جبل عوينات
مصر
السودان
البحر الأحمر


الجلف الكبير
ش
جبل
الماسي
الجلف
الكبير
الشمالي
ليبيا
وادي مشي
النهدين
وادي الضيق
وادي المفتاح
وادي البخت
الجلف
الكبير
الجنوبي
وادي صورة
القصور الثلاثة
ثغرة العقبة
وادي وسع
الأجراس الثمانية
جبل
بيبان
بطرس وبولس
فوهات
كلايتون
جبل
عوينات
السودان

2153 قبل الميلاد - مصر، الصحراء الغربية

كانوا قد أحضروا جزّاراً معهم إلى أرض قاحلة بعيدة في دشرت، وقد استُخدِمَت سكين ذبح أنعام بدلاً من تلك الخاصة بالطقوس لحز أعناقهم.

استعمل الجزّار أداة بدائية من صوّان أصفر مشذّب، حادة كالشفرة وبطول ذراع، وانتقل من رجل دين إلى آخر وضغط نصلها بخبرة على الزاوية الطرية بين العنق وعظمة الترقوة. جحظت العيون من تأثير شرابيَ شيبن وشيده المخمّرين اللذين تناولوهما لتخفيف الألم، ورؤوسهم الحليقة تتلألأ بقطيرات من ماء مبجل، والجميع يتلون تضرعاتهم إلى رع-أتوم، يناشدونه فيها أن يبلغهم برّ الأمان عبر قاعة الحقيقتين ويوصلهم إلى ساحات إيرو المبجلة. بعد ذلك، أمال الجزّار رؤوسهم إلى الخلف نحو سماء الفجر، وحز أعناقهم من الأذن إلى الأذن بحركة واحدة ثابتة.

أنشد رجال الدين الباقون: "نرجو أن يمشي في الطرق الجميلة، ويعبر القبّة المبجلة! نرجو أن يأكل بجانب أوزيريس كل يوم!".

تناثر الدم على ذراعيه وجذعه، وأنزل الجزّار كل رجل إلى الأرض ومدّده عليها قبل أن ينتقل إلى رجل الدين التالي في الرتل ويكرّر العملية، وأخذ صف الجثث يطول مع مضيه قدماً في عمله، ووجهه خالٍ من أي تعبير، كفؤ على نحو وحشي.

من على قمة كُثيّب قريب، حدّق إمتي-خنتيكا، رجل دين إيونو الأسمى، رسول رع-أتوم الأول، الضالع الأعظم، نحو الأسفل إلى هذه المذبحة المنظمة. شعر بالأسى، طبعاً، لموت ذلك العدد الكبير من الرجال الذين كان قد عرفهم على أنهم إخوة له. بدوا راضين أيضاً؛ لأن مهمتهم قد أُنجزت، وعرف كل واحد منهم منذ

البداية أن الأمر سينتهي على تلك الحال، حتى لا تتسرّب همسة إلى الخارج عمّا قد فعلوه.

خلفه، في الشرق، شعر بدفء أول أشعة الشمس، رع-أتوم هيئة خبري، يجلب الضوء والحياة إلى العالم. استدار وألقى قلنسوته المصنوعة من جلد النمر إلى الخلف وفتح ذراعيه، يتلو:

"أوه أتوم، الذي جاء إلى الوجود على تلة الخلق،

بلهيب مثل طائر بنو في ضريح بنبن في إيونو!".

رفع يده، وفتح أصابعه كأنه يريد أن يمسك بطرف اللون الأحمر الضارب إلى البنفسجي الذي يبزغ فوق الرمال على الأفق، ثم استدار مجدداً، ونظر في الاتجاه المعاكس، نحو الغرب، إلى الجدار الخلفي من الجرف الصخري الذي يمتد من الشمال إلى الجنوب مسافة مئة خيت، مثل ستارة ضخمة تمتد على حافة العالم.

في مكان ما عند قاعدة ذلك الجرف الصخري، في شبكة الظلال الكثيفة التي لم يكن ضوء الفجر قد اخترقها بعد، تتواجد البوابة المبجلة: *ري-إن وسير*، فم أوزيريس. كانت ستظهر لمراقب يقف في المكان الصحيح أمامه تماماً، لكنه هو، إمتي، تمتم أنشودتي الإغلاق والإخفاء، وأدرك أنه لن يعلم بأمر البوابة إلا أولئك الذين يعرفون كيف ينظرون. كان ذلك مكان أسلافهم، ويت *إر-دجرو تا*، الواحة في نهاية العالم التي حافظت على أسرارها طوال مدة سرمدية من السنوات، ولا يعرف بوجودها إلا قلّة منتقاة فقط. لم يكن عبثاً أنها تُدعى أيضاً ويت سيشتات أي الواحة الخفية. ستكون حمولتهم بأمان هناك، ولن يعثر عليها أحد، ويمكن أن ترقد بسلام إلى أن تسود أيام أكثر استقراراً.

نظر إمتي إلى الجرف الصخري، وأومأ برأسه كأنه يوافق على شيء ما، ثم نظر إلى الخلف، ثم نحو ذروة صخرة ملتوية تبرز من الكثبان على بعد نحو ثمانية خيتات من واجهة الجرف الصخري. كانت معلَماً بارزاً حتى من بعيد، وتهيمن على البيئة المحيطة: هي عبارة عن برج مقوّس من الصخر الأسود ينثني إلى الخارج والأعلى إلى ارتفاع نحو عشرين مهنسو، مثل نصل منجل ضخم يشق أرض الصحراء، أو بدقة أكبر، مثل قائمة أمامية لخنفساء روث عملاقة تصعد إلى السطح عبر الرمال.

تساءل إمتي عن عدد الرحّالة الذين تجاوزوا ذلك الخفير الوحيد من دون أن يدركوا أهميته. فكّر في أن قليلين منهم- إذا كان هناك أحد على الإطلاق- سيُجيبون عن سؤاله؛ لأن تلك هي الأراضي الخاوية، أراضي الموت، وميدان ست، حيث لا يجرؤ أحد يُقدّر حياته على أن يحلم باختراقها أبداً. ووحدهم الذين يعرفون الأماكن المنسية سيصلون إلى ذلك المكان ليجدوا العدم، وهناك فقط ستكون حمولتهم بأمان حقاً، بعيداً جداً عن متناول أولئك الذين سيسيئون استخدام قواها الرهيبة. نعم، فكّر إمتي، بالرغم من أهوال رحلتهم، إلا أن قرار السفر غرباً كان صائباً، ومناسباً بالتأكيد.

قبل أربعة شهور قمرية، كان ذلك القرار قد اتُّخذ من قبل مجلس سري يضم الأقوى في الأرض: الملكة نيث، والأمير ميرنر، و*النحاتي* يوزركف، والجنرال ريهو، وهو، إمتي-خنتيكا، رجل الدين الأسمى.

لم يكن نيسو، مولى الأرضين نفر-كا-رع بيبي، هناك، أو يطّلع على قرار المجلس. كان بيبي سابقاً حاكماً قوياً ونداً لخع سخ وي وزوسر وخوفو. آنذاك، في السنة الثالثة والتسعين لعهده- ثلاثة أضعاف مدة حياة الإنسان العادي- كانت قوته وسلطته قد تضاءلتا. وفي أرجاء البلاد، نظم النومارك جيوشهم الخاصة، وشنوا حروباً على بعضهم بعضاً، وإلى الشمال والجنوب كان الأقواس التسعة- الأعداء التقليديون لمصر القديمة- يغزون الحدود. وفي ثلاث من السنين الأربع الأخيرة لم يحدث فيضان ولم تنمُ المحاصيل.

كانت كميت تتفكك، وكان التوقع أن الأشياء ستسوء. ربما كان بمقدور ابن رع بيبي السيطرة على الأوضاع، لكن، آنذاك في وقت الأزمة، اضطر آخرون إلى تولّي زمام الأمور واتخاذ قرارات رسمية كبيرة نيابة عنه. وهكذا، فقد تكلم بمجلسهم: من أجل حمايتهم، وسلامة كل الرجال، يجب إخراج *إنسر-إن* سدجت من إيونو حيث يوجد، ونقله عبر حقول الرمال إلى برّ الأمان في الواحة الخفية- ويت سيشتات- المكان الذي جاء منه أصلاً.

ووقعت على عاتقه- إمتي-خنتيكا، رجل دين إيونو الأسمى - مسؤولية قيادة تلك الحملة.

"احملوه عبر المجرى المائي المتعرّج، وانقلوه إلى الجانب الشرقي من الفردوس!".

ارتفع صوت متكرر من الإنشاد من الأسفل مع شقّ حنجرة أخرى، ومُدّدت جثة أخرى على الأرض. كانت خمس عشرة جثة تستلقي هناك آنذاك، أي: نصف العدد.

صاح إمتي، منضماً إلى الجوقة: "أوه رع! دعه يأتي إليك! أرشده إلى الطريق المبجل، واجعله يعيش إلى الأبد!".

راقب الجزّار يتحرك إلى الرجل التالي في الصف، وصدى الصفير الرطب من قصبات هوائية مذبوحة يتردد في الهواء. ثم، عندما شقت السكين طريقها مجدداً، أشاح إمتي ببصره بعيداً إلى الصحراء، يتذكر كابوس الرحلة التي قاموا بها.

كان ثمانون منهم قد انطلقوا في تلك الرحلة، في بداية موسم *بيريت*- فصل من فصول *السّنة القديمة*- والحرارة لا تزال منخفضة. كانت حمولتهم ملفوفة بطبقات من كتّان واق ومثبّتة إلى مزلجة خشبية، وقد سافروا جنوباً، أولاً على متن مركب إلى زاوتي، ثم براً إلى واحة كنيم حيث ارتاحوا أسبوعاً قبل أن يشرعوا في قطع المرحلة الأخيرة والأكثر صعوبة في مهمتهم؛ أربعين *إيترو* عبر قفار دشرت الحارّة التي تخلو من أي دروب مؤدّية إلى الجرف الصخري العظيم والواحة الخفية.

كان عبور تلك المرحلة الأخيرة قد استغرق منهم سبعة أسابيع طويلة، هي أسوأ ما اختبره إمتي، وتجاوزت حتى أفظع تخيلاته. قبل أن يصلوا إلى منتصف الطريق، ماتت كل ثيران مجموعتهم واضطروا إلى نقل الحمولة بأنفسهم، وشدَّ عشرون منهم في كل مرة معاً مثل ماشية، وتلطخت أكتافهم بخطوط من الدماء حيث احتك حبلا المزلجة بها، وسُفعت أقدامهم بالرمال الحارّة. أضحى تقدمهم أبطأ كل يوم، وأعاقتهم الكثبان الضخمة والعواصف الرملية الهوجاء، إضافةً إلى الحرارةَ التي لفحتهم حتى في ما يُفترض أن يكون موسماً بارداً من الفجر إلى الغسق؛ كأن الهواء نفسه ملتهب.

كان العطش والمرض والإرهاق كلها قد خفضت عددهم على نحو لا يرحم، وعندما نفد منهم الماء من دون أن يروا أي علامة إلى مقصدهم، خشوا أن يهلكوا قبل أن يُتمموا مهمتهم. تابعوا سيرهم الشاق بالرغم من ذلك، بصمت وإصرار، وكل منهم تائه في عالم عذابه الخاص حتى اليوم الرابع عشر على مغادرتهم كنيم حين كافأ الأسياد المبجلون مثابرتهم برؤية ما تضرّعوا من أجله وقتاً طويلاً: رؤية

خطٌ ضبابـــي أحمر على الأفق الغربـــي يحدد كتلة الجرف الصخري العظيم ونهاية رحلتهم.

كان لا يزال أمامهم حتى آنذاك ثلاثة أيام قبل أن يصلوا إلى فـــم أوزيـــريس ويعبروه إلى ممر الواحة الضيق المملوء أشجاراً، و لم يعد حياً منهم إلا ثلاثون شخصاً فقط. كانت حمولتهم مرسلة إلى المعبد في قلب الواحة، وقد استحموا في الينـــابيع المبجلة، ثم في الصباح الباكر تُليَت أنشودتا الإغلاق والإخفاء، أُلقيت **اللعنتـــان**، ومضوا عائدين إلى الصحراء وبدأت شعيرة حزِّ الأعناق.

أخرجت طقطقة عالية إمتي من حلم يقظته. كان الجزّار، الأبكم، يطرق يـــد سكينه على صخرة ليلفت انتباهه.

استلقت ثمانٍ وعشرون جثة على الرمل بجانبه، و لم يبقَ حياً منـــهم إلا همـــا الاثنان. كانت تلك هي النهاية.

قال إمتي، وهو ينـــزل عن الكُثيّب ويضع يده على كتف الجـــزّار الملطخـــة بالدم: "*دوا-آي-ناك نتجر سني-آي*. شكراً يا أخي".

توقف قليلاً، ثم قال: "هل تود تناول شيئ؟".

هزَّ الجزّار رأسه وسلّمه سكينه، ونقر بإصبعين على عنقه ليشـــير إلى حيـــث ينبغي لإمتي أن يحزَّ قبل أن يستدير ويجثو أمامه. كانت السكين أثقل مما قد تخيـــل إمتي، والتحكم بها أقل سهولة، وتطلب الأمر كل قوته ليرفعها إلى عنـــق الجـــزّار ويسحبها على اللحم. شقَّ عميقاً قدر استطاعته، وتدفق دم غزير يرغي إلى الخارج على الرمل.

قال وهو يلهث ويضع الجثة على الأرض: "أوه رع! افتح أبواب القبّة الزرقاء له. اجعله يأتي إليك ويعيش إلى الأبد".

وضع ذراعَي الجزّار إلى جانبيه وقبّل جبينه، ثم مشى مجهداً إلى قمة الكُثيّـــب، وغاصت قدماه في الرمل إلى ركبتيه تقريباً، وهو لا يزال يقبض على السكين بيده.

كان جزء صغير فقط من الشمس لم يشرق بعـــد، وأدنى محيطهـــا لا يـــزال متوارياً خلف خط الأفق، لكن، حتى في مثل تلك الساعة الباكرة جعلت حرارتُها الهواءَ يتحرك ويخفق. حدّق إمتي إليها، وضاقت عيناه كأنه يحسب الوقت الـــذي ستستغرقه قبل أن ترفع نفسها تماماً، ثم استدار غرباً، نحو الذروة الصخرية البعيـــدة

والكتلة الداكنة للجرف الصخري خلفها. انقضت دقيقة، اثنتان، ثلاثٌ. فجأة، رفع ذراعيه إلى السماء وصرخ:

"أوه خبري، أوه خبري،
رع-أتوم عند الفجر،
عينك ترى كل شيء!
احم إبر-إن سدجت،
ضمّها إلى صدرك!
أرجو أن يُسحق الأشرار بين فكّي سوبك
ويُبتلعوا إلى بطن الأفعى أبيب؛
ليتركوها ترقد بسلام وصمت،
خلف ري-إن وسير، في ويت سيشتات!".

استدار مرة أخرى نحو الشمس، ووضع جلد النمر فوق رأسه، وكافح مجدداً مع ثقله، وسحب السكين على كلٍّ من رسغيه.

كان رجلاً عجوزاً - عمره ستون عاماً أو أكثر - وتلاشت قوته بسرعة، أظلمت عيناه، وتلبّد ذهنه بمجموعة من الصور المشوّشة. رأى الفتاة ذات العينين الخضراوين من قرية شبابه (آه، كم أحبّها!)، وكرسيه القديم المصنوع من أغصان الصفصاف في أعلى برج سيشات في إيونو، حيث كان يجلس في الليل يراقب حركة النجوم، والقبر الذي قد أعدّه لنفسه في نكروبوليس سيرز الذي لن يضم جسده أبداً، بالرغم من أن قصته ستبقى على الأقل، وهكذا سيخلد اسمه.

تحرّكت الصور في دوامة، وتداخلت في بعضها بعضاً، وانسدمجت واتحدت وتشظّت حتى تلاشت تماماً في النهاية، ولم تبقَ إلا الصحراء والسماء والشمس، ومن مكان قريب، جناحان يرفرفان بهدوء.

في البداية، ظنَّ أنه نسر قد جاء ليَلتهم جثته، لكن الصوت بدا مرهفاً جداً على مثل ذلك المخلوق الضخم. نظر واهناً حوله، وتفاجأ حين رأى على قمة الكُثيّب بجانبه طائراً أصفر الصدر، ذُعَرة، يميل رأسه إلى الجانب. لم تكن لديه فكرة عمّا يفعله هناك في خواء الصحراء، لكنه ابتسم في حاله الضعيفة تلك، وتساءل في سره: *ألم يتجلَّ بنو العظيم بادئ الأمر على شكل ذُعَرة، واستدعى فجر الخليقة من*

بجثمه فوق حجر جبين الجبار؟ كان ذلك طبعاً، عند نهاية الأمر، تأكيداً أن مهمتهم قد بوركت.

تمتم: "أرجو أن يمشي على الطرق الجميلة. أرجو أن يعبر...".

لم يتمكن من إنهاء الجملة، وانهارت ساقاه تحته، وخرّ ووجهه إلى الأسفل على الرمل، ميتاً. وثبتت الذُعّرة في المكان لحظة، ثم رفرفت بجناحيها واستقرت على كتفه، ورفعت رأسها إلى الشمس، وبدأت تغرّد.

تشرين الثاني 1986 – مهبط كوكسي، شمالي-شرقي ألبانيا

كان الروس متأخرين على الاجتماع. طافت كتل كثيفة من الغيوم شرقاً فوق جبال سار، وسوّدت سماء الأصيل. بحلول الوقت الذي ظهرت فيه الليموزين أخيراً عند بوابات المهبط، بدأت أولى كِسَفِ الثلج تسقط على الأرض، وفي الدقيقتين اللتين استغرقتهما المركبة لتصل إلى أنتونوف أيه أن-24 التي تنتظرها وتتوقف بجانب درج الصعود عند الجزء الخلفي من الطائرة، كانت الكِسَفُ تدور في الهواء، وتغطي الأرض بطبقة بيضاء رقيقة.

تمتم رايتر، وهو يمجّ من لفافة تبغه ويحدّق إلى خارج كوّة القمرة نحو العاصفة التي تشتد: "*تمرفلوشت شايسيا شوانـزلوتسشند* روسن. روسٌ لعينون".

فُتح باب القمرة خلفه، وظهر رجل طويل داكن البشرة يرتدي بذلة تبدو غالية الثمن. كان شعره أملس يردّه إلى الخلف وتفوح منه رائحة عطرٍ ما بعد الحلاقة قوية.

قال: "لقد وصلوا. شغّل المحرك".

أُغلق الباب مجدداً، وسحب رايتر بخّة أخرى، ثم بدأ ينقر على المفاتيح، ويحرك أصابعه البدينة الملطخة بالنيكوتين ببراعة مدهشة على لوحات المفاتيح أمامه وفوق رأسه.

قال بسرعة: "*شوانـزلوتسشند* إيجبتر. مصريون لعينون".

إلى يمينه، ضحك الطيار المساعد بصوت خافت. كان أصغر سناً من رايتر، أشقر ووسيماً باستثناء ندبة كبيرة أعلى ذقنه بموازاة شفته السفلى.

قال وهو يعدّل مقعده وينظر إلى خارج كوّة القمرة من جانبه: "أتمنى أن تغمرك أشعة الشمس وترافقك الإرادة الطيبة أينما ذهبت يا كورت. أسأل نفسي: *كيف يمكن لرجل واحد أن يفيض بكل ذلك الحب؟*".

تأفف رايتر لكنه لم يقل شيئاً، وخلفهما كان ملاحهما يقلّب خرائط رحلته.

سأل: "هل تظنان أننا سنقلع في هذا الطقس؟ إنه يبدو سيئاً جداً".

هزّ رايتر كتفيه، وأصابعه لا تزال تتحرك على لوحات المفاتيح.

"هذا يعتمد على الوقت الذي يمضيه عمر الشريف وهو يتلكأ هناك. خمس عشرة دقيقة أخرى وسيختفي المهبط عن الأنظار".

"إذاً؟".

"عندها سنمضي الليل في هذا المكان الموحش. لذا، لنأمل فقط أن يحثّ عمر خطاه".

ضغط على مفاتيح التشغيل، وضجّ محركا إيفشنكو التوربينيان بالحركة، وأصدرا أصوات فرقعة وطنين، وتحركت المروحتان في الهواء المملوء ثلجاً، واهتز بدن الطائرة حولهما.

"الوقت يا رودي؟".

نظر الطيار المساعد إلى ساعته، رولكس إكسبلورير فولاذية كانت قد شهدت أياماً أفضل، وقال: "تشارف على الخامسة".

قال رايتر وهو ينحني جانبياً، ويطفئ لفافة تبغه في منفضة على الأرضية: "أمامهم حتى الخامسة والعشر دقائق، ثم سأوقف المحركين عن العمل مجدداً. الخامسة والعشر دقائق فقط".

استدار الطيار المساعد في مكانه وأمال عنقه، يراقب الرجل ذا البذلة ينزل على الدرج ممسكاً حقيبة سفر جلدية كبيرة بيده. تبعه رجل آخر إلى الأسفل، يرتدي معطفاً ثقيلاً ويضع وشاحاً. فُتح باب الليموزين الخلفي للقائهما واختفى الرجل ذو البذلة داخلها ووقف رفيقه عند أسفل الدرج.

سأل الطيار المساعد، وهو لا يزال يحدّق إلى الخارج: "إذاً، ما الذي يجري هنا يا كورت؟ ممنوعات؟ سلاح؟".

أشعل رايتر لفافة تبغ أخرى، وأمال رأسه، فطقطقت فقرة في عنقه.

"لا أعرف، لا أكترث. صعد عمر على متن الطائرة في ميونيخ، وجئنا به إلى هنا، سيفعل ما يجب أن يفعله، ثم نعيده إلى الخرطوم. لا نطرح أسئلة".

تمتم الطيار المساعد، وهو يمد يده ويمس الندبة تحت شفته السفلى: "في آخر مهمة قمت بها و لم أطرح أسئلة بشأنها، حاول أحمق أن يشق لي فماً جديداً. آمل فقط أن نحصل على مبلغ جيّد".

ألقى نظرة من فوق كتفه، ثم أعاد بصره إلى الكوّة، يراقب غطاء محرك الليموزين يختفي ببطء تحت طبقة رقيقة من الثلج. انقضت خمس دقائق، وفُتح باب السيارة مجدداً وانبثق الرجلُ ذو البذلة منها مرة أخرى. كانت حقيبته قد اختفت، وأمسك بدلاً منها آنذاك علبة معدنية كبيرة، تبدو ثقيلة من الطريقة التي يكافح لحملها. سلّمها إلى رفيقه، وتناول أخرى من السيارة، وصعد الاثنان بصعوبة الدرجَ إلى الطائرة. خرجا بعد لحظة وأمسكا علبتين أخريين قبل أن يصعدا مجدداً إلى متن الأنتونوف. لمح الطيار المساعد شخصاً داخل الليموزين، يتدثر بما بدا معطفاً جلدياً أسود يصل إلى الكاحلين، قبل أن تمتد يد وتغلق الباب وتنطلق المركبة مبتعدة.

قال وهو يستدير: "لا بأس، لقد انتهت المهمة. انطلق بنا يا جيري".

عندما توجه الملاح إلى المقصورة ليسحب الدرج ويغلق الباب، ثبّت الطياران سمّاعتي الرأس وقاما بالتوثّق من معدّاتهما مرة أخيرة. أطل المصري خلفهما ببذلته في مدخل القمرة، والثلج يكسو رأسه وكتفيه.

"لن يمنعنا الطقس عن الإقلاع". كانت جملة قيلت بوصفها تصريحاً أكثر منها سؤالاً.

هذر رايتر، ولفافة التبغ ثابتة بين أسنانه: "دعني أحكم على ذلك. إذا كانت الرياح قوية جداً على المهبط، فسنوقف المحركين عن العمل ونجثم في مكاننا".

قال المصري: "يتوقع السيد جرجس قدومنا إلى الخرطوم الليلة. سنقلع كما هو مخطط".

قال رايتر بحدّة: "لو لم يتأخر أصدقاؤك الروس لما واجهنا مشكلة لعينة. عد الآن إلى مقعدك. جيري، فلنثبت الأحزمة!".

مدَّ يده إلى الأسفل وحرّر المكابح، حرّك أداة التحكم إلى الأمام، ثم ذراع الخانق. ارتفع صوت المحرك إلى هدير مع ازدياد عدد دوراته، وبدأت الطائرة تتحرك.

جاء صوت المصري من خلفهما في القمرة: "يجب ألا يمنعنا الطقس من الإقلاع. يتوقع السيد جرجس قدومنا إلى الخرطوم الليلة!".

تمتم رايتر: "قَبّل مؤخرتي أيها الأخرق". وقاد الطائرة حتى نهاية المدرَج الترابي وأدارها هناك. عاد الملاح إليهما، أغلق باب القمرة ثم جلس على مقعده، وشدَّ حزام الأمان.

سأل، وهو يومئ إلى خارج الكوّة نحو العاصفة الثلجية التي تزداد سوءاً: "ما رأيك؟". سحب رايتر ذراع الخانق إلى الخلف، حدّق للحظة إلى الثلج الذي يلتفُّ لولبياً، ثم دفع الخانق إلى الأمام مجدداً وهو يتمتم: "اللعنة!"، وأمسك دفّة التحكم بيده الأخرى.

قال: "فلنتشبث بأماكننا. سيكون هذا صعباً".

ازدادت سرعة الطائرة فجأة، تتخبّط وتنحرف على طريق ترابي وعر. كافحت قدما رايتر مع دوّاستي التوجيه في أثناء محاولته مقاومة الرياح المتعامدة التي تهب آنذاك على المهبط. بسرعة 80 عقدة ارتفعت مقدمة الأنتونوف، فقط لتهبط مجدداً، وعندما بدأت نهاية المدرَج تقترب، صرخ الملاح على رايتر أن يتخلّى عن المحاولة، لكن الطيار تجاهله وثبّت الطائرة على المسلك وزاد السرعة إلى 90 عقدة، ثم 100، ثم 110. في اللحظة الأخيرة، عندما وصل مؤشر السرعة إلى 115 عقدة واختفت نهاية المدرَج في الأسفل، شدَّ دفّة التحكم إلى الخلف نحو صدره. ارتفعت مقدمة الطائرة إلى الأعلى، وارتطمت عجلاتها بالعشب قبل أن تحلق ببطء في الجو.

قال الملاح: "يا للهول! أنت مجنون لعين...".

ضحك رايتر بصوت خافت، وأشعل لفافة تبغ أخرى، وارتفع عبر السحب نحو السماء الصافية في الأعلى.

قال: "سهل".

تزوّدوا بالوقود في بنغازي على ساحل شمالي أفريقيا قبل أن يتخذوا مساراً نحو الجنوب الشرقي فوق الصحراء الكبرى، ويحلّقوا على ارتفاع 5000 متر. وكان الطيّار الآلي يقود الطائرة، والبيداء تحتهم تلمع بلون فضي باهت في ضوء القمر؛ كأنها مسكوبة من قصدير. بعد تسعين دقيقة من الطيران، اشتركوا في تناول قهوة

فاترة من حافظة وبعض الشطائر، ثم بعد ساعة من ذلك، فتحوا قارورة شراب روسي أحدثت فرقعة، وشقَّ الملاح باب القمرة قليلاً وألقى نظرة إلى المقصورة خلفهم.

قال، وهو يغلق الباب مجدداً: "نائمان".

قال الطيار المساعد، وهو يتجرّع من قارورة الشراب ثم يمرّرها إلى رايتر: "ربما يجب أن نُلقي نظرة على إحدى العلبتين، ما داما نائمين".

قال الملاح: "ليست فكرة جيدة. يحملان سلاحاً، أو على الأقل عمر. رأيته تحت سترته حين كنت أثبّته إلى مقعده. غلوك، كما أظن، أو براونينغ. لم أُلقِ نظرة متفحّصة".

هزَّ الطيار المساعد رأسه وقال: "ينتابني شعور سيئ بشأن الأمر، وقد أحسست بذلك منذ البداية. شعور سيئ جداً".

وقف، مدّد ساقيه، ثم مشى إلى الجزء الخلفي من القمرة، أخرج حقيبة كتف قماشية من الخزانة الجدارية، ثمّ جلس مجدداً، وبدأ يبحث داخلها.

سأل رايتر حين سحب الطيار المساعد آلة تصوير: "هل تريد تصوير منطقتي الحسّاسة؟".

"آسف يا كورت، ليس لدي عدسات كبيرة كفاية".

كان الملاح ينحني إلى الأمام حين سأل: "لايكا؟".

أومأ الطيار المساعد.

"أم 6. اشتريتها قبل أسبوعين. فكّرت في التقاط بعض الصور للخرطوم، فأنا لم أزرها من قبل".

أطلق رايتر شخرة استخفاف وتناول جرعة كبيرة، ثم مرّر قارورة الشراب من فوق كتفه إلى الملاح. عبث الطيار المساعد بآلة التصوير، وقلّبها بين يديه.

"ياه! هل تعرفان تلك الفتاة التي كنت أواعدها؟".

قال الملاح: "ماذا؟ أصاحبة المؤخرة الكبيرة؟".

ابتسم الطيار المساعد بتكلّف وهزَّ آلة التصوير قائلاً: "التقطت هنا بعض الصور قبل أن نغادر".

استدار رايتر، مهتماً فجأة وقال: "أي نوع من الصور؟".

قال الطيار المساعد: "نوع فني".

"ماذا يعني ذلك؟".

"تعرف يا كورت، فني".

"لا أعرف البتّة".

"فني. ذوقي. جورب، حمّالة، ساقان حول عنقها، موزة فوق...".

اتسعت عينا رايتر، وزمَّ شفتيه على نحو يعبّر عن الرغبة. خلفهما، كشّر الملاح وبدأ يهمهم لحن أغنية كوين: *فتيات كبيرات المؤخرات*. انضم الطيار المساعد إليه، ثم رايتر أيضاً، وبدأ الثلاثة ينشدون الأغنية معاً، يقلّدون الجوقة ويضربون بأيديهم على المساند الجانبية لمقاعدهم. غنوها مرة، اثنتين، وكانوا قد بدأوها مرة ثالثة حين صمت رايتر فجأة، وانحنى إلى الأمام ونظر إلى خارج كوّة القمرة. تابع الطيار المساعد والملاح الغناء بضعة سطور أخرى، لكن صوتيهما تلاشيا حين أدركا أن رايتر لم يعد يغني معهما.

سأل الملاح: "ماذا؟".

أومأ رايتر أمامه، إلى حيث ما بدا أنه جبل ضخم لاح فجأة من بعيد، في مسار رحلتهم مباشرة. كتلة بارزة كثيفة من ظل يرتفع من أرضية الصحراء عالياً نحو السماء ويمتد من الأفق إلى الأفق. وبالرغم من صعوبة التوثق من الأمر، بدا أنه يتحرك وينحرف نحوهم.

سأل الملاح: "ما هذا؟ أهذا ضباب؟".

لم يقل رايتر شيئاً، وراقب فقط بعينين ضيقتين اقتراب الظلّ تدريجياً منهم.

قال أخيراً: "عاصفة رملية".

صفّر الطيار المساعد: "يا قوي، يا جبّار. انظرا إليها".

أمسك رايتر دفّة التحكم وبدأ يسحبها إلى الخلف.

"يجب أن نرتفع".

صعدوا إلى ارتفاع 5500 متر، ثم 6000 متر مع تقدم العاصفة بثبات اتجاههم، تلتهم الأرض وتخفيها عن الأبصار.

قال رايتر: "اللعنة، إنها تتحرك بسرعة".

ارتفعوا أكثر، ووصلوا إلى الحد الأقصى، إلى ارتفاع نحو 7000 متر. كان جدار الظل قريباً بشكل كافٍ منهم آنذاك ليروا حدوده الخارجية وثنياته الكبيرة وسُحُبَ الغبار التي تتلوّى وتتداخل في بعضها بعضاً، وتهوي بصمت إلى الأرض. وبدأت الطائرة تهتز وترتعش.

قال الطيار المساعد: "لا أظن أننا سننجح في التحليق فوقها".

أصبح الاهتزاز أشد، وتسلل صوت هسيس خافت إلى داخل القمرة حين بدأت حبّات رمل وأنقاض أخرى تصطدم بنوافذ الطائرة وبدنها.

"إذا دخل أيٌّ من ذلك في المحركين...".

تمتم رايتر، متمّماً جملة الطيار المساعد: "... فسيُقضى علينا. يجب أن نعود أدراجنا ونحاول الالتفاف حولها".

بدا أن سرعة العاصفة تزداد؛ كأنها أدركت نواياهم وتتشوّق إلى الإطباق عليهم قبل أن يعودوا من حيث جاؤوا، واندفعت مقدمتها إلى الأمام مثل موجة مدّية، تلتهم المسافة الفاصلة بينهم. بدأ رايتر يُميل الطائرة إلى اليسار، وقطرات عرق تتلألأ على جبينه.

"إذا استطعنا فقط أن نلتف حولها، فسنتمكّن...".

قاطعه صوتٌ مدوٍّ في الخارج إلى اليمين. انحرفت الطائرة بعنف في الاتجاه نفسه وبدأت تترنّح، ومقدمتها تهبط ومؤشرات التحذير الرئيسة مفعمة بالحركة مثل أضواء شجرة الميلاد.

صرخ الملاح: "يا الله!".

كان رايتر يكافح ليثبّت الطائرة مع تزايد انحدارهم، والقمرة تميل نحو 40 درجة إلى جانبها. وقعت معدّات من الخزانة خلفهم إلى الأسفل، وتدحرجت قارورة الشراب على الأرضية وتحطمت على الجانب الأيمن للبدن.

صرخ الطيار المساعد، وهو يلقي نظرة خارج الكوّة إلى الخلف: "اشتعل المحرك الأيمن. نار هائلة يا كورت!".

قال رايتر: "اللعنة، اللعنة، اللعنة".

"مؤشر ضغط الوقود ينخفض. مؤشر ضغط الزيت ينخفض. الارتفاع ستة آلاف وخمس مئة وننخفض. مؤشرا السرعة والارتفاع يهبطان... يا الله، إنها في كل مكان!".

صرخ رايتر: "أوقف المحرك عن العمل، وأضنق مطفأة الحريق. جيري، أريد أن أعرف أين نحن. بسرعة".

بينما انكبَّ الملاح على تحديد موقعهم ونقر الطيار المساعد بعصبية على المفاتيح، تابع رايتر كفاحه مع أدوات التحكم، والطائرة تفقد الارتفاع طوال الوقت، وتنخفض لولبياً إلى الأسفل في سلسلة من الدوائر العريضة، لكن العاصفة اقتربت أكثر، وبدت من كوّة القمرة مثل واجهة جرف صخري شاهقة.

صرخ الطيار المساعد: "ستة آلاف متر. خمسة آلاف وسبع مئة متر... ست مئة متر... خمس مئة. يجب أن ترفع المقدمة وتعيدنا أدراجنا يا كورت!".

"أخبرني شيئاً لا أعرفه سلفاً!". كان هناك توتر وخوف في صوته. "جيري؟".

صرخ الملاح: "ثلاث وثلاثون درجة و30 دقيقة شمالاً. خمس وعشرون درجة و18 دقيقة شرقاً".

"أين أقرب مهبط؟".

"ما الذي تتكلم عنه؟ نحن في وسط الصحراء الكبرى اللعينة! ليس هناك أيّ مهابط! الداخلة على بعد ثلاث مئة وخمسين كيلومتراً، الكفرة...".

فُتح باب المقصورة بعنف ودخل المصري ذو البذلة يترنح إلى القمرة، وأمسك بمقعد الملاح ليثبّت نفسه في حين كانت الطائرة تهتز وتنحدر.

صرخ: "ماذا يحدث؟ أخبروني عمّا يجري!".

جأر رايتر: "يا الله! عد إلى مقعدك، أيها المجنون...".

لم يقل شيئاً آخر؛ لأنه في تلك اللحظة اندفعت العاصفة إلى الأمام وغلّفتهم، وقذفت الأنتونوف إلى الأعلى ثم إلى الأسفل كأنها مصنوعة من خشب خفيف. سقط المصري ووجهه إلى الأمام على مسند مقعد رايتر، وشُجَّ رأسه، ثم فرقع المحرك الأيسر، وتوقف عن العمل.

صرخ رايتر: "أرسل نداء استغاثة".

قال المصري ممسكاً فروة رأسه المجروحة: لا! لاسلكي صامت. اتفقنا على أن...".

"أرسلها يا رودي!".

كان الطيار المساعد قد نقر آنذاك اللاسلكي.

"استغاثة، استغاثة. فيكتور بابا تشارلي مايك تانغو أربعة سبعة ثلاثة. استغاثة، استغاثة. توقف كلا المحركين. أكرّر، توقف كلا المحرّكين. الموقع...".

كرّر الملاح إحداثيات موقعهم ونقلها الطيار المساعد عبر لاقط الصوت، وبعث الرسالة مراراً وتكراراً في حين كان رايتر يكافح مع أدوات التحكم. لم تكن لديه قوة، والعاصفة تضربهم من كل جانب، وبدت تلك معركة يائسة، واستمر الانحدار، وإبرة مقياس الارتفاع تدور بسرعة عكس عقارب الساعة، وطقطق مؤشرها منخفضاً إلى ما دون 5000 متر، ثم 4000، 3000، 2000. اشتد عصف الريح في الخارج، وأضحى الاضطراب أكثر عنفاً حين اندفعوا في قلب الدوّامة الهائلة.

صرخ رايتر حين أصبحوا على ارتفاع أقل من 1500 متر: "سنسقط! ثبّتا عمر ليكون بأمان".

فتح الملاح الكرسي المطوي على ظهر مقعد الطيار المساعد ودفع الراكب المضرّج بالدم إليه، ثبّته عليه قبل أن يتمايل عائداً إلى مقعده.

صاح المصري بصوتٍ واهن إلى رفيقه في المقصورة: "*إستنا! إحنا حنوقع! إتشاهد!*".

كانوا آنذاك على ارتفاع أقل من 1000 متر. أنزل رايتر جنيحات الهبوط وفعّل لوحات الجناح في محاولة يائسة لخفض سرعتهم.

صرخ الطيار المساعد: "عجلات الهبوط؟"، لكن صوته تلاشى في عصف الريح وقرقعة الأنقاض على بدن الطائرة.

صرخ رايتر: "لا يمكنني المخاطرة بذلك! إذا كانت الأرض صخرية، فستقلبنا رأساً على عقب".

"الاحتمالات؟".

"أقل من صفر".

استمر يشدُّ دفّة التحكم، وتردد صدى عبارة *الله أكبر* من المقصورة خلفهم، وراقب الطيار المساعد والملاح بذهول ورعب مقياس الارتفاع يطقطق نزولاً نحو آخر بضع مئات من الأمتار.

صرخ رايتر في اللحظة الأخيرة: "إذا نجونا من هذا، فتَوَثّق من إطلاعنا على تلك الصور يا رودي! أسمعت؟ أريد رؤية...".

وصل مقياس الارتفاع إلى صفر، وشدّ رايتر دفّة التحكم مرة أخيرة، واستجابت المقدمة بما يشبه المعجزة وارتفعت، وبالرغم من اصطدامهم بالأرض بسرعة نحو 400كم/سا، إلا أن ذلك حدث على الأقل أفقياً. سمعوا صوتاً مدوّياً تقشعرّ له الأبدان: نزع تأثيرُ الصدمة المصريَّ من مقعده، وألقى به بقوة على سقف القمرة أولاً ثم على الجدار الخلفي، وطقطق عنقه مثل غُصَين. وثبوا إلى الأعلى، ونزلوا مجدداً، وأظلمتِ القمرة، وتحطّمت النافذة اليسرى للكوة ودخلت إلى الداخل، وجزّت نصف وجه رايتر مثل مشرط. تلاشت صرخاته الهستيرية في ثورة العاصفة، ودخلت سحابة خانقة من الرمال والأنقاض عبر الفتحة حيث كانت النافذة.

انزلقوا 1000 متر على تضاريس مسطّحة، يقفزون ويهتزون لكنهم بقوا على مسار مستقيم، ثم واجهت مقدمة الطائرة عائقاً غير منظور ودخلت في دوامة، ودارت الأنتونوف التي يبلغ وزنها 14 طناً حول نفسها مثل ورقة في مهب الريح. انفصلت مطفأة حريق من حاملتها واندفعت لتصطدم بأضلاع الملاح، فحطّمتها كأنها مصنوعة من خزف، واندفع باب الخزانة الجدارية من مفصلاته مرتطماً بالجزء الخلفي من رأس رايتر، فسحقه. استمروا يدورون وفقدوا كل إحساس بالسرعة والاتجاه في ظلمة القمرة الخانقة، وأضحى كل شيء قطعاً متحركة في مشهد ضبابي فوضوي واحد. وبعد ما بدا أنه وقت طويل، لكنه لم يكن إلا ثوانيَ فقط، بدأوا يتباطأون ودورات الطائرة تخف حين أمسك سطح الصحراء بالجانب السفلي منها حتى جعلها تتوقف أخيراً، وتميل إلى الخلف بزاوية متقلقلة؛ كأنها على حافة منحدر شاهق، ومقدمتها ترتفع إلى الأعلى.

بقي كل شيء ساكناً لحظة، واستمرت العاصفة الرملية تضرب بدن الطائرة وكوّاتها، والرائحة الكريهة للمعدن الساخن تغمر القمرة، ثم تحرّك الطيار المساعد مترنحاً في مقعده.

صاح: "كورت؟ جيري؟".

لم يتلقَّ رداً. مدَّ يده ومسّت أصابعه شيئاً ساخناً ورطباً، ثم بدأ يفك حزامه، وبينما كان يفعل ذلك، شعر أن الطائرة تميل. توقف، وانتظر، ثم تابع العمل

بأنامله، وأبعد الحزام جانباً ورفع نفسه عن مقعده. مالت الطائرة مجدداً، وتأرجحت مقدّمتها إلى الأعلى ثم الأسفل. تجمّد الطيار المساعد، وحاول أن يدرك ما يحدث وهو يحدّق إلى الظلام. ومجدداً، تأرجحت الطائرة وطقطقت وصرّت حين بدأت مقدمتها بالارتفاع، لكنها تلك المرة استمرت على ذلك المنوال، وانتصبت عمودياً تقريباً قبل أن تبدأ الأنتونوف بالانزلاق إلى الخلف. اصطدمت الطائرة بشيء ما، ثم توقفت، وبدأت تنزلق مجدداً، ثم هبط ذيلها أولاً نحو مساحة مكشوفة. تلاشت العاصفة الرملية وأضحت الكوّات صافية فجأة لتكشف مشاهد مشوّشة من جدران صخرية داكنة على كلا الجانبين؛ كأنهم كانوا يسقطون في ممر ضيق من نوعٍ ما. اهتزت الطائرة وانزلقت إلى الخلف حتى اصطدم بطنها أولاً بكتلة كثيفة من الأشجار محدثة صوتاً يصمّ الآذان. وطوال ثوانٍ، لم تكن هناك إلا أصوات هسيس المعدن الذي يتلوّى ويصرُّ، ثم بدأت أصوات أخرى تُسمع تدريجياً: حفيف أوراق، خرير مياه بعيد، تغريد عصافير بدا خافتاً في البداية، لكنه ازداد صخباً بثبات حتى ملأ الليل.

تأوه أحدهم من داخل الحطام وقال: "كورت؟ جيري؟".

واشنطن، مبنى البنتاغون، الليلة نفسها

"شكراً لكم جميعاً لمجيئكم. أعتذر عن استدعائكم إلى هنا في وقت قصير، لكن شيئاً قد... طرأ".

مجَّ رئيس الجلسة بقوة من لفافة تبغه، ولوّح بيده ليبعد الدخان ويحدّق بإمعان إلى الرجال السبعة والمرأة الوحيدة المجتمعين حول الطاولة أمامه. كان الجناح خالياً من النوافذ، ورتيباً، وأثاثه قليلاً، وشبيهاً بمئات المكاتب الأخرى في سراديب البنتاغون الضيّقة، ولا تميّزه إلا خريطة ضخمة لأفريقيا والشرق الأوسط تغطي معظم أحد الجدران، كانت الإضاءة الوحيدة صادرة من مصباح متهالك يجثم على الأرضية عند قاعدة الخريطة. وبالرغم من أن الخريطة نفسها كانت تنير كل شيء آخر في الغرفة، والموجودين فيها أيضاً، إلا أنها بدت غارقة في ظل داكن.

تابع رئيس الجلسة بصوت خافت وأجشّ: "قبل أربعين دقيقة، التقطت إحدى محطّاتنا رسالة لاسلكية من فوق الصحراء الكبرى".

مدَّ يده إلى جيبه، وأخرج مؤشراً ليزرياً يُحمل باليد، ونظر نحو الخريطة. ظهرت نقطة حمراء تهتز في وسط البحر المتوسط.

"أُرسلت من هنا تقريباً".

نزلت النقطة على الخريطة، واستقرت على الزاوية الجنوبية الغربية لمصر، قريباً من تقاطع الحدود مع ليبيا والسودان، على كلمات هضبة *الجلف الكبير*.

"جاءت الرسالة من طائرة. أنتونوف مسجّلة في الكايمان، إشارة النداء في بي-سي أم تي 473".

توقف قليلاً ثم تابع قائلاً: "كانت إشارة استغاثة".

كانت هناك تحركات مضطربة على الكراسي، وتمتم بعضهم: "يا الله!".

سأل أحد المستمعين، وهو رجل قوي البنية وأصلع الرأس: "ماذا نعرف؟".

مجَّ رئيس الجلسة آخر مجّة من لفافة تبغه وضغط العقب في منفضة على الطاولة، ثمّ ردَّ: "ليس الكثير في هذه المرحلة. سأطلعكم على ما لدينا".

تكلم لخمس دقائق، يتابع خطوطاً على الخريطة بمؤشره - ألبانيا، بنغازي، عودة إلى الجلف الكبير - ويراجع بين الفينة والأخرى كومة أوراق مبعثرة أمامه. أشعل لفافة تبغ ثانية، ثم ثالثة، وأفرط بالتدخين، فأصبح الجو في الغرفة خانقاً والرائحة كريهة. عندما أنهى كلامه، بدأ الجميع يتكلمون معاً، وأصواتهم تندمج في نغمات متنافرة متداخلة لا تُفهم منها أي كلمات معينة، فقط أنصاف جمل: *عرفت أنه أمر جنوني! صدّام! الحرب العالمية الثالثة! إيران كونترا! كارثة لعينة، هدية إلى الخميني!*... لكن، لا يمكن فهم شيء مفيد منها.

وحدها المرأة التزمت الصمت، تستغرق في أفكارها وتنقر بقلمها على الطاولة قبل أن تقف على قدميها، وتتوجه إلى الخريطة وتحدّق إليها. كوّن جسدها ظلاً ضئيلاً، وتوهج شعرها الأشقر القصير في ضوء المصباح.

قالت: "يجب أن نعثر عليها".

بالرغم من أن صوتها كان خافتاً يُسمع بصعوبة في وسط صخب حجج الذكور والحجج المضادة، إلا أنه بدا حازماً ويحمل مسحة سلطوية

ثارت اهتمامهم. هدأت أصوات المتكلمين الآخرين حتى أطبق الصمت على الغرفة.

كرّرت قائلةً: "يجب أن نعثر عليها قبل أن يفعل أحد آخر ذلك. أفترض أن إشارة الاستغاثة قد أُرسلت على موجة مفتوحة؟".

أقرَّ رئيس الجلسة ذلك.

"إذاً، يجب أن نبدأ العمل".

سأل الرجل الأصلع قوي البنية: "وكيف تقترحين بالتحديد أن نفعل ذلك؟ نتصل بمبارك؟ نضع إعلاناً في الصحف؟".

كانت نبرة صوته تهكمية وخلافية، لكن المرأة لم تنـزعج منها.

قالت وهي لا تزال تحدّق إلى الخريطة وتدير ظهرها إلى مَن في الغرفة: "نتكيّف ونرتجل. تصوير بأقمار صنعية، تدريبات عسكرية، اتصالات محلية. لدى ناسا وحدة أبحاث في ذلك الجزء من العالم. نستخدم كلّ ما لدينا وبأي وسيلة نمتلكها، إن كان لا بأس بذلك معك يا بيل!".

تمتم الرجل الأصلع شيئاً، لكنه بقي بخلاف ذلك صامتاً، و لم يتكلم أحد آخر.

قال رئيس الجلسة وهو يضع مؤشره الليزري في جيبه ويرتّب أوراقه: "إذاً، اتفقنا. نتكيّف ونرتجل".

أشعل لفافة تبغ أخرى.

"ومن الأفضل أن نفعل ذلك بسرعة، قبل أن يتحول هذا كله إلى كارثة أكبر مما هي عليه الآن".

أمسك أوراقه، وغادر الغرفة يتبعه باقي أفراد المجموعة. بقيت المرأة وحدها، تضع إحدى يديها على عنقها، وتمدُّ الأخرى إلى الخريطة.

تمتمت وهي تمس بأصابعها الخريطة: "الجلف الكبير"، وأبقتها مكانها لحظة قبل أن تضع قدمها فوق مفتاح تشغيل المصباح وتضغط عليه. ضغطت إلى الأسفل بمقدم حذائها، وجعلت الغرفة تغرق في الظلام.

بعد أربعة شهور، باريس

كانوا ينتظرون كانونين في جناح فندقه حين عاد من النادي الليلي. في اللحظة التي دخل فيها عبر الباب قتلوا حارسه الشخصي برصاصة واحدة بكماء في صدغه فسقط أرضاً، والتف معطفه الذي يصل إلى كاحليه حوله في كومة من جلد أسود. بدأت إحدى الغانيتين تصرخ، فأطلقوا رصاصة أيضاً من نوع دمدم 9 ملم في أذنها اليمنى، وانفجر الجانب الأيسر برّمته من رأسها مثل قشرة بيضة تبعثرت. لوّحوا بمسدس إلى رفيقتها ليوضّحوا أنها إذا تفوهت بكلمة، فإن الشيء نفسه سيحدث لها، وأرغموا كانونين على الاستلقاء على بطنه وشدّوا رأسه إلى الخلف حتى أصبح يحدّق إلى السقف. لم يكلف نفسه عناء المقاومة، فقد عرف من يكونون وأنه لا طائل من ذلك.

سعل: "أنهوا الأمر فحسب".

أغمض عينيه ينتظر الرصاصة. وبدلاً من ذلك، سمع خشخشة أوراق ثم شعر بشيء - أشياء كثيرة - تطقطق على وجهه. فتح عينيه بسرعة مجدداً، ورأى فوقه فتحة كيس ورقي يتدفق منها سيل منتظم من كريات فولاذية بحجم حبات البازيلاء.

"ما هذا...؟".

شُدَّ رأسه إلى الخلف بقوة أكبر وضغطت ركبة على مركز عموده الفقري، وأطبقت يدان ضخمتان مثل ملقط على جبينه وصدغيه.

"يدعوك السيد جرجس لتناول الطعام معه".

أطبقت يدان أخريان على فمه، فأبعدتا فكّيه عن بعضهما بالقوة، وفتحت شدقيه، واقترب الكيس من وجهه حتى تدفقت الكريات المعدنية مباشرة داخل فمه، وجعلته يغص. كافح وتلوّى، سُمِعت صرخاته مثل قرقرة صامتة، لكن الأيدي ثبّتته بإحكام واستمر التدفق حتى فرغ الكيس وأضحت حركته أضعف إلى أن توقفت في نهاية المطاف. ألقوا جثته على الأرضية، والكريات الفولاذية تخرج من بين شفتيه الملطختين بالدماء، ثم أطلقوا رصاصة على رأسه ليتوثقوا فقط. ومن دون أن يلقوا حتى نظرة إلى الفتاة التي تتكور على نفسها بجانب الجدار، غادروا

المكان. كانوا يشقون طريقهم بسرعة في حركة سير الفجر حين تردد صدى صرخاتها الجنونية فجأةً في أرجاء الفندق.

الصحراء الغربية، بين الجلف الكبير وواحة الداخلة – الزمن الحاضر

كانوا آخر البدو الذين لا يزالون يقومون بالرحلة العظيمة بين الكفرة والداخلة؛ رحلة ذهاب وإياب يقطعون فيها 1400 كيلومتر في صحراء خاوية. لم يكونوا يستخدمون إلا الجمال للنقل، ويحملون زيت النخيل، والمطرّزات، والفضة، والملابس الجلدية في طريق الذهاب، ويعودون بالتمور، والتوت، المجفّف، ولفائف التبغ، والكوكا-كولا.

لم تكن مثل تلك الرحلة منطقية من الناحية الاقتصادية، لكن الأمر لا يتعلق بالاقتصاد وحده، إنما بالتقليد، وإبقاء الطرق القديمة حية، والسير على طرق القوافل العتيقة التي سلكها آباؤهم، وأجدادهم من قبلهم، وأسلافهم قبل ذلك، وعاشوا حيث لا يستطيع أحد غيرهم العيش، وتجوّلوا حيث لا يمكن لأحد غيرهم التجوّل. كانوا أشخاصاً شديدي البأس، فخورين بأنفسهم، وهم بدو الكفرة وسنوسيون، ينحدرون من بني سليم. كانت الصحراء بيتهم، والسفر في أرجائها حياتهم، حتى إن لم يكن ذلك يبدو منطقياً من الناحية الاقتصادية.

كانت تلك الرحلة الخاصة صعبة حتى بمعايير الصحراء القاسية، حيث لا رحلة سهلة أبداً. من الكفرة، انقضت رحلتهم باتجاه الجنوب الشرقي إلى الجلف الكبير وعبر ثغرة العقبة – سيأخذهم الطريق المباشر شرقاً إلى بحر الرمال الكبير الذي يخشى عبوره حتى البدو – من دون وقوع حوادث تُذكَر.

ثم، على الحافة الشرقية للثغرة، كانوا قد اكتشفوا أن البئر الإرتوازية التي يملأون منها عادة قِرَبهم قد جفّت، ولم يبقَ لديهم إلا كمية محدودة من الماء بالكاد تكفيهم لمسافة الثلاث مئة كيلومتر الباقية. بدا ذلك مبعثاً للقلق، لكنه لا يمثّل كارثة، وتابعوا طريقهم باتجاه الشمال الشرقي إلى الداخلة من دون أي إحساس كبير بالخطر. بعد يومين، على أيّ حال، وقبل ثلاثة أيام من وصولهم إلى

مقصدهم، ضربتهم عاصفة رملية هوجاء؛ *الخماسين* التي يخشاها الجميع. أُرغموا على أن يجثموا في أماكنهم مدة 48 ساعة حتى انقشعت عنهم، وتضاءلت كمية المياه المتوافرة معهم في أثناء ذلك حتى نفدت تقريباً.

بعد انقشاع العاصفة آنذاك، بدأوا يتحركون مجدداً، واندفعوا مسرعين ليقطعوا المسافة الباقية قبل أن ينفد الماء منهم نهائياً، وجمالهم تسير في الصحراء بسرعة أقل من الهرولة بقليل، تحثّها صرخات "*هوت! هوت!*" و"*يلا! يلا!*".

بدا البدو عاقدي العزم على الوصول إلى نهاية رحلتهم في أسرع وقت ممكن، لذا، كانوا سيغفلون بكل تأكيد تقريباً عن الجثة لو أنها لم تظهر في دربهم مباشرة. متيبّسة مثل تمثال، برز الجزء الذي يعلو خصرها من كُثَيِّب، تفغر فاها، وتمد ذراعاً؛ كأنها تناشدهم المساعدة. صرخ الخيّال الذي يتقدّمهم، فأبطأوا سرعتهم حتى توقفوا، وجعلوا جمالهم تجلس على الرمل وترجّلوا عنها، ثم تجمّعوا لإلقاء نظرة، سبعة منهم، يلفّون *شالات* حول رؤوسهم ووجوههم اتقاءَ الشمس، فلا تظهر إلا عيونهم.

كانت جثة رجل، ولا شك في ذلك، محفوظةً على نحو ممتاز في أحضان الصحراء الميبّسة، وقد جفّ جلدها، واشتد مثل رق، وبدت العينان متغضّنتين في محجريهما وقد تحوّلتا إلى كتلتين صلبتين تشبهان زبيبتين.

قال أحد الخيّالة- يتكلم بعربية *بدوية*- بصوتٍ أجش وخشن مثل الصحراء نفسها: "لا بد من أن العاصفة قد كشفتها".

بإشارة من قائدهم، جثا ثلاثة من البدو على ركبهم، وبدأوا يبعدون الرمل عن الجثة، ويحرّرونها من الكُثَيِّب. كانت الثياب - الحذاء، السروال، والقميص، وقميصها طويلُ الرُّدنِ - أسمالاً؛ وكأن صاحبها قد اجتاز رحلة شاقة. رأوا قارورة بلاستيكية لا تزال معلّقة في إحدى يدي الجثة، فارغة، وقد اختفى الغطاء اللولبي، والحافة محزّزة ما بدا أنها علامات أسنان؛ كأن الرجل قد مضغ البلاستيك في يأسه، وعض على نحو ميؤوس منه لإخراج أي قطيرة رطوبة بقيت في الداخل.

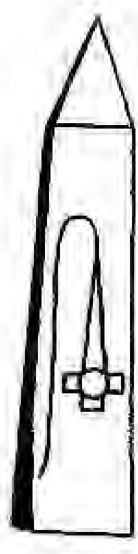
سأل أحد البدو متشككاً: "أهو جندي؟ من الحرب؟".

هزَّ القائد رأسه، وجلس القرفصاء، ونقر على ساعة رولكس إكسبلورير حول رسغ الجثة الأيسر وخدشها قائلاً: "أحدث من ذلك. *أمريكاني*".

لم يستخدم الكلمة على نحو خاص، لكن للدلالة على أي شخص غربي، غير عربي المظهر.

سأل رجل آخر: "ماذا يفعل هنا؟".

هزّ القائد كتفيه، وأدار الجثة نحو مقدمتها، وشدّ حقيبة قماشية من كتفها وفتحها، ثم أخرج خريطة ومحفظة وآلة تصوير وشهابي إشارة وبعض الطعام المعلّب، وأخيراً، منديلاً مكوّراً. فرّده وكشف عن مسلّة صغيرة من صلصال، غير متقنة الصنع ولا يزيد طولها عن إصبعه. حدّق إليها، وقلّبها إلى هذا الجانب وذاك، يفحص الرمز الغريب الذي توجد نقوش على وجوهه الأربعة: نوعٌ من صليب تتطاول ذراعه العليا إلى نقطة يخرج منها خط رفيع على شكل حلقة تلتف إلى الأعلى ثم تهبط مثل ذيل. لم يعنِ النقش شيئاً له، وكوّره في المنديل مجدداً، ووضعه جانباً وركّز اهتمامه على المحفظة. وجد فيها بطاقة شخصية تحمل صورة شاب أشقر الشعر تظهر ندبة كبيرة بموازاة شفته السفلى. لم يستطع أحد من البدو قراءة الكتابة على البطاقة، وبعد النظر إليها لحظة، أعادها القائد والأشياء الأخرى إلى الحقيبة. بدأ يربت على جيوب الرجل، وأخرج بوصلة وعلبة بلاستيكية صغيرة في داخلها لفّة فيلم آلة تصوير، وضعها أيضاً في الحقيبة، قبل أن ينتزع الساعة من رسغ الرجل، ويضعها في جيب جلابيته وينهض على قدميه.



قال، وهو يرمي الحقيبة على ظهره ويتجه عائداً إلى الجمال: "لنذهب من هنا".

ناداه أحد الرجال من خلفه: "ألا يجب أن ندفنه؟".

جاء الرد: "ستفعل الصحراء ذلك. يجب أن نتابع طريقنا".

تبعوه نزولاً على الكُثَيِّب واعتلوا جمالهم، وركلوها بأقدامهم لجعلها تقف. عندما تحرّكوا، استدار آخر خيّال - رجل هزيل ذابل تظهر على جلده آثار بثور الجدري - على سرجه ونظر إلى الوراء، يحدّق إلى الجثة تتقهقر ببطء خلفه. عندما أضحت مجرد كتلة مشوشة في الصحراء التي تخلو من أي علامة باستثنائها، تحسّس داخل طيّات جلابيته وأخرج هاتفاً خلوياً. أبقى عينه على الخيّالة أمامه ليتوثق من أنّ أحداً منهم لا ينظر إليه، ثم ضغط على لوحة المفاتيح بإبهام نحيلة. لم يحصل على إشارة، وبعد أن حاول عدّة مرات استسلم وأعاد الهاتف إلى جيبه.

صرخ وهو يدفع عقبيه بخاصرتي الجمل اللتين تهتزان: *"هوت! هوت! يلا! يلا!"*.

كاليفورنيا، متنزّه يوسمايت الوطني

كان الجدار الصخري القائم الذي يبلغ ارتفاعه خمس مئة متر يتطاول فوق وادي ميرسد مثل موجة عارمة من حرير صقيل رمادي، وكانت فريا هانين على بعد خمسين متراً فقط من قمته حين أزعجت عش الدبابير.

كانت قد داست على تجويف صخري صغير قرب قمة نقطة تثبيتها العاشرة، ومدّت يدها إلى الحافة تتحسّس مكاناً حول جذور شجيرة عتيقة حين ضغطت على العشّ عن غير قصد، وانبثقت سحابة من الحشرات من تحت الشجيرة وطنت بغضب حولها.

كانت الدبابير مبعث خوفها الرئيس، ولطالما بقيت كذلك منذ أن لسعها أحدها في فمها وهي صغيرة. بدا ذلك خوفاً سخيفاً، نظراً إلى أنها تكسب رزقها من تسلق بعض أخطر السطوح الصخرية في العالم، لكن الرعب نادراً ما يكون منطقياً. كانت شقيقتها ألكس تخاف الإبر والحقن، في حين أن فريا تخشى الدبابير.

تجمّدت، وتقلّصت معدتها، وأضحت أنفاسها لهاثاً قصيراً مذعوراً، والهواء حولها شبكة من سترات صفراء تتحرك بسرعة، ثم لسعها أحدها في ذراعها. لم تستطع منع نفسها، وانتزعت ذراعها عن الحافة واستدارت مبتعدة عن الجدار الصخري، فخفق حبلها الرئيس بقوة، وبدا أن غابة الصنوبر التي تبعد 450 متراً من الأسفل ترتفع بسرعة نحوها. تأرجحت لحظة، تتعلّق بيدها وقدمها اليمنيين، وطرفاها الأيسران يتحركان في الهواء، وخشخشت الحلقات المعدنية والحدبات في عدّتها، ثم صكّت أسنانها وحاولت أن تتجاهل الشعور الحارق في ذراعها، ودفعت نفسها عائدة إلى الجدار الصخريّ فأطبقت يدها حول صخرة بارزة، ثم دفعت نفسها إلى الغرانيت الدافئ كأنه حضن حبيب آمن. بقيت على تلك الحال ما بدا أنه دهر طويل، أبقت عينيها مغمضتين، وقاومت الرغبة في الصراخ، منتظرة أن تهدأ الدبابير وتبتعد، ثم انتقلت بسرعة إلى يمينها تحت الحافة الناتئة، وتسلّقت إلى الأعلى حتى وصلت إلى جانب شجرة صنوبر قزمة تميل إلى الخارج من الصخرة مثل ذراع متغضّنة. ثبّتت نفسها هناك وجلست على الجذع تلهث.

قالت: "اللعنة". لهثت، ثم من دون سبب واضح صرخت: "أليكس".

كانت قد انقضت إحدى عشرة ساعة منذ تلقّت المكالمة في شقتها في سان فرانسيسكو حين سمعت صوتها، بعد منتصف الليل تماماً، فجأة، ومن دون سابق إنذار، بعد كل تلك السنين. مرة، في مرحلة باكرة من مهنتها في التسلق، كانت قدمها قد زلّت وسقطت عن واجهة صخرية على ارتفاع مئتي متر، وهبطت مصابة بدوار عبر مساحة مكشوفة قبل أن يثبتها حبلها ويحملها. بدا الشعور نفسه حين تلقّت المكالمة: إنه إحساس أوّلي بالدوار مع ذهول وعدم تصديق، مثل الهبوط من ارتفاع عالٍ، تتبعه هزّة إدراك مقزّزة.

كانت قد جلست في الظلام بعد ذلك، تصل إليها أصوات آخر الليل من مشارب الشاطئ الشمالي ومقاهيه عبر النوافذ المفتوحة، ثم تصفّحت الإنترنت وحجزت لنفسها مقعداً على متن رحلة قبل أن تضع بعض الملابس في حقيبة، وتوصد الشقة وتنطلق مسرعة في سيارتها المتهالكة من طراز ترايمف بونيفيل. وصلت بعد ثلاث ساعات إلى يوسمايت، وبعد ساعتين من ذلك، عندما أشرقت

خيوط الفجر الوردية الأولى على ذرى سيرا نيفادا، كانت عند قاعدة ليبرتي كاب، مستعدة لتبدأ تسلقها.

كان ذلك ما تفعله دائماً في أوقات الشدّة، إذ حين تحتاج إلى تصفية ذهنها، تتسلق. كانت الصحارى اختصاص ألكس: مساحات شاسعة، جافة، خاوية، مجرّدة من الحياة والصوت؛ في حين أن الجبال والصخور اختصاص فريا: تضاريس صعبة وعمودية يمكن أن تتسلّقها إلى الأعلى نحو السماء، وتدفع ذهنها وجسدها إلى أقصى حدودهما. بدا من المستحيل أن تفسر الأمر إلى أولئك الذين لم يختبروه قط، ولا حتى أن تفسّره لنفسها. كان أقرب ما استطاعت الوصول إليه ما قالته في مقابلة أُجريت مع إحدى المجلات: "عندما أتسلق إلى الأعلى أشعر بأنني أكثر حيوية؛ كأنني في الوقت المتبقي شبه نائمة".

كانت آنذاك، أكثر من أي وقت مضى، بحاجة إلى السَّكينة والصفاء اللذين يسبغهما التسلق عليها. كان أول ما خطر لها، في أثناء انطلاقها شرقاً على طول الطريق العام 120 نحو يوسمايت، هو التسلق الحر على أحد المسارات؛ إنه أمر قاسٍ حقاً، تعاقب به نفسها: فري-رايدر على القبطان، ربما، أو أستروما على عمود واشنطن.

ثم بدأت تفكر في قمة ليبرتي، وكلما أمعنت التفكير فيها، بدت أكثر جذباً لها.

لم تكن خياراً واضحاً، وأقسام منها تُتَسلَّقُ بالمساعدة، تحتاج إلى معدات إضافية وتحرمها من النقاء المطلق للتسلق الحر، وهي تقنياً ليست صعبة حقاً، ليس بمعاييرها، ما يعني أنها لن تضغط على نفسها بقوة كما تريد: ليس إلى الحافة وما خلفها.

مقابل ذلك، كان أحد تحدّيات يوسمايت الذي لم تُقدم عليه من قبل، والأهم على الأرجح، الواجهة الصخرية الوحيدة التي لن تكون مغطاة في ذلك الوقت من السنة بزمرة من متسلقين آخرين، ما يضمن السَّكينة والعزلة المطلقتين: لا أحد يتحدث إليها، أو يحاول التقاط صور لها، ولا هواة يسدّون طريقها ويبطئون تقدمها. لن يكون هناك أحد سواها والصخر والصمت.

كانت جالسة على النتوء الصخري آنذاك، وشمس منتصف النهار تدفئ وجهها، وذراعها لا تزال تؤلمها من لسعة الدبور، فتناولت جرعة من قارورة الماء التي أخرجتها من حقيبتها وحدّقت نحو الأسفل إلى الطريق الذي ارتقته منذ قليل.

وبغض النظر عن بعض أقسام التسلق بمساعدة معدّات، لم تنطوِ على كثير من متاعب. ربما كان متسلق أقل خبرة سيستغرق يومين ليصل إلى القمة، ويمضي الليل على صخرة بارزة في منتصف الطريق إلى الأعلى، لكنها ستنهي تسلقها في أقل من نصف الوقت، وستصل في ثماني ساعات على الأكثر.

لم يسعها بالرغم من ذلك إلا أن تشعر بخيبة أمل؛ لأن الطريق لم يمتد بها مسافة أطول، ويأخذها إلى تلك الهضبة الشاهقة المدهشة التي لا يمكن الوصول إليها إلا ببذل جهد بدني وذهني كبير. كانت المناظر من ذلك الارتفاع رائعة جداً، والإحساس بالعزلة تاماً إلى درجة أن بمقدورها أن تنسى الافتقار إلى التحدّي. نعم، كما فكرت، كانت قمة ليبرتي ما تحتاج إليه تماماً في تلك الظروف. معلّقة بحبل تثبيت، مدّت ساقيها الطويلتين، السمراوين، والنحيلتين، وفركت عضلاتهما، وشدّت مقدّمتي حذاء التسلق أناسازي لتريح قدميها وقصبتيها. وقفت بعد ذلك واستدارت، ونظرت إلى الصخر فوقها مستعدة لتبدأ الجزء الحادي عشر والأخير من تسلقها الذي تبلغ مسافته خمسين متراً إلى القمة.

تمتمت، وهي تفرك طباشيرَ على يديها من حقيبة إلى خصرها: "أليه، أليه"، ثم كأنها تحمّست من تكرار تلك الكلمة "ألكس" مجدداً، لكن صوتها ضاع تماماً في هدير شلالات نيفادا في الأسفل.

لاحقاً، عندما عادت إلى الأسفل إلى درّاجتها النارية، بعد الانتهاء من التسلق، التقت مصادفة بعضَ الرجال الذين تعرفهم، جرذان أسوار مثلها، وكان أحدهم وسيماً جداً بالرغم من أن ذلك كان في تلك اللحظة آخر شيء يخطر في بالها. تحدّثوا بعض الوقت، ووصفت فريا تسلقها وسُئِلت: "أتسلقتِ قمة ليبرتي وحدك؟ يا للهول! ذلك أمر رائع!"، ذلك قبل أن تنهي الحديث، وتشرح أن عليها اللحاق برحلة جوية.

سأل الوسيم: "مكان جميل؟".

أمالت الدراجة حيث أوقفتها وجلست على المقعد. ردّت، وهي تشغّل المحرك وتزيد عدد دوراته: "مصر".

"للتسلق؟".

عشّقت تروس الدراجة: "من أجل جنازة شقيقتي".

وانطلقت بعد ذلك، وشعرها الأشقر يتطاير خلفها مثل شعلة.

القاهرة – فندق ماريوت

عدّل فلين برودي نظارته الخاصة بالقراءة وحدّق إلى الحضور: أربعة عشر سائحاً أمريكياً طاعنين في السن يتوزّعون على خمسين كرسياً أو نحو ذلك أمامه، ولا أحد منهم يبدو مهتماً تماماً بما يقوله. ألقى دعابة عن سعادته؛ لأنهم استطاعوا العثور على مقعد، ما أثار قهقهة صديقته المرشدة السياحية مارغوت، لكنها قوبلت بخلاف ذلك بنظرات تخلو من أي معنى.

يا الله! قال في سرّه وهو يتحسس بعصبية ما يوجد في جيب سترته المخملية. *ستكون إحدى تلك المناسبات.*

حاول مجدداً، وشرح أن سنواتٍ من العمل، بصفته عالم آثار في الصحراء الغربية، قد جعلته معتاداً على المساحات الكبيرة الخالية. مجدداً، كان وقع الدعابة مريعاً جداً، وبدت حتى ضحكة مارغوت الداعمة متكلّفة. تخلّى عن ذلك، وضغط زراً على لوحة مفاتيح *حاسوبه* المحمول ليفتح نافذة برنامج عرض الشرائح - مشاهد لكثبان رملية تتقلص أحجامها في بحر الرمال الكبير - وكان على وشك أن يبدأ المحاضرة حين فُتح الباب يطقطق على جانب الغرفة. مال رجل بدين - بدين جداً - يرتدي سترة عاجية اللون ويضع ربطة عنق فراشية الشكل.

"هل تسمح لي؟". كان الصوت حاداً على نحو غريب، أنثوياً تقريباً، بلهجة أمريكية من أقصى الجنوب. ألقى فلين نظرة على مارغوت، التي هزّت كتفيها كأنها تقول: "لِمَ لا؟"، فلوّح للرجل أن يتقدم. أغلق الوافد الجديد الباب وجلس على أقرب كرسي إليه، وأخرج منديلاً مسح به جبينه. سمح فلين له أن يستقر في مكانه، ثم تنحنح، وبدأ يتكلم *بلهجته* الإنكليزية، وبأسلوب مختصر وواضح.

أخبرهم: "قبل عشرة آلاف سنة، كانت الصحراء الكبرى مكاناً مضيافاً أكثر مما هي عليه اليوم. كانت صور الرادار لمنطقة سليمة الرملية، التي التقطها المكوك الفضائي كولومبيا، قد كشفت طوبوغرافيا نهرية. كانت تلك بيئة تشبه السافانا أدنى الصحراء الكبرى الأفريقية في العصر الحديث".

الشريحة الآتية: متنزّه سرنجيتي الوطني في تنزانيا.

"كانت هناك بحيرات، أنهار، غابات، مراعٍ... موطن كثير من الأحياء البرية: غزلان، زرافات، حمير وحشية، فيلة، وحيد قرن. وبشر أيضاً؛ معظمهم صيادون وجامعو ثمار متنقلون، لكن هناك دليلاً على وجود مستوطنات أكثر ديمومة من العصرين الحجريين الأوسط والحديث".

"ارفع صوتك!".

صدر هذا الأمر عن امرأة في آخر القاعة، تضع معيناً سمعياً على أذنها مثل صدفة بلاستيكية.

قال فلين في سرّه: *لماذا بحق الله تجلسين في الخلف إن لم تكوني تسمعين جيداً؟*

ثم قال بصوتٍ عالٍ: "آسف، هل هذا أفضل؟".

لوّحت المرأة بعكّازٍ لتشير إلى أنه أفضل.

كرّر محاولاً أن يمسك طرف خيط ما كان يقوله: "مستعمرات أكثر ديمومة من العصر الحجري. هضبة الجلف الكبير في جنوب غربي مصر - منطقة مرتفعة تغطي مساحة بحجم سويسرا - غنية خاصة بآثار من تلك الحقبة، مادية و...".

شرائح عرض، على التوالي، لمنحدرات برتقالية اللون شاهقة، وحجر شحذ ومجموعة من الأدوات الصوّانية.

"... لكنها خاصة بالقرابين وقطع فنية أيضاً. ربما يعرف بعضكم فيلم *المريض الإنكليزي*، الذي يعرض رسوماً جدارية لما قبل التاريخ في ما يدعى كهف السبّاحين، الذي اكتشفه المستكشف الهنغاري لاديسلوس ألماسي في العام 1933 في وادي صورة، على الحافة الغربية للجلف".

ظهرت صورة للكهف: شخصيات حمراء متطابقة برؤوس بصلية الشكل وأوصال تشبه العصي يبدو أنها تسبح وتغوص على الجدران الجيرية غير المستوية.

"هل رأى أحدكم الفيلم؟".

صدرت تمتمات: "لا"، أقنعته ألاّ يزعج نفسه بسرد النقد الموجز للفيلم الذي يسرده عادة في تلك المرحلة. بدلاً من ذلك مضى قدماً في حديثه.

قال: "في نهاية العصر الجليدي الأخير تقريباً، في الحقبة الهولوسينية الوسطى، نحو العام 7000 قبل الميلاد، تعرضت هذه البيئة التي تشبه السافانا إلى تغيير مثير للاهتمام. عندما تراجعت الطبقة الجليدية الشمالية وساد القحط، اختفت السهول

الخضراء والأنظمة النهرية لتحل محلّها البيئة التي نراها اليوم. أُرغمت شعوب الصحراء على الهجرة شرقاً نحو وادي النيل...".

شريحة عرض لمشاهد من النيل.

"... حيث تطوّرت حضارات متنوعة ما قبل السلالات - تايزي، بدري، نقادة - التي اتحدت في نهاية المطاف لتكوّن دولة واحدة موحدة؛ مصر الفرعونية".

كان أحد المستمعين، كما لاحظ فلين، رجلاً بارز الأذنين يعتمر قبعة فريق نيويورك متس لكرة القاعدة وقد بدأ يغفو آنذاك، ولم يكن حينها قد أنهى حتى مقدمة حديثه. يا للهول! كان بحاجة إلى شراب.

تابع وهو يمرر يده عبر شعره الأسود الأشعث: "لقد سافرت في الصحراء الكبرى، ونقّبت فيها عن الآثار طوال أكثر من عقد. قمت بذلك أساساً في مواقع في الجلف الكبير وحولها. في هذه المحاضرة، أتمنى أن أعرض عليكم ثلاث نظريات بناءً على عملي؛ ثلاث نظريات خلافية".

شدّد على كلمة خلافية، ونظر إلى الحضور بحثاً عن أي علامة على الاهتمام. لكن، لا شيء، ولا حتى نظرة خاطفة. هل كان يتكلم عن زراعة الخضار؟! أحسَّ بأن أداءه سيكون أفضل على الأرجح إن فعل ذلك. يا *للهول!* يحتاج إلى شراب.

تابع وهو يكافح ليبدو متحمساً: "أولاً، أظن أنهم حتى بعد أن هاجروا شرقاً إلى وادي النيل، لم ينسَ سكان الصحراء الكبرى القدماء موطنهم الصحراوي الأصلي تماماً؛ الجلف خاصة، بجروفه الصخرية الرائعة ووديانه العميقة، واستمروا بفرض تأثيرهم الديني القوي وخرافاتهم في الهجرة المصرية الباكرة، وبقيت ذكراها حية، وإن يكن على نحو رمزي، في عدد من الأساطير والتقاليد الأدبية وأهمها تلك المتعلقة بسيّدي الصحراء آش وست".

شريحة عرض سيد الصحراء ست؛ جسد إنسان يعلوه رأس حيوان غير محدد ذو أنف طويل وأذنين مدببتين.

"ثانياً، أنوي أن أبرهن أن المصريين القدماء لم يحفظوا ذكريات موطنهم السابق في الجلف الكبير فحسب، إنما، وبالرغم من المسافات الشاسعة، حافظوا على تواصل حقيقي معه أيضاً، وعادوا على أوقات متباعدة عبر الصحراء للعبادة في مواقع ذات صبغة دينية وأهمية عاطفية خاصة.

يبدو أن أحد الوديان الخاصة - ما يسمّى *بويت سيشتات* أو الواحة الخفية - يتمتع بمهابة مميزة. بالرغم من أن الدليل هزيل، إلا أن هذا الموقع الأخير بقي على ما يبدو مركزاً دينياً مهماً حتى نهاية المملكة القديمة تقريباً، بعد ألف سنة من ظهور مصر بصفتها دولة موحدة".

كان المستمع الذي يوشك أن يغفو، كما لاحظ فلين، يغط في النوم آنذاك، ورفع صوته بضعة ديسبلات أخرى في محاولة لا طائل منها لإيقاظه فزعاً من نومه.

تابع بصوت يقارب الصراخ: "أخيراً، سأجادل أن هذا الوادي الغامض الذي لم يُكتشف حتى الآن يمثّل إلهاماً ونموذجاً لسلسلة كاملة من أساطير لاحقة عن واحات الصحراء الكبرى المفقودة، وأهمها زرزورة أطلنتس الرمال، التي أمضى لاديسلوس ألماسي المذكور آنفاً معظم حياته المهنية في البحث عنها، ولكن من دون جدوى".

آخر شريحة عرض في المقدمة؛ صورة مشوشة بالأبيض والأسود لألماسي يرتدي سروالاً قصيراً ويعتمر قبعة عسكرية، والصحراء تمتد بعيداً خلفه.

قال: "إذاً، سيداتي وسادتي، أدعوكم للانضمام إليّ في رحلة استكشاف؛ الخروج إلى الصحراء والعودة بالزمن إلى الوراء، والبحث عن مدينة معبد الجلف الكبير المفقودة منذ أمدٍ بعيد".

سكت عن الكلام، ينتظر رداً، أو أي رد فعل.

جاء صوت من آخر القاعة: "لا داعي إلى الصراخ. نحن لسنا صُمّاً، كما تعرف!".

هراء، كما قال فلين في سرّه.

تابع بجهد حتى نهاية محاضرته، يهمل ويحذف كلما استطاع حتى تمكن من إنهاء ما كان يلقيه عادة في تسعين دقيقة في مدة لا تتجاوز الخمسين. ومقارنة بمعظم زملائه من علماء الآثار المصرية، كان يعدُّ خطيباً مفوّهاً، يمكنه أن يجعل موضوعاً جافاً ومعقداً مفعماً بالحيوية، ويثير اهتمام الناس، ويبث الحماسة فيهم. في تلك الحال، بدا واضحاً أن تأثير أي حذف أو تبسيط محدود جداً. في منتصف المحاضرة، وقف زوجان وغادرا الغرفة، وبحلول نهايتها كان أولئك الذين بقوا يتململون على نحو ظاهر وينظرون إلى ساعاتهم. نام الرجل بارز الأذنين بهدوء

طوال المحاضرة، ورأسه يتكئ على كتف زوجته. بدا الوافد المتأخر البدين الـذي يضع ربطة عنق فراشية الشكل مهتماً كثيراً. كان يمسح بين الفينة والأخرى جبينه بمنديله، ويركّز بثبات على الإنكليزي، وعيناه تلمعان إثارة.

قال فلين، وهو يعرض آخر شريحة في حديثه؛ وهي عبارة عن منظـر آخـر للجانب برتقالي اللون الشاهق من الجلف الكبير: "في الختام، لم يُعثر على أي أثـر *لواحة سيشتات*، أو زرزورة، أو أي من الواحات الأسطورية المفقودة في الصحراء الكبرى".

استدار قليلاً، ونظر نحو الأعلى إلى شريحة العرض، ثم ابتسم بكآبة كأنه يشير إلى شريك له منذ وقت طويل. بدا لحظة أنه يغرق في أفكاره قبل أن يهـز رأسـه ويستدير عائداً بنظره إلى الحضور.

"لقد جادل أشخاص كثيرون أن فكرة وجود واحة مفقودة بحدّ ذاتها مجـرد فكرة، حلم، شيء من نسج الخيال، وليست واقعية أكثر من سراب صحراوي.

آمل أن يقنعكم الدليل الذي قدّمته الليلة أن *واحة سيشتات*، موجودة حقـاً، وأن المصريين القدماء كانوا يعدّونها مركزاً دينياً ذا أهمية فائقة.

يبقى كشف موقعها قضية أخرى. ألماسي، باغنولد، كلايتون، نيوبولـد... كلهم تجولوا في الجلف الكبير وعادوا خالي الوفاض. في أوقات أكثـر حداثـة، لم تكن صور الأقمار الصنعية والمسح الجوي قد كشفت شيئاً أيضاً".

مجدداً ألقى نظرة نحو الأعلى إلى الشريحة المعروضة، ومرة أخرى ابتسم تلـك الابتسامة الكئيبة.

قال وهو ينظر إلى الحضور مجدداً: "وربما الوضع أفضل بتلك الطريقة. لقـد خضع معظم كوكبنا للدراسة الآن ووُضعت له خرائط واستُكشف، وجُـرّد مـن سحره، ما يجعل العالم بطريقة ما مكاناً أكثر إثارة للاهتمام حين نعرف أن جـزءاً صغيراً منه على الأقل لا يزال خارج متناول أيدينا. حالياً، تبقى *واحة سيشـتات* على تلك الحال بالتحديد واحة خفية. شكراً لكم".

جلس وسمع بعض التصفيق الخجول. كان الرجل البدين هو الشخص الوحيد الذي أظهر بعض الإعجاب الحقيقي، وصفّق بقوة قبل أن ينهض ويلوّح شاكراً ثم يخرج من الباب. وقفت مارغوت صديقة فلين، وتقدمت إلى مقدمة القاعة.

قالت، مخاطبة الحضور بصوتٍ عالٍ؛ كأنها مديرة مدرسة: "يا له من حديث ممتع تماماً! أتمنى من جانبي أن نذهب مباشرة إلى الحافلة، وننطلق بها إلى الجنف الكبير لإلقاء نظرة متفحّصة عليه".

صمت.

"لقد وافق الأستاذ برودي الآن على الإجابة عن أي أسئلة قد تهتمون بطرحها. كما قلت من قبل، إنه أحد المراجع العالمية البارزة في علم آثار الصحراء الكبرى، مؤلف كتاب ***دشرت: مصر القديمة والصحراء الغربية***، وأسطورة في مجاله، أو ربما يجب أن أقول إنه أسطورة في بحر الرمال! لهذا استغلوا هذه الفرصة".

أطبق الصمت مجدداً، ثم تكلم الرجل بارز الأذنين بصوتٍ عالٍ: "أستاذ برودي، هل تظن أن توت عنخ آمون قد اغتيل؟".

بعد ذلك، عندما خرج السياح لتناول الغداء، جمع فلين ملحوظاته وحاسوبه المحمول، في حين راحت مارغوت تتمشى بجانبه جيئةً وذهاباً.

قال: "لا أظن أنهم اهتموا كثيراً".

أصرّت مارغوت: "هراء، لقد... حظيت باهتمامهم بالتأكيد".

كان قد ألقى المحاضرة معروفاً لها فقط، فهما صديقان قديمان منذ أيام الجامعة، وقد حضّر لها في اللحظة الأخيرة بعد إلغاء مناسبة أخرى. عرف أنها محرجة من رد فعل مجموعتها، وتحاول التعويض عن ذلك، فمدَّ يده وضغط على ذراعها.

"لا تقلقي يا مارغ. صدّقيني، واجهت أوقاتاً أسوأ بكثير".

تنهّدت: "على الأقل لم تتحمّلهم إلا ساعة واحدة فقط. أنا سأرافقهم في الأيام العشرة القادمة. هل اغتيل توت عنخ آمون؟ يا للهول! لو أن الأرض انشقّت وابتلعتني...".

ضحك. أغلق زمام حقيبة حاسوبه المحمول، ومشى كلاهما عبر القاعة، بعد أن تأبّطت مارغوت ذراعه. عندما وصلا إلى الباب، سمعا مجموعة أصوات متنافرة لمزامير وطبول صادرة من الردهة في الخارج. توقفا وراقبا فرقة الزفة تتقدم أمامهما: كان هناك عروسان يتبعهما حشد من الأقارب الذين يصفقون، ومصوّر فيديو يمشي إلى الوراء على رأس المجموعة، وهو يعطي بعض التعليمات.

تمتمت مارغوت: "يا الله! انظر إلى فستانها. تبدو مثل رجل ثلج منتفخ".

لم يرد فلين، إذ إنّ عينيه لم تكونا تنظران إلى المتزوجين حديثاً إنما إلى نهاية المجموعة. كانت فتاة يافعة، لا تتجاوز العاشرة أو الحادية عشرة من عمرها، تثب كالطابة محاولة رؤية ما يحدث في الأمام. كانت تنبض حيوية، وجميلة، وشعرها الأسود الطويل يتطاير على وجهها، وتبدو مثل...

"هل أنت بخير يا فلين؟".

كان قد مال على إطار الباب، وأمسك بذراع مارغوت ليسند نفسه، والعرق يتلألأ على عنقه وجبينه.

"فلين!".

تمتم وهو يشد قامته ويترك ذراعها محرجاً: "أنا بخير، أنا بخير".

"لماذا شحب وجهك؟".

"أنا بخير، صدقاً، لكنني أشعر بالتعب فحسب. كان يجب أن آكل قبل أن آتي".

ابتسم، غير مقتنع تماماً.

قالت مارغوت: "اسمح لي أن أشتري لك غداءً، ولنرفع منسوب السكر في دمك. هذا أقل ما يمكنني فعله بعد ما حدث الليلة".

"شكراً يا مارغ، لكن، إذا لم يكن لديك مانع، فسأتوجّه إلى المنزل. لدي الكثير من المقالات عليّ تصحيحها".

كانت تلك كذبة، وأدرك أنها عرفت ذلك.

أضاف محاولاً التوضيح: "أشعر بأنني متوعك قليلاً. لطالما كان مزاجي كئيباً".

ابتسمت مارغوت، ثم اقتربت منه معانقة إياه.

"إن مزاجك هو ما أحبه فيك يا عزيزي فلين. ووسامتك، طبعاً. يا للهول! لو أنك تسمح لي فقط...".

اشتد العناق لحظة ثم ابتعدت عنه.

"نحن في القاهرة حتى الخميس، ثم سنذهب إلى الأقصر. سأتصل بك حين نعود؟".

قال فلين: "سأتطلع قدماً إلى ذلك، ولا تنسي أن تخبريهم كيف ترتبط الأهرامات بأوريون؛ لأنه المكان الذي جاء منه البنّاؤون".

ضحكت وتحركت مبتعدة عنه. حدّق فلين إليها، ثم نقل بصره إلى فرقة الزفة ـتي كانت تدخل آنذاك قاعة في الطرف البعيد من الردهة يتبعها المشاركون، ـ فتاة الصغيرة لا تزال تثب في نهاية المجموعة. حتى بعد كل تلك السنين، كانت ـشياء صغيرة مثل تلك لا تزال تزعجه، وتذكّره بكل شيء. لو كان بمقدوره فقط ـن يصل إلى هناك في الوقت المناسب.

ـراقب لحظة أخرى المدعوّين وهم يختفون في القاعة والأبواب تُغلق بقوة ـخلفهم، ثم عقد العزم على عدم الذهاب إلى المنزل أو تصحيح المقالات، إنما ـشرب حتى الثمالة طيلة الأمسية، فأسرع بمغادرة الفندق، وتبعه بعد عدّة دقائق ـشخص ممتلئ الجسم يمشي الهوينا ويرتدي سترة عاجية اللون.

ـحلقت فريا برحلتها بصعوبة: منتصف الليل من مطار سان فرانسيسكو الدولي إلى ـلندن، ثم رحلة أخرى إلى القاهرة. كان يجب أن يكون أمامها متسع من الوقت، لكن ـبطريقة ما، كما هي الحال دائماً حين يكون أمامها متسع من الوقت، بدا أن الساعة ـتنقضي بسرعة على نحو غامض، وتحول كل شيء إلى نشاط محموم. كانت آخر ـشخص تنهي إجراءات تسجيل التذكرة، ومن بين آخر مَن صعدوا على متن الطائرة. ـوضعت حقيبة ظهرها في الخزانة العلوية المملوءة بالحقائب ورمت بنفسها على مقعدها ـبين رجل إسباني بدين ومراهق ذي شعر سَبِط يرتدي قميص مارلين مانسون[1].

عندما أصبحت في الجو، استعرضت وسائل الترفيه على متن الطائرة: حلقات مكرّرة من مسلسل *فريندز*، كوميديا تبدو تافهة لماثيو مكونوغي، الفيلم الوثائقي ـمن *ناشيونال جيوغرافيك* عن الصحراء الكبرى، الذي كان آخر شيء ترغب في مشاهدته عند الأخذ في الحسبان سبب قيامها بتلك الرحلة. نظرت إلى اللائحة عدّة مرات، ثم أغلقت الشاشة، أمالت المقعد إلى الوراء ووضعت سمّاعتي آي-بود في أذنيها: جوني كاش، هيرت. ملائم.

---

1 برايان هيو وارنر Warner Brian Hugh، يعرف على نطاق واسع باسمه الفني أو المسرحي مارلين مانسن Manson Marilyn، مواليد 5 كانون الثاني 1969 فنان وموسيقي أمريكي اشتهر بأدائه المسرحي المثير للجدل وبحضوره كمغنٍ رئيس في فرقته الخاصة.

رحّالتان شهيرتان؛ كان والداهما قد سمّياهما تيمناً بهما. سُميت فريا ستارك، تيمناً برحالة الشرق الأوسط العظيمة، أما أختها فقد سُمّيت تيمناً بمستكشفة الهملايا ألكسندرا ديفيد-نيل. وللمفارقة، إن إحداهما لا تشبه المرأة التي سُمّيت تيمناً بها، إنما تلك التي أخذت شقيقتها اسمها منها، فأليكس مثل ستارك مغرمة بالحرارة والصحارى، في حين أن فريا مثل ديفيد-نيل تحب الجروف الصخرية والجبال.

كان والدهما قد أطلق دعابة: "لم يحدث أي شيء معكما كما هو مخطط له. كان يجب أن أبدّل اسميكما عند الولادة".

كان والدهما رجلاً ضخماً، يشبه الدب، مرحاً، أستاذ جغرافيا في بلدتهما ماركهام، فيرجينيا. وبالإضافة إلى موسيقى الجاز وشِعر والت وايتمان، كانت النشاطات في الهواء الطلق حبه الكبير، وقد اصطحبهما في رحلات استكشافية منذ سن باكرة: التنزّه في جبال بلو ريدج، التجذيف بالكانو في نهر راباهانوك، الإبحار من ساحل كارولينا الشمالية، تمييز طيور وحيوانات وأشجار ونباتات، وتعليمهما عن الطبيعة وكل ما فيها. كانتا قد ورثتا عنه روح المغامرة وافتتانه بالأماكن الغريبة، في حين ورثتا جمالهما، من ناحية أخرى - هما نحيلتان، شقراوان، عيون خضراء - من والدتهما، وهي فنانة ونحّاتة ناجحة. إضافة إلى الحُسن، أخذتا منها أيضاً بعض التحفّظ والاستبطان، وكراهية الثرثرة الفارغة وعدم حب الحشود الكبيرة. كان والدهما رجلاً اجتماعياً، يستمتع بالأحاديث والمناسبات الاجتماعية.

كانت ألكس أكبر من شقيقتها بنحو خمس سنوات، وليست فائقة الجمال مثل فريا، لكنها أكثر ذكاءً - أكاديمياً على الأقل - وأقل نكداً أيضاً. لم تكونا متلازمتين قط بالطريقة التي تكون عليها بعض الشقيقات، وفارق العمر يعني أن كلّ واحدة منهما تميل إلى سلوك طريقها الخاص والقيام بأشياء تخصها بدلاً من تمضية الوقت برمّته برفقة الأخرى.

كان منزل الأسرة الخشبي العتيق قد ضمّ كنزاً نفيساً من الخرائط، والمصوّرات الجغرافية، والأدلّة، وكتب السفر، وفي الأيام الماطرة تحمل كل منهما المجلّدات المفضلة لديها وتختفي في ركنها السري الخاص لتخطط لمغامرات

مستقبلية: ألكس في العلّية، وفريا في المنـــزل الصيفي المتداعي في آخـــر الحديقـــة. عندما كانتا تخرجان في إحدى رحلاتهما - تلك حالهما معظم الوقت - تســلكان 'يضاً اتجاهين مختلفين، فتمشي فريا أميالاً عبر غابات وبساتين فاكهة محلية، تتســلق 'شجاراً، تصنع أراجيح من حبال، تسجّل الوقت لنفسها لتقيس سرعتها في قطـــع درب للنـــزهة أو تسلق جبل، وتضغط على نفسها دائماً.

أحبت ألكس أيضاً المشي والاستكشاف، لكن في حالتها هنـــاك صـــبغة فكرية لنـــزهاتها. كانت تأخذ دفتر ملحوظات وأقلام تلوين معها، وخـــرائط، و'لة تصوير، وبوصلة عسكرية قديمة كانت تخص، كما يبدو، جندي بحرية في معركة أيوا جيما. عندما تعود إلى المنـــزل - في وقت متأخر بالتأكيـــد مـــن مساء - يكون في حوزتها ملحوظات كثيرة حول رحلتها النهارية، ورســـوم، وسجل دقيق للطريق الذي سلكته، وكل أنواع النماذج التي جمعتها في دربهـــا: 'وراق وأزهار، وصنوبر، وحجارة غريبة الشكل، وفي إحدى الرحلات التي لا تُنسى، أحضرت معها أفعى مجلجلة ميتة كانت قد علّقتها مبتهجة حول عنقها مثل وشاح.

كان والدهما قد تنهّد قائلاً: "وأنا الذي كنت أعتقد أنني أربـــي ســـيدتين شابتين. ما الذي أنجبته بحق الله إلى العالم؟".

شخصيتان مستقلتان، تخوضان دائماً مغامراتهما الخاصة، وتحاول ألكـــس رسم خريطة للعالم، في حين تجرّب فريا قهره، لكن ذلك لا يقلل من حبـــهما بعضهما. أحبّت فريا شقيقتها الأكبر سناً حباً جماً، ووثقت بها وعدّتها قدوة لها، 'خبرتها أشياء لم تقلها لأحد غيرها، ولا حتى لوالديها. شعرت ألكـــس، مـــن جانبها، بأنها مسؤولة عن حماية شقيقتها الصغرى، وكانت تتسلل إلى غرفتـــها ليلاً لتهدئتها حين تحلم بالكوابيس، تقرأ لها من كتب الأسفار والمغامرات التي تحبها، تجدّل شعرها، وتساعدها على إنهاء واجباتها المدرسية. عندما لسعَ دبورٌ فريا في فمها، وهي بعمر الخامسة، لجأت إلى شقيقتها لا إلى والديها لمساعدتها، وبعد سنوات عندما دخلت المستشفى بسبب التهاب السحايا، أصرّت ألكـــس على البقاء معها، ونامت على غطاء على الأرضية وأمسكت يدها حين خضعت لبزل قَطَني (كان ذلك، وهستريا فريا المرافقة لإدخال الإبرة في أسفل العمـــود

الفقري، سبب رعب ألكس المستمر مدى الحياة من أي شيء يتعلق بـالحُقَن).
عندما أدهشت فريا عالم التسلق، بعد احتفالها بذكرى ميلادها السابعة عشرة، بالصعود وحيدة على أنف القبطان في يوسمايت، وهي أصغر شخص يفعل ذلك على الإطلاق، كانت ألكس بانتظارها على القمة تحمل باقة أزهار بيد ودي بيير (شراب غازي) في الأخرى.

كانت قد قالت وهي تعانق فريا بقوة: "أنا فخورة جداً بك يا شقيقتي الصغيرة التي لا تعرف الخوف".

بالطبع، عندما لقي والدها ووالدتها حتفهما في حادث سير، بعد بضعة شهور، كانت ألكس مَن لعبت دور الوالد البديل. بحلول ذلك الوقت، كانت مهنتها بصفتها مستكشفة صحراء قد بدأت تزدهر: تصدرت *تين هينان الصغيرة* - روايتها عن الشهور الثمانية التي أمضتها في العيش والسفر مع الطوارق في شمالي النيجر - لائحة الكتب الأكثر مبيعاً لوقت قصير. لكنها أوقفت كل شيء وعادت إلى منزل الأسرة لتعتني بشقيقتها، وحظيت بوظيفة في قسم رسم الخرائط في وكالة الاستخبارات المركزية، في لانغلي حتى تستطيع إرسال فريا إلى المدرسة والكلية، وتمويل مهنتها في التسلق، ودعمها وحمايتها.

بالمحصلة، بادلت فريا حبها بالخيانة. عندما كانت تستمع إلى نعيب جوني كاش الأجش وهو يغني عن الألم والخسارة، وخذلان أولئك الذين يجب أن توليهم عناية فائقة، أغمضت عينيها ورأت مجدداً الذهول الظاهر على وجه ألكس حين دخلت الغرفة؛ الذهول، وأسوأ منه الحزن الفظيع.

انقضت سبع سنوات ولم تعتذر فريا مرة واحدة. أرادت ذلك فعلاً، ورغبت فيه. لم يمضِ يوم من دون أن تفكر في الأمر، لكنها لم تفعل، إذ إن ألكس توفيت الآن وضاعت الفرصة. ألكس حبيبتها، وشقيقتها الكبرى. *ألم*. لم تستطع حتى أن تحاول وصفه.

مدّت يدها إلى جيبها وأخرجت مغلفاً مجعّداً عليه خاتم بريد مصر، وحدّقت إليه لحظة ثم نزعت السماعتين من أذنيها وشغّلت فيلم ماثيو مكونوغي؛ أي شيء لمساعدتها على النسيان.

القاهرة

لم يكن فلين يشرب كثيراً آنذاك، وبالتأكيد ليس كما اعتاد في الماضي. كان يتناول الشراب في مناسبات نادرة، ودائماً في مشرب فندق ويندسور في شارع الألفي بيه، وقد توجه إلى هناك تلك الليلة.

قاعة هادئة منعزلة في الطابق الأول من المبنى، أرضيتها من خشب مصقول، كراسيها مريحة ذات أذرع، وإضاءتها خافتة، ويعود تاريخها إلى عصر قديم من التكلّف الاستعماري. يرتدي الموظفون قمصاناً بيضاء أنيقة، ويضعون ربطات عنق فراشية الشكل. كما وُضِعَت في الغرفة طاولة كتابة في إحدى الزوايا، وعلّق على الجدران نوع من التذكارات الغريبة التي قد تجدها في متجر تحف عتيقة: ترس سلحفاة ضخمة، غيتار قديم، قرنا وعل، صور بالأبيض والأسود لمشاهد من الحياة المصرية. حتى القوارير خلف المشرب تعكس صورة عصر مختلف، حقبة حفلات الكوكتيل، المقبلات، ومشروبات ما بعد الطعام. لم يكن يفسد الوهم إلا موسيقى ويتني هيوستن الهادئة، وأشخاص يحملون حقائب مصنوعة من قماش الجينز على ظهورهم ويتجمّعون عند الزوايا وهم يقرأون أدلّة **لونلي بلانيت**.

وصل فلين إلى هناك بعد الثامنة بقليل، وجلس على كرسي صغير عند نهاية المشرب، وطلب شراباً. عندما وصل الشراب حدّق إليه، كما قد يفعل غوّاص قبل أن يقفز عن لوح عالٍ إلى الماء البعيد في الأسفل، ثم رفع الكأس إلى شفتيه وأفرغ محتواها في أربع جرعات كبيرة، ثم طلب كأساً أخرى على الفور. تجرّع الكأس الثانية بسرعة، وبدأ بتناول الثالثة حين نظر صدفة إلى أحد ألواح المرايا وراء المشرب. كان الرجل البدين الذي رآه في المحاضرة يجلس على أريكة في الخلف إلى يساره، يحمل صحيفة بيديه. لم يتذكر فلين أنه رآه هناك حين دخل، ولأنه لا يرغب في الصحبة، انتقل إلى كرسي آخر؛ وكأنه بفعله هذا يحاول وضع حاجز بينهما. عندما فعل ذلك، نظر الرجل إليه، ولوّح له، ثم وضع الصحيفة جانباً، ومشى نحوه.

قال بصوته الحاد الأجش الغريب وهو يقترب من فلين ويمد يده: "كان ذلك حديثاً رائعاً يا أستاذ برودي. كان رائعاً جداً".

قال فلين مصافحاً إياه: "شكراً لك. أنا مسرور لأن شخصاً استمتع به".

"سي أنغلتون. أعمل في السفارة، العلاقات العامة، وأحب مصر القديمة".

"أحقاً؟". حاول فلين أن يبدو متحمساً. "أي عصر بالتحديد؟".

رد أنغلتون ملوّحاً بيده: "آه! كل العصور كما أظن. بالرغم من أنني أجد الجلف الكبير شيئاً فاتناً".

لفظه "جلف كابير".

تابع: "هذا مدهش حقاً. يجب أن تسمح لي باصطحابك إلى الغداء في وقت ما. اختر المكان الذي تريده".

رد فلين، مبتسماً ابتسامة متكلفة: "أحب ذلك". أطبق الصمت، ثم عندما شعر ألاّ خيار آخر لديه سأل الأمريكي إن كان يريد الانضمام إليه.

"عذراً، يجب أن أستيقظ باكراً غداً. أردت فقط أن أقول إنني قد استمتعت كثيراً بالمحاضرة".

سكت لبرهة ثم تابع الرجل قائلاً: "يجب أن نجري تلك الدردشة حول الجلف".

بالرغم من أنه قال ذلك ببراءة كافية، إلا أن شيئاً في تلك الملاحظة الأخيرة جعلت فلين يشعر بعدم ارتياح؛ كأنّ هناك شيئاً في التعليق أكثر مما عبّر أنغلتون عنه. قبل أن يستطيع متابعة الأمر، ربت الأمريكي على كتفه، وامتدحه مجدداً على المحاضرة وخرج من المشرب.

إنها الفتاة في الفندق، كما قال فلين في سرّه، وتجرّع ما تبقى من شرابه ثم لوّح للساقي مشيراً إليه أنه يريد كأساً أخرى. *ضعني على الحافة، في ما يخصّ ذلك وكل شيء آخر.*

صاح: "أريدُ شراباً، مضاعفاً".

تابع الشرب في باقي الأمسية، يقلّب الأشياء في ذهنه - الفتاة، الجلف، الداخلة، نار الرمال - ولم يعد يعرف كمية الشراب التي تناولها، ووصل إلى حافة الثمالة مثل الأيام الخوالي. جلست مجموعة من الفتيات الإنكليزيات إلى طاولة قريبة، وألقت إحداهن - رشيقة، شعرها داكن، جميلة - نظرات في اتجاهه، محاولة

إقامة اتصال بصري معه. كان دائماً جذّاباً للجنس الآخر، أو هذا ما أخبره الناس به، فجسده الرشيق مفتول العضلات وعيناه البنيتان الكبيرتان تميّزه عن معظم زملائه علماء الآثار المصرية الذين يفتقرون إلى الجاذبية الجسدية. بالرغم من ذلك، لم يكن يثق بنفسه قطّ في ما يتعلق بالنساء، ولا يستطيع إجراء الحديث القصير الذي يذيب الجليد ويبرع فيه بعض الرجال. حتى إذا كان يجيده، فلم يكن بالتأكيد في مزاجٍ يسمح له بذلك تلك الليلة. قابل اهتمام الفتاة بابتسامة فاترة، ثم نظر إلى قرني الوعل المعلّقين فوق المشرب وأطال النظر إليهما. غادرت ورفيقاتها بعد عشرين دقيقة وجلست مجموعة من رجال الأعمال المصريين إلى طاولتهن.

عند الساعة الحادية عشرة تقريباً، وقد أصبح ثملاً جداً آنذاك، قرر فلين أن يتوقف عن الشرب وبدأ يتحسس جيوبه بحثاً عن محفظة الجيب. بينما كان يبحث عن المحفظة، شعر بيدٍ على كتفه، وظنّ للحظة أنه الأمريكي البدين مجدداً، لكن، تبين أنه ألان بيتش، زميل له من الجامعة الأمريكية؛ "ألان المثير للاهتمام" كما كانوا يدعونه؛ لأنه أكثر شخص مملّ في القاهرة، وخبير فخار نادراً ما يتجاوز حديثه عالم المصنوعات الخزفية الحمراء في عهد السلالة الباكرة. حيّا فلين، وأشار إلى مجموعة من زملاء جامعيين آخرين يجلسون إلى طاولة في الطرف الآخر من الغرفة، ودعاه للانضمام إليهم. هزّ فلين رأسه شارحاً له أنه على وشك المغادرة، ثم أخرج محفظته في حين بدأ بيتش يسرد قصة عن الجدال الذي حصل مع أحد الأمناء في المتحف المصري بشأن قدرٍ كانت برأيه من الحقبة البدرية بكل تأكيد تقريباً وليس من ناقدة اثنان كما صُنّفت رسمياً. تظاهر فلين بالاستماع، وأومأ بين الفينة والأخرى لكنه في الحقيقة لم يكن يعيره اهتماماً. بعد أن أخرج المال المطلوب ووضعه على المشرب وحمل حاسوبه المحمول، أدرك أن بيتش قد انتهى من ذلك الحديث وبدأ بالحديث آنذاك عن شيء مختلف تماماً.

"... في مترو السادات. لم أصدّق ذلك. ارتطمت به مباشرة".

"ماذا؟ من؟".

"حسن فدوي. اصطدمت به مباشرة. كنت في طريقي إلى هليوبوليس للمساعدة على تحديد زمن بعض المصنوعات الخزفية التي وجدوها، من السلالة الثالثة كما ظنوا، بالرغم من أنه من ناحية الأسلوب...".

"فدوي؟". بدا فلين مندهشاً. "ظننت أنه...".

قال بيتش: "وكذلك أنا. أُطلق سراحه باكراً، كما يبدو. بدا رجلاً مفلساً بالتأكيد".

"حسن فدوي؟ أأنت واثق؟".

"تماماً. أعني لديه مال من أسرته كما يقول الجميع، لذا من الناحية المادية لن...".

"متى؟ متى خرج؟".

"قبل أسبوع، كما أظن أنه قال. إنه نحيل. أتذكر أنني أجريت دردشة مثيرة للاهتمام معه مرة بشأن سجلات جرارِ شراب كهنوتية هيرية من حقبة السلالة الثانية كان قد عثر عليها في أبيدوس. قل ما تريده عنه، لكنه يعرف بالتأكيد أوانيه الفخّارية. سيُعيد معظم الناس تاريخها إلى السلالة الثالثة أو حتى الرابعة، لكنه سيقنعك ألّا تصل إلى ذلك الإطار الزمني...".

كان يتحدث إلى نفسه، فقد استدار فلين آنذاك وغادر.

كان يجب أن يذهب إلى المنزل على الفور، لكنه لم يستطع منع نفسه، لذا، حوّل مساره إلى متجر المشروبات في المنطقة الحرة في شارع طلعت حرب، واشترى قارورة شراب اسكتلندي قبل أن يوقف سيارة أجرة ويزوّد السائق بعنوان المبنى حيث يسكن عند تقاطع محمد محمود ومنصور.

كان طيب الناطور لا يزال مستيقظاً حين عاد. كان يجلس على كرسيه في مدخل المبنى، *وشال* يتدلى على رأسه، وقدماه المتسختان تبرزان من نعلين قديمين. لم يكونا متّفقين بشكل جيّدٍ مع بعضهما، لذا، وهو في حالة الثمالة تلك، لم يزعج فلين نفسه بتحيته، وتجاوزه مباشرة إلى المصعد العتيق الذي قعقع صعوداً إلى الطابق الأعلى.

داخل شقته جلب كأساً من المطبخ، ملأها شراباً وذهب إلى غرفة المعيشة. أضاء الغرفة، وارتمى على الأريكة، ثم أفرغ الكأس، وسكب لنفسه كأساً أخرى وشربها أيضاً؛ تجرّعها حقاً مدركاً أنه يهبط مسرعاً على منحدر زلق، لكنه لم يستطع إيقاف نفسه.

طوال خمس سنوات، أحكم سيطرته على الأمر، وبالكاد مسَّ الشراب، وبالرغم من أنه اشتهاه طبعاً عدّة مرات، خاصة في الأيام الأولى، لكنّه قد ساعده على المضي قدماً، وبفضله بقي بطريقة ما على الدرب الصحيح، وأعاد تجميع أجزاء حياته ببطء مثل إحدى قدور ألان بيتش المرممة.

خمس سنوات قد رماها آنذاك كلّها جانباً، و لم يهتم لذلك. لم يكترث فحسب. الفتاة، الجلف، الداخلة، ساندفاير، والآن، حسن فدوي... كان ذلك كثيراً عليه، لذلك لم يستطع أن يتمالك نفسه وقتاً أطول.

ملأ الكأس مجدداً، وأفرغها مرة أخرى، ثم شرب بشراهة من القارورة مباشرة، وجال ببصره ثملاً في أرجاء الغرفة. ظهرت أشياء مختلفة واختفت أمام ناظريه: وشاح فريق الأهلي، نسخة من دين رع لستيفن كويرك، قطعة بحجم القبضة من زجاج الصحراء الليبية. لقد ظهرت واختفت مراراً وتكراراً قبل أن تتوقف نظرته أخيراً على صورة تجثم على طاولة صغيرة بجانب الأريكة. كانت الصورة لامرأة يافعة، شقراء، سفعت الشمس بشرتها. لقد ظهرت في الصورة وهي تضحك مرتدية سروالاً لماعاً وسترة قماشية قديمة، وقد امتدت مساحة شاسعة من الصحراء خلفها نحو كُثيّب محدّب بعيد. حدّق فلين إليها، تناول جرعة كبيرة، ثم أشاح ببصره، وأعاده إليها مجدداً، وتعبير إذلال وألم يظهر على وجهه؛ كأنه ضُبط وهو يقوم بعملٍ قد وعد مخلصاً ألاّ يقوم به. انقضت خمس ثوانٍ، عشر، عشرون ثانية، ثم تأفف مجهداً وارتعش جسده كله؛ كأنه يتعرض لقوة غير مرئية، ثم نهض مترنحاً، ومشى متعثراً نحو النافذة. فتح المصراعين، ورمى قارورة الشراب إلى الخارج في الليل.

جمجم: "ألكس"، وتردد صوت تحطم الزجاج من الزقاق في الأسفل. "آه يا ألكس! ماذا فعلت؟".

مرّر سي أنغلتون منديلاً على جبينه متمتماً: "يا للهول، الحرارة في هذه المدينة!". وطلب قارورة أخرى من الكوكا-كولا. كان كل شخص آخر في المقهى يشرب الشّاي ياقوتي اللون أو أحد أنواع القهوة المختلفة، لكن أنغلتون لم يكن ليمس تلك المادة. كان يعمل منذ عشرين سنة في ذلك الركن من العالم -

الشرق الأوسط، الشرق الأدنى، أفريقيا - والقاعدة نفسها دائماً: إذا لم يكن معلباً، فلا تشربه. ضحك زملاؤه عليه، واتهموه بجنون الارتياب، لكن هو من ضحك كثيراً في النهاية حين أُصيبوا بتسمم غذائي، وإسهال. إذا لم يكن معلّباً، فلا تشربه؛ وأيضاً: إذا لم يطهه الأمريكيون، فلا تأكله.

وصلت الكولا، وفتح أنغلتون القارورة، وتناول جرعة كبيرة وهو ينظر إلى النادل المراهق الذي ابتعد عنه بين الطاولات، وأعجبه الردفان النحيلان والذراعان مفتولتا العضلات. ارتشف مجدداً وأشاح ببصره بعيداً مركّزاً تفكيره على القضية التي يعمل عليها.

كانت أمسية مفيدة؛ نافعة جداً. تساءل جزء منه إن لم يكن قد مضى بعيداً في فندق ويندسور، وأنه كان يجب عليه ألاّ يتجاوز الحد مع برودي في ما يخص الجلف الكبير، لكن حين وازن الأمر في ذهنه تبيّن له أنها مخاطرة تستحق الإقدام عليها. في هذا العمل، يجب أن تثق أحياناً بفطرتك، وقد أشعرته فطرته بأن ردّ فعل برودي سيكون مفيداً، وقد حدث ذلك فعلاً. عرف شيئاً؛ اطّلع على شيء بالتأكيد، جزء بعد آخر. كان يجب عمله لذلك السبب: بناء صورة، واستنباط الحقائق منها. ذلك ما يُدفع له من أجله، لكن، لماذا يستخدمونه دائماً من أجل ذلك النوع من المهمات؟

كان قد تبع برودي بعد ذلك إلى شقته حيث تبادل أطراف الحديث مع الناطور. بدا واضحاً أن الرجل لا يحب الإنكليزي، وقد استفاد من ذلك، وكسب ثقته، ودفع له بعض المال، ما سيجعل الأمور أسهل حين يحين وقت إلقاء نظرة علي أرجاء شقة برودي، وهذا ما سيحدث قريباً. نعم، بالمحصلة، أمسية مفيدة جداً؛ جزء بعد آخر.

ارتشف الكولا، ونظر حوله إلى الزبائن الآخرين في المقهى، ورأى أن بعضهم يمجون من أنابيب الشيشة، وآخرين يلعبون طاولة النرد، وجميعهم ذكور. تجاوزه الفتى مجدداً، ابتسم وهزّ رأسه، ورمى بعض النقود على الطاولة قبل أن يقف وينطلق في الشارع.

هبطت طائرة فريا في مطار القاهرة الدولي عند الساعة الثامنة بالتوقيت المحلي، وكانت بانتظارها عند بوابة الوصول امرأة تدعى مولي كيرنان، صديقة ألكس التي اتصلت قبل ليلتين لتنقل خبر وفاتها.

كيرنان في أواخر العقد الخامس من عمرها، شعرها أشقر فاتح، تنتعل حذاءً كبيراً وتعلّق رمز النصارى الديني المصنوع من الذهب حول عنقها، تقدّمت من فريا وعانقتها، وأخبرتها عن أسفها العميق للخسارة التي أصابتها. أمسكت ذراعها بعد ذلك، وقادتها إلى خارج قاعة الوصول الدولية إلى المحطة المحلية لتلحق بالرحلة المتجهة إلى واحة الداخلة. كان ذلك المكان هو المكان الذي عاشت فيه ألكس، وحيث ستجرى مراسم دفنها في اليوم التالي.

سألتها كيرنان وهما تمشيان: "هل أنت متأكّدة من أنك لن تبقي في القاهرة وتسافري معي غداً؟ لدي سرير إضافي".

شكرتها فريا، لكنها قالت إنها تفضّل التوجّه جنوباً على الفور. أرادت رؤية شقيقتها للمرة الأخيرة قبل الجنازة، وتوديعها.

قالت المرأة الأكبر سناً؛ وهي تضغط على يد فريا: "بالطبع يا عزيزتي. سيلتقي بك زاهر الصبري هناك؛ عمل مع ألكس. إنه رجل جيد، لكنه فظّ نوعاً ما. سيصطحبك إلى المستشفى ثم إلى منزلها. إذا احتجت إلى أيّ شيء، أيّ شيء على الإطلاق...".

أعطت فريا بطاقة ورد فيها: مولي كيرنان، منسّقة إقليمية، الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية. وقد كتبت رقم هاتفها الخلوي على الجهة الخلفيّة من البطاقة.

أتمت فريا إجراءات التسجيل في قاعة الرحلات الداخلية، وكانت واحدة من أربعة أشخاص فقط فعلوا ذلك. أبرزت كيرنان بطاقة من نوع ما وتحدّثت إلى رجال الأمن بعربية فصيحة، فسُمح لها بمرافقة فريا إلى قاعة المغادرة، حيث انتظرت معها إلى حين الإعلان عن إقلاع رحلتها، لكنّ أياً منهما لم تتكلم كثيراً. فقط عندما أوشكتا على الانفصال، وقد انضمت فريا إلى صفّ الحافلة التي ستقلّها إلى الطائرة، نطقت ما كان يمزّقها منذ تلقّت نبأ وفاة شقيقتها:

"لا أصدّق أن ألكس يمكن أن تنتحر. لا يمكنني تصديق ذلك. ليست ألكس".

إذا كانت تبحث عن تفسير، فإنها لم تحصل عليه. عانقتها كيرنان ببساطة، ومرّرت يدها على شعرها وقالت: "أنا آسفة جداً"، ثمّ استدارت ومشت مبتعدة عنها.

عندما أصبحت في الجو حدّقت فريا ذاهلة إلى الصحراء في الأسفل، ورأت مساحة شاسعة بلونٍ أصفر قاتم يتّحد مع سديم الأفق البعيد. هنا وهناك تظهر على سطحها مسالك متشعّبة تشبه الندوب من وديان جفّت أنهارها منذ أمدٍ بعيد، لكنها كانت تخلو في معظمها من أي معالم واضحة، لذا، فقد ظهرت فارغة، خاوية، ومقفرة؛ كما تشعر تماماً.

جرعة مورفين مفرطة؛ ذلك ما فعلته ألكس. لم تعرف فريا التفاصيل الدقيقة، ولم ترغب في معرفة ذلك بالفعل، فإمعان التفكير في الأمر مؤلم جداً. كانت تعاني تصلبَ أنسجة مضاعفاً، وأصبح طبعها عدوانيًا من المرض، كما فقدت القدرة على استخدام كلتا ساقيها وإحدى ذراعيها، وشحّ بصرها أيضاً... يا للهول! كان ذلك قاسياً على نحو يفطر الفؤاد.

كانت مولي كيرنان قد أخبرتها حين اتصلت لتنقل إليها خبر وفاتها: "لم يكن بمقدورها أن تتحمّل أكثر. لم يعد في وسعها مواصلة ذلك. قرّرت أن تتصرف في حين لا يزال بمقدورها ذلك".

لم تبدُ تلك ألكس التي تعرفها فريا؛ أن تتخلّى عن الأمل بمثل تلك الطريقة، وتستسلم من دون كفاح. لكن، كل ما كان لديها حقاً آنذاك مجرد ذكرى: ألكس طفولتهما، مع دفاتر ملحوظاتها ومجموعتها من الصخور، وبوصلة عسكرية قديمة من معركة أيوا جيما. ألكس التي كانت قد أولتها كل اهتمامها بعد جنازة والديهما، وتخلّت عن مهنتها لتعتني بها، وأحبّتها وساندتها. ألكس الغابرة، ألكس الضائعة. كانت قد انقضت سبع سنوات منذ تكلمتا آخر مرة، ومَن يعرف كم تغيرت شقيقتها في ذلك الوقت؟

صحيح، كانت قد كتبت إلى فريا، مرة شهرياً، وبانتظام مثل الساعة، لقد كتبت إليها عشرات الرسائل بمرور السنين، وكلها بخط يدها الغريب ذاك الذي يبدو فوضوياً وأنيقاً في الوقت نفسه. لم تذكر في رسائلها أي أمور شخصية على

أيّ حال؛ وكأن أحداث اليوم الأخير في ماركهام قد أغلقت بطريقة ما الباب على أي مستوى أعمق من التواصل بين كلتيهما. الداخلة، الصحراء، العمل الذي كانت تقوم به على حركات الكثبان وجيومورفولوجيا (دراسة شكل الأرض وتضاريسها) هضبة الجلف الكبير، بغض النظر عمّا يعنيه ذلك، كانت تلك الأمور هي الأمور التي كتبت ألكس عنها. أمور سطحية، خارجية، لم تغُص أعمق من ذلك. وحدها الرسالة الأخيرة التي تلقّتها فريا قبل بضعة أيام فقط من وصول نبأ وفاة شقيقتها، كانت مختلفة، إذ عبّرت فيها عن مشاعرها، وسمحت لفريا بالعودة إليها، لكنها جاءت بعد فوات الأوان.

بالطبع، فريا التي تشعر بالخجل مما جرى، لم ترد قط على أيٍّ من الرسائل. لم تحاول ولو لمرة واحدة، في سبع سنواتٍ، أن تتواصل معها وتقول كم تشعر بالأسف، وأن تحاول إصلاح الضرر الذي ألحقته بها.

ذلك ما عذّبها آنذاك، أكثر حتى من وفاة ألكس. كانت الحقيقة أنها عانت كثيراً فظيعةً بكل المقاييس، وأنها هي، فريا، لم تكن موجودة هناك من أجلها، كما كانت ألكس دائماً موجودة إلى جانبها. لسعة الدبور، البزل القطني، اليوم الذي تسلّقت فيه أنف القبطان وحدها... في كل تلك الأمور لم تخذلها شقيقتها قط، بل ساندتها دائماً. لكنها لم تفعل الشيء نفسه لشقيقتها، بل خذلتها؛ مرة أخرى وأخيرة.

مدّت يدها إلى جيبها، وأخرجت المغلّف المجعّد الذي يحمل خاتم بريد مصر، وحدّقت إليه مجدداً قبل أن تضعه جانباً من دون أن تقرأ ما ورد في الرسالة وتحدّق في الصحراء في الأسفل. لقد بدت فارغة، خاوية، ومقفرة كما تشعر تماماً، وكما شعرت في السنوات السبع الأخيرة، وستشعر بذلك دائماً على الأرجح.

التقت، كما هو متفق عليه، في مطار الداخلة - مجموعة نائية من مبانٍ برتقالية اللون تحيط بها الصحراء - زميل ألكس زاهر الصبري. وهو بدوي نحيل، ذو أنفٍ معقوف، وشاربٍ رفيعٍ كأنه خُطَّ بقلم رصاص، ووجنتين متورّدتين، يعتمر عمامة تلتف حول رأسه. تمتم تحية مقتضبة ثم حمل حقيبتها القماشية - احتفظت بحقيبة الظهر - وقادها عبر قاعة الوصول إلى الخارج عبر مجموعة من

الأبواب الزجاجية. سفعتها حرارة منتصف النهار؛ كأن منشفة حارة قد ضُغطت بقوة على وجهها. كان الجو حاراً في القاهرة، لكن ذلك شيء مختلف: بدا أن الهواء الحارق يندفع عميقاً في رئتيها، ويكتم أنفاسها.

لهثت ووضعت نظارتها اتقاء الوهج، ثمّ قالت: "كيف يعيش الناس في هذا الحر؟".

هزّ زاهر كتفيه وقال: "تعالي في الصيف، عندها، ستشعرين بالحر".

كانت هناك سيارة متوقفة أمام مبنى المطار، تظلّلها أشجار تين وارفة وشجرة دفلى وردية الأزهار. مشى زاهر متوجّهاً إلى سيّارة تويوتا لاند كروزر بيضاء متهالكة، على سقفها شبك لوضع الأمتعة، ومصباحها الأيسر محطّم. وضع حقيبتها على السقف، وفتح باب السائق، ومن دون أن ينبس بكلمة صعد إلى مقعد السائق، وشغّل المحرك. انطلقا بالسيارة متجاوزَين حاجزاً أمنياً إلى طريق إسفلتي - الطريق الوحيد - يمتد في الصحراء مثل أثر طلاء رمادي قاتم. لاحت أمامهما غشاوة الواحة الخضراء، وخلفها، يحيط بها ويطوّق الأفق مثل حافة صحن عملاق، ظهر واضحاً منحدر شاهق بلون القشدة.

قال زاهر: "جبل القصر". لم يتوسع في التعليق، ولم تسأله فريا.

انطلقا مسرعين بصمت، وأفسحت الكثبان كثيرة الحصى في المجال أولاً لبعض الأعشاب المبعثرة، ثم لحقول مروية تتناثر فيها بساتين النخيل والزيتون والحمضيات. بعد عشر دقائق، ظهرت لافتة كُتِب عليها بالعربية والإنكليزية: موروت، وهي المستعمرة التي عرفت فريا من رسائل ألكس أنها المستعمرة الرئيسة في الداخلة. مستوطنة هادئة تتكون من مبانٍ ترتفع طابقين أو ثلاثة مطلية بالكلس، ولا تبدو مهجورة أبداً، وتصطف على طول شوارعها المغبرّة أشجار الأحمصية والأكاسيا، وحوافّ أرصفتها مطلية باللونين الأبيض والأخضر، وهما اللونان السائدان في البلدة.

تجاوزا مسجداً، وعربة يجرها حمار، وشاهدا مجموعة من نساء يرتدين أثواباً سوداء يجلسن في الخلف وقطيع من الجمال يتجول على غير هدى على جانب الطريق، ووصلت إليهما روائح الروث ودخان الحطب تفوح من النوافذ المفتوحة. في ظروف أخرى، كان المشهد سيفتن فريا: بدا كل شيء مختلفاً، وغريباً جداً على

حرها. كانت تجلس هناك تحدّق ذاهلة عبر النافذة في أثناء سيرهما في شارع عريض عبر البلدة، يجتازان مجموعة من الطرق الملتوية التي تنبثق منها شوارع أخرى في اتجاهات مختلفة، وانتابها إحساس غريب بأنها تدور حول لعبة كرة ودبابيس عملاقة.

في غضون دقائق، أصبحا خارج البلدة على الطرف الآخر منها ويشقان طريقهما عبر بيئة شبيهة بالرُقع من حقول الذرة والأرز. تجاوزا أبراج حمام وبساتين نخيل وقنوات ريٍّ وتشكيلات ملتوية غريبة من الصخور حتى وصلا أخيراً قرية مكونة من منازل مبنيّة من آجر طيني. خفف زاهر السرعة، وانعطف يساراً عبر بوابة مفتوحة، ثم توقف في ساحة تطل عليها جدران طينية عالية مسقوفة بسعف نخيل. ضغط على البوق، وأوقف المحرك عن العمل.

سألت فريا محاولة أن تقارن الساحة والبيت الملاصق المتداعي بما وصفته شقيقتها في رسائلها: "أهذا منزل ألكس؟".

قال زاهر وهو يفتح الباب ويخرج: "بل منزلي. سنشرب الشاي".

لم تكن فريا ترغب في شرب الشاي على الإطلاق، لكنها شعرت بأنّ الرفض سيكون وقاحة؛ كانت رسائل ألكس قد وصفت بإسهاب الأهمية الكبيرة التي يوليها المصريون للضيافة. شعرت بالتعب، فأمسكت حقيبة الظهر، ثمّ ترجّلت من السيارة.

قادها زاهر إلى المبنى وعبر ممرًّا مظلماً وبارداً، تفوح منه رائحة دخان وزيت طَهي إلى غرفة معتمة سقفها مرتفع، وجدرانها زرقاء باهتة، وأرضيتها مغطاة بالحُصر. باستثناء مقعد طويل منجّد على طول أحد الجدران وتلفاز يجثم على طاولة في الزاوية البعيدة، كانت المساحة خالية. لوّح لها أن تذهب إلى المقعد، وصرخ شيئاً نحو الجزء الخلفي من المنزل وجلس على الأرض أمامها، فارتفعت جلابيته إلى الأعلى لتكشف عن نعلي نايكي أبيضين.

وبعد مرور فترةٍ من الصمت، قالت فريا أخيراً: "سمعت أنك عملت مع ألكس؟". لم تظهر على زاهر أي علامة تدل على أنه سيبدأ حديثاً، لكنّه دمدم مؤكداً ذلك.

"في الصحراء؟".

هزَّ كتفيه كأنه يقول: *أين غير ذلك؟*

"ماذا كنتما تفعلان؟".

هزّة أخرى من كتفيه.

قال: "نقود السيارة. بعيداً. نذهب إلى الجلف الكبير. طريق طويل".

نظر إليها للحظة، ثم أشاح بصره بعيداً، وفرك رقبته، ثم بحث عن شيء في جلابيته. أرادت أن تطرح عليه مزيداً من الأسئلة: عن حياة ألكس هنا، مرضها، أيامها الأخيرة، أي شيء عرفه عنها، كل شيء، وبدت بأمس الحاجة إلى أن تجمع أي معلومات بسيطة عن شقيقتها. ولكنّها امتنعت عن ذلك وشعرت بأنه لن يكون متعاوناً على نحو خاص. كانت مولي كيرنان قد حذّرتها من أنه فظّ، لكنه بدا أكثر من ذلك؛ لقد بدا عدوانيّاً. تساءلت إن كانت ألكس قد أخبرته عمّا حدث بينهما، وعن سبب مقاطعتهما بعضهما وقتاً طويلاً.

سألت وهي تطرد الفكرة من رأسها وتقوم بمحاولة جديدة لكسر الجليد: "أأنت بدوي؟".

إيماءة، لا أكثر.

"سنوسي؟". كان ذلك شيئاً تتذكره على نحو مبهم من رسائل ألكس، وهو اسم مرتبط بطريقة ما بشعوب الصحراء. كانت تأمل أن تثير إعجابه بمعرفتها، لكنها أُصيبت بخيبة أمل. أطلق زاهر صرخة اشمئزاز وهزَّ رأسه بقوة.

قال بسرعة: "لست سنوسياً. السنوسيون كلاب، وحثالة. نحن الرشايدة، بدو أصليون".

تمتمت: "آسفة. لم أعنِ...".

قاطعتها خشخشة صادرة من الممر في الخارج. دخل فتى لا يتجاوز عمره السنتين أو الثلاث بخطى قصيرة الغرفةَ، تتبعه شابة رشيقة، داكنة البشرة وجذّابة. كانت تحمل شيشة في إحدى يديها وصينية عليها كوبان من الشاي البني الضارب إلى الحمرة في الأخرى. وقفت فريا لتساعدها، لكن زاهر لوّح لها أن تعود إلى مكانها، وأشار إلى زوجته - أو هكذا افترضت فريا - أن تضع الصينية والشيشة على الأرض بجانبه. التقت عيناها بعيني فريا لحظات قصيرة جداً، ثم عادت من حيث جاءت.

"أتريدين السكّر؟".

أفرغ زاهر ملء ملعقة في كوب فريا من دون أن ينتظر رداً وأعطاها إياه قبل أن يحتضن الفتى بين ذراعيه.

قال، مبتسماً للمرة الأولى منذ التقيا، وقد تلاشى توتر اللحظة السابقة على ما يبدو: "ابني. إنه ذكي جداً. ألست ذكياً يا محسن؟".

ضحك الفتى وقدماه تركلان تحت حافة جلابيته الصغيرة.

قالت فريا: "إنه جميل".

قال زاهر مستنكراً وهو يلوّح بإصبعه: "ليس جميلاً. النساء جميلات. محسن وسيم، مثل والده".

ضحك بصوت خافت وقبّل جبين الفتى.

"ألديك أطفال؟".

أقرّت أنه ليس لها أطفال.

نصحها قائلاً: "أنجبي عاجلاً، قبل أن تطعني في السن".

وضع ثلاث ملاعق سكر في كوبه، وارتشف منه، ثم رفع الشيشة، ودخّن منها، فجعلها تنبض حيوية، وارتفعت سحابة من دخان كثيف ببطء شديد نحو السقف. مجدّداً، أطبق صمت غير مريح؛ أو على الأقل عدّته فريا غير مريح، وقد بدا زاهر غافلاً عنها. أبعد الشيشة عنه بعد ذلك، وأشار فوق رأسها إلى خنجر مقوّس معلّق على الجدار، وغمده البرونزي مرصّع بزخرفة فضية متشابكة، وعلى مقبضه العاجي ياقوتة كبيرة؛ كما بدت.

قال: "يخص هذا زلف أسرتي". ارتبكت فريا لحظة قبل أن تدرك ما يعنيه.

صحّحت قائلةً: "سلف".

"هذا ما أقوله. اسمه محمد ولد يوسف إبراهيم صبري الرشايدة. عاش قبل ست مئة سنة، وهو رجل مشهور جداً. أشهر بدوي في الصحراء. كانت الصحراء الكبرى مثل حديقته، يذهب حيثما يريد، حتى إلى بحر الرمال، ويعرف كل كُثَيِّب، وكل بئر ماء. كان رجلاً عظيماً".

أومأ بفخر، ووضع ذراعه حول ابنه. انتظرت فريا أن يتابع كلامه، لكنه لم يفعل، إذ بدا أن ذلك كل ما يريد قوله، وأطبق الصمت مجدداً. سمعا صوتاً بعيداً

لمضخة ريٍّ من خلال نافذة مفتوحة، ومن مكان أقرب زعيقَ إوزة. منحته بضع دقائق أخرى، ترتشف الشاي، والفتى الصغير يحدّق إليها. وضعت كوبها جانباً بعد ذلك، ثمّ وقفت وسألت إن كان بمقدورها استخدام الحمّام، لا لأنها تحتاج إلى ذلك، إنما لتبتعد عنه بعض الوقت. لوّح زاهر بيده، وأشار إلى أن بمقدورها أن تتبع الممر الذي دخلا منه نحو الجهة الخلفيّة من المنزل.

خرجت من الغرفة، مرتاحة؛ لأنها أصبحت وحدها. اجتازت غرفتي نوم - أرضيات عارية، وأسرّة خشبية مزخرفة بأشكال غريبة - مسّت ستارة خرز وخرجت إلى ساحة داخلية صغيرة. رأت كومة من أقفاص الخيزران مكدّسة عند أحد الجدران، ملأى بأرانب وحمائم. وسمعت من فتحة أمامها مباشرة صليل قدور وأصواتٍ نسائية. شاهدت إلى يمينها بابين مغلقين، افترضت أن أحدهما الحمّام بالتأكيد. عبرت الساحة وفتحت الأقرب لتكتشف أنه مكتب أو مخزن، و لم تستطع تحديد ذلك بدقة؛ لكنّ طاولة وكرسياً وحاسوباً عتيقاً تشير إلى الاحتمال الأول، في حين إن أكياساً من الحبوب ودراجة هوائية صدئة وأدوات زراعية متنوعة تشير إلى الاحتمال الثاني. بدأت تغلق الباب لكنها توقفت فجأة، وقد تحول انتباهها إلى الطرف البعيد من الغرفة حيث دُفعت طاولة إلى الزاوية. شاهدت صورة مثبتة بلصاقة شفّافة، فدخلت الغرفة تحدّق إليها.

كانت الصورة ملونة، ومكبّرة إلى عدّة أضعاف حجمها الطبيعي، حتى من عند الباب استطاعت أن تتبينها بوضوح: صورة صخر أسود لامع مقوّس شاهق يخرج من صحراء تخلو بخلاف ذلك من أي معلَم، مثل سيف معقوف ضخم يشق طريقه عبر الرمال. بدا تشكيلاً رائعاً، يتحدّى الجاذبية، وحدّه الأعلى يستدق تدريجياً إلى نقطة واحدة، وطرفاه مثلّمان ومسننان من ألف سنة من الحت ما يمنحه مظهراً جارحاً غريباً. لم يسع جزء من فريا إلا أن يفكر في مسلك التسلق الرائع الذي يمثّله، بالرغم من أن الصخر نفسه لم يُثِر اهتمامها مثل الشخص الواقف في ظل قاعدته. مشت إلى الطاولة، وانحنت فوقها، تحدّق إلى الأعلى. بالرغم من أن الشخص كان ضئيل الحجم، ويبدو قزماً بجانب الصّخر المقوّس فوقها، إلا أن الابتسامة، والسترة القماشية القديمة، والشعر الأشقر لا تدع مجالاً للشك إطلاقاً. ألكس. مدّت يدها ومسّتها.

"هذا خاص".

استدارت ورأت زاهر يقف عند الباب، وابنه خلفه.

تمتمت محرجة: "آسفة. دخلت عبر الباب الخطأ".

لم يقل شيئاً، إنما حدّق إليها فقط.

"رأيت ألكس". أشارت إلى الصورة وهي تشعر بالذنب على نحو لا يُفسّر؛ كأنها ضُبطت تفعل شيئاً يجب أن تمتنع عنه، مثل ذلك اليوم في...

قال: "الحمّام بجوار هذه الغرفة".

توقفت، مرتبكة، لا يمكنها العثور على الكلمة المناسبة. دخول عنوة؟ تعدٍّ؟ تطفّل؟ شعرت بأن دموعاً قد بدأت تتكوّن.

غمغمت وهي غير قادرة على إيقاف نفسها: "هل كانت سعيدة؟ ألكس. بعثت إلي رسالة، كما تعرف، قبل أن تموت، وقالت أشياء... بدت سعيدة. هل كانت كذلك؟ هل تعرف؟ في النهاية، هل كانت سعيدة؟".

بقي يحدّق إليها، ووجهه خالٍ من أي تعبير.

كرّر: "هذا خاص. الحمام بجوار هذه الغرفة".

شعرت بنوبة غضب.

أرادت أن تصرخ: *لقد توفيت! شقيقتي ماتت، وأحضرتني إلى هنا لأشرب أشيائي ولن تسمح لي حتى أن أنظر إلى صورها!*

لم تقل شيئاً لأنها كانت مدركة أن غضبها ينصبّ على نفسها مثل زاهر تماماً، وذلك بسبب ما فعلته بألكس؛ ولأنها لم تكن إلى جانبها، ومن أجل كل شيء آخر. ألقت نظرة أخيرة إلى الصورة، ثم مشت عائدة عبر الغرفة وخرجت إلى الساحة.

قالت بهدوء: "لم أعد أحتاج إلى الحمّام. أريد فقط أن أراها. هل تأخذني من فضلك؟".

حدّق إليها وقد خلا وجهه من أي تعبير؛ لا ينمّ وجهه عن شيء، ثم أومأ وأغلق الباب. دفع ابنه عبر الساحة إلى المطبخ قبل أن يصطحب فريا عائداً إلى سيارته اللاند كروزر. و لم ينطقا بأي كلمة طيلة رحلة العودة إلى مووت.

القاهرة

كان الوقت منتصف النهار تقريباً حين استيقظ فين ووجد نفسه على أريكته مرتدياً ملابسه كلها. وقد شعر بألم في رأسه، وفمه جاف وقاسٍ؛ كأنه حُشي طباشير. فكّر مرعوباً للحظة في أنه قد فوّت محاضراته الصباحية قبل أن يتذكر أن اليوم هو الثلاثاء، ومحاضرته تبدأ عند الظهر. تمتم قائلاً: "حمداً لله"، ثمّ غاص مجدداً بين الوسائد.

استلقى لبعض الوقت محدّقاً نحو الأعلى إلى خيوطٍ من أشعة الشمس التي تظهر على السقف، وأمعن التفكير في أحداث الليلة الماضية في حين تصدح أوركسترا متواصلة من أبواق السيارات من الشارع في الأسفل. دفع نفسه بعد ذلك ليقف على قدميه، ومشى متثاقلاً إلى الحمام واستحم بماء بارد، وأصدرت أنابيب الشقة القديمة قعقعةً حين ألقت شلالاً غزيراً من الماء على وجهه وجذعه. بقي على تلك الحال خمس عشرة دقيقة، وصفا ذهنه ببطء، ثم لفّ نفسه بمنشفتين، وحضّر بعض القهوة؛ قهوة مصرية سادة. عاد إلى غرفة المعيشة، وفتح النافذة على مصراعيها، ورأى كتلة فوضوية من مبانٍ تنبسط أمامه، وتمتد شرقاً مثل موجة من رغوة طينية قبل أن تنتهي عند الجدار الضبابي البعيد لجبل المقطم. شاهد إلى يمينه قبة مسجد محمد علي تلمع بلون فضي غير نقي في شمس منتصف النهار. ارتفعت مآذن في كل مكان من الفوضى في الأسفل، مثل إبرٍ عبر قماش خشن، ومكبّراتها تملأ الجو بأصوات مؤذني المدينة يدعون المؤمنين إلى صلاة الظهر.

كان قد عاش هناك ما يقارب العقد من الزمن، مستأجراً من أسرة مصرية امتلكت المبنى برمّته منذ أن شُيّد أول مرة في نهاية القرن التاسع عشر.

لم يكن المبنى يلفت الأنظار من الخارج، وواجهته الفخمة سابقاً - شرفات مزخرفة، أُطر نوافذ عليها نقوش معقدة، زجاج ملون، بوابة حديدية - مشققة وتأثرت بالعوامل الجوية وتلطّخت بلون بني داكن نتيجة الغبار والدخان. كانت يد الزمن قد امتدت إلى داخل الأجزاء المشتركة من المبنى أيضاً فأضحت قاتمة وتثير الكآبة، والجدران متشقّقة ومتهالكة وعليها خربشات، والطلاء متقشّر.

كان موقعه مناسباً، إذ يقع على بعد بضعة شوارع فقط من الجامعة الأمريكية حيث يدرّس. والأجرة منخفضة - حتى بمعايير أهل القاهرة - وتلك مسألة مهمة

نصرا إلى أنه يحاضر وقتاً جزئياً فقط. ولو أن المبنى نفسه شهد أياماً أفضل، لكانت شقته في الطابق الأعلى واحة من الهدوء والضوء، بغرفها عالية السقف، ونوافذها التي تطل على مناظر رائعة شرقاً وجنوباً عبر المدينة. كان يمضي معظم وقته في منزل حين لا يكون في الصحراء، حيث يمضي أربعة شهور في السنة، بعيداً تماماً عن كل شخص وكل شيء، لكن أكثر أوقاته سعادة هي تلك التي يمضيها في المدينة هنا، حتى مع ذلك الوغد الفظ طيب الذي يبقى في الطابق السفلي.

أنهى فنجان قهوته، وسكب فنجاناً آخر وعاد إلى النافذة، وراح يحدّق إلى مجموعة غير منتظمة من الأسطح. كانت معظمها، مثل الشوارع في الأسفل، مغطاة بأكوام من القاذورات؛ وكأن العاصمة محصورة بين طبقتين من النفايات. حاول، وفشل، أن يرى سانت سمعان الخزاز ودور العبادة القبطية الأخرى القائمة على منحدرات فوق حي الزبالين في منشية ناصر، ثم نظر إلى الزقاق في الأسفل مباشرة، حيث توجد شظايا قارورة الشراب التي رماها الليلة الماضية، ورأى هراً يشمها بفضول. لم يكن واثقاً إن كان يجب أن يشعر بالاشمئزاز من نفسه لسقوطه من عربة ومعاقرة الشراب بعد الامتناع عنه، أو الراحة لأنه تسلق إليها مجدداً. ثم رضخ لواقع أن إحساسه مزيج من الأمرين.

تمتم وهو يدرك أنه لولا الصورة، لكان لا يزال يشرب آنذاك: "شكراً ألكس. ماذا كنت سأفعل من دونك؟".

حدّق إلى الخارج لبعض الوقت، وأكملت القهوة ما بدأه الاستحمام بماء بارد، من تصفية للذهن وترتيب للأفكار. أعاد الفنجان إلى المطبخ، ارتدى ملابسه ومشى الهوينا على طول الممر إلى مكتبه في الطرف البعيد من الشقة.

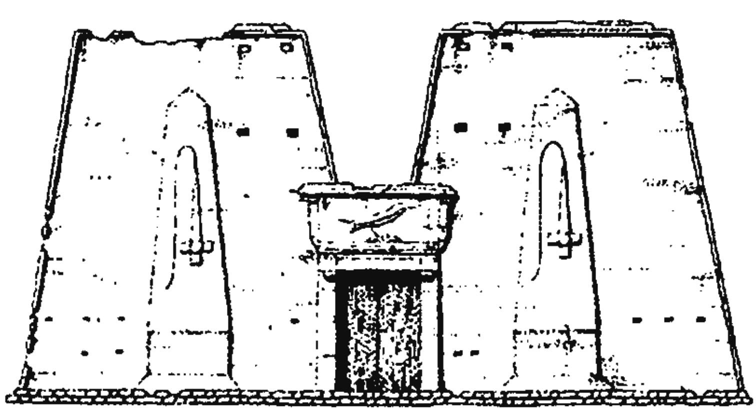
أينما حطّ رحاله في حياته - كامبردج، لندن، بغداد، القاهرة - يُفسح دائماً مساحة لعمله بالطريقة نفسها. يضع طاولته قرب الباب مباشرة، حيث يجلس والغرفة أمامه ووجهه نحو النافذة. كان هناك صفّ من خزائن أرشفة يمتد بجانب الطاولة، ورفوف من الكتب ترتفع من الأرضية إلى السقف على طول الجدارين الجانبيين، وكرسي ذو ذراعين، ومصباح ومشغّل أقراص مضغوطة محمول في الزاوية، مع ساعة على الحائط فوقه. كان ذلك الترتيب نفسه الذي اعتاد والده - عالم آثار مصرية بارز أيضاً - أن ينظّمه في مكتبه، وصولاً إلى النباتات في الأواني الفخارية الموضوعة فوق

خزائن الأرشفة والبساط الرثّ على الأرضية. كان فلين قد تساءل أكثر من مرة عمّا سيستنبطه محلل نفساني من ذلك التشابه، وأدرك أن ذلك سيكون على الأرجح ما سيعرفه من اتّباعه خطوات والده في علم الآثار المصرية: حاجة متعالية إلى الإرضاء والمنافسة، وإلى أن يكون محبوباً؛ كل الهراء المعتاد الذي يستخلصه المحلّلون النفسانيّون. حاول ألاّ يضخم الأمر. لقد مات والده منذ وقت طويل، وبعد كل ما سمعه ومرّ به، أصبح معتاداً تماماً آنذاك على ترتيب الأثاث ذاك، وأضحى تركه على تلك الحال أكثر سهولة؛ أياً يكن المعنى العاطفي المجازي لذلك.

دخل الغرفة وتوقف، كما يفعل دائماً، لينظر إلى اللوحة المؤطرة المعلّقة على الجدار فوق الطاولة. وهي عبارة عن رسم بخطوط حبر بسيطة يصوّر بوابة تذكارية - برجان على شكل مَعَين وبينهما، بنصف ارتفاعهما تقريباً، بابان مستطيلان تعلوهما عتبة. يحمل كل برج على واجهته صورة مسلّة داخلها رمز متصالب ورمز يشبه الأنشوطة - سدجت، الرمز الهيروغليفي للنار. كما تحمل العتبة أيضاً صورة، هذه المرة صورة لطائر ذي منقار صغير وذيل مدبب طويل. عند أسفل الرسم، نصّ مكتوب بخطّ صغير وارد في الأسطورة:

مدينة زرزورة بيضاء مثل حمامة، ومنقوش على بابها صورة طائر.
ادخل، وستكتشف هناك ثروات رائعة.

حدّق إليها، كرّر ما ورد في الأسطورة في نفسه - كما يفعل دائماً - ثم هزّ رأسه وذهب إلى الكرسي ذي الذراعين ورمى نفسه عليه، ونقر مفتاح مشغّل الأقراص المضغوطة، وصدحت أنغام مقطوعة شوبان الموسيقية الكئيبة والرنّانة حوله.



كان ذلك طقساً يتّبعه كل صباح، وقد اتّبعه منذ كان طالباً (واضح أن الجاسوس كيم فيلبي قد أثّر فيه): ثلاثون دقيقة من الاسترخاء والتأمل في بداية كل يوم - أو في هذه الحال، في منتصف النهار - حين يستريح، يعزل نفسه عن العالم ويركّز على أي مشكلة فكرية تؤرقه في تلك اللحظة، ودماغه لا يزال نشيطاً. أحياناً ربما تكون مشكلة مجرّدة - طريقة تفسير الصراع الأسطوري بين حورس وست، مثلاً - وأحياناً أخرى تكون شيئاً أكثر تحديداً: حجّة يطوّرها بحث أكاديمي، ربما، أو ترجمة كتابة غامضة.

ينتهي الأمر به كثيراً إلى إمعان التفكير في إحدى سمات لغز الواحة الخفية. كان هذا، أكثر من أي موضوع آخر، ما قد شغل تفكيره تلك السنوات العشر الأخيرة، وهو الموضوع الذي عاد إليه ذهنه هذا الصباح في ضوء الأحداث الأخيرة.

كانت مشكلة معقدة؛ وعويصة جداً كما يظن أحياناً: صور مقطّعة معقدة يبدو أن معظم أجزائها مفقودة وتلك القطع الموجودة لا تلائم أي نوع من النماذج التي يمكن تمييزها. حفنة من شظايا نصّية، معظمها متناقض أو غير مكتمل، قطعتان من فنّ حجري، عُرضة مجدداً للتفسير؛ مادة زرزورة، وبالطبع بُردي إمتي-خنتيكا. لم تكن أشياء كثيرة، وعند الأخذ في الحسبان كل شيء، تبدو مرادفاً في علم الآثار المصرية لمحاولة تفسير شيفرة إنغما النازية[1].

---

1 آلة إنجما Enigma Machine هو اسم يُطلق على أي آلة من عائلة الآلات الكهروميكانيكية الدوّارة التي تستخدم لإنتاج الشيفرة السرية، حيث إن هذه العائلة تشمل أنواعاً متعددة ومختلفة من الطرازات تستخدم لتعمية وفك تعمية الرسائل السرية. وكلمة إنجما كلمة إنكليزية تعني لغز. بدأ الاستعمال التجاري لإنجما في بدايات العقد الثاني من القرن العشرين، وقد تم استخدامها من قبل العديد من الجهات العسكرية والحكومية للعديد من الدول، ربما من أشهرها ألمانيا النازية في فترة قبل وفي أثناء الحرب العالمية الثانية. للطراز الألماني من هذه الآلة، والذي يدعى فيرماخت إنجما (بالألمانية: Enigma Wehrmacht)، هو الإصدار الذي أخذ شعبية واسعة بسبب سهولة استخدامه وصعوبة فك شيفرته وبسبب استعماله من قبل القوات العسكرية النازية. استطاع خبراء تعمية قوات الحلفاء فك تعمية عدد هائل من الرسائل باستخدام هذه الآلة. وقد تم فك التعمية عام 1932 على يد مشفّرين بولنديين هم ماريان ريفسكي، جيرزي وزيسكي، وهينريكي زيجلاسكي من مكتب التعمية البولندي. في منتصف عام 1939 تم نقل وسائل التعمية وفك التعمية من بولندا إلى بريطانيا وفرنسا. قدمت هذه الآلة مساعدة كبيرة لجهاز الاستخبارات العسكرية لقوى الحلفاء وقد سميت ألترا (ULTRA)، حتى إنه يقال إن نهاية الحرب الأوروبية كانت أبكر بعامين بسبب فك الشيفرة الألمانية. (المدقق)

مغمضاً عينيه، طافت موسيقى شوبان برقّة حوله، وترك فلين أفكاره تهيم، وقلّب كل شيء عشرات آلاف المرّات، ينقّب في الأدلّة كأنه يعمل في حقل آثار قديمة. أمعن التفكير في الأسماء المختلفة التي عُرفت بها الواحة - الواحة الخفية، واحة الطيور، الوادي المبجل، وادي بنبن، واحة نهاية العالم، واحة الأحلام - آملاً أن يتمكن عبر استعراضها مجدداً من العثور على دليل غفل عنه الجميع حتى ذلك الوقت. بدا الأمر شبيهاً بالإشارة إلى *إرت نت خبري*، عين خبري، التي كان مقتنعاً أنها أكثر من مجرد إحدى تلك العبارات الرمزية التي أحبها المصريون القدماء كثيراً، وأنها تشير إلى شيء محدد، شيء واقعي. إذا كانت كذلك، فإنه لم يستنبط ما تكون بعد، ولم يقترب إطلاقاً من فعل ذلك اليوم.

انقضت ثلاثون دقيقة، ثم ثلاثون أخرى - فم أوزيريس، لعنات سوبك وأبيب: ماذا كانت تعني بحق الله؟ - حتى بدأ ذهنه يتعب ففتح عينيه مجدداً. جال بصره لحظة في أرجاء الغرفة، ثم استقر على الرسم فوق الطاولة وما كُتِبَ تحته: *مدينة زرزورة بيضاء مثل حمامة، ومنقوش على بابها صورة طائر. ادخل، وستكتشف هناك ثروات رائعة*. وقف، ومشى إليها، نزعها عن الجدار وحملها عائداً إلى الكرسي، ثم جلس مجدداً ووازنها على ركبتيه.

كانت ورقة - أو نسخة عن ورقة، فالنص العربي الأصلي نُقل إلى الإنكليزية - من فصل من *كتاب الكنوز*، وهو دليل صائدي الكنوز من القرون الوسطى إلى مواقع مصر العظيمة، الحقيقية والخيالية. كان هذا الفصل تحديداً يخص واحة زرزورة الأسطورية المفقودة؛ إضافة إلى ذكر موجز ملغّز في مخطوطة من القرن الثالث عشر، وهي أقدم مرجع معروف عن المكان.

بالرغم من أنه لا يحظى بأي قيمة جوهرية، إلا أن الرسم كان أثمن مقتنيات فلين، وهدية من مستكشف الصحراء العظيم رالف ألجر باغنولد، الذي كان قد التقى به قبل وفاة الأخير بوقت قصير في عام 1990. كان فلين يحضّر رسالة الدكتوراه في ذلك الوقت (عن أشكال مستعمرات العصر الحجري في الجلف الكبير)، وأدّى افتتانهما المشترك بالصحراء الكبرى إلى توافق الرجلين مع بعضهما بعضاً على الفور. أمضيا سلسلة من أوقات بعد الظهر السعيدة معاً

يتناقشان حول أمور متعلّقة بالصحراء، والجلف، والأكثر إثارة للاهتمام على الإطلاق مشكلة زرزورة برمّتها؛ أحاديث ولا أروع أثارت اهتمام فلين بالموضوع للمرة الأولى.

حدّق إلى الرسم مبتسماً، وهو لا يزال حتى اللحظة - بعد عقدين تقريباً - يشعر بالإثارة التي اختبرها لوجوده في حضرة الرجل المستكشف.

لم يكن لدى باغنولد أي شك: كانت زرزورة مجرد أسطورة، وأوصافها في *كتاب الكنوز* - أكوام من الذهب والمجوهرات مبعثرة في كل مكان، ملك وملكة نائمان في قصر - محض حكاية خيالية، ولا يمكن أخذها على محمل الجد أكثر من هانسل وغريتل[1] أو جاك وشجرة الفاصولياء.

لم يكن هناك شك في أن *الكتاب* في جزء كبير منه خيال، مملوء أوصافاً مثيرة عن ثروات مخفية. بالرغم من ذلك، كلما تعمّق فلين في البحث، أضحى أكثر اقتناعاً أنك عندما تنزع الزخارف الواضحة تصبح زرزورة *كتاب الكنوز* في الواقع مكاناً حقيقياً. ليس ذلك فقط، إنما - كما أوضح في محاضرته في الأمسية السابقة - هي نفسها الواحة الخفية لدى المصريين القدماء.

قدّم الاسمُ نفسه دليلاً. جاءت زروزورة من كلمة زرزور العربية، أو طائر صغير، وهي صدى واضح لأحد الأشكال القديمة من عبارة ويت سيشتات: ويت أوبيدو، واحة الطيور.

كانت صورة البوابة تثير الفضول أيضاً: نسخة طبق الأصل تقريباً عن بوابة معبد ضخمة في المملكة القديمة. تشير المسلّتان ورمزا سدجت أيضاً إلى علاقة بمصر القديمة، وكذلك الطائر على العتبة الذي يعد تجسيداً واضحاً لطائر بنو المبجّل.

كانت القضية برمّتها غامضة بعض الشيء، وعندما تحدّث فلين عنها مع باغنولد، لم يقتنع الرجل الأكبر سناً بها. كان التشابه في الأسماء محضَ مصادفة بالتأكيد، كما جادل - توجد طيور في كل الواحات - في حين يمكن تفسير فن العمارة القديمة والرموز بسهولة، بأن مؤلف *الكتاب* قد نسخ ببساطة أشياء رآها في معابد وادي النيل، وأنه كان يعرفها على الأرجح.

---

1 تعرف القصة بالألمانية بهذا الاسم.

بالطبع، تبقى المشكلة الواضحة التي تتعلق بالمصدر - حتى إذا كانت زرزورة موجودة فعلاً وهي نفسها الواحة الخفية - الذي استقى المؤلف معلوماته منه. كان يُفترض بالواحة، بالمحصلة، أن تكون خفية.

الغريب أن باغنولد نفسه هو من قدّم جواباً من نوع ما. كانت هناك إشاعات - كما أخبر فلين - تفيد بأنّ قبائل صحراوية معينة تعرف مكان زرزورة؛ بدوٌ عثروا عليها مصادفة وقد صانوا سرَّ موقعها منذ ذلك الحين. بالنسبة إليه، لم يصدّق كلمة من ذلك، لكن، إذا كان فلين يبحث عن تفسيرات، فإن ذلك، برأي باغنولد، هو أكثرها ترجيحاً: لقد سمع المؤلف عن الواحة مما يجري تناقله شفاهاً عن بدوي وصل إليها فعلاً.

كان قد قال: "إنها حكاية رائعة. لكن، توخَّ الحذر. لقد أُصيب أكثر من شخص بالجنون في أثناء بحثه عن زرزورة. اهتم بالأمر، لكن لا تجعله هاجساً".

لم يفعل فلين ذلك، ليس في البداية. كان قد تابع سبر غور الموضوع، وحصل على كل ما استطاع الحصول عليه من معلومات عنه، لكنه لم يكن قطّ أكثر من هواية، ونشاطٍ إضافي مسلٍ يقوم به إلى جانب موضوع دراسته الرئيس. ثم أنهى رسالة الدكتوراه وابتعد عن علم الآثار المصرية ونسي كل ما يتعلق بزرزورة والواحة الخفية.

فقط عندما كرّت سبّحة حياته وعاد إلى مصر، واشترك في *ساند فاير*، بدأ يبحث في القضية مجدداً، ويعود إلى الأدلّة. وآنذاك فقط، أنشبت مخالبها فيه، وتحوّل اهتمامه إلى هاجس، والهاجس إلى شيء يبلغ حدّ الهوس الكامل.

عرف أنها في مكان ما هناك، واستطاع أن يشعر بذلك، بالرغم مما قاله باغنولد ومئة آخرون. زرزورة، *ويت سيشتات*، أياً يكن ما تدعوه بها - كانت هناك في الجلف الكبير. و لم يستطع العثور عليها، أو إيجادها لسوء الحظ، مهما جدَّ في البحث عنها.

حدّق إلى الرسم، وحاجباه مقطّبان عُبُوساً، وأسنانه مصطكة، ثم نظر إلى الساعة المعلّقة على الجدار.

صرخ، وهو يقفز على قدميه: "اللعنة!". خمس عشرة دقيقة فقط قبل أن يبدأ صف الهيروغليفية المتقدّمة. أعاد الرسم إلى مكانه، ثمّ حمل حاسوبه المحمول، وغادر

المبنى على عجل؛ بسرعة جعلته يغفل عن رؤية الشخص البدين الذي يجلس أمام نافذة مشرب العصير في المتجر المجاور، وهو يمسح وجهه بمنديل ويرتشف من قارورة كوكا-كولا.

الداخلة

يقع مستشفى الداخلة المركزي، كما تشير اللافتة على سطحه، على الطريق الرئيس في مووت. وهو بناء حديث من طابقين محاط بأشجار نخيل، ومطلي باللونين الأخضر والأبيض مثل معظم باقي أبنية البلدة. ترك زاهر وفريا اللاند كروزر في الساحة الأمامية، ودخلا المبنى حيث تحدّث زاهر إلى ممرضة تجلس إلى طاولة الاستقبال. أشارت إليهما نحو صفٍّ من المقاعد البلاستيكية ورفعت سماعة هاتف.

انقضت عشر دقائق، وأشخاص يدخلون الردهة حولهما ويخرجون منها، وصدى موسيقى خافتة يتردد من مكان ما بعيد في البناء. ثم اقترب منهما رجل أصلع في أواسط العمر يرتدي زيّ طبيب أبيض.

"آنسة هانين؟".

وقفت فريا وزاهر.

قال الرجل وهو يصافحها: "الدكتور محمد رشيد. آسف لجعلكما تنتظران".

كان يتكلم الإنكليزية بلسان ذَرِب، مع لكنة أمريكية في لهجته. تكلم بإيجاز بالعربية إلى زاهر الذي أومأ وجلس مجدداً. تقدّم زاهر فريا عبر ممر نحو الجهة الخلفيّة من المبنى بعد أن قال لها: "اتبعيني من فضلك". وشرح لها في أثناء سيرهما أنه قد اعتنى بشقيقتها في شهورها القليلة الأخيرة.

أخبرها، متحدثاً بتلك النبرة المتعاطفة، لكن المهنية التي يستخدمها الأطباء دائماً حين يصفون مرضاً خطيراً في مراحله الأخيرة: "أُصيبت بما ندعوه متغير ماربورغ؛ وهو شكل نادر من تصلب الأنسجة المتعدد يتطوّر فيه المرض بسرعة كبيرة. شُخّص مرضها قبل ستة شهور فقط، وفي النهاية، لم يعد بمقدورها استخدام أي من أطرافها تقريباً باستثناء ذراعها اليمنى".

سارت فريا ببطء بجانبه وهي بالكاد تستمع إلى ما يقوله. وكلما اقتربا من شقيقتها أضحى تصديق حدوث أيٍّ من ذلك أمراً أصعب.

كان رشيد يقول: "... أسهل عليها في القاهرة أو في الولايات المتحدة، لكنها كانت تشعر هنا بأنها في منزلها، وهكذا فعلنا ما يمكننا لجعلها ترتاح. كان زاهر جيداً جداً معها".

استدارا يميناً، ثمّ اجتازا باباً يُفتح آلياً، ونزلا سلالم إلى قبو المستشفى ثم سارا في ممر آخر، ووَقعُ خطواقما يتردد على الأرضية الآجرية. في منتصف الطريق تقريباً توقف رشيد وأخرج مجموعة مفاتيح وفتح قفل باب سميك وثقيل، مثل باب زنزانة. دفعه إلى الخلف، وتوقف جانباً ليسمح لفريا بالدخول. تردّدت، وبدا أن الحرارة حولها قد انخفضت فجأة، ثم بعزم وإرادة، تجاوزته إلى داخل الغرفة.

كانت القاعة كبيرة، يكسو أرضيتها آجر أخضر، وكانت باردة على نحو غير طبيعي، مع مصابيح نيون في السقف ورائحة مطهّر مبهمة في الجو. شاهدت أمامها، على طاولة مدولبة، شكل جسد مغطى بملاءة بيضاء. رفعت فريا يدها إلى فمها، وقد ضاق حلقها.

سأل الطبيب: "هل تودّين أن أبقى؟".

هزّت رأسها، خائفة من أنها إذا تكلمت ستبدأ النشيج. أومأ موافقاً، وقبل أن يُغلق الباب مال إلى الداخل مجدداً وقال بصوتٍ أكثر رقة مما كان عليه، وأقل تكلفاً: "الناس هنا في الداخلة لا يرحبون دائماً بالغرباء، لكنهم فعلوا ذلك مع ألكس. نادوها قائلين: يا *دكتورة*. ظهر تعبير احترام كبير. يا *دكتورة*، *والمستكشفة الجميلة* أيضاً... صعب أن أترجم ذلك بدقة لكنها تعني أساساً "المستكشفة الحسناء". سيفتقدونها كثيراً. سأنتظرك في الخارج. أرجوك، ابقي قدر ما تريدين".

طقطق الباب حين شدّه إليه، وحدّقت فريا إليه لحظة قبل أن تستدير وتتوجّه نحو جثة أختها. مدّت يدها ووضعتها على الملاءة، وضغطت إلى الأسفل، وأفزعها مدى نحول الجثة تحتها؛ كأنه لا يوجد عليها أي لحم.

وقفت على تلك الحال بعض الوقت، ذاهلة، تعض شفتها، وأنفاسها تخرج في لهاث قصير. ثم أمسكت، بتردد، الطرف الأعلى من الملاءة وسحبتها فكشفت أولاً عن وجه شقيقتها وعنقها، ثم باقي جسدها وصولاً إلى خصرها. كانت عارية،

وعيناها مغمضتين، وجلدُها شاحباً شبه شفاف باستثناء منطقة حول كتفها اليسرى حيث تظهر كدمة كبيرة على الجسد.

تمتمت: "آه! يا الله! آه! ألكس!".

الغريب أن الأشياء الصغيرة، والتفاصيل الغامضة هي التي أثارت انتباهها، لا الجثة بوجه عام؛ كأن النظر إلى المشهد كله كثيرٌ جداً عليها، وأنها بالتعامل مع أجزاء صغيرة فقط، قطعة بعد أخرى، يمكنها أن تستوعب شناعة ما تنظر إليه؛ الشخص الذي تحدّق إليه. الخال على عنق شقيقتها، أثر الندبة المقوّس على شكل منجل على يدها اليسرى حيث جرحت نفسها بسلك شائك حين كانت صغيرة، كدمة أخرى، أصغر كثيراً، تحت طيّة مرفقها الأيسر، ليست أكبر من بصمة إبهام.

تفصيلاً بعد آخر، نظرت إلى الجثة كلها، تجمع أجزاء شقيقتها معاً، وتستردها، حتى استقرت عيناها أخيراً على وجه ألكس.

بالرغم من كل الألم والكرب اللذين واجهتهما في الشهور القليلة الأخيرة، إلا أن تعبير وجهها بدا مسالماً وقانعاً على نحو غريب، والعينان تبدوان مغمضتين كأنها تنام مرتاحة، وطرفا الفم يرتفعان قليلاً إلى الأعلى وكأنها على وشك الابتسام. لم يكن وجهها وجهَ شخص مات متألماً ويائساً.

أو هذا ما حاولت فريا أن تقنع نفسها به. فكّرت في والديها في تابوتيهما في المشرحة بعد حادث السيارة الذي لقيا حتفهما فيه، وتذكرت أنهما قد ظهرا أيضاً بالمظهر نفسه. ربما كان ذلك ما تبدو الجثث عليه، وهي الوضعية الجسدية المعتادة للموت، أو ربما كانت تستنبط الكثير من ذلك.

على أيّ حال، لم يكن بمقدورها مساعدة نفسها؛ كانت بحاجة إلى تأكيد أن انتحار شقيقتها لم يكن يائساً وموحشاً على نحو لا يوصف كما يبدو، وأنها قد توفيت سعيدة بطريقتها الخاصة. ذلك ما أرادت فريا أن تصدّقه، وتحتاج إلى تصديقه. كان البديل - أنها قد توفيت وحيدة، وتشعر بالألم واليأس - أكثر فظاعة من أن تفكر فيه. لا بدّ من أن هناك شيئاً آخر؛ ومضة أمل.

مدّت يدها ومسّت وجنة شقيقتها: كان الجلد بارداً وناعم الملمس، مثل المرمر. تذكرت حادثة حصلت معها عندما كانت في عمر الثالثة عشرة، عندما كانت خارج المنزل تقوم بإحدى نزهاتها الطويلة حول ماركهام، وعثرت

مصادفة على ألكس وغريغ - الحبيب الذي سيصبح لاحقاً خطيب ألكس - يستلقيان نائمين في حضني بعضهما في طرف حقلٍ من القش. كانا مستلقيَين على جانبيهما، وجسداهما متداخلين ببعضهما، وذراع غريغ تقبض على خصر ألكس، وابتسامة باهتة تظهر على زاويتي فمها. ذلك التعبير نفسه الذي يظهر عليها الآن وهي متوفّاة. غريغ وألكس... بدأت فريا تنشج.

غصّت وهي تقول: "آسفة. آه، يا الله! أنا آسفة جداً. أرجوكِ، ألكس... أرجوك...".

أرادت أن تقول لها: *سامحيني*، لكن الكلمة لم تخرج. وبدلاً من ذلك، انحنت إلى الأمام، قبّلت جبين شقيقتها ووضعت وجنتها لحظة على جبهتها، ثم غطّتها بالملاءة مجدداً، وأسرعت بالخروج من الغرفة.

القاهرة

مجمّعُ السفارة الأمريكية منشأة محاطة بأسوار عالية وحراسة مشدّدة قبالة ميدان التحرير، وهو أكثر شبهاً بسجن يخضع لإجراءات أمنية مكثّفة من مقرّ بعثة دبلوماسية، ويهيمن عليه مبنيان.

القاهرة 1، كما يدعوه الموظفون، برج بشع داكن اللون يرتفع خمسة عشر طابقاً في مركز المجمّع ومقر معظم خدمات السفارة الرئيسة: مكتب السفير، مكتب الارتباط الحكومي، مكتب الشؤون العسكرية، قسم جمع المعلومات الاستخباراتية.

القاهرة 2، يبعد مسافة قصيرة عن الأول في المجمّع، أقل ارتفاعاً من المبنى الآخر، وواجهته حجرية عاجيّة اللون، ونوافذه عبارة عن كوّات مستطيلة، وهناك طبقا استقبال بث فضائي يجثمان على سطحه مثل أذنين بارزتين عملاقتين. كما توجد أقسام الدعم التي تحافظ على ديمومة عمل السفارة: الحسابات، الإدارة، الصحافة، المعلومات. وفي الطابق الثالث، يوجد مكتب سي أنغلتون.

جالساً خلف مكتبه آنذاك، والباب موصد والستائر مسدلة، ثبّت إبرة في محقن زرق أنسولين. رفع قميصه، وأمسك قطعة من لحم مطاطي، فأصبح الجلد أكثر بياضاً مما كان عليه من أثر الضغط.

استمر الأمر على تلك الحال منذ كان طفلاً يترعرع في الستينيات في برانتلي، لاباما. في تلك الأيام، كانت الحقن تتضمن قارورة، ومحقنة، وإبرة بطول إصبعه، أما الآن، فقد أصبحت عبارة عن خرطوشة صغيرة أنيقة وضاغطة ليست أكبر من قلم حبر سائل. على أيّ حال، إن كانت التقانة قد تطوّرت، فإن بعض الأشياء لم تتغير قطّ. بصفته مصاباً بداء السكر من النوع الأول مدى الحياة، لا يزال ينبغي له أن يحقن نفسه أربعة مرات يومياً، وبانتظام مثل الساعة (فتى بطن وسادة الدبابيس! كان الفتيان في المدرسة ينشدون له). وحتى الآن، وبعد نحو أربعين سنة، لا يــزال يكره فعل ذلك.

صكّ أسنانه وبدأ يهمهم يور تشيتنغ هارت[1] لهانك ويليام، وغنّــى بضـــعة مقاطع قبل أن يدفع المحقنة بثبات في بطنه. ثقبت الإبرة جلده بلسعة حادة مؤقتـــة. تبعها هناك لحظة حتى ينتقل الأنسولين إلى الأنسجة الدهنية، ويبقيه حياً، ثم بتنهيدة ارتياح، أعاد المحقنة إلى حافظتها. زرّر قميصه ثم مشى الهوينا نحو النافذة، ورفـــع الستارة، فغمرت أشعة الشمس المكتب.

كانت المساحة صغيرة ومكتظة، والأثاث – طاولة، كرسي، أريكة، خزانـــة كتب – بسيطاً وبشعاً: أثاث دجيه آي، كما يدعونه. كان سيشعر براحة أكبر في القاهرة 1، حيث المكاتب أكبر وتجهيزاتها أفضل، لكنه منتدب إلى العلاقات العامة، والقسم موجود في القاهرة 2، ولهذا هو هناك. أسئلة أقل بتلك الطريقة. لم يكـــن الأمر سيستغرق وقتاً طويلاً، كما يأمل. عندما تُحلُّ قضية *ساند فـــاير* برمّتـــها، سيحزم أمتعته ويغادر على متن أول طائرة.

في الأسفل، كان شخصان يتحركان إلى الأمام والخلـــف في ملعـــب كـــرة مضرب السفارة، وصدى ضربات الكرة المكتومة المنتظمة يتردد خافتـــاً في أنحـــاء المجمّع. راقبهما متسائلاً بطريقة مجرّدة عن شعور المرء وهو يتحرّك بتلك الحريـــة، قبل أن يعود إلى طاولته. جلس ومدَّ يده إلى ملف كان يعمل عليه قبل أن يحقـــن نفسه بالأنسولين. على الغلاف، ظهرت كلمة سري ممهورة قُطرياً بخـــط أحمـــر، وتحتها اسم: ألكسندرا هانين. فتحه وبدأ يقرأ.

---

1 قلبك الغشّاش.

الداخلة

كانت هناك أعمال ورقية يتوجّب إنجازها، ونماذج ينبغي توقيعها لإخراج الجثة إلى الدفن، وكثير من الإجراءات البيروقراطية. اقترب الوقت من أواخر الأصيل حين انتهى كل شيء واستطاعت فريا مغادرة المستشفى. كانت أشعة الشمس الحادة اللاذعة في وقت أبكر من اليوم قد ضعفت إلى سديم كثيف عسلي اللون، إلاّ أنّ الحرارة بقيت على شدّتها.

قال زاهر حين صعدا إلى اللاند كروزر: "سأقلّك إلى منزل الدكتورة ألكس".

ردّت قائلةً: "شكراً لك".

والتزما الصمت بعد ذلك.

انطلقا على ما بدا أنه طريق محوري رئيس نحو الشمال الغربي عبر الواحة. امتدت حقول الذرة وقصب السكر على كلا الجانبين، وشاهدت فريا قنوات ري، وبساتين زيتون ونخيل، وأشجاراً ظنّت أنها أشجار توت. لم تكن تعيرها اهتماماً كبيراً في الواقع، إذ لا يزال ذهنها يكافح ليتلاءم مع ما قد شاهدته في المشرحة.

بعد عشرين دقيقة، استدارا يساراً إلى طريق أقصر أوصلهما إلى قرية قلمون؛ وفقاً ليافطةٍ باللغتين العربية والإنكليزية مثبّتة في ضواحيها. رأت مسجداً، ومقبرة، وبعض أكشاك الفاكهة والخضار الصدئة والمتنافرة تماماً، ومتجراً واجهته زجاجية عليه لافتة كوداك من مصابيح النيون في الخارج ولوحة كتب عليها: "تحميض صور بسرعة".

بعد القرية تماماً، استدارا مجدداً، هذه المرة إلى درب ترابي وعر تتناثر عليه الأنقاض. أمسكت فريا مقبض الباب حين تمايلت اللاند كروزر ذات اليمين وذات اليسار، تراقب شاردة الذهن المزارع تفسح في المجال للصحراء، واللون الأخضر يختفي لتسود تدرّجات داكنة من اللونين البرتقالي والأحمر. اهتزّا صعوداً وهبوطاً على الدرب الذي تلوّى عبر بيئة وعرة غير منتظمة من الروابي الرملية والحقول الملأى بالحصى قبل أن يصعدا إلى تلة منخفضة تمتد خلفها الصحراء على نحو مثير. مالت فريا إلى الأمام، فتلاشت صدمة المستشفى شيئاً فشيئاً وهي تنظر إلى المشهد

أمامها: بحر شاسع متموج من الرمال يمتد بعيداً إلى حيث يمكن للبصر أن يصل، ويبدو أن الكثبان ترتفع وتصبح أكثر حدّة كلما ابتعدت أكثر، وهكذا ما يبدأ أكواماً صغيرة يتحول إلى موجات عارمة حادة الزوايا حين تصل إلى الأفق. في الأسفل، في السهل الواسع بين التلة وأول الكثبان، تقع واحة فرعية صغيرة من حقول وبساتين النخيل تفيض خصباً وسط القفر المحيط بها.

قال زاهر، وقد خفّف السرعة، مشيراً إلى نقطة بيضاء قرب الطرف البعيد من الخضرة: "هذا منزل الدكتورة ألكس".

ابتسمت فريا رغماً عنها، تفكّر في مدى ملاءمة المنزل شقيقتها، ومدى سعادتها هناك.

قالت: "إنه جميل".

همهم زاهر فحسب، ثم زاد سرعة السيارة التي نقلتهما إلى الأسفل عبر السهل.

تجاوزا بعض الحقول النائية، المحروثة حديثاً، وما بدا أنها طيور بلشون بيضاء تنقط الحَبَّ من تربة بلون الشوكولاته، ودخلا الواحة. مع اقترابهما آنذاك من منزل شقيقتها، أولت فريا مزيداً من الاهتمام لما يحيط بها، واستدار رأسها في هذا الاتجاه وذاك وهما يهتزّان والسيارة تسير بهما ببطء على طول درب رملي. انتشرت أشجار كثيفة في كل مكان حولهما، وألقت بشباك عنكبوتية مرقّطة من الضوء والظل على الأرض. مرّا أمام حظيرة حيوانات مصنوعة من أغصان الأشجار، وشاهدا كومة من قصب السكر المقطوعة، وبيدراً مستطيلاً قبل أن تظهر عربة يجرّها حمار تتكدّس عليها عالياً أغصان زيتون عند زاوية أمامهما ما أرغم زاهر على التوقف والسماح لها بالمرور. نظر رجل عجوز، سفعت الشمس بشرته ويعتمر قبعة قش، إليهما شزراً حين تجاوزاه، ولفافة تبغ تتدلّى من فمه الأدرد.

قال زاهر حين مرّت العربة: "هذا محمود غروب. إنه ليس رجلاً جيداً. لا تتحدّثي إليه أبداً".

رمق فريا بنظرة سريعة ليتوثق من أنها قد تلقت الرسالة، ثم عمل على تروس اللاند كروزر وتابع طريقه مع تضاؤل الغطاء النباتي تدريجياً حتى وصل الدرب أخيراً إلى فسحة من أشجار الجكرندة ذات الأزهار البنفسجية. أمامهما، قرب

الحافة البعيدة للفسحة، ظهر منزل ألكس؛ طابق واحد، ومطلي بالكلس، وعلى سقفه طبق استقبال بث فضائي، وباب أمامي تؤطره نبتة الجهنميّة (نبات متعرّش). أوقف زاهر السيارة، ثمّ خرج منها وأمسك حقيبة فريا من على المقعد الخلفي، ومشى متوجّهاً إلى الباب الأمامي.

سأل وهو يُخرج مجموعة مفاتيح من جيب جلابيته ويفتح قفل الباب: "هل أنت متأكّدة من أنكِ لا تريدين الإقامة في فندق؟ يمتلك شقيقي فندقاً جيداً في مووت".

شكرته وقالت إنها سعيدة جداً حيث هي.

هزّ كتفيه، ثمّ فتح الباب، وألقى الحقيبة في الداخل.

قال: "تركت مدبّرة المنزل طعاماً. سخّنيه في الفرن. سهل جداً".

سلّمها المفاتيح وزوّدها برقم هاتفه الخلوي الذي سجّلته على هاتفها.

حذّرها قائلاً: "لا تسيري بين الأشجار حافية القدمين، فهناك أفاعٍ كثيرة. ولا تتحدّثي إلى محمود غروب، فهو رجل سيئ جداً. سآتي غداً صباحاً عند السابعة والنصف لأصطحبك إلى... الدكتورة ألكس".

سكت؛ كأنه تردد في قول الكلمة.

قالت: "جنازة. شكراً لك".

وقفا لحظة، وزاهر يحرّك قدميه كأنه ينوي قول شيء ما. أرادت فريا أن يذهب فحسب. بدا أنه يقرأ أفكارها، فأحنى رأسه قليلاً، وعاد إلى اللاند كروزر ثم استدار بها في مكانها وقادها مبتعداً.

عندما أصبحت السيارة خارج مرمى البصر، دخلت فريا المنزل، وأغلقت الباب خلفها. تلاشى هدير محرك اللاند كروزر ببطء، وسمعت صوت مضخة ري بعيدة، وحفيفاً وخشخشة خافتة على نحو متقطّع لسعف نخيل تهتز في النسيم.

كان المبنى من الداخل بارداً ومظلماً، ووقفت لحظة هناك مرتاحة لكونها أصبحت لوحدها أخيراً، ثم اجتازت غرفة معيشة كبيرة، وفتحت باباً خشبيّاً على مصراعيه، وخرجت إلى شرفة في الجهة الخلفية من المنزل. كانت بقعة جميلة، تظللها شجرة جكرندة عملاقة وتطل على مناظر رائعة في الصحراء، وكان الهواء

معطّراً برائحة الورود والحمضيات. تخيّلت ألكس تقف هناك، وبدأت تبتسم، لكن الابتسامة تلاشت حين أبصرت الكرسي المدولب جاثماً على الطرف البعيد من الشرفة. فزعت؛ حدّقت إليه برعب كأنه إحدى أدوات التعذيب، ثم استدارت، وعادت إلى الداخل.

كانت هناك مجموعة من الغرف - مطبخ، حمّام، نوم، مكتب، مخزن - مفتوحة على غرفة المعيشة الرئيسة، فتجولت من واحدة إلى أخرى، تستوعب تفاصيل المكان. لم تكن هناك قطع أثاث كثيرة أو زخارف - كانت ألكس دائماً على تلك الحال، تعيش ببساطة وتكره الفوضى - لكنه بالتأكيد منزل شقيقتها، وبصمتها الشخصية تظهر في كل مكان وعلى كل شيء. عرفت ذلك من مجموعة أقراص المدمجة (باوي، نيرفانا، ريتشارد تومبسون، مقطوعات شوبان الموسيقية التي تحبها)، الخرائط التي تنتشر على كل الجدران، عيّنات من الصخور المصنّفة الموجودة على كل عتبة نافذة. شمت هناك أيضاً رائحة ألكس، الخفية على الغريب ربما، والواضحة لفريا التي قد ترعرعت معها: صابون قطران الفحم من نوع رايت ممزوجة بمزيل الرائحة شور، ومسحة صغيرة من عطر سمسارا.

وصلت إلى غرفة النوم أخيراً. كانت سترة ألكس القماشية القديمة معلقة على مشجب خلف الباب. يا للهول! كم سنة مضت على اقتنائها تلك السترة؟! لفّت فريا ذراعيها حولها، وضغطت وجهها على القماش البالي، ثم ذهبت إلى السرير، وجلست عليه. شاهدت على الطاولة بجانب السرير ثلاثة كتب: "*فيزياء الرمال المتحركة والكثبان الصحراوية*" لرالف ألجر باغنولد، و"*قبر إمتي-خنتيكا السري*" حسن فدوي - منذ متى أضحت ألكس تهتم بالآثار المصرية؟ - والأكثر إيلاماً، "*أوراق العشب*" لوالت وايتمان، النسخة القديمة التي كانت تخص والدهما سابقاً. ثلاثة كتب وثلاث صور أيضاً: واحدة لوالديهما، وواحدة لرجل وسيم داكن الشعر، وهو شخص يبدو مظهره أكاديمياً بنظارته الدائرية وسترته المخملية، وواحدة...

مالت إلى الأمام ورفعت تلك الصورة الثالثة. كانت لها، فريا، تبتسم بتكلّف وتمسك أرفع وسام في عالم التسلق، جائزة *الرزّة الذهبية*. كانت قد أحرزتها السنة الماضية فقط، ولهذا، فإن الله وحده يعلم كيف حصلت ألكس على الصورة. كانت

هناك، مع صورة ثانية أصغر مثبتة فوقها عند زاوية الإطار؛ لقطة بحجم صورة جواز السفر للشقيقتين، التُقطت حين كانتا مراهقتين، ترسمان تعبيرات ساخرة على وجهيهما أمام آلة التصوير وهما تضحكان. ضمّت الصورة إلى صدرها، وعيناها تفيضان دموعاً.

همست قائلةً: "أفتقدك".

لاحقاً، في وقت متأخر، بعد أن هدأ روعها، غادرت فريا المنزل ومشت في الصحراء. صعدت إلى قمة أقرب كثيب، وجلست أرضاً تضع ساقاً على أخرى على الرمل. حدّقت بعض الوقت إلى الشمس تهبط ببطء نحو الأفق الغربي، ثم أخرجت المغلف المجعّد الذي يحمل خاتم بريد مصر وفتحت الرسالة داخله؛ آخر رسالة كتبتها ألكس إليها. قرأت: "إلى شقيقتي الحبيبة فريا".

القاهرة - الجامعة الأمريكية

في نهاية الأصيل، بعد إنهاء محاضراته ذلك اليوم - الهيروغليفية المتقدّمة، النظرية والممارسة في علم الآثار الميداني، الأدب المصري القديم، الإنكليزية للمبتدئين نيابة عن شخص غادر في إجازته السنوية - ذهب فلين إلى مكتب ألان بيتش "المثير للاهتمام"؛ ليحاول اكتشاف المزيد عن لقاء الأخير بحسن فدوي.

قال بيتش شارداً، وعيناه تركّزان على الطاولة أمامه حيث يجمع قطع آنية خزفية كبيرة متشظية: "واضح أن مبارك نفسه قد أمر بإطلاق سراحه باكراً. خدمات سابقة لعلم الآثار المصرية وكل تلك الأشياء. بالرغم من ذلك، حتى ثلاث سنوات سيئة كافية. هل...؟".

أومأ نحو أنبوب الصّمغ اللاصق "دوكو سيمنت" الموضوع على طرف الطاولة. نزع فلين الغطاء وناوله إياه. وضع بيتش خطّاً رفيعاً من الغراء على طول حافة القطعة الصغيرة وضغطها بإحكام على قطعة أخرى، وبقي ممسكاً القطعتين حتى تلتصقا معاً.

تابع قائلاً: "لن يعمل مجدداً أبداً، بالطبع. ليس بعد ما فعله. لا يمكنني التفكير في الهاجس الذي استحوذ عليه. مأساة كاملة. رجل لامع. يعرف حقاً أوانيه الفخارية".

قلّب القطعتين بين يديه تحت مصباح طاولته، متوثّقاً من أنهما قد التصقتا كما يجب.

جازف فلين قائلاً: "طراز بدجا؟"، يعرف أن الطريقة المثلى والوحيدة فعلاً لجعل زميله يتابع حديثه هي بإجراء دردشة معه حول الفخّار الذي يحبه. أومأ بيتش، ووضع القطعتين الملتصقتين بغراء بعناية على الطاولة وأمسك قطعة أخرى من الآنية.

قال: "من قرية العمّال في الجيزة. ألقِ نظرة على هذا".

كانت القطعة ممهورة بخرطوشة باهتة جداً، والإشارات الهيروغليفية - قرص شمس، عمود دجد، أفعى مجلجلة - بالكاد مرئية.

قرأ فلين: "جدف-رع".

ابتسم بيتش: "إضافة إلى خراطيش حفرة المراكب، عُثر على الدليل المباشر الوحيد عن ابن خوفو في الجيزة. أهذا مثير للاهتمام أم ماذا؟!".

وافق فلين قائلاً: "إنه مثير للاهتمام جداً".

توقف لحظة حين وضع بيتش القطعة المنقوشة جانباً وبدأ يبحث بين القطع الأخرى عمّا يناسبها، ثم سأل: "إذاً؟ ماذا قال أيضاً؟".

"همم؟".

"فدوي. حين ارتطمت به. ماذا قال أيضاً؟".

"آه! صحيح".

بدا بيتش مرتبكاً قليلاً من السؤال؛ كأنه ظنّ أن ذلك الحديث الخاص قد انتهى.

"حسناً، لأكون صادقاً معك، كان مشتت الذهن قليلاً، وفي حال يرثى لها. بدا رجلاً تعيساً، ونحيلاً مثل مدمّة. تعرف كم كان مظهره أنيقاً دائماً، وتفضّله السيدات بكل المقاييس... أظن أن الغاوي هو اسمه الفني، بالرغم من أنني لست متأكّداً من ذلك. على أيّ حال، عندما تنظر إليه الآن... آها!".

أمسك قطعتين أخريين، حافة إحداهما المحزّزة تتطابق تماماً مع الأخرى.

قال فلين محاولاً إبقاءه يتحدث عن الموضوع نفسه: "فدوي".

"ماذا؟ آه! نعم، نعم. أصرّ على أنه بريء، وأن كل شيء سوء فهم، وأنه ضحية. حزين، حقاً. أعني أن الدليل كان مقنعاً جداً مما سمعته، ولديه حتى بعض

مواد توت عنخ أمون وفقاً للروايات كافة. لا يمكن أن أتخيل الهاجس الذي سيطر عليه".

هزَّ رأسه وانحنى إلى الأمام ثم وضع خطّاً يشبه أثر الحلزون على طول حافة إحدى القطع، وشدّها بإحكام إلى القطعة الأخرى ورفعهما، كما المرة السابقة، تحت المصباح ليتوثق من أن العمل دقيق.

"هل ذكرني؟".

حاول فلين إبقاء السؤال عَرَضياً في واقع الأمر.

"همم؟". كان بيتش يحدّق إلى الجزء الملتصق، ويقلّب القطعة بين يديه.

كرّر فلين، بصوتٍ أعلى: "هل ذكرني؟".

"نعم، فعل. ولكن مصادفة".

تحرّكت عينا بيتش إلى الأعلى ثم الأسفل مجدداً.

"في الواقع، قال أشياء بغيضة. بغيضة جداً. أعني أعرف أنك من كشف الأمر، لكن...".

أحجم عن الكلام حين أدرك أن اللصق غير دقيق. طقطق بلسانه منزعجاً وانحنى فوق المصباح وحاول بهدوء أن يثبّت القطعتين كما ينبغي.

سأل فلين: "ماذا قال؟".

لم يتلقَّ رداً.

"ماذا قال فدوي يا ألان؟".

تمتم زميله وهو يدفع القطعتين بقوة على بعضهما: "لا أظن حقاً أنني أود تكرار ذلك النوع من اللغة هنا. ما قاله يخصه وحده... آه! اللعنة!".

كانت القطعتان قد انفصلتا في يده. ألقى نظرة انزعاج فوق الطاولة كأنه يقول: "لو أنك لم تشتت انتباهي بأسئلة حمقاء لما حدث ذلك"، ومدَّ يده إلى أنبوب دوكو اللاصق. قبل أن يمسكه مال فلين إلى الأمام، ورفعه ثمّ أبعده عنه ما أرغم بيتش على النظر إليه.

"ماذا قال يا ألان؟".

التقت عيناهما، وبتنهيدة سخط، وضع بيتش القطعتين على الطاولة واسترخى على كرسيه.

"إذا كانت الإشاعات التي سمعتها صحيحة...، لقد كرّر الكلام نفسه تقريباً فدي قاله لك في المحكمة حين حكموا عليه. أنا متأكّد من أنك تتذكر ذلك".

كان فلين يتذكر بالتأكيد. كيف يمكن أن ينسى؟

كان فدوي قد صرخ قائلاً: "سأقتلك يا برودي. سأجعلك تتذكّر يوم كنت معمّ من الرجال وأقتلك، أيها الوغد الخائن القذر!".

قال بيتش: "لم أكن لأعدّه أمراً شخصياً".

"كيف يفترض بحق الله أن أعدّه؟".

"حسناً، أنا متأكّد من أنه لم يعنِ ذلك. إنه عالم آثار، بالمحصلة، لا قاطع طريق. حسناً، عالم آثار سابق. لن يعمل مجدداً أبداً بعد ما فعله. لا يمكن أن أفكّر حقاً في الهاجس الذي سيطر عليه. هل يمكنني...؟".

أشار إلى أنبوب دوكو اللاصق فناوله فلين إيّاه ومال بيتش فوق الطاولة مجدداً.

سأل مغيراً الموضوع: "هل ستذهب إلى حفل ترويج كتاب دونالد الليلة؟ ستكون مناسبة رائعة، خاصة إذا لم يظهر حبيبه اللعين فيها".

هزّ فلين رأسه، ونهض واقفاً على قدميه.

"سأكون على متن رحلة الخامسة عصراً إلى الداخلة. استمتع".

رفع يده مودّعاً ومشى نحو الباب.

"ذكر شيئاً عن واحة".

توقف فلين واستدار ناظراً إليه، فوجده لا يزال منكبّاً على آنيته، غافلاً على ما يبدو عن تأثير ذلك التعليق الذي قاله من دون مبالاة.

تابع وهو غارق في عمله: "لأكون صادقاً، لم أفهم شيئاً من ذلك. كان يثرثر، ومنفعلاً جداً. ادّعى أنه قد عثر على شيء ما، أو أنه عرف شيئاً! لا أتذكر بالتحديد. على أيّ حال، إنه أحد الأمرين بشأن واحة. ولم يكن ليخبر أحداً، وأن ذلك سيكون انتقامه. كان متعباً، ومنفعلاً جداً، ونحيلاً مثل مدمّة. يبدو الأمر مأساوياً حين تفكر فيه. هل أخبرتك يوماً عن قوائم جرار الشراب الهيرية من عهد السلالة الثانية في نيموس؟ لصٌّ أم لا، يعرف بالتأكيد أوانيه الفخارية، ويجب أن تعترف له بذلك".

نظر بيتش إلى الأعلى، لكن فلين كان قد خرج من الغرفة وتركه يتحدث مع نفسه.

الداخلة

جالسة على قمة كثيب، جعل نسيم قوي مفاجئ الرمال حولها همس وتمس، لكن فريا تابعت قراءة رسالة ألكس، وصوت شقيقتها يرن واضحاً داخل رأسها.

واحة الداخلة، مصر

3 أيار

إلى شقيقتي الحبيبة فريا،

أبدأ بهذه الكلمات؛ لأنه بالرغم من انقضاء عدّة سنوات منذ تحدّثنا معاً أو رأينا بعضنا آخر مرة، وبالرغم من أن الألم والغضب كبيران، ولم يكفّا لحظة واحدة قط عن أن يكونا حقيقيين، إلا أنك لم تفارقي مخيلتي لحظة واحدة قطّ. أنتِ شقيقتي الصغرى، وبغض النظر عمّا جرى بيننا، وكل ما قيل وحدث، بقيتُ أكنُّ لك الحب، وسأبقى دائماً.

أريد أن تعرفي هذا يا فريا؛ لأنني قد أدركت أخيراً أن المستقبل مكان غامض، مملوء بالشك والظلال، وإذا لم نفصح عمّا في قلوبنا الآن، في الحاضر، فقد تضيع فرصة القيام بذلك إلى الأبد. لهذا أقولها مجدداً... أحبك يا شقيقتي الصغرى، أكثر مما يمكنني التعبير عنه، وأكثر مما يمكن أن تعرفي على الأرجح.

الوقت آخر المساء الآن، والقمر بدر في السماء، أكبر قمر يمكن أن يشاهده المرء على الإطلاق والأشد سطوعاً: واضح جداً، حيث يمكنك تمييز الفوهات والبحار على سطحه، كبير جداً حيث تشعرين بأنه بمقدورك مدُّ يدك ومسّه. هل تتذكرين تلك القصة التي كان والدنا يسردها لنا؟ كيف أن القمر في الواقع باب، وإذا صعدت إلى هناك وفتحته يمكنك اجتياز السماء مباشرة إلى عالم آخر؟ هل تتذكرين كيف كنا نحلم بما يبدو عليه، ذلك العالم السري؛ مكان جميل مملوء بالورود والشلالات والطيور التي تجيد الكلام! لا يمكنني تفسير ذلك يا فريا، ليس بوضوح، لكنني نظرت أخيراً عبر ذلك الباب ولمحت الطرف الآخر، وهو كما تخيلناه تماماً. وربما أكثر روعة. عندما ترين ذلك العالم، لا يسعك إلا أن تشعري بالأمل. بطريقة ما، يا شقيقتي الصغرى، هناك دائماً باب، وخلفه ضوء، مهما بدت الأشياء حالكة:

هناك أشياء كثيرة أود قولها، وأمورٌ كثيرة أرغــب في إخبــارك بهــا، وأن شاركك فيها وأصفها لك، لكن الوقت متأخر وأنا متعبة ولا طاقة لــدي كمــا أيام الخوالي. على أيّ حال، وقبل أن أتوقف عن الكتابة هناك شيء واحد أريــد ن أطلبه منك - أردت أن أطلبه منك منذ سنوات عديدة - وهو صــفحك. مــا حدث قد حدث، وبالرغم من ألمي العظيم آنذاك، كان يجب أن أعرف أن ذلــك سيحدث وأنني سامنعه، وسأحميك. كان يجب، أيضــاً، أن أتحلّــى بالشــجاعة أتواصل معك قبل الآن وأقول ما أقوله الآن. إنه خطأي يا فريا، وقــد انقضــت سنوات الآن والألم حبيس النفس، ولم أكن الشقيقة التي يجب أن أكونها. آمــل، طريقة ما، أن تصلح هذه الرسالةُ الأمورَ.

سأكفّ عن الكتابة عند هذا الحدّ. أرجوك، لا تحزني. الحياة رائعة، وهنــاك حمال كثير في العالم. كوني قوية، تسلقي عالياً، واعلمي أنه مهما حدث، وأينمــا كنتِ، فسأكون دائماً بطريقة أو بأخرى معك. أحبك كثيراً.

ألكس س س س

ملحوظة: الزهرة المرفقة أوركيد صحراوية. إنها، كما قيل لي، نادرة جــداً. حتفظي بها وفكّري فيّ.

مسحت فريا الدموع من عينيها، ووضعت الرسالة على قمــة الكثيــب، ثم خرجت الزهرة من المغلّف. كانت تويجاتها الجافة رقيقة مثــل ورق أرز ولونهــا برتقالياً ذهبياً داكناً، مثل الرمال حولها. حدّقت إليها، ثم طوتهــا بعنايــة داخــل الرسالة، ولفّت ذراعيها حول ركبتيها وراقبت الشمس تهبط ببطء نحــو الأفــق، والنسيم العليل يهسُّ على الرمل، والصحراء تتموج وتتلوّى بعيداً مثل فسحة مــن تفتا مجعّدة.

دفنوها باكراً في صباح اليوم التالي، ليس بعيداً عن منــزلها، في روضةٍ مــن أشجار السنط (الصمغ العربــي) المزهرة، عند طرف الواحة الصغيرة تماماً. كانت هناك ورود على الأرض - زينية وعنّاقية - ورائحة صريمة الجدي تعبق في الهــواء،

ومن مكان ما وراء القبر، سمعت خرير ماء يسيل وَشَلاً إلى حوض. كان، كما فكّرت فريا، واحداً من أجمل الأماكن التي شاهدقما من قبل وأكثرها هدوءاً.

لم يكن حاضراً إلا مجموعة صغيرة فقط، وهو ما كانت ألكس سترغب فيه: هي، وزاهر، والدكتور رشيد من المستشفى، ومولي كيرنان، ورجل وسيم أشعث الشعر يرتدي سترة ملوّنة مجعّدة، عرفته من الصورة الموضوعة على الطاولة بجانب سرير ألكس: فلين برودي، كما عرّف عن نفسه. كان هناك بعض الأشخاص المحليين أيضاً، معظمهم مزارعون، جاؤوا ليظهروا احترامهم، بقوا بعيدين عن المجموعة الرئيسة، وثلاث نساء بدويات، إحداهن زوجة زاهر ترتدي زياً تقليدياً؛ ثوباً أسود، غطاءً للرأس، بجوهرات فضية. عندما أُنزل تابوت ألكس إلى جوف الأرض، تقدموا إلى الأمام وبدأوا ينشدون أغنية *علوش*، وشرح زاهر أنها أغنية حبٍّ بدوية "عن امرأة فائقة الجمال". تداخلت أصواقهم الحادة والواضحة ببعضها بعضاً، واشتدّت وخفتت، في لحظة منخفضة وبالكاد مسموعة، وفي التالية ترتفع كثيراً ويتردد صدى النغم في أرجاء الروضة كلّها. لم تكن هناك كلمات في الأغنية، أو على الأقل لا شيء تستطيع فريا تمييزه، إنما مجرد صوت أجوف بدا أنه كئيباً أحياناً، ورقيقاً أحياناً أخرى، بالرغم من الطريقة التي تغيّر فيها النغم وتبدّل؛ يسرد قصة يمكن أن تفهمها: عن الحب والخسارة، الفرح والألم، الأمل واليأس. شعرت بيد مولي كيرنان تمتد وتمسك يدها، وتضغط عليها بقوة، والأغنية قميم فوقهما وحولهما حتى انخفضت الأصوات وتلاشت حتّى لم يعد مسموعاً إلا خرير الماء، ومن فوقهما هدهدة هدهدين خافتة.

وقف الجميع لحظة، غارقين في أفكارهم، ثم تركت كيرنان يد فريا، وتنحنحت ثمّ تقدمت إلى الأمام نحو مقدمة القبر.

قالت وهي تلقي نظرة إلى فريا، ثم إلى فلين الذي كان يحدّق نحو الأسفل إلى التابوت: "لقد طلبت فريا مني أن أقول بضع كلمات. أعد أنها ستكون بضع كلمات فقط؛ لأنه كما يعرف كلٌّ من تشرّف بمعرفة ألكس جيداً، كانت تكره الضجيج والثرثرة".

بالرغم من رقته، ملأ صوتها الروضة برمّتها.

"قبل ثلاثين سنة، فقدت أنا نفسي شخصاً أحببته كثيراً؛ زوجي. في ذلك الوقت الحالك، ساعدني شيئان على تجاوز المحنة، كان الأول محبة أصدقائي

ودعمهم. أتمنى يا فريا أن تشعري بحبنا هنا اليوم في هذا المكان الخاص، لكل من ألكس ولك طبعاً. نحن هنا إن احتجت إلينا، على أيٍّ حال، في أي زمان ومكان".

تنحنحت مجدداً، ومسّت الأيقونة الذهبية على عنقها.

"كان الشيء الآخر الذي خفف ألمي في وقت الحزن هو الإنجيل".

زال التعبير بسرعة وبالكاد لاحظه أحد، لكن، عندما قالت هذا، ظهر توتر خفيف على شفتيها؛ كأنها لا توافق عليه.

تابعت: "بدلاً من ذلك، أود أن أقرأ عليكم شيئاً كان قريباً من قلب ألكس، وهي قصيدة لوالت وايتمان".

تحسّست داخل جيب سترتها، ثمّ سحبت ورقة مطبوعة ووضعت نظارتها.

قرأت وهي تحمل الورقة عالياً أمامها: *"آه مني! آه من الحياة!"*.

آه مني! آه من الحياة! من الأسئلة التي تتكرّر!
من قوافل الكافرين المتواصلة! من مدن مملوءة بالحمقى!
من ذاتي ألوم نفسي إلى الأبد (من هو أكثر حمقاً مني، ومن أكثر كفراً؟)
من عيون تشتاق عبثاً إلى الضوء! من أشياء وضيعة! من الصراع المتجدد دائماً!
من النتائج الهزيلة! من الحشود الكادحة البائسة التي أراها حولي!
السؤال: آه مني! أنا حزين جداً، مجدداً؛ أي نفع وسط هذه الأشياء؟ آه مني، آه من الحياة!

الجواب
أنت هنا... الحياة وجود وهوية
الكفاح القوي يمضي قدماً، ويمكن أن تسهم بجزء منه.

طوت الورقة ونزعت نظارتها، ومسحت دموعها بسبابتها.

"يمكنني قول الكثير عن ألكس: عن جمالها، ذكائها، شجاعتها، وإحساسها بالمغامرة. أظن أن والت وايتمان أوضح ذلك على نحو أفضل، حين تكلم عن الإسهام بجزء. أسهمت ألكس في جزء من حياة كلٍّ منا، جزء خاص جداً، أثرانا

وأنعشنا جميعاً. شقيقة، صديقة، زميلة... العالم مكان قفر من دونها. شكراً يا ألكس. نفتقدك".

عادت إلى جانب فريا وأمسكت يدها مجدداً، في حين تقدم اثنان من الرجال المحليين إلى الأمام يحملان معوليهما وبدأا يملأان القبر بالتراب. تردد الصدى المكتوم لسقوط التراب على التابوت في أرجاء الروضة؛ أصوات مزعجة متنافرة في بيئة هادئة بخلاف ذلك. التقت عينا فريا عيني فلين لحظة قصيرة، وأومأ الأخير إيماءة قصيرة؛ كأنه يقول إنه أيضاً يفهم الحزن الذي تشعر به ويشاطرها إياه، قبل أن يشيح كلاهما ببصرهما بعيداً. مُلئ القبر سريعاً حتى لم يبقَ إلا مستطيل مرتفع من أرض رملية محاطة بورود.

همست فريا: "وداعاً".

بعد ذلك، اعتذر الطبيب رشيد وغادر مسرعاً، قائلاً إن لديه عملاً وعليه العودة إلى المستشفى. ذهب معظم السكان المحليين أيضاً، و لم يبقَ إلا فريا، ومولي، وفلين، وزاهر، وشاب ملتحٍ عرّفه زاهر بأنه شقيقه سيّد. عندما مشى الخمسة عائدين على طول الدرب إلى منزل ألكس، سار فلين بجانب فريا.

قال: "أعرف أنها ليست ظروفاً مثالية، لكنني سعيد بلقائك أخيراً".

أومأت من دون أن تقول شيئاً.

تابع: "أخبرتني ألكس كثيراً عنك، وعن التسلق، وكل تلك الأشياء. ولأكونَ صادقاً، لقد أخافتني كثيراً. إنني أُصاب بدوار بمجرّد الوقوف على سلم".

ظهرت ابتسامة باهتة جداً على شفتيها وقالت: "هل كنت تعرفها جيداً؟".

رد دافعاً يديه في جيبي بنطاله الجينز: "حق المعرفة. تشاطرنا اهتماماً بالصحراء. أصبحنا صديقين حميمين".

نظرت إليه وهي ترفع حاجبيها ثمّ قالت: "كنت وألكس...؟".

أطلق فلين صرخة اندهاش قائلاً: "لا بحق الله! لم يكن الرجال الإنكليز المولعون بالقراءة مفضّلين لديها على الإطلاق. حسب ما أعرفه، كانت تفضّل الهيبيين المتجوّلين".

ومضت صورة غريغ خطيب ألكس في ذهن فريا: أشقر، سفعت الشمس بشرته، قوي الصوت. ثم هزّت رأسها لتطردها منه.

كان فلين يقول: "كانت طيبةً معي. ساعدتني على اجتياز بعض... الأوقات الصعبة. كانت أقرب إلى شقيقة من صديقة".

ركل حجراً في دربه، ثم استدار إليها مقطّب الحاجبين وقال: "آسف. لم أعنِ... تشبيهاً غير ملائم".

لوّحت بيدها لتشير إلى أن التشبيه غير ضروري. التقت عيناهما وثبّتاهما لحظة قبل أن يشيحا ببصرهما بعيداً مجدداً. قادهم الدرب عبر بستان زيتون ظليل، والأرض مغطاة بطبقة من السماد وزيتون أسود مغبر، قبل أن يصلوا أخيراً إلى منزل ألكس.

كان شخص ما - مدبّرة المنزل، كما افترضت فريا - قد وضع إفطاراً بسيطاً على الطاولة في الغرفة الرئيسة؛ وهو إفطار تكوّن من الجبن، الطماطم، الحمص، الفول، الخبز، والقهوة. تجمّعوا حول الطعام وأكلوا منه، ووحدهما زاهر وشقيقه أظهرا شهية حقيقية، وتبادلا أطراف حديث تخلّلته أوقات صمت مطوّلة. انقضت ثلاثون دقيقة، ثم أعلن كلٌّ من فلين وكيرنان أنهما يجب أن يغادرا للحاق برحلة العودة إلى القاهرة.

سألت كيرنان زاهر حين مشوا متجهين نحو سيارة اللاند كروزر، وقد شبكت ذراعها بذراع فريا: "أأنت متأكّدة من أنك ستكونين بخير؟ يمكن أن أبقى إن أردت".

ردّت فريا: "سأكون بخير. سأبقى هنا بضعة أيام، أجمع أشياء ألكس، ثم أعود إلى الوطن. رحلتي يوم الجمعة".

قالت كيرنان: "لماذا لا نلتقي في المطار حين تعودين إلى القاهرة؟ يمكن أن نتناول الغداء، ونودّع بعضنا على نحو ملائم".

وافقت فريا وتعانقتا، ثم قبّلتها المرأة الأكبر سناً على وجنتها قبل أن تبتعد عنها وتجلس على مقعد سيارة التويوتا الخلفي. تقدم فلين إلى الأمام وأعطاها بطاقة: الأستاذ ف. برودي، الجامعة الأمريكية في القاهرة، هاتف: 2959 2794 202.

"أشك في أن ذلك سيحدث، لكن، إذا تسنّى لك وقت، فاتّصلي بي. يمكن أن تخيفيني بقصص التسلق ويمكنني رد الجميل بجعلك تسأمين تماماً من حكايات نقوش صخور العصر الحجري الحديث".

مال إلى الأمام وبدا لحظة أنه على وشك أن يعانقها، لكنه طبع قبلة سريعة على وجنتها، ومشى حول الطرف الآخر من السيارة ذات الدفع الرباعي، ودفع نفسه إلى الأعلى بجانب كيرنان. صعد زاهر وشقيقه إلى المقدمة، وجأر المحرك حيوية وبدأوا يتحركون مبتعدين حين مدّت فريا يدها فجأة عبر النافذة المفتوحة وأمسكت معصم كيرنان.

"لم تعانِ، أليس كذلك؟". غصَّ صوتها، وبدا سؤالها ملحاً. "عندما... ألكس... تعرفين، المورفين... عندما أخذته. كان الأمر سريعاً، أليس كذلك؟ لا ألم".

ضغطت كيرنان على ذراعها وقالت: "لا أظن أنها شعرت بأي ألم على الإطلاق يا فريا. مما سمعته كان الأمر سريعاً جداً، وهادئاً كثيراً".

بجانبها بدا أن فلين على وشك أن يضيف شيئاً، فتح فمه قليلاً قبل أن يغلقه مجدداً. سحبت فريا يدها.

تمتمت: "أردت فقط أن أعرف. لا يمكن أن أتحمّل أنها...".

قالت كيرنان: "أفهم يا عزيزتي. صدّقيني، لم تعانِ ألكس بأي طريقة. وخزة صغيرة فقط حين دخلت الإبرة وذلك كل شيء. لا ألم، صدقيني".

مالت إلى الأمام ومسّت ذراع فريا، ثم أومأت إلى زاهر وانطلقوا مبتعدين. بعد أن اختفوا بين الأشجار، وبدأت فريا تمشي عائدة إلى المنزل، فهمت تماماً ما قالته المرأة الأكبر سناً. استدارت إلى الخلف، واللون يختفي من وجهها.

"ألكس لم تكن لتسمح قطّ...".

لكن هدير المحرك كان قد تلاشى، ولم تعد تسمع إلا طنين الذباب وصوتاً مكتوماً لمضخة ري من مكان بعيد.

القاهرة

أغلق أنغلتون باب شقة فلين برودي باستخدام مرفقه، وتلاشت الطقطقة المنتظمة لنعلي الناطور البلاستيكيين ببطء على الدرج في الخارج حين نزل إلى الطابق الأرضي مجدداً. أراد أن يبقى مع أنغلتون، ويرى ما يقوم به، لكن الأمريكي كان قد أضاف لفيفة أوراق مالية إلى النقود التي أعطاه إياها سابقاً لفتح الباب،

وطلب منه أن يذهب بسرعة. كان عجوزاً ومتسخاً وأخرقَ ولم يرغب أنغلتون في أن يحرّك أيّ شيء هناك، فينبّه برودي لحقيقة أن زائرين دخلوا المكان. كان ذلـــك عملاً، لا مجرد تطفّل عادي، ويجب أن يبقى مهنياً، ويركّز على ما يفعله. ذلك ما كانوا يدفعون له من أجل إنجازه، ولهذا هو الأفضل.

أُغلق الباب بتكتكة خافتة، ثمّ مدَّ يده إلى جيبه، وأخرج قفازين رقيقين ودفع يديه فيهما، وهسّ المطاط وطقطق حين تمدّد وصولاً إلى رسغيه. إضافة إلى غطاءَي نعلين اللذين وضعهما في الفسحة خارجاً، سيضمن القفازان عدم وجود بصمات، أو دليل من أي نوع، على وجوده هناك. كان مفرطاً في الحذر بكل تأكيد تقريباً. لم يكن لدى برودي أي سبب ليتوقع اقتحاماً من هذا النوع، أو يلفت انتباهه شيء مماثل حين عودته. لا يمكن للمرء أن يكون حذراً جداً، وهناك احتمال بنسبة واحد بالألف أن يتسم الإنكليزي بجنون ارتياب أكثر مما يظن أنغلتون - ومع خلفيتـــه، كان الاحتمال قائماً دائماً - ولهذا لم يكن ليخاطر بنسف العملية كلها بأن يتـــرك أدلّة غير ضرورية.

نظر إلى ساعته - وقت طويل؛ لم تقلع الرحلة من الداخلة بعد - وبدأ يتجول في المكان. لم يكن يبحث عن شيء محدد، إنما يحاول فقط أن يستشعر بـــبرودي، يحس بما يعرفه، وكيف ارتبط اسمه بعملية ساند فاير برمّتها. غرفة معيشة، مطـــبخ، حمّام، غرفتا نوم، مكتب: تجوّل فيها كلها، يلتقط صورة بعد أخرى بآلة تصـــويره الرقمية، ويسجل أفكاره على جهاز أولمبوس محمول باليد.

بالنسبة إلى عين غير مدرّبة، كانت الشقة تكشف الكثير عن شاغلها: مستقل ذاتياً، ويحمل إجازة في علم الآثار المصـــرية، ومهـــتم بالموســـيقى الكلاســـيكية، واستكشاف الصحراء، والشؤون الحالية - خاصة شؤون الشرق الأوسط الحالية - ومن الوشاح وصورة الفريق الموقّعة في غرفة المعيشة، يشجّع نادي الأهلي لكـــرة القدم. تلك وتفاصيل قليلة أخرى - يحافظ برودي على رشاقته، يعـــرف خمـــس لغات على الأقل، تخلّى عن معاقرة الشراب، ضميره حي (رسائل شكر مـــن دور أيتام أطفال في الأقصر وبرنامج يهتم بالزبّالين في منشية ناصر) - كانـــت علـــى الأرجح كل الأشياء الموجودة. صورةٌ من النوع الذي يظهر للعيان بالوصل بـــين النقاط، تكشف عن شكل شخصية أساسية لكن من دون أي عمق أو ملامح.

لكن عين أنغلتون *كانت* مدرّبة. عندما تحرّك في الغرف استطاع أن يقرأ بين سطور محتوياتها، ويستنبط المعلومات الأساسية. في الحمّام، مثلاً، دفع قدميه في خفّي برودي من نوع كايانو الرثّين جداً، ووجد جهازَ تحديد سرعة ومسافة حديثاً جداً، وذاكرته الحاسوبية تسجل تفاصيل عن كل جولات جري الإنكليزي في الأسبوعين الأخيرين. عشرة كيلومترات في 36:02 دقيقة، 20 كيلومتراً في 1:15:31، 15 كيلومتراً في 53:12... لم يكن برودي، كما يبدو، يحافظ على رشاقته فحسب، إنما يفعل ذلك على نحو جدّي. في غرفة النوم، أوحت أشياء أخرى أيضاً عن شخصية أنغلتون: المصباح العتيق على طاولة بجانب السرير، والعلامات على الجدار وراءه مباشرة، وعلبة حبوب زاناكس ثلاثة أرباع فارغة. كان برودي، كما أُخبر عنه، شخصاً تنتابه كوابيس، يمدُّ يده في الظلام إلى مفتاح المصباح قبل أن يبتلع حبوباً مقاومة القلق ليهدّئ روعه مجدداً؛ تأكيد لكل ما قد أخبره البحث الأمريكي به عن الرجل.

كانت صورة ألكس هانين في غرفة المعيشة مثيرة للاهتمام. لم يستطع أنغلتون أن يتوثق إن كان الاثنان حبيبين أم لا. عندما يمعن التفكير في الأمر سيقول: لا... يمتلك الحبيبان عادةً، وفقاً لخبرته، عدّة صور لبعضهما، خاصة إن كانا يعيشان منفصلين، في حين لا توجد هناك إلا صورة واحدة. بدا واضحاً أن برودي اهتم لأمرها، وبعمق، ويتضح ذلك من الإطار الفضي الثمين الذي يحيط بالصورة. لكن، إذا سُئل، فسيجيب أنغلتون أنها صداقة حميمة وليست علاقة حب.

أياً يكن الأمر، فإن ما أثار فضوله أكثر، الأدلّة الصغيرة المتوارية في زوايا الصورة. بدا واضحاً أنها قد التُقطت في صحراء بعيدة - الصحراء الغربية، كما افترض، نظراً إلى اهتمامهما المشترك بالمكان - ومن قبل برودي نفسه، الذي يمكن تمييز انعكاس صورته على عدستي نظارة هانين الصقيلة.

كان في الخلفية حقيبتا معدّات برتقاليتا اللون، إلى اليسار وغير واضحة تماماً، (كانت هناك حقيبة مماثلة في ردهة الشقة، تضم نوعاً من الرادار أو جهاز الاستشعار). لاحظ شيئاً أكثر إثارة للفضول خلف برودي في انعكاس ظلال هانين، غير مرئي تقريباً - كان على أنغلتون أن يحدّق بقوة بالعدسة المكبّرة الصغيرة التي يحملها دائماً - وتبين أنه طرف جناح أو شراع من نوعٍ ما، أصغر من

أن يكون لطائرة. طائرة ورقية؟ شراعية؟ طائرة خفيفة؟ لم يستطع تحديد ذلك، و لم يكن أمامه وقت كافٍ ليأخذ الصورة ويتفحّصها رقمياً. كان ذلك تأكيداً يشير، عند الأخذ في الحسبان ما يوجد في حقيبتي المعدّات والبيئة الصحراوية البعيدة، إلى أن برودي وهانين كانا مقرّبين على الصعيد الشخصي، وأنهما كانا يعملان أيضاً معاً بطريقة ما. رحلة واحدة فقط؟ جزء من مشروع أكبر؟ مجدداً، لم يتوثق من ذلك، لكنها كانت شظية أخرى في الصورة. جزء بعد آخر.

أمضى نحو عشرين دقيقة يتأمل الصورة قبل أن ينظر مجدداً إلى ساعته - لا يزال لديه متسع من الوقت - ويعود إلى المكتب. كان قد ألقى نظرة سريعة هناك، لكن، بدا واضحاً أنه المركز العصبي لعالم برودي، لذا أراد إلقاء نظرة أخرى قبل أن يغادر، ويرى إن كان بمقدوره معرفة أي شيء آخر منه.

حدّق مجدداً إلى الرسم المؤطر على الجدار خلف الطاولة، وكرّر ما أخذ من الأسطورة: *مدينة زرزورة بيضاء مثل حمامة، ومنقوش على بابها صورة طائر...* عبر جهاز التسجيل، بالرغم من أنه فعل ذلك سابقاً فور دخوله إلى الغرفة.

تعرّضت خزائن الأرشفة الخشبية المصطفة خلف الطاولة إلى تفتيش ثانٍ. كانت كلٌّ منها مقسّمة إلى خمسة أدراج، وكل درج يمتلئ بحزم ملحوظات، ومقالات، وصور، ورسوم بيانية، وأوراق مطبوعة، وخرائط مرتّبة في أقسام مصنّفة أبجدياً، تبدأ مع ألماسي في الدرج العلوي من الخزانة الأولى، وتنتهي بزرزورة في الدرج السفلي من الأخيرة.

كانت هناك أشياء كثيرة لا يمكن مراجعتها كلها بالتفصيل. بدلاً من ذلك، أقنع نفسه بفتح كل درج تباعاً وتمرير أصابعه فوق عناوين الأقسام النافرة، وسحب ملفاً هنا وآخر هناك - بدوي؛ خبري؛ مجموعة المدى الطويل الصحراوية؛ بيبي الثاني؛ وينغيت - قبل أن يمضي قدماً مجدداً، من دون أن يتلكأ أبداً وقتاً طويلاً عند أي موضوع، إنما ينظر إليه بسرعة.

جعله ملفان فقط يتوقف ليقرأهما بإمعان أكبر. كان الأول بعنوان "*الجلف الكبير صور الأقمار الصنعية*" ويضم مجموعةً من صور ملونة. بدأت الصور بالمشاهد الشاملة للزاوية الجنوبية الغربية من مصر كلها، ثم ركّزت بتفصيل أكبر على مناطق محددة من الجلف، وأصبحت البيئة الصحراوية باضطراد أوضح وأكثر

دقة. كانت آخر عشرين صورة أو نحو ذلك واضحة جداً، واستطاع أنغلتون تمييز واجهات المنحدرات الصخرية الحقيقية على طول الحافة الشرقية للجلف. كانت تظهر بين الفينة والأخرى فسحة خضراء - على الأرجح بعض الأشجار أو أجمة صحراوية - لكن المنطقة كانت بخلاف ذلك قفراء وخاوية. لا علامة، بالتأكيد، على واحة برودي الغامضة.

كان الملف الآخر الذي أثار اهتمامه بعنوان *"بيانات مقياس المغناطيسية"* (هل كانت تلك وظيفة جهاز الاستشعار في الردهة؟ مقياس المغناطيسية؟). لم تعنِ محتويات الملف - ورقة بعد أخرى من بقع ولطخات أحادية اللون - شيئاً له. لم تكن البيانات مهمة بحدّ ذاتها. كان ما جعله يتوقف للتفكير حقيقة أن برودي يستخدم مقياس المغناطيسية. كانت مقاييس المغناطيسية، وفقاً لما يعرفه أنغلتون، تُستخدم لرسم صور عن باطن الأرض والبحث عن معادن. وفي حديثه تلك الأمسية، كان برودي قد قال تحديداً إن سكان الجلف في العصر الحجري لم يكونوا قد طوّروا آنذاك تقانة لكشف المعادن. كان هناك من دون شك تفسير بريء تماماً لذلك، لكن الأمر أثار فضوله.

تشدّق عبر جهاز التسجيل: "لماذا مقياس المغناطيسية؟"، وأوقف الآلة ثم ضغط مجدّداً وعلى الفور على زر التسجيل.

"ومن أين حصل على كل صور الأقمار الصنعية؟ ناسا؟ شركات النفط؟ توثّق ممن لديه هذه المواد".

أنهى تفتيش الخزائن وجال ببصره فوق رفوف الكتب مجدداً. كانت كلها عن علم الآثار المصرية، حسب ما رآه، باستثناء قسم واحد مخصص للشؤون الحالية - موادّ كثيرة عن العراق - ثم شاهد خلف مجموعة من المجلدات ذات الأغلفة الجلدية عن فن العمارة المصرية القدم، التي جعلته يغفل عنه من قبل، كتاباً عن الطائرات الروسية.

قال عبر جهاز التسجيل: *"موسوعة العُقاب عن الطائرات الروسية*، ماذا يفعل بحق الله هنا؟".

عاد إلى مكتب برودي في نهاية المطاف. كان عبارة عن قطعة كبيرة، عتيقة الطراز، من خشب السنديان الصقيل، وُضع عليه هاتف، ومصباح، ونشّافة،

وصينية ورق، وحاملة أقلام... كل الأشياء المعتادة، مرتّبة بأناقة. لا حاسوب على المكتب، ما يشير إلى أن الإنكليزي قد أخذه معه من دون شك إلى الداخلة؛ لأنه لم يجد أثراً له في الشقة. منــزعجاً، بحث أنغلتون عن بطاقة ذاكرة في حال كان برودي يحتفظ بنسخة أخرى عن عمله، لكنه لم يعثر لها على أثر. بانقضاء الوقت، توقف عن البحث، وحوّل اهتمامه أولاً إلى محتويات صينية الورق، لكنّ أياً منها لم تكشف شيئاً مهماً على نحو خاص، ثم أخيراً إلى الكتاب الجاثم على النشّافة في وسط المكتب: *نصوص مسمارية من متحف هيرمتاج*.

كانت هناك ورقة أيه 4 يبرز نصفها تقريباً من الكتاب. فتح الكتاب على تلك الصفحة ووجد أنغلتون نفسه ينظر إلى صورة لوحٍ طيني بلون بني فاتح جداً متآكلة على نحو سيئ ومملوءة سطوراً من علامات صغيرة مسمارية الشكل. وقرأ تعيناً أسفل الصورة: "اللوح المصري. الأرشيف الملكي للوغال زاغيسي (2375-50 قبل الميلاد). أوروك. من مجموعة أن. ليخاشيف".

حدّق إلى الصورة، ثم حوّل اهتمامه إلى ورقة أيه4. كان برودي قد نقل إليها بجهد كبير العلامات المسمارية الموجودة على اللوح، أو على الأقل تلك التي يمكن قراءتها. كان قد كتب أسفل منها ما افترض أنغلتون أنه ترجمة للنص المسماري الأصلي، وحوّل النص صوتياً إلى أحرف لاتينية. وأسفل ذلك - مجدداً كان أنغلتون يخمّن، بالرغم من أن الاحتمال بدا كبيراً - ترجمة إنكليزية مباشرة، مع صفوف من النقاط حيث الحروف المسمارية مفقودة أو متضررة، وتخمينات بين أقواس وعلامات استفهام على طول الكلمات التي يبدو أن برودي غير متأكد من معناها:

... غرب وراء *كلام* (سومر) خلف الأفق... نهر *أرتيرو* (إترو/النيل) العظيم وأرض *كاموتوتا* (كميت/مصر)... 50 *دانا* من *بورانـــون* (الفـــرات؟)... غنيّـــة بالـــ... أبقار، السمك، القمح، *جشنمبار* (أشجار نخيل؟)... مدينة تدعى *منارفور* (منفر ممفيس؟)... ملك حكم الجميع... أثار الخوف في أعدائه بـــــ... *توكـــول* (سلاح؟) يدعى... من (الفردوس/السماء؟) على شكل *لاغاب* (حجر؟) وحُمـــل إلى المعركة قبل أن تُصاب جيوش الملك بـــ... *بيل* (نار؟) مع ضوء ســـاطع وألم ودوار... *بور-هوب* (يصم الآذان؟)... مع هذا الشيء دُمرت جيوش كاموتوتا في

الشمال ودُمّرت في الجنوب... تحولت في الشرق والغرب إلى تراب وحكم ملكهم كل الأراضي حول *أرتيرو*، و لم يستطع أحد أن يقف ضده أو يهاجمه أو يهزمه قطّ؛ لأنه يحمل في يده ميتوم (صولجان؟) الأسياد المبجلة... الأكثر ترهيباً... الذي عُرف حتى الآن... احذروا ولا تقفوا أبداً ضد ملك *كاموتوتا*؛ لأنه في غضبه... سيدمّر بقوة.

قرأ أنغلتون ذلك عدّة مرات، لكنه لم يفهم شيئاً منه.

قال مسجلاً، وهو يهز رأسه ذاهلاً من الأشياء التي يجدها الناس مثيرة للاهتمام: "هراء غريب عن حجارة". توقف لحظة، ثم أضاف: "على الأرجح غير ذي صلة بالموضوع".

أعاد ورقة الأيه 4 إلى مكانها وأغلق الكتاب وحرّكه قليلاً على النشّافة حتى أضحى حيث وجده بالتحديد. نظر في أرجاء الغرفة مرة أخيرة، زرع أجهزة التنصّت اللاسلكية - واحدة في الهاتف، وأخرى خلف خزانة الكتب، وواحدة تحت أريكة غرفة المعيشة - وغادر الشقة. كان قد بقي هناك نحو تسعين دقيقة، ووفقاً لما يعرفه لم تكن رحلة برودي قد قطعت نصف المسافة إلى القاهرة بعد. جيد، عمل دقيق، كما فكّر في قرارة نفسه. لهذا السبب يدفعون له، ولهذا يعدُّ الأفضل.

الداخلة

"لم تكن ألكس لتحقن نفسها بإبرة قطّ. ليس بعد مليون سنة. هناك شيء خطأ. يجب أن تصدّقني. هناك شيء خطأ".

تقطب حاجبا الدكتور محمد رشيد عبوساً، ومرز صيوان أذنه اليسرى.

كرّرت فريا: "يجب أن تصدّقني. كانت ألكس مصابة برهاب من الإبر. كنت سأقول شيئاً من قبل، لكنني افترضت أنها قد ابتلعت حبوباً أو شربت شيئاً. لم تكن لتحقن نفسها بإبرة قطّ".

كانت منزعجة، وقلقة، وعلى تلك الحال منذ سمعت تعليق مولي كيرنان عن وخزة الإبرة. في اللحظة التي استوعبت فيها ما كانت كيرنان قد قالته حاولت

الاتصال بهاتف زاهر الخلوي؛ لتطلب منه العودة، وشرح أشياء لها، لكنها وجدت الهاتف مغلقاً. حدث الشيء نفسه مع هاتفي كيرنان وبرودي. لم تزعج نفسها بترك رسائل. شعرت بغضب شديد، فأمسكت حقيبة الظهر وبدأت تجري، عبر بساتين النخيل والزيتون وعلى طول الدرب الصحراوي، عائدة نحو الواحة الرئيسة. لم تكن تعلم ما ستفعله، لكنها عرفت أن هناك خطباً ما وأن عليها أن تفعل شيئاً. بعد نحو كيلومتر سمعت قعقعة وجلبة خلفها، حيث ظهرت عربة يجرّها حمار نحيلها، يقودها الرجل العجوز الأدرد الذي رأته حين كانت مع زاهر في طريقهما إلى منزل ألكس في أصيل اليوم الماضي؛ محمد، محمود، شيء من هذا القبيل. كان زاهر قد حذّرها من أي تواصل معه، لكنها لم تكن لتهتم إطلاقاً آنذاك فقبلت عرضه أن يقلّها، إذ كانت بأمس الحاجة إلى الوصول إلى مووت بأسرع وقت ممكن. كان قد ثرثر معها ودفع نفسه مقترباً منها على نحو غير ضروري، ما سمح ليده أن تمس فخذها، لكنها بالكاد لاحظت ذلك.

استمرت تقول له: "مووت. أرجوك، مووت، المستشفى، بسرعة".

كان قد توقف، في قرية الآجر الطيني في بداية الدرب، أمام متجر كوداك مثبتة عليه لافتة كُتب عليها: "تحميض صور بسرعة" وأوقف شاحنة صغيرة نقلتها بقية الطريق. كان الدكتور رشيد في جولة على مرضاه، كما أخبروها حين وصلت إلى المستشفى، ولن تستطيع رؤيته قبل الظهر. أصرّت على رؤيته، وانفجرت غضباً، وفي نهاية المطاف أُجريت اتصالات، أزّت أجهزة نداء فنزل إلى الأسفل واصطحبها إلى مكتبه.

قالت مرة ثالثة وهي تكافح للسيطرة على صوتها: "يجب أن تصدّقني. لم تكن ألكس لتنتحر. ليس بتلك الطريقة. هذا مستحيل".

أمامها، تحرّك الطبيب على كرسيه، وبصره ينتقل من طاولته إلى غريا وينعكس مجدداً.

بدأ ببطء، لا يزال يمرز صيوان أذنه: "آنسة هانين. أعرف كم من الصعب...".

قالت بحدّة: "لا تعرف! لم تكن ألكس لتحقن نفسها. لا يمكنها! لا تستطيع!".

أصبح صوتها حاداً، لذلك منحها لحظة لتهدأ، ثم حاول مجدداً.

"آنسة هانين، عندما يموت شخص عزيز...".

أوشكت على مقاطعته، لكنه رفع يده طالباً منها أن تمنحه فرصة ليتكلم.

كرّر: "عندما يموت شخص عزيز، بهذه الطريقة خاصة، يصبح قبول الأمر صعباً جداً. لا نريد أن نصدّق ذلك، أن نقر أن شخصاً نهتم لأجله - نهتم له كثيراً - قد تعرّض لألم شديد حتى أصبح الانتحار أفضل من الاستمرار في مثل تلك الحياة".

شبك يديه على الطاولة بينما كان يحرّك قدميه بتثاقل.

"كانت ألكس تعاني مرضاً عضالاً متدهوراً؛ مرضاً أفقدها، في وقت قصير جداً، كل قدرة على الحركة تقريباً، وسيجعلها بالتأكيد تلقى حتفها، على الأرجح في أثناء شهور. كانت امرأةً شجاعة قوية الإرادة، واتخذت القرار بأنها إذا كانت ستموت، فإنها على الأقل تريد أن تتحكم بمكان حدوث ذلك وزمانه. لستُ سعيداً بهذا، وأتمنى لو أنها لم تقم بذلك، لكنني أفهم الأسباب التي دفعتها لذلك، وأحترم قرارها. الأمر مؤلم، لكن يجب أن تحاولي الانسجام معه".

هزّت فريا رأسها، وأمسكت بذراعي كرسيها.

قالت بوضوح مشدّدة على النفي: "لم تكن ألكس لتحقن نفسها. لو أنها تناولت جرعة زائدة، أو شنقت نفسها، أو...".

سكتت ذاهلة من السيناريوهات التي تصفها.

تابعت حديثها بعد لحظة حابسة دموعها، ومكافحةً لإبقاء صوتها ثابتاً: "منذ كنا طفلتين، كانت ألكس تخاف من الإبر. أعرف أننا لم نرَ بعضنا منذ وقت طويل، لكنني أعلم أيضاً أن ذلك النوع من الخوف لا يختفي ببساطة. لم يكن بمقدورها حتى أن تنظر إلى الإبر، فضلاً عن ملء واحدة بمورفين وحقن نفسها. هذا مستحيل".

نظر الدكتور رشيد إلى السقف، وزفر ببطء، ثمّ قال بهدوء: "أحياناً، عندما تكونين مريضة جداً، تجعلين المستحيل يحدث. لقد رأيت هذا عدّة مرات بصفتي طبيباً. لا أقول إنك مخطئة بشأن شقيقتك، أو إن خوفها لم يكن كما تصفين. ببساطة، عندما تعانين كما كانت تعاني، يصبح الخوف نسبياً. ما أرعبها عندما

كانت في صحة جيدة لم يعد كذلك على الأرجح عند مقارنته بالرعب الأكبر للموت الطويل والبطيء والمؤلم، الموت الذي كان يجرّدها يوماً بعد آخر مما تبقّى لها من وقار قليل. بحلول النهاية، أُصيبت ألكس باليأس، والأشخاص اليائسون يفعلون أشياء يائسة. آسف لكوني فظاً جداً بشأن هذا الأمر، لكنني لا أود رؤية حزنك يزداد بهذه الطريقة. انتحرت ألكس بيدها. يجب أن نقبل...".

قاطعه رنينٌ عالٍ من جهاز استدعائه، فاعتذر منها ورفع سماعة الهاتف وضغط زراً. واستدار مبتعداً عنها وتحدّث بصوت خافت. وقفت فريا وذهبت إلى النافذة. حدّقت نحو الأسفل إلى ساحة مرصوفة كبيرة ترتفع في وسطها شجرة غار هندي. شاهدت أسرة تتناول الإفطار في الظل تحت الشجرة، ورجلاً يرتدي لباس نوم أزرق يتحرك في أرجائها على كرسي مدولب، ولفافة تبغ تتدلى من زاوية فمه. راقبته وأصابعها تمسك بعتبة النافذة، تنتظر أن يُنهي الطبيب مكالمته.

سألت في اللحظة التي وضع فيها السمّاعة متابعةً حديثهما: "هل أخبرتك ألكس أنها ستفعل شيئاً مثل هذا؟ هل قالت شيئاً لك عن ذلك؟".

عدّل رشيد وضعية كرسيه، وشبك يديه على الطاولة مجدداً.

رد على سؤالها قائلاً: "ليس بكلمات عديدة، لا. لقد فهمت ذلك بضع مرات... كيف أقول ذلك؟... بطريقة مجرّدة. لم تطلب مساعدتي بالتأكيد، إن كان ذلك ما تعنينه. ولم أكن قطعاً لأمد لها يد العون إن طلبت ذلك. أنا طبيب، ووظيفتي إنقاذ الحياة، لا إنهاؤها. كانت تعرف وجهة نظري بهذا الشأن".

تقدمت فريا خطوة إلى الأمام وسألت: "مَن وجد جثتها؟".

"آنسة هانين، أرجوك، هذه أسئلة...".

"مَن؟".

كانت نبرتها فظّة، وفيها إلحاح.

قال بتنهيدة: "مدبّرة المنزل، حين وصلت في الصباح".

"أين؟ أين وجدت ألكس؟".

"على الشرفة الخلفية، كما أظن. على كرسيها المدولب. كانت تحب الجلوس هناك والنظر إلى الصحراء، خاصة مع اقتراب النهاية حين أصبحت الحركة صعبة عليها. كانت قارورة المورفين والمحقنة على الطاولة بجانبها، كما هو متوقع تماماً".

"هل كانت هناك رسالة انتحار؟".

"لا، على حدّ علمي".

"ألا تظن أن ذلك غريب؟ شخص ينتحر ولا يتـــرك ملحوظـــة، رســـالة توضيح".

"آنسة هانين، كان ما أقدمت عليه والسبب الذي دفعها إلى ذلك واضحين. كانت قد بيّنت أنه إذا حدث أي شيء لها يجب الاتصال بك، وأنها تريد أن تُدفن في الواحة قرب منـــزلها. لم يكن لديها سبب يجعلها تترك رسالة".

ضغطت فريا عليه سائلةً إياه: "قارورة المورفين؟ المحقنة؟ ماذا حدث لهما؟".

هزَّ رأسه، وتعبير سخط طفيف يظهر على وجهه.

"لا فكرة لدي. أظن أن مدبّرة المنـــزل رمتهما بعيداً. نظـــراً إلى الظـــروف، سيكون مروّعاً أن...".

قالت فريا مقاطعة إياه ومتابعة الموضوع: "كانت هناك كدمة على كتفهـــا، كدمة كبيرة. كيف حصل ذلك؟".

رد بيأس: "لا يمكنني أن أخبرك فعلاً. سقطت، وارتطمت بشـــيء. جعلتـــها حالتها مضطربة تماماً. تظهر على الأشخاص المصابين بتصلب أنسجة كدمات عدّة أحياناً. أرجوك صدّقيني، آنسة هانين، إذا كان هناك شيء...".

قالت فريا بحدّة مقاطعةً إياه مجدداً: "أين فعلت ذلك؟".

"آسف؟".

"حقنت نفسها. أين حقنت نفسها؟".

"آنسة هانين...".

"أين؟".

أصبح تعبير السخط أكثر وضوحاً، وقال: "في ساعدها".

"ساعدها الأيمن؟". عادت أفكار فريا إلى المشرحة، وجسد شقيقتها العـــاري على الطاولة المدولبة. "تحت المرفق تماماً، حيث ظهرت كدمة صغيرة".

أومأ.

"كيف فعلت ذلك؟".

ضاقت عيناه مستفهماً، إذ إنه لم يفهم ما ترمي إليه من سؤالها.

كرّرت بصوت أقوى هذه المرة: "كيف فعلت ذلك؟ أخبرتني أنه لم يعد بمقدورها استخدام إلا ساعدها الأيمن، وأن ساعدها الأيسر شُلّ، لكن لا يمكنها حقن نفسها في ساعدها الأيمن بيدها اليمنى. هذا مستحيل بدنياً. كان يجب أن تفعل ذلك بيدها اليسرى. لكنك قلت إنّ تلك اليد قد شُلّت. كيف إذاً؟ كيف؟ أخبرني".

فتح فمه ليردّ، لكنه أغلقه مجدداً وقد ظهر التجهّم على وجهه. بدا من الواضح أن السؤال لم يخطر على باله من قبل.

ضغطت عليه مكرّرة سؤالها: "كيف يستطيع شخص حقن نفسه في ساعده الأيمن بيده اليمنى؟ لا يمكن فعل هذا. انظر!".

شرحت له عملياً بأن ثنت ساعدها الأيمن عند المرفق، لوت رسغها، ولم تستطع أصابعها إلا أن تمس أعلى العضلة ذات الرأسين. كان الدكتور رشيد لا يزال ينظر مرتبكاً، وعيناه تطرفان وهو يكافح ليرد بجواب مقنع.

قال بعد لحظة، وقد يتكلم ببطء وتردد؛ كأنه لا يزال يحاول التفكير في ما يقوله: "يمكن أن يصبح تصلّب الأنسجة المتعدد حالة معقدة جداً. تظهر الأعراض وتختفي، بسرعة كبيرة أحياناً. يصعب توقع ما سيحدث".

"هل تقول إن ساعدها الأيسر قد تحسّن فجأة؟".

"أقول إنه مع حالة مثل هذه تحدث أشياء غريبة، غير متوقعة، انتكاسات وتحسّنات مفاجئة...".

لم يبدُ مقتنعاً.

كرّر: "يصعب أن نتوقع. يمكن أن يصبح مرضاً... محيراً جداً".

أصرت فريا على طرح الأسئلة وقالت: "ألم ترَ حالات مثل تلك؟ ألم ترَ أشخاصاً مصابين... ماذا دعوته؟ متلازمة مالبورغ؟".

صحّح قائلاً: "متغير ماربورغ".

"هل رأيت هذا يحدث؟ أرأيت أشخاصاً يستعيدون فجأة القدرة على استخدام أحد أطرافهم؟ هل رأيت هذا، أو سمعت به؟".

أطبق الصمت طويلاً، ثم هزَّ رأسه.

أقرّ: "لا، لم أفعل. مع أشكال أخرى من المرض، حالات أقل وطأة، نعم، ربما. لكن مصاباً بمتغير ماربورغ... لا، لم أسمع بذلك من قبل".

كرّرت: "إذاً، كيف؟ كيف استطاعت شقيقتي أن تحقن المورفين في ساعدها الأيمن؟ حتى إن نحينا جانباً حقيقةَ أنها كانت يمينية وتخاف الإبر... كيف تمكّنت من فعل هذا؟".

فتح الدكتور رشيد فمه، ثمّ أغلقه مجدداً، وراح يفرك صدغيه، واسترخى إلى الخلف على كرسيه. أطبق الصمت وقتاً طويلاً.

وأخيراً قال: "آنسة هانين، هل يمكنني أن أسأل... ما الذي تقولينه بالتحديد هنا؟".

حدّقت إليه مباشرة، ناظرةً إلى عينيه وقالت: "أظن أن شخصاً قتل شقيقتي، وأنها لم تنتحر".

سأل: "قتلها كما يحدث في ارتكاب جريمة. هل هذا ما تقولينه؟".

أومأت.

نظر إليها بثبات، يعبث بطرف رُدن سترته البيضاء. سمعا من الخارج زقزقة عصافير، وهديرَ محرّكات سيارات خافتاً جداً. انقضت خمس ثوانٍ، عشرٌ، ثم مال إلى الأمام، رفع سمّاعة الهاتف، ضغط أرقاماً وتكلم بسرعة بالعربية.

قال، وهو يضع السمّاعة ويقف: "تعالي".

"إلى أين؟".

مدَّ إحدى ذراعيه مشيراً إلى الباب.

"شرطة الداخلة".

بين الداخلة والقاهرة

"مزيد من القهوة يا سيدي؟".

"نعم، أرجوك".

وضع فلين فنجانه على الصينية المحمولة، وملأته مضيفة الرحلة من قارورة بلاستيكية وأعادته إليه.

"سيدتي؟".

قالت مولي كيرنان، وهي تمد يدها فوق فنجانها: "لقد اكتفيت، شكراً لك".

أومأت المضيفة وابتعدت عنهما. تابعت كيرنان مقال *واشنطن بوست* الذي كانت تقرأه حول برنامج إيران النووي، وارتشف فلين شرابه وضغط بفتور على لوحة مفاتيح حاسوبه المحمول. رددت المقصورة حولهما الهدير الخافت الرتيب لحركات الطائرة. انقضت بضع دقائق، ثم تحرّك فلين في مقعده ونظر إلى مرافقته.

"لم أعرف قطّ".

نظرت إليه من فوق نظارة القراءة، ترفع حاجبيها استفساراً.

"أنك كنت متزوجة. كل تلك السنين و لم أعرف قطّ".

أشار إلى الخاتم في يدها اليسرى.

"افترضتُ دائماً أنه لإبعاد معجبين غير مرغوب فيهم. أنك كنت... تعرفين...".

استغرق الأمر منها لحظة لتفهم ما يقصده. عندما فعلت ذلك، أطلقت هتاف تعجب وسخرية.

"فلين برودي! هل أبدو شاذة؟".

هزَّ كتفيه معتذراً وقال: "هل يمكنني معرفة اسمه؟".

خفضت الصحيفة ونزعت النظارة وقالت: "تشارلي كيرنان. حبّ حياتي".

سكتت قليلاً، ثم أضافت: "توفي في سبيل الواجب. يخدم بلده".

"أكان...؟".

"لا، لا. كان عريفاً في مشاة البحرية؛ رجل دين. لقي حتفه في لبنان سنة 1983، في تفجير ثكنات بيروت. لم يكن قد مضى على زواجنا إلا سنة واحدة".

قال فلين: "أنا آسف، آسف جداً".

هزّت كتفيها، ثمّ طوت الصحيفة، ووضعتها في جيب المقعد أمامها، وأمالت رأسها إلى الخلف وحدّقت إلى الأعلى.

قالت بهدوء: "ستحل ذكرى ميلاده الستين غداً. كنا نتكلم عن هذا طوال الوقت، وعمّا سنفعله حين نصبح عجوزين: منزل صغير في نيوهامشاير، شرفة، كرسيان هزّازان. أولاد، أحفاد. أمور عاطفية. كان تشارلي عاطفياً بالتأكيد".

تنهّدت وجلست منتصبة مجدداً، ثم وضعت نظارتها بعيداً، لكن الحركة أشارت إلى أنها قد قالت كل ما ترغب فيه عن ذلك الموضوع. ثمّ سألت: "أمور عن الواحة؟".

"ماذا؟".

أومأت نحو حاسوبه المحمول، والملف الذي يعمل عليه.

"أوه، لا. محاضرة سألقيها في ARCE الأسبوع القادم. بيبي الثاني وانحطاط المملكة القديمة. بالرغم من أنني أشعر بالملل منه، إلا أنني أشفق على المساكين الذين سيضطرون إلى الجلوس هناك والاستماع إليّ".

ابتسمت وأسندت رأسها إلى زجاج النافذة، تحدّق إلى الصحراء في الأسفل. وحدبة أهرام زوسر الصغيرة البعيدة تبدو مثل جبل جليدي بُنّي متسخ.

قالت بعد لحظة، من دون أن تنظر إليه: "فدوي خرج".

"هذا ما سمعته".

"هل تظن...؟".

قاطعها مدركاً ما يجول في ذهنها ومبدداً إياه قبل حتى أن تسنح لها فرصة نطق الفكرة: "محال. حتى إذا عرف شيئاً، فلن يخبرني، وسيفضّل أن يقصّ لسانه. يلومني على ما حدث. لأكون منصفاً، إنه محق".

قالت، وهي تلتفت ناظرةً إليه: "لم يكن خطأك يا فلين. لم تكن تعرف".

"أياً يكن".

أغلق حاسوبه المحمول وشدَّ الزمام عليه في حقيبته. سمعا فوقهما أزيزاً خافتاً حين أضاءت لافتة تثبيت أحزمة الأمان.

قال: "لن يعثر عليها أحد أبداً. ثلاث وعشرون سنة... لن يعثروا عليها أبداً يا مولي".

"ستجدها يا فلين. ثق بي، ستجدها".

صدح صوت عبر نظام مكبّرات الطائرة، تكلم أولاً بالعربية، ثم بالإنكليزية: "سيداتي سادتي، نبدأ الآن المرحلة الأخيرة من رحلتنا إلى القاهرة. أرجوكم توثقوا أن أحزمة الأمان مشدودة وكل الأشياء غير الثابتة موجودة في الخزائن فوق رؤوسكم".

كرّرت: "ستجدها. بعون الله ستجدها".

أمال رأسه إلى الخلف، وأغمض عينيه وبدأ يقلّب الأمر كله في ذهنه مجدداً - عين خبري، فم أوزيريس، لعنات سوبك وأبيب - شعر بضغط في أذنيه حين انخفضت الطائرة فوق القاهرة.

الداخلة

عندما وصل البدو إلى قمة الكثيب الرملي وشاهدوا لمعان واحة الداخلة من بعيد، لم يكونوا قد شربوا منذ يومين. مرهقين، جعلوا جمالهم تقف في صف جنب بعضها، ومعاً رفعوا أيديهم إلى السماء.

صرخوا بأصوات مبحوحة: *"الحمد لله!"*، ومطاياهم تلهث تحتهم.

لو كان لديهم ماء لكانوا ترجّلوا هناك وحضّروا الشاي احتفالاً بانتهاء رحلتهم، واستمتعوا باللحظة وهم يجثمون في الصحراء والقفر يمتد إلى أحد جوانبهم، في حين أنّ الحضارة تلوح على الجانب الآخر. كان الماء قد نفد منهم منذ وقت طويل، ويشعرون بالملل والإرهاق اللذين يجعلانهم لا يفكرون في أي شيء آخر إلا الوصول إلى مقصدهم في أسرع وقت ممكن. ومن دون أي لغط إضافي، قادوا جمالهم للنزول إلى الطرف البعيد من الجرف الصخري وتابعوا طريقهم، صامتين باستثناء صرخات تشجيع: "هت هت" و"*يلا يلا*" بين الفينة والأخرى.

طوال الأيام الثلاثة الماضية، منذ اكتشاف الجثة الغامضة، كانت الصحراء قد عذّبتهم، فقد سدّت طريق سفرهم بسلسلة متواصلة من الكثبان الرملية الضخمة، ولسعتهم بحرارة أقسى مما قد عرفه أيٌّ منهم في ذلك الوقت من السنة. أخيراً آنذاك، بدا أنها قد خفّت. كانت الحرارة في ذلك اليوم أقل؛ وكأنها سئمت اللعب معهم، وبدأت البيئة تصبح مسطّحة وممهّدة، ومتاهة الكثبان تتحول إلى دوائر وروابٍ متناثرة من رمال تتخلّلها مساحات كبيرة من الحصى، سهلة على الجمال ويمكن اجتيازها بسرعة. في غضون ساعة، كان لمعان الواحة الباهت قد تحوّل إلى غشاوة خضراء داكنة يظهر خلفها الحد الباهت لجرف جبل القصر. بعد ساعتين، استطاعوا تمييز بساتين أشجار ونقاط بيضاء هي منازل وأبراج حمام. جعلوا مطاياهم تجري هرولة، والفارس الزعيم يتقدّمهم، ورفاقه يمتدون خلفه في سلسلة تتمايل في أثناء سيرهم، وأثوابهم تخفق، يقودون جمالهم للجري بسرعة أكبر كلما اقتربوا من الماء وبر الأمان.

لم يتخلّف عنهم إلا الفارس الأخير، وابتعد ببطء عن المجموعة حتى أصبحت المسافة تزيد على مئة متر بين جمله والحيوان أمامه. راضياً؛ لأنه أصبح خارج مدى

السمع، أخرج هاتفه الخلوي وتفقّد قوة الإشارة كما كان قد فعل كل بضع ساعات في اليومين الأخيرين. كشّر لنفسه، فقد أضحى لديه إشارة آنذاك. ضغط الأرقام، وانحنى فوق السرج حتى لا يستطيع أحد رؤية ما يفعله، وعندما جرى الاتصال بدأ يتكلم بإثارة.

القاهرة - منشية ناصر

"ضيفنا العزيز اليوم غنيٌّ عن التعريف، سيداتي سادتي. كما تعلمون، ولد في مجتمعنا ويبقى عضواً يحظى بالاحترام والتقدير فيه، حتى إن كانت حياته قد أخذته إلى مكان آخر. بانقضاء السنين، كان سخاؤه قد جعل عدّة مشروعات صحية وثقافية ممكنة هنا في منشية ناصر، وهذه العيادة التخصصية آخرها فقط، وبالرغم من أنه قد حقق ثروة ونجاحاً، إلا أنه لم ينسَ قطّ جذوره، ولم يتخلَّ عن زملائه الزبّالين. إنه صديق، ومُحسن و - أنا واثقة أنه لن يمانع قولي - أبٌ لنا جميعاً. أرجوكم رحّبوا بحرارة بالسيد روماني جرجس".

ارتفع صوت التصفيق، ووقف رجل متجهم الوجه على قدميه، شاحب الجلد، يضع نظارة داكنة ويرتدي بذلة مخاطة بعناية. بشعره السبط الأشيب، كان هناك شيء مميز شبيه بالسحلية في مظهره: الوجنتان الغائرتان، الشفتان الرقيقان كأنهما خُطتا بقلم رصاص، الطريقة التي يخرج بها لسانه باستمرار من طرف فمه. حيّا الوجهاء المجتمعين بإيماءة، وتوقف ليقبّل وجنة الأسقف القبطي الذي يشغل المقعد بجانبه، ثم تقدم إلى الأمام وصافح المرأة التي كانت قد قدّمته.

قال: "شكراً"، ثم استدار إلى الحضور، وخاطبهم بصوت عميق، مثل فعقعة شاحنة ثقيلة. لم يكن قطّ من نوع الصوت الذي يتوقّعه المرء من شخص ببنيته الهزيلة. قال: "أتشرّف؛ لأنني هنا من أجل افتتاح هذا المركز الطبي الجديد. إلى الآنسة ميخائيل...".

أشار نحو المرأة.

"... نيافة الأسقف مرقص، وإلى أعضاء مجلس إدارة صندوق العاصمة لتطوير الزبالين وأمنائه، أقول مجدداً شكراً لكم".

سمعوا تكتكات مكتومة حين تحرّك المصوّر في المكان، يلتقط صوراً لجرجس وباقي الضيوف.

تابع حديثه قائلاً: "كما أخبرتكم الآنسة ميخائيل، أنا زبّال، وفخور بذلك. ولدت هنا في منشية ناصر، على بعد بضعة شوارع فقط من هذه البقعة. عندما كنت صغيراً، عملت على عربات القمامة مع أسرتي، وبالرغم من أن ظروفي، بفضل الله تعالى، قد تغيّرت وتحسّنت...".

نظر إلى الأسقف، الذي ابتسم وأومأ إليه ممسّداً لحيته بيده.

"... تبقى منشية ناصر منزلي، وسكانها إخوتي وأخواتي".

سُمع تصفيق خافت، ومزيد من تكتكات آلة التصوير.

تابع حديثه وهو يشد كُمَّيْ قميصه، ويعدّل وضعهما حتى تبرز المسافة نفسها بالتحديد من اللون الأبيض تحت ردني سترته: "الزبّالون جزء متمم في حياة هذه المدينة. طوال السنوات الخمسين الماضية، كانوا قد جمعوا وخزّنوا وأعادوا تدوير قمامتها في نموذج من إدارة النفايات المستدام. ولأنهم يفرزون الأشياء بأيديهم، فقد حققوا معدل كفاءة لا تستطيع عملية مؤتمتة إنجازها. وهذا السبب نفسه يجعلهم عرضة على نحو فريد لعدوى التهاب الكبد من الجروح والخدوش التي يُصابون بها في أثناء عملية الفرز تلك. توفي كل من والدي وجدّي من هذا المرض المريع، ولهذا أنا مسرور؛ لأنني أسهمت في مشروع سيساعد على خفض معدلات العدوى بتقديم لقاحات مجانية ضد التهاب الكبد لكل من يحتاج إليها".

تمتمات استحسان من الحضور.

"لقد تكلمت وقتاً طويلاً، ولهذا، سأكتفي بشكركم مجدداً على حضوركم اليوم. ومن دون لغط إضافي أعلن أن مركز تلقيح روماني جرجس في منشية ناصر...".

فتح ذراعيه مشيراً إلى الساحة التي يتجمّعون فيها، والمباني المحيطة بها، والأبواب الزجاجية المطلّة عليها رموز النصارى الحمراء.

"... قد افتُتِح!".

تناول جرجس مقصاً من الآنسة ميخائيل، ثم استدار، وحاول في أثناء تصفيق الحضور أن يقصَّ الشريط الثقيل الممتد عبر الساحة، وجثا المصوّر على ركبة

واحدة ليلتقط صوراً للمناسبة. لسبب ما، قاومت المادة النصل، ما أرغمه على قصّ الشريط مجدداً، ثم مرة ثالثة، يحزُّ القماش، ويحاول أن يقطعه. لم يتمزّق بالرغم من ذلك، وبانقضاء الثواني ومتابعته العمل بارتباك خفت التصفيق خلفه حتى تلاشى. ما أفسح المجال لسماع همسات وقهقهات غريبة. بدأت يداه ترتعشان، ووجهه يتغضّن ويظهر عليه انزعاج أولاً، ثم غضب. تقدمت الآنسة ميخائيل إلى الأمام لتساعده، وشدّت الشريط في حين استمر جرجس يكافح مع المقص.

همسَ بصوت خافت: "أعطيتك مالاً وجعلتني أبدو أحمقَ".

تمتمت، ويداها ترتعشان أكثر حتى من يديه: "آسفة جداً يا سيد جرجس".

"وأخبري ذلك الأحمق أن يتوقف عن التقاط الصور".

غاضباً، قصَّ الشريط مجدداً فانفصل أخيراً. ابتسم ابتسامة عريضة واستدار إلى الخلف نحو الضيوف المجتمعين ورفع المقص إلى الأعلى. ارتفع التصفيق، وتردد الصوت في أنحاء الساحة. انتظر لحظة ثم مدَّ يده نحو يد الآنسة ميخائيل ودفع المقص في راحتها، ووضعه بطريقة اندفع فيها رأسه الحاد بقوة في قطعة اللحم تحت إبهامها. فثقب الجلد وآلمها، لكن ذلك حدث بطريقة لم تجعل أحداً سواهما يدرك ما يجري.

تمتم، من دون أن تغادر الابتسامة وجهه أبداً: "لا تحرجيني مجدداً أبداً، أيتها العاهرة البدينة". دفع المقص مسافة أكبر ليشدّد على وجهة نظره، ثم تركه ومشى عائداً إلى كرسيه. أغلقت المرأة يديها معاً أمامها، وشفتها السفلية ترتعش.

قالت مكافحة للحفاظ على رباطة جأشها: "السيد روماني جرجس! مُحسننا المحبوب. أرجوكم أظهروا تقديركم!".

تضاعف التصفيق حين جلس جرجس، ومال إلى الأمام ليمسح لطخة غبار عن مقدمة حذائه قبل أن يستريح على كرسيه مجدداً، يحني رأسه تواضعاً. مال الأسقف بجانبه ووضع يده على ذراعه.

"أنت قدوةٌ لنا جميعاً يا روماني. إن هؤلاء الأشخاص الفقراء محظوظون جداً؛ لأن لديهم مُحسناً مثلك".

هزَّ جرجس رأسه.

"أنا المحظوظ يا صاحب النيافة؛ لأنني أمتلك الوسائل لمساعدة هؤلاء الأشخاص - قومي - وتحسين حياتهم... بصدق، أنا مبارك".

رفع يد الأسقف وقبّل خاتمه الرسمي، ثم؛ كأنه محرج من التكلم عن نفسه منذ الطريقة، أدار وجهه إلى الأمام مجدداً. ظهرت أمامهم مجموعة من الفتيات يرتدين فساتين ويضعن أوشحة متماثلة وبدأن الغناء.

كان الأمر كله هراءً بالطبع. منشية ناصر منزله، الزبّالون إخوانه وأخواته... محض هراء. لقد كره جرجس المكان حيث ترعرع صغيراً، ويكرهه أكثر الآن بعد أن خرج منه. وضيع، قذر، مملوء قمامة، كريه الرائحة، يقطنه معفنون أميّون يعملون بجد، ويلتزمون بالقوانين، وكل ذلك مقابل ماذا؟ حياة شاقة جداً يمضونها في العمل فوق أكوام القمامة والعيش في مساكن موبوءة مملأى بالصراصير، منبوذين من المجتمع، أدنى الطبقة السفلى. فخوراً بأن يكون زبّالاً؟ ربما كان يجب أن يقول أيضاً إنه فخور لإصابته بالسرطان.

مظاهر: كان ذلك، وذلك وحده، ما يجعله يعود إلى هنا، يموّل مشروعات خيرية متنوعة يمنحها اسمه، ويلعب دور الابن المتواضع للكنيسة؛ لأن ذلك يجعله يبدو صالحاً، لا أكثر ولا أقل. يُبعد ذلك الانتباه عن النشاطات الأقل نفعاً للصحة التي يعمل بها. ابتسم. مدهش، حقاً، ما يمكن لبعض الأعمال الخيرية أن تفعله لصورتك. عيادة هنا، مدرسة هناك... يا للهول! كانت حتى سوزان مبارك معجبة به (دعته *أحد أعمدة المجتمع المصري*). لم يكن يشعر نحو الزبّالين أنفسهم أكثر مما يشعر به نحو قطعان الحيوانات التي تدس خطومها في مكبّات نفايات منشية ناصر. نفسه هو المهم، وكل ما يكترث له فعلاً. لهذا كان على ما هو عليه - مليارديراً - وكانوا ما هم عليه: فقراء نتنين يمضون أيامهم في نخل الغائط والموت من التهاب الكبد.

وصلت الأغنية إلى نهايتها وبدأت الفتيات يبتعدن مجدداً، وبصر جرجس يلاحقهن من خلف نظارته الشمسية. كن جميلات، عيونهن خضراء وصدورهن مرتفعة وصغيرة، وسجل ملحوظة في ذهنه أن يحصل على أسمائهن وعناوينهن. فالقبطيات يحقّقن دائماً أرباحاً أكبر في مواخيره من غيرهن خاصة الصغيرات. بالرغم من انقضاء سنوات على تورطه المباشر في ذلك الجانب من أعماله، مفضلاً تركيز طاقاته على نشاطات تدر أرباحاً أكبر - تجارة السلاح، تهريب العاديات، غسيل الأموال - إلا أنه كان يحب التدخل فيها. رشوة آباء الفتيات - أو

اختطافهن إذا فشل ذلك - وإجبارهن على ذلك العمل، وجعلهن يجنين بعض المال له. لم يكن عملهن يستمر طويلاً؛ بسبب الإيدز والطريقة القاسية التي يحبّها كثير من زبائنه، لكن ذلك لم يكن يهمه، إنما الربح فقط. وعلى كل حال، عند النظر إلى حياة الزبالين كما هي، لم يكنَّ على الأرجح سيلين أفضل إذا بقين هناك. اتسعت ابتسامته، وظهر على وجهه تعبير بغيض كأن شخصاً قد ضرب وجهه بمشرط.

بعد ذهاب الفتيات، أُلقيت مزيدٌ من الخطابات، وسمعوا عزفًا على الكمان من طفل ضرير بدين جداً. بذل جرجس قصارى جهده ليبدو متحمساً في حين ألقى نظرات تكرّرت على نحو متزايد على ساعته. عندما انتهى العزف أخيراً، وقف الجميع وبدأوا يتجهون نحو الداخل لتناول وجبات خفيفة وإلقاء نظرة في أرجاء العيادة. رفض جرجس وحده القيام بالجولة، قائلاً إن لديه التزامات في العمل، وإنه آسف جداً وكان يود البقاء،... وغير ذلك من الحجج. تقبل الشّكر من موظفي العيادة، وودّع الجميع - تجاهل متعمداً الآنسة ميخائيل - مرتاحاً؛ لأن بمقدوره الابتعاد أخيراً. مرّ عبر بوابة خشبية عالية إلى الشارع، ومنخراه يتغضنان من رائحة القمامة المتعفنة القوية الكريهة.

عندما غادر المكان طقطق أصابعه. ابتعد شخصان عن الجدار الذي كانا يتكئان عليه وتحركا بنشاط نحوه. كانا ممتلئَي الجسم لكنهما في الوقت نفسه قويّا البنية، مربوعان ومفتولا العضلات، ويرتدي كل منهما بذلة من تصميم أرماني، تتناقض مع قميص فريق نادي الأهلي لكرة القدم الأحمر والأبيض. كان أنف أحدهما أفطسَ مثل ملاكم، في حين إن صيوان أذن الآخر اليسرى ممزقة؛ لكنهما متماثلان في كل شيء باستثناء ذلك، وكل منهما صورة طبق الأصل عن الآخر: الأصابع المغطاة بالخواتم نفسها، الشعر البني نفسه المصفف جانبياً على فروة الرأس، المظهر المخيف الكئيب ذاته. تلكّآ حين أخرج جرجس منديلاً ووضعه على أنفه، ثم مشيا بجانبه حين بدأ يسير.

كانوا على تلة شديدة الانحدار، وكان الطريق يهبط بعيداً أسفل منهم، وسطحه الترابي مملوءاً حفراً وتتناثر عليه الفضلات. كانت مبانٍ عشوائية تتداخل على أحد الطرفين، آجرها غير منتظم ومشيّدة على نحو سيئ، وقد عُلّقت على

شرفاتها حبال غسيل متعددة الألوان. تجاوزتهم عربات تجرّها حمير تقعقع في الشارع، محمّلة بأكياس بلاستيكية ضخمة محشوّة ورقاً، وملابس، وبلاستيك، وزجاجاً، ونفايات أخرى؛ وأكياس مماثلة مكدّسة عند كل جدار مثل تلالٍ من يرقات محتقنة بالدم، تسد الأزقّة الضيقة في الأساس. شمّوا رائحة دخان حطب، ورأوا شجاراً بين مراهقين، ونساءً يرتدين أثواباً سوداء ويضعن أوشحة برّاقة، وفي كل مكان - عند كل مدخل، وفي كل زقاق، وعبر كل نافذة، وأعلى كل سلالم - كومة بعد أخرى من نفايات متعفّنة، ملوّثة ببيض الذباب، كريهة الرائحة؛ كأن الحي برمّته كيس مكنسة كهربائية ضخمة يجذب كل قمامة المدينة إليه.

كان ذلك العالم الذي أمضى روماني جرجس أول ستة عشر عاماً من حياته فيه، والعالم الذي أمضى الخمسين سنة اللاحقة يحاول، عبثاً، إخراجه من حياته. عطور ما بعد الحلاقة الباريسيّة، وكريمات الوجه الإيطالية، والصابون والبلسم والمرطّبات المعطّرة للبشرة... بغض النظر عن النقود التي أنفقها، وقوة الاستحمام والفرك، إلاّ أنّه لم يتخلص منه. لا يمكن أن يعقّم نفسه أبداً، وأن يتخلص من قذارة شبابه النتنة: الرائحة الكريهة، الجراثيم، الجرذان، الصراصير. صراصير في كل مكان. مليارديرٌ وسيتخلى عن كل قرش من ثروته ليشعر بأنه نظيف.

حثّ خطاه ضاغطاً المنديل على أنفه، وحارساه الشخصيان التوأم يبعدان الناس عن دربه. استمر الشارع بالانحدار نزولاً قبل أن ينعطف بحدّة إلى اليمين. هناك، ابتعدت المباني على كلا الجانبين وخرجوا إلى مصطبة واسعة تغمرها أشعة الشمس على سفح التلة. فوقها، مثل شرائح بارزة من كعكة صفراء، تلوح منحدرات المقطّم. في الأسفل، تمتد عشوائية المباني وأكوام القمامة في كل مكان نزولاً قبل أن تتوقف فجأة عند طريق النصر السريع والمقابر الشمالية.

كانت ليموزين - طويلة، سوداء، زجاج نوافذها داكن - متوقفة إلى جانب الطريق، في أقرب نقطة إلى العيادة استطاعت الوصول إليها. وقف سائق يرتدي بدلة سوداء بجانبها، وفي اللحظة التي رآهم فيها اندفع مسرعاً وفتح الباب الخلفي. صعد جرجس إليها، يطلق تنهيدة ارتياح حين أُغلق الباب خلفه، وأصبح داخل السيارة النظيفة الباردة التي تعبق برائحة الجلد. أخرج علبة مناديل من جيبه، وسحب بعضاً منها وبدأ يفركها مسعوراً على يديه ووجهه.

تمتم وجسده يختلج؛ كأنه يشعر بمخلوقات صغيرة تدبُّ على جلده: "مقــزّز، مقرف".

تابع المسح في حين صعد التوأم والسائق إلى المقدمة وانطلقــت الليمــوزين مبتعدة عن المكان، تناور ببطء نــزولاً عبر الشوارع الضيقة. في الخــارج، تحــرك العالم حولها - رجال مُسوَدّون من السخام يحملون أكياس قمامة ضخمة؛ نســاء وأطفال يفرزون أكواماً من قوارير بلاستيكية... وفقط عندما وصلوا إلى أســفل المنحدر وشقّوا دربهم بجانب السكة الحديدية على الطريق السريع، وزادوا سرعتهم حين اتجهوا عائدين إلى مركز المدينة، بدأ جرجس يرتاح. مسح يديه مرة أخــيرة ووضع المناديل جانباً. أخرج هاتفه الخلوي وتفقّد البريد الصوتي. رسالة واحــدة. ضغط على لوحة المفاتيح وأرهف السمع. انقضت ثلاثون ثانية. عابساً، ضغط على الزر مجدداً، واستمع إلى الرسالة مرة أخرى. عندما انتهت الرسالة، كانت الابتسامة قد عادت إلى وجهه. انتظر لحظة، ثم ضغط رقماً ورفع الهاتف إلى أذنه.

قال بالإنكليزية: "لقد طرأ شيء ما. يبدو أنه أحد أفراد الطاقم. اتصل بـــي على الرقم المعتاد".

أنهى المكالمة ورفع غطاءً على مسند ذراع الليموزين، ثم أخرج هاتفاً داخلياً.

"اجعل أغوستا يلتقي بنا في المنــزل. وأخبر التوأم أنهما سيذهبان إلى الداخلة".

أعاد سمّاعة الهاتف إلى مكانها ووضع رأسه على مسند العنق الجلدي.

تمتم: "ثلاث وعشرون سنة. ثلاث وعشرون سنة. وأخيراً... أخيراً...".

واحة الداخلة

كان الوقت منتصف الأصيل حين عادت فريا أخيراً إلى منــــزل ألكـــس. آنذاك، كانت قد أقنعت نفسها أنها تتخيل أشياء، وأن وفاة شقيقتها حصل نتيجــة انتحار بالمحصلة.

كانت قد أمضت أربع ساعات تقريباً في مخفر شرطة الداخلة؛ وهــو مــبنى رتيب برتقالي اللون محاط بأبراج مراقبة، لا يبعد كثيراً عن المستشفى. في البدايــة، استقبلها شرطي محلي، وقد بدا أنه لا يفهم إلا جزءاً يسيراً مما كانــت تحــاول أن

نقونه له، وفي النهاية عُثر على شخص آخر لإجراء المقابلة: محقق جاء من الأقصر من أجل قضية أخرى ويتكلم الإنكليزية بلسان ذَرِب.

كان المفتش يوسف خليفة لطيفاً، ماهراً، وقد أخذ شكوكها على محمل الجد، وأظهر انتباهاً جعل، للمفارقة، تلك الشبهات تبدو عارية عن الصحة على نحو متزايد. كان قد استعرض كل ما أخبرت الدكتور رشيد به بشأن رهاب ألكس من الإبر، في حين كان يسجّل ملحوظات ويدخّن بشراهة - لا بدّ من أنه قد استهلك علبة، أو أكثر، من لفائف تبغ كليوباترا في المدة التي استغرقتها المقابلة - قبل أن يتوسّع في الأسئلة.

سأل: "هل كان لشقيقتك أي أعداء تعرفينهم؟".

ردت فريا: "حسناً، لم أرها منذ وقت طويل، لكنني لا أظن... لم تذكر شيئاً قطّ في رسائلها. لم تكن حقاً من نوع الأشخاص الذين لهم أعداء. الجميع...".

كانت ستقول *أحبّوا ألكس*، لكن الكلمتين علقتا في حلقها، وفاضت الدموع في عينيها. سحب خليفة منديلاً من علبة على الطاولة وناولها إياه.

تمتمت، محرجة: "آسفة".

"أرجوك يا آنسة هانين، لا داعي للاعتذار. أنا نفسي فقدت شقيقاً منذ بضع سنوات. خذي الوقت الذي تحتاجين إليه".

كان قد انتظر بصبر أن تتمالك فريا نفسها، ثم تابع أسئلته مستعرضاً الأمور ببطء وهدوء. هل عرفت أن شقيقتها كانت تواجه مشكلة من أي نوع؟ هل كان هناك أي دليل على اقتحام منزل شقيقتها عنوة؟ هل لاحظت فريا شخصاً يتصرف على نحو يثير الشبهة قرب المنزل؟ هل كان هناك أي سبب يمكن أن تفكر فيه يجعل شخصاً يرغب في أن يؤذي شقيقتها؟

استمرا على ذلك المنوال، والمحقق يغطي كل زاوية ممكنة، ويتحرّى كل دافع وسيناريو يمكن تخيّله. بحلول نهاية الساعات الأربع كان قد أصبح واضحاً، أولاً، ضآلة المعلومات التي تعرفها فريا عن شقيقتها، وثانياً، كم كانت شكوكها واهية حين يُنظر إليها على نحو موضوعي ومجرّد من العاطفة. كان من الممكن تفسير كل شيء، كما بدا - الكدمة على كتف ألكس، رعبها من الحقن، غياب رسالة انتحار، حقيقة أنها لا تبدو من نوع الأشخاص الذين

ينتحرون - بطريقة منطقية، تماماً كما فعل الدكتور رشيد عندما تحدّثت إليه في المكتب سابقاً.

تحدّثت فريا نتيجة شعورها باليأس تقريباً عن محمود غروب، المزارع العجوز الذي كان قد أقلّها بعربته التي يجرّها حمار، والذي نظر إليها شزراً ومسّ فخذها، وكيف قيل لها أن تبقى بعيدة عنه.

كانت قد اقترحت، باحثة عن شيء لإبقاء شكوكها حية: "ربما كان متورطاً بطريقة ما".

على أيّ حال، عندما سأل خليفة عنه في المخفر، أُغلق ذلك التحقيق أيضاً.

كان قد أخبر فريا قائلاً: "غروب هذا معروف تماماً للشرطة. سيئ السمعة... كيف تقولين هذا؟... جو الذي يختلس النظر؟".

صحّحت قائلةً: "توم".

"تماماً. وفقاً لزملائي، إنه رجل قذر، لكنه مسالم. لا يستطيع بالتأكيد اقتراف جريمة".

أشعل لفافة تبغ أخرى وأضاف: "واضح أن زوجته هي العنيفة، معه أساساً".

في النهاية، تركّز الأمر على قضية المكان الذي حقنت فيه ألكس نفسها: كيف يمكن لشخص شُلّت ذراعه اليسرى أن يغرز إبرة في ذراعه اليمنى؟ كون ذلك عائقاً رئيساً وسبباً لإطالة أمد المقابلة. ثم مع اقتراب الأصيل من نهايته، اتصل الدكتور رشيد، الذي عاد إلى المستشفى آنذاك، وتحدّث إلى خليفة. كان رشيد، كما شرح، قد اتصل بزملاء خبراء أعصاب في المملكة المتحدة والولايات المتحدة، إذ كانت معرفتهم بهذا النوع من الأمور أكبر مما يتمتع به، وخلافاً لما قد أخبر به فريا في وقت سابق، تبين أن *هناك* حالات مسجّلة عن أشخاص مصابين بمتغير ماربورغ تخفُّ لديهم الأعراض فجأة وعلى نحو لا يمكن تفسيره. كانت إحدى الحالات بالتأكيد تشبه حالة ألكس. قبل ثلاث سنوات، استيقظ رجل سويدي كان قد فقد القدرة على تحريك كل أطرافه الأربعة في صبيحة أحد الأيام ليكتشف أن بمقدوره استعمال ذراعه اليمنى مجدداً، ومثّلت تلك نافذة فرصة استغلّها بأن أمسك مسدساً من درج بجانب السرير وفجّر دماغه.

لماذا اختارت ألكس، إن كانت يمينية، أن تحقن نفسها بيـــدها اليســـرى؟ لم يتمكن الطبيب من تفسير ذلك. كان القصد أنه من وجهة نظر طبية يبدو معقـــولاً تماماً أن تتمكن ألكس من حقن نفسها بالطريقة التي فعلتها. أمر غـــير اعتيـــادي بالتأكيد، لكنه بالرغم من ذلك محتمل عملياً.

كان خليفة قد نقل كل هذا إلى فريا حين وضع السمّاعة.

قالت: "أشعر بالغباء".

عاتبها قائلاً: "لا، لا. كنت محقة تماماً بطرح هذه الأسئلة. كانت شـــكوكك مبرّرة".

"لقد أضعت وقتك".

"على العكس، لقد أسديتني معروفاً كبيراً؛ لولاك لكان عليَّ تمضية الأصيل في مؤتمر حول أنظمة الشرطة في محافظة الوادي الجديد. أنا مدين لك إلى الأبد".

ابتسمت مرتاحة؛ لأنه بدا أن شكوكها لا أساس لها من الصحة.

قال: "إن كان لديك ما يبعث على القلق...".

"لم يعد لدي، حقاً...".

"لأن هناك جوانب أخرى يمكننا استكشافها. ماذا حدث لقارورة المـــورفين والمحقنة، ومن أين ابتيع المورفين...".

بدا آنذاك أنه هو من يحاول إقناعها أن وفاة ألكس تحتاج إلى مزيد من التحقيق.

قالت: "بصدق، لقد فعلت أكثر مما هو كافٍ. أود فقط أن أعود إلى منـــزل أنكس. لقد كان يوماً طويلاً".

"طبعاً. سأستدعي سائقاً ليقلّك".

فتح المحقق باب المكتب الذي كانا يتكلمان فيه، واصطحبها على طول الممر نـــزولاً على الدرج إلى الطابق الأرضي. تحدّث هناك بالعربية إلى الشرطي الـــذي يرتدي زياً رسمياً ويجلس إلى المكتب؛ وطلب سيارة، كما افترضت فريا. رداً على ذلك، كان الشرطي قد أومأ نحو المدخل الأمامي، واستطاعوا من خلاله رؤية زاهر جالساً في اللاند كروزر في الشارع ينقر بأصابعه على المقود. لم تعرف فريا كيف اكتشف أنها في مخفر الشرطة، لكن عندما شاهدهما مال إلى الجانب وفـــتح بـــاب التويوتا الأمامي، ورمق خليفة في أثناء ذلك بنظرة ليست ودّية على الإطلاق.

سأل المحقق: "هل تعرفين هذا الرجل؟".

قالت فريا: "عمل مع شقيقتي. إنه...".

كانت على وشك أن تقول له *إنه* يبحث عني، لكنها تردّدت، قبل أن تتابع: "يقلّني هنا".

قال خليفة: "إذاً، سأتركك بين يديه".

مشى معها إلى خارج مخفر الشرطة.

قال حين أصبحا بجوار السيارة: "أرجوك، لا تترددي بالاتصال بنا إن كانت لديك أي أسئلة أخرى".

ردّت فريا: "شكراً لك. لقد قدّمت مساعدة كبيرة. آسفة فحسب؛ لأنني...".

لوّح المحقق بيده مقاطعاً إياها، وأومأ محيياً زاهر الذي تأفف ونظر أمامه مباشرة، ثم تراجع خطوة إلى الخلف حين صعدت فريا إلى التويوتا وأغلقت الباب.

قال خليفة: "تشرّفت بلقائك، وتفضّلي بقبول تعازيَّ لوفاة...".

قبل أن يُنهي جملته ضغط زاهر على دواسة الوقود وانطلق مبتعداً، وهو يحدّق إلى الشرطي عبر مرآة السيارة.

تمتم حين انعطفا عند زاوية متفادياً بصعوبة عربة محمّلة بطيخاً: "الشرطة ليست جيدة. الشرطة لا تفهم الأمور".

كان ثرثاراً على غير عادته في طريق العودة، وأمطرها بكل أنواع الأسئلة عن وفاة ألكس، وسبب شكوكها، وما قالته الشرطة، وعيناه تطرفان عليها طوال الوقت. جعلها ذلك تشعر بالانزعاج، حتى أكثر من قلّة كلامه في اليوم السابق، وكانت أجوبتها موجزة، وأحادية المقطع، ومراوغة، بالرغم من أنها لم تكن متأكّدة مما تحاول تفاديه. عندما توقف في النهاية أمام منزل شقيقتها، لم تستطع الخروج من السيارة بسرعة كافية. تمتمت قائلةً له بشكل مقتضب: "شكراً". واختفت في الداخل بعد أن أغلقت الباب بقوة خلفها، ثم أسندت ظهرها إليه، مرتاحة أنها تخلّصت منه.

بعد أن ذهب آنذاك وأصبحت بمفردها، شعرت بالإرهاق الذي تملّكها بعد دفن شقيقتها وتبديد شكوكها. أدركت أنه لم يعد لديها، وللمرّة الأولى منذ ثلاثة

'ياه، شيء تقلق بشأنه ويمثّل هاجساً لها. كانت قد جاءت إلى مصر، ودفنت 'نكس، وحلّت الأسئلة التي تحيط بموتها. لقد فعلت كل ما ينبغي فعله، باستثناء شعور بالحزن والذنب اللذين سيكونان كبيرين في الأيام القادمة.

عبقت رائحة جبن نفّاذة في الجو من بقايا الإفطار التي لا تزال موجودة على طاولة غرفة المعيشة. ذهبت إلى هناك ووضعت بعض الخبز، والطماطم، والخيار على طبق، ثم سحبت كرسياً ذا ذراعين إلى الشرفة، وجلست عليه وطوت ساقيها تحتها، وراحت تحدّق إلى الصحراء، وتتناول الطعام بأصابعها. كانت جائعة - لم تأكل على نحو ملائم طوال الأيام الثلاثة الماضية - وفي غضون دقائق أصبح الطبق فارغاً. كان بمقدورها أن تأكل المزيد، لكن الإرهاق أصبح شديداً جداً آنذاك وبدا احتمال السير حتى تلك المسافة القصيرة إلى غرفة المعيشة بعيد المنال. وضعت الطبق على الأرضية، تمدّدت أكثر على الكرسي، وأسندت رأسها على ذراعها، ثم أغمضت عينيها ونامت على الفور.

"سلام".

استيقظت فريا فجأة فزعة معتقدة أنها كانت تحلم، فقد غفت للتو آنذاك، ثم لاحظت كم أصبحت الشمس حمراء، وكيف أنها انخفضت في السماء ووصلت إلى مستوى الأفق تقريباً. لا بدّ من أنها قد نامت ساعة أو نحو ذلك. مدّت ذراعيها وساقيها بتراخٍ متثائبة، وبينما همّت للوقوف على قدميها، رأت شخصاً يقف على بعد ثلاثة أمتار من نهاية الشرفة، فتجمدت مكانها.

كرّر قائلاً: "سلام". كان صوت رجل أجش ومتحشرج، يلف وجهه بوشاح كتاني لا تظهر منه إلا عيناه.

وقفا على تلك الحال لحظة، ينظران إلى بعضهما بعضاً، من دون أن يقول أي منهما شيئاً، كانت فريا قد استيقظت تماماً آنذاك، وبدأت تتراجع إلى الخلف، ترفع يديها أمامها لتحمي نفسها، وتشدّهما في قبضتين، وعيناها تنظران إلى السكين المقوّسة الكبيرة المثبّتة في حزام الغريب. لا بدّ من أنه قد أدرك ما تفكّر فيه؛ لأنه رفع يديه، فاتحاً راحتي كفّيه، وهذر شيئاً بالعربية.

قالت فريا، وصوتها أكثر ارتعاشاً مما تود: "لا أفهم". تراجعت إلى الخلف خطوة أخرى، ونظرت حولها بحثاً عن شيء تستخدمه كسلاح إن اقترب منها.

كانت هناك مدمّة تستند إلى جذع شجرة الجكرندة إلى يسارها. نــزلت بحذر عن الشرفة، وتقدّمت نحوها. مجدداً بدا أن الرجل يدرك ما يجول في خاطرها؛ لأنه هزَّ رأسه، ومدَّ يده فانتزع السكين من حزامه ووضعها أرضاً، وتراجــع خطــوة إلى الوراء مبتعداً عنها.

قال بإنكليزية متلعثمة: "لا خطر. هو لا خطر أنت".

حدّقا إلى بعضهما، والهواء يردد صدى زقزقة عصــافير وصــرير حشــرات مزعج. ببطء مدَّ يده وشدَّ الوشاح الكتّاني ليكشف وجهاً ملتحياً طويلاً، وجلــداً متغضّناً كثيراً وداكناً مثل أبنوس، وعظمتي خدّين عاليتين وبارزتين جداً، ووجنتين غائرتين تبدوان كأن شخصاً قد أزال اللحم عنهما بملعقة. كانت عيناه حمراوين من الإرهاق، ولحيته ملطّخة كما لاحظت فريا ببقعٍ من الرمل وحبيبات صخرية.

كرّر وهو يربت براحته على صدره: "هو لا خطر أنت. هو صديق".

نــزلت يدا فريا قليلاً، لكن قبضتيها بقيتا مشدودتين.

سألت بصوتٍ أكثر اطمئناناً آنذاك وقد زالت صدمة ظهوره أمامها: "مــن أنت؟ ماذا تريد؟".

قال: "هو جاء دكتورة ألكس. هو...".

ضاقت عيناه حين حاول العثور على الكلمة المطلوبة. بطقطقة إحبــاط مــن لسانه، استسلم وقلّد بدلاً من ذلك قرعاً على الباب.

شرح: "لا شخص. هو عاد منــزل. أنت...".

تقليد آخر، هذه المرة بيديه اللتين وسّدهما تحت رأسه. كانت تلك الحال التي وجد عليها فريا، نائمة.

"هو آسف. هو لا يريد إخافة أنت".

كان واضحاً آنذاك أنه لا يريد إلحاق الأذى بهــا، ففتحــت فريــا يــديها وأنــزلتهما إلى جانبيها. أشارت بإيماءة منها إلى أنه يجب أن يلتقط سكينه. انحــنى إلى الأسفل وأعاد السكين إلى حزامه قبل أن يُنــزل حقيبة قماشــية عــن كتفــه ويمدّها إليها.

قال، وهو يميل رأسه نحو الصحراء: "هذا وجدته. من أجل الدكتورة ألكس".

عضّت فريا شفتها، وضاق صدرها.

قالت: "ألكس ماتت"، وبدت الكلمتان فاترتين وخاليتين من أي عاطفة على نحو غريب؛ كأنها تحاول إبعاد نفسها عمّا تقوله. "توفيت قبل أربعة أيام".

بدا واضحاً أن الرجل لم يفهم. أعادت فريا صياغة الجملة، ولكن، من دون جدوى، ومرّرت يائسة إصبعاً على عنقها، وكانت تلك الحركة الوحيدة التي استطاعت التفكير فيها لتشير إلى الموت. ارتفع حاجباه وتمتم شيئاً بالعربية وهو يرفع يديه إلى السماء إشارة منه إلى الصدمة والإنكار.

قالت بسرعة هازّةً رأسها بعد أن أدركت أنه قد فهم الأمر على نحو غير صحيح: "لا، لا، لم تُقتل. قتلت نفسها. انتحرت".

مجدداً لم تعنِ كلماتها له شيئاً، واستغرق الأمر ثلاثين ثانية أخرى من الشرح والإشارات قبل أن يبدو أخيراً أنه قد فهم الأمر. ارتسمت ابتسامة عريضة أظهرت أسنانه البنية.

قال مبتهجاً: "دكتورة ألكس ذهب بعيداً. عطلة".

لم تكن لديها فكرة كيف تمكّنت من منحه ذلك الانطباع، لكنها عرفت أن الأمر سيتطلب جهداً كبيراً لتصحيحه مجدداً ولهذا أومأت فحسب.

قالت: "نعم، لقد ذهبت دكتورة ألكس بعيداً".

"أنت أخت؟".

"آسفة؟".

شبك يديه معاً إشارة إلى صلة قرابة وثيقة.

كرّر: "أخت؟ شقيقة؟".

قالت، مبتسمة رغماً عنها، مسرورة من سخف الموقف: "نعم، نعم، أنا شقيقة الدكتورة ألكس. فريا".

رفعت يدها تحييه وقابل الحركة بالمثل قبل أن يمدَّ الحقيبة القماشية إليها مجدداً.

"أنت أعطي دكتورة ألكس".

تقدمت فريا إلى الأمام وأخذت الحقيبة منه.

"هذا يخص ألكس؟".

عبس، محتاراً، ثم أدرك ما كانت تقوله، فهزَّ رأسه وقال: "لا، الدكتورة ألكس. هو وجده. في الرمل. بعيد".

أشار بيده نحو الصحراء.

"بعيد. بعيد. نصف الجلف الكبير. رجل".

مرّر إصبعاً على حنجرته، كما فعلت فريا من قبل. عرفت أن الرجل الذي يتكلم عنه ميت بالتأكيد، لكنها لم تكن واثقة إن كان ذلك يعني أنه قد قُتل أم توفي ببساطة.

تابع قائلاً: "دكتورة ألكس أعطى مالاً. دكتورة ألكس قال هو وجد رجلاً في صحراء، وجد شيئاً جديداً في صحراء، أحضره".

أدخل يده في جيب جلابيته وأخرج ساعة رولكس فولاذية أعطاها إياها أيضاً.

قالت فريا وهي تمسك الحقيبة بيدٍ والساعة بيدها الأخرى: "لا أفهم. لماذا أرادت ألكس هذه الأشياء؟".

كرّر: "أعطي الدكتورة ألكس. هي تعرف".

تابعت فريا الضغط عليه، وسألته لماذا منحته ألكس نقوداً، ومن هو الرجل في الصحراء، وماذا يحدث. لكن، بعد أن سلّمها تلك الأشياء، بدا واضحاً أنه يظنّ أنه قد أنجز الهدف من زيارته. وقال للمرة الأخيرة: "أعطي الدكتورة ألكس". انحنى ثم استدار واختفى خلف زاوية المنزل، تاركاً فريا تحدّق بيأس خلفه.

مصر - بين القاهرة والداخلة

طارت مروحية أغوستا بسرعة وعلى ارتفاع منخفض لا يزيد على بضع مئات من الأمتار فوق الصحراء، وظلّها يتحرك على قمم الكثبان الرملية. ترددت أصداء شفرات مروحيتها الدوّارة فوق الرمال مثل أصوات طبول بعيدة مكتومة. كانت كل مقاعدها الثمانية مشغولة: واحد من قبل الطيار، وخمسة من قبل رجال متجهّمين يضعون رشاشات هكلر وكوش في حجورهم، واثنان - آخر مقعدين - من قبل تابعَي جرجس التوأم الذي يرتدي كل منهما بذلة من تصميم أرماني رمادية اللون وقميص فريق الأهلي لكرة القدم الأحمر والأبيض. كان كلاهما يحدّقان بتركيز إلى مجلة كرة القدم التي يضعها أحدهما على حجره، وتستحوذ على

هتمامهما كله. ألقى الطيّار نظرة خاطفة من فوق كتفه ليتوثق من أنهما لا يسمعان، ثم وكز الرجل بجانبه.

همس له قائلاً: "لم يعرف أحد قط اسميهما. سبعة أعوام أمضياها مع جرجس و لم يعرف أحد قط اسميهما. حتى هو لا يعرف اسميهما كما يبدو".

لم يقل الرجل شيئاً، إنما هزَّ رأسه قليلاً، مشيراً إلى أن ذلك ليس الوقت أو المكان المناسب للتكلم عن مثل تلك الأمور.

تابع الطيار حديثه متجاهلاً التحذير ومتحمساً لموضوعه: "قتلا أحد قوّاديه. مزّقاه أشلاء ورمياه في النيل؛ لأنه قال إن الأهلي سيئ والحافظ سخيف. أُعجب جرجس بهما كثيراً ومنحهما عملاً".

هزّة أخرى من الرأس، أكثر قوة هذه المرة، ترافقها حركة حادة من اليد تشير إلى أن المحادثة يجب أن تنتهي عند هذا الحدّ. ومجدداً لم يفهم الطيّار الإشارة والمغزى منها.

"واضح أنهما حبيبا والدهما. إنهما يبجلانها تماماً. لقد قتلا أربعين شخصاً و....".

صدر صوت من الخلف: "اخرس وقد الطائرة".

صدر صوت مماثل تقريباً: "أو سيكون العدد واحداً وأربعين".

اشتدت يد الطيّار على عمود التوجيه، وأصبح وجهه بلون الحليب، ضاغطاً فخديه معاً كأنه يحمي منفرج ساقيه؛ ثم لم يتكلم باقي الرحلة قطّ.

الداخلة

عندما عادت فريا إلى داخل منزل ألكس، فتحت الحقيبة القماشية الغامضة وأخرجت محتوياتها الواحد بعد الآخر، ووضعتها على طاولة غرفة المعيشة إلى جانب ساعة الرولكس. من خريطة، إلى محفظة جيب، كاميرا تصوير، علبة فيلم، شهب إشارة، علب طعام، منديل مع مسلّة فخارية داخله، وأخيراً بوصلة معدنية خضراء ذات غطاء يمكن طيّه. أمسكت القطعة الأخيرة، فتحتها وهي تبتسم بحزن لنفسها. كانت من النموذج نفسه بالتحديد الذي امتلكته شقيقتها حين كانتا

صغيرتين: بوصلة عسكرية مزوّدة بعدسات مكبّرة مقسّمة إلى درجات، وفي غطائها شق فيه سلك نحاسي بعرض الشعرة يمتد على قطرها. (كانت ألكس قد شرحت لها: *اجعلي السلك على امتداد النقطة التي تستهدفينها، ثم اقرأي الاتجاه عبر العدسات. إنها أدق بوصلة يمكن أن تحظي بها*).

ارتابت فريا أن يكون من الممكن الاعتماد على تلك البوصلة تحديداً؛ لأن سلك التحديد فيها قد انقسم إلى جزئين، ما جعل من المستحيل تقريباً تسجيل قراءة دقيقة. بالرغم من ذلك، وضعتها على راحة يدها كأنها شيء نفيس، ومظهرها ووزنها يعيدانها إلى شبابها، إلى فصول الصيف الرائعة الخالية من الهم في ماركهام، قبل أن تسوء الأمور، وتفطر قلب شقيقتها. رفعت البوصلة إلى الأعلى، تضبط العدسات، والقرص المقسّم إلى درجات وشق الرؤية، كما علّمتها ألكس تماماً، تراقب الإبرة تهتز ببطء حول محورها، تسمع صوت ألكس مجدداً، والقصص التي اعتادت أن تسردها عن أن بوصلتها كانت تخصّ جندي مارينز في معركة أيوا جيما. انقضت دقيقة تقريباً، ثم أطلقت تنهيدة وأغلقت الغطاء، وضعتها على الطاولة وحوّلت اهتمامها إلى الأشياء الأخرى.

ضمّت المحفظة بعض الأوراق النقدية الألمانية، وبطاقتي ائتمان، ولفيفة من إيصالات الاستلام يعود تاريخها كلها إلى العام 1986. وكانت هناك بطاقة هوية تدل على مالك المحفظة: رجل وسيم أشقر الشعر تمتد ندبة كبيرة على ذقنه تحت شفته.

قرأت بصوت عال: "رودي شميدت".

لم يعنِ الاسم لها شيئاً. صديق ألكس؟ زميل؟ بعد تكراره عدّة مرات أعادت البطاقة إلى المحفظة وانتقلت إلى الأشياء الأخرى. تفحّصت المسلّة الفخارية والزخارف الغريبة المنقوشة على كلا جانبيها، وعلبة الفيلم، والكاميرا التي كانت لفّة فيلم آخر لا تزال داخلها، وقد التُقطت كل صورها باستثناء اثنتين وفقاً للعدّاد. أخيراً، فتحت الخريطة، دفعت الأشياء الأخرى جانباً وبسطتها على الطاولة.

كانت خريطة مصر، النصف الغربي للبلاد من الحدود الليبية إلى وادي النيل، مقياس 1:500,000. كانت الورقة مجعّدة، وقد بدأت الثنيات حيث طُويت تتمزق من فرط الاستخدام.

حدّقت إلى الأسفل، عيناها تركّزان على الزاوية السفلى اليسرى حيث رُسمت دائرة بقلم رصاص حول كلمات هضبة *الجلف الكبير*. عبست. أليس ذلك هو المكان الذي كانت ألكس تعمل فيه؟ أمالت رأسها إلى الجانب، تحاول أن تتذكر ما قد قالته شقيقتها بشأنه في رسائلها، ثم نظرت مجدداً إلى الخريطة، تمعن النظر فيها، تتفحص الخط القطري الذي يمتد من الشمال إلى الشرق من الجلف نحو أقرب بقعة خضراء، واحة الداخلة، التي تحيط دائرة بها أيضاً. كانت خمس إشارات صغيرة تقطع الخط، تبدأ قرب الجلف وتمتد نحو ثلث الطريق إلى الداخلة، وبجانب كلٍّ منها زوجٌ من الأعداد: اتجاه البوصلة بالدرجات، والمسافة بالكيلومترات. وبالرغم من أن الاتجاه كان دائماً نفسه، 44 درجة، بدا أن المسافات تتناقص كلما ابتعدت الإشارات عن الجلف، 27 كم، 25 كم، 20 كم، 14 كم، 9 كم.

سجل رحلة؛ كان ذلك انطباع فريا المباشر. رحلة امتدت خمسة أيام، سيراً على الأقدام كما يتضح من المسافات المقطوعة القصيرة نسبياً، تبدأ بالجلف وتستمر خمسة وتسعين كيلومتراً قبل أن تنتهي فجأة وسط قفر أصفر خالٍ في الصحراء المكشوفة. من كان رودي شميدت؟ وماذا يفعل هناك؟ وهل تسرد الخريطة في الواقع قصة مختلفة تماماً؟ كانت تلك أسئلة لا يمكن أن تجيب عنها. ما عرفته آنذاك هو أن ذلك لا يبدو جيداً، على الإطلاق. لماذا ستهتم شقيقتها بتلك الأشياء؟ لماذا ستدفع مالاً من أجلها؟ كلما أمعنت التفكير في الأمر، بدا أكثر غرابة. وجدت نفسها تفكّر في انتحار ألكس مجدداً – ذراعها اليسرى المشلولة، رعبها من الحقن – وبدأت الشكوك في وقت سابق ذلك اليوم تنتابها مجدداً. بدت كل التفسيرات التي قيلت لها غير مقنعة فجأة. تساءلت إن كانت ستعود إلى مخفر الشرطة – لقد طلب ذلك المحقق اللطيف منها أن تتصل به إن ظهرت لديها أي أسئلة أخرى – لكن ماذا ستقول؟ شخص ما ظهر أمام منزل شقيقتي يحمل ممتلكات رجل ميت؟ بدا ذلك ارتياباً شديداً... وواهياً جداً. وعلى أيّ حال، كان المحقق قد أخبرها أنه لن يبقى في الداخلة إلا نصف يوم، وسيكون على الأرجح في طريق عودته إلى الأقصر آنذاك. كان ذلك يعني أن عليها أن تبدأ من الصفر، ليس مع شخص آخر فقط، إنما بلغةٍ يبدو ألاّ أحد من المحققين الآخرين يتكلمها على نحو ملائم أيضاً. ربما يجب أن تتصل بمولي كيرنان؟ أو فلين برودي؟ لكن مجدداً،

ماذا يفترض أن تقول لأي منهما؟ أإنها تظن أن شيئاً مريباً يجري هناك؟ يا للــهول! جعلها ذلك تبدو مثل شخصية في فيلم سيئ.

حدّقت فريا إلى الخريطة لمزيد من الوقت، ثم طوتها وبدأت تعيد الأشــياء إلى الحقيبة القماشية التي تُحمل على الكتف محاولةً أن تقرر ما ستفعله، وتتســاءل إن كانت شكوكها مشروعة أم لا. توقفت لحظة لتنظر مجدداً إلى المسلّة الصــغيرة - تذكارٌ من نوعٍ ما أو تميمة حظ سعيد، كما افترضت - قبل أن تضعها في الحقيبة أيضاً، وتُتبعها بالكاميرا، والبوصلة، وأخيراً علبة الفيلم البلاستيكية. عندما أصــبح كل شيء في الداخل بدأت تشد أبازيم الحقيبة، ثم أعادت فتحها على الفور، وقــد تقطب حاجباها كأن فكرة مفاجئة قد خطرت لها. مــدّت يــدها إلى الــداخل وأخرجت علبة الفيلم والكاميرا، وقلّبتهما في يديها، وتأملتهما بإمعان. انقضــت عدّة ثوانٍ، ثم أومأت ومدّت يدها إلى حقيبتها، ووضعت كلا الشــيئين داخلــها، ودفعتهما بعيداً إلى داخل كنــزة الصوف التي تبقيها معها. أخرجــت البوصــلة أيضاً، إذ إنها تريد الاحتفاظ بها؛ لأنها صلة وصل، وإن تكن غامضة، مع شــقيقتها وأيامٍ أفضل. تركت الحقيبة القماشية على الطاولة، أغلقت المنــــزل وانطلقــت عائدة نحو الواحة الرئيسة، آملةً أن يكون متجر كوداك في القرية لا يزال مفتوحاً. شعرت بأن ما يوجد في الفيلمين داخل العلبة الصغيرة والكاميرا ربما يقدم بعــض الأدلّة عن شخصية رودي شميدت، والسبب الذي دفعه إلى التحــول في وســط الصحراء الكبرى، وسرّ اهتمام شقيقتها به.

بقي البدو في الداخلة وقتاً طويلاً بما يكفي لإعادة ملء قِرب المــاء، وجمــع الحطب، وشراء معزاة ومؤن أخرى. عادوا إلى الصحراء، مفضّلين البقاء بصــحبة بعضهم بعضاً، فنصبوا مخيماً يبعد نحو ميل خارج الواحة، بجانــب مجموعــة مــن أشجار السنط وأجمة *أبال* كانت قد وجدت بطريقة ما مكاناً لها وسط القفر المحيط بها.

بحلول وقت عودة زعيمهم من منــزل ألكس، كانت الجمال قد قيّدت بحبال إلى أوتاد، وتمضغ أكواماً من *البرسيم* الطازج، وقد ذُبحت المعزاة ثم بدأوا بشــويها

على النار، والرجال يجلسون في حلقة حولها، ينشدون أغنية بدوية قديمة عن حَتْـــي صحراء شرير والفتى الذي فاقه ذكاءً. ربط الزعيم مطيته مع المطيـــات الأخـــرى وانضم إلى الحلقة، وانـــزاح رفاقه ليمنحوه فسحة بينهم. أنشد بصوته الجهـــوري الجميل أبيات الأغنية، في حين ردّد الآخرون بعده مثل جوقة، وكانت أولى نجـــوم المساء تتلألأ في السماء فوقهم، والهواء يعبق بالدخان مع رائحة الدهن القوية مـــن اللحم المشوي. عندما انتهت الأغنية مرّروا لفائف تبغ لبعضهم، وأجـــروا نقاشـــاً بشأن الطريق الذي يجب أن يسلكوه في رحلة العودة إلى الديار. جادل بعضهم أن عليهم أن يعودوا من الدرب نفسه الذي جاؤوا منه، في حين اقترح آخرون دربـــاً أكثر بعداً شمالاً حول جبل الماسي والطرف البعيد للجلف. أصبحت أصواتهم عالية وحادة على نحو متزايد، ترتفع وتتنافر حتى صرخ أحدهم أن اللحم جاهز، فتبـــدد التوتر. أبعدوا اللحم عن النار، ودفعوا أحد طرفي سيخ الشوي في الرمل حتى وقف منتصباً وبدأوا يقطعون من اللحم بسكاكينهم منتزعين شـــرائح طويلـــة. أكلـــوا بأيديهم، وتلاشت أصواتهم حتى لم يبقَ إلا طقطقة النار، والصوت المنتظم للمضغ، ومن مكان بعيد شمالاً، وبالكاد مسموعاً، أزيزٌ متكاسل؛ كأن حشرة ضخمة تطير هناك.

سأل أحد الرجال: "ما هذا؟ مضخة ماء؟".

لم يجب أحد حين ارتفع الصوت بثبات.

قال زعيمهم أخيراً: "مروحية".

سأل أحد مرافقيه، عابساً: "عسكرية؟"، فالعلاقة بين البدو والجيش لم تكـــن جيدة قطّ.

هزّ الزعيم كتفيه ووضع طعامه جانباً، ووقف على قدميه. نظر شمالاً ويـــده تلتف حول مقبض سكينه. انقضت ثلاثون ثانية، ثم رفع ذراعـــه وأشـــار قـــائلاً: "هناك".

نهض الآخرون واحداً تلو آخر، يحدّقون إلى ذلك المكان. شـــاهدوا شـــكلاً ضبابياً مبهماً يهتز ويحرّر نفسه ببطء من عتمة الغسق، ومعالمه تظهر تدريجياً حـــتى استطاعوا تمييزه: مروحية سوداء، طويلة وصقيلة، تندفع مثل سهم في سماء المســـاء على ارتفاع بضع مئات من الأمتار فقط فوق سطح الصحراء. جـــاءت مباشـــرة

نحوهم، تقترب أكثر فأكثر حتى مرّت فوق رؤوسهم، وجعل هواء شفراتها أثوابهم تخفق بعنف وأرسل رذاذ رمال إلى وجوههم.

حامت المروحية فوقهم، تدور على شكل قوس صغير جداً وتطير عائدة إليهم. أضحت أكثر انخفاضاً هذه المرة، وأجبرت البدو على الانبطاح على الأرض، وضاعت صرخات احتجاجهم في هدير الشفرات القوي.

في اللحظة التي تجاوزتهم فيها، قفز الزعيم على قدميه وجرى مسرعاً إلى الجمال، يحلُّ رباط بندقية قديمة كانت مربوطة إلى أحد السروج. دارت المروحية عائدة إليهم مجدداً، واندفعت إلى الأمام قبل أن ترتفع مقدمتها فجأة إلى الأعلى وتهبط إلى الأرض. قفزت أشكال مبهمة منها وركضت نحوهم.

كان البدو الآخرون واقفين آنذاك أيضاً. حلَّ الزعيم آخر عقدة، ورمى البندقية إلى أقربهم، فالتقطها الرجل بكلتا يديه، وفي حركة سلسة واحدة، حرّر الزناد واستدار نحو الأشخاص الذين يقتربون منهم، ثم رفع الفوهة وسدّد. قبل أن يتمكن من الضغط على الزناد سمعوا فرقعة سلاح ناري، فاستدار الرجل وطارت البندقية من يديه، وتأرجحت ذراعاه حين دار حول نفسه ثم سقط وارتطم وجهه بأرض الصحراء. انتشرت بقعة سوداء على ثوبه كما ينتشر الحبر الأسود على ورق نشّاف. كان هناك مزيد من إطلاق النار، وتطاير الرمل وتناثر حول البدو، وأرغمهم على التجمّد حيث يقفون. عندما وقفوا ساكنين من دون حراك اقترب الرجال من المروحية وانتظموا في صفٍّ واحد بجانب النار وهم يحملون الرشاشات. واجهت المجموعتان بعضهما للحظة، وأطبق الصمت، وشموا رائحة معدن كريهة تمتزج بشذا اللحم المشوي الشهية. تحرّك الوافدون الجدد بعد ذلك قليلاً وابتعدوا ليفسحوا المجال لشخصين كانا قد جاءا بعدهم: مربوعان ومفتولا العضلات، وكانا متطابقين في كل شيء تقريباً: الشعر البني المصقول المصفف بأناقة، البذلتان الرماديتان وقميصا فريق الأهلي لكرة القدم المتنافرة تماماً مع المكان في بيئة صحراوية قفرة.

قال أحدهما بنبرة الأمر الواقع، غير مبالٍ بالعنف قبل لحظة: "وجدتم بعض الأشياء".

قال الآخر: "في الصحراء".

"أين هي؟".

لم يتلقيا رداً. نظر التوأم إلى بعضهما، ثم رفعا سلاحيهما كرجل واحد وفتحا النار على أقرب الجمال. صرخ البدو رعباً حين اخترق الرصاص أعناقها وحواصرها، ومزّق لحمها. استمر الصراخ خمس ثوانٍ، ثم هدأ، وتلاشى صوت إطلاق النار ليطبق صمت تام ومروّع. بهدوء، نزع التوأم مخزني الذخيرة الفارغين ووضعا آخرين مليئين.

كرّر الشقيق الأول بنبرته المعتادة: "وجدتم بعض الأشياء".

"في الصحراء".

"أين هي؟".

قال زعيم البدو بحدّة، وعيناه تلمعان في ضوء النار: *"تعاليا قبّلا مؤخرتي، أيها الكلبان"*.

نظر التوأم إلى بعضهما مجدداً، ومرة أخرى فتحا النار فقتلا جملين آخرين قبل أن يديرا سلاحيهما إلى الرجل الأقرب إلى الزعيم. رفعه وابل الرصاص عن قدميه ورماه إلى الخلف على الرمل حيث تلوّى لحظة قبل أن يرقد ساكناً.

"أخذها بعيداً!".

كان الصوت حاداً، يملأه الرعب. تقدم أحد البدو إلى الأمام وهو يرفع ذراعيه فوق رأسه؛ رجل نحيل لحيته خفيفة ووجهه مملوء بثوراً.

كرّر وهو يشير إلى زعيمهم بيدين ترتعشان: "أخذ الأشياء بعيداً. رأيتها".

حدّق التوأم إليه.

إنّ الرجل، يلوّح بهاتفه المحمول لإثبات قصده: "أنا من اتصل بكم. أنا صديقكم. أنا أساعدكم!".

أطلق زعيم البدو صرخة اشمئزاز، وتحرّكت يده إلى سكينه، لكنه أبعدها بسرعة حين جعل مزيد من الرصاص الرمل يتطاير عند قدميه.

قال بحدّة: "لطالما كانت أمك عاهرة يا عبد الرحمن، وأختك كذلك".

تجاهله الرجل، وتقدم إلى الأمام خطوة أخرى.

قال: "وُعدت بمال إن اتصلت. وعدني السيد جرجس بمال".

قال أحد التوأم: "مقابل الأغراض".

سأل الآخر: "أين هي؟".

"أخبرتك، أخذها بعيداً. كانت في حقيبة وأخذها بعيداً".

"أين؟".

"إلى الواحة. أعطى شخصاً ما إياها. لا أعرف من؛ لأنه لم يقل. لقد فعلت ما وعدت به. أريد مالي".

"تباً لك".

اخترق وابل من الرصاص وجهه وصدره، وقُتل الرجل على الفور. كان جسده لا يزال ينهار إلى الأرض حين استدار التوأم إلى البدو الآخرين، وقتلوهم جميعاً باستثناء زعيمهم الذي بقي وحده سالماً لم يصب بأذى. وقف حيث كان. يوازن خياراته، وصمت الصحراء الثقيل يغلّفه مرة أخرى، وجمار النار تتوهج بلون أحمر مع تحول الغسق إلى ظلام. سحب سكينه بعد ذلك من حزامه واندفع إلى الأمام، وأطلق صرخة عويل وغضب وتحدٍّ، معتقداً أن بمقدوره القضاء على أحد المهاجمين على الأقل قبل أن يلقى حتفه. عندما فعل ذلك أحاط رجال به، ثم أمسكوا ذراعيه، وانتزعوا السكين من يده، يلكمونه ويركلونه، ثم جرّوه إلى النار حيث أرغموه على الجثو على ركبتيه وشدّوا رأسه إلى الخلف، والدماء تسيل من فمه وأنفه. انحنى التوأم فوقه، واحد من كل جانب.

"وجدتم بعض الأشياء".

"في الصحراء".

"أين هي؟".

اتضح أنه أصلب مما قد توقعوا، وأكثر شجاعة. اضطروا إلى حرق كلتا قدميه وإحدى يديه قبل أن ينهار ويخبرهم كل ما يريدون معرفته. خلّصوه من بؤسه وقتلوا باقي الجمال. كانت بقعة نائية وستنقضي أيام إن لم تكن أسابيع قبل أن تُكتشف المجزرة. انتهى عملهم، وعاد المسلحون إلى المروحية وانطلقوا على متنها متوجّهين جنوباً فوق الصحراء وبعيداً في الليل.

يضحك بصوت خافت لنفسه، وجلابيته البنية المتسخة تنتفخ عند مفترق ساقيه، حمل محمود غروب السلم الخشبي عبر بستان الزيتون نحو منزل الدكتورة ألكس. كان الظلام مخيماً، والقمر لم يظهر بعد، والبستان غارقاً في ضباب كثيف من العتمة والظلال. تعثّر أكثر من مرة، وصدر صوت عن قدميه المنبسطتين وطئتا مهاد الأوراق اليابسة الذي يغطي الأرض، وطرطقت نهاية السلم بصوتٍ عالٍ على جذوع الأشجار في كل مكان. لم يكن يهتم للضوضاء، فقد شاهد المرأة الأمريكية تمشي الهوينا على الدرب نحو الداخلة، وعرف أن لديه متسعاً من الوقت ليتخذ موقعاً قبل أن تعود، وتابع طريقه غير مكترث بالجلبة التي يحدثها. تحدث إلى نفسه، ودندن بين الفينة والأخرى مقاطع من لحن أغنية:

"أيتها المرأة الجميلة الصغيرة،...

تعالي،... واجعليني أتذوق خوختك!".

عندما وصل إلى منزل ألكس تابع دربه إلى الطرف البعيد، مندفعاً بين شجرتي دفلى مزهرتين، ثم أسند السلم إلى الجدار. بدأ يصعد، درجة بعد أخرى، إلى أن وصل إلى سطح المنزل. تلألأت أضواء الداخلة البعيدة المبعثرة على أحد الجانبين، في حين امتدت الصحراء الشاسعة على الطرف الآخر. أخرج قارورة شراب من جيب جلابيته وتناول جرعة، ثم ذهب إلى المَنوَر الصغير فوق الحمّام وجلس بجانبه. أصبح الوخز بين ساقيه أكثر قوة.

كان قد شاهد شقيقة المرأة عدّة مرات، حتى بعد أن مرضت وفقدت جمالها. كانت زوجته بدينة وبشعة، تشبه جاموس ماء أكثر من امرأة، وأيّ شيء أفضل من ذلك. حتى مُقعدةً لا بدّ من أن تجلس على كرسي مدولب لتستحم. عندما توفيت شعر بالحزن، مفترضاً أن كل المتعة قد انتهت، لكن شقيقتها قد وصلت آنذاك، وهي شابة وشقراء ورشيقة؛ ولعوب مثل كل النساء الغربيات. لم يكن بمقدور محمود غروب أن يسيطر على نفسه بسهولة. كان سيأتي في وقت أبكر، لكن زوجته شكّت في الأمر، ولم يستطع الابتعاد عنها إلا لأنها كانت مع أسرتها تلك الليلة. تناول جرعة أخرى من القارورة محدّقاً نحو الأسفل عبر المنور إلى الغرفة تحته. كانت العتمة حالكة آنذاك، والظلام دامساً، لكن عندما يُضاء المكان، سيتمكن من

رؤية كل شيء: المِرشّ، المرحاض، كل حركة، كل شكل؛ عرضه الخاص. أخذ ينشد مجدداً، وهو يفرك مفترق ساقيه:

"استلقي يا حبيبتي، واغمضي عينيك،

دعيني،...".

سكت عن الغناء ورفع رأسه إلى الأعلى وأماله إلى أحد الجانبين يرهف السمع. ماذا كان ذلك؟ أصبحت الضوضاء أعلى؛ كان هناك صوت أزيز متقطّع؛ مروحية، وعرف من صوتها أنها تتجه مباشرة نحوه. وقف، عصبياً فجأة، خائفاً أن تكون الشرطة. كان سيضطر إلى شرح موقفه إن عثروا عليه هناك على سطح منزل شخص آخر، لكل من السلطات وزوجته، وهو ما أثار قلقاً أكبر وجعل الرعب يدبُّ في قلبه. ضعفت رغبته، ونسي الحمّام، ثم أسرع عائداً إلى السلم، وضع نفسه عليه وبدأ ينزل متشوقاً إلى الهروب. لم يستطع أن ينزل إلا بضع درجات قبل أن تغلّفه عصفة هواء شديدة، وأخذت جلابيته تخفق بقوة، والغبار وحبيبات الرمل تدخل في عينيه. كان هناك وميض ساطع حين شاهد ضوء كشّاف المروحية، يدور في هذا الاتجاه وذاك قبل أن يسقط عليه ويُثبّت هناك. أمسك غروب السلم، ينوح رعباً، وهو يصرخ أنه يكنس السطح فقط، وأن الأمر ينطوي على سوء فهم. أرغمته قوة الهواء الضاغط على إفلات قبضته وتراجع إلى الخلف بعيداً عن الجدار، وسقط يطلق صرخة حادة فكسر الأغصان تحته ثلاثة أمتار إلى الأجمة في الأسفل. حامت المروحية فوقه مثل يعسوبة ضخمة، وهو يتلوّى ويتخبّط في الأسفل، لا يزال يصرخ أن الأمر كله سوء فهم، وأنه كان يكنس السطح فقط، وأنه عثر على أوراق في الأعلى، كثير من الأوراق، أكوام منها...

كان قد تبين أن متجر كوداك مضيعة كبيرة للوقت، لكن رحلة العودة التي استغرقت أربعين دقيقة على طول الدرب إلى الداخلة سمحت لفريا على الأقل أن تمدد ساقيها وتصفّي ذهنها قليلاً.

كان لا يزال مفتوحاً حين وصلت إلى هناك، ونوافذه الزجاجية المضاءة جيداً مرئية عن بعد نصف ميل. بدا الداخل المكيّف - الأرضية الرخامية، الأثاث المصنوع

من الكروم، الصور المؤطرة للمتزوجين حديثاً المبتسمين والمولودين البدينين - واعـــداً، كما هي حقيقة أن الشابة خلف النضد تتكلم الإنكليزية في الواقع. بعد ذلك أصـــبح كل شيء سيئاً؛ فآلات التحميض في الجزء الخلفي من المتجر لا تعمل، وبـــدا أنهـــا لم تكن قد عملت على الإطلاق. أما في ما يخص تحميض الصور بسرعة وهو ما تعد بـــه اللوحة الإعلانية في الخارج، فكانت تعني بسرعة بمفهوم الداخلة للكلمة: نحو أســـبوع. كافحت فريا لكبت إحباطها، وتبادلت أطراف الحديث مع المـــرأة بعـــض الوقـــت، وسمحت لها أن تمس شعرها الأشقر، وحاولت أن تشرح لماذا لا تزال مـــن دون زواج في سن السادسة والعشرين، ثم غادرت المكان. أمعنت التفكير وقتاً قصـــيراً في محاولـــة الجري إلى مووت لترى إن كانت تستطيع تحميض الفيلمين هناك، قبـــل أن تقـــرر أن الوقت قد تأخر، وأنها ستُتعِب نفسها، وتنطلق عائدة نحو منـــزل ألكس.

كانت تمشي آنذاك على طول الدرب مجدداً، السماء فوقها تتـــوهج نجومـــاً، والصوتان الوحيدان المسموعان كانا يصدران عن وقع خطواتها ونهيق حمار بعيـــد. كان نسيم عليل قد هبَّ، وبدّد آخر حرارة النهار؛ والقمر يرتفع بـــبطء خلفهـــا، ووهجه الأصفر يجعل الصحراء بنية داكنة، وشعرت أنها تمشي عبر صورة عتيقـــة. جعلها القفر تهدأ وتسترخي، وكلما قطعت مسافة أطول ارتفعت معنوياتها. ستعود إلى المنـــزل وتتناول شيئاً، وربما تستمع إلى بعض الموسيقى، وتنام قريرة العـــين ثم تراجع الأشياء عند الصباح؛ تكون الأمور أوضح دائماً عند الصباح.

وصلت إلى قمة التلة التي كان زاهر قد أشار منها إلى منـــــزل ألكـــس في الأصيل السابق. لاحت الواحة الصغيرة في الأسفل؛ بيضاوية متطاولة داكنة تبرز في بيئة تخلو بخلاف ذلك من أي معلم آخر، وبدا شكل المنـــــزل الباهـــت مرئيـــاً بوضوح. نـــزلت على السفح وعبرت السهل، عابرةً في حقول الواحة النائية قبـــل أن تصل إلى الأشجار. تزاحمت كتل كثيفة من النباتات علـــى كـــلا جانبيهـــا، فحجبت الضوء القليل وتركتها في ظلمة حالكة. توقفت لحظة لتجعل عينيها تتلاءم مع العتمة، وسمعت صوت الأزيز المتقطع البعيد، الذي ارتفع بثبـــات: مروحيـــة. اقترب أكثر، وأضحى الصوت أعلى. تحرّك الهواء نتيجة دوران شفراتها، وبـــدأت الأغصان حولها تتمايل وتصدر صوتاً حين طارت على ارتفاع مـــنخفض فـــوق الأشجار إلى يمينها، وظلها يكاد لا يُرى عبر الأوراق المتشابكة فوقها.

وقفت فريا في مكانها متوقّعةً أن يخفت الصوت. ولكن بدلاً من ذلك، ثبت في مكانه، وقوته لا تزداد ولا تنقص؛ كأن المروحية تحوم آنذاك. انقضت بضع ثوانٍ، ثم ظهر من الأمام نور ساطع مفاجئ، من اتجاه منزل ألكس تقريباً. رشحت أشعة ضوء غامضة عبر الغطاء النباتي نحوها، وجعلت أجزاء من أوراق النباتات المحيطة تظهر بوضوح للعيان، في حين أغرقت أخرى في ظل أكثر حلكة. في اللحظة نفسها، سمعت ما بدا أنها صرخة ضاعت في هدير المحركات الصاخب. ابتعدت فريا عن الدرب إلى أحد الطرق القصيرة التي تتفرع منها، كرد فعل فطري أكثر من كونه قراراً واعياً. ابتعدت داخل الأشجار محاولةً ألاّ تضخم تحذير زاهر من الأفاعي، ومستمعةً إلى الشفرات التي تبطئ تدريجياً وتصمت. اختفى الضوء. وأدركت أن المروحية قد هبطت بالتأكيد. سمعت أصواتاً مكتومة، وصرخة أخرى. ثم صليلاً مكتوماً لزجاج يتحطم.

خيّم الظلام الحالك مجدداً، وقفت فريا ساكنة من دون حراك وقلبها يخفق. محاولةً أن تفهم ما يجري. انقضت ثلاثون ثانية، وعندما خيم الظلام على الأوراق والأغصان مجدداً، بدأت تتحرك. اندفعت عميقاً بين الأشجار ببطء، محاولة عدم إحداث ضوضاء، وهي تمشي على الدرب الذي تلوّى وانعطف قبل أن ينتهي إلى حقل قصب وتخرج إلى سهل مكشوف وراءه.

كان الضوء أكثر سطوعاً هناك، والقمر بدا عالياً في السماء أكثر مما كان عليه حين بدأت رحلة عودتها من القرية، ونوره يغمر كل شيء بلون فضي داكن. توقفت لتحدد موقعها، ثم عبرت الحقل واختارت درباً آخر عند طرفه البعيد. انعطفت في طريق عبر الواحة حتى وصلت إلى بستان زيتون ظليل استطاعت أن ترى خلفه شكل منزل ألكس الشاحب. كانت المصابيح مضاءة، وسمعت مزيداً من الأصوات.

تردّدت متسائلة إن كان من الأفضل لها أن تلتزم مكانها منتظرة مغادرة أيّ كان هناك. سمعت بعد ذلك صرخة أخرى؛ صرخة رجل، واهنة، يملأها الرعب. تملّكها الفضول، فمشت إلى الأمام، تنقل خطواتها بعناية حتى لا تطأ الأوراقَ اليابسة المتناثرة على الأرض، وتحركت من شجرة إلى أخرى، وهي تلهث أنفاساً قصيرة وعصبية. وصلت إلى سياج من أجمة منخفضة على حافة البستان وجلست القرفصاء. أضحت

الأصوات آنذاك أعلى وأوضح، وتساءلت مجدداً إن كان عليها المراقبة فقط من مسافة آمنة. مرة أخرى تملّكها الفضول، فزحفت عبر ثغرة في السياج وتابعت نحو المنزل، متسمّرة في مكانها كل بضعة أمتار؛ كأنها تلعب لعبة *خطوات الجدة*، مستعدة لتستدير وتهرب إن خرج أي شخص. لم يظهر أحد، واستطاعت أن تلتف حول المبنى، ودفعت نفسها بقوة إلى إحدى أشجار الجكرندة التي تظلل الشرفة في الناحية الخلفية. أصبح لديها آنذاك مشهد واضح عبر نافذة غرفة المعيشة.

كان هناك رجال مفتولو العضلات في الداخل، ويبدون قساة. استطاعت رؤية ثلاثة منهم، لكن قرقعة فتح أدراج وخزائن من مكتب ألكس إلى يسارها جعلتها تدرك وجود المزيد منهم. كان اثنان من الثلاثة متماثلين جسدياً: البنية المربوعة والشعر البني، والأصابع التي تحمل خواتم تتلألأ في ضوء المصباح. بدا أنهما يخاطبان شخصاً في الطرف الآخر من الغرفة، خارج مرمى بصرها. تكرّرت كلمتا كاميرا وفيلم مراراً، وقد هذر صوت خائف رداً عليهما. استمر الأمر على نفس الحال، ودائماً الكلمتان نفسهما، والرد والعويل، حتى هزّ أحدهما رأسه منزعجاً وطقطق براجمه. كانت هناك حركة، وظهر ثلاثة أشخاص آخرون معاً: اثنان منهم عريضا المنكبين ويبدوان قاسيين، مثل الآخرين. بينهما، ظهر محمود غروب المزارع النحيل الذي كان قد أقلّها على عربته في وقت سابق من اليوم، ينكمش مرتعداً ويفرك يديه مثل كلب مهزول عذّبه قطيع من حيوانات ضخم. التصقت فريا بقوة أكبر بالشجرة، تحدّق برعب، وامتدت يدها إلى الخلف ومسّت الحقيبة على ظهرها، حيث توجد الكاميرا والفيلم.

عند إشارة ما، رُفعت جلابية غروب إلى الأعلى حول خصره، ما كشف عن ساقين هزيلتين وسروال داخلي أبيض متّسخ. بالحركة نفسها، وُضِعَت ذراعاه خلف ظهره وتحت فخذيه، ومُدد وهو يكافح واهناً على الأرض، وفُتحت ساقاه كأنه على وشك أن يلد.

تأوه، وعيناه تتسعان رعباً؛ كأنهما ستخرجان من محجريهما: *"لا! لا! لا! من فضلك، لا!"*.

وقف مستجوبوه فوقه، وجوههم خالية من أي انفعال؛ كأنهم ينجزون أحد الواجبات المنزلية العادية. شعرت فريا بالاشمئزاز عندما دفع أحدهم إصبعاً تحت

وصلة سروال الرجل، وشدّها جانبياً؛ في حين فتح الآخر مدية أصدرت طقطقة. مال إلى اليمين بين ساقي الرجل، ومسَّ بطرفها اللحم المكشوف. وَلولَت ضحيتهم ذهولاً، وردفاه يرتفعان وينخفضان. طُرحت المزيد من الأسئلة، وعندما لم يسمعوا الأجوبة المنشودة، ازداد ضغط النصل. امتلأ فم فريا بطعمٍ حامضٍ لاذعٍ حين اشتدت السكين على العِجان (المنطقة بين الفخذين)، وانضغط الجلد ثم تمزّق.

صرخت: "لا!".

ملأ صوتها الليل. توقفوا لحظة، ثانية لا أكثر، وتجمّد المشهد في الغرفة، ثم سمعت صراخاً ووقع أقدام تجري. فُتح باب الشرفة بقوة، وخرج أشخاص منها. وومض وهج أحمر حين أطلقت الأسلحة النار وارتطمت الرصاصات بشجرة الجكرندة التي كانت فريا تجثم تحتها، لكنها لم تعد هناك. استدارت حول زاوية المبنى وعادت نحو بستان الزيتون، ووثبت فوق سياج الأجمة المنخفض وناورت بين الأشجار، وتعثرت على الأرض غير المستوية، وقلبها يخفق بقوة، وأصوات إطلاق النار والصراخ خلفها.

وصلت إلى الطرف البعيد من البستان ووثبت مجدداً، واندفعت بتهور إلى حقل القصب الكثيف. شقّت طريقها عبره إلى حقل خلفه. كان إطلاق النار قد توقف، لكن الصراخ استمر. ستة أصوات، تأتي كلها من اتجاهات مختلفة بعد أن انتشر مطاردوها وهم يلاحقونها. سمعت أيضاً أزيزاً مخيفاً وصوتاً مكتوماً حين شُغل محرك المروحية.

عبرت الحقل وزحفت عبر قناة ري عميقة، وقدماها تغوصان إلى الكاحلين في الطين، ويداها تنزلقان وتتشبثان بالطرف المقابل حين سحبت نفسها إلى الأعلى. اندفعت إلى الأمام، أولاً عبر بستان من أشجار الليمون، ثم عبر حقل ذرة، ثم عبر مساحة يبدو أنها لا تنتهي من أدغالٍ متشابكة، وذراعاها تبعدان النباتات وتحرّكهما كأنها تسبح، حتى انتهت البقعة الخضراء فجأة. كانت على حافة الواحة تماماً، والصحراء تمتد أمام قدميها. رأت حظيرة من نوعٍ ما بعيداً إلى يسارها تغرق في ظلام دامس، وجدرانها مبنية بالحجارة السقاطيّة[1] وسقفها من سعف النخيل.

---

1 الحجارة السقاطيّة هي عبارة عن قطع من الحجارة الخفيفة معدة للبناء مصنوعة من السخط والإسمنت. السّقاط هو نفاية الفحم. (المدقق)

جرت إليها محاولةً فتح الباب، لكنه كان موصداً بإحكام. نظرت حولها خائفة، ثم جلست القرفصاء بجانب عربة خشبية قديمة مسندة إلى أحـد جـدران الحظـيرة، وجسدها كله يرتعش، وقد أخذت تلهث أنفاساً قصيرة مؤلمة.

كانت المروحية في الهواء آنذاك وتطير على ارتفاع منخفض فوق الأشـجار، وكشّافها يرسل ضوءاً يخترق الظلام في الأسفل. طغى صوت دوران الشفرات على كل الأصوات الأخرى، لكن فريا ظنّت بين الحين والآخر أنها تسمع صرخة، ومرة قعقعة سلاح ناري بوضوح.

تمتمت لنفسها، والمشهد الذي رأته لم يترك لديها مجالاً للشك في ما حدث مخيفتها: "قتلوا ألكس. قتلوا ألكس، ويحاولون الآن قتلي. ولا أعرف حـتى لماذا".

مسحت العرق عن جبينها وهي تلعن نفسها؛ لأنها تركت هاتفها الخلوي في مـنزل ألكس، محاولةً فهم ما يجري. كان من المحتمل أن تكون كل تلك الذخيرة قد أثارت الانتباه في الداخلة ما سيجعل أشخاصاً يأتون إلى ذلك المكان للتحقيق، لكن لا يمكنها الاعتماد على ذلك، ثم إنها لا تستطيع ممارسة لعبة القط والفأر باقي الليل. كانت الواحة صغيرة، ولا توجد أماكن كثيرة يمكنها الاختباء فيها. حتى في الظلام، وبالرغم من كل النباتات الكثيفة، سيعثرون عليها في النهاية، خاصة مـع تحليق المروحية في الجو.

فكّرت وهي لا تزال تلهث متعبةً وخائفةً: "يجب أن أصل إلى الداخلة. ينبغي لي أن أبتعد عن الواحة وأعود عبر الصحراء إلى الداخلة".

كيف ذلك؟ والمروحية تحلّق وضوء القمر يصبح أكثر سطوعاً منذ رأوهـا في اللحظة التي خرجت فيها من بين الأشجار؟

وقفت، تنظر حولها، وتحدد موقعها، ثم جلست القرفصاء مجدداً. بدا أنهـا في أقصى الطرف الجنوبـي للواحة. إلى يسارها، شرقاً، علـى بعـد نحـو خمسـة كيلومترات، يوجد الجزء الرئيس للواحة؛ كأنها خلف قناة ماء عريضة، أضـواؤها متناثرة تتلألأ، وسفح جرف جبل القصر يلوح وراءها.

بدا واضحاً أن ذلك هو الاتجاه الذي يجب أن تسلكه، ويعد أقصر السبل إلى بر الأمان، لكن التضاريس مكشوفة تماماً، وكلها سهول من الحصى وروابٍ رملية

منخفضة. لم يكن هناك ملاذ قطّ، ولا مكان تختبئ فيه من ضوء كشّاف المروحية القوي. كانوا سيرونها على الفور، مثل أرنب في ضوء مصابيح سيارة أمامية.

لم تبدُ الأمور أفضل كثيراً إلى الجنوب، لكن البيئة كانت أكثر تعقيداً وتنوعاً، والصحراء تتحول إلى كثبان عالية وتشكيلات صخرية ملتوية، تتناثر على سطحها حجارة وفيها أجمات. كانت مكشوفة، لكن أقل كثيراً وتقدم احتمالاً؛ إن لم يكن إخفاءً كاملاً، أو حتى ستاراً مبهماً على الأقل. فكّرت في أن بمقدورها الجري بضعة أميال إلى الجنوب، بعيداً عن الواحة، ثم الانعطاف شرقاً إلى الداخلة متأمّلة أن تكون عندها خارج شعاع بحث مطارديها.

قرّرت فريا أن ذلك أفضل خياراتها؛ خيارها الوحيد. كانت المشكلة أن المسافة بين الحظيرة المهجورة حيث تجثم خائفة والملتجأ الأول - مجموعة طويلة من أعشاب الصحراء - تبلغ مئتي متر من رمال مستوية متراصة. أدركت أن عبورها سيجعلها ظاهرة للعيان على نحو مرعب؛ مثل الوقوف وحيدة في وسط حلبة تزحلق على الجليد.

كان في عملية تسلق كل صخرة نقطة ارتكاز، وهي أصعب جزء من الصعود، ويصبح باقي الطريق بعدها مفتوحاً وأسهل. كانت تلك هي نقطة ارتكاز هروب فريا. إذا استطاعت التغلّب على عقبة المئتي مترٍ تلك، فستحظى بفرصة. إذا رأوها، سواء أكان من الجو أم من قبل أحد الرجال على الأرض، فسينتهي أمرها.

ازداد صوت المروحية المكتوم وضوحاً حين اقتربت باتّجاهها مباشرة تقريباً. وكشّافها يتحرك ذهاباً وإياباً، والهواء الضاغط من شفراتها يجعل الأشجار تتمايس بعنف. ألقت فريا نفسها تحت العربة، ورشقت موجات من الرمل والغبار وجهها، وسقط الضوء عليها عبر ألواح الخشب المشققة فوقها. حامت المروحية للحظة، ثم طارت بعيداً، تنقض شمالاً نحو الطرف البعيد من الأرض المحروثة. تلاشى صوت محركاتها ليزداد قوة مجدداً حين استدارت وعادت نحوها. بدا أن ذلك هو نمط رحلتها: ذهاباً وإياباً فوق الواحة، من الطرف إلى الطرف؛ كأنها تقطع أشواطاً في حوض سباحة، تسعى إلى إخراجها، وتمضي ثلاثين ثانية في الذهاب وثلاثين أخرى في الإياب. إذا كان لديها أي أمل في عبور السهل الرملي، يجب أن تجعل هروبها يتزامن مع ذلك النمط: تبدأ في اللحظة التي تذهب فيها المروحية إلى الاتجاه

المعاكس، نحو الطرف البعيد من الواحة، وتنتهي قبل أن تستدير وتطير عائدة مجدداً؛ لأنها ستصبح آنذاك في مجال الرؤية مباشرة.

ضغطت راحة كفها على جبينها، تحسب الوقت. ثلاثون ثانية لعبور مئتي متر. سيكون ذلك سهلاً على مضمار رياضي؛ عندما كانت تلميذة شاركت مع فريق جري مقاطعة ماركهام واجتازت المسافة في أقل من خمس وعشرين ثانية. لكنها ستفعل ذلك على الرمل، وفي الليل. أدركت أن الأمر سيكون وشيكاً، على نحو مؤلم، حتى من دون الأخذ في الحسبان الرجال على الأرض. ماذا إن رآها أحدهم؟ ماذا إن كانوا قد انتشروا آنذاك في الصحراء لمراقبة مثل ذلك الاحتمال؟ عضّت شفتها، متشككة فجأة وخائفة، متسائلةً إن كانت المخاطرة كبيرة. لم يكن عددهم كبيراً، بالمحصلة، والظلام كان حالكاً، والنباتات كثيفة في بعض الأماكن - يمكنها بالتأكيد الإفلات منهم، والتقدم عليهم خطوة.

سمعت بعد ذلك صرخة. توترت، وحدّقت إلى العتمة، وعيناها مجهدتان، محاولةً اكتشاف المكان الذي جاءت منه. في مكان ما خلفها، وراء النباتات المتشابكة التي شقت طريقها عبرها قبل لحظات. كانوا لا يزالون بعيدين، لكن ليس كثيراً. ردّت عليها صرخة ثانية، ثم ثالثة. ثلاثة منهم، وجميعهم قادمون في اتجاهها، يقتربون من بعضهم. فكّرت في أن بمقدورها تفادي واحدٍ منهم، وربما اثنين، لكن ثلاثة...!؟ محال. اتخذت قراراً؛ سيكون عليها أن تجري، إن لم يكن قد فات الأوان.

سمعت أزيزاً هادراً حيث طارت المروحية فوق رأسها مجدداً، وشعاع كشّافها يشق دروباً تعمي الأبصار في الليل حول الحظيرة وفوقها. كانت المروحية، في جولتها الأخيرة، قد عادت على الفور تقريباً، لكنها هذه المرة، ولعذابها، حامت حيث كانت. سدّت فريا أذنيها بيديها اتقاء الضوضاء، وخشخشت العربة فوقها بعنف؛ كأن يداً خفية هزّتها، ونزع هواء الشفرات جزءاً من قش سقف الحظيرة وجعلته يطير في الليل. استمرت على تلك الحال، وفي كل ثانية يقترب الرجال على الأرض منها، وتضيق نافذة فرصتها. كادت تتخلى عن الأمل، وتقبل أنهم قد ضيّقوا عليها الخناق هناك مثل جرذ في مصيدة، حين بدأ الأزيز يخف أخيراً والهواء حولها يهدأ حين ابتعدت المروحية وشرعت في رحلة عودتها إلى الطرف الآخر من الواحة.

خرجت من تحت العربة ووقفت على الفور. وبالكاد أدركت ما كانت تفعله، ثم انطلقت تعدو من خلف الحظيرة إلى الصحراء، تحفّزها غريزة أساسية يحقنها الأدرينالين للحفاظ على الذات. لم تكن لديها فكرة عن مكان مطارديها، وتضرّعت فحسب أن يكونوا لا يزالون يكافحون عبر الأجمة خلف الحظيرة، وألاّ يستطيعوا رؤيتها عبر ستار الأوراق الكثيف.

كان الرمل منبسطاً، متراصًّا، ثابتاً مثل مضمار رياضيّ تقريباً، واجتازت أول مئة وخمسين متراً بسهولة، مرفقاها يتحركان، وساقاها تدفعانها إلى الأمام نحو مجموعة النباتات الصحراوية أمامها.

كانت قد بدأت تصدّق أنها ستنجح حين بدأت قدماها تغوصان. كان سطح الصحراء يتحرك تحتها، والرمال تبتلع حذاءها، وتبطئها. أصبح التقدم أصعب مع كل خطوة، وآلمتها رئتاها، وحرقتها فخذاها حين امتلأت عضلاتها بدفعة من الحمض اللبني.

عندما كانتا يافعتين، لعبت وألكس لعبة التحدّي، قرعتا على أبواب الناس ثم هربتا بعيداً؛ تتوقعان مع كل خطوة أن يخرج مالك المنزل ويصرخ غاضباً خلفهما. كان ذلك الشعور نفسه ينتابها آنذاك، لكنه آنذاك كان متضخّماً ألف مرة. لهثت، وترافق الأمل اليائس أنهم لن يمسكوا بها مع توقع مقزّز أنهم سيفعلون ذلك بالتأكيد تقريباً.

تباطأت سرعتها، قدماها تزلان وتنزلقان وهي تكافح لتجرّهما. ثبت أزيز شفرات المروحية الحاد حين حامت فوق الطرف البعيد من الواحة قبل أن يشتد تدريجياً مجدداً حين استدارت وعادت نحوها. عرفت فريا أن الوقت ينفد منها، وأنهم سيرونها، ولا يمكن أن يفشلوا في ذلك بعد أن أصبحت في مدى كشّاف المروحية مباشرة آنذاك. شدّت أزرها بغض النظر عن ذلك، واستمر جسدها يجري حتى حين بدا أن ذهنها يتكاسل ويتخلى عن الأمل. اجتازت الأمتار الأخيرة بصعوبة، واندفعت بتهور في كتلة الأعشاب ونزولاً على منحدر، وسقطت لينتهي الأمر بها في بقعة رملية.

جلست هناك بعض الوقت، صدرها يخفق بقوة، وساقاها تصرخان من الألم، تنتظر أن يغمرها ضوء المروحية، لكن الظلام بقي حالكاً. قلبت نفسها على وجهها

وزحفت عائدة إلى السفح، وأبعدت بحرص بعض سيقان النباتات الرفيعة لإحداث ثغرة صغيرة. كانت المروحية تحوم آنذاك فوق الحظيرة مباشرة على بعد مئتي متر متمايلة إلى هذا الجانب وذاك. أسفل منها، تحت ضوء كشّافها، كان ثلاثة أشخاص يرتدون بذلات يرفعون أسلحتهم كأنهم يقولون *إنها ليست هنا*. شاهدت بعض الإيماءات والإشارات، ثم أسرعت المروحية بالعودة فوق الواحة واختفى هدير جناحيها بين النباتات هناك.

لقد نجحَت.

واحة الداخلة

بعد أداء صلاة العشاء - في ساحة منزله الداخلية - تناول زاهر العشاء مع زوجته وابنه، وثلاثتهم يجلسون واضعين إحدى سيقانهم تحت الأخرى على أرضية غرفة معيشتهم، يأكلون بصمت بأصابعهم من أوعية الأرز، والفول، و*الملوخية*. عندما انتهوا من تناول الطعام أحضرت المرأة شيشة ووضعتها بجانب زوجها قبل أن تصطحب الصبي بعيداً، وتترك زاهراً بمفرده. جلس على تلك الحال خمس عشرة دقيقة، من دون حراك، مستغرقاً في أفكاره، والصوت الوحيد المسموع تمطّطُ شفتيه وهو يمج من الشيشة. وضع أنبوب الشيشة جانباً بعد ذلك، ثم وقف ومشى عبر المنزل إلى الساحة الداخلية. ذهب إلى أول باب على يمينه، فتحه وضغط على مفتاح النور. كانت أمامه، على الجدار فوق الطاولة، الصورة التي رأتها الآنسة فريا: التشكيل الصخري المقوّس، والدكتورة ألكس تقف في الظل تحته. حدّق إليها وأصابعه تنقر بعصبية على إطار الباب.

"ما الذي يؤرقُك؟".

كانت زوجته قد جاءت إلى جانبه ووضعت يدها على ذراعه. لم يقل شيئاً، إنما استمر يحدّق إلى الصورة.

قالت: "لست على طبيعتك. ما الخطب؟".

لم يرد بالرغم من ذلك، لكنه وضع يده على يد زوجته وضغط عليها برفق.

سألت: "هل هي الفتاة الأمريكية؟".

تمتم قائلاً: "ذهبت إلى الشرطة. تظن أن شخصاً ما قتل شقيقتها".

"و؟".

هزَّ كتفيه.

قالت زوجته: "يجب أن تتحدّث إليها. اكتشف ما تعرفه".

أومأ. وقال: "غداً. سأذهب غداً".

قبّل جبينها، ومرّر إصبعاً على وجنتها، ثم أشار إلى أنها يجب أن تغادر. عندما ذهبت دخل إلى الغرفة، وأغلق الباب، ثم مشى إلى الطاولة وجلس إليها، وعيناه لا تفارقان الصورة أبداً.

تمتم قائلاً: "ساند فاير".

انتظرت فريا انقضاء بضع دقائق، تجثم مختبئة بين النباتات، وصوت المروحية يخفت ويشتد مع تحليقها ذهاباً وإياباً فوق الواحة. توثّقت أن الكاميرا وعلبة الفيلم والبوصلة لا تزال كلها بأمان داخل حقيبة ظهرها، ومسّت برفق أسوأ الجروح على ذراعيها وعنقها، والتي قد خُدشت على نحو سيئ في أثناء اندفاعها المتهور عبر الدغل. ثم بدأت بعد ذلك تشق طريقها جنوباً.

كانت ليلة صافية، والهواء يكاد يكون بارداً، والقمر قد أصبح في كبد السماء آنذاك، والصحراء مساحة شاسعة من فضة جليدية. لم تتحرك إلا حين كانت المروحية تذهب في الاتجاه المعاكس، خائفة من أن يروها تعدو من ملتجأ إلى آخر - جلمود، إلى كُثَيِّب، إلى تشكيل صخري وإلى أجمة - قبل أن تجثم مجدداً. سمعت مرتين إطلاق نار، وحلّقت المروحية مرة خارج الواحة، طارت فوقها مباشرة تقريباً وهي تكوّر نفسها تحت رفٍّ صخري رقيق. بدا أن الطيّار يوسّع نطاق بحثه فقط، على أمل أن يتمكن من رؤيتها، وبعد الطيران هناك بعض الوقت استدارت المروحية واتجهت عائدة من حيث جاءت. بعد ذلك لم تظهر أي دلائل تشير إلى أنهم لا يزالون يطاردونها.

تابعت السير جنوباً نحو ساعتين، بحذر في البداية، ثم بثقة أكبر حين أضحت الواحة خارج مرمى البصر خلفها، ضائعة بين الكثبان وتلال الحصى. أصبح الهواء

باردأ جداً، فأخرجت كنـــزهّا الصوفية من حقيبة الظهر ولبستها، وراحت تهرول بين الشفينة والأخرى لإبقاء نفسها دافئة. حاولت أن تقلّب الأحداث في ذهنها باحثةً عـــن أجوبة، لكنها كانت ذاهلة وكل شيء مشوشاً وغيرَ منتظم ولا معنى لـــه. وباســـتثناء حقيقة أن شخصاً ما قد قتل شقيقتها، وحاول قتلها، وأن الأمر كله مرتبط بالأشـــياء التي أحضرها الرحل البدوي إلى المنـــزل ذلك الأصيل، لم تجد أي منطق في ما حدث.

اجتازت نحو خمسة كيلومترات، ثم قدّرت أن المسافة آمنة بما يكفي لتســـتدير شرقاً وتعود نحو أضواء الداخلة التي تتلألأ من بعيد. استغرق الأمر منها نحو ســـاعة أخرى لتصل إلى أول الحقول النائية، وأربعين أخرى إضافية لتشق طريقهـــا عـــبر متاهة من حقول القصب، وبرك الأسماك، وقنوات الري. أخيراً، بسبب الحـــظ لا التحطيط، خرجت من حقل قصب سكر كثيف ووجدت نفسها علـــى طريـــق إسفلتي؛ الدرب الرئيس عبر الواحة.

رأت أضواء تقترب من يمينها، فترددت، ثم تراجعت إلى الخلف بـــين القصـــب ناظرةً بعصبية إلى الخارج، وخائفة من أن يكون مُطاردوها قد لحقوا بها. عنـــدما رأت أن المصباحين يخصان صهريج نقل نفط كبير، خرجت مجـــدداً ولوّحـــت مســـعورة بذراعيها مشيرةً إلى المركبة أن تتوقف. صـــدح بـــوق، وسمعـــت صـــوت مكـــابح هيدروليكية. أبطأ الصهريج ثم توقف بجانبها. فتح السائق نافذته ومال خارجها.

قالت له متوسّلة إياه: "ساعدني أرجوك. يجب أن أصل إلى مووت. إلى مخفـــر الشرطة. أحدهم يحاول قتلي. أرجوك، يجب أن أصل إلى مخفر الشرطة. هل تفهم؟ مووت. مخفر الشرطة. مووت، مووت".

اندفعت الكلمات منها بسرعة وتشويش. هزَّ السائق - وهو رجـــل ممتلـــئ الجسم، وجهه ملتحٍ وملطخ بالنفط - كتفيه ورأسه، وبدا واضحاً أنه لا يفهم.

قال: "*القاهرة*. اذهب *القاهرة*. القاهرة".

بدا أنه يظن أنها تريد الركوب مجاناً. شدّت قبضتيها إحباطاً، وبدأت تكـــرّر كلامها، فقط لتصمت بعد ذلك. *القاهرة*، القاهرة. نعم، كما فكّرت، ربما سيكون ذلك أفضل. الخروج من الواحة كلها، والابتعاد قدر المستطاع، والعودة إلى القاهرة حيث يمكنها الذهاب إلى السفارة، أو الاتصـــال بمـــولي كيرنـــان؛ أو بمـــواطنين أمريكيين، أشخاص يتكلمون الإنكليزية. أشخاص يمكنهم مساعدتها.

قالت، وهي تلقي نظرة قلق من فوق كتفها: "نعم، القاهرة. نعـــم، شـــكراً. القاهرة".

أسرعت إلى الجانب الآخر، ثم صعدت إلى المقعد، وأغلقت الباب بقوة.

قالت حين بدأا يتحركان، وصوتها مرتعش وغير مصدّق: "كـــانوا يحـــاولون قتلي. هل تفهم؟ كان هناك رجال وقد حاولوا قتلي".

كما السابق، هزَّ السائق كتفيه فحسب.

سأل: "*إنكليزية؟*".

"ماذا؟".

"*إنكليزية*؟ إنك... ليزية؟".

هزّت رأسها قائلةً: "أمريكية. أنا أمريكية".

كشّر قائلاً: "*أمريكا* جيدة. بوس ويليز. آمال شوازنغر. جيد جداً".

أرادت حقاً أن تشرح له، وتجعله يفهم؛ أنهم قد حـــاولوا قتلـــها، وقتلـــوا شقيقتها، واستطاعت أن تهرب بشقّ الأنفس وسارت في الصحراء لساعات، وهي الآن تشعر بالبرد والعطش والخوف والإرهاق. لكن بدا ذلـــك عـــدم الجـــدوى. أومأت إليه، ثم طوت ساقيها إلى صدرها، ولفّت ذراعيها حولهما، وأسندت رأسها إلى النافذة محدّقةً إلى الخارج.

ضحك السائق بصوت خافت وهو يربّت براحتيّ كفّيه على المقود: "نعـــم، نعم، جيد جداً. بوس ويليز. آمال شوازنغر. جيد جداً".

عندما ازدادت سرعة الصهريج، ظهرت النقطة البيضاء لكشاف المروحية وقتاً قصيراً فوق الصحراء قبل أن تبتعد وراءهما، وانطلق الصـــهريج يقعقـــع في الليـــل متوجّهاً شمالاً.

القاهرة

كانت الفتاة يافعة؛ تبلغ الخامسة عشرة أو السادسة عشرة مـــن العمـــر، لا أكثر، خدرة وترتدي زياً مدرسياً. جلست على السرير، وعيناها دامعتان، وذاهلة، لا تعرف ما يجري حقاً. سمعت تمتمات موافقة، ثم دخل الإثيوبيون متبخترين قليلاً،

وقاموا ببعض الحركات. جرّدوا الفتاة من الملابس، صفعوها ثم اغتصبوها.... كشّر رجال الأعمال ومجّوا من سجائرهم حين تقيأت الفتاة وبكت متوسّلةً أن يتركوها وشأنها.

في الغرفة المجاورة، راقب جرجس عبر مرآة أحادية الاتجاه، يومئ راضـياً، لا عن الاغتصاب نفسه - لم يكن يهتم لمثل تلك الأشـياء، ولا يكتـرث للجنـس إطلاقاً - لكن عن الاتفاق الذي سبقه. كان الجميع يعرفون أنك إذا أبرمت اتفاقاً مع روماني جرجس فسيعتني بك، ويريك عرضاً جيداً، ويعني ذلـك بالمقابـل أن العمل يسير بسلاسة دائماً، كما حدث تلك الأمسية، بسلاسة تامة تقريباً. لم يكن الكوريون الشماليون يعرفون نوع الترفيه الذي ينتظرهم، ولهذا لم يستطيعوا توقيع الاتفاقيات بسرعة كافية: خمسون صاروخ أرض-جـو أف-آي-أم-92 سـتنغر بسعر 205,000 دولار لكل منها، ويحصل جرجس على عمولة عشرين بالمئة مـن الصفقة بصفته وسيطاً. ابتسم وهو يفكر أنه ربما عليه منح الفتاة حصة، مكافأتهـا على جهودها، لكنها ستكون على الأرجح ميتة في نهاية الليلة، وستُلقى جثتـها في النيل أو أي مكان آخر في الصحراء، لهذا يمكنه أيضاً الاحتفاظ بكل النقود لنفسه. وقد جعلت هذه الفكرة ابتسامته تتسع.

شاهد ما يجري بعض الوقت حتى أضحى الاغتصاب مسعوراً ووحشياً علـى نحو متزايد. نظر بعد ذلك إلى ساعته، ثم استدار وغادر الغرفة. اجتاز أرضية الرواق الرخامية وصعد السلالم الرئيسة نحو مكتبه في الطابق الأعلـى. سـتكون هنـاك عروض أخرى ويستمر الترفيه حتى ساعات الصباح الأولى. سيشرف رجاله علـى كل ذلك، في حين يهتم هو بعمل آخر، أكثر أهمية، أهم حتى من عمولة العشرين بالمئة من إجمالي المبلغ البالغ 10,25 مليون دولار.

توقف أعلى السلالم لينفض فتاتاً عن السجادة - عمّال تنظيفات لعينـون، لا يهتمون بالتفاصيل - قبل أن يمشي في ممر ويفتح باباً في آخره. دخل مكتباً كـبيراً مكسوة جدرانه ألواحاً خشبية. كانت مجموعة شاشات تلفازية مغلقة الدارة مثبتـة على أحد الجدران، كل منها تنقل ما يجري في غرفة مختلفة ضمن المنـزل. مشـى إلى مكتبه وجلس خلفه، ثم نظر إلى ساعته مجدداً، رفع سمّاعة الهاتف، ضغط علـى زر الميجهار ووضع السمّاعة على الطاولة.

"حسناً، لا بد من أن الرجل كان في حال سيئة جداً في النهاية، لهذا من المحتمل ألاّ يكون قد وثّق الاتجاهات بدقة. أياً يكن الأمر، ستوصلنا إلى مكان قريب جداً، وعندما نصبح بجوارها ينبغي أن يصبح العثور عليها باستخدام المروحية سهلاً، حتى في الظلام. إذا سار كل شيء كما يجب، ينبغي أن يجلبوها في بضع ساعات، وربما أقل. إذا اضطروا إلى العودة إلى الداخلة للتزوّد بالوقود، فسيستغرقون أربع ساعات أو خمساً. بحلول الفجر، سنحظى بها بالتأكيد، بحلول الفجر".

قُرِع على الباب، ثم دخل خادم يرتدي سترة بيضاء، يحمل كوباً من الشاي. لوّح له جرجس أن يتقدم إلى الأمام من دون أن ينظر إليه. وضع الرجل الكوب على المكتب أمامه وغادر، وهو ينظر إلى الأرض على الدوام.

سأل جرجس: "ماذا عن الجيش؟ الجلف منطقة أمنية. لا أريد أيَّ متاعب".

رد صوت ثالث، مداهن وخافت؛ محمد قصري: "اهتممنا بكل شيء. لقد تحدّثت إلى الأشخاص الذين يجب أن نتحدّث إليهم، وسيفسحون المجال لنا. كان اللواء زاوي مفيداً جداً".

قال جرجس متأففاً: "يجب أن يكون كذلك، بالنظر إلى المبلغ الذي ندفعه له". ورفع كوب الشاي وارتشف رشفة منه.

أطبق الصمت قليلاً، ثم جاء صوت عثمان مجدداً وهو يقول: "هل يمكنني أن أسأل عن الأمان؟ أعني، لا نعرف الحال التي ستكون عليها بعد كل تلك السنين، وكيف أثّر فيها التحطّم. سنحتاج حقاً إلى معدات خاصة، وأشخاص يعرفون ما يفعلونه".

رد جرجس: "اهتممنا بهذا".

"لأن ما نتكلم عنه ليس شحنة أسلحة. لا يمكننا ببساطة وضعها في صندوق وإخراجها على متن طائرة. نحن نتعامل مع أشياء...".

كرّر جرجس بصوت أقوى هذه المرة: "اهتممنا بهذا. ستكون كل المساعدة التقنية الضرورية موجودة".

تمتم عثمان، شاعراً أنه قد تجاوز الحد: "طبعاً يا سيد جرجس. لم أعنِ... أردت فقط أن أتوثق".

قال جرجس: "حسناً، أصبحتَ متوثقاً الآن".

ارتشف مجدداً من كوب الشاي، وشفتاه بالكاد تمسان السائل، ثم وضع الكوب من يده ومسح فمه بمنديل.

قال: "لا يترك هذا إلا الفتاة. أفهم أننا لم نعثر عليها بعد".

أقر صلاح بصحّة ما قاله: "لقد تركنا خمسة رجال في الداخلة، ولدينا أصدقاء محليون. إذا كانت هناك، فسنجدها حتماً".

سأل جرجس: "الشرطة؟ *جهاز أمن الدولة؟*".

قال قصري: "لقد أخطرت رجالنا. إذا ظهرت، فسيخبروننا. أفترض أن صديقتنا الأمريكية...".

قال جرجس: "أخطرت؟".

استمر بمسح فمه قبل أن يطوي المنديل بترتيب ويعيده إلى جيبه.

قال: "أريد العثور عليها. حتى إذا منحتنا الخريطة كل ما نريده، أريد العثور عليها. لم أنتظر ثلاثاً وعشرين سنة لأرى فاسقة صغيرة تفسد هذا الأمر كله بثرثرتها".

أجابت كل الأصوات الثلاثة بانسجام: "واضح".

"اتصلوا بي حين تصلكم أي أنباء".

تكتك الخط حين أنهوا الاتصال الواحد تلو الآخر. بقي جرجس ساكناً للحظة، يحدّق عبر الغرفة إلى شاشات تلفاز الدارة المغلقة - فسيفساء مجزّأة من الجنس والعنف - ثم مال إلى الأمام.

"هل سمعت كل ذلك؟".

انطلقت تمتمة إقرار تكاد لا تُسمَع عبر الهاتف. كانت النبرة أعلى من أولئك المتكلمين الذين أنهوا الاتصال، وبدا من المستحيل معرفة إن كان الصوتُ لرجل أم امرأة.

قال جرجس: "سأحتاج إلى مساعدتك في هذا. إذا اتصلت الفتاة بالسفارة...".

تمتمة أخرى وانقطع الخط تماماً. حدّق جرجس إلى الهاتف وعيناه تضيقان، ولسانه يخرج ويدخل من طرف فمه. أومأ ووضع السمّاعة مكانها، ثم وقف وأخذ

كوب الشاي معه، وذهب إلى الشرفة حيث نظر إلى الحدائق الرائعة التي تمتـــد إلى النيل في الجزء الخلفي من المنـــزل.

كان قد عاش هناك عشرين سنة، في ذلك القصر الفخم على واجهة الزمالك المائية، ولا يزال الأمر حتى ذلك الوقت يدهشه: إنه هو، ابن جامعَي قمامة، حفيد صعيدي فلاح، يعيش في أحد أرقى أحياء القاهرة، يجد نفسه يعاشر النخبة. مـــن مشية ناصر إلى ذاك، من صفقات ممنوعات عند زاوية الشـــارع إلى إمبراطوريـــة تجارية بمليارات الدولارات؛ كان قد قطع بالتأكيد شوطاً طويلاً، أطول حتى ممـــا كان قد تمنّى أو توقع. وحده إخفاق الجلف الكبير قد أفسد سيرة لامعة بخـــلاف ذلك؛ صفقة يجب أن تكون تتويجاً لعمله، متهورة حتى بمعاييره، وكل ذلك فشـــل بسبب حالة طقس غريبة.

عبس، وزَمّ شفتيه في تكشيرة غضب. لكن هذا التعبير لم يَدُم إلا لحظة واحدة قبل أن يتحول إلى ابتسامة مجدداً.

الصفقة لم تفشل. تأخرت، نعم، لكنها لم تفشل، وهي أبعد ما تكون عن ذلك. كان تحطم الطائرة، في النهاية، قد أكسبه وزبائنه معروفاً، وحوّل مغامرة طموحـــة إلى شيء أكبر. كان الإثمار قد استغرق وقتاً، لكن آنذاك، وأخيراً، أصبح مستعداً لقطـــف الثمار. لكل غيمة بطانة فضية، أو في هذه الحال، لكلّ عاصفة رملية.

ارتشف الشاي وحدّق عبر النيل إلى فندق كارلتون والأبراج الـــتي تغطيهـــا الأضواء في مبنى المصرف الوطني المصري المقابل، في حين اســـتمع إلى صـــرخاتٍ تتردد من الأسفل، متألمة ويائسة. اتسعت ابتسامته وأطلق ضحكة خافتة. قُل مـــا تريده، فإنّ روماني جرجس يقدم دائماً عرضاً جيداً.

القاهرة - السفارة الأمريكية

بعد أن أعد لنفسه كوباً من الحليب الدافئ، ذهب سي أنغلتـــون إلى غرفـــة المعيشة، وجلس على كرسي ذي ذراعين، وبطنه يتدلى من فوق مطـــاط ســـروال رداء النوم، وردفاه يضغطان بقوة على ذراعي الكرسي (مَن صمم هذا الأثـــاث؟ ميدغيتس؟). عاش معظم موظفو السفارة خارجها، في غاردن سيتي أو على الضفة

المقابلة من النهر في الجزيرة والزمالك، لكنه تمكّن من الاستئثار بإحدى الشقق في الطابق العلوي من القاهرة 2. كانت مكاناً صغيراً، يتكوّن من غرفة نوم، وغرفة معيشة، وحمام، ومطبخ صغير جدًّا مساحته بالكاد تكفي للسير بضع خطوات في أي اتجاه من دون الاصطدام بجدار. لكنه كان أكثر أماناً من العيش خارج المجمّع. وكان احتمال وجود أشخاص مزعجين أقل. إضافة إلى ذلك، يمكنه الحصول على كل وجباته هناك من مطبخ فيالق المارينز في القبو؛ طعام ملائم، طعام أمريكي، وفيه حصة دائمة من فطيرة المسيسبي التي يحضّرها الطاهي بارني. اللعنة، كانت الفطيرة جيدة، وتجعل كل الطعام السيئ الآخر يستحق تناوله؛ تقريباً.

ارتشف ببطء من كوب الحليب، ومدَّ يده إلى جهاز التحكم عن بعد، وشغّل جهاز الأقراص المدمجة. عدّل ارتفاع الصوت، وقلّب بين التسجيلات حتى عثر على ما يريده: *تو ماني سيكرتس* لباتسي كلين. أطبق الصمت لحظة، ثم سمع صوت المزامير الصاخب المألوف حين بدأت الأغنية. تنهّد سعادة، ثم أمال رأسه إلى الخلف وأغمض عينيه، وراح يربت بأصابعه على مسند الكرسي.

أحب موسيقى الكانتري، لقد أحبها دائماً، منذ كان طفلاً يستمع إلى أغنيات 78 على جهاز أمه العتيق من طراز كروسلي. هانك ويليام، جيمي روجرز، ليفتي فريزل، مارلي ترافيس: من دون تلك الأغنيات لم يكن لينجو قطّ في تلك السنوات الباكرة؛ سنوات الشقاوة، الزيارات المتواصلة إلى المستشفى، نوبات غضب والده السكير. (*انظر إلى نفسك، بحق الله! أطلب من الله ابناً وماذا يمنحني؟* شخصاً *قذراً لعيناً منحرفاً بديناً!*). كانت موسيقى الكانتري قد منحته مهرباً؛ ملاذاً؛ مكاناً لا يشعر فيه بأنه وحيد تماماً، ولا تزال تمنحه ذلك الإحساس. إذا كان هناك شيء يحتاج إليه الآن أكثر من السابق، فسيكون التخلص من كل الأكاذيب والشبهات وقذارة الفساد المقزز الذي يجب أن يخوض فيه إلى الأبد. اعتادت والدته أن تقول له: "موسيقى الكانتري ليست مجرد موسيقى. إنها ما يجعلك تتخطى المحن"، وقد كانت محقة. والاقتباس المؤطر على الجدار المقابل يثبت ذلك: "تقدم وزارة الخارجية الأمريكية جائزة الشجاعة إلى سايروس جيرمايا أنغلتون؛ من أجل خدماته البطولية في ظروف شديدة الخطورة". كانت موسيقى الكانتري هي التي جعلته يحظى بذلك. بالتأكيد. تمنّى لو أنّ والدته لا تزال حية حتى تستطيع رؤية كم كانت محقّة.

استمع إلى المقطع الأول من الأغنية الذي رددته الجوقة، ثم خفض الصوت إلى بضعة ديسبلات، أنهى الحليب ومال إلى الأمام، محدقاً إلى الأرضية. نظر إلى خريطة مصر الكبيرة الموضوعة أمامه، كان ورقها مغطّى بالملحوظات التي كُتبت بقلم رصاص: أسماء، تواريخ، أرقام هواتف، مبالغ مالية، سلاسل أرقام قد تكون حسابات مصرفية أو غير ذلك. كانت هناك صور أيضاً، كثير منها، مبعثرة فوق خريطة البلاد، كلها بحجم صورة جواز السفر، باستثناء ثلاث صور منها كانت أكبر ومرتّبة جنباً إلى جنب في الزاوية السفلية اليسارية من الخريطة، فوق كلمات عصبة *الجلف الكبير*: فلين برودي، ألكس هانين، مولي كيرنان. مدَّ يده إلى الأسفل، مكافحاً ليثني جسده، ثم أمسكها وجلس مرتاحاً مجدداً، وأخذ يحرّكها بيده مثل مجموعة أوراق. حدّق إلى كل منها بالتعاقب: برودي، هانين، كيرنان، ثم عاد إلى برودي مجدداً. لقد بدأت الأمور تتضح، والعلاقات تظهر، واستطاع أن يشعر بذلك بكل تأكيد. كان لا يزال هناك عمل يجب إنجازه، لكنه يأمل ألاّ يطول كثيراً قبل أن يستطيع الخروج من هناك. لا مزيد من ساند فاير والحرارة والتسلل خلسة؛ ينتهي العمل، يجني النقود، يرضى أصحاب العمل. لا مزيد من فطيرة مسيسبي التي يحضّرها الطّاهي باري أيضاً، لكن يمكنه العيش من دونها. يستطيع العيش من دون أي شيء باستثناء موسيقى الكانتري. رمى الصور أرضاً ومدَّ يده إلى جهاز التحكم عن بعد وضغط زر إعادة التشغيل، فأطبق الصمت على الغرفة قبل أن تصدح مجدداً افتتاحية الأغنية الموسيقية *توماني سيكرتس*. ضحك بصوت خافت؛ إنها قصة حياته اللعينة.

الداخلة

كانت السماء جهة الشرق تتحول إلى ظل باهت من اللون الوردي، وطيور الفجر تزقزق في وعلى الأشجار حين مشت فاطمة غروب في الواحة، وثوبها الأسود الواسع يخفق حولها، وبنيتها الضخمة تتحرك بسرعة مدهشة. توقفت بين الحين والآخر تبصق على الرمل، وتتمتم غاضبة، قبل أن تتحرك مجدداً، متّبعةً الدرب الذي يتلوّى بين بساتين النخيل والزيتون حتى أوصلها أخيراً إلى منزل المرأة الأمريكية.

صرخت، وهي تمشي بخطوات واسعة إلى الباب الأمامي: "أينها الساقطة! أين هو؟ ماذا فعلت لمحمودي؟".

رفعت قبضتها استعداداً لتضرب بها قبل أن تلاحظ أن الباب مفتوح قليلاً. ركلته واقتحمت المكان إلى غرفة المعيشة.

"هيا! أعرف أنكما هنا! الحمار وغانيته! أربعون سنة من الزواج يردّها لي بهذه الطريقة!".

وقفت ترهف السمع. أمسكت مكنسةً بلاستيكية من على عتبة النافذة، ومشت إلى غرفة النوم الرئيسة رافعةً إياها فوق رأسها مثل سلاح.

صرخت: "لا تجعلني أدخل وأعثر عليك يا محمود غروب! هل تسمع؟ لأنه، صدّقني، إذا دخلت ووجدتك، فستندم على ذلك باقي حياتك!".

كانت قد اجتازت نصف المسافة في غرفة المعيشة حين شعرت بحركة. ظهر شخص عند باب غرفة النوم، فتوقفت، تفغر فمها اندهاشاً.

"زاهر الصبري؟ يا الله! كم عدد الرجال الذين جاءت بهم إلى هنا؟".

قال زاهر بحدة، عابساً، وغير سعيد أن أحداً عثر عليه هناك: "لا أعرف عما تتكلمين".

صرخت فاطمة غروب قائلةً: "آه! بلى تعرف. أعلم ما يجري هنا! إنه يتسلل إلى المكان دائماً. فَتَنَتهُ! لقد فتنته أولئك الغانيات الصغيرات القذرات! محمود! محمود! محمودي الجميل!".

بدأت تنتحب وتشدُّ ثوبها، وتضرب المكنسة على رأسها. فجأة، هدأت هستيريتها مثلما ثارت وضاقت عيناها.

"ماذا تفعل هنا؟".

تحرك زاهر مضطرباً.

"جئت لرؤية الآنسة فريا".

"عند السادسة صباحاً؟".

"أحضرت لها فطوراً". أومأ نحو سلّة على طاولة غرفة المعيشة وأضاف: "كان الباب مفتوحاً. دخلت لأتوثق من أنها بخير".

قالت المرأة الأكبر سناً ملوّحة بإصبع الهام: "أنت متطفل. تدس أنفك في ما لا يعنيك".

كرّر: "جئت أتوثق من أن الآنسة فريا بخير. لم تكن هنا، ولم ينَم أحد على سريرها".

ضغطت، تتذكر بعض الأقاويل: "تتطفل وتدس أنفك. تنظر إلى أشياء لا يفترض بك أن تنظر إليها. انتظر فقط إلى أن أخبر... ماذا تعني أن أحداً لم ينم على سريرها؟".

فتح زاهر فمه ليجيب، لكن قبل أن يتمكن من قول شيء بدأت الزوجة الخرينة تصرخ مجدداً، وهي تشدّ ثوبها، وتضرب جبينها براحةِ كفّها.

"آه يا الله! عرفت ذلك! لقد هربا معاً. لقد سرقت محمودي! محمود، محمود! محمودي الصغير!".

رمت المكنسة عبر الغرفة، واستدارت إلى الخلف ناويةً على ما يبدو مُطَارَدَة الثنائي الهارب، وخرجت مسرعة من المنزل، تاركةً زاهر يقف حيث كان، يهز رأسه ويبدو منزعجاً جداً.

القاهرة

يستطيع أولئك الذين يعملون لمصلحة روماني جرجس أن يشعروا متى يكون العنف وشيكاً. يعرفون أنه في مثل تلك الأوقات يجب أن يبتعدوا عن طريقه أو، إذا لم يتمكنوا من ذلك، إبقاء رؤوسهم منخفضة، ومتابعة ما يقومون به، وعدم إثارة الانتباه إلى أنفسهم.

بقيت المشكلة تختمر طوال الصباح. بعد الفجر بوقت قصير تلقى جرجس مكالمة هاتفية على الشرفة في الجهة الخلفية من المنزل، ووفقاً للبستاني العجوز الذي كان في ذلك الوقت يروي أصص إبرة الراعي القريبة، لم يكن سعيداً. لم يكن مسروراً إطلاقاً، وصرخ على الشخص على الطرف الآخر من الخط، ضرب بقبضته بقوة كبيرة على الطاولة الخشبية فوقع فنجان القهوة عنها وتحطّم على الأرض، ما ترك لطخة بشعة على الرخام الأبيض اللامع. لم يسمع البستاني ما قيل

بالتحديد، وشرح لاحقاً إلى إحدى طاهيات المنــزل أنه لم يجرؤ على النظــر إلى الأعلى أو الاقتراب كثيراً، لكنه سمع بالتأكيد جــرجس يقــول كلمــتي *واحــة* ومروحية، وشيئاً عن برج أسود وصخرٍ مقوّس أيضاً، بالرغم من أنه قد بدأ آنذاك يتحرك بعيداً عن مرمى بصر جرجس، وربما لا يكون قد سمع جيداً.

كانت تلك هي البداية، ومنها ازداد مزاج جرجس سوءاً بثبات مع انقضاء الصباح. عند الثامنة صباحاً تقريباً، كان كبار موظفيه الثلاثة - بطرس صلاح، أحمد عثمان، محمد قصري - قد وصلوا واختفوا في مكتبه. قالت خادمة إنهــا سمعت صوت تحطّم زجاج وصراخاً: *قلتم إن الخريطة ستكون كافيــة!*. بعــد ساعة، عند التاسعة صباحاً، كاد عاملٌ يصلح مقبساً كهربائياً عند قاعدة الدرج الكبير أن يتلقى ضربة عنيفة حين تجاوزه جرجس بسرعة، وهو يصــرخ عــبر هاتفه الخلوي: "لا أكترث للوقود اللعين! تابعوا البحث! سمعتني! تابعوا البحث فحسب!".

بمرور الوقت، ازداد غضبه، وأصبح الجو أكثر توتراً حتى سمعوا أزيز شــفرات بعد الظهر حين حطّت مروحية جرجس على مهبط الحديقة، ثم خرج التوأم منها، ومشيا إلى حيث ينتظرهما جرجس على المرج. كان معظم الموظفين آنذاك يدركون أن هناك أمراً جللاً، ويحدّقون خلسة من خلف نوافذ القصر، لكــن، لم يكــن إلا البستاني قريباً كفاية ليسمع ما قاله صاحب العمل للتوأم.

صرخ قائلاً: "اعثرا عليها. اعثرا على الفتاة، جدا فيلمَــي الكــاميرا، اقتلعــا عينيها، وألقيا بها في الصحراء. هل تسمعاني؟ اعثرا على الساقطة!".

همس البستاني العجوز لمساعده، وقد أبقيا وجهيهما إلى الأسفل ينظــران إلى حوض الورود الذي يزيلان الأعشاب الضارة منه: "سيؤذي شخصاً ما. انتبه إلى ما أقوله، سيؤذي أحداً".

ذلك ما خطر في ذهن الجميع حين عاد جــرجس مســرعاً إلى المنــــزل. انسحب موظفوه، مثل أسماكٍ تتبعثر أمام سمكة مفترسة، إلى مسافة آمنة حين مشى في الرواق وصعد الدرج إلى مكتبه في الطابق العلوي.

فعلوا ذلك جميعاً باستثناء عذرا الحواري، التي لم تكن تعمل في القصر إلا منذ ثلاثة أيام فقط، ولا تعرف شيئاً عن مالكه أو مزاجه، لقد كانت ممتنة لأنها

عثرت على وظيفة. فقد كان عثور أرملة تبلغ من العمر ستين سنة على وظيفة أمر صعباً، وبدت فرصة العمل في مثل تلك الأماكن الجميلة، حتى مقابل أجر يبلغ خمسين قرشاً فقط في الساعة، نعمة كبيرة. بقيت تنتظر منذ ثلاثة أيام أن تسنح لها فرصة لتشكر صاحب العمل الجديد، وتخبره عن مدى إقرارها بالفضل على لطفه. كان آنذاك يصعد الدرج نحوها وهي تلمّع الدرابزين الخشبي حول منبسط درج الطابق الأول. كانت امرأة خجولة، ولا تعرف كيف تخاطب مثل ذلك الرجل العظيم والمهم. ظنّت أن ذلك واجبها، على كل حال. عندما وصل إلى أعلى الدرج تقدمت إلى الأمام، وضعت يدها على صدرها، وبصوت متلعثم شكرته بتواضع على لطفه تجاه أرملة عجوز. تجاهلها جرجس، وتجاوزها مباشرة في الممر نحو مكتبه. وصل إلى منتصف الطريق قبل أن يستدير فجأة، ثم مشى عائداً بخطوات واسعة، تقدم منها وصفعها بقوة على وجهها.

قال بحدّة: "لا تتكلمي معي، هل تفهمين؟ لا تتكلمي معي أبداً؟".

تسمّرت عدرا الحواري مكانها محدّقة إليه، وعلامة حمراء داكنة تصبغ وجنتها. بدا أن صمتها يغيظه أكثر، ثم صفعها مجدداً: بقوة أكبر. أدّت قوة الصفعة إلى كسر أنفها وجعلتها تتراجع إلى الدرابزين، والدم يسيل من منخريها على السجادة.

صرخ جرجس، وصوته يرتفع، وغضبه وإحباطه ينصبّان حصراً آنذاك على المرأة التي ترتعد خوفاً أمامه: "كيف تجرئين أن تتحدثي معي! كيف تجرُؤين! كيف تجرُؤين!".

ضربها مرة أخرى، على جانب رأسها. استل علبة مناديل مرطّبة من جيب سترته، أخرج واحدة وفركها بقوة على يديه.

لهث وأشار إلى بقع الدم على الأرضية: "توثّقي من أن تزيلي هذه الفوضى. هل تفهمين؟ أريدك أن تنظفي قذارتك! أريد المكان نظيفاً! نظيفاً!".

رمى المنديل عليها، ثم استدار واختفى في الممر، وترك عدرا الحواري ترتعش بصمت مخيف وتتساءل إن كان العمل لمصلحة السيد روماني جرجس نعمة بالمحصلة.

القاهرة – الحي القبطي

شقّت مولي كيرنان طريقها عبر شوارع مصر *القديمة* الملتوية وهي همهم التراتيل، ونزلت مجموعة درجات متهالكة قادمًا إلى دار عبادة سانت سيرجيوس وسانت باخوس.

كانت تمارس شعائرها الدينية عادة في دار عبادة صغيرة في منطقة المعادي في المدينة، حيث تقع مكاتب وكالة الولايات المتحدة للتنمية الدولية USAID التي تعمل فيها، وحيث تعيش في بيت صغير من طابق واحد يضم غرفتي نوم وتظلله أشجار اللهب والياسمين. اليوم، على أيّ حال – 7 أيار – هو ذكرى مولد تشارلي، وتحب في هذا اليوم الخاص أن تذهب إلى مكان مختلف، بقعة خاصة. وهكذا جاءت إلى هنا، إلى أقدم دار عبادة في القاهرة؛ مبنى روماني عتيق متداعٍ.

كانت تفعل الشيء نفسه تماماً في كل ذكرى ميلاد لتشارلي، كما فعلت طوال الربع قرن الأخير. ستحضّر له إفطار ميلاد خاص- قديد، بيض، جريش، كعكة محمّصة، مربّى العنب البرّي المفضّل لدى تشارلي – وتفتح الهدايا التي جلبتها وغلّفتها من أجله، وتمضي بعض الوقت مع ألبومات صورها، تقلّب صفحات قصة حياهما معاً، مبتسمةً حين تتذكر كل الأوقات الجيدة التي استمتعا بها، وكم كان تشارلي رجلاً وسيماً ويحتل مكانة مميزة لديها.

تتنهد قائلةً: "آه يا عزيزي! آه يا زوجي الحبيب الغالي!".

لاحقاً، ستخرج في نزهة وتذهب إلى حديقة الحيوانات – المكان الذي اصطحبها إليه في موعدهما الأول، إلى حديقة الحيوانات في واشنطن – ثم إلى دار العبادة. ستمضي هناك باقي الأصيل تقدم الشكر من أجل حياة تشارلي، تحاول أن تطمئن نفسها أن هناك سبباً جعل الله يأخذه بتلك الطريقة المروّعة، وأن ما حدث كله جزء من خطة أوسع، لكنها لا تزال تكافح حتى بعد كل تلك السنين لتفهم المخطط بالتحديد. مثل ذلك الرجل اللطيف المسالم يمزّقه هؤلاء المتوحشون القاتلون أشلاء. *آه يا عزيزي! آه يا حبيبي الغالي!*

في طريقها إلى دار العبادة الصغيرة آنذاك، توقفت كيرنان لحظة لتحدّق إلى صورة كبيرة داخل الباب تماماً، قبل أن تتقدم وتجلس على مقعد خشبي. ورفرف عصفوران دوريان قرب السقف الخشبي المقنطر فوقها.

أحبت ذلك المكان، وتعرف تماماً أن تشارلي كان ليحبّه لو أنه لا يزال على قيد الحياة. بدا أن هناك شيئاً في بساطة المكان المتداعي: اللوحات الجدارية الباهتة، فبسط الرثة على الأرضية، البرودة، الرائحة العفنة للرطوبة والغبار والحجارة. بدا لها تعيدها إلى الأيام الأولى للنصرانية: أيام كان الإيمان لا يزال فيها فتياً، صافياً، بسيطاً، ومتحرراً من الشكوك الأخلاقية المريعة التي حملت عِبأها لاحقاً. مرة، فكّرت في قرارة نفسها أن كونها نصرانية هو ببساطة قضية حب وإيمان. كانت تلك هي الطريقة التي يرى بها تشارلي الأمور؛ اقتناع بسيط وبريء أنك إذا كنت تتحلى بإيمان كافٍ، وتمشي قدر استطاعتك على درب المسيح، فسيصبح كل شيء كما ينبغي في النهاية، وأن الخير سينتصر على الشر.

لكن كيرنان عرفت أن الأمور أكثر تعقيداً من ذلك، وأكثر اضطراباً، كما أثبتت وفاة تشارلي. كان الحَمَل محاطاً من كل الجوانب ببنات آوى، والحب وحده لم يعد كافياً لمساعدته في محنته. كانت قد قبلت منذ وقت طويل أن كونها نصرانية يعني أن عليها السير على حبل مشدود، وإيجادَ طرائق للعيش، وفي الوقت نفسه الوقوف بحزم ضد الأشرار. الحلم والقوة، الإيمان والنزاع؛ كل ذلك صعب جداً، ومؤلم، ومزعج كثيراً، ولهذا، كانت كيرنان تحب الحضور إلى ذلك المكان، لتترك نفسها على سجيتها، وإن يكن أصيلاً واحداً فقط، في بساطة هذا المبنى المرتّب والعتيق والجميل والبارد. فقط هي والإيمان وتشارلي، على اتحادٍ تامٍّ بالصمت، وعلى بُعد تامٍّ عن المشكلات التي تغص بها الحياة اليومية.

استرخت إلى الخلف، وشبكت يديها في حجرها، محدّقةً في أرجاء دار العبادة، ناظرةً إلى الأعمدة الرخامية على كلا جانبي الممر الرئيس، واللوحات المزخرفة بعناية عند صحن دار العبادة، والثريا النحاسية الضخمة التي تتدلّى فوق الرؤوس، وتفكّر طوال الوقت في تشارلي وحياتهما معاً، وكل ما تشاطراه في ذلك الوقت القصير جداً؛ ولكنها خسرت كل ذلك.

كانا قد تزوجا في عمر متأخر، كلاهما كانا في العقد الثالث من عمريهما. كانت تعمل لحساب الحكومة، وهو كان رجل دين مع الكتيبة الأولى من فوج مارينز الثامن. كانت قد تخلت آنذاك عن الأمل في العثور على أحد، وقبلت أن عملها سيكون حياتها، والعنوسة مصيرها. لكن في اللحظة التي وقع بصرها عليه

يقف بجانبها في المتحف الوطني للفنون في واشنطن - أمام لوحة كارباشيو *الرحلة إلى مصر* - عرفت أنه سيكون الشخص المنشود، الرجل الذي بقيت تنتظره كبر تلك السنين. تحدثا إلى بعضهما، وطلب منها الخروج معه، وبعد ستة أشهر أصبحا مخطوبين، وبعد ذلك بخمسة أشهر تزوجا. كان هناك حديث عن أطفال، ورحلات سيقومان بها، وأن يكبرا معاً... وقد شعرت بسعادة غامرة.

على أيّ حال، وبعد أقل من سنة على زواجهما، نُقلت كتيبة تشارلي إلى لبنان، بصفتها جزءاً من قوة حفظ السلام الدولية. أمضيا أسبوعين أخيرين رائعين معاً، ثم حضّرت له صباح أحد الأيام الإفطار المكوّن من قديد، بيض، جريش، كعكة محمّصة، مربّى العنب البرّي، وقبّلها على وجنتها ومنحها السلسلة التي لا تزال تضعها حول عنقها، وحمل حقيبته العسكرية على كتفه، وخرج مع بزوغ الفجر. كانت تلك المرة الأخيرة التي رأته فيها. بعد شهر، في 23 تشرين الأول 1983، سمعت نبأ حدوث انفجار في بيروت، تفجير انتحاري، ثكنات المارينز، إصابات كثيرة، وعرفت على الفور أن تشارلي قد رحل. سنتان، ذلك كل ما تسنّى لهما. لكنهما أفضل فترة من حياتها.

قاطع ثرثرةَ أصواتِ أفكارِها دخولُ حشد من سيّاح إيطاليين بأعداد كبيرة إلى دار العبادة، ومرشدهم ترشدهم إلى المقاعد حولها، ما أرغمها على التحرك لتفسح مجالاً لهم. كانوا يافعين ولا يبدون مهتمين بالمكان، أو بمفهوم تبجيله. يتكلمون بأصوات عالية في ما بينهم، ويأكلون رقائق البطاطا، وأحدهم كان يلعب حتى بجهاز جيم بوي. حاولت أن تتجاهلهم، لكن سيّاحاً آخرين دخلوا المكان، كانوا يابانيين هذه المرة، وامتلأت دار العبادة بأضواء متواصلة من ومضات الكاميرات. بدا صوت مرشدهم يملأ المكان كله حين هذرت معهم عبر نوعٍ من جهاز محمول. لم تستطع تحمّل ذلك - لماذا لا يلتزمون الصمت، ويتركونها تحزن بسلام؟ - نهضت كيرنان وسلكت طريقها إلى خارج المقعد الخشبي. عندما وصلت إلى الممر، سدَّ يابانيّان دربها، يحملان كاميرتين، وهما يكشّران وينحنيان، وطلبا منها أن تلتقط صورة لهما.

صرخت بجميع الموجودين قائلةً: "ما خطبكم أيها القوم؟ هذه دار عبادة! ألا تفهمون هذا؟! أظهروا بعض الاحترام! أرجوكم، أظهروا بعض الاحترام فقط!".

تجاوزت الثاني بسرعة، وخرجت من الباب، صعدت الدرج، ووصلت إلى الشارع الضيق فوقه، وعيناها تفيضان دموعاً.

غصّت وهي تقول هامسةً: "أحتاج إليك يا تشارلي. لا يمكنني القيام بهذا بمفردي بعد الآن. آه يا الله! أحتاج إليك. زوجي، زوجي العزيز الغالي".

كانت الساعة قد تجاوزت الواحدة بعد الظهر حين وصلت فريا أخيراً إلى ضواحي القاهرة، وانقضت أربعون دقيقة أخرى قبل أن يشقا طريقهما عبر حركة سير مزدحمة تكاد لا تتقدم إلى مركز المدينة. توقف سائق الصهريج عند طرف ساحة مكشوفة شاسعة بجانب أرض تتناثر فيها الأعشاب وبعض أشجار النخيل.

أخبرها متجاهلاً أبواق الاحتجاج من السيارات خلفه: "ميدان التحرير".

كانا قد أمضيا نحو ست عشرة ساعة للوصول إلى هنا من الداخلة، رحلة مضنية أضحت أطول نتيجة إصرار السائق على التوقف عند كل مقهى أعجبه في طريقهما لتناول الشاي. كانت فريا قد فكّرت أكثر من مرة في تركه ومحاولة إيقاف سيارة والسفر مع شخص آخر، لكنها قرّرت ألاّ تفعل ذلك، خائفة من أن يكون للرجال من الواحة زملاء يبحثون عنها وقد ينتهي الأمر بها مع الأشخاص غير المناسبين. ربما كان بطيئاً، لكنه بدا على الأقل جديراً بالثقة.

كانت قد غفت بين الفينة والأخرى في أثناء الرحلة، ساعة هنا وأربعين دقيقة هناك، لكنها بقيت مستيقظة معظم الوقت. فتحت حقيبتها باستمرار وحدّقت إلى الكاميرا، ولفة الفيلم، والبوصلة الموجودة داخلها. أساساً، لم تفعل شيئاً إلا التحديق عبر النافذة إلى الصحراء الشاسعة التي لا تنتهي مراقبة علامات الأميال تتناقص ببطء وصولاً إلى الفرافرة والبحرية ثم إلى القاهرة.

وآنذاك، وصلا أخيراً.

كرّر السائق: "ميدان التحرير".

قالت، تقلّد رفع سمّاعة إلى أذنها: "هاتف. يجب أن أجريَ اتصالاً".

عبس، ثم ابتسم وأشار خلفها إلى كشك هاتف عمومي لونه أخضر وأصفر.

قال: "ميناتل"، وبحث في درج تحت لوحة المفاتيح، وأخرج منه بطاقة هاتفية مسبقة الدفع سلّمها إياها، ملوّحاً برفض المال الذي عرضته عليه. شكرته، على البطاقة والرحلة، ثم وضعت حقيبتها على ظهرها، ونزلت من المقصورة إلى الرصيف. صرخ السائق مرة أخيرة *بوس ويليز. آمال شوازنغر!* وانطلق مبتعداً.

وقفت فريا هناك لحظة، مرهقة، تنظر إلى ما يحيط بها: حركة السير التي تتحرك كالدوامة، حشود المشاة التي تشبه النمل، المباني العالية المتسخة التي تعلوها لوحات إعلانية عملاقة: كوكا-كولا، فودافون، سانيو، ويسترن يونيون. بالرغم من بطء الرحلة الشديد الذي يثير الحنق، كان هناك شيء آمن ومريح بشأن مقصورة الصهريج. فجأة، شعرت آنذاك بأنها بمفردها ومكشوفة تماماً، مثل حلزونة هُشِّمت قوقعتها. كان سائق سيارة أجرة يتكلم عبر هاتفه الخلوي عند إشارة مرور قريبة، وبدا أنه يحدّق مباشرة إليها. وكذلك فعلت امرأة عجوز تبيع قدّاحات من سلّة مقلوبة رأساً على عقب لا تبعد عنها أكثر من بضعة أمتار. خفضت فريا رأسها، وأسرعت إلى الهاتف العمومي، تحسست داخل جيبها وأخرجت البطاقة التي أعطتها مولي كيرنان إياها حين التقتا أول مرة. وضعت بطاقة الهاتف في الشق المخصّص لها، انتقت خيار اللغة الإنكليزية على شاشة العرض الرقمية، ثمّ ثبتت السمّاعة بأن أمالت رقبتها، وضغطت على أرقام هاتف كيرنان الخلوي على لوحة المفاتيح. صمت، رنين، ثم، لإحباط فريا، رسالة بريد صوتي: "مرحباً، هذه مولي كيرنان. لا يمكنني الرد على مكالمتكم الآن. اتركوا رسالة وسأعاود الاتصال بكم بأسرع ما يمكنني".

قالت في اللحظة التي صدحت فيها نبرة التسجيل بصوت متوتر وملحّ: "مولي، هذه فريا. فريا هانين. أتصل من هاتف عمومي. شيء ما... أحتاج إلى مساعدتك. حاول أحدهم... أظن أنهم قتلوا ألكس... كانوا... جاء هذا الرجل إلى المنزل أمس حاملاً حقيبة... كانت هناك كاميرا... قال إنه وجدها في الصحراء...".

سكتت مدركةً أنها تهذر وأن عليها التفكير في ما ستقوله قبل أن تتصل. الأفضل اختصار الموضوع، وشرح الأمر وجهاً لوجه.

قالت: "اسمعي، أنا في القاهرة. يجب أن أراك. أنا في...".

سكتت مجدداً محاولةً أن تتذكر ما قد أخبرها السائق به.

"... ميدان شيء ما... إنه مساحة كبيرة مكشوفة...".

نظرت حولها، تبحث عن علامات محدّدة ومميّزة ثمّ قالت: "هناك فندق هيلتون، ومطعم وجبات سريعة يُدعى هارديز، و... و...".

وقع بصرها على مبنى عتيق عثماني الطراز على الطرف الآخر من الشارع، ذي نوافذ مقنطرة، ومناخل خشبية متشابكة، وأفاريز مزخرفة، يحيط به درابزين وشيع مغبر جداً، تزين أعلى واجهته كلمات بأحرف زرقاء: **الجامعة الأمريكية في القاهرة**. أليس ذلك هو المكان...؟ تحسّست داخل جيبها مجدداً، همهم وتتأوه عبر الهاتف، واعتذرت عن التأخير، ثم أخرجت البطاقة التي منحها فلين برودي إياها: الأستاذ فلين برودي، الجامعة الأمريكية في القاهرة. بدأت تتكلم مجدداً، وقد أصبح صوتها ينمّ عن الاطمئنان آنذاك.

قالت: "أنا خارج الجامعة الأمريكية. سأدخل إليها وأحاول العثور على فلين برودي. إذا لم يكن هناك، فسأذهب إلى السفارة. أظن أنني في خطر، وأحتاج إلى...".

انقطع الخط. أظهرت شاشة الهاتف الرقمية أنه لم يعد لديها مزيد من الوقت. رعت وأزبدت، ثمّ أنهت المكالمة وتراجعت إلى الخلف نحو الرصيف. تجاوزها مشاة يتدافعون بالمناكب في كل الاتجاهات حولها. كان سائق سيارة الأجرة الذي يتكلم عبر هاتفه الخلوي قد انطلق بعيداً آنذاك، لكن المرأة العجوز التي تبيع قدّاحات لا تزال تحدّق بثبات إليها. تساءلت فريا لحظة إن كان من الأفضل لها أن تذهب مباشرة إلى السفارة الأمريكية، التماساً لنوع من الحماية الرسمية، لكن احتمال اضطرارها إلى التعامل مع كثير من البيروقراطيين المملين وسرد القصة كلها من البداية جعلها تعدل عن ذلك. كانت تحتاج آنذاك إلى وجه مألوف، إلى شخص يمكنها أن تثق به، إلى شخص يأخذ ما تقوله على محمل الجد. أقرّت أنها بالكاد تعرف برودي، ولم تتحدّث إليه إلا بضع دقائق، لكنه كان صديق شقيقتها؛ وذلك حينئذ بما يكفي لها. يمكن للسفارة أن تنتظر. كانت متأكّدة من أن فلين برودي سيساعدها، وسيعرف ما يجب فعله.

ربتت على حقيبتها، وألقت نظرة سريعة نحو بائعة القدّاحات، التي استمرت تحدّق إليها، وأسنانها الذهبية تلمع في شمس الأصيل. شاهدت فريا بعد ذلك ثغرة

في حركة السير، فانطلقت تهرول عبر الشارع وتبعت السياج حول طرف مبنى الجامعة باحثة بقلق عن المدخل الرئيس.

توجد بعض أجهزة التنصّت والمراقبة المتطورة جداً في السفارة الأمريكية، وهناك بعض الأشخاص الماهرين جداً يقومون على إدارتها. وبما أن المهمة الموكلة إليه كانت في قسم العلاقات العامة، لم يكن أنغلتون يستطيع دخول تلك الأقسام بنفسه، إلا بعد أن يتعرض لسيل من الأسئلة المربكة. كان بمقدوره أن يمدَّ عنقه، ويحرك بعض الخيوط، ويحصل على الإذن الضروري - ربما سيضطر إلى ذلك لاحقاً - لكن إلى أن يحين وقت ذلك، فالارتجال أسهل عليه. لم يرغب في أن يفشي سره، على الأقل ليس الآن.

هكذا، أنشأ محطة تنصّت خاصة به، خارج الحرم، في جناح في أعلى البرج البرتقالي الكئيب لفندق سميراميس إنتركونتيننتال. لم تكن الأدوات متطورة تقنياً مثل أجهزة السفارة، وكانت السيدة معلوف، التي أدارت المحطة يوماً بيوم، مختصة وليست خبيرة، لكنها قامت بالعمل، وجعلت أنغلتون يسترق السمع على مكالمات هاتفية، ونتيجة معرفته الشيفرات وكلمات السر الداخلية المختلفة المستخدمة، تسلل إلى حسابات بريد صوتي وإلكتروني، وبنى صورة لمن يقول ماذا ولمن، وكيف يرتبطون جميعاً معاً. لم يكن يحصل بكل تأكيد على القصة الكاملة، وأدرك أن هناك قنوات اتصال لا يعرفها، لكن ذلك بدا كافياً آنذاك. فالأمور ستُحَلّ شيئاً فشيئاً.

وصل أنغلتون في ذلك الأصيل بسيارة أجرة، وهو يذهب إلى أي مكان بسيارة أجرة، ولا يمشي أبداً. اجتاز ردهة الفندق الرئيسة، توقف عند متجر الحلويات الغربية في الطابق الأرضي، واشترى قطعتي حلوى وقطعة ميرنغ كبيرة الحجم عليها شريحة ليمون مغطاة بالكراميل، ثم اتجه نحو المصاعد.

كان قد اختار إنتركونتيننتال لسببين؛ لأنه مفضّل لدى السيّاح الأمريكيين. ووجوده فيه لن يثير اهتماماً كبيراً، وأساساً؛ لأنه مرتع معروف لغانيات الطبقة المخملية في القاهرة. إذا كان أحد يتبعه - لم يكن يظن ذلك، لكن يجب أن يتوخى

أقصى درجات الحذر - فسيظن أنه يقصد الفندق لأحد هذين السببين، أي المتعة والتسلية. على ذلك أيضاً أن السيدة معلوف يجب أن ترتدي ملابس أنيقة، أو ثياباً قصيرة كما تراها، وهو شيء لم تحبه على الإطلاق، لكن مقابل المبلغ الذي يدفعونه لها كانت مستعدة لتبتسم وتتحمّل ذلك.

وصل إلى المصعد، اهتزَّ قليلاً حين دخل إليه. ضغط زر الطابق السابع والعشرين وتراجع إلى الخلف ليفسح مجالاً لمجموعة من العجائز يرتدين قمصاناً قصيرة الردنين حمراء متماثلة ضغطن على كل زر آخر تقريباً على اللوحة.

اعتذرت إحداهن بلهجة أهل تكساس حين أُغلق البابان وبدأوا يصعدون: "نخشى أننا سنجعل الصعود بطيئاً بالنسبة اليك".

رد أنغلتون بابتسامة مرحة: "كلما كان أبطأ، أصبح أفضل. يمنحني وقتاً أطول لأستمتع برفقتكن الرائعة أيتها السيدات".

ضحكن بصوت خافت سعادة، ثرثرن بصوت خافت عن أنغلتون، الذي تظاهر أنه يستمتع بالجمال الجنوبي، وتبادل ملحوظات ظريفة ودعابات معهن، في حين فكّر في باطن عقله في زيارته الصباحية إلى مبنى وكالة الولايات المتحدة للتنمية الدولية USAID في المعادي الجديدة، حيث تعمل مولي كيرنان، وحيث أمضى معظم النهار حتى ذلك الوقت.

بناء عصري ضخم من الزجاج الداكن والفولاذ الصقيل، ويقع في مجمّع يخضع لحراسة مشددة في نهاية شارع أحمد كمال، ويطل على أرضٍ قاحلةٍ شاسعة تتناثر فيها الصخور. كان أنغلتون قد عقد اجتماعاً مع المدير، قال إنه جديد في العلاقات العامة ويظن أنهم يجب أن يفعلوا المزيد للترويج لعمل وكالة الولايات المتحدة للتنمية الدولية الممتاز، وتحقيق تعاون أكبر، وقيمة مضافة، ودفع ذلك النموذج قدماً إلى الأمام. كان ذلك من هراء الإدارة الخالي من أي معنى الذي اقتنع به المدير بالتأكيد، وأخبره بكل ما يريد معرفته تقريباً عن الوكالة، وموظفيها، والبرامج المختلفة التي تديرها.

لم يكترث أنغلتون بذلك قطّ، لكنه تظاهر بالاهتمام. لم يكن بمقدوره أن يفاجئه ويقول: "أخبرني كل ما تعرفه عن مولي كيرنان". مُدَّ الخيط للسمكة قبل أن تسحبها إليك. وهكذا تكلم باهتمام زائف، متحمساً بشأن مشروعات الصرف

الصحي وبرامج التبادل الدراسية، وحاز ثقة المدير قبل أن يحول الحديث ببطء شديد ومكر كبير في الاتجاه الذي يريده.

كان متأكّداً من أن كيرنان هي المحور، وأن فلين برودي وألكس هينان يحتلان مرتبة أدنى - كلاهما مهمان، لكن كيرنان هي مفتاح ساند فاير. كان قد فتّش آنذاك بيتها، وهو أولى محطات توقفه بعد تزويده بالتعليمات، واكتشف أنه خالٍ، كما عرف أنه سيكون. كانت أذكى من أن تترك شيئاً مكشوفاً، وتتوخى الحذر.

لم يحصل على معلومات كثيرة من المدير، وذلك ذو مغزى بحدّ ذاته، ويؤكد كل ما أشارت إليه خيوط تحقيقه الأخرى: أن مولي كيرنان تلعب وهي تضع أوراقها قرب صدرها تماماً. كانت موظفة في وكالة الولايات المتّحدة للتنمية الدولية ومن بين الموظفين الذين أمضوا أطول مدة خدمة، وتعمل في القاهرة منذ العام 1986، ورئست برامج مختلفة في الصحراء الغربية: عيادة تنظيم أسرة في الخارجة، مدرسة زراعية في الداخلة، نوعٌ من مشروع أبحاث علمية في الجلف الكبير. لم يكن المدير يعرف التفاصيل بتمامها.

كان قد أخبر أنغلتون: "لأكون صادقاً، تعمل مولي بطريقتها الخاصة. تقدم تقريراً كل ستة أشهر وهذا كل شيء؛ لا فائدة من إحكام السيطرة على شخص يتمتع بتلك الخبرة. نتركها تعمل كما يحلو لها. مهلاً، ما رأيك أن أريك نظام الصرف الصحي الجديد الذي نموّله في أسيوط؟ لدي عرض باوربوينت في مكتبي".

قال أنغلتون: "أحضره إلى هنا".

كما هو متوقع، كان العرض مملاً جداً. ولحسن الحظ، لم يضطر إلى الجلوس إلا بضع دقائق قبل أن يتلقى المدير، كما هو مخطط، اتصالاً من صحفي صديق لأنغلتون يطلب إجراء مقابلة هاتفية. لوّح أنغلتون بيديه حين اعتذر المدير، وقال إنه سيتجول قليلاً إن لم يكن هناك مانع، ويتعرّف إلى المكان. توجه مباشرة إلى مكتب كيرنان، الواقع في نهاية الممر في الطابق الثالث، الموصد طبعاً، لكنه تمكن من الدخول، وفتّشه جيداً؛ لا شيء، على الإطلاق. خرج وعاد إلى مكتب المدير قبل أن يُنهي الأخير مقابلته.

كانت تلك هي النتيجة النهائية لزيارته: لا أدلّة جديدة، لا معلومات جديدة. فراغ كبير. تطابق ذلك مع ما قد توقعه تماماً، لكن وجَب عليه أن يتوثق فقط.

كان سيكشف أمرها في النهاية، كما فعل دائماً - لهذا يوظّفونه - لكن ذلك لن يكون سهلاً. بدا أن مولي كيرنان وساند فاير سيكونان من أكبر تحدّياته.

قالت آخر سيدتين بقيتا في المصعد حين فُتح البابان في الطابق الرابع والعشرين: "لقد وصلنا. تشرّفنا حقاً بمعرفتك".

رد أنغلتون، وهو يعيد ذهنه إلى الحاضر: "أنا من تشرّفت فعلاً. أتمنى لكما أيتها السيدتين عطلة جيدة. وتذكرا، هوّنا على نفسيكما في الرقص الشرقي".

قهقهتا وخرجتا إلى الردهة. أُغلق البابان وتابع المصعد طريقه بصمت إلى الطابق السابع والعشرين، حيث خرج أنغلتون. مشى على طول ممر مفروش بالسجاد، معلّقة على جدرانه لوحات مائية من القرن التاسع عشر - جِمَال وأهرامات ورجال يعتمرون عمامات، أشياء نموذجية للسيّاح - وتوقف أمام باب خشبي أبيض عليه لوحة نحاسية: الغرفة 2704. قرع عليه خمس مرات - ثلاث مرات بشكل خافت، ومرّتان بهدوء - أدخل بطاقة مفتاح بلاستيكية، ثم فتح الباب ودخل.

كان كل شيء في الداخل فوضى تكنولوجية: أسلاك، كابلات، مسجلات، مضخّمات، حواسيب، مودمات. كان أثاث الغرفة العادي قد دُفع إلى أحد الجوانب لاستيعاب كل ذلك. جلست السيدة معلوف إلى طاولة بجانب الجدار البعيد، تمسك بإحدى يديها سمّاعتي أذن إلى جانب رأسها في حين راحت تعدّل بالأخرى قرصاً مدرّجاً لمضخّم كبير. كانت امرأة ممتلئة الجسم في أواخر العقد الرابع من عمرها، ترتدي فستان سهرة أسود ضيّقاً وتضع مسحوقَ تجميل كثيفاً، ما يجعلها تبدو كسيدة ليل، لكنها برأي أنغلتون ستكون حقاً ليلة مظلمة جداً قبل أن يجدها أي شخص جذّابة. أومأت له بتجهم، ومدّت يدها عبر الطاولة، وسلّمته حزمة من نسخ تسجيلات اليوم. أخذها منها وذهب إلى الشرفة. رأى أهرامات الجيزة البعيدة؛ مثلثات غير واضحة ترتفع في الطرف البعيد للمدينة. لم ينظر إليها كثيراً، وبدلاً من ذلك، جلس على كرسي بجانب طبق استقبال بث فضائي ضخم، وبدأ يقلّب الأوراق. مكالمات متنوعة من برودي وإليه، معظمها شؤون جامعية، ورسالتان على المجيب الآلي في منزل كيرنان، بعض التسجيلات من الأجهزة الأخرى التي وضعها هناك، بريد إلكتروني... لا شيء ذو قيمة حقيقية.

صرخ: "هذا كل شيء؟".

ردت السيدة معلوف: "تلقّت كيرنان اتصالاً على هاتفها الخلوي. لم يتسنَّ لي وقت لنسخه بعد".

بدت منـــزعجة.

"شغّليه فحسب لي".

سمعا خشخشة مزعجة تبعتها تكتكة ضغط على أزرار. صوتٌ غير مفهوم - حاد، يهذر، مع إعادة الشريط إلى الخلف - ثم صوت أنثى متوتر تحبس أنفاســها، وجعجعة خافتة لأبواق سيارات تتردد في الخلفية:

"مولي، هذه فريا. فريا هانين. أتصل من هاتف عمومي. شيء ما... أحتــاج إلى مساعدتك. حاول أحدهم... أظن أنهم قتلوا ألكس...".

جلس أنغلتون ساكناً تماماً، بالكاد يتنفس، وضاقت عينـــاه إلى شــقّين مــع استمرار الرسالة. عندما انتهت الرسالة، أمر السيدة معلوف بتشغيلها مجدداً حــتى يستطيع سماعها مرةً أخرى.

"أنا خارج الجامعة الأمريكية. سأدخل إليها وأحاول العثور على فلين برودي. إذا لم يكن هناك فسأذهب إلى السفارة. أظن أنني في خطر، وأحتاج إلى...".

تكتكة خافتة حين انتهى التسجيل. بقي أنغلتون ساكناً لحظة، يزفر ببطء، ثم ابتسم وبحث في العلبة التي أحضرها من متجر الحلويات في الأسفل، أخرج قطعــة حلوى وقضم منها.

تمتم، وشريطان صغيران من القشدة ينـــزّان من طرفي فمه: "رائع. رائع جداً فعلاً".

القاهرة - الجامعة الأمريكية

كان مجمّع معبد إيونو العظيم (مكان الأعمدة)، أو وفقــاً لاســمه اليوناني هليوبوليس (مدينة الشمس)، ربما - لا، من دون شك - أهم موقع ديني وأكثرها تبجيلاً في مصر القديمة كلها. اليوم، لــم يبقَ إلا القليل من هذا الموقع الرائع، وقد طمس الغبــار معابــده وأضرحته السامية سابقاً، المدفونة عميقاً تحت ضــاحيتي عــين شمس والمطرية قرب القاهرة (باستثناء مســلّة سنوســرت الأول

المنفردة الوحيدة، التي تثير الأفكار وتبعث على الحزن). يصعب تصديق أنه طوال ثلاثة آلاف سنة كاملة، من الأيام الأولى لحقبة ما قبل السلالات إلى الأيام الأولى للعهد الإغريقي-الروماني، كانت هذه المنطقة القاحلة المركز الديني الأبرز لرع، وموطن التساعي، مكان عبادة الثور منفيس، الطائر بنو، والحجر الغامض والغريب بنبن...

"حباً بالله". أطلق فلين برودي تنهيدة ملل ورمى المقال على طاولة مكتبه. كان ذلك أول مقال في كومة كبيرة من المقالات التي يجب أن يصححها بحلول صباح اليوم التالي (اشرح وناقش أهمية إيونو/هليوبوليس للمصريين القدماء). كما هي الحال دائماً مع أعمال الطلاب، يستخدمون النثر المنمّق عتيق الطراز للتعويض عن حقيقة أن الإنكليزية ليست لغتهم الأولى. ثلاثة وثلاثون مقالاً، يتكوّن كل منها من أربع صفحات على الأقل. بدا أنه سيمضي ليلة طويلة.

فرك عينيه ووقف. ذهب إلى النافذة، حدّق إلى الأسفل إلى حدائق الجامعة حيث تسترخي مجموعة من الطلاب على كراسي أغصان الصفصاف، يدخنون ويتحدّثون. كان بمقدوره تناول شراب - عدّة كؤوس - لكنه قاوم الرغبة. كانت الأيام التي اعتاد فيها الاحتفاظ بقارورة شراب مخبأة في الدرج العلوي لخزانة ملفاته قد ولّت منذ أمد بعيد، باستثناء هفوته تلك الليلة، وينوي إبقاء الأمر على تلك الحال.

في الأسفل، ظهر ألان بيتش في مرمى البصر، وتثاءب الطلاب على كراسي أغصان الصفصاف حين تجاوزهم، ما أزعج فلين، بالرغم من أنه هو نفسه كان يمزح دائماً بأن بيتش ممل جداً. شاهد زميله يختفي حول زاوية، ثم عاد إلى طاولته. جلس، ثمّ وضع يديه خلف رأسه، وحدّق إلى السقف.

شعر بالقلق، ولم يكن ذلك بسبب احتمال اضطراره إلى تصحيح ثلاثة وثلاثين مقالاً مملاً. لم يكن قلقاً جداً؛ نوع القلق المخيف الذي يجعله يرتعش ويصيبه بين الفينة والأخرى، حين تضطرب أحشاؤه ويبدو أن عالمه كله ينغلق على نفسه، ويسحقه تحت ثقل لا يحتمل من ماضيه. لا، كان ذلك نوعاً أقل وطأة من قلق، يشبه الانزعاج في الخلفية، الإحساس أن شيئاً ليس على ما يرام، بالرغم من أنه لم يكن هناك شيء عادي مئة بالمئة مع قضية ساند فاير.

كان يشعر بالقلق منذ تلك الليلة، حين جاء الأمريكي البدين إليه في مشرب ويندسور، وأدلى بتلك الملحوظات المحددة عن الجلف الكبير. أدخل يده في جيب جينزه، وأخرج البطاقة التي منحه الرجل إياها: سايروس جيرمايا أنغلتون. موظف علاقات عامة، سفارة الولايات المتحدة، القاهرة.

لو أنها كانت تلك المرة فقط لأزاحها على الأرجح عن باله، لكنه كان قد شاهد أنغلتون عدة مرات منذ ذلك الوقت. مرة، أول أمس، يتجول في أرجاء الجامعة الأمريكية، ومجدداً مساء أمس، على مدرّجات نادي الجزيرة الرياضي حيث يذهب ثلاث مرات أو أربعاً أسبوعياً ليتمرّن على مضمار الجري. يمكن تبرير أول هاتين المناسبتين ببساطة؛ لم يكن هناك شيء غير اعتيادي بشأن قيام مسؤول أمريكي بزيارة جامعة أمريكية. بدا ظهوره في الجزيرة أكثر إزعاجاً، وأقرَّ أنه لمح الرجل وقتاً قصيراً فقط، في أعلى المدرّجات، وقد اختفى حين بدأ فلين يهرول نحوه، لكنه كان واثقاً أنه أنغلتون: السترة عاجية اللون نفسها، والبنية البدينة ذاتها. لم يكن هناك سبب يدفعه للذهاب إلى هناك، على الإطلاق - وفقاً لما يعرفه فلين، كان أحدَ غربيين قلائل يذهبون إلى النادي - وبدت حقيقة أنه كان موجوداً هناك على الأقل... مقلقة.

شيء آخر، بدا غير منطقي البتة، لكنه عندما عاد إلى شقته أصيل الأمس، بعد الرجوع من جنازة ألكس، انتابه شعور غريب أن شخصاً دخلها. لم يكن هناك شيء مفقود أو في غير مكانه، ولا علامات واضحة على اقتحامها عنوة، ولا فوضى من أي نوع تدعم شكوكه. لكن حاسة سادسة جعلته يشعر بأنّ شخصاً ما فتّش المكان، وأن ذلك الشخص هو أنغلتون. كان قد نزل السلالم، وواجه طيب الناطور بذلك، ولكنّه أنكر معرفته بأيّ شيء، بالرغم من نظرة الذنب الماكرة التي ظهرت على ملامحه. لكن هذا النوع من النظرة المشوبة بالذنب غالباً ما تظهر على وجه طيب، لهذا لم يكن ذلك بحد ذاته دليلاً على أي شيء.

بدا ذلك كله وهماً وهمسات وظلالاً. كان القلق يرافقه دائماً، وفي الواقع، تبين في تسع حالات من أصل عشر أن هذا النوع من القلق له ما يبرره في الحقيقة. ربما كان يتخيل أشياء، وربما لا، وبغض النظر عن ذلك أبقى عينيه مفتوحتين، وتوخى الحرص أكثر من المعتاد. ربما يجب أن يذكر ذلك لمولي، ويعرف رأيها فيه.

جلس وقتاً أطول، ثم هزَّ رأسه جيداً كأنه يبعد الشكوك عن ذهنه، ومال إلى الأمام، أمسك المقال وبدأ يقرأ مجدداً. لم يكن قد انتهى إلا من بضع فقرات قبل أن يقاطعه قرع على الباب.

صرخ من دون أن ينظر: "هل يمكنك العودة لاحقاً".

بدا واضحاً أن الشخص لم يسمعه؛ لأنه قرع الباب مجدداً.

كرّر بصوت أعلى هذه المرة: "هل يمكنك من فضلك العودة لاحقاً. أنا أصحح المقالات".

كان الصوت متردداً، وغير واثق حين قالت: "فلين؟ أنا فريا هانين".

"يا للهول!". رمى المقال على الطاولة، اجتاز الغرفة بخطوات واسعة وفتح الباب.

"فريا! يا لها من مفاجئة رائعة! لم أظن أنك ستأتين إلى القاهرة حتى...".

تلاشى صوته حين رأى جينزها ونعلها الملطخين بالطين، والخدوش على ذراعيها وعنقها.

"هل أنت بخير يا فريا؟".

لم تتكلم، إنما وقفت هناك عند المدخل.

بدا قلقاً آنذاك: "فريا؟ ماذا حدث".

لم تقل شيئاً بالرغم من ذلك. كان قد بدأ يسألها للمرة الثالثة حين انفجرت بالبكاء.

قالت: "أحدهم قتل ألكس، وحاولوا قتلي أيضاً. الليلة الماضية، في الواحة، مجموعة منهم، كان معهم توأم، جاؤوا في مروحية وكانوا يعذّبون...".

توقفت، تكفكف دموعها، وتكافح للسيطرة على نفسها. تردّد فلين لحظة، غير واثق كيف يتصرّف، ثم تقدم إلى الأمام، لف ذراعاً حولها وسحبها إلى داخل الغرفة. دفع الباب بقدمه فأغلقه، واصطحبها إلى كرسي جلست عليه.

قال برفق: "لا بأس، اهدأي، أنت بأمان".

مسحت دموعها، وهزّت كتفيها كي تبعد ذراعه عنها، ربما بعدائية كبيرة، لكنها بدت خجولة من ضعفها، وتحتاج إلى أن تتمالك نفسها. حدّق فلين إليها من الأسفل، في حين أبقت فريا نظرها ثابتاً على الأرضية، تكافح لتستعيد رباطة

جأشها. اعتذر فلين منها وغادر الغرفة، ثم عاد بعد بضع دقائق يحمل قطعة قماش وكوباً يتصاعد البخار منه.

قال: "شاي، الحل الإنكليزي لكل شيء".

بدا أنها قد هدأت قليلاً، وابتسمت ابتسامة باهتة، وتناولت قطعة القماش. ومسحت ذراعيها العاريتين بها.

قالت: "شكراً. آسفة، لم أعنِ...".

رفع يده ليشير إلى أن الاعتذار غير ضروري. وضع الكوب عند حافة الطاولة، وسحب كرسيه حتى يجلس أمامها. منحها بضع دقائق قبل أن يسأل مجدداً عمّا حدث.

قالت بصوت أكثر ثباتاً هذه المرة: "حاول شخص قتلي. الليلة الماضية، في الواحة. قتلوا ألكس أيضاً. لم يكن انتحاراً".

فتح فمه قليلاً ليتكلم، ثم عدَل عن ذلك، وتركها تسرد القصة بطريقتها الخاصة، في الوقت الذي تحتاج إليه. وضعت فريا قطعة القماش جانباً، أمسكت الكوب وارتشفت منه محاولةً استجماع شتات نفسها. بدأت بالكلام، وأخبرته كل ما حدث في اليوم السابق، بدءاً من كشف مولي كيرنان موضوعَ حقنة المورفين وكل ما جرى لاحقاً: الدكتور رشيد، مخفر الشرطة، الحقيبة القماشية الغامضة، التوأم، المطاردة في الواحة... كل شيء. جلس فلين يصغي، منحنياً إلى الأمام، محافظاً على هدوئه ظاهرياً بالرغم من أن شيئاً في نظرته الثاقبة، والطريقة التي ترتعش بها يداه قليلاً، أشارا إلى أن حكايتها تؤثر فيه أكثر مما يبدو. سحبت حقيبتها إلى ركبتها وفتحتها، وأخرجت الأشياء الواحد تلو الآخر: كاميرا، علبة فيلم، بوصلة. أمسك فلين بالمقابل كل واحدة منها، وأخذ يتفحّصها.

كرّرت فريا: "قتلوا ألكس، ولهذا علاقة بالرجل في الصحراء والأشياء في حقيبته. رودي شميدت، ذلك كان الاسم الموجود في البطاقة التي كانت داخل المحفظة. هل يعني هذا أي شيء لك؟".

هزَّ فلين رأسه وهو لا يزال يحدّق إلى الكاميرا، ولا ينظر في عينيها.

"لم أسمع به من قبل".

"لماذا ستهتم ألكس بأشيائه؟ لماذا سيقتلها شخص من أجلها؟".

"لا نعرف حق اليقين أن شخصاً قتلها يا فريا. يجب ألاّ نقفز...".

أصرّت: "أعرف. رأيتهم. رأيت ما يفعلونه بالمزارع العجوز. قتلوا شقيقتي، حفنوها. وأريد أن أعرف السبب".

نظر إلى عينيها مباشرة. بدا أنه على وشك أن يقول شيئاً، لكنه عدّل مجدداً عن ذلك وأومأ متردداً.

"لا بأس، أصدّقك. أحدهم قتل ألكس".

بقيا ينظران إلى عيني بعضهما لفترة، ثم تابع تفحّص الأغراض. وضع الكاميرا وعبة الفيلم على الطاولة وفتح غطاء البوصلة، ونظر إلى العدسات، ثمّ شدّ سلكها النحاسي المقطوع.

قال: "أخبريني عن الأشياء الأخرى التي كانت في الحقيبة مجدداً. الخريطة، والمسلة الفخارية".

وصفت الرموز الغامضة على المسلة، والمسافات، وقراءات البوصلة على الخريطة. بقي فلين يعبث بالبوصلة طوال الوقت، وهو يبدو غير مهتم بالإصغاء إلى ما تقوله بالرغم من أن ارتعاش يده الذي يكاد لا يُرى ولمعان عينيه أفشيا درجة من الاهتمام - والإثارة أيضاً - أكبر مما تسمح به رباطة جأشه.

قالت فريا محدّقة إلى الإنكليزي، ومحاولةً سبر أغواره، واكتشاف إن كان يأخذها على محمل الجد أم لا: "أظن أن رودي شميدت هذا كان يحاول السير من الخف الكبير إلى الداخلة. أعرف أن ألكس كانت تعمل في الجلف الكبير، وقد أخبرتني عن ذلك في رسائلها. هناك علاقة ما بين الاثنين. لا أعرف ما هي، لكن هناك صلة بالتأكيد؛ ولهذا قُتلت".

أمسكت الكاميرا وعلبة الفيلم، ورفعتهما عن الطاولة.

"وأظن أن الأجوبة هنا. لهذا السبب أراد الرجال في الواحة الكاميرا والفيلم؛ لأنهما سيظهران لنا ما يجري. يجب أن نحمض صور الفيلمين".

أطبق الصمت مجدداً، وتابع فلين تقليب البوصلة في يده، ثم؛ كأنه توصل إلى قرار، ألقاها في حقيبة فريا ووقف.

قال: "ما نحتاج إليه هو إيصالك إلى مكان آمن. سأصطحبك إلى السفارة الأمريكية".

"بعد أن نحمّض صور الفيلمين".

"الآن. لا أعرف ما يجري، ومن هم هؤلاء الأشخاص، لكن واضح أنهم خطرون، وكلما أسرعنا في إبعادك عن الشوارع، أصبح الوضع أفضل. تعالي، لنذهب".

مدَّ يده ليساعدها على الوقوف، لكنها بقيت حيث هي.

"أريد أن أعرف ماذا يوجد في الفيلمين. قتلوا شقيقتي وأريد أن أعرف السبب".

"فريا، كانت هذه المقتنيات مرمية في وسط الصحراء الكبرى، على الأرجح طوال سنوات. إن فرصة تحميض الصور هي واحد بالمئة؛ واحد بالألف".

قالت: "لا أزال أريد المحاولة. نفعل ذلك أولاً، ثم نذهب إلى السفارة".

"لا". كانت نبرته حادة كفاية، ومفاجئة. "يمكن للفيلمين أن ينتظرا يا فريا. أريد وضعك في مكان آمن. لا تعرفين...".

توقف.

قالت: "ماذا؟ ما الذي لا أعرفه؟".

بالرغم من أن عينيها كانتا حمراوين من الإرهاق ووجهها شاحباً ومتعباً، إلا أنها كانت يقظة وتمتلئ طاقة، ونظرتها ثاقبة على فلين.

كرّرت: "ما الذي لا أعرفه؟".

أطلق تنهيدة سخط وقال: "اسمعي، كانت ألكس صديقة عزيزة جداً...".

"كانت شقيقتي".

"... وأدين لها أن أتوثق ألاّ يحدث شيء لك".

"وأدين لها أن أكتشف من قتلها".

كان صوتاهما قد بدأا يرتفعان.

قال بحدّة: "لن أجعلك تتجولين في أرجاء القاهرة. ليس بعد أن حدث شيء مماثل. سآخذك إلى السفارة".

"بعد تحميض صور الفيلمين".

"الآن، تحتاجين إلى حماية".

"لا تعاملني بغطرسة".

"لا أعاملك بغطرسة! أنا أحاول مساعدتك".

حان دورها لتقول بحدّة: "لا أحتاج إلى مساعدة أو حماية. أريد أن أعرف ما يوجد في الفيلمين، ولماذا حاول أحدهم قتلي. لماذا قتلوا ألكس؟".

"لا نعرف...".

"نعم لا نعرف! رأيت هؤلاء الرجال في منـــزلها، وما يستطيعون فعله. قتلوا ألكس وسأكتشف السبب".

نهضت بقوة جعلت الكرسي يقع على الأرض. دفعت الكاميرا وعلبة الفـــيلم إلى حقيبتها، ثمّ فتحت الباب واجتازت الممر إلى المصاعد. في حين خـــرج فلـــين خلفها.

"مهلاً، انتظري".

تجاهلته وضغطت بإبهامها على زر المصعد وأبقتها هناك.

توسّل إليها قائلاً: "فريا، ثقي بـــي في هذا الأمر. أعيش في مصر، وأعـــرف هذا النوع من الأشخاص. أياً يكن الذي تدينين به لألكـــس، يجـــب ألاّ تلقـــي حتفك".

خشخش بابا المصعد حين فُتحا ودخلته، وضغطت زر الطابق الأرضي، وهي لا تزال تتجاهله.

"فريا، أرجوك، أصغي إلي، أحاول فقط...".

بدأ البابان يُغلقان، لكن فلين منعهما بقدمه.

"يا للهول! أنت عنيدة مثل شقيقتك!".

ردّت بغضب وهي تضغط على الأزرار، وتحاول إغلاق البابين: "صـــدّقني، كانت ألكس الأسهل بيننا". أطبق الصمت وقتاً قصيراً، وفريا تتابع الضغط علـــى لوحة التحكم، وفلين يمنع البابين من الإغلاق، قبل أن يطلق فجأة ضحكة خافتـــة. حدّقت إليه، ثم ابتسمت هي الأخرى. تراجع خطوة إلى الخلف، وتبعته إلى خارج المصعد وقد قعقع البابان حين أُغلقا.

قال: "حل وسط. تسايرينني وتذهبين إلى السفارة، وسأحمّض صور الفيلمين. عندي صديق يعمل في متحف الآثار في القاهرة، في قسم التصوير، وسيعمل عليهما فوراً. عندما يصبحان جاهزين سأجلبهما إليك. اتفقنا؟".

أمعنت التفكير لحظة، ثم أومأت. "اتفقنا".

قال: "حسناً، أوقفي المصعد، أريد فقط إبعاد بعض الأوراق وجلب محفظتي وجوّالي".

اختفى في مكتبه وأُغلق الباب خلفه. كان شخص آخر قد سحب آنذاك المصعد، الذي يُحدث جلبة في طريقه إلى الطابق الأرضي مجدداً. ضغطت فريا الزر مجدّداً وتجولت في أرجاء الممر، تنظر أولاً إلى لوحة إعلانات - نشرات إعلانية باهتمامات مختلفة، بيع كتب مستعملة، ندوة عن نجيب محفوظ - ثم إلى خارج النافذة. تردد صدى وقع خطوات خافت على السلالم بجانب المصعد، بالكاد كان مسموعاً خلف باب بيت الدرج.

كان مكتب برودي في الطابق الرابع والأخير من المبنى، في قسم اللغة الإنكليزية لسبب ما، والنافذة تطل على حدائق الحرم الجامعي - مروج، أشجار نخيل، أسيجة عشبية - وما وراءها، وصولاً إلى الدوامة الفوضوية لميدان التحرير. رأت مجموعة من الطلاب تمشي الهوينا، يتبعهم رجلان ضخمان. بدا شيء ما فيهما - الوجهان قاسيا الملامح، المشي المتثاقل، العضلات المفتولة - غريباً في أرض الجامعة. شعرت بوخزة قلق مفاجئة.

صرخت: "فلين".

قال: "قادم".

كان المصعد يرتفع مجدداً آنذاك، يتحرك إلى الأعلى عبر المبنى مطلقاً قرقعة حادة. ذهبت إليه وضغطت زر الاستدعاء مجدداً وعادت إلى النافذة، تتساءل عمّا يؤخر فلين. كان الرجلان لا يزالان في الأسفل في الحدائق، يقفان فيها، أحدهما يدخّن، والآخر يتكلم عبر هاتفه الخلوي. كان وقع الأقدام من بيت الدرج يزداد قوة. طقطقة أحذية منتظمة تتردد أصداؤها على المشمّع؛ وعرفت أنهم شخصان أو ثلاثة من الصوت. مشت في الممر مجدداً وفتحت باب بيت الدرج ونظرت إلى الأسفل. استطاعت رؤية درابزين، وسلالم تضيق نزولاً وأرضيتين تحتها، ويد رجل على الحاجز الحديدي؛ يد كبيرة بدينة يخفيها تقريباً عدد من الخواتم الذهبية المنقوشة الضخمة. مثل... انكمشت إلى الخلف، أغلقت الباب بهدوء، ثم جرت إلى مكتب فلين واندفعت إلى الداخل.

"إنهم هنا!".

كان يحمل سمّاعة الهاتف في يده، وبدا فزعاً من دخولها.

"فريا! كنت أحاول...".

كرّرت، مقاطعةً إياه: "إنهم هنا. الرجال من الواحة. أولئك الـذين حـاولوا قتلي. إنهم يصعدون على السلالم، وفي المصعد أيضاً، كما أظن".

كانت تتوقع منه أن يتردد، ويسألها إن كانت واثقة مما قد رأته، لكنه تصرف على الفور.

صرخ: "سأتصل بك مجدداً". أعاد السمّاعة إلى مكانها بعنف، أمسـك ذراع فريا وسحبها مجدداً إلى الممر. عندما فعلا ذلك، سمعا طقطقة وبدأ بابـا المصـعد يُفتحان. مجدداً، كان رد فعله فورياً، دفعها خلفه لحمايتها وتقدم إلى الأمام. عندما فُتح البابان تماماً، خرج رجل يرتدي بذلة، ويحمل سلاحاً في يده. لكمه فلين بقوة بدت مدهشة، وانطلقت قبضته مثل سهم فولاذي وحطّمت أنف الرجـل الـذي تراجع إلى الخلف، والدم يسيل على فمه وذقنه، واصطدم بجدار المصعد الخلفـي. قبل أن يتسنّى له الوقت حتى لإدراك ما يحدث، كان فلين قد تقـدم إلى الأمـام وضربه ثلاث مرات أخرى بتعاقب سريع، إحداها على بطنه، ما جعله يتكوّر على نفسه، والثانية على خاصرته، فانهار جانبياً في زاوية المصعد، والثالثة على فكه ألقته ممدداً على الأرضية، حيث استلقى مصاباً بدوار وهو يتأوه.

تمتمت فريا، ذاهلة: "آه! يا الله!".

قال فلين يفسّر لها: "لم أحظَ بانطباع أنه قد جاء لتناول الشاي والحـديث". أمسك ذراعها مجدداً وقادها على طول الممر وخرجا من باب الحريق. عندما أُغلق خلفهما، فُتح باب بيت الدرج على مصراعيه.

كانا على أعلى درجة سلالم معدنية تقودهما نـزولاً إلى سطح مبنى آخر أقل انخفاضاً تحتهما. نـزلا درجتين كل مرة، وقفزا على السطح المرصوف حجـارة وركضا على طول ممشى ضيق أمام صفٍّ من وحدات التكييف الضخمة.

لهثت: "أين بحق الله تعلّمت فعل ذلك؟".

رد وهو ينظر من فوق كتفه ليتوثق أنّ لا أحد يلحق بهما: "كامبردج. دبـل بوكسنغ *بلو*. الشيء الوحيد الذي جعلني أُنهي ثلاث سنوات من كهنوت المملكـة الوسطى".

وصلا إلى مجموعة أخرى من السلالم، صعدا عليها إلى مساحة أكـبر علـى السطح تظهر قبة بيضاء صغيرة في وسطها ومجموعات من نبات الصبّار في أصـص فخارية عند زواياها. عندما بدأا باجتيازها فُتح البـاب الأول علـى مصـراعيه خلفهما. سمعا صرخات ووقع خطوات، فانطلقا يجريان، ونظر بعض الطـلاب إلى الأعلى مندهشين حين تجاوزا المقعد الخشبـي الذي يجلسون عليه.

صرخ فلين، وهو يستدير ويهزُّ إصبعه نحو فتاة ممتلئة الجسم تضع وشاحَ رأس حريريًّا: "لقد تأثرت بتقديم المقال يا عائشة فارسي. علـى طـاولتي في الصـباح الباكر".

قالت الفتاة محاولةً إخفاء لفافة التبغ في يدها: "حاضر يا أستاذ برودي".

"وممنوع التدخين!".

تجاوزا مصلّى، وشاهدا صفوفاً من الرجال يسجدون وجباههم تمـس الأرض المغطاة بالسجاد، ومرّا عبر مدخل آخر وعادا إلى المبنى. سحب فلين الباب بعنـف خلفهما ودفع رتاجين في الأعلى والأسفل ليحكم إغلاقه.

صرخ: "بسرعة!".

قاد فريا على طول ممر مُعتِم، وتجاوزا مجموعة من القاعات الصفّية والمكاتب. بدا أن المبنى كله يهتز حين بدأت الأقدام والقبضات تضرب الباب الذي أغلقـاه. شاهدا في منتصف الممر تقريباً سلالم إلى يمينهما، تحيط بها مـبرّدتي مـاء. بـدأا ينـزلان، ليتراجعا مجدداً حين ظهر شخصان في الأسفل؛ الرجلان اللذان شاهدتهما فريا يتسكعان في الحدائق في الخارج.

تمتم فلين: "تباً!". أصبحت الضربات أقوى وأكثر شراسة. "تباً، تباً، تباً!".

نظر حوله على عجل، وأمسك إحدى مبرّدتي الماء وجرّها علـى الأرضـية ورماها إلى أسفل السلالم على الرجلين اللذين كانا يندفعان بسرعة إلى الأعلـى. توقفت صرخاتهما فجأة حين ارتطمت المبرّدة بهما، وسمعا صوت تحطّمها وخروج الماء منها. كان الباب لا يزال صامداً كما يبدو.

صاح فلين وهو يمسك بيد فريا: "تعالي!".

انطلقا مسرعين على طول الممر، وخرجا من منفذ حريق آخـر ثم نـزلا يصدران قرقعة على سلالم خارجية إلى ساحة في الأسفل.

صرخ صاحب وجهٍ مألوف: "تأخرت على المحاضرات مجدداً يا فلين؟ عزيزي، حتى المصريون القدماء كانوا أفضل في تنظيم الوقت منك!".

تمتم فلين: "ظريف جداً يا ألان"، وأسرع مع فريا في تجاوز زميله واتجها إلى مطعم الحرم الجامعي. ركضا في المطعم، والزبائن يحدّقون منذهلين حين كانا يركضان بين صفوف الطاولات والكراسي المعدنية وخرجا من مدخل آخر في الجهة البعيدة، عائدَين إلى أرض الجامعة. خففا سرعتهما ثم توقفا، يلهثان طالبَين الهواء. وفور وصولهما، سمعا صرخات إلى يسارهما حين جاء ثلاثة أشخاص يجرون حول زاوية المبنى، ومزيداً من الصرخات خلفهما حين اندفع التوأم عبر المطعم، يصطدمان بالأثاث، ما جعل الأطباق والأكواب تسقط أرضاً، والزبائن يصيحون احتجاجاً.

صرخ فلين وهو يدفع فريا إلى ممرٍّ تغطيه تعريشة بين ملعبي كرة المضرب والكرة الطائرة: "يا للهول! إنهم في كل مكان!". فرّا يميناً، ثم يساراً على طول ممرٍّ عريض تحيط به لوحات إعلانية، وخرجا من بوابة حديدية مرتفعة. أصبحا في الشارع بالقرب من الجامعة، والشاحنات وسيارات الأجرة تنطلق مسرعة أمامهما.

كان على مطارديهما أن ينعطفوا إلى الممر، وفي لحظة، فكّرت فريا أن تقدورهما التواري عن الأنظار بين الحشود التي يزدحم بها الرصيف، ثم رأت بعيداً إلى يمينها سيارة بي أم دبليو سوداء لمّاعة متوقفة عند طرف الطريق. كان هناك رجلان يستندان إليها، وكلاهما يبدوان مخيفين وقاسيَي الملامح مثل أولئك الذين يطاردونهما. شاهدت سيارة مماثلة تجثم في الاتجاه المعاكس تماماً، خارج مكدونالدز، ورجلين آخرين يقفان بجانبها، وثلاثة رجال آخرين على بعد مئة متر إلى يسارهما، ينتظرون عند إشارة مرور في نهاية الطريق. سمعا صوت وقع خطوات تجري، وظهر مطاردوهما خلفهما، يسدون الممر، وخففوا من سرعتهم وبدأوا يمشون على مهل حين أدركوا أن فريستيهما محاصرتان. لف فلين ذراعاً حول فريا ليحميها، وقرّبها إليه.

قال: "أشرار".

الداخلة

عند بداية واحة الداخلة، وعلى كلا جانبي الطريق الصحراوي الرئيس، ينتصب عملاق فنيان معدنيان على شكل شجرتي نخيل. وإضافة إلى صفٍّ من أعمدة التلغراف وبعض الإشارات الطرقية، كانا الشيئين الوحيدين اللذين يُعدّان من صنع الإنسان في بيئة خاوية.

كان ذلك هو المكان الذي انتظر فيه زاهر شقيقه سيد، فأوقف اللاند كروزر في ظل إحدى شجرتي النخيل المعدنيتين، والحقول القفرة هي الشيء الوحيد الذي يفصل بينه وبين الكثبان الرملية خلفها. انقضت عشر دقائق، ثم من بعيد، ظهرت دراجة نارية يتغير شكلها ويتلوّى بفعل الحرارة. كان الطريق الذي تسلكه قد تحوّل إلى سراب لامع، وبدا للناظر وكأن السائق يسير على ماء. اقتربت شيئاً فشيئاً قبل أن تظهر بوضوح وهي تجتاز الأمتار الأخيرة، وتخفف سرعتها حتى توقفت بجانب اللاند كروزر.

سأل زاهر، وقد مال إلى خارج النافذة: "هل لديك أي معلومات؟".

رد سيد وهو يوقف عمل المحرك وينفض الغبار عن شعره: "*ما فيش حاجة*. لا شيء، لقد سلكت كل الطريق إلى الخارجة ولا أحد يعرف شيئاً. هل ذهبت إلى *الشرطي*؟ الشرطة؟".

أطلق زاهر زفير استهجان ثمّ قال: "مغفلون. قالوا إنها قد هربت بالتأكيد مع محمود غروب. ضحكوا في وجهي. يظنون أننا حمقى؛ لأننا بدو".

تأفف شقيقه وقال: "هل تريد مني متابعة البحث؟ أيمكن أن أذهب إلى الفرافرة والتحدث إلى الناس هناك؟".

أمعن زاهر التفكير في الأمر لحظة ثم أومأ وقال: "سأستمر بطرح الأسئلة في الداخلة. لا بدّ من أن أحداً ما يعرف شيئاً".

ضغط شقيقه بقدمه لتشغيل الدرّاجة من نوع جاوا 350 متهالكة، ثم أومأ وانطلق بعيداً نحو الشمال.

راقبه زاهر وهو يختفي عن ناظريه، ثم شغّل محرك اللاند كروزر. لم يعشّق علبة التروس فوراً، إنما جلس هناك يضغط على الدبرياج والمحرك يعمل، محدّقاً إلى

الصحراء. تحسس داخل جيب جلابيته، وأخرج بوصلة معدنية خضـــراء اللـــون. وضع رسغيه على المقود وفتحها وحدّق إلى الحرفين الموجودين في الجهة الداخليـــة لغطاء. إي إيتش. عبث بالعدسات المكبّرة والقطعة الدوّارة، ثم مرر إصبعاً علـــى سنّ التحديد النحاسي المشدود وراح يهمهم لنفسه. هزَّ رأسه بعد ذلك، وأعـــاد البوصلة إلى جيبه، ثم عشّق علبة التروس على السرعة الأولى وانطلـــق، فـــدارت عجلات اللاند كروزر وصرّت على الحصى مثيرةً الغبار خلفها.

القاهرة

سألت فريا، وهي تنظر يائسة حولها: "ماذا نفعل؟".

قال فلين وهو يشدُّ قبضتيه، ورأسه يتحرك في هذا الاتجاه وذاك مقيّماً الموقـــف: "لست واثقاً حقاً". كان هناك رجلان يستندان إلى سيارة البـــي أم دبليو في الشـــارع عن يمينهما، واثنان مقابلهما مباشرة بجانب البـــي أم دبليو الثانية، وثلاثة آخرون عنـــد إشارة المرور، وخمسة آخرون يقتربون من خلفهما يقودهم التوأم الذي يرتـــدي كـــل منهما بذلة من تصميم أرماني وقميص كرة القدم الأحمر والأبيض.

وصل مطاردوهما إلى بوابة الجامعة وخرجوا منها، ثم توقفوا على بعد مترين، يفصلهم عن فلين وفريا تيار متدافع من المشاة. أزاحوا ستراتهم جانباً، كاشفين عن مسدسات غلوك. أشار أحد التوأمين إلى فريا وقال شيئاً بالعربية.

سألت: "ماذا يقول؟".

ردَّ فلين: "يطلب منك أن ترفعي حقيبتك عن كتفك وترميها إليه".

"هل أفعل هذا؟".

"يبدو أن لا خيار أمامنا".

كرّر أحد التوأمين طلبه، بصوت أعلى هذه المرة، مهدداً.

قال فلين: "ارفعيها ببطء".

عندما بدأت فريا ترفع الحقيبة، توقفت سيارة أجرة - فيـــات 124 ســـوداء وبيضاء متهالكة - عند طرف الرصيف بجانبهما. رفعت الحقيبة عن كتفها ممسكةً إياها بكلتا يديها، متردّدةً في رميها.

صرخ أحد التوأمين وهو يلوّح لها أن ترمي الحقيبة إليه: "*يلا نمشي! بسرعة! بسرعة!*" .

كان السائق قد ترجّل آنذاك من سيارة الأجرة الفيات، تاركاً الباب مفتوحاً والمحرك يعمل ليساعد امرأة عجوزاً على الخروج من المقعد الخلفي إلى الرصيف. تحول بصر فلين إلى ذلك الاتجاه، وكذلك فريا.

صرخ وأحد التوأمين بصبر نافذ: "*بسرعة!*" . كان وشقيقه يرفعان سترتيهما، ويمسكان مسدسيهما.

قال فلين، وقد استدار إلى فريا مادًّا يده إلى الحقيبة: "الأفضل أن نعطيهما إياها"، وطرفت عيناه مجدداً نحو سيارة الأجرة حين تحرك السائق إلى الصندوق الخلفي، ثم فتحه وبدأ يرفع حقيبة ضخمة.

"هيا يا فريا، هذه ليست لعبة!". كان صوت فلين عالياً ومبالغاً فيه على نحو غير ضروري. "أعطيهما الحقيبة".

حاول أن يشد الحقيبة من قبضتها. أحسّت فريا بما كان يفعله وتشبّثت بها، ما منحهما بضع ثوانٍ إضافية، في حين وضع السائق الحقيبة على الإسفلت وأغلق الصندوق بعنف. عندما فعل ذلك، جذب فلين الحقيبة، وقرّب وجهه من وجه فريا.

تمتم: "المقعد الخلفي. أنا سأقود".

شدّها مجدداً، يهزُّ الحقيبة متظاهراً بالاحتجاج قبل أن يترك الحقيبة فجأة ويندفع يميناً، جاعلاً رجلاً يحمل صينية عيش *بلدي* كبيرة على رأسه يقع إلى الخلف باتجاه التوأم. سمعا صرخات، وشاهدا ذراعين تتأرجحان وقعقعة عالية حين ارتطمت الصينية بالرصيف. في لحظة الارتباك القصيرة تلك، اندفعت فريا بتهور إلى المقعد الخلفي من سيارة الأجرة، ورمى فلين نفسه على مقعد السائق، ولم يزعج نفسه حتى بإغلاق الباب، إنما ألقى الحقيبة من فوق كتفه إلى فريا، وعشّق علبة التروس وضغط بقدمه على دواسة السرعة. حدّق مالك سيارة الأجرة منذهلاً حين زعقت وسيلة رزقه بعيداً أمام ناظريه.

صرخ فلين، وجسده الطويل محشور في المساحة المحدودة خلف المقود: "تشبثي جيداً!". انحرف بشدة حول حافلة، فضربت زاويتها الخلفية اليمنى بابي

سيارة الأجرة المفتوحين وأغلقتهما بعنف. عشّق علبة التروس على الوضعيتين الثانية والثالثة، وقاد في زحمة المرور وهو يزيد السرعة، وعدّاد سيارة الأجرة يتكتك بجنون على لوحة القيادة.

قوّمت فريا وضعية جلوسها ونظرت خلفها؛ كان التوأم عند طرف الرصيف يلوحان مسعورين لإحدى سيارتي البـي أم دبليو، في حين تحرّكت الأخرى عبر الشارع، والدخان يتصاعد من عجلاتها التي تصرُّ على الإسفلت.

صرخت: "إنهم قادمون!".

كانت سيارة الأجرة قد وصلت آنذاك إلى إشارة المرور تقريباً عند نهاية الشارع، والفوضى العارمة لميدان التحرير تظهر للعيان أمامهما. كانت الإشارة حمراء، والسيارات متوقفة عند الخط المحدد، وشرطي ببذلة بيضاء يقف في وسط الطريق يرفع إحدى ذراعيه. انعطف فلين يساراً إلى مسلكٍ خالٍ وجعل السيارة تصعد على الحاجز الحجري، مخيفاً الرجال الثلاثة الواقفين هناك ومبعداً إياهم متجاوزاً الإشارة. كانت هناك أصوات متنافرة من أبواق وسلسلة نفخات حادّة من صفارة الشرطي حين استدارا حول المنعطف وانضما إلى حركة المرور من جانب الساحة. انزلقت السيارة، ثم عدّلت سيرها، ثم انزلقت مجدداً، واصطدمت بجانب شاحنة صغيرة ارتطمت بدورها بحافلة صغيرة، أخرجتها من الطريق وجعلتها تدخل كشكاً للفاكهة. قفز المشاة على الطريق وهم يصرخون ويومئون، وسقط البرتقال والبطيخ على الأرض مثل كرات زجاجية عملاقة.

صرخ فلين: "هل تأذى أحد؟".

ردّت فريا وهي تحدّق إلى الفوضى، ومعدتها تنقبض: "لا أظن ذلك".

أومأ وزاد السرعة، وقدماه تؤديان رقصة سريعة جنونية على دوّاسات المكابح والدبرياج والسرعة، ويده اليمنى تنتقل ذهاباً وإياباً بين المقود وعصا علبة التروس. خلفهما كانت إحدى سيارتي البـي أم دبليو تنهب الأرض حول الزاوية، وتبعتها الثانية بعد لحظة، وتعرّج مسلك السيارتين عبر حركة المرور في مطاردة شرسة، وابتعدت سيارات أخرى عن طريقهما، يطلق سائقوها الأبواق بغضب. اقتربت سيارتا البـي أم بليو، الأقوى من الفيات القديمة، بسرعة من فلين وفريا، وقلصتا المسافة إلى عشرين متراً. ضغط فلين المكابح وأدار المقود إلى اليمين، فانزلقت

السيارة خارج الميدان نحو شارع عريض تصطف على جانبيه ما كانت من دون شكٍّ مبانيَ استعمارية مزخرفة. ومضت لوحات أمامهما - بازار ممفيس، الخطوط الجوية التركية، الشركة الأمريكية الفرعونية للتأمين على الحياة - وصرَّ عدّاد السرعة إلى حدِّه الأقصى قبل أن يضغط فلين على المكابح مجدداً منعطفاً حول جزيرة مرورية كبيرة في وسطها تمثال لرجل يعتمر طربوشاً ودخلَ شارعاً آخر. اختفت سيارتا البي أم دبليو للحظة، ثم ظهرتا مجدداً خلفهما.

صرخ فلين وهو يلقي نظرة أخرى على المرآة: "إنها سريعة جداً. لن نسبقها أبداً".

قلّصت البي أم دبليو في المقدمة المسافة؛ كأنها تؤكد وجهة نظره، واندفعت إلى الأمام لتصطدم بالمصد الخلفي، فقذفت فريا صارخةً لترتطم بالجهة الخلفية من مقعد فلين.

صرخ: "أأنتِ بخير؟".

قالت، وهي تربت على كتفه محاولةً أن تبدو أقل ذهولاً مما هي عليه: "بخير".

تراجعت البي أم دبليو إلى الخلف، واندفعت بسرعة إلى الأمام، واصطدمت بهما مجدداً، ثم انتقلت إلى المسلك المعاكس الخالي وتحركت بجانبهما.

حذّرت فريا فلين حين صوّب الرجل الجالس على المقعد الأمامي للراكب مسدساً عبر النافذة المفتوحة: "لديه مسدس!". كان وجهه قريباً بما يكفي منها لتميّز أسنانه الصفراء تحت عينه اليمنى.

"تشبثي!".

ضغط فلين على المكابح، وتقدمت البي أم دبليو أمامهما حين انعطفت الفيات إلى شارع جانبي. انعطف ليتفادى مجموعة من التلميذات، واصطدم بعربة بائع جوز - طرطق وابل من الجوز والبذور على الزجاج الأمامي مثل بَرَد - قبل أن يعدّل مساره ويزيد السرعة. سمعا دوي صفّارات إنذار، لكن في تلك الفوضى، بدا مستحيلاً أن يعرفا من أي اتجاه تأتي.

صرخت فريا حين انعطفت البي أم دبليو الثانية حول الزاوية متقدّمة بسرعة نحوهما، والتوأم يخرجان من نافذتين ويطلقان النار. تباعد المشاة على طول الأرصفة، وهم يصرخون وينبطحون للنجاة بأنفسهم. حطّمت رصاصةٌ نافذة

سيارة الأجرة الخلفية، فأمطرت فريا بالزجاج. أزّت رصاصة أخرى بجانب كتف فلين وثقبت عدّاد السرعة في لوحة القيادة.

مازح فلين فريا بتجهم، وهو يكافح للسيطرة على السيارة التي اجتازت تقاطعاً أمام حافلة قادمة مباشرة، قائلاً: "أظن أنني سأقلّك هذه المرة مجاناً". تحرّكت فريا على المقعد الخلفي، والزجاج يُسحق تحتها؛ والسيارتان تسيران بالتوازي مع بعضهما، في حين ضغط سائق الحافلة على المكابح بقوة لتفادي الاصطدام بهما.

صرخت، معدّلة وضعيتها مجدداً، وشعرها يتطاير في الهواء: "على الأقل فقدنا السيارة الأخرى".

دمدم فلين: "لو..."، وانحرف حين عادت البي أم دبليو الأولى إلى مرمى البصر من الشارع الجانبي، عجلاتها تصرُّ حين زادت السرعة على الإسفلت، وانطلقت خلف سيارة التوأم. فجأةً، أصبح عويل صفّارات الإنذار أعلى حين انضمت سيارة دايو تابعة للشرطة، ثم اثنتان، ثم ثلاث سيارات إلى المطاردة.

أطلق فلين لعنة وقال في سرّه: *حبّاً بالله*، حين ظهرت دراجة شرطة نارية في الخلف قبل أن تنزلق فوراً، وتقع على جانبها وتصطدم بكومة من أقفاص الحمام الخشبية. لمحت فريا السائق ينهض بصعوبة على قدميه، والريش يتطاير حوله مثل ثلج متسخ، ثم انعطفا حول زاوية واختفى عن نظرها.

كانا يبتعدان آنذاك عن وسط المدينة، وأفسح فن العمارة الأوروبية في مطلع القرن المجالَ لكتل إسمنتية بشعة تتناثر بينها مساجد ومبانٍ تبدو من القرون الوسطى بحجارتها الكبيرة ونوافذها المقنطرة. بدأت حركة المرور تتباطأ، وتختنق نفسها في ازدحام شديد وصفوف تمتد مسافات كبيرة أرغمت فلين على تغيير اتجاهه عدّة مرات، في حين كافح للبقاء متقدماً على مطارديهما وتفادي صدم مشاة وسيارات وحافلات أخرى. اصطدمت سيارتا شرطة ببعضهما حين حاولتا اللحاق بالبي أم دبليو الأخيرة، وابتعد أشخاص يتناولون شراهم مذعورين حين ارتطمت إحداهما بأثاث أحد المقاهي، فجعلت الطاولات والكراسي تتبعثر في كل الاتجاهات. ضربت الأخرى حاجز الرصيف وانقلبت على سقفها، وانزلقت على الشارع وخرجت منها شرارات قبل أن ترتطم بعمود إنارة. استمرت الدايو الثالثة تُلاحقهم بضعة شوارع أخرى قبل أن تتحطم نتيجة المطاردة، بعد أن

انعطفت عند زاوية واصطدمت بالجزء الخلفي لشاحنة نقل ماشية متوقفة، فذعرت الماشية وفرّت عبر باب الشاحنة الخلفي إلى الشارع. انضمت سيارات شرطة أخرى إلى المطاردة، صفّاراتها تصدح، وأضواؤها تومض، لكن المسافة كانت شاسعة وابتعدت واحدة تلو الأخرى أيضاً حتى لم يعودوا يشاهدونها. لم تبق مع فلين وفريا إلا سيارتي البي أم دبليو، تطاردانهما من دون هوادة، وتلاحقانهما عند كل منعطف وزاوية، رافضتين التوقف.

اندفعا بسرعة إلى ساحة، ومن هناك إلى شارع جانبي ضيق مخيف، وتفرّقت الحشود مذعورة على طول الشارع الممتلئ حفراً. تجاوزا متاجر ودكاكين على كلا الجانبين بسرعة، وكشك جزّار مكدّسة فيه كومة من أكياس وردية ضخمة مليئة بالقطن الأبيض الأزغب. أصبح الشارع أضيق فأضيق، مما أعاق حركتهم، وجعل من المستحيل تفادي طلقات الأسلحة النارية من سيارتي البي أم دبليو خلفهما.

صرخت فريا: "يجب أن نخرج من هنا!".

لم يرد فلين، إنما حدّق فحسب بثبات إلى الأمام مطلقاً البوق في أثناء انطلاقهما نحو بوابة حجرية ضخمة، تحيط بقوسها المركزي مئذنتان. كانت البوابة تخضع لأعمال ترميم من نوعٍ ما، وواجهتها مغطاة بشبكة من السقالات الخشبية الواهنة، والألواح الخشبية مكدّسة عالياً مع أكياس الإسمنت وكتل حجرية ضخمة.

"إنهم يحاولون إصابة العجلات!". كان صوت فريا يائساً، وعيناها تتنقلان إلى الأمام والخلف بين البي أم دبليو والبوابة. "أرجوك يا فلين، يجب أن نخرج من هذا الشارع! ينبغي لك أن تفعل هذا الآن!".

لم يقل شيئاً بالرغم من ذلك، وعيناه ثابتتان على السقالات، وفكّه متوتر. ألقى نظرة على المرآة مخففاً الضغط على دواسة الوقود قليلاً لتصبح البي أم دبليو أقرب ثم حرّك المقود إلى اليمين.

صرخت فريا: "ما الذي تفعله بحق الله؟".

صاح وهو يصدم الفيات مباشرة بالأعمدة الخشبية التي تدعم السقالات: "انخفضي وتشبثي!". تمايل الهيكل واهتز ثم بدأ يتداعى. مرّت الفيات والبي أم دبليو الأولى قبل أن ينهار الهيكل برمّته أرضاً في عاصفة من الغبار والأنقاض، وسحق البي أم دبليو الثانية مثل بيضة تحت مطرقة.

قال فلين: "ها قد أنتهى أمر إحدى السيارتين".

ضغط على المكابح، وانعطف يساراً سالكاً طريقاً متعرجاً عبر متاهة من شوارع تتسع وصولاً إلى طريق عام أعادهما إلى مركز المدينة. بالرغم من أن الطريق كان مزدحماً، إلا أن حركة السير كانت تتقدم بسرعة. وبوجود ثغرات كثيرة بين السيارات، استطاع فلين زيادة سرعة سيارة الأجرة إلى 100كم/سا منتقلاً يميناً ويساراً بين المسالك الثلاثة، شاقاً طريقه عبر متاهة السيارات والشاحنات، واقتربا تدريجياً نحو أبراج وسط القاهرة مع لوحاتها الإعلانية. ربما كانت البي أم دبليو أسرع، لكن الفيات - صغيرة، تشبه العلبة، سهلة المناورة - بدت أفضل في تلك الظروف. بدأا يبتعدان ببطء وثبات، وسيارة التوأم تتخلّف أكثر فأكثر وراءهما. بحلول وقت مغادرتهما الطريقَ، ونزولهما شارعاً منحدراً وعودتهما إلى نهاية ميدان التحرير، حيث بدأت المطاردة، كانا قد ابتعدا نحو أربعمئة متر عن مطارديهما.

قال فلين وهو ينظر من فوق كتفه: "أظن أننا سننجح".

"احذر!".

أدار المقود، وضغط على المكابح؛ انزلقت الفيات ثم توقفت على بعد سنتيمترات قليلة عن الجزء الخلفي لشاحنة صغيرة محمّلة بالقرنبيط. أمامهما، شاهدا ازدحاماً مرورياً خانقاً لا يتحرك يمتد على ما بدا أنه طول الساحة كلها، ويسدّ كل المسالك الثلاثة. عشّق علبة التروس على وضعية الرجوع، مفكّراً في الانتقال إلى المسلك الخارجي حيث يستطيعان الالتفاف بعيداً عن الازدحام، لكن حافلة سيّاح توقفت خلفهما تماماً وواحدة أخرى في المسلك الخارجي إلى يسارهما، وأكملت شاحنة إسمنت الحصارَ حين قعقعت إلى جانبهما الأيمن.

قال فلين بحدّة وهو يضرب بقبضته المقود: "هراء. اخرجي!".

فتح بابه بقوة، وترجّل من السيارة، وأمسكت فريا حقيبتها وتبعته. تجاهلا صرخات السائقين الآخرين، وأسرعا يجريان عبر حركة المرور إلى الرصيف.

كانا على الطرف الشمالي من ميدان التحرير، بجانب مبنى وردي وبرتقالي ضخم يحيط به سياج حديدي. نظر فلين إلى الخلف محاولاً معرفة موقعه من مطارديهما، ثم أمسك يد فريا وأسرع معها حول الدرابزين وعبر بوابة مفضية إلى حدائق أمام المبنى.

كانت هناك بُرك مزخرفة، ومجموعة من المنحوتات والتماثيل المصرية القديمة، وحشود من السيّاح والتلاميذ. وقف رجال شرطة ببذلاتهم البيضاء حولهم، وهم يحملون البنادق، و لم يلحظهما أيّ منهم. تردد فلين، وعيناه تنظران إلى الأمام والخلف، محاولاً أن يقرر ما سيفعله. كان هناك صفٌ من أكشاك ذات واجهات زجاجية داخل البوابة، وقد خلا أحدها آنذاك، فدخل إليه واشترى تذكرتين.

قال: "بسرعة"، وراح يجر فريا عبر الحدائق صعوداً على الدرجات نحو مدخل المبنى المقنطر. عندما وصلا إلى الأعلى أمسكت ذراعه وأشارت.

"انظر!".

استطاعا أن يشاهدا في الساحة رأسي التوأم بشعرهما القصير، وكلاهما يهرولان بين طوابير الشاحنات المتوقفة، ولا يزالان بعيدين قليلاً عن سيارة الأجرة المهجورة. راقباهما للحظة، ثم دخلا المبنى بسرعة.

عندما يغضب روماني جرجس يبدأ بالصراخ وتحطيم الأشياء، وعندما يغضب جداً يؤذي الآخرين، فمعاناة الآخرين تجعله يرتاح من متاعبه. وعلى أيّ حال، عندما يستشيط غضباً، من نوع الهياج الشديد الذي يجعل أشخاصاً آخرين يرغون زبداً من أفواههم أو يصرخون ويتشدّقون في الكلام، يحدث شيء غريب له. يشعر بصراصير - مئات بعد مئات منها - تزحف على وجهه وأطرافه وجذعه، تماماً كما فعلت حين كان طفلاً في منشية ناصر.

بالطبع، لم تكن هناك صراصير، لكنه كان يتخيل ذلك كله. وبالرغم من ذلك، كان الإحساس حقيقياً على نحو رهيب - الدغدغة الكريهة لقرون استشعارها، ووقع قوائمها. كان قد ذهب إلى أطباء، ومحللين، ومنوّمين مغناطيسيين وأيضاً، كما وصفهم، إلى معالجين بالرقى، لكن، لم يستطع أيّ منهم مساعدته. بقيت الحشرات تأتي، تماماً كما فعلت حين كان طفلاً، وكما تفعل اليوم بعد أن تلقى اتصالاً قالوا فيه إنهم فقدوا أثر الفتاة.

بدأ الأمر بشعور وخز غامض، يكاد لا يلاحظ، في ركبتيه. ومع مضي المكالمة قدماً وسماع التفاصيل، ازداد الوخز بسرعة واشتدَّ حتى لم يعد أي جزء منه

لا يحس به، ولا زاوية أو مكان من جسده لم يتم غزوها: صراصير على جلده، صراصير في فمه، صراصير تحت مقلتيه، صراصير تزحف بطريقتها القذرة على فتحة شرجه؛ جسده كله مغطّى بالصراصير.

أنهى اتصالاً وأجرى آخر، وفي تلك الأثناء كان يخدش نفسه ويصفع جسده، ويرتعش على نحو لا يمكن السيطرة عليه، ثم أبلغ الشخص على الطرف الآخر بما حدث، وأمره بفعل كل ما في وسعه للعثور على الفتاة. رمى الهاتف جانباً بعد ذلك، وأسرع إلى أقرب حمّام. كان لا يزال يرتدي ملابسه كلها، قفز تحت الرشاش وفتح الصنبورين على آخرهما، وراح يصفع نفسه كأن ناراً قد شبّت فيه.

صرخ: "ابتعدي! ابتعدي عني! مقرف! مقزز، مقزز، مقزز!".

صعد سي أنغلتون بهدوء الدرجات المؤدية إلى البوابة الرئيسة للجامعة الأمريكية، وهو يمسح جبينه بمنديل، ثم توقف لحظة لينظر إلى ست سيارات شرطة متوقفة في الشارع خارج الجامعة قبل أن يمضي قدماً إلى مكتب الأمن الذي يسد المدخل.

أبلغه الحارس الجالس وراء المكتب: "الجامعة مقفلة. لا يُسمح لأحد بالدخول أو الخروج".

وقعت حادثة، كما شرح، والشرطة تحقق في الأمر، ويجب على أنغلتون أن يعود في وقت لاحق بعد انتهاء الأمر.

كان أنغلتون معتاداً على التعامل مع ذلك النوع من الموظفين الثانويين - على أنه جزء من عمله - ويعرف من خبرته أن هناك طريقتين لفعل ذلك: التظاهر أنك شخص فاتن ومحاولة الكلام المعسول معهم، أو اللعبُ ببطاقة السلطة وجعلهم يمنحونك ما تريده. نظر إلى الرجل، يقيّمه، ويحسب أي خيار سينجح على نحو أفضل في هذه الحال، ثم شنَّ هجومه.

قال بحدّة، مخرجاً بطاقة هويته ويحملها أمامه: "أعرف أن هناك حادثة لعينة. سايروس جيرمايا أنغلتون، السفارة الأمريكية. تلقيت للتو اتصالاً من المدير. واضح أن أحد مواطنينا على علاقة بذلك".

كان يتوقع قليلاً من المقاومة على الأقل، لكن الرجل انهار علــى الفــور، إذا جاز التعبير، واعتذر ولوّح له أن يمر عبر جهاز كشف المعادن المستطيل المتطــاول الذي تبين أنه لا يعمل؛ لأنه كان يحمل مفاتيحَ وأقلاماً وكل أنواع المعادن الأخرى اللعينة في جيوبه ولم يطلق إنذاراً، أو حتى أزيزاً.

قال وهو يضرب بقبضته جانب الجهاز: "يجب أن تصلحوا هذا الشــيء. لا أريد تعريض حياة أمريكيين للخطر؛ لأن معدّاتكم الأمنية لا تعمل. أهذا مفهوم؟".

أنّ الرجل اعتذاراً، وقال إنه سيأتي بشخص ليفحصه فوراً.

قال أنغلتون محدّقاً إليه قبل أن يستدير ويمشي في رواق طويل: "افعل ذلــك". كانت مصابيح نحاسية ثقيلة تتدلّى من السقف، ووهجها الأصفر يمـنح المكــان شعوراً مخدراً شبيهاً بالحلم. في نهاية الردهة، صعد عدّة درجات إلى المصعد الــذي بدا أنه لا يعمل أيضاً. أُرغم على صعود السلالم، ولهث وصفر في طريقه إلى الطابق الرابع.

شاهد حشداً من رجال الشرطة هناك، يقفون فقط ولا يبدو أنهم يفعلون أي شيء. امتد شريط أصفر عبر باب المصعد المفتوح، وكانت هناك بقــع دم علــى أرضيته وجداره الخلفي. رأى كل ذلك بلمحة واحدة، ثم مشى بخطوات واســعة متعمداً إلى مكتب برودي وفتح الباب؛ وكأن لديه كلّ الحق أن يكــون هنــاك. دخل، وأغلق الباب خلفه. لم يقل أيٌّ من رجال الشرطة شيئاً أو يحاولوا منعه.

لم يكن يتوقع أن يجد شيئاً في المكتب، وصدق حدســه. جــاءت المعلومــة الوحيدة التي يحتمل أن تكون مفيدة حين ضغط على زر إعادة طلب رقم الهــاتف ليكتشف أن آخر مكالمة أجراها برودي كانت إلى هاتف خلوي. لم يزعج نفســه بتسجيل الرقم، فلم يكن بحاجة إلى ذلك، وعرفه مباشرة: مولي كيرنان.

تجوّل في المكان، يفتح دروجاً، ويبحث في خزائن الأرشفة، وملقيــاً نظــرة سريعة على المقالات المكدّسة على طاولة برودي، ثم عاد إلى الرواق. كان وافدان جديدان قد ظهرا في أثناء وجوده في المكتب؛ محققان يرتديان ملابس عادية. سأله أحدهما عمّا يفعله هناك.

"تركت بعض المقالات للأستاذ برودي. ندرّس صفاً معاً. هل كل شيء بخير؟ يتواجد عدد كبير من أفراد الشرطة في المكان".

قال المحقق: "لا"، وأنه يجب ألاّ يكون متواجداً في المكان، لأنه أصبح يُعدّ مسرح جريمة.

اتسعت عينا أنغلتون صدمة وذهولاً وقال: "مسرح جريمة. يا للهول! هل تأذى أحد؟".

شرح المحقق أنهم يتوثقون من ذلك.

كرّر أنغلتون: "يا للهول! أرجوك أخبرني أنه لم يحدث شيء لفلين، الأستاذ برودي".

ردَّ المحقق أنهم ليسوا متأكّدين بعد مما حدث، لكن، نعم، يبدو أن للأستاذ برودي علاقة بطريقة ما.

قال أنغلتون مرة ثالثة واضعاً يده على صدره، وقد ظهر على محياه ارتباك أكاديمي: "يا للهول! هل يمكن أن أساعد بشيء؟ أعني أن فلين صديق جيد لي، ونعمل في القسم نفسه. إذا كان هناك ما يمكنني فعله، أي شيء على الإطلاق...".

كان الأمر في منتهى السهولة، مثل سرقة حلوى من طفل. بدأ المحقق يطرح عليه أسئلة عن برودي، وارتجل أجوبة، يلعب دور الصديق المهتم. في أثناء ذلك، علم من المحقق كل ما يعرفه عن أحداث الأصيل: رفيقة برودي، المطاردة، التوأم، سرقة سيارة الأجرة، كل شيء.

سأل أنغلتون ببراءة: "وليس من أحد لديه فكرة عن مكانهما الآن؟ أأنت متأكّد من هذا؟".

ردَّ المحقق أنه متأكّد تماماً. وإذا حاول الأستاذ برودي الاتصال...

طمأنه الأمريكي قائلاً: "ستكون أول من يعرف. فلين صديق عزيز وأعرف أنه سيود إيضاح الأمر في أسرع وقت ممكن".

خرج بعد ذلك إلى السطح ومشى على مسار المطاردة، ووصل إلى البوابة الجانبية على الطرف البعيد من الحرم الجامعي، التي شاهد شريط شرطة أصفر مثبّتاً عليها أيضاً. دردش مع أشخاص مختلفين على طول الطريق، وحصل على معلومات إضافية - بدت واضحةً أهمية حقيبة الفتاة - لكن لا شيء يعدّل الصورة التي رسمها المحقق له على نحو جذري، أو يقدّم أيَّ دليل على المكان الذي ربما يكون برودي والفتاة مختبئين فيه؛ وهذا هو المهم بالنسبة إليه. تجول في الأرجاء لبعض الوقت، ثم

قرّر أن يتوقف ذلك اليوم. مرّ تحت شريط الشرطة المثبّت على البوابة وانطلق في الشارع، وراح يضغط رقماً على لوحة مفاتيح هاتفه الخلوي ويرفعه إلى أذنه.

متحف القاهرة

قالت فريا حين تجاوزا الحاجز الأمني داخل البوابة، وأدرينالين المطاردة بالسيارة لا يزال يندفع عبر عروقها: "هذا هو المتحف، أليس كذلك؟ متحف الآثار؟".

كان ذلك تفسيراً لما هو واضح، نظراً إلى مجموعة التماثيل والتوابيت الحجرية المعروضة حولهما، أومأ فلين ببساطة، وقادها إلى الأمام أسفل قبة عالية. شاهدا قاعتي عرض كبيرتين تمتدان يميناً ويساراً، وأمامهما على بعد عدّة خطوات ردهة مقنطرة زجاجية السقف، وعلى طرفها تمثالان ضخمان قابعان - أحدهما يمثل ذكراً، والآخر يمثّل أنثى - يحدّقان ببرودة إليهما.

قال فلين: "سنرتاح هنا بعض الوقت ثم نستقلّ سيارة أجرة إلى السفارة. الأفضل أن يقودها شخص آخر غيري".

ألقى نظرة عليها، ثم بدأ يسير في قاعة العرض إلى يساره، لكن فريا بقيت في مكانها.

صرخت خلفه: "يمكننا تحميض الفيلمين".

توقّف عن المشي واستدار مواجهاً إياها. تابعت حديثها قائلةً: "قلتَ إن لديك صديقاً يعمل هنا، في قسم التصوير...". رفعت الحقيبة مضيفةً: "يمكننا تحميض الفيلمين".

كانت تتوقع منه أن يجادل، ولكنه بدلاً من ذلك، وبعد أن فكّر للحظة، أومأ موافقاً. عاد إليها، أمسك ذراعها وقادها في الاتجاه المعاكس، إلى قاعة العرض إلى جهة اليمين.

قال: "أراهن أنه ينظر إلى صنّارات صيد الأسماك من العصر الحجري، كما أفترض".

تجاوزا سلسلة من التوابيت الحجرية - معظمها من الغرانيت والبازلت الأسود - سطوحها مغطاة بسطور أنيقة من الكتابة الهيروغليفية. كان هناك تلاميذ يرتدون زياً موحداً يجلسون بشكل مجموعات على الأرض بجانبها، وهم يرسمون.

شرح في أثناء سيرهما، ملوّحاً بيده مثل دليل سياحي: "كلها من العصر الأخير والروماني-الإغريقي. رديئة جداً من ناحية الجودة".

تمتمت فريا: "مدهش".

كان في نهاية صالة العرض مكتب أمن وبجانبه جهاز كشف معادن يجب المرور عبره. تكلم فلين إلى الحارس بالعربية، وأظهر بطاقة من نوعٍ ما ثمّ تجاوز مع فريا الجهاز وعبرا معاً البوابة. أصبحا خارج منطقة الجمهور في المتحف وفي ما بدا قسماً إدارياً، وغرفاً مملوءة بالطاولات وخزائن الأرشفة على كلا الجانبين. مشيا في رواق قصير وصعدا سلالم لولبية، وخرجا إلى مساحة كبيرة تعمّها الفوضى، نوافذها متسخة ورفوفها تمتد من الأرض إلى السقف عليها علب أرشيف مصنّفة.

قرأت فريا: "بردي، حجارة، أوانٍ خزفية، توابيت"، وثبت بصرها لحظة على الملفات قبل أن توسّع مجال رؤيتها لتنظر إلى المكان كله. كانت هناك ست خزائن أرشفة، وبعض قطع الأثاث المتهالكة، ومقص ورق صدِئ، وأكوام من معدّات التصوير والتحميض، معظمها عتيقة وقد عفا عليها الزمن، في كل مكان، مكدّسة في الزوايا وفوق رفوف وتحت طاولات، وكلها بالية ويغطّيها الغبار. صناديق إضاءة، كشّافات، أجهزة تكبير، أكوام كبيرة من ورق إلفورد لتظهير الصور بالأبيض والأسود. بدا المكان، كما فكّرت فريا، شبيهاً بمحل خردوات أكثر من ستوديو تصوير.

كان هناك رجل يجلس إلى طاولة في الطرف البعيد من الغرفة - ممتلئ الجسم، شعره قصير، يضع نظارة دائرية سميكة ويرتدي قميص هاواي مبهرَجاً - يتكلم عبر الهاتف. اقتربا منه، منتظرَين إياه حتّى ينهي حديثه. عندما لم تظهر أي إشارة على أنه سيفعل ذلك، سعل فلين على نحو مبالغ فيه. عندها، نظر الرجل إلى الأعلى، وعندما رآهما ابتسم ابتسامة عريضة، وأنهى المكالمة بسرعة، أغلق سمّاعة الهاتف وقفز على قدميه.

صرخ وهو يتحرك نحوهما: "أستاذ فلين! كيف حالك يا صديقي؟".

رد فلين وهو يقبّله على وجنتيه: "*كويس يا صاحبي*. فريا، مجدي رسول، أفضل مصوّر آثار في مصر".

صافحت فريا مجدي.

حذّر المصري فريا مبتسماً: "احذري منه، إنه فاطر قلوب رهيب!".

قالت فريا إنها ستكون متنبّهة إلى الأمر جيّداً.

أجروا حديثاً قصيراً مهذباً، وأسهب مجدي في وصف كيفية عثوره على علبة من الصور السلبية لأنطونيو بياتو لم تُعرض حتى ذلك اليوم قائلاً: "عمرها مئة وخمسون سنة ولم يرها أحد من قبل! إنها نادرة، نادرة جداً!". وكلّ ذلك، قبل أن يوجّه فلين دفّة الحديث إلى هدف زيارتهما.

قال: "أطلب منك معروفاً. تحميض بعض الصور، بسرعة إن أمكن. هل يمكنك فعل ذلك؟".

رد مجدي: "آمل ذلك، فهنا استوديو تصوير بالمحصلة".

أومأ فلين إلى فريا التي فتحت حقيبتها على الفور وسلّمت مجدي آلة التصوير والعلبة البلاستيكية.

قال فلين: "كانتا في الصحراء، على الأرجح طوال سنين، لهذا لا يحدوني أمل كبير".

قال المصري، يقلّب الشيئين في يده: "هذا يعتمد على ما تعنيه *بالصحراء*". فحص آلة التصوير أولاً، ثم العلبة الصغيرة، ففتح غطاءها وأخرج لفة الفيلم المستخدمة واضعاً إياها على راحة كفه. "إذا كان الفيلمان على قمة كثيب تحت أشعة الشمس المباشرة، فسيكون الفيلمان محترقين، ويستحيل تحميضهما. أمّا إن كانا محميين، من ناحية أخرى...".

قالت فريا: "كانا في حقيبة قماشية".

"في تلك الحال ربما نحصل على شيء منهما. سأحمّض اللفة أولاً، الفيلم في آلة التصوير قد يكون أكثر تعقيداً. هل تودّان الانتظار في أثناء عملي على تحميض الفيلم؟".

ابتسم فلين. "سيكون ذلك رائعاً".

"تحميض في أثناء الانتظار من الدرجة الأولى مع شاي؟".

"سيكون أكثر من رائع".

صرخ مجدي من أعلى السلالم اللولبية، وبعد أن ترك آلة التصوير على الطاولة التي كان يجلس إليها، ذهب إلى باب في الطرف الآخر من صالة العرض وفتحه.

كانت هناك غرفة مظلمة في الداخل: مغسلة، حوض تحميض، خزانة تجفيف، كشّاف، رفوف تصطف عليها قوارير موادّ كيميائية.

قال وهو يرمي لفّة الفيلم في الهواء ويلتقطها: "امنحاني عشرين دقيقة". عمزهما، ثم دخل الغرفة وأغلق الباب خلفه. جاء صوته المكتوم: "ولا بقع على الأريكة!".

وقفا هناك لحظة محرجَين من التعليق الأخير، ثم مدَّ فلين يده ومس كتف فريا وقال: "أأنت بخير؟".

أومأت إيجاباً. لقد شعرت بهدوء أكبر آنذاك، واستقر خفقان قلبها بعد نوبة جنون مطاردة السيارات.

"أأنت واثقة؟".

إيماءة أخرى.

سألت: "وأنت؟".

فتح يديه وقال: "أنا في متحف، ولا يمكن أن أكون أفضل".

ابتسمت فريا إقراراً بمحاولته إلقاء دعابة أكثر من استمتاعها بها. التقت عيونهما، أيٌّ منهما غير متأكّد ممّا يقوله، وكيف يصوغ صدمة ما قد اختبراه للتو.

سألت أخيراً: "هل تعرف من هؤلاء الرجال؟".

"أنا متأكّد من أنهم ليسوا الإخوة ماركس".

لم تبتسم هذه المرة، فربت فلين على كتفها ليطمئنها وقال: "ستكون الأمور خير. ثقي بي. سنخرج من هذا المأزق".

وقفا يحدّقان إلى بعضهما بعضاً، ثم ابتعدا كأنهما لا يرتاحان لتلك الإلفة. ألقت فريا نفسها على كرسي جلدي ذي ذراعين، وبدأت تقلّب صفحات كتاب يضم صوراً لآثار مصرية مأخوذة من الجو، وذهب فلين نحو علب الملفات المرتّبة عند الجدار ومرّر إصبعه على طول لصاقاتها البنية غير المثبّتة بإحكام، وأخرج أحدها على نحو عشوائي - خرائط مجسّمة - وبحث شارد الذهن في محتواه. ظهر رجل عجوز يحمل كوبين من الشاي، ووضع سكراً في كل منهما قبل أن يغادر متثاقلاً. دخل عصفور دوري يرفرف عبر النافذة، وجثم لحظة فوق مروحة وعاد من حيث أتى. انقضت عشرون دقيقة، ثم خمس وعشرون؛ ثلاثون. مضى في

النهاية نحو ثلاثة أرباع الساعة قبل أن يُفتح باب الغرفة المظلمة مجدداً ويطل مجدي منها.

سأل فلين وهو يتحرك نحوه: "نجحت؟".

كان صديقه عابساً، وبدا أقل مرحاً مما كان عليه سابقاً.

"حسناً، لقد حمّضت الصور، إن كان ذلك ما تعنيه، بالرغم من أنني يجب أن أقول... تعرف، لا أريد أن أبدو محتشماً هنا، لكن...".

هزَّ رأسه وأومأ إليهما أن يدخلا، وقال: "من الأفضل أن تأتيا وتشاهدا بنفسيكما".

نظر فلين وفريا إلى بعضهما وتبعاه إلى الغرفة المظلمة. كانت الغرفة مضاءة آنذاك بمصباح وحيد يتدلى من السقف. فتح مجدي خزانة التجفيف وأخرج شريطاً طويلاً من الصور السلبية، ثمّ وضعه فوق علبة الضوء، وأطفأ المصباح فوق رؤوسهم، وفي الوقت نفسه نقر مفتاحاً على جانب العلبة. ظهر وهج نيون عبر سطحها البلاستيكي الشفاف، وأضاء الصور.

زفر قائلاً، وهو يتنحى جانباً ليفسح لهما مجالاً: "أعني، أنا منفتح الذهن مثل الرجل بجانبي. لكن حقاً... هذا متحف، وليس نادياً جنسياً".

انحنيا وحدّقا إلى الصور السلبية. استغرق الأمر منهما لحظة ليدركا ما ينظران إليه بالتحديد. عندما فهم كلاهما، حدّقا إلى بعضهما برعب.

تمتم فلين: "اللعنة".

كانت الصور - بالأبيض والأسود - لامرأة ضخمة جذّابة ترتدي جورباً، وحمّالتي جورب، وسروالاً داخلياً، وحمّالة صدر صغيرة، لكن بعد بضع صور اختفت الحمّالة والسروال الداخلي، في حين ركّزت معظم الصور على مؤخرة كبيرة جداً. بدا أنها في غرفة فندق، على سرير، أحياناً تستلقي على ظهرها وتضع يديها على ساقيها، ومعظم الأحيان تجثو ومؤخرتها باتجاه آلة التصوير.

قال مجدي مكتئباً وهو يعبث بنظارته: "ما الذي جعلك تلتقط هذه الصور...؟".

استشاط فلين غضباً وقال: "لم ألتقط هذه الصور! يا للهول يا مجدي! لا تظن أنني...".

قالت فريا وقد بدت أقل ارتباكاً من الرجلين: "لا نعرف من التقطها. عُثر على آلة التصوير في الصحراء. كنا نأمل أن تكشف الصور شيئاً عن مالكها، وماذا كان يفعل هناك".

قال مجدي وهو يُميل رأسَه إلى الجانب ويقوّم صورة بوضعية خاصة: "تكشف الكثير من مجرد النظر إليها. كيف استطاعت...؟".

قال فلين بحدّة: "لا تقلها. لا تتكلم فحسب...".

كان المجموع ستاً وثلاثين صورة وشاهدوها واحدة بعد الأخرى. رأت فريا نصفها تقريباً قبل أن تستنتج أنها مضيعة للوقت وتخرج إلى غرفة الانتظار. إلا أن فلين بقي. تحرك مجدي ببطء خلفه وهو يعمل على نحو منهجي على الصور الباقية، ناظراً بإمعان إلى كلّ منها على أمل أن تكشف شيئاً مفيداً. بحلول وقت العمل على الصور الأخيرة القليلة، أقرَّ فلين أنها قضية خاسرة، وبدأ يشدُّ قامته حين توتر، فجأة، انحنى مجدداً، ووجهه لا يبعد أكثر من بوصات عن سطح العلبة البلاستيكي الشفاف.

سأل مجدي، ملاحظاً اهتمامه وهو ينحني بجانبه: "ماذا تفعل الآن؟".

تجاهل فلين السؤال.

قال وهو يربت على الصورة الأخيرة في اللفّة، وصوته فيه شيء من الإلحاح والحماسة: "أريد تظهير هذه".

"فلين، أنت صديق قديم، لكن هذا حقاً ليس المكان...".

" إنها شيء مختلف يا مجدي، أعدك".

أطلق المصري تنهيدة سخط وقال: "حسناً، حسناً".

سحب ورقة إلفورد من كومة على أحد الرفوف، ودفع فلين خارج الغرفة المظلمة، ثم أغلق الباب.

سألت فريا: "هل وجدت شيئاً؟".

قال فلين: "ربما، وربما لا. مجدي يظهّر صورة الآن".

"ما هي؟".

"لننتظر الصورة".

حاولت أن تضغط عليه أكثر، لكنه تجاهل أسئلتها، ومشى في المكان ذهاباً وإياباً قبل أن يعود إلى باب الغرفة المظلمة ويقرع عليه بعنف.

"هل أنت جاهز؟".

جاء الرد المكتوم: "امنحني فرصة!".

"المدة؟".

"عشر دقائق".

استأنف فلين المشي، ذهاباً وإياباً، ناظراً بثبات إلى الساعة المعلّقة على الجدار. مربّتاً بيده على فخذه حتى فُتح باب الغرفة المظلمة أخيراً وخرج مجدي، ممسكاً صورة لامعة بيده. مشى فلين بسرعة إليه وانتزع الصورة من يد صديقه، وراحت فريا تنظر من فوق كتف فلين.

لم تعرف ما تتوقعه - ربما صورة كثبان، أو صورة رودي شميدت، أو الدليل على سبب اهتمام شقيقتها به، ولماذا أدّى ذلك الاهتمام إلى قتلها. لم تقدم الصورة أياً من الأجوبة التي تأملها، ولم يبدُ حتى إنها قد التُقطت في الصحراء. أظهرت مدخلاً حجرياً ضخماً من نوع ما، تكسوها طبقة نباتية كثيفة؛ كأن البناء المصوّر قد هُجر منذ وقت طويل وتُرك للطبيعة. انحنت مقتربة منها محاولةً أن تدرك ما تمثّله، وأمعنت النظر إلى المدخل، وشكلِ الطائر المنقوش على العتبة فوقهما. والبرجين العالِيين على شكل معين إلى جانبيهما. حدّقت لحظة، ثم مدّت يدها وأشارت إلى الرسم المنقوش على واجهة كلا البرجين: مسلّة تتضمن خطاً ملتفاً.

قالت: "لقد رأيت هذا من قبل. على المسلّة الفخارية في حقيبة رودي شميدت، التي أخبرتك عنها".

اكتفى فلين بالتحديق إلى الأسفل، واهتزت الصورة قليلاً في يده.

همس: *"مدينة زرزورة بيضاء مثل حمامة، ومنقوش على بابها صورة طائر"*.

"ماذا يعني هذا؟".

لم يرد. وبدلاً من ذلك، مشى في الغرفة حاملاً الكاميرا، ملوّحاً بها أمام مجدي.

قال: "يجب أن نحمّض الفيلم هنا. ينبغي أن نخرجه من آلة التصوير ونحمّضه".

"فلين، أنا مسرور للمساعدة، لكنّ لدي أموراً أخرى يفترض أن...".

"يجب أن نحمّض هذا الفيلم يا مجدي. ينبغي لي أن أعرف ما هي الصور. الآن، من فضلك".

طرفت عين المصري منـــزعجاً من فظاظة صديقه، ثم أمسك آلـــة التصـــوير وهو يومئ.

"إن كان ذلك بتلك الأهمية".

قال فلين: "إنه بتلك الأهمية، صدّقني".

قلّب مجدي آلة التصوير في يده وقال: "سيستغرق الأمر على الأرجح وقتــاً أطول من اللفة. مفتاح الإرجاع إلى الخلف لا يعمل، وســيكون الغـــلاف علـــى الأرجح مملوءاً رملاً؛ كاميرات لايكا سيئة الجودة في هذا المجال؛ حتى إذا أخرجت الفيلم، فليست هناك ضمانة...".

هزّ كتفيه.

"سأرى ما يمكنني فعله. امتحاني أربعين دقيقة، وسأعرف بعدها إن كان مـــن الممكن إنقاذه أم لا".

استدار عائداً نحو الغرفة المظلمة، وصـــرخ فلـــين خلفـــه قـــائلاً: "شـــكراً يا صاحبـــي". سكت، ثم أضاف: "وآسف لأنني كنت بغيضاً".

لوّح مجدي بيده.

"أنت عالم آثار مصرية، وكونك بغيضاً يتماشى مع الاختصاص".

استدار بعد أن غمزه واختفى في الغرفة المظلمة، وتركهما وحدهما مجدداً.

سألت فريا: "هل تريد أن تخبرني بما يجري؟ ما ذلك المكان في الصورة؟".

كان فلين يحدّق إلى الصورة مجدداً، رأسه يهتز قليلاً كأنه لا يصدّق ما ينظـــر إليه، وابتسامة باهتة جداً تظهر على شفتيه. أطبق الصمت وقتاً طويلاً.

قال أخيراً: "لا يمكن أن أكون متأكداً من الأمر تماماً. ليس من دون رؤية مـــا على الفيلم الآخر".

"لكنك تظن أنك تعرف".

أطبق الصمت مجدداً، ثم قال: "نعم، نعم، أظن ذلك".

نظر إليها. بالرغم من أن وجهه كان شاحباً وقلقاً، إلا أن عينيه كانتا تلمعان؛ مزيج من المشاعر بدا أنه يزيد وسامته.

قال: "أظن أنها ربما تكون شيئاً يدعى زرزورة".

"أين هي بالتحديد؟".

لانــزعاج فريا، لم يجب. نظر مجدداً إلى الصورة، ثم إلى ساعته. اتخذ قــراراً، أخرج هاتفه الخلوي من جيب جينــزه وضغط بإبهامه أرقاماً، وتحــرّك بعيــداً إلى الطرف الآخر من الغرفة خارج مدى السمع. رفعت يديها كأنها تقول: *ما الــذي يجري؟* لكنه رفع راحة كفه نحوها وتكلم بسرعة عبر الهاتف. عندما أنهى الاتصال أعاد هاتفه إلى جيبه، ومشى في الغرفة مجدداً وأمسك ذراعها.

سألها، وهو يقودها عائدَين إلى السلالم اللولبية: "ماذا تعــرفين عــن مصــر القديمة؟".

ردّت: "كما أعرف عن فيزياء الكمية".

"حان وقت دورة دراسية مختصرة وسريعة".

احتفظت ياسمين معلوف بسرٍّ لنفسها، أخفته عن والديها، وأقربائها، وزوجها حسني، وصاحب عملها الأمريكي أيضاً. كانت تدخّن.

كما هي حال الأسرار، لم تكن تتحدث عن الأمر كثيراً. على أيّ حــال، لم يكن برأيها من نوع الأمور التي تتباهى بها سيدة. بالرغم من أن حسني لن ينــــزعج كثيراً على الأرجح إن اكتشف الأمر؛ إلا أن أسرتها لن توافق بالتأكيد. وقد أوضــح السيد أنغلتون منذ البداية أنه لن يتسامح مع التدخين في العمل. كان بمقــدورها أن تفعل أي شيء آخر في غرفة الفندق، كما أخبرها - *يا للهول! يمكنك العمل حتى في الدباغة إن كان ذلك سيساعدك على التركيز* - لكن لفائف التبغ ممنوعة منعاً باتاً.

لم تكن تدخن بشراهة - تدخن ثلاثَ لفائف تبغ كليوباترا خفيف أو أربعــاً فقط في اليوم - ولم يكن صعباً جداً الامتناع عنها في أثناء عملها في محطة التنصّت. وتصبح الرغبة لا تحتمل في أواخر الأصيل فقط، وآنذاك توصد الغرفــة، تســتقل المصعد نــزولاً إلى الطابق السفلي، متوجّهةً إلى نهاية الرواق بجانب نافذة مفتوحة، وتشعل لفافة.

اليوم، ولسبب ما، بدت الرغبة أقوى من المعتاد. بعد أن أنهت لفافــة تبــغ واحدة أشعلت أخرى على الفور، وامتدت استراحتها التي تستغرق خمس دقــائق عادة إلى عشر، ثم اكتشفت أنه لم يعد لديها نعناع ويجــب أن تســتقل المصــعد

نــزولاً إلى المتجر في الطابق الأرضي لتشتري كمية منه. وتعود إلى الغرفة، ورائحة أنفاسها زكية على نحو مناسب، وقد نفضت آثار الرماد عن فستانها، كانت قــد غابت عشرين دقيقة تقريباً. لم تكن تلك مشكلة لو لم يتصل أحدهم بهاتف مــولي كيرنان الخلوي في غيابها: كان ضوء التحذير الأحمر على المسجّل الــذي يراقــب ذلك الرقم تحديداً يومض بقوة حين دخلت عبر الباب.

لم يكن أي اتصال آخر إلى أي رقم ثانٍ قضية ذات شأن. بعد زيارته في وقت باكر من ذلك الأصيل، كان السيد أنغلتون قد أخبرها تحديداً أنه يجب إبلاغه على الفور بأي اتصال يرد إلى هاتف كيرنان. أغلقت ياسمين معلوف البــاب بعنــف ورمت حقيبة يدها على السرير، وأسرعت إلى المسجل. أمسكت دفتر ملحوظاتها وقلمها، وضغطت زر التشغيل، وجلست جاهزة للنسخ. هســيس، تشــويش، ثم صوت خافت وفيه إلحاح:

"مولي، أنا فلين. أنا في المتحف المصري مع فريا هانين. نقوم بتحميض بعض الصور... سأشرح لاحقاً... ثم سأصطحبها إلى السفارة الأمريكية. هل يمكــن أن نلتقي بنا هناك؟ هذا عاجل يا مولي، عاجل جداً. لا بأس، شكراً".

نهاية المكالمة.

شغّلت التسجيل مجدداً، وتوثقت من أنها تنسخ على نحو صــحيح، وأنهــا لم تنسَ أو تغفل شيئاً. أمسكت بعد ذلك الهاتف الخاص الذي كان أنغلتون قد وضعه في الغرفة، واتصلت، وأُجيب على مكالمتها بعد رنتين.

"سيد أنغلتون، أنا ياسمين معلوف. وردت مكالمة على هاتف كيرنان الخلوي. ورد ما يلي...".

رفعت دفترها وبدأت تقرأ.

سألت فريا حين قادها فلين عائدَين إلى المتحف: "هل تظن أن المكان آمن؟". كانت صورة مطارديهما التوأم لا تزال واضحة في ذهنها، وصالة عرض ضــخمة مكتظة بالناس تبدو مكشوفة على نحو مؤلم مقارنة بالمساحة الصــغيرة لاســتوديو التصوير. "ماذا لو كنا لا نــزال مُطارَدين؟".

توقّف فلين بجانب تابوت حجري ضخم ناظراً إلى ما يوجد أمامهما، ثمّ قال "لقد انقضت أكثر من ساعة. أظن أنهم إذا فكّروا في المجيء إلى هنا، فسيكونون قد فعلوا ذلك وذهبوا. لا أضمن شيئاً، لهذا أبقي عينيك مفتوحتين. إذا رأيت شيئاً...".

"ماذا؟".

"اهربي".

نظر حوله لحظة أطول، ثم انطلق عبر صالة العرض وصورة البوابة لا تزال ماثلة في ذهنه. سارت فريا بجانبه. بدا أكثر هدوءاً واطمئناناً بالتأكيد منها، إن لم يكن مسترخياً؛ كأن وجود ذلك العدد الكبير من القطع القديمة يخفف حدّة الخطر الذي يتعرضان له. قطعا نصف مسافة صالة العرض تقريباً، يتردد في مساحتها الكبيرة صدى ثرثرة ووقع خطوات، ثم بدأ فلين يتكلم.

ابتعد جانباً حين تقدم حشد من تلاميذ المدارس يرتدون زياً موحداً أزرق اللون نحوهما، يقودهم مدرّس يبدو منهكاً. شرح فلين قائلاً: "زرزورة هي واحة مفقودة في الصحراء الكبرى. لدي في الواقع عرض باوربوينت جيد حولها، لكن في الظروف الحالية أخشى أنك ستكتفين بالنسخة المعدّلة".

قالت فريا وهي تحدّق حولها قلقة، متوقّعةً أن يقفز أحد التوأمين من خلف تمثال: "لا بأس بالنسبة إلي".

تابع فلين متحمساً لموضوعه: "جاء الاسم من الكلمة العربية زرزور، الذي يعني عصفوراً صغيراً. لا نعرف الكثير حقاً عن المكان، باستثناء أنه ذُكر أول مرة في مخطوطة من العصور الوسطى تدعى **كتاب الكنوز**، وتقع كما يفترض في مكان ما قرب الجلف الكبير، بالرغم من أن دي لانسي الرابع وضعها في بحر الرمال الكبير، ونيوبولد...".

رأى أنه يفقد اهتمامها فسكت رافعاً يديه إلى الأعلى.

"آسف، معلومات أكثر مما ينبغي. أحد مخاطر تمضية حياتك تنهمكين في هذه الأشياء؛ لا يمكن شرح الأمر ببساطة. كل ما يجب أن تعرفيه في الوقت الحالي أنها واحة مفقودة، ومعظم مستكشفي الصحراء في بداية القرن العشرين - بال، كمال الدين، باغنولد، ألماسي، كلايتون - حاولوا العثور عليها وفشلوا. في الواقع، كان البحث عن زرزورة هو الحافز لمعظم عمليات الاستكشاف تلك".

وصلا إلى قاعة القبة العالية عند مدخل المتحف، وتابعا طريقهما إلى الأمام مباشرة، نحو صالة عرض المملكة القديمة، المعلّقة على جدرانها تماثيل ونقوش بارزة.

مضى فلين قدماً: "كان كثير من الناس قد جادلوا أن زرزورة غير موجودة أبداً في الواقع"، غارقاً في ما يقوله، وغافلاً على ما يبدو عن موادّ العرض على جانبيه والحشود في كل مكان، بخلاف فريا التي استمرت عيناها تتحرّكان إلى الأمام والخلف بعصبية.

"وأن الأمر كله مجرد أسطورة، مثل إلدورادو أو شانغري - لا، أو أطلنتس - إحدى تلك الحكايات الخيالية تماماً التي تلهمها أماكن مهجورة مثل الصحارى. لقد صدّقتُ دائماً أنها موجودة، وأن زرزورة ببساطة اسم آخر، في حقبة متأخرة، لمكان أشار المصريون القدماء إليه باسم *ويت سيشتات* أو الواحة الخفية".

نظر إليها ليتوثق أنه لا يزال يحظى باهتمامها. أومأت فريا لتشير إلى أنها تصغي إلى ما يقوله.

قال فلين وحاجباه قد تقطّبا عبوساً بعض الشيء كأنه محبط من هذا النقص في المعلومات: "لسوء الحظ، كما هي حال زرزورة، لا نعرف حقاً الكثير عن *ويت سيشتات*. وباستثناء شيء واحد مميز، سأذكره بعد دقيقة، فإن الدليل مؤلف من شظايا عديدة ويصعب تفسيره: من بضع قطع بردي، بعض النقوش الصخرية المتضررة جداً، ونقشين وذكر مشوّه في *إيجيبتكا* مانثو... لن أجعلك تشعرين بالملل باستعراض ذلك كله. ما استطعنا أساساً جمعه معاً - وأكرّر، معظم هذا مفتوح للنقاش - أنها كانت ممراً ضيقاً وعميقاً أو وادياً يقع في الجانب الغربي من الجلف الكبير، وظهرت في وقت باكر جداً، قبل حتى أن تصبح الصحراء الكبرى قاحلة...".

سألت فريا مقاطعة إياه: "منذ متى حدث هذا بالتحديد؟". بالرغم من عصبيتها، إلا أنها وجدت نفسها تهتم على نحو متزايد بالقصة.

قال مسروراً كما يبدو من اهتمامها: "حسناً، من الصعب تحديد تواريخ دقيقة، لكننا نتكلم عن عشرة آلاف سنة أو عشرين ألفاً قبل الميلاد على الأقل، وربما حتى في وقت من العصر الحجري الأوسط".

لم يعنِ التعبير شيئاً لفريا، لكنها لم تطلب توضيحاً؛ لا تريد إبطاء الأمور.

تابع فلين مستفيضاً في الشرح: "تاريخ موغل في القدم يمتد إلى ما قبل التاريخ، حتى آنذاك بدا أن ذلك الوادي، الواحة، سمّيها ما شئتِ، يعدُّ مكاناً ذا مكانةٍ دينية فائقة، وموقعه الفريد سرًّا دفيناً. لا نعرف متى ولماذا عُدَّ أول مرة هكذا، لكن يبدو أنه اكتسب مكانته في نهاية المملكة القديمة، نحو 2000 قبل الميلاد. لم يعد موقع الواحة معروفاً بعد ذلك واختفت من التاريخ".

وصلا إلى نهاية صالة العرض، وبدأا يصعدان السلالم، وحشد السيّاح يتضاءل حولهما مع ارتقائهما إلى الطابق الأعلى في المتحف. كان المكان أكثر هدوءاً وأقل فوضى من الطابق الأدنى في المبنى. قادها فلين عائدَين من الطريق الذي جاءا منه، نحو القبة العالية، ثم استدارا إلى غرفة جانبية صغيرة مهجورة فيها صناديق عرض ممنوعة حجارة بسيطة ومصنوعات فخارية، وبدا واضحاً أنها كلها من تاريخ أبكر مما قد تجاوزاه حتى ذلك الوقت. توقف أمام أحد الصناديق وأشار. في الداخل، يحيط بها مشطان عاجيان ووعاء خزفي، كانت هناك ثلاثة أشياء عرفتها فريا من فورها: مسلاّت فخارية صغيرة، كل منها بارتفاع إصبع، منقوش عليها الرمز نفسه الذي يظهر على حقيبة رودي شميدت. حدّقت إلى اللصاقة المرافقة: *مصغرات بنبن النذرية، قبل السلالات (3000 قبل الميلاد)، هيراكونبوليس.*

سألت، وصور مطارديهما تتراجع أكثر في ذهنها: "ما هو بنبن؟".

صحح فلين وهو يميل بجانبها، ومرفقه يمس مرفقها: "بنبن *الشهير*. أخشى أننا يجب أن نحيد عن موضوعنا لحظة إلى عالم الكون المصري القديم المعقد. أعرف أن هذا ليس في أعلى لائحة اهتماماتك، لكن تحمّليني؛ لأن له صلة بالموضوع. سأحاول إبقاء الأمر بسيطاً".

قالت: "هاتِ ما عندك".

تقدّم شابان - صبيّة وشابّ - نحو الصندوق ونظرا إلى محتوياته للحظة. لم يبدُ أيٌّ منهما مهتماً على نحو خاص، وتابعا طريقهما. انتظر فلين حتى أصبحا خارج مدى السمع، ثم بدأ يتكلم مجدداً.

شرح موضحاً: "كان بنبن معلَماً بارزاً في الديانة المصرية القديمة والأسطورة أيضاً، وبطرائق عديدة، كان المعلَم الأهم. رمزياً، مثّل رابية الأرض البدائية، التلة الحجرية الصغيرة الأولى من الأرض الجافة التي انبثقت من نون، *محيط الفوضى* الأوّلي

وفقاً *لنصوص الأهرامات* - أقدم مجموعة معروفة من الكتابات الدينية المصرية - طار رع-أتوم، السيد المبجل الأكبر، فوق سواد نون على شكل طائر بنو...".

نقر على الصورة التي يحملها بيده، مشيراً إلى الطائر طويل الذيل المنقوش على العتبة فوق البوابة.

"... وحطَّ على بنبن، حيث انتشرت أغنيته مع أول شروق للشمس. من هنا جاء الاسم، من كلمة وبين المصرية القديمة، وتعني *الانبعاث بإشراق*".

تجاوزهما الشابان في طريق عودهما، وكانت الصبيّة تتكلم آنذاك عبر هاتفها الخلوي. مجدداً، انتظر فلين حتى ذهبا قبل أن يستأنف شرحه.

قال وهو ينظر إلى الخزانة، ومرفقه لا يزال يمس مرفق فريا: "على أيّ حال، كان بنبن أكثر من مجرد رمز. نعرف من نصوص ونقوش قديمة أنه كان شيئاً مادياً في الواقع: صخرة أو حجراً على شكل مسلّة. هناك من يقول إنه كان في الأصل نيزكاً، أو جزءاً من نيزك، لكن النصوص ذات العلاقة معقدة وتقبل تأويلات عديدة. ما نعرفه حقاً هو أن بنبن كان موجوداً في الحرم الداخلي لمعبد الشمس العظيم إيونو، ويتمتع وفقاً لكل الآراء بقوى استثنائية خارقة للطبيعة".

أطلقت فريا صوت اندهاش.

"أعرف، أعرف، يبدو الأمر كله مثل *غزاة الفلك المفقود*، بالرغم من أن لدينا فعلاً عدداً من المصادر التي توثق ذلك - وفيها واحد من الأرشيف السومري الملكي - وتتوافق على نحو جدير بالملاحظة في أوصافها. تُظهر لنا كيف يُجرُّ بنبن في المعركة إلى مقدمة جيش الفرعون فيخرج منه صوت غريب وضوء يعمي الأبصار يدمّر القوات المعادية تماماً. يفسر هذا على الأرجح اسمين بديلين كانا يستخدمان لوصفه: خيرو-*إن* سخمت، صوت سخمت - سخمت سيدة مبجلة لحرب مصرية قديمة - *وإنر-إن سدجت*، حجر النار. ذلك ما هو عليه الرمز بالمناسبة...". أشار إلى النقش على جانب المسلّة الفخارية وتابع قائلاً: "سدجت، تعني النار بالهيروغليفية. الخط المتقاطع يمثل منقلاً، مع شعلة ترتفع...".

توقف عن الكلام مجدداً رافعاً يديه، كما فعل سابقاً.

"لكن ذلك خارج الموضوع. القصد هو أن بنبن ووبت *سيشتات* - الواحة الخفية - كانا مرتبطين على نحو لا يمكن فصمه، ولا يمكن حقاً مناقشة ما يتعلق

بواحد منهما من دون الإشارة إلى الآخر. سيتبين أن الحجر كان موجوداً أصلاً في معبد داخل الواحة، كما قلت، ونتكلم عن عشرات آلاف السنين قبل الميلاد هنا، قبل وقت طويل حتى من استيطان وادي النيل. وبالرغم من أننا لا يمكن أن نتوثق أبداً، إلا أن هناك دليلاً يشير إلى أن السبب الذي جعل الواحة تعدُّ مبجلة جداً في المقام الأول هو أن بنبن قد اكتُشف هناك في الواقع. كلاهما يشكّلان جزءاً من الرزمة نفسها. لهذا السبب يُشار إلى الواحة أيضاً، إضافة إلى *ويت سيشتات*، باسم *إنيت بنبن*؛ وادي بنبن".

نظر إلى فريا قلقاً من أن يكون قد أثار سأمها بمثل ذلك القدر من المعلومات، لكنها رفعت إبهامها موافقة، وبعد إلقاء نظرة أخيرة أومأ إليها أنهما سيذهبان، واصطحبها إلى خارج الغرفة. مرّا تحت قبة المتحف العالية وعلى طول صالة العرض في الطابق العلوي التي تطل على الردهة.

قال وهو يرفع الصورة عالياً بيده: "هناك سبب آخر يجعل لبنبن علاقة بكل هذا، وهو أن أوضح وصف نمتلكه وأكثرها تفصيلاً للواحة الخفية يظهر في نص يرتبط تحديداً ببنبن... هنا".

استدارا يميناً إلى غرفة أخرى، مهجورة أيضاً، تُعرض فيها مجموعة من ورق البردي التي تحمل كتابات هيروغليفية. في الطرف البعيد من الغرفة خزانة زجاجية بارتفاع الصدر، وتمتدّ على عرض الغرفة تقريباً. توقف فلسين أمامها وحدّق إلى الأسفل، وظهرت ابتسامة باهتة على شفتيه. شاهدا داخلها ورقة بردي مغطاة من الطرف إلى الطرف بسطور غير متوازية من نص بحبر أسود. وبخلاف الأمثلة الأخرى المعروضة، والتي تبدو معظمها مكتوبة بعناية، وبألوان جميلة وزخارف معقدة، بدت تلك الوثيقة بسيطة وغير منظّمة، وحروفها الهيروغليفية تتمايل وتتداخل ببعضها؛ كأنها *قد خُطّت على عجل. وبالفعل، لم تبدُ حتى هيروغليفية صحيحة، فالرموز غير مرتبة* ومتداخلة، وأكثر شبهاً بالنص العربي من نقوش مصرية تقليدية. مالت فريا إلى الأمام، وراحت تقرأ الملحوظة التوضيحية المكتوبة على الجدار خلف الخزانة:

بردي إمتي-خنتيكا. من قبر إمتي-خنتيكا، رجل العين الأعظم لإيونو/هليوبوليس،

السلالة السادسة، عهد بيبي الثاني (2246-2152 قبل الميلاد).

قال فلين وهو يومئ إلى الورقة: "بالرغم من المظاهر، إلا أنها تُعدُّ أهم بـــردي في الغرفة. باستثناء لائحة الملك في تورين ونصوص أوكسيرينكوس، هـــي علـــى الأرجح أهم بردي مصرية على الإطلاق".

وضع يده على سطح الخزانة الزجاجي، وكان هناك شيء تبجيلي تقريبـــاً في الطريقة التي حدّق بها إلى محتوياتها.

تابع وهو يمرّر يده بهدوء إلى الأمام والخلف على الزجاج؛ كأنـــه يـــداعب حيواناً نادراً: "اكتُشفت قبل أربعين سنة من قبل شخص يدعى حسن فدوي، أحد أعظم علماء الآثار الذين أنجبتهم مصر على الإطلاق و...".

كان على وشك أن يقول: *صديق قديم لي*، أو هذا ما بدا لفريا، لكنه سكت قليلاً وقال: "زميل قديم".

ثمّ تابع حديثه: "إنها قصة استثنائية، هناك مع كارتر وتوت عـــنخ آمـــون. لم يكن فدوي يتجاوز العشرين من عمره في ذلك الوقت، وقد تخرّج من الجامعة قبل وقت قصير من ذلك. كان يقوم ببعض أعمال التنقيب الروتينية في نيكروبـــوليس سيرز – مدينة الموتى، ومقبرة كهنة إيونو الأسمى شأناً – وعثر على قـــبر إمـــيّ-حنتيكا مصادفة. لم تكن أقفال الباب مكسورة، ما يعني أن المقبرة لم تُمسّ، وبقيت على حالها تماماً منذ يوم إغلاقها قبل أربعة آلاف سنة. لا يمكنني ببساطة أن أبـــالغ في مدى أهمية ذلك الاكتشاف، فهي إحدى خمس مقابر سليمة اكتُشـــفت مـــن المملكة القديمة، وتسبق توت عنخ آمون بألفية تقريباً".

بالرغم من أن البردي كان مألوفاً له، ويعرف قصته جيداً، إلا أنه بدا ذاهلاً، مثل تلميذ يشعر بالإثارة. كانت حماسته معديةً، فجذب فريا إلى القصـــة، وقـــد نسيت آنذاك كل مخاوفها؛ كأنهما جزء من حقيقة مختلفة.

سألت وهي تنظر إليه نظرة توقع: "وماذا كان فيه؟ ماذا وجدوا؟".

توقف عن الكلام؛ كأنه على وشك الكشف عن سر مدهش، ثم ردّ وعينـــاه تلمعان إثارة: "لا شيء".

"لا شيء؟".

"عندما دخل فدوي عبر البوابة وجد القبر خاوياً. لا زخرفة، لا أغـــراض، لا نقوش، لا مومياء. لا شيء باستثناء صندوق خشبـــي صغير، وداخله...".

نقر بمفصلٍ على إطار الخزانة الخشبـــي.

"سبّب ذلك إحراجاً كبيراً. كانت كل وسائل الإعلام العالمية هناك من أجلِ الافتتاح، والرئيس ناصر؛ شعر فدوي بارتباك كبير. حتى قرأ في الواقع ما كُتب على ورقة البردي، وأدرك وقتها أن القبر أكثر أهمية مما إذا كان مملوءاً كنـــزاً مـــن الذهب".

جعل شيء بالطريقة التي قال فلين بها ذلك قشعريرة تسري على عمود فريـــا الفقري. غريبٌ - كما فكرت - *أن أجد نفسي مهتمة جداً بمحاضـــرة تاريخيـــة بالرغم من كل ما يحدث.*

حثّته قائلةً: "تابع".

"حسناً، إنها وثيقة معقدة جداً، وبدا واضحاً أنها كُتبت على عجل. إنها باللغة الهيرية؛ وهي نوع من اختزال الهيروغليفية. لا يزال الجدال قائماً بشـــأن الطريقـــة الصحيحة لتفسير أجزاء منها، لكن في الجوهر تعدُّ وثيقة عن حياة إمتي-خنتيكـــا وزمانه - سيرته الذاتية إن أحببت - وشرحاً أيضاً لسبب عدم دفن جثته في القـــبر الذي أعدّه لنفسه. لن أزعجك بترجمتها مـــن البدايـــة إلى النهايـــة؛ لأن الجـــزء الأول...".

أشار بيده إلى اليسار.

"غير ذي صلة بالموضوع، ويسرد معلومات كثيرة عن ألقاب إمتي المتنوعـــة، وواجباته بصفته رجل دين أعظم، وكلها نصوص عادية. ومن هنا فصاعداً...".

مسَّ أعلى الخزانة حيث يقف مشيراً إلى منتصف البردي تقريباً.

"يثير الأمر الاهتمام. فجأة، يستهل إمتي وصفاً طويلاً ومملاً للوضع السياسي القائم آنذاك؛ الوثيقة التفصيلية الوحيدة لدينا عن السنوات الأخيرة مـــن المملكـــة القديمة وانهيارها إلى فوضى عارمة في العصر الوسيط الأول".

لم تكن لدى فريا فكرة عمّا يعنيه. وكما حدث سابقاً تركته يسترســـل، لا تريد أن تقاطعه.

تابع فلين: "الأمر بالغ التعقيد، وسأوجز صياغته، لكن إمتي يشـــرح أساســـاً كيف أن مصر تتفكك. الفرعون بيبـــي الثاني عجوز ومعتوه - بقي يعتلي العرش ثلاثاً وتسعين سنة بحلول ذلك الوقت، وهي أطول مـــدة حُكـــمٍ لأي عاهـــل في

تاريخ - والسلطة المركزية تنهار. انتشرت المجاعة، ونشبت حرب أهلية، وحصل غزو خارجي، وأيضاً غياب سلطة القانون. بكلمات إمتي: سيطر ست السيد الأحمر للصحارى والفوضى والنزاعات والشر على مات السيدة المبجلة للنظام".

كان قد بدأ يتحرك على طول الخزانة متابعاً القصة كما تكشفها وثيقة البردي.

"وفقاً لإمتي، ولمواجهة هذا الانهيار العام، اجتمعت الشخصيات القيادية في الأرض في لقاء سري واتخذوا قراراً مهماً جداً: من أجل سلامته، ومنع وقوعه في *أيدي ما أشار إليهم بأنهم فاعلو الشر*، يجب نقل حجر بنبن من معبد إيونو وإعادته، بإشراف إمتي، عبر الصحراء إلى...".

توقف، انحنى كثيراً فوق الخزانة وبدأ يقرأ، وقد أصبح صوته أعمق ورناناً؛ كأن صداه يتردد من زمن موغل في القدم: "... *ست إتيو-إن، ويت سيشتات، بت-دجسرت ميهت وادجت إر-إمنت إر-دجرو تا إم-خت سيخت-شا إم* نب-*أا إن*-ستكه: مكان أسلافنا، الواحة الخفية، الوادي المبجل الخصب والأخضر، في أقصى الغرب، عند نهاية العالم، خلف حقول الرمال، في جدار ست العظيم".

نظر إليها، ووجهه متورد قليلاً.

"استثنائي، ألا تظنين ذلك؟ كما قلت، يعدُّ هذا حتى الآن أوضح وصف لدينا وأكثرها تفصيلاً للواحة".

"هل هو بذلك الوضوح؟".

"مثل الكريستال بالمعايير المصرية القديمة. تشير حقول الرمال إلى بحر الرمال الكبير، جدار ست إلى الزاوية الشرقية من الجلف الكبير. ست، كما ذكرت، السيد المبجل القديم للصحراء. إن اختزال رموز بريدية حقيقية لا يمكن أن يكون أكثر دقة من هذا. وهذا ليس كل شيء".

بدأ يتحرك على طول الخزانة مجدداً.

تابع: "يمضي إمتي ليصف الرحلة نفسها؛ وجهة نظر مثيرة للاهتمام حقاً؛ لأنه كتب الوثيقة قبل أن ينطلق في الواقع، وهذا يسجل أحداثاً ستقع. مجدداً، لن أنقلها كلمة بكلمة، لكن القسم الأخير مفيد".

ذهب إلى نهاية البردي تماماً، توقف وقرأ بصوتٍ عميق ورنان مرة أخرى: "وهكذا وصلنا إلى نهاية العالم، إلى الجدار الغربي، وعين خبري مفتوحة. عبرنا فم أوزيريس، دخلنا *إنيت بنبن*، أصبحنا في هوت *آت*، المعبد العظيم. هذا موطنك، آه! حجر النار، من حيث جئت في بداية كل شيء، وإليه تعود الآن. هذه هي النهاية. البوابات مغلقة، تعاويذ الإخفاء أُلقيت، اللعنتان وضعتا، ليُسحق فاعلو الشر بين فكّي سوبك ويبتلعهم بطن الأفعى أبيب! أنا، إمبي-خنتيكا، رجل الدين الأعظم، لن أعود من هذا المكان؛ لأن إرادة الأسياد المبجلة أن يبقى القبر خاوياً إلى الأبد. آمل أن أسير على الطرق الجميلة، وأعبر القبة السماوية، وآكل بجانب أوزيريس كل يوم. المجد لرع-أتوم!".

توقف وشدَّ قامته، بينما انتظرت فريا المزيد، لكنه لم يقل شيئاً.

"هذا كل شيء؟".

لم يكن بمقدورها إخفاء خيبة أملها. بالمحصلة بعد كل ذلك الشرح، كانت تتوقع بعض التوضيح على الأقل، إن لم يكن تفسيراً شاملاً، أو دلالة ما على ما يجري ولماذا يحدث. بدلاً من ذلك، بدا كل شيء أكثر تشويشاً وتعقيداً مما كان عليه حين بدأ فلين شرحه: عين خبري، فم لا تعرف من، لعنات وأفاعٍ... لم يعنِ ذلك شيئاً لها، على الإطلاق. شعرت وكأنها اقتيدت عبر متاهة معقدة لتعود مجدداً إلى حيث بدأت بالتحديد، من دون أن تقترب أبداً من المركز.

كرّرت قولها: "هذا ما لديك؟ ذلك كل شيء؟".

هزَّ فلين كتفيه معتذراً وقال: "كما قلت، ليست لدينا معلومات كثيرة. تعرفين الآن قدر ما أعرف".

سمعا صخباً مفاجئاً حين دخلت مجموعة من السيّاح الغرفة، تقودهم امرأة تحمل مظلة مغلقة. ساروا أمامهما وخرجوا مباشرة من الباب على الطرف الآخر من دون إلقاء نظرة على محتويات الغرفة. حدّقت فريا إلى البردي، ثم مدّت يدها، وأخذت الصورة من يد فلين.

"إذا كان العثور على هذه الواحة مستحيلاً...".

أنهى فلين الجملة لها: "فكيف كان رودي شميدت هناك؟ ذلك هو سؤال المليون دولار، أليس كذلك؟ الأمر المحيّر في قصة زرزورة - *ويت سيشتات* - أنه

بالرغم من أن الواحة خفية..."، رفع يديه وثنى أطراف أنامله ليشير إلى علامتي اقتباس، ثمّ تابع: "يبدو أن الناس يعثرون عليها بالرغم من ذلك مصادفة. رودي شميدت أحد هؤلاء، والذي قدم معلوماتٍ استند إليها الوصف في **كتاب الكنوز** شخص آخر؛ بدوي على الأرجح: سرت شائعات منذ وقت طويل أن قبائل صحراوية معينة تعرف موقعها، لكنني شخصياً لم أستطع قطّ التوثق من ذلك".

سألت فريا: "إذاً، كيف؟ كيف يعثرون عليها؟".

رفع فلين يديه وقال: "الله وحده يعلم. الصحراء الكبرى مكان غامض، وتحدث فيها أشياء غامضة. يمضي مغفلون مثلي حياتهم كلها يبحثون عن الواحة، في حين يعثر عيها شخص آخر مصادفة. ليس هناك منطق في هذا الشيء. صدّقي أو لا تصدّقي، كان التفسير الأكثر إقناعاً الذي سمعته على الإطلاق من وسيطة روحانية؛ امرأة غريبة جداً عاشت في خيمة في أسوان، ادّعت أنها تتقمص زوجة بيبي الثاني الملكة نيث. أخبرتني أن الواحة محمية بتعاويذ إخفاء، وأنه كلما أمعن الشخص النظر فيها، أصبح العثور عليها أصعب، وأن أولئك الذين لا يبحثون عنها، هم فقط الذين يكتشفون مكانها. دفعتُ خمسين جنيهاً من أجل جوهرة الحكمة تلك".

همهم مكتئباً ونظر إلى ساعته وقال: "تعالي، يجب أن نعود".

ألقيا نظرة أخيرة على ورقة البردي، وعادا أدراجهما عبر المتحف. صدح جرس في مكان ما مشيراً إلى وقت الإغلاق.

سألت فريا وهما ينـزلان السلالم إلى الطابق الأرضي: "هل كانت ألكس تعرف عن كل هذا؟ الواحة، حجر بنبن؟".

أومأ فلين قائلاً: "أمضينا وقتاً طويلاً معاً في الجلف الكبير، وكنت أجعلها تشعر بالملل من ذلك حول نار المخيم. لأكون منصفاً، كانت تعطي بقدر ما تأخذ. إذا لم أسمع شيئاً آخر عن رواسب البحيرات، فلن أشعر بخيبة أمل كبيرة".

وصلا أسفل السلالم، وعَبرَا قاعتي عرض المملكة القديمة. تقدمت حشود من الزائرين نحو المدخل الرئيس، يسير إلى جانبهم حرّاس يرتدون زياً موحداً.

سألت فريا: "ما مدى أهمية الواحة؟ أعني، هل هي... تعرف...؟".

ابتسم فلين وقال: "مملوءة بجوهرات وكنوزاً؟ أشك في ذلك كثيراً. ورد في **كتاب الكنوز** أن من يعثر عليها، فسيكتشف ثروات عظيمة، لكن ذلك غلو بكل

تأكيد. بعض الأشجار وكثير من الآثار القديمة، ذلك كل ما سيكون هناك. أكاديمياً، الواحة ذات أهمية بالغة، لكن للناس الذين يعيشون في العالم الحقيقي...".

هزَّ كتفيه.

"... ليست مهمة على الإطلاق".

سألت: "حجر بنبن؟".

"مجدداً، لمثقفين مثلي سيكون اكتشافاً مدهشاً. أحد الرموز الطوطمية لمصر القديمة؛ شيء رائع تماماً. على أيّ حال، في نهاية الأمر، إنه مجرد قطعة حجرية، وإن يكن فريداً في نوعه. إنه ليس مصنوعاً من ذهب خالص أو شيئاً من هذا القبيل. توجد هناك مصنوعات أثمن كثيراً من وجهة نظر تجارية".

كانا قد سارا تحت القبة العالية، وعادا إلى صالة العرض التي توجد فيها توابيت حجرية ضخمة. توقفت فريا رافعةً صورة البوابة الغامضة، ثمّ طرحت السؤال الذي كان يجول في ذهنها منذ وقع بصرها عليها أول مرة.

فقالت: "إذاً، لماذا سيقتل أحدهم شقيقيَ من أجل هذا؟".

نظر فلين إليها، ثم أشاح ببصره بعيداً.

انقضت لحظة قبل أن يقول: "لا أعرف. آسف يا فريا، لكنني لا أعرف فحسب".

دخلا القسم الإداري في المتحف مجدداً، وصعدا السلالم اللولبية إلى قسم التصوير. كان باب الغرفة المظلمة لا يزال مغلقاً.

صرخ فلين وهو يقرع الباب: "كيف تسير الأمور يا مجدي؟".

لم يتلقَّ رداً، فقرع مجدداً بقوة أكبر.

"مجدي؟ هل أنت في الداخل؟".

لم يجب. قرع الباب مرة أخيرة، ثم أمسك المقبض وفتح الباب. توقف لحظة حتى تلاءمت عيناه مع العتمة، ثم صرخ: "آه! يا للهول! آه! لا!".

كانت فريا خلف فلين وقد حجب عنها الرؤية بطوله الفارع. تقدمت إلى الأمام، ونظرت حوله. ارتفعت يدها إلى فمها حين أدركت ما ينظر إليه، وخرج صوت مروّع من داخل حنجرتها. كان مجدي مكوراً على أرضية الغرفة المظلمة. وعيناه مفتوحتين، وعنقه مذبوحاً من الأذن إلى الأذن. شاهدت دماً في كل مكان.

مستنقعاً أسود لزجاً منه؛ على وجه المصري، قميصه، يديه، بركة حول رأسه مثل هالة.

تأوه فلين وراح يضرب بقبضته على إطار الباب: "آه يا مجدي! واصديقاه! ماذا فعلت؟".

"سلام".

استدار فلين وفريا بسرعة. كان التوأم يجلسان على الأريكة في الطرف البعيد من الغرفة، وأحدهما يحمل شريط فيلم محمّض، والآخر سكيناً ملطخة بالدم. كان وجهاهما خاليَين من أي تعبير؛ كأن المشهد في الغرفة المظلمة لا يفزعهما أكثر من رؤية شخص يرتشف الشاي أو يلعب كرة الطاولة. سمعا وقع خطواتٍ مكتوماً ثم ظهر أربعة رجال آخرين في أعلى السلالم اللولبية، يسدون أي منفذ للهرب. كانت عين أحدهم محاطة بهالة زرقاء مائلة إلى السواد وأنفه وشفته متورّمين على نحو غريب؛ الرجل الذي لكمه فلين بقوة في مصعد الجامعة الأمريكية. صرخ شيئاً للتوأم وأومأ إليهما. تقدم إلى الأمام، اقترب من فلين وهو ينظر إليه شزراً، ثم ضرب بيديه الضخمتين كتفي الإنكليزي ودفع ركبته بقسوة في منفرج ساقيه.

دمدم حين سقط فلين إلى الأرض وهو يلهث ألماً: *"تعالَ...، يا ابن الوسخة"*.

بقيت فريا ذاهلة لحظة لا تعرف كيف تتصرف، ثم شدّت قبضتها ووجّهتها إلى الرجل. لكنّها لم تستطع لكمه، لأن ذراعها أُمسكت من الخلف، وشُدّت إلى وراء ظهرها، ثم انتُزعت الصورة من يدها. كافحت وركلت وأطلقت الشتائم، لكنهم كانوا أقوياء جداً، وعندما وضعوا فوهة مسدس على صدغها عرفت ألاّ جدوى من محاولة المقاومة واستسلمت. رُفع فلين وأُوقفَ على قدميه وفُتّش وهو لا يزال يتأوه ألماً، ثم أُخرج هاتفه المحمول من جيبه وسُحق تحت أقدامهم. دُفع وفريا نحو السلالم، وتبعهم التوأم، والذي يحمل السكين منهما أخذ يمسح النصل بمنديل في أثناء ذلك. خلال نزولهم السلالم أمالت فريا عنقها ناظرةً إلى الخلف أولاً إلى جثة مجدي الغارقة في الدماء، ومن ثمّ إلى فلين.

قالت بصوت أجش مملوء ذهولاً، ووجهها تملأه تعابير الكآبة: "آسفة. ما كان يجب أن أجعلك تتورط أبداً. ما كان يجب أن أورطكما".

هزّ فلين رأسه.

همس وهو بالكاد يستطيع نطق الكلمات بسبب الألم الذي يشعر بـه: "*أنا* آسف. ما كان يجب أن أجعلك *أنتِ* تتورطين".

قبل أن تتمكن من سؤاله عمّا يعنيه، دمدم أحد الأشرار شيئاً ودفع المسدس بقوة أكبر في عنقها، مرغماً إياها على النظر إلى الأمام مجدداً. بعد ذلك، لم يعد مسموعاً إلاّ وقع خطواتهم على السلالم المعدنية وأنفاس فلين المتألمة.

خارج متحف الآثار المصرية، جلس سي أنغلتون على قاعدة حجرية في زاوية حديقة التماثيل، يراقب إخراج فلين وفريا من باب جانبي. بالرغم من أن برودي كان يعرج على نحو سيئ، والرجال حولهما يقتربون منهما أكثر مما هو ضروري، إلا أنه لم يلحظ شيئاً غريباً في المجموعة التي كانا جزءاً منها، ولم يلقِ أحد - من السيّاح الذين يحتشدون في الحديقة أو رجال الشرطة الموجودين على مسافات فاصلة في محيطها ويرتدون بذلات بيضاء - نظرة ثانية عليهم.

حدّق أنغلتون وحده إليهم، وراح ينظر بإمعان حين تجاوزا الحدائق وخرجوا من بوابة المتحف الرئيسة. تلكأ لحظة، ثم تبعهم ولحق بهم حين استداروا يميناً على طول الطريق المخصص للمشاة أمام المتحف، مبتعدين عن ميدان التحرير. انطلقت أبواق سيارات الأجرة وأصوات بائعي الحليّ الصغيرة حوله، الذين يعرضون بطاقات بريدية، ومنحوتات، وبالتأكيد، *رحلة خاصة لا يستطيع أحد آخر تنظيمها إلى الأهرامات ومصنع البردي*. لوّح أنغلتون لهم أن يبتعدوا عنه، ولحق بالمجموعة متجاوزين فندق هيلتون وصولاً إلى كورنيش النيل حيث شاهد سيارتين - بي أم دبليو سوداء وهيونداي فضية - تنتظرانهم، ومحركاهما يعملان. صعد التوأم البي أم دبليو، في حين دُفع الغربيان إلى الهيونداي وأُغلق الباب بعنف خلفهما. عندما فعلوا ذلك، نظر برودي مصادفة إلى الأعلى، وشاهد لحظة عينا أنغلتون قبل أن تنطلق السيارتان في حركة مرور المساء.

"هل تريد آثاراً يا سيدي؟".

كان فتى يافع، لا يزيد عمره على ست سنوات أو سبع، قد وقف بجانب الأمريكي، يعرض منحوتة قطعة غير متقنة ويبدو واضحاً أنها معاصرة.

قال الفتى: "مقابل عشرين جنيهاً مصرياً. قديمة جداً. هل تريد؟".

لم يقل أنغلتون شيئاً، إذ كان نظره ثابتاً على السيارتين اللتين تبتعدان على الكورنيش.

"عشرة جنيهات مصرية. منحوتة جيدة جداً. هل تريد يا سيدي؟".

تمتم أنغلتون: "ما أريده هو بعض الأجوبة اللعينة".

ظلّ نظره يلاحق السيارتين حتى ابتعدتا عن مرمى البصر، ثم مدَّ يده إلى جيبه، أخرج بضع أوراق نقدية دفع بها إلى الفتى قبل أن يستدير ويمشي متثاقلاً عائداً في اتجاه المتحف.

"هل تريد الذهاب إلى الأهرام يا سيدي؟ هل تريد الذهاب إلى متجر عطور؟ عطر مصري حقيقي. رخيص جداً، ومناسب جداً لزوجتك".

لوّح أنغلتون بيده من فوق كتفه وتابع المشي.

على أرض السفارة الأمريكية، ذرعت مولي كيرنان المكان ذهاباً وإياباً بعصبية، وبطاقة هويتها تخفق في سلسلتها الموضوعة حول عنقها، وكانت عيناها تتنقلان بين هاتفها الخلوي وبوابة السفارة الشمالية. كان على كل الموظفين والزائرين أن يمرّوا من هناك، وباب ردهة البوابة الأمنية يفتح أحياناً ويظهر شخص منه، وكلما حدث ذلك تتوقف كيرنان وتحدّق، فقط لتهزَّ رأسها وتتابع مشيها، تربت على هاتفها فوق فخذها كأنها تحاول إرغامه على الرنين. رنّ مرتين، وأجابت كيرنان قبل أن تنتهي الرنّة الأولى. لم تكن المكالمتان ما تتمناه، وأنهتهما بسرعة وبلطف لكن بحزم.

همست: "هيا. ماذا يحدث؟ أين أنت؟ هيا!".

القاهرة - الزمالك

"وكيف ستخرجها من البلاد يا سيد جرجس؟".

"أظن أن ذلك ما تدعوه سراً تجارياً يا سيد كولومبيه. كل ما تحتاج إلى معرفته هو أن التمثالين سيصلان إلى بيروت في الوقت والتاريخ المتفق عليهما، ومقابل المبلغ المتفق عليه".

"وهما من السلالة الثامنة عشرة؟ يمكنك تأكيد ذلك تماماً؟".

"أسلّم ما أعد بتسليمه. لقد قيل لك إن التمثالين من السلالة الثامنة عشرة. وهذا بالتحديد ما هما عليه. لا أتعامل بالقطع المزيفة أو المستنسخة".

"مع ختم أخناتون".

"مع ختم أخناتون، وختم نفرتيتي، وكل شيء آخر وصفه لك خبيري. لسوء الحظ، السيد عثمان مشغول بعمل آخر هذا المساء ولا يستطيع الانضمام إلينا، لكن اطمئن، لأن التمثالين سيرتقيان إلى مستوى توقعاتك، إن لم يتجاوزاها".

أطلق السيد كولومبيه - فرنسي هزيل الجسم أنيق، شعره أسود على نحو غير طبيعي - ضحكة خافتة راضياً بما سمعه.

"سنجني مالاً وفيراً هنا يا سيد جرجس. مالاً وفيراً".

فتح جرجس يديه وقال: "ذلك هو السبب الوحيد لقيامي بالعمل. إذا كان لي أن أنصح، فإن عجينة لحم الكركند شهية جداً".

حدّق الفرنسي إلى لائحة الطعام، في حين احتسى جرجس الماء من كأسه ونظر عبر الطاولة إلى زميليه. نظر بطرس صلاح - رجل ضخم البنية، شاربه خشن ولفافة تبغ تتدلى من زاوية فمه - ومحمد قصري - طويل القامة، ملتحٍ، أنفه معقوف - إليه وأومأ الثلاثة قليلاً ليشيروا إلى أن الصفقة تمت.

كان العشاء إلهاءً غير مرحّب به من قبل جرجس، لكن كولومبيه قد طار إلى القاهرة من أجل ذلك، ومع انتظار زبائنه تسليم التمثالين المسروقين لم يكن بمقدوره تأجيل اللقاء. لم يكن المبلغ المقصود - مليونا دولار - ضخماً أو مهماً عند مقارنته بقضية زرزورة، لكن العمل عمل، وهكذا مضى الاجتماع قدماً. عمل الأربعة على تفاصيل الصفقة في حين حرّك جرجس قدمه تحت الطاولة بنفاد صبر، منتظراً أنباء ما حواه فيلم آلة التصوير، وإن كان سيقودهم إلى الواحة. كان قد تمنّى الحصول على نتيجة في وقت أبكر من ذلك - كان رجاله ينظرون إلى الصور السلبية منذ ساعة آنذاك - لكنه حاول الاحتفاظ بهدوئه. على الأقل لديهم الصور السلبية وبرودي والفتاة أيضاً، وهي خطوة في الاتجاه الصحيح. تناول رشفة أخرى من الماء، ثمّ توثق من هاتفه الخلوي، وبدأ يقرأ لائحة الطعام محاولاً إبعاد

ذهنه عن تلك الأمور. عندما فعل ذلك اقترب نادل وانحنى مقترباً منه، ثمّ همس في أذنه، فأومأ جرجس ودفع كرسيه إلى الخلف، ووقف.

"أرجو أن تعذرني يا سيد كولومبيه، لكن شيئاً غير متوقع قد حدث ويجب أن أذهب إلى مكان آخر. سيجيب زميلاي عن أي أسئلة أخرى قد تطرحها، وسيرتّبان لك إذا أردت تسلية حين تنتهي الوجبة. لقد كان العمل معك من دواعي سروري".

صافح الفرنسي الذي بدا مرتبكاً قليلاً من مغادرة مضيفه المفاجئة، ومن دون أي كلام آخر، استدار وغادر المطعم. كانت الليموزين تنتظر في الخارج، فتح السائق الباب الخلفي، وتحرك رجل ممتلئ الجسم، فوضوي المظهر، شعره أشيب، يضع نظارة بلاستيكية سميكة العدستين على المقعد الخلفي ليفسح مجالاً لجرجس: أحمد عثمان، خبير العاديات؛ خبيرٌ في الآثار.

سأل جرجس حين أُغلق الباب: "إذاً؟".

نقر عثمان أطراف أنامله معاً. كان هناك شيء مريب في تصرفه.

"لا شيء كما أخشى يا سيد جرجس. فسد نصف الفيلم، والنصف الآخر...".

سلّمه مجموعة من الصور.

"عديمة الفائدة، عديمة الفائدة تماماً. انظر، كل الصور من داخل الواحة؛ لا شيء يساعدنا على تحديد موقعها. إنها مثل محاولة العثور على منزل في وسط مدينة وليس لديك إلا صورة للحمّام. عديمة الفائدة تماماً".

قلّب جرجس الصور، وفمه متكوّر وكأنه يكشر ويبتسم في الوقت نفسه.

"هل يعقل أنه فاتك شيء؟".

هزّ عثمان كتفيه، ونقر أطراف أنامله معاً مجدداً، ثمّ قال: "لقد تفحّصتها بحرص شديد، لهذا سأقول: لا. ثم مجدداً...". أطلق ضحكة عصبية وتابع قائلاً: "لست مرجعاً عالمياً في الموضوع".

"برودي؟".

"الأستاذ برودي هو المرجع العالمي".

قال جرجس وهو يعيد الصور إليه: "إذاً، أظن أن الوقت قد حان لنذهب ونجري نقاشاً معه". رفع سمّاعة هاتف الليموزين الداخلية، وأصدر أوامر للسائق.

قال عثمان حين بدأا يتحركان: "لا أظن حقاً أنه سيساعدنا، حتى إذا استطاع تحديد شيء ما. مما قد سمعته أنه...".

ضحكة عصبية أخرى.

"... شخص عنيدٌ جداً".

عدّل جرجس طرفي ردني قميصه، ونفض شيئاً عن سترته.

"صدّقني، عندما تنتهي منشية ناصر من الأستاذ برودي، فلن يكون هناك شيء لن يفعله من أجلنا. سيلتمس أن يساعدنا؛ سيتوسّل".

القاهرة - منشية ناصر

تمتمت فريا وهي تحصر الصرصار تحت طرف نعلها: "أمسكت بك". خرج من هيكله الخارجي مادة لزجة، وسمعت صوت سحق حين داست عليه ببطء على الأرض، فلطخ الأرضية المغبرة وانضمت أحشاؤه البنية المصفرّة إلى مثيلاتها من الصراصير الأخرى التي قضت عليها في الساعة الأخيرة.

سأل فلين: "هل أنت بخير؟".

هزّت كتفيها.

"ليس تماماً. كيف...؟". أومأت نحو منفرج ساقيه.

"سأعيش، لكنني لا أظن أنني سأتمكن من ركوب الدراجة الهوائية لبعض الوقت".

ابتسمت ابتسامة باهتة وقالت: "ماذا تظن أنهم سيفعلون بنا؟".

هزّ فلين كتفيه وقال: "مما هو واضح حتى الآن، سيقومون بأشياء غير سارة. إنهم يعرفون ذلك أفضل مني".

أومأ إلى الرجال الثلاثة الجالسين بصمت قبالتهم واضعين رشاشاتهم في أحضانهم.

صرخ عليهم: "مرحباً يا شباب، ماذا خططتم؟".

لم يرد أحد.

قال وهو يحني ظهره إلى الأمام ويفرك صدغيه: "أظن أنها ستكون مفاجأة".

كانا في الطابق العلوي لما بدا أنه بناء مكتمل جزئياً: مساحة كبيرة ظليلة ينيرها مصباح نيون طويل واحد موجود على الأرضية بجانب الحرّاس. بالرغم من أن الأرضية، والسقف، والسلالم، والأعمدة كانت كلها موجودة - إسمنت فقط، مع قضبان تسليح حديدية صدئة تبرز هنا وهناك مثل أغصان متحجّرة - لم يشاهدا إلا ثلاثة جدران فقط. كان الجانب الرابع من الغرفة مفتوحاً إلى الليل، ثغرة تطل على الأضواء المتلألئة للقاهرة مثل مدخل كهف يقع عالياً في جرف صخري. كان فلين وفريا في نهاية هذه المساحة، يجلسان على صندوقين مقلوبين رأساً على عقب. كانت الأرضية تنتهي فجأة خلفهما، وهناك منحدر شاهق يؤدّي إلى الشارع في الأسفل. كان آسروهما في وسط الغرفة، بجانب السلالم، وحتى من دون الجدار، كان الغريبان سجينين بكل المعاني.

كانت فريا قد سألت حين أحضروهما إلى ذلك المكان: "ما هذا المكان؟".

كان فلين قد أخبرها: "منشية ناصر، حيث يعيش الزبالون".

"زبالون؟".

"جامعو قمامة القاهرة".

"اختطفنا رجال قمامة؟".

قال فلين: "أظن أننا حبيسان هنا. من خبرتي، فإن الزبالين أشخاص محترمون، حتى إن لم يكونوا الأكثر حفاظاً على الصحة".

حدث ذلك منذ ساعة تقريباً، ولا يزالان ينتظران - ماذا بالتحديد؟ لم يكن أيٌّ منهما يعرف. كان الوقت نهاراً حين وصلا، لكن المساء حلَّ بسرعة. غرق كل شيء في الظلام آنذاك، وضوء المصباح الطويل العقيم لا يبدد الظلال الداكنة في زوايا الغرفة كما ينبغي. رفرف عث وحشرات أخرى حول مصباح النيون، وكان الهواء حاراً ومغبراً، ورائحة القمامة النتنة الكريهة القوية تعبق في كل شيء؛ تخترق كل شيء، وتغمر كل شيء.

تنهدت فريا، ونظرت إلى ساعتها: 6:11 مساء. وقف فلين واستدار دافعاً يديه في جيبيه، محدّقاً إلى الليل. كانا في الجهة الخلفية من المبنى الذي يقع على سفح شديد الانحدار، وتحته عدد كبير متداخل من السطوح التي تمتد بعيداً مثل انهيار جليدي، وكل شيء يبرز في فوضى عارمة من التراب والآجر والإسمنت وأكوام

القمامة. كان ما تبقّى من القاهرة يتوهج ضوءاً - سجادة متلألئة لامعة من اللونين الأبيض والبرتقالي تمتد بعيداً - لكن هذا الجزء منها حيث هما، كان غارقاً في الظلام. شاهد عدة نوافذ مضاءة بإنارة خافتة، مثل لطخات لون شاحب في عتمة حالكة، والشارع في الأسفل يتوهج بلون برتقالي في ضوء ستة مصابيح صوديوم. كان الظلام دامساً بخلاف ذلك؛ كأن المباني والأزقّة والشوارع الجانبية وأكوام القمامة مغمورة بحبر أسود. سمع صرخات بين الفينة والأخرى، وقعقعة قدور، وصرير آلة بعيدة، لكن، لم يكن هناك أشخاص، أو أحد يستطيع فلين رؤيته. جعله الحي يفكّر في الأشباح على نحو غريب؛ قرية من الأشباح تجثم على طرف مدينة من الأحياء.

جر قدميه إلى حافة الأرضية، ونظر فلين إلى الأسفل نحو الشارع البعيد. كانت شاحنة تصعد ببطء التلة إلى يساره، وهدير محركها الخافت يصاحبه رنين زجاج من حمولة القوارير التي تنقلها. مرّت أسفل المكان الذي يقف فيه مباشرة، وتحرّكت بتثاقل على المنحدر، لتختفي خلف زاوية حين التف الشارع على نفسه أمام المبنى. انقضت دقيقة، ثم ظهرت شاحنة أخرى، محمّلة بمتاهة من أسلاك كهربائية قديمة، تبعتها ليموزين سوداء صقيلة، تبدو شاذّة عن المألوف في تلك البيئة الخربة. راقبها فلين تدور في طريقها حول الزاوية وتخرج من مرمى البصر، ثم عاد إلى فريا.

قال: "يبدو أن لدينا صحبة". عندما تكلم صدح البوق في الخارج، ونهض الحرّاس على أقدامهم. تردد من أسفل السلالم صدى وقع خطوات خافت في البداية، لكنه ارتفع بثبات مع صعود الوافدين الجدد - بدا أن هناك أكثر من شخص - عبر المبنى نحوهم. غريزياً، أمسكت فريا يد فلين. استمر وقع الخطوات يقترب حتى ظهر أخيراً رجلان في الغرفة، كان أحدهما قصيراً وممتلئ الجسم، وفوضوي المظهر، وشعره أشيب، ويمسك بيده مغلفاً، أما الآخر فكان أكبر سناً وأكثر نحولاً، ويرتدي ملابس نظيفة، وكان شعره الرمادي مصفّفاً إلى الخلف فوق فروة رأسه، ووجهه حاد الملامح وجلده شاحباً، وشفتاه رقيقتين جداً حتى يخال المرء أنهما غير موجودتين تقريباً. بدا أنه المسؤول الأعلى شأناً: تحرك المصريون الآخرون باحترام جانباً لإفساح المجال له، والمصباح الطويل على الأرضية يغلّف

المجموعة بضوئه. أطبق الصمت والتوتر وقتاً قصيراً، ثم تمتم فلين بصوت خافت: "روماني جرجس".

تركت فريا يد فلين واستدارت نحوه: "تعرف هذا الرجل؟".

رد الإنكليزي محملقاً عبر الغرفة: "أعرفه تماماً. الجميع في القاهرة يعرفون روماني جرجس".

أطبق الصمت مجدّداً، ثم رفع فلين صوته قائلاً: "قطعة غائط غريبة أخرى يصعب تخيّلها".

لم يظهر على جرجس إن كان قد غضب من الإهانة، أو حتى فهم ما تعنيه. أشار إلى مرافقه الذي اجتاز الغرفة وسلّم فلين المغلّف.

قال الإنكليزي وهو يُخرج صوراً من المغلّف وبدأ يتصفّحها: "ليس من عادتك أن تقوم بأعمالك القذرة بنفسك يا جرجس. أين زينغو ورينغو؟".

استغرق الأمر من جرجس لحظة ليفهم الإشارة. عندما فعل ذلك، ابتسم، وظهر على وجهه تعبير باهت بغيض؛ كأنه زاحفٌ على وشك أن يقضم شيئاً.

قال بإنكليزية فصيحة وإن تكن بلهجة غريبة: "إنهما يزوران أمهما. ابنان بارّان جداً، ورقيقا القلب، أكثر مني، كما ستكتشفان قريباً".

بدأت ابتسامته تتسع لتتحول فقط إلى تكشيرة سخط حين زحف صرصار على الأرضية أمامه مباشرة. تراجع خطوة إلى الوراء وهو يتمتم. تقدم أحد تابعيه وداس على الحشرة، وسحقها على الإسمنت. بدا أن جرجس لم يستعد رباطة جأشه حتى توثق أنه قضى عليها تماماً. نفض ردنيه، وخاطب مجدداً فلين بنبرة باردة وحادة مثل مشرط. وقف المصريون الآخرون بصمت بجانبه، وجوههم قاسية، وظلالهم تبرز على السقف فوقهم.

قال جرجس وعيناه تلمعان حقداً: "ستنظر إلى الصور. ستنظر إليها، ثم ستخبرني أين التُقطت. ستخبرني أين التُقطت *بالتحديد*".

نظر فلين إلى الأسفل نحو الصور وقال: "حسناً، هذه تمبكتو، وهذه شانغهاي، وتبدو هذه مثل إلباسو، وهذه...".

رفع صورة.

"... اقتلني إن لم تكن عمتي إيثل في توريمولينوس".

حدّق جرجس إليه وهو يومئ؛ كأنه كان يتوقع مثل ذلك الجواب. سحب علبة مناديل مرطّبة من جيب سترته، أخرج منديلاً منها وفركه ببطء على يديه. بقي صامتاً لحظة، لا يُسمع إلا طقطقة خافتة حين يضرب العث مصباح النيون، ومن الخارج قرقعة عربة وأبواق سيارات بعيدة. رمى المنديل بعدئذ على الأرض، وتكلم المصري إلى زملائه. رفع أحد الحرّاس مصباح النيون ووضعه على كرسي، وتبّته نحو الزاوية البعيدة من الغرفة حيث توجد كومة من الأكياس البلاستيكية الضخمة مكدّسة من الأرضية إلى السقف، وبجانبها آلة تشبه مشظاة خشب ضخمة، لها فتحة في الأعلى وأزرار وعتلات متنوعة في جانبها. مشى جرجس إليها، والرجل ممتلئ الجسم يهرول إلى جانبه مثل كلب مطيع. دفع حارسان فلين وفريا إلى هناك أيضاً، يلكزانهما برشاشيهما. اختفى الحارس الثالث، الرجل الذي نقل المصباح، على السلالم إلى الأسفل يصرخ على شخص كان متواجداً هناك.

سأل جرجس حين أصبح فلين وفريا بجانبه وهو يربت على الآلة: "هل تعرفان ما هذه؟".

لم يردا، بل وقفا، وقد خلا وجهاهما من أيّ تعبير، غير هيابّين.

قال المصري مجيباً عن سؤاله: "تدعى آلة تشكيل أقراص بلاستيكية. قطعة شائعة من المعدّات في هذا الجزء من المدينة. عادة تكون في الطابق الأرضي، لكن هذه نُقلت إلى هنا من أجل... مناسبات خاصة".

همهم مسروراً مبتسماً ابتسامة الزاحف الباردة. "سأريكما كيف تعمل".

أشار إلى أحد رجاله، الذي أخرج مدية وفتحها. توتر فلين وتحرك ليقف أمام فريا مستعداً لحمايتها. بدا أن السكين ليست موجهة إليهما. بدلاً من ذلك، ذهب الرجل إلى كومة الأكياس وشقَّ بالنصل جانب أحد الأكياس. اندلقت كمية من قوارير بلاستيكية فارغة إلى الأرضية.

تابع جرجس حديثه وهو يُخرج منديلاً آخر من جيبه ويمسح به يديه مجدداً: "لا يتطلب الأمر مهارة كبيرة أو علماً، فالعمل عليها سهل جداً. أساساً، فإن أطفال الزبالين هم الذين يشغّلون في الواقع هذه الآلات في أغلب الأحيان، كما سيعرض عليكما مساعدي الصغير".

شعرا بحركة خلفهما وظهر الرجل الذي كان قد نـزل السلالم، يرافقه فـتى يافع، متسخ الوجه وهزيل، لا يزيد عمره على سبع سنواتٍ أو ثمانٍ، يداه مختفيتان داخل ردني جلابية واسعةٍ. همس جرجس له وتقدم الفتى إلى الآلة، مدَّ يده اليسرى وضغط زراً أحمر على شكل حبة فطر. سمعوا قعقعـة وامـتلأت الغرفـة هـديراً ميكانيكياً يصم الآذان.

صرخ جرجس رافعاً صوته ليُسمَعَ بالرغم من الضجيج: "لم يكن لدينا مثـل هذا الشيء حين كنت صغيراً، لكنه لم يصبح مهماً حقـاً إلا في العقـود القليلـة الماضية. هناك كثير من البلاستيك هذه الأيام. كما هي الحال دائماً، لقـد تـلاءم الزبالون مع أزمنة متغيرة".

كان الفتى قد تحرك إلى كومة القوارير، وجمع بيده اليسرى اثنتي عشرة قارورة منها وضعها في حاشية جلابيته. عاد إلى آلة تشكيل الأقراص البلاستيكية، وبـدأ يضع القوارير الواحدة بعد الأخرى في الفتحة أعلاها. سمعوا صوت هسيس وسحق وانهمرت رقائق بلاستيكية بحجم قطعة النقود إلى الأسفل، تطقطق على الأرضـية مثل بَرَد.

شرح جرجس وهو لا يزال يصرخ: "كما تشاهدان، تدخل القوارير الفتحـة وتمزّقها الشفرات في الداخل. تظهر مجدداً مادةً خاماً يمكن بيعها لتجّار البلاسـتيك في المدينة. الأمر بسيط وفاعل جداً".

كان الفتى قد وضع آنذاك كل القوارير في الآلة، وبإشارة من جرجس، ضغط الزر الأحمر مجدداً، فأوقف عمل الآلة.

كرّر المصري بصوت عالٍ على نحو غير ضروري في الصمت الذي أطبق آنـذاك على الغرفة: "بسيط وفاعل جداً، بالرغم من أنه لسوء الحظ ليس آمناً دائماً".

وكز الفتى الذي رفع ذراعه اليمنى وانـزلق ردن جلابيته إلى الخلف ليكشف عن جذر عظمي حيث كانت اليد، ونسيج الندبة يمتد إلى المرفق؛ كأن الذراع قد غُمست في طلاء زهري مزرقّ. فزعت فريا، وهزّ فلين رأسه. فكلاهما قد شـعرا بالشفقة على الصبـي، والاشمئزاز من اضطراره إلى عرض يده بتلك الطريقة.

قال جرجس وهو يبتسم ابتسامة عريضة: "يعلق الردناء في الشفرات، كمـا تريان. تشدُّ الآلة الذراعين إلى الداخل، فتمزّقهما وتبترهما. لا يستطيع الكـثيرون

الوصول إلى المستشفى في الوقت المناسب وينـــزفون حتى الموت. هذه نعمة بطرائق عديدة، فلا ينتظرهم مستقبل زاهر".

ترك ذلك يعلق في الأذهان لحظة، وهو لا يزال يفرك يديه بالمنديل، ثم استدار مواجهاً فريا.

قال لها: "فهمت أنكِ متسلقة جبال يا آنسة هانين".

حدّقت فريا إليه متسائلةً إلى أين سيؤدي حديثه.

تابع جرجس قائلاً: "أخشى أنني لا أعرف الكثير عن مثل تلـــك الأمـــور. الطلب ليس كبيراً عليها في مجال عملي. سأولي اهتماماً أكبر لاكتشـــاف المزيـــد عنها. مثلاً، هل سأكون محقاً حين أفكر في أنّ التسلق بيد واحدة فقـــط ســـيكون صعباً جداً؟".

تقدم فلين نصف خطوة إلى الأمام وقال: "اتركها خارج هذا الموضوع. مهما يكن الذي تريده، فدعها وشأنها".

أطلق جرجس صيحة استهجان وقال: "لكنها متورطة في هذا. إنها متورطة تمامـــاً في هذا. ولهذا السبب ستدخل ذراعها في الآلة إذا لم تخبرني أين التُقطت هذه الصور".

قال فلين بحدة رافعاً الصور وملوّحاً بها أمام جرجس: "باللّه عليك. إنها مجـــرد آثار. أشجار وآثار. كيف يُفترض بـــي أن أخبرك أين التُقطت؟ يمكن أن تكون في أي مكان. أي مكان!".

"حسناً، لنأمل وحسب، من أجل مصلحة الآنسة هانين، أن تستطيع تحديـــد ذلك المكان بدقّة. أمامك عشرون دقيقة لتنظر إلى الصور وتخرج ببعض المعلومات. بعد ذلك...".

ضرب بيده على زر تشغيل آلة تشكيل الأقراص البلاستيكيّة، فجعلها تعمـــل لحظة قبل أن يوقف عملها مجدداً.

كرّر حين تبدد صوت شفرات الطحن ببطء: "عشرون دقيقة. ســـأنتظر في الأسفل".

رمى المنديل جانباً، ومشى عائداً عبر الغرفة بصـــحبة مرافقـــه ذي المظهـــر الفوضوي، وابتعد عن شيء في الأرضية - خمّنت فريا أنه صرصار - قبل أن يبـــدأ نـــزول السلالم.

صرخت خلفه: "قتلت شقيقتي".

أبطأ واستدار لمواجهتها وقد ضاقت عيناه قليلاً؛ كأنه لم يكن متأكّداً تماماً من أنه سمعها جيداً.

كرّرت قائلةً: "قتلت شقيقتي، وسأقتلك".

ابتسم جرجس وقال: "حسناً، لنأمل وحسب أن يستطيع الأستاذ برودي إبلاغنا عن المكان الذي التُقطت فيه هذه الصور، وإلا ستقومين بالتسلّق بيد واحدة".

أومأ إليها واختفى على السلالم.

القاهرة - الباطنية

كانت الوالدة هي التي علّمت التوأم طريقة تحضير *تورلي* الضأن، وهي أشهى وجبة في القاهرة إن لم يكن في مصر كلها، برأي كل أولئك الذين حالفهم الحظ تذوقها. كان السر، كما أخبرتهما، في نقع الضأن في *الكركديه* - كلما طال الوقت أصبحت أشهى - يوماً كاملاً إن أمكن، ولم تكن العصارة الحمراء الكثيفة تساعد على جعل اللحم طرياً فقط، إنما تمنحه قليلاً من الحلاوة المشهّية التي تكمّل مكوّنات الطبق الأخرى وتحسّنها: البصل، الطماطم، البازيلاء، الفاصولياء.

اعتادت والدتهما أن تغني حين كانا صغيرين وهي تحـرّك اللحم في مرق الكركديه: "أولاً ننقع اللحم في مغطسه، ثم نجعله ينام في الفرن، ثم يذهب...".

"... إلى أفواهنا!". يكمل التوأم ذلك، وهما يصدران صوت مضغ ويربتان على بطنيهما، فتجأر والدتهما ضحكاً، وتشد ابنيها إلى حضنها، وتحتضنهما بذراعيها.

ستضحك بصوت خافت: "دبيًّ الصغيرين! وحشيًّ الصغيرين!".

الليلة، بسبب ما حدث من أجل جرجس - الطيران إلى الصحراء، والمطاردة في القاهرة - لم يتسنَّ لهما الوقت لنقع اللحم، ليس كما ينبغي، ولهذا غمساه فقط في *الكركديه* حين قطّعا الخضار وحضّراها قبل أن يمزجا كل شيء في قدر خزفيّة ويضعاها في الفرن لطهي المزيج.

يطبخان لوالدهما مرتين على الأقل أسبوعياً، وأكثر من ذلك إن استطاعا، في كوخها الضيق المؤلف من غرفتين، حيث ترعرعا، وسط متاهة كئيبة من الأزقّة التي تتشعب خلف جامع الأزهر. كانا قد حاولا إقناعها بالخروج من ذلك المكان، والمجيء والعيش معهما، أو على الأقل السماح لهما باستئجار شقة لها في منطقة أخرى أكثر راحة، لكنها كانت سعيدة في ذلك المكان، ولهذا بقيت فيه. منحاها مالاً، وقد جلبا لها أثاثاً جديداً؛ بالإضافة إلى سرير كبير جميل، وتلفاز كبير الشاشة، ومشغّل دي في دي. كان الجيران يعتنون بها، ولهذا كانت في أيدٍ أمينة. بالرغم من ذلك، شعرا بالقلق. كانت سنوات من الضرب من *الثعبان* - رفضا أن يناديا أباهما - قد جعلتها ضعيفة ومضطربة، وبالرغم من أن *الثعبان* قد اختفى منذ وقت طويل - بعد أن ضربه الاثنان ضرباً مبرحاً - إلا أن الضرر وقع. كانا يعرفان في أعماقهما أنه لم يتبقّ أمامها وقت طويل، وهو شيء لم يتكلم عنه أي منهما أو يقر به. كان الأمر مؤلماً جداً، *فأمهما كل شيء بالنسبة إليهما؛ كل شيء*.

انتهت *الترولي*، وأخرجاها من الفرن. امتلأت الغرفة برائحة اللحم المطهي الدسم الرائع، مع أثر رائحة خفيفة جداً من النعناع؛ أحد مكوّنات والدهما السرية الأخرى. حملاها إلى غرفة المعيشة ووضعاها على الأرضية. جلس الثلاثة أرضاً حول القدر الخزفية، يغرفون من محتوياتها إلى بطونهم، ووالدهم تطقطق بلسانها وتحدث جلبة؛ كانت تأكل بملعقتها، وفمها الأدرد العجوز يتغضن مثل برّاقة جافة.

ثرثرت قائلةً: "يا دبيَّ الصغيرين! أنتما تدللان *أمكما*! يجب أن تتركاني أقوم بالطهي في المرة القادمة".

ردّا: "المرة الآتية"، وهما ينظران إلى بعضهما ويغمزان مدركَين أنها تقول ذلك وحسب، وأنها تحب أن تُخدم وتُدلل. ولِمَ لا؟ كانت قد قدمت تضحيات كافية لهما بمرور السنين. كانت أفضل أم في العالم. *كل شيء بالنسبة إليهما، كل شيء*.

تحدثوا في أثناء تناولهم الطعام، أو على الأقل والدهم فعلت ذلك، وأبلغتهم بكل الأخبار والأقاويل المحلية: كيف رُزقت السيدة عزمي بحفيد آخر، واضطرار السيد فريد العجوز المسكين إلى إجراء جراحة لإزالة الخصية الثانية، وأن آل عتّان قد اشتروا فرناً منزلياً جديداً (ستّ عيون كهربائية، هل تصدّقان ذلك؟! ستّ عيون! وحصلوا على صينية طهي مجاناً معه!). لم تسأل عن عملهما ولم يخبراها.

وكل ما تعرفه أنه شيء يتعلّق بالعلاقات الاجتماعية. لم تكن هناك فائدة ترجى من جعلها تقلق. وعلى أيّ حال، لن يعملا لمصلحة جرجس وقتاً طويلاً. بمرور السنين، كانا قد ادّخرا أكثر مما هو كافٍ لتحقيق حلمهما: امتياز تقديم طعام داخل إستاد القاهرة الدولي، وبيع *الطعمية والفطير*، وطبعاً *تورلي* والدهما الأسطوري. لن يمضيَ وقت طويل قبل أن يفرّا وينجوَا بنفسهما. كان جرجس، كما يتفق كلاهما، بغيضاً جداً.

عندما انتهت *الترولي*، نقلا الأطباق إلى حوض الجلي وغسلاها، في حين استراحت أمهما على كرسي ذي ذراعين كانا قد أحضراه لها من مخزن أثاث مكتبي في الزمالك، وهي تفرك قدميها وتهمهم لنفسها.

سألت بدلال حين عادا لينضما إليها: "وهل أحضرتما لأمكما كنزاً صغيراً؟ شيئاً صغيراً للتحلية؟".

تنهّد كلاهما: "أمي، إنه ليس جيداً لك".

أنّت وتذمّرت وتوسّلت، وهي تتلوّى على الكرسي، وتموء مثل قطة جائعة؛ وبالرغم من رفضهما ذلك، إلا أنهما لم يرغبا في أن يحرماها من الحلوى، فهما يعرفان أنها إحدى ملذّاتها القليلة الأخيرة. وهكذا، بينما شغّل أحدهما جهاز الدي في دي، وضع الآخر كل المعدّات الضرورية على صينية، وهي: رباط ضاغط، ملعقة، ماء، قدّاحة، فتيل كحولي، عصير ليمون، كرات قطن. وبعد وضعها جميعاً، أخرج المحقنة والإبرة وكمية من الهيروين من جيبه، وخلط المزيج المفضّل لديها.

تمتمت حين أُفرغ المخدّر في ذراعها، وهي تميل رأسها إلى الخلف وتغمض عينيها: "دبيَّ الصغيرين! وحشيَّ الصغيرين!".

أمسكا يديها، وداعبا شعرها، وأخبراها أنهما يحبانها وسيكونان دائماً موجودين من أجلها. ثم عندما انتقلت إلى عالمها الخاص، جلسا على الأرضية وشغّلا الدي في دي، يصفقان بأيديهما بإثارة بالرغم من أنهما قد شاهدا ذلك خمسين مرة من قبل: انتصار الأهلي على الزمالك 4-3 في نهائي كأس مصر 2007؛ أعظم مباراة كرة قدم على الإطلاق.

"الأهلي، الأهلي،
أعظم فريق على الإطلاق،

نلعبها قصيرة، نلعبها طويلة،

الشياطين الحمر يمضون قُدُماً!".

غنيا بهدوء لنفسيهما، في حين تنهّدت أمهما خلفهما وضحكت بصوت خافت، ثم تمتمت قائلةً: "دبيٌّ الصغيرين، وحشيٌّ الصغيرين!".

القاهرة - منشية ناصر

قال فلين وهو يحدّق إلى الصور في يديه: "لقد حلمت في كل يوم من العقد الماضي برؤية صور مثل هذه. وعندما أراها الآن، لا يمكنني التفكير في شيء أرغب في النظر إليه أقل منها".

خلط الصور ببعضها، وشاهدها الواحدة بعد الأخرى، مرّة بعد مرّة.

تأوّه وأخذ يهزُّ رأسه يائساً، ثمّ قال: "ربما تكون في أي مكان؛ أي مكان لعين".

فركت فريا رقبتها المتشنّجة، وحدّقت إلى الخارج نحو المدينة عبر ثغرة الجدار الناقص في نهاية الغرفة. شعرت بهدوء غريب بالرغم من وشوك انقضاء العشرين دقيقة. خلفها، كان الحرّاس الثلاثة يلعبون الورق عند أعلى السلالم، يبدون غافلين عن وجودهما. إلى جانبها، أمعن فلين النظر إلى الصور، كما بقي يفعل منذ غادر جرجس، عيناه تحدّقان إليها ويداه ترتعشان.

كانت بعض الصور مشاهد عامة لوادٍ مملوء أشجاراً، سفوحه ترتفع نحو شقٍّ من سماء شاحبة في الأعلى؛ كأن شخصاً قد حزَّ بمشرطه عميقاً في الصخر. كانت أخرى أكثر تحديداً: عبارة عن مسلّة متطاولة ورمز سدجت منقوش على كل جوانبها الأربعة. طريق تحدّه تماثيل *أبو الهول*، وتمثال ضخم لشخص جالس بجسد إنسان ورأس صقر. كانت هناك أعمدة وأجزاء من جدران، وثلاث صور أخرى للبوابة التي رآها سابقاً، وكل شيء مغطّى بطبقة كثيفة من النباتات: ورود وأشجار وأغصان وأوراق؛ كأن الآجر الطيني والحجارة المنقوشة للتماثيل من صنع الإنسان قد بدأت بمرور الوقت تتحلل وتندمج في البيئة الطبيعية، وتعود إلى حالتها الأوّلية.

آجر طيني، حجارة منقوشة، أشجار، جدران صخرية... على أيّ حـــال، لا شيء يمنح أي إشارة إلى سياق أوسع عن موقع الواحة الحقيقي. وكاد وقتـــهما أن ينقضي آنذاك.

سيبترون *ذراعي*، كما فكّرت فريا، لا تستطيع أن تتخيل رعب ما يوشك أن يحدث لها. بدا الأمر وكأنها تنظر إلى المشهد من الخارج؛ كأن طرف إنسان آخـــر عنى وشك أن يتمزق إرباً. سيبترون *ذراعي ولن أتسلق أبداً مجدداً*.

شعرت برغبة في الضحك لسبب لا يمكن تفسيره.

ألقت نظرة على ساعتها - لم يبقَ إلا دقيقتان، على الأكثر - وتقـــدمت إلى حافة الأرضية الإسمنتية، ونظرت إلى الشارع في الأسفل. فكّرت في القفز، لكـــن مسار السقوط بدا طويلاً جداً؛ يبلغ ثلاثين متراً على الأقل، أو خمسةً وثلاثين متراً عنى الأرجح. سيقتلها ذلك، أو على الأقل سيشظّي ساقيها مثل الخشب. لم تكن هناك أي إمكانية للتسلق إلى الحرية؛ كانت قد جثت ونظرت مـــن فـــوق حافـــة لأرضية، محاولةً تقييم طريق النـــزول المحتمل، لكنها اكتشفت أن الأمر غير ممكن. وعلى أيّ حال، سيرى الحرّاس ما سيفعلانه قبل حتى أن يبـــدآ النــــزول. ذراعٌ مبتورة، ساقان محطمتان، رصاصة: لم تكن هناك خيارات مغرية.

سألت، وهي تنظر إلى فلين: "هل تظن أنه كان يهدد فقط؟ تعرف... آلـــة تشكيل الأقراص البلاستيكيّة... هل تظن أنهم فعلاً...؟".

نظر إليها، ثم عاود النظر إلى الصور، إذ لم يستطع النظر إلى عينيها. كان ذلك كل الجواب الذي تحتاج إليه. لم تبق إلا دقيقة واحدة آنذاك.

بعيداً إلى يمينها، سمعا هدير محرك وشاهدا ضوءَي مصباحين أمـــاميين حـــين تدورت شاحنة كبيرة ببطء حول زاوية في أعلى الشارع. اهتزّت الشاحنة، وارتجّت حين ضغط السائق على المكابح محاولاً إبقاءها تحت السيطرة. تساءلت إن كـــان عليها أن تصرخ، أو تصيح طالبة المساعدة، لكن، ما الفائدة؟ حتى إذا سمعها السائق وفهمها، فماذا سيفعل؟ أسيتصل بالشرطة؟ أو سيندفع علـــى الســـلالم وينقـــذهما بمفرده؟ كان أمراً ميؤوساً منه؛ لا أمل فيه.

لفّت ذراعيها حول نفسها متسائلةً عن الألم الذي ستشعر بـــه، وإن كـــان *سيؤلمها* أم أنها ستصاب بصدمة تفقدها الوعي.

سألت بصوتٍ عالٍ: "هل ستتمكن من إيصالي إلى المستشفى؟ هل هناك مستشفى قريب؟".

قال فلين وقد بدا صوته متوتراً، ووجهه يلمع عرقاً لا لون فيه: "بالله عليك!". وعلى نحو غريب، بدا مضطرباً أكثر منها.

استطاعت الشاحنة أن تدور حول الزاوية في أعلى التلة، وبدأت آنذاك تنزل ببطء نحوهما، مكابحها تئز وتزعق. كان مكدّساً على سطحها ما بدا من تلك المسافة مثل كومة رمل أو أنقاض، بالرغم من صعوبة التوثق من ذلك في ضوء مصابيح الشارع الخافت المتقطّع. راقبتها فريا لحظة، ثم استدارت فجأة حين أطلق أحد الحرّاس خلفها صرخة ابتهاج ملوّحاً بأوراقه لصاحبيه، فاركاً أصابعه معاً إشارةً إلى أنهما يدينان له بالمال. تذمّرا، وسلّماه الأوراق النقدية وكانوا على وشك أن يلعبوا مجدداً حين سمعوا في الخارج ثلاثة أصوات حادة لبوق سيارة. انتهى الوقت. انبثقت حقيقة الموقف أمام فريا؛ كأنها صُفعت بقوة على وجهها. بدأت ترتعش، وتكافح رغبة قوية في التقيؤ.

نظرت إلى فلين وقالت: "يجب أن تلف رباطاً ضاغطاً حول ذراعي". كان صوتها يرتعش، وعيناها باهتتين خوفاً. "عندما يبترون... عندما يفعلون ذلك. يجب أن تلفّ رباطاً ضاغطاً حول ذراعي وإلا سأنزف حتى الموت".

قال فلين: "لن يفعلوا شيئاً لك. أعدك بذلك. ابقي فقط خلفي، وأنا...".

"ماذا؟ ماذا ستفعل؟".

لم يبدُ أن لديه جواباً.

كرّر بنفاد صبر: "ابقي خلفي وحسب".

توجّهت نحوه، ثم مدّت يدها لتمسك يده وتضغط عليها. وقفا لحظة على تلك الحال، ثم تركته ومدّت يدها وحلّت عقدة حزامه، وبقي فلين ساكناً حين أخرجت الحزام من حلقات جينزه ومرّرته له.

قالت: "رباط ضاغط. عندما يفعلون ذلك، يجب أن تلف هذا حول ذراعي. عدني بذلك".

لم يقل شيئاً.

"أرجوك يا فلين".

صمت، ثم أومأ، وتناول الحزام منها ثم مسَّ وجنتها.

"ابقي خلفي فحسب".

كان الرجال قد أبعدوا أوراقهم وراحوا يحدّقون إلى أسفل السلالم حيث سمع صدى وقع خطوات صاعدة نحوهم. نظر أحدهم إلى فريا وكشّر، ثمّ يضرب بيده اليمنى على رسغه الأيسر، مصدراً صوت همهمة تشبه آلة طحن. ارتعشت واستدارت، متراجعةً إلى حافة الأرضية وأخذت تحدّق مجدداً إلى الشاحنة في الأسفل. لم تكن قد قطعت أكثر من أربعين متراً على التلة، ولا تزال تنزل بسرعة الحلزونة. ربما يجب أن تصرخ، تصيح حتى تهزَّ المكان. لم يكن لديها ما تخسره. سحبت نفساً عميقاً وفتحت فمها، لكن لسبب ما لم تستطع إخراج أي صوت، وكل ما فعلته هو الوقوف مكانها محدّقةً إلى الشاحنة التي تقترب وهي تقعقع، ثم ظهر هيكلها المسطّح واضحاً حين مرَّت مباشرة تحت أحد مصابيح الصوديوم. لم تكن تحمل، كما فكّرت في بادئ الأمر، رملاً أو أنقاضاً، إنما كانت تحمل موادّ قديمة: مُزقاً وقطعاً صغيرة من القماش، أقساماً من سجادة، كتلة منفوشة من القطن، وما بدا قطعاً كبيرة من فراش: عميق، طري، ناعم...

همست بينما كانت كتفاها تتوتران، وقشعريرة تسري على عمودها الفقري: "فلين". ومرة أخرى بصوت أكثر إلحاحاً: "فلين".

"نعم؟".

عندما اقترب منها، أومأت فريا إلى الأسفل نحو الشاحنة التي لم تكن تبعد آنذاك أكثر من عشرين متراً.

سألت: "هل رأيت *بوتش كاسيدي وسندانس كيد*؟ ذلك المشهد الذي...".

أنهى فلين الجملة لها: "قفزا فيه عن الجرف. يا للهول يا فريا! لا أظن أننا نستطيع ذلك. المسافة بعيدة جداً".

قالت محاولةً أن تبدو أكثر ثقة بما تشعر به: "يمكننا فعل ذلك".

"المسافة بعيدة جداً".

"لن أدعهم يبترون ذارعي يا فلين".

اقترب صدى وقع الخطوات خلفهما. نظر فلين إليها، ثم إلى الشاحنة، ثم عاود النظر إليها وقال فزعاً؛ كأنه يوشك أن يشرب شيئاً يعرف أن مذاقه مقرف: "لا بأس".

وضع الصور داخل قميصه وزرّره حتى الياقة، وأدخل طرفه تحت سرواله. كان أحد الحرّاس قد مشى نحو آلة تشكيل الأقراص البلاستيكيّة، في حين لا يزال الآخران يحدّقان إلى أسفل السلالم، ولا أحد منهم ينظر مباشرة إليهما.

تمتمت حيث أصبحت مقدمة الشاحنة تحت المكان الذي يقفان فيه: "عدَّ إلى ثلاثة. واحد، اثنان...".

"في الفيلم... نجوَا من القفزة، أليس كذلك؟".

أومأت إيجاباً وقالت: "لكن كليهما أُصيبا بإطلاق نار لاحقاً. ثلاثة!".

شبكا يديهما وقفزا إلى الفراغ.

تحوّل العالم حولهما للحظة إلى مشكال مشوّش من الجدران والسطوح والشرفات وحبال الغسيل قبل أن يصفوَ مجدداً حين نزلا بصوتٍ مكتوم على الجزء الخلفي للشاحنة. غارت كتلة القماش والرُقع تحتهما، وخفّفت أثر سقوطهما. قُذفت فريا جانبياً نحو باب الشاحنة الخلفي، واصطدمت بقطعة فراش مشبعة بالماء، جُرح عنقها لكنها لم تصب بخلاف ذلك بأي أذى. لم يكن فلين محظوظاً بذلك القدر، وارتطم بلفّة سجادة قديمة وقُذف من فوق جانب الشاحنة، وتخبّط في الهواء مثل لاعب جمباز ثمل، ثم ارتطم جانبياً بكومة براميل بلاستيكية ووقع ووجهه إلى الأسفل على القمامة، وحزَّ شيء غير مرئي جرحاً عميقاً في ذراعه اليسرى.

استلقيا حيث هما بضع ثوانٍ، مترنّحَين، مجروحَين، ثم صدحت صرخات في الأعلى وبدأا يزحفان. دفعت فريا نفسها إلى الجزء الخلفي من الشاحنة التي لا تزال تتحرك وقفزت إلى الأرض. انزلق فلين وتعثّر حين حاول الوقوف، وردن قميصه مشبع بالدماء. ترنّح في مشيته، ودفعها نحو زقاق ضيق على الطرف الآخر من الشارع قبالة المبنى الذي كانا محتجزَين فيه. ردّت على الصرخات من الأعلى آنذاك صيحات أخرى على مستوى الشارع، حيث كان هناك رجال من دون شك لمراقبة الجهة الخلفية للمبنى. وصلا إلى الزقاق واندفعا في مدخله الأسود الضيق. وهما يندفعان إلى الأمام في الظلام، ويسدّان فميهما من الرائحة الكريهة الخانقة للنفايات المتحللة، وأقدامهما تطأ المياه الآسنة.

زعقت فريا عندما أحسّت بشيء - أشياء كثيرة - يدور حول قدميها وكاحليها: "هناك جرذان!".

أمرها فلين: "تجاهليها! تابعي التقدم فحسب".

اندفعا في العتمة وهما يتحركان غريزياً لا يبصران شيئاً، وضوء مصابيح الشارع خلفهما لا يساعد كثيراً على تبديد الظلام الحالك. تعثر فلين، ووقع، ثم نهض متثاقلاً مجدداً، ينتفض اشمئزازاً، وغاصت قدم فريا عميقاً في شيء بدا على نحو مرعب مثل حيوان نافق. مضت قدماً، والظلام يشتد حلكة والرائحة لا تُطاق، حتى انعطف الزقاق فجأة إلى اليسار وبدأ ينحدر كثيراً إلى الأسفل. شاهدا ضوءاً أمامهما، تؤطره الفتحة الضيقة لنهاية الزقاق. سمعا صوت مطارديهما خلفهما، من وراء الزاوية: لعنات وصرخات وإطلاق نار. تعثّرا، لكنهما تقدما بأسرع ما يمكنهما، والنفايات تقل تدريجياً حتى لم يعد هناك إلا علب قديمة ودلاء طلاء. اقتربت الفتحة منهما حتى ابتعدت الجدران إلى كلا الجانبين وخرجا إلى أعلى ساتر ترابي بعرض ثلاثة أمتار. شاهدا مساكن كئيبة متراصّة في كل مكان حولهما، ومصباحاً قويًّا مثبّتاً على عمود إلى يسارهما يلقي وهجاً أبيض قوياً. سمعا من الأسفل قُباعاً مكتوماً، ترافقه رائحة براز قوية.

صرخ فلين: "اقفزي".

"إنها حظيرة لعينة!".

"اقفزي!".

دفع فريا على ظهرها فقفزت إلى الأسفل، وتمددت على سائل لزج من الطين والقش. غاصت يداها في القذارة إلى مستوى مرفقيها تقريباً، وأفسح القُباع مجالاً لصرخات حادة حين تبعثرت أشكال سوداء زلقة حولها. كافحت لتقف على قدميها، ثم استدارت ونظرت إلى الأعلى، وضربت خطم حيوان مغطّى بالوحل حين مسَّ فخذها. كان فلين لا يزال على الساتر الترابي، يقف بقرب الجدار إلى يمين فتحة الزقاق تماماً، ذراعه اليسرى تقطّر دماً، وقبضتاه مشدودتان. أصبحت قرقعة العلب المعدنية أعلى حين اندفع مطاردوهما خلفهما، يرافق انحدارهم صوت إطلاق نار متقطّع.

همسَّ فلين وهو يومئ نحو كومة من القش على الطرف البعيد من الحظيرة: "هناك! اذهبي! بسرعة!".

"ماذا عن...".

"اذهبـــي وحسب!".

خاضت في الوحل، وصلت إلى كومة القشّ وصعدت عليها، ثم جثمت حين خرج أول مطارديهما من الزقاق، متقدماً بطريقة ما على رفاقه. بـــدأ يســـتدير، ويصرخ. عندما فعل ذلك أطبق فلين عليه، ضربه عدّة مرات ثم ألقاه ورأســـه إلى الأسفل إلى الحظيرة حيث سقط في الوحل وسمعا طقطقة حادة لشيء يتحطّم.

قفز فلين إلى الطين، انتزع المسدس من قبضة الرجل الرخوة، وفتّش جيوبـــه بسرعة. أخرج مخزن ذخيرة إضافيّاً، ثم مشى في الحظيرة ورمى نفسه خلف كومـــة القش، وسحب رأس فريا خارج مرمى البصر حين خرج باقي رجـــال جـــرجس يركضون مسرعين من الزقاق. تباطأوا حتى توقفوا ونظروا حولهم بـــاحثين عـــن فريستيهم في وهج المصباح. لم يستطيعوا رؤيتهما، وبدأ المصريون يطلقون النـــار كيفما اتفق، وأمطروا الحظيرة بوابل من الرصاص يصم الآذان. أزّت الرصاصـــات وارتطمت حول الغربيين، وجعلت الطين والقش يتطاير والحيوانات تهرب في كـــل الاتجاهات وهي تزعق رعباً. استمر الأمر على ذلك المنوال، وفلين يمسك فريا بقربه بإحدى يديه، في حين يتحسس المسدس بالأخرى منتظراً توقّف إطلاق النـــار. في اللحظة التي حدث فيها ذلك، ومن دون تردد، دفع رأس فريا أكثر إلى الأسفل، ثم اتخذ وضعية الجثو وأطلق وابلاً من الرصاص، إصبعه يضغط بانتظام على الزنـــاد. وذراعه تتحرّك يميناً ويساراً حين يرى أهدافاً مختلفة. أفرغ مخزن الذخيرة، ووضـــع المخزن الجديد، وأطلق بضع رصاصات أخرى، ثم خفض السلاح ببطء. لم يكـــن هناك رد ناري، فمدَّ يده وضغط على ذراع فريا، وهو يتنفس بصعوبة.

قال: "لا بأس. انتهى الأمر".

بقيت لحظة في مكانها، تتكوّر في الطين، وتلاشى صدى إطلاق النار تدريجياً، ولم يعد مسموعاً إلا أنين الحيوانات المجروحة وطقطقة المصـــاريع المتتاليـــة مثـــل الدومينو حين فتح الناس نوافذهم حولهما وفوقهما لرؤية ما يجري. أراحت نفسها بعد ذلك وانتقلت إلى وضعية الجثو، تنظر من فوق كومة القش. رأت أمامها أربع جثث مكوّرة، وممددة فوق الساتر الترابـــي الذي يغمره الضوء مثل جثامين علـــى منصة.

قالت وهي ترتعش: "يا للهول!".

ارتفعت أصوات آنذاك، وصرخات، وعويل صفّارة بعيدة. بقي فلين في مكانه بضع ثوانٍ أخرى، ينظر إلى فتحة الزقاق تحسباً لظهور المزيد من المطاردين، ثم دفع المسدس في الجزء الخلفي من جينزه وغطّاه بطرف قميصه، وشدَّ فريا لتنهض على قدميها.

تمتمت بصوتها الأجش غير مصدّقة ما حدث: "كيف فعلت ذلك؟ كل هؤلاء الرجال. كيف فعلت...؟".

قال: "لاحقاً. يجب أن نخرج من هنا. أسرعي".

ساعدها على عبور الحظيرة وتخطّي كومةٍ من النفايات، وأشخاص يصرخون عليهما من الأعلى، ويومئون. أصبح عويل الصفّارة أعلى. تابعا الحركة، وتفاديا النفايات، ثمّ انطلقا في شارع ضيق معتم، وكلاهما ذاهلان لا يستطيعان الكلام. بعد خمسين متراً، أرغمهما صوت وقع خطوات تجري من خلف زاوية أمامهما على الاختباء في مدخل نتن الرائحة. ركضت أمامهما مجموعة من الأولاد، يتحدثون بإثارة، يريدون مشاهدة ما يحدث. انتظرا اختفاءهم، ثم حثّا الخطى، والطريق ينحدر إلى الأسفل، ويتلوّى ويستدير، ويصبح أوسع باستمرار. تجاوزا متجراً ساطع الإضاءة، ثم كشك فاكهة معلقة عليه مصابيح صغيرة، ثم مقهى، وبدأ مزيد من الأشخاص يظهرون حولهما، ومزيد من الأضواء والضوضاء، وبدا أن الشارع ينبض حركةً كلما تقدما نزولاً على التلة. عرفا من طريقة نظر العيون إليهما أن المعركة النارية قد سُمعت، وأن ملابسهما المتسخة بالطين وقميص فلين المشبع بالدم يربطهما بالحادثة. سرّعا خطواتهما، وهما بأمسِّ الحاجة إلى الابتعاد عن المكان. أشارت أصابع إليهما، هذرت أصوات، واقترب رجال منهما محاولين إيقافهما، لكن فلين دفعهم بعيداً، وأمسك بذراع فريا وقادها عبر الحشود حتى انخفض الشارع أخيراً مسافة شديدة الانحدار وانتهى إلى مساحة مستوية من أرضٍ قفرة. كانت هناك سيارات متوقفة، وصفٌّ من صناديق قمامة ضخمة، وخط سكة حديدية، وازدحام في الطريق خلف السكة - مثل نهر هادر يفصل ذلك الجزء من القاهرة عن باقي المدينة - كان الطريق مكوّناً من ثلاثة مسالك، وحركة المرور تتجاوزهما في كلا الاتجاهين. انطلقا يعدوان حتى اقتربا من جانب الطريق ولوّحا بجنون لإيقاف سيارة أجرة.

في البداية، بدا السائق متردداً في نقلهما، فالسيارة قد نُظّفت للتو، كما شرح. والمقاعد اكتست أغطية جديدة، ولا يريدهما أن يلوثا كل شيء. عندما أخرج فلين محفظته وعدَّ رزمة كبيرة من الأوراق النقدية، لان الرجل وأشار إليهما أن يصعدا. جلس فلين على مقعد الراكب الأمامي، وفريا في الخلف؛ شاحبة، مكتئبة، مرهقة.

سأل الرجل: "أين تذهبان؟".

رد فلين: "أي مكان بعيداً عن هنا. قُد وحسب. بسرعة".

ألقى السائق نظرة أخرى على قميص راكبه الملطخ بالدماء، هزَّ كتفيه، ثم شغّل العدّاد وانضم إلى حركة المرور. أمال فلين عنقه ونظر إلى فريا، والتقت عيونهما برهة قبل أن يستدير مجدداً. التقط عدة مناديل ورقية من العلبة الموضوعة على لوحة القيادة، وضغط بها على ذراعه واسترخى إلى الخلف على التنجيد الرخيص المصنوع من النايلون. عندما فعل ذلك شعر بفريا تميل إلى الأمام بجانبه. ووجهها يقترب من أذنه.

قالت بصوتٍ خدرٍ خافت: "أريد أن أشكرك لإنقاذك حياتي".

همهم وهو يهزُّ رأسه، وبدأ يتمتم أنه هو من يجب أن يشكرها.

تابعت فريا مقاطعةً إياه: "أريد أيضاً أن تتوقف عن خداعي". مدّت يدها إلى الأسفل، جذبت المسدس من جينز فلين ودفعت فوهته في كليتيه. "أريد أن تخبرني من أنت، وماذا يجري، وما الذي جعلتَ شقيقتي تتورط فيه. ويعلم الله أنك إذا لم تفعل، فسينظّف السائق أشياء أخرى غير قذارة الحيوانات العالقة فينا عن التنجيد. الآن، تكلم".

لم يكن التوأم سعيدين حين تلقيا الاتصال من جرجس؛ كانا غير مسرورين إطلاقاً. كانت اللعبة قد مُدّدت وقتاً إضافياً بعد هدف محمد أبو تريكة الرائع في الدقيقة 88 الذي عدّل النتيجة للأهلي لتصبح 2-2، ولا تزال هناك ثلاثة أهداف أخرى، وبينها رأسية الفوز من أسامة حسني. صدر أمر لهما آنذاك أن يوقفا كل شيء ويذهبا بنفسيهما إلى منشية ناصر من دون تأخير. لو أنه كان أي شخص آخر لأخبراه أن يغرب عن وجهيهما، لكن جرجس هو جرجس، وبالرغم من

أنهما لم يحبا الأمر - كانا يكرهان أن يقاطعهما أحد في أثناء مشاهدتهما مباراة كرة قدم، ويبغضان ذلك - إلا أنه يبقى صاحب العمل. متذمرَين، وضعا الذي في دي جانباً وغطّيا والدتهما ببطانية، وتوثقا من وجود طعام وشراب لها حين تستيقظ في الصباح، ووضعا مالاً على نضد المطبخ، ثم خرجا في طريقهما إلى هناك.

تمتم أحدهما حين نـزلا بتثاقل سلالم المسكن إلى الشارع في الأسفل: "حقير".

ردّد شقيقه: "حقير".

"سننتظر بضعة شهور أخرى...".

"ثم نؤسس عملنا الخاص".

"لا مزيد من أصحاب العمل".

"نحن الاثنان فقط".

"وماما".

"ماما طبعاً".

"سيكون الأمر جيداً".

"جيداً جداً".

وصلا أدنى السلالم وانطلقا في الشارع، يشبكان ذراعيهما معاً، ويتناقشان حول *التورلي* وترخيص تقديم الطعام ومحمد أبو تريكة، ومن أين يمكنهما الحصول على ملاءات بلاستيكية وأداة تثبيت مسامير في ذلك الوقت من الليل حتى يستطيعا إنجاز ما أمرهما جرجس بفعله حين يعرفان مكان الغربيَّين.

"فريا، لا أعلم ما تفكرين فيه...".

قالت وهي تميل يميناً نحو أذن فلين مبقيةً صوتها خافتاً حتى لا يتمكن السائق من سماع ما تقوله: "سأخبرك في ما أفكّر. أظن أنه أمر غريب أن يستطيع عالم آثار مصرية استخدام مسدس بالطريقة التي فعلت. هل حصلت على *كامبردج بلسو* في ذلك أيضاً؟".

"فريا، أرجوك...".

بدأ يستدير نحوها، لكنها ضغطت المسدس بقوة أكبر تحت أضلاعه.

"لم أقابل عدداً كبيراً من علماء الآثار المصرية، لكنني سأراهن بمبلغ كبير من المال أن كثيرين منهم ليسوا مثلك يا أستاذ برودي. أنا شاكرة لكل ما فعلته من أجلي، لكنني أريد أن أعرف من أنت وماذا يجري، وأريد أن أعرف الآن".

أمال عنقه أكثر قليلاً، محاولاً أن ينظر إلى عينيها، ثم بإيماءة تحرّك على مقعده ونظر إلى الأمام مباشرة. بدا قلقاً فجأة.

"لا بأس، لا بأس. ضعي المسدس جانباً فحسب".

تراجعت إلى الخلف، ووضعت المسدس على المقعد بجانبها، ويدها لا تزال على قبضته.

"تكلم".

لم يفعل، ليس على الفور، إنما جلس يحدّق فقط إلى خارج النافذة والسيارة تتحرك بهما. ابتعد الظل الكئيب لمنشية ناصر ببطء خلفهما، وبدا مثل إسفين من الظلام يندفع إلى الأعلى تحت جدار جرف المقطّم الذي يغمره الضوء. أشعل السائق لفافة تبغ وأدخل شريطاً في مسجلة لوحة قيادة سيارة الأجرة، فامتلأ الجو بصوت أنثى تصرخ ترافقه أنغام كمان متنافرة. مرّت دراجة نارية بجانبهم، ونعجة مربوطة بحبل إلى المقعد خلف السائق، تبدو على وجهها نظرة ملل وخنوع. انقضت دقيقة تقريباً وكانت فريا على وشك أن تذكّر فلين أنها تريد بعض الأجوبة حين مدَّ يده إلى لوحة القيادة، أمسك هاتف السائق الخلوي وسأله إن كان بمقدوره استخدامه. في النهاية، اضطر فلين إلى عدِّ رزمة كبيرة أخرى من الأوراق النقدية قبل أن يحصل على الموافقة. ضغط على أرقام ووضع إبهامه على زر الاتصال، ولكنه أبعد إبهامه و لم يُجرِ الاتصال.

سأل محدّقاً إلى الهاتف: "من عرف أنك قادمة لرؤيتي؟".

"ماذا؟".

"في الجامعة الأمريكية. هذا الأصيل. من عرف أنك قادمة لرؤيتي؟".

"أنت من سيجيب عن الأسئلة، أتتذكّر؟".

"هيا يا فريا".

هزّت كتفيها.

"*لا أحد. حسناً، مولي كيرنان. تركتُ رسالة على بريدها الصوتي. لن تقول إنها متورطة في كل هذا، أليس كذلك؟*".

قال: "ليس بالطريقة التي تفكرين فيها. أنا ومولي نعرف بعضنا منذ وقت طويل".

"إذاً، *ماذا* تقول؟".

لم يجبها مجدداً، إنما تابع التحديق إلى الهاتف، ثم ضغط إلغاء، ومسح الرقم الذي أوشك أن يطلبه. ثمّ شرع في كتابة رسالة نصية بإبهامه التي راحت تقفز على لوحة المفاتيح. أمالت فريا رأسها إلى الأمام، تحاول رؤية ما يكتبه، لكن لغة الهاتف كانت اللغة العربية، ولذلك لم تستطع قراءة ما كان يكتبه. أنهى الضغط على حروف وضغط إرسال، متمتماً إلى السائق: "*شكراً أوي*"، ثم وضع الهاتف على لوحة القيادة.

قالت: "أنا أنتظر".

"تحمّليني قليلاً يا فريا. هناك أشياء كثيرة... لا يمكنني... ليس هنا. يجب أن نذهب إلى مكان ما أولاً. سأشرح كل شيء، أعدك. لكن هذا ليس المكان الملائم. أرجوك، ثقي بي في هذا".

ألقى نظرة إلى الخلف عليها، ثم تكلم إلى السائق بالعربية، وزوّده بتعليمات قبل أن يسترخي إلى الخلف على مقعده مجدداً ويحدّق إلى سقف السيارة.

انطلقوا نحو ثلاثين دقيقة - أمضوا نصف ذلك الوقت ثابتين بسبب ازدحام السير - يتجهون شمالاً، كما ظنّت فريا بالرغم من أنها لم تكن واثقة مئة بالمئة. تجاوزوا مقابر، وقاعدة عسكرية من نوعٍ ما، وإستاداً ضخماً يغمره الضوء قبل أن يغادروا الأتوستراد إلى طريق عريض تصطف على جانبيه أشجار النخيل. سلكوا من هناك شبكة من الشوارع الرتيبة المغبرة بين مبانٍ سكنية إسمنتية متشابهة مكوّنة من أربعة طوابق. كانت المصابيح بجانب الطريق تغمر كل شيء بضوء أصفر خفيف؛ كأن المباني والأرصفة تعاني اليرقانَ. بدا واضحاً أن السائق لا فكرة لديه عن المكان الذي يقصدونه، وبقي الأمر منوطاً بفلين لتوجيهه، وإرشاده أن يستدير يميناً هنا، ويساراً هناك، ومباشرة إلى الأمام عند هذا التقاطع حتى توقفوا أخيراً خارج أحد الأبنية الذي لا يمكن تمييزه عن المباني المجاورة باستثناء النماذج المختلفة

قليلاً للغسيل الذي يتدلّى من شرفاته. عندما أعطى فلين السائق بقشيشاً كبيراً إضافةً إلى ما قد دفعه له سابقاً، دفعت فريا المسدس تحت المقعد الأمامي، تعرف أنها لن تستخدمه أبداً وألاّ فائدة من أخذه معها، ثمّ خرجا من السيارة.

سألت حين مشيا نحو مدخل المبنى، وصوت الموسيقى يخفت مع ابتعاد سيارة الأجرة عنهما، حتى غرق كل شيء في صمت مخيف: "هل تريد أن تخبرني أين نحن؟".

رد فلين: "عين شمس. إنها ضاحية شمال القاهرة. ملائمة، كما أفترض، بالنظر إلى الظروف!".

رفعت فريا حاجبيها، وسألت عمّا يعنيه ذلك.

"هل تتذكرين البردي الذي شاهدناه في المتحف؟ كتبه إمتي-خنتيكا في معبد الشمس العظيم في هليوبوليس، وآثار معبد الشمس العظيم في هليوبوليس...".

ضرب بقدمه الأرض، ثمّ أضاف: "تحوّل أهم مركز ديني في مصر القديمة إلى عقار سكني الآن". هزّ رأسه مرهقاً وأضاف: "هذا هو التقدّم".

مشيا نحو ردهة مغبرة - حيث تصطفّ مجموعة من أنابيب الغاز على طول أحد الجدران، وكومة من كراسٍ محطّمة - وبدأا يصعدان السلالم.

"هل تعيش هنا؟".

هزّ فلين رأسه وقال: "إنه مجرد مكان يستخدمونه".

انتظرت أن يتوسّع في ذلك، يشرح من هم "هؤلاء"، لكنه قادها صعوداً إلى الطابق الثالث وعلى طول رواق معتم، وتوقف أمام باب في منتصفه تقريباً. وقف ساكناً، يميل رأسه، ويرهف السمع - لم تعرف إن كانت الأصوات من داخل الشقة أو من الخلف على طول الرواق - ثم رفع يده، قرع الباب ثلاث مرات بقوة. وعلى الفور - كأن شخصاً ينتظر على الجهة الأخرى من الباب - سمعت صوت احتكاك معدني خافت حين شُدَّ غطاء عين الباب إلى الخلف، ثم فُتح الباب نفسه. ويا للمفاجأة! وقفت مولي كيرنان أمامهما.

قالت وهي تمسك يد فلين ثم يد فريا، وتسحبهما إلى داخل الشقة وتركل الباب فتغلقه خلفهم: "حمداً لله، لقد انتابني قلق شديد".

بالرغم من انقضاء أقل من 48 ساعة على آخر مرة رأتها فريا فيها، إلا أنها بدت أكبر سناً بطريقة ما، ومثقلة بالهموم، كما بدت عيناها منتفختين من عدم

النوم. وجلدها متغضّناً. حدّقت إليهما، تنظر بإمعان إلى ملابسهما المتسخة، وذراع فلين الملطخة بالدماء، ثم دفعتهما عبر رواق إلى غرفة معيشة إضـــاءتها ضـــعيفة، ثم أخبرها فلين بما قد حدث. لا تفاصيل كثيرة، إنما موجزٌ أساسيّ، بدءاً مما قد أخبرته به فريا عن الجثة في الصحراء، والخريطة، وفيلمي الصور، ثم أحداث ذلك الأصيل والمساء. *عندما تكلم انتاب فريا شعور مزعج من الأسلوب الذي يصف به الأمر،* الطريقة التي بدا فيها أن كيرنان تعرف مثل تلك الأشياء عن الواحة الخفية، ورودي شميدت وروماني حرحس والجلف الكبير. ربما تكون تفاصيل ما قد اختبراه جديدة عليها، لكن الشخصيات والأماكن ليست كذلك بالتأكيد.

جعلتهما كيرنان يجلسان على أريكة في غرفة المعيشة واختفت. عادت بعـــد لحظة تحمل وعاء ماء دافئ، وحقيبة إسعافات أولية، وطبقاً فولاذياً عليـــه محـــاقن وقوارير زجاجية متنوعة.

شرحت لفريا حين جثت أمام فلين مطقطقةً أصابعها ومشيرةً إليه أن يرفـــع ردنه: "بعث فلين إلي رسالة نصّية أنكما لستما على ما يرام. هناك مناشف وثياب نظيفة في غرف النوم - اضطررت إلى تخمين مقاسك، كما أخشى - لكن يجـــب أن نعالج جروحكما أولاً. يا الله!".

فزعت حين رأت الجرح في ذراع فلين؛ كان شقّاً واسعاً بعرض أربع بوصات على امتداد ذراعه.

"انـــزع قميصك كله، من فضلك".

تمتم شيئاً.

"حباً بالله، إنه ليس شيئاً لم نره أنا وفريا من قبل. هيا، انـــزعه".

وقف متردداً لبعض الوقت، ثم فكَّ عدّة أزرار، وأخرج صور الواحـــة - ســـالمة باستثناء بضع لطخات طين في أعلاها - ووضعها على الأرضية قبل أن يفـــك بـــاقي أزرار القميص. نـــزعه عن كتفيه وجلس مجدداً. كان رشيقاً ومفتـــول العضـــلات، وصدره مكسواً بشعر داكن. ارتدت كيرنان برشاقة وكفاءة قفازين جراحيين وبدأت العمل بأن مسحت ذراعه بالماء والقطن قبل أن تنظف الجرح بهدوء بقطيلة معقّمة.

شرحت لفريا وهي تعمل على ذراع فلين: "كانت والدتي ممرضة. لقد كنت أفعل هذا طوال حياتي. هل لا يزال لُقاحا الكزاز والتهاب الكبد فعّالين لديك؟".

قالت فريا: "ليست لدي أدنى فكرة. اسمعا، أريد أن أعرف...".

"لننظفكما أولاً، ثم يمكن أن نتكلم". كانت نبرة كيرنان لطيفة لكن حازمة؛ كأنها رئيستها، ولم تترك مجالاً للنقاش. ثمّ أضافت: "سأعالج فلين أولاً، ثم سأحقنك بلقاحات. لا تريدين أن تجازفي إن كنت تزحفين في مكان مثل منشية ناصر. المكان موطن لكل جرثومة معروفة للإنسان، وعلى الأرجح بضع جراثيم غير معروفة أيضاً".

أنهت تنظيف ذراع فلين، سحبت ما بدا أنه قلم حبر جافّ كبير من حقيبة الإسعافات الأولية، نزعت غطاءه ومرّرت طرفه برفق على طول حافة الجرح. خرج سائل شفاف يشبه الغراء إلى الجلد الممزق.

شرحت وهي تضغط طرفي الجرح معاً: "غراء لاصق. ليس مثالياً، لكنه سيفي بالغرض حتى نستطيع أن نقطب الجرح على نحو ملائم".

كان فلين قد أدار رأسه إلى الجانب محدّقاً إلى خارج النافذة، محاولاً عدم النظر إلى ذراعه وما يحدث لها.

أطبق الصمت وقتاً قصيراً، فجأةً، قال فلين: "لا يستطيعون العثور عليها".

في البداية، ظنّت فريا أنه يتكلم مع نفسه، أو مع كلتيهما، لكن عندما نظرت إليه رأت أن عينيه تتجهان نحو كيرنان، فعرفت أن التعليق موجّه إليها وحدها.

"لم يكونوا ليزعجوا أنفسهم بعرض الصور علي بخلاف ذلك. لا يستطيعون العثور عليها".

كانت كيرنان لا تزال تشد طرفي الجرح، وتمسكهما بإحكام في حين تلتصق الأنسجة.

سألت: "ماذا عن خريطة شميدت؟ قلت إن هناك اتجاهات ومسافات تحددها البوصلة".

"واضح أنها ليست دقيقة. تحديد المواقع صعب جداً في الصحراء حتى باستخدام معدّات ملائمة. يبدو من ظاهر الأشياء أن شميدت لم تكن لديه إلا البوصلة، المقطوع سلكها. ربما كان على بعد خمسين كيلومتراً، أو مئة".

بدا الأمر سوريالياً؛ كأن فريا غير موجودة.

قالت كيرنان بينما كانت تتأكّد من أن الجرح قد التحم بإحكام قبل أن تبدأ تضميد ذراع فلين: "لكن جرجس لديه مروحيات، حتى إذا كانت الاتجاهات بعيدة

كيلومتر، يمكنه تحديد الموقع بدقة. كل ما عليه فعله هو الطيران فوق الجلف في تلك المنطقة: لا يمكن أن يصبح تحديد موقع وادٍ مملوءٍ أشجاراً صعباً جداً".

"لا يمكنني تفسير ذلك يا مولي، كما لا أستطيع تفسير سبب عودة كل أخرق آخر يبحث عن المكان بمرور السنين خالي الوفاض. *كل ما أعرفه هو أن جرجس لم* يجد الواحة، وإلا لكان قتلنا على الفور بدلاً من لعبة تحديد مواقع الصور. إنه يعاني، على نحو خطير".

جلست فريا هناك، منذهلةً وهي تشعر بأنها قد انزلقت إلى حالة حلم من نوعٍ ما أصبحت فيها جزءاً من مشهد، لكنها في الوقت نفسه منفصلة عنه، حاضرة فيه، لكن لسبب لا يمكن تفسيره ممنوعة عن التواصل مع أولئك الموجودين حولها. شعرت برغبة في أن تصرخ: *لا أزال هنا، لست خفية، كما تعرفان.*

ولكنّها لم تقل شيئاً، بل سمحت للمحادثة أن تنكشف أمامها. عندما انتهت كيرنان من تضميد ذراع فلين وتلقيحه، ارتدى قميصه مجدداً بالرغم من أنه متسخ بالطين والدم، ثمّ أمرت فريا أن ترفع ردنها وحقنتها أيضاً حقنتين سريعتين في عضلة الذراع، واحدة للكزاز وأخرى لالتهاب الكبد من الفئة بي، ودخلت الإبرتان وخرجتا ولم تشعر إلا بوخزة بسيطة؛ إنها خبيرة.

عندما انتهى العمل الطبي، وبدأت كيرنان تتكلم عن مناشف وثياب نظيفة، وتشرح طريقة التحكّم بدرجة الحرارة في الحمّام - "تحريكه صعب قليلاً، كما أخشى. يجب أن تحاولا معه" - انفجرت فريا أخيراً.

صرخت، وهي تقف وتتراجع نحو الباب: "لا أهتم بشأن الحمّام اللعين! أو المناشف أو الثياب أو أيٍّ من ذلك. أريد أن أعرف ما يجري. هل تسمعان؟ أريد أن تخبراني من أنتما وما الذي يجري بحق الله! أو سأخرج من هذا المبنى وأذهب مباشرة إلى أقرب مخفر شرطة".

تبادل فلين وكيرنان النظرات، وبدأت الأخيرة تجمع ببطء وتأنٍّ المعدّات الطبية معاً.

قالت: "اجلسي من فضلك يا فريا".

"لا أريد أن أجلس! أريد أن أعرف ما يجري! كم مرة يجب أن أسأل؟ لقد حاول شخص بتر ذراعي وتطلبين مني أن أستحم. ما خطبكما!".

كان صوتها قد ارتفع إلى حدّ الصّراخ تقريباً، واتسعت عيناها غضباً وإحباطاً. تركتها كيرنان تنهي كلامها، أو بالأحرى تكلّمُ نفسها، ثم طلبت منها مجدداً أن تجلس.

قالت بهدوء لكن بحزم: "أعرف أن الأمر صعب جداً عليك، وأرجوك صدّقيني يا فريا، أنا آسفة جداً على كلّ ما حدث. لو أنني ظننت دقيقة واحدة أنك ستتعرضين لخطر، لما كنت لأسمح لك أبداً بالبقاء وحدك في الداخلة".

مشت في الغرفة، وألقت القطن والمحاقن والضمادات المستخدمة في سلة مهملات موضوعة في الزاوية، وحدّقت إلى الأسفل إليها لحظة قبل أن تستدير عائدة إلى فريا.

قالت، وعيناها ثابتتان على المرأة الأصغر سناً: "لسوء الحظ، لا يستطيع المرء توقع الأحداث دائماً. يجب على الإنسان أن يتعامل معها حين تحدث، وهذا ما نحاول فعله الآن. لك كل الحق بطلب أجوبة، وستحصلين عليها، أعدك، لكن أولاً يجب أن أعرف الصورة كاملة من فلين. أياً كان الذي تفكرين فيه، أنت مع صديقين هنا. أنت بأمان. الآن، أرجوك يا فريا، اجلسي ويمكننا أن نتكلم".

مدّت يدها نحو الأريكة في إشارة تتضمن استرضاءً وأمراً. تردّدت فريا، ثم جلست، ليس على الأريكة إنما على كرسي ذي ذراعين قبالتها، وجثمت على طرف الكرسي؛ كأنها مستعدة للقفز في أي لحظة. حدّقت كيرنان إليها وقد علا وجهها تعبير انزعاج باهت جداً، مثل مدرّس لم يطعه تلميذ بشكل متعمّد. تنهّدت بعد ذلك، وجمعت وعاء الماء والطبق وحقيبة الإسعافات الأولية، ثم دفعتها عبر فتحة خدمة إلى المطبخ قبل أن تجلس على الكرسي بجانب فلين، ويداها متشابكتان في حجرها، وظهرها مشدود. جعل شيء في ذلك المشهد، والطريقة التي يجلس فيها كلاهما قبالتها، فريا تشعر بأنها في مقابلة عمل.

سألت: "إذاً؟".

قالت كيرنان وهي تحدّق مباشرة إلى فريا، وعيناها الرماديتان لا تطرفان. ووجهها يبدو مثل حجر صوان: "حسناً، كما قد خمّنت سابقاً، تنطوي الأحداث الحالية على أكثر مما نقله أيٌّ منا لك. ر، بالنيابة عن نفسي وعن فلين أيضاً. لأنك لم تكوني في الصورة بشأن أمور معينة. لسوء الحظ، هناك قضايا أمن قومي

في المسألة – قضايا أمن قومي بالغة الأهمية – منعتنا من أن نكون صريحين تماماً معك. أفعل ذلك الآن فقط؛ لأنه بعد كل ما عانيته، يبدو الاستمرار في المراوغة عديم الفائدة وغير منصف. سأشرح ما يجري يا فريا، وسأفسّر سبب حدوثه. على أيّ حال، وقبل أن أفعل، أطلب وعداً منك أنك ستحترمين الطبيعة الحسّاسة جداً لما ستسمعينه، وألاّ تجتاز كلمة واحدة هذه الجدران الأربعة. هل ستقطعين ذلك الوعد؟".

لم تقل فريا شيئاً.

"هل ستقطعين لي ذلك الوعد يا فريا؟".

بالرغم من ذلك لم ترد، وقست نبرة كيرنان.

"فريا، إذا لم يكن بمقدورك أن تضمني...".

قال فلين: "لن تخبر أحداً يا مولي. ليس بعد ما عانته من جرجس. لديها سبب لتكره الرجل أكثر من كلينا، إنها جديرة بالثقة".

تابعت كيرنان التحديق إلى فريا، وقد ضاقت عيناها، ثم أومأت، وتمللت أساريرها قليلاً. عندما تكلمت كان صوتها أكثر رقة.

"آسفة يا فريا، لكن يجب أن تفهمي، فالوضع معقد جداً. لا يمكن أن أجازف وأمور كثيرة على المحك هنا".

نظرت فريا إلى فلين ثم عاودت النظر إليها مجدداً.

أطبق الصمت فترة وجيزة، ثمّ قالت فريا: "أنتما جاسوسان من نوعٍ ما، أليس كذلك؟".

أبعدت كيرنان يديها عن بعضهما، ومرّرتهما نزولاً على تنورتها، ثم وضعت يديها في حجرها مجدداً.

"أعمل لمصلحة وكالة الاستخبارات المركزية؛ مكافحة الإرهاب. فلين...".

قال: "جاسوس سابق. عملت وقتاً قصيراً في وظيفة ثانوية مع أم آي 6، تقرّر بعدها أن العالم سيكون مكاناً أكثر أمناً إذا التزمتُ العمل في مجال الفخار والهيروغليفية. لكنهم علّموني كيف أطلق النار، لهذا أخمّن أنها لم تكن مضيعة كاملة للوقت".

التقت عيونهما لحظة قصيرة جداً قبل أن يشيح ببصره بعيداً.

سألت: "وألكس؟ هل كانت...؟".

كانت كيرنان تهزُّ رأسها قبل أن تُنهي فريا السؤال.

"كانت شقيقتك مستكشفة صحراء، لم تكن جاسوسة. قامت بمساعدتنا، هذا كل شيء، تماماً كما يساعدنا فلين".

"تساعدكم على ماذا يا مولي؟ ما الذي جعلتِ شقيقتي تتورط فيه؟".

حدّقت كيرنان إلى عينيها، ورفعت يدها لتمس رمز النصارى الديني الذهبي الصغير المعلّق حول عنقها.

قالت: "أظن أن الوقت قد حان لأخبرك عن شيء يدعى *ساند فاير*؛ إنه سبب جلوسنا هنا الآن، وسبب وجودي في مصر طوال السنوات الثلاث والعشرين الماضية، والسبب الذي يجعل شخصاً واحداً بغيضاً يدعى روماني جرجس لا يتورّع عن فعل شيء للعثور على مكان واحة زرزورة المفقودة".

الداخلة

بالرغم من أنه عاش في منزل فيه مطبخ وحمّام وثلاثة حقول خلفه - اثنان مزروعان خضاراً، وواحد *برسيماً* - إلا أن الصحراء كانت بيت زاهر الصبري الحقيقي، فهو يعود دائماً إلى الصحراء حين يجد قلبه مثقلاً بالهموم، وهذا ما فعله تلك الليلة.

لم يذهب بعيداً؛ بضعة كيلومترات فقط، وارتفعت اللاند كروزر وانخفضت مع الكثبان مثل زورق صغير في المحيط، ومصباح اللاند الأمامي الوحيد الذي يعمل يلقي ضوءاً باهتاً على الرمال. *بالرغم من أن كل شيء امتزج معاً في الظلام* - خليط غامض من الرمال والصخور وضوء القمر - بدا أنه يعرف بالتحديد المكان الذي يقصده. شق طريقه عبر بيئة مبهمة، وقاد سيارته على المنحدرات والأغوار. وسهول الحصى وحقول الجلمود؛ كأنها شوارع في مدينة، واستدار أخيراً إلى وادٍ طويل بين كثبان عالية وتوقف بجانب شجرة *أبال* منعزلة.

أنزل حطباً وقشاً من صندوق اللاند كروزر وأشعل ناراً. اشتعل القش في اللحظة التي مسّه فيها عود الثقاب، مثل وردة برتقالية ممزّقة تنفتح وتنفضُّ أوراقها

مع أول أشعة شمس دافئة. خمّر شاياً في مغلاةٍ قديمة سوّدها النار وشغّل الشيشة. لفّ شالاً حول نفسه اتقاء برد المساء، وحدّق إلى ألسنة اللهب، وشفتاه تمجّان بهدوء من الشيشة. كان الصوتان الوحيدان المسموعان هما صوت طقطقة الخشب المحترق الخافتة، وعواءً كئيباً لثعلب صحراء من مكان ما بعيد.

يأتي زاهر إلى هنا غالباً مع شقيقه سيد، أو ابنه محسن: وريثه المحبوب، ونور حياته. يخيّمون معاً تحت النجوم، وينشدون أغانيَ بدوية قديمة ويسردون قصصاً عن أسرتهم، وكيف جاؤوا إلى مصر قبل كل تلك القرون من وطن الرشايدة في السعودية. لقد تغيرت أمورٌ كثيرة في السنوات التي انقضت مذّاك الحين، وضاع الكثير: استُبدِلت الخيام بالإسمنت والآجر الطيني، والجمال بسيارات الدفع الرباعي، والحرية البدوية بالضرائب وبطاقات الهوية والأعمال الورقية وكل أنواع القيود البيروقراطية. وبالرغم من كل ذلك، فقد بقوا بدواً في الصميم، يقطنون الصحراء ويتجولون فيها، ولم يكن عليهم إلا المجيء إلى هنا بضع ساعات ليذكّروا أنفسهم بتلك الحقيقة، ويتواصلوا مجدداً مع تراثهم المجيد.

الليلة، أمعن زاهر النظر في ذلك الميراث وهو يمجّ من الشيشة، خاصة ذكرى جدّه محمد ولد يوسف إبراهيم صبري الرشايدة، أعظم البدو، والد قبيلته، الذي عبر مع جماله الصحراء الكبرى من الشمال إلى الجنوب، ومن الشرق إلى الغرب، حتى لم يبقَ ركن من ذلك القفر إلاّ ويعرفه، أو حبّة رمل لم يطأها في وقت ما بقدميه.

كانت هناك قصص رائعة عديدة عن محمد العجوز، وحكايات وأساطير كثيرة تناقلتها الأجيال. لكن بالنسبة إلى زاهر، تميّزت قصة واحدة على كل ما سواها، وغلّفت كل ما هو نبيل بشأن جدّه وقومه كلّهم. كانت القصة كالتالي: مرة، بعد أن توغل عميقاً في الصحراء الكبرى، بعيداً مئتي كيلومتر وأكثر عن أقرب واحة، وجد محمد العجوز رجلاً يترنح على الرمال. لم يكن معه طعام أو ماء أو جمل، والنسور تحوم بصمت فوقه متوقّعةً موته الوشيك.

كان الغريب، كما تبين، بدوياً من الكفرة من قبيلة بني سليم؛ عدو لدود للرشايدة. كان شقيق محمد قد لقي حتفه على أيدي فرقة غزو من بني سليم، ومن حقه أن يحزّ عنق الرجل هناك بالسكين المعلّقة في الوقت الحالي على جدار غرفة جلوس زاهر. ولكن بدلاً من ذلك، منحه ماءً ليشرب بالرغم من أن مخزونه يكاد

ينفد، ورفعه على جمله ونقله سبعة أيام إلى بر الأمان، و لم يصلا إلا بعد أن أصبح كلاهما على شفير الموت.

كان بدوي الكفرة قد سأل حين شاهدا الحضارة أخيراً: "لماذا فعلت هذا؟ أنقذتني بالرغم من الكراهية بين قبيلتينا، والأخطاء الكثيرة التي لا يمكن تصحيحها أبداً؟".

أجاب محمد: "تقع على كاهل البدو الرشايدة التزامات كثيرة، لكن أهمها على الإطلاق واجب إغاثة غريب ملهوف؛ أياً يكن".

تمثّل هذه القصة عادة مصدراً للسرور والفخر لدى زاهر. كم مرّة سردها لابنه، مشجعاً إياه على العيش كما عاش محمد العجوز، وإظهار الوقار والتواضع والتعاطف نفسه.

الليلة، بعد كل ما حدث أخيراً، لم تجعله لا مسروراً ولا فخوراً. بل جعلته يشعر بإحساس لا يحتمل أبداً من الخواء وتأنيب الضمير.

تقع على كاهل البدو الرشايدة التزامات كثيرة، لكن أهمها على الإطلاق واجب إغاثة غريب ملهوف؛ أيًا يكن.

تحسس داخل جيبه وأخرج البوصلة المعدنية. فتحها وحدّق إلى الحرفين المنقوشين على الجهة الداخلية للغطاء المعدني - إي إيتش - وعيناه الداكنتان تلمعان في ضوء النار، وكلمات جدّه تتردد في رأسه، تؤنبه وتعذّبه. ما فائدة أن يعرف الصحراء كما يعرفها هو، وإبقاء كل القصص والأغاني القديمة حية، إن لم يكن بمقدوره الارتقاء إلى مستوى وصية قومه الأخلاقية الأساسية؟ كان عليه واجب، وفشل في تحقيقه. ضغط ثقل فشله على كاهله، لذا، في هذه الليلة، وبدلاً من أن يساعده وجوده هناك في القفر على التواصل مجدداً مع تراث الرشايدة، لم يفده إلا في تذكيره فقط أنه غير جدير به.

تقع على كاهل البدو الرشايدة التزامات كثيرة، لكن أهمها على الإطلاق واجب إغاثة غريب ملهوف؛ أيًا يكن.

انتهى من احتساء الشاي، ومجّ وقتاً أطول من شيشته. لم يستطع أن يشعر بالسكينة التي يتشوق إليها، فركل رملاً فوق النار، ثمّ رمى أدواته في اللاند كروزر وانطلق إلى المنزل. التفت الكثبان ودارت حوله؛ كأن الصحراء تهز رأسها، وتجعله يعرف أن خيبة أملها كبيرة.

"ماذا تعرفين عن الحرب العراقية-الإيرانية؟".

تردد صدى صوت مولي كيرنان من المطبخ حيث تحضّر القهوة.

لم يكن سؤالاً تتوقعه فريا، فسألت: "هل سأستمع إلى محاضرة تاريخ؟ لأنني قد سمعت واحدة اليوم، وبالرغم من أنها كانت رائعة، إلا أن مزاجي ليس ملائماً لسماع أخرى".

نظرت كيرنان عبر كوّة الخدمة في المطبخ، غير واثقة بما تتكلم فريا عنه.

شرح فلين قائلاً: "اصطحبتها في جولة زرزورة في المتحف".

"آه!". أومأت كيرنان وهي تسكب ماء ساخناً من الغلاية، ثمّ أضافت: "لا، لن ألقي على مسامعك محاضرة، فأنا أترك هذا النوع من الأمور للمختصين".

أمالت رأسها نحو فلين وتابعت السكب.

"خلفية صغيرة فحسب. لا بنبن أو بردي، أعدك".

سمعا رنين الأكواب حين رفعت صينية واختفت عن الأنظار قبل أن تظهر مجدداً عند باب غرفة المعيشة. اقتربت منهما ووضعت الصينية على الأرضية.

قالت وهي تعطي كوباً لكل من فريا وفلين: "إنها سريعة التحضير، كما أخشى، ما من حليب أو سكر، لكنني أظن أنها أفضل من لا شيء".

أمسكت الكوب الثالث وذهبت إلى النافذة، أزاحت الستائر قليلاً ونظرت إلى الشارع في الأسفل قبل أن تستدير لتواجههما.

سألت وهي تنفخ في كوبها وترتشف منه، ويدها اليسرى تجثم على وركها اليسرى: "إذاً؟ هل تعرفين شيئاً عن الحرب؟".

هزّت فريا كتفيها وقالت: "ليس حقاً. ما أُذيع فقط على الأخبار حين غزونا العراق. ألم ندعم صدّام، ونمدّه بالأسلحة؟".

همهم فلين قائلاً: "لم تكن أفضل ساعات العالم الحر. مساندة طاغية نفّذ إبادات جماعية وعمليات قتل كثيرة تحت غطاء نظرية *السياسة الواقعية* المشوّهة".

صرخت كيرنان استهجاناً، وهزّت رأسها بنفاد صبر قائلةً: "دعونا لا ندخل في جدال سياسي هنا. فريا تريد أجوبة وأظن أننا يجب أن نركز على تقديمها لها".

حدّق فلين إلى كوب قهوته.

تابعت كيرنان حديثها قائلةً: "استمرت الحرب من العام 1980 وحتّى العام 1988 وتواجه فيها عراق صدام ضد إيران الخميني. نظامان قمعيان تماماً، بالرغم من أن صدّام كان أهون الشرين بهامش قليل، ولهذا السبب كنا مستعدين، كما قلت حقاً، أن نعرض عليه مساعدة مادية، ومعلومات استخباراتية، وأسلحة...".

قاطعها فلين: "عوامل بيولوجية بموافقة المبعوث الخاص دونالد رامسفليد".

استهجنت كيرنان مجدداً قائلةً: "دعمنا صدّام بالتحديد للأسباب نفسها التي جعلت بريطانيا، وفرنسا، وألمانيا، وإيطاليا، وروسيا، واثنتي عشرة دولة أخرى تسانده. لأن البديل، أي انتصار الخميني ورجال ثورته، كان أفظع من أن نتحمّله. كما شرح كيسنجر في ذلك الوقت: بدا مؤسفاً ألاّ يخسر كلاهما، لكن إذا كان لا بد من ظهور منتصر، فمن الأفضل لنا جميعاً أن يكون صدّام".

تمتم فلين قائلاً: "وقد أثبت أنه حليف وفي".

رمقته كيرنان بنظرة انزعاج وقالت: "أياً يكن. كل ما يتعلق بالقضية الحالية هو أنه في منتصف الثمانينيات، بعد بعض النجاحات المبدئية، شهدت العراق تراجعاً عسكرياً. وبالرغم من امتلاكها أسلحة أكثر تطوراً وقوات أفضل تدريباً، إلا أن الحرب في تلك المرحلة تحولت إلى نزاع استنزاف طويل. وكان ذلك في مصلحة إيران التي تمتلك ثلاثة أضعاف العدد من الرجال على الأرض، ولم تكن تهتم إطلاقاً بالعدد الذي يُقتل؛ لأن هناك دائماً مزيداً منهم لاستبدالهم".

تغضن فمها قليلاً؛ كأنها تشمئز من الذهنية التي تصفها، ثم أضافت: "زادت حقيقة أن القسم الأعظم من الجيش العراقي يتكون من مسلمين شيعة من متاعب صدام، نظراً إلى أنه والنظام الحاكم من السُّنة".

ارتشفت فريا قهوتها الباهتة، التي لا طعم لها، متسائلةً إلى أين سيقود كل ذلك. كان فلين قد استرخى إلى الخلف ويحدّق إلى السقف، عيناه تلاحقان شرخاً رفيعاً يمتد قطرياً من أحد طرفي الغرفة إلى الطرف الآخر.

تابعت كيرنان وهي ترفع يدها اليسرى وتتحسس رمز النصارى الديني على عنقها: "بحلول العام 1986، أصبح صدام رجلاً عصبياً حقاً. بدا واضحاً أنه حتى

مع الدعم الغربي لن ينتصر أبداً في الحرب، وأن احتمال خسارته إياها كبير في الواقع. كان مثل ملاكم سيخوض الجولات النهائية من نزال وهو يعرف أنه متخلّف في النقاط، وأن خصمه لديه أكثر منه في جعبته، وكلما طال أمد النزاع أصبح أضعف. قرّر أن ما يحتاج إليه هو ضربة واحدة قاضية، لكمة قاصمة ستنهي النزاع وتقضي على إيران في هجوم شامل واحد".

توقفت، وعيناها ثابتتان على فريا وأضافت: "وكان الشكل الواضح لتلك اللكمة القاضية ضربة نووية ضد طهران".

نظرت فريا إليها مندهشة وقالت: "لكنني ظننت...".

أنهت كيرنان الجملة: "أن صدّام لم يكن يمتلك القنبلة؟ لم تكن في حوزته، لكنه كان بأمس الحاجة إليها. وبالرغم مما ادّعاه بليكس والأشخاص العطوفون الآخرون في الأمم المتحدة، اقترب من امتلاكها أكثر مما عُرف علانية".

سمعوا في الخارج زعيقاً مفاجئاً وحاداً لقططة تتقاتل. ألقت كيرنان نظرة احتراس أخرى إلى خارج النافذة، ثم عادت وجلست على ذراع الأريكة خلف فلين.

قالت وهي ترتشف قهوتها: "صدّقي أو لا تصدّقي، إنّ تصنيع قنبلة ذرية ليس صعباً جداً تقنياً. بالتأكيد ليس على شخص يمتلك الموارد العلمية التي كانت تحت تصرف صدّام. المشكلة في الحصول على المادة الانشطارية الضرورية، خاصة بلوتونيوم-239 أو يورانيوم-235. لن أدخل في فيزياء كل هذا؛ لأكون صادقة، فأنا لا أفهم حتى الفيزياء، لكن إنتاج أيٍّ من هذين النظيرين بكمية كافية، وبدرجة كافية من النقاء لاستخدامه في سلاح هو عملية معقدة ومكلفة جداً وتستهلك وقتاً طويلاً، وكانت في العام 1986 كما هي الحال اليوم خارج متناول كل الدول باستثناء عددٍ منها. لم يكن صدّام لينجز ذلك بمفرده، وأياً كانت المساعدات الأخرى التي تقدمها له الحكومات الغربية، إلا أنها لم تكن لترحّب به بكل تأكيد في النادي النووي. لذا، بدأ يبحث في مكان آخر، ويجس نبض بعض أسوأ تجار السلاح في العالم ليرى إن كان بمقدورهم تقديم البضائع المطلوبة له. وفي أواخر العام 1986، قدّم أحد هؤلاء التجار أوراقاً رابحة".

ارتشفت ما تبقّى في كوبها وتابعت: "كان ذلك الرجل روماني جرجس".

كانت فريا على وشك أن تقاطعها لتطلب توضيح علاقة كل هـذا بمقتـل شقيقتها، وبكل ما حدث لها في الساعات الأربع والعشرين الأخيرة، ولكنّها أحجمت عن ذلك حين ذُكر اسم جرجس.

سألت: "جرجس تاجر سلاح؟".

قال فلين وهو يميل إلى الأمام: "بين أشياء أخرى: سلاح، مخدرات، دعارة. تهريب آثار... لا يوجد عمل قذر إلا ويدس إصبعه فيه. على أيّ حال، إنّ تجارة السلاح مهنته الرئيسة".

"وزوّد صدّام حسين بقنبلة؟".

قالت كيرنان: "بخمسين كيلوغراماً من اليورانيوم عالي التخصيب المعدّ لتصنيع أسلحة، لأكون دقيقة. كمية كافية لإنتاج قنبلتين ذريتين تنفجران داخلياً بقوة تدمير قنبلة هيروشيما. بضربة واحدة كان بمقدور صدّام تمهيد طهران ومشهد. وإنهاء الحرب، والقضاء على الثورة الإيرانية، وتنصيب نفسه سلطة مهيمنة في المنطقة كلها. باختصار، تغيير مجرى التاريخ، وكاد أن يفعل ذلك أيضاً".

سمحت لفريا أن تستوعب ذلك، ثم وقفت سائلةً: "أيريد أيٌّ منكما المزيد من القهوة؟".

رفع فلين كوبه، في حين احتفظت فريا بكوبها. اختفت كيرنان في المطبخ. التقت عيون فلين وفريا لحظة قصيرة، ثم أشاح كلٌّ منهما ببصره بعيداً.

جاء صوت كيرنان قائلةً: "حتى بعد ربع قرن من تلك الحادثة، ما زلنا لا نعلم مئة بالمئة التفاصيل الدقيقة للصفقة التي قدّمها جرجس. من المعلومات التي استطعنا جمعها حصل على اليورانيوم من وسيط سوفييتي يدعى ليونيد كانونين، وقد لقي حتفه بسبب عمل بغيض تماماً قام به في جناح فندق باريسي في العام 1987. وقد حصل ليونيد كانونين على اليورانيوم بدوره من علاقات له في الجيش السوفييتي. لم نعرف قط من أين جاء بالتحديد، ولا علاقة لذلك بموضوعنا. ما نعرفه حقاً هو أنه في تشرين الثاني عام 1986 استأجر جرجس طائرة شحن أنتونوف مسجلة في جزر الكايمان يقودها رجل يدعى كورت رايتر؛ مهرّب سلاح ومخدرات متمرّس في أيام الحرب الباردة. التقت الطائرة مع كانونين في مهبط شمالي ألبانيا، حيث استلم اثنان من ممثّلي جرجس البضاعة وسلّما دفعة أولى قيمتها 50 مليون دولار. لإبعاد الشبهة

عن الطائرة، كان على الشحنة أن تطير على ضلعي مثلث؛ أولاً إلى الخرطوم ثم بعد ذلك إلى بغداد، حيث سيحرّر وصولها بأمان المبلغ المتبقي لكـانونين والبـالغ 50 مليون دولار. كان جرجس سيحصل على عمولة عشرين بالمئة، وصـدّام علـى قنبلته، وتُمحى إيران من الوجود، والجميع يبتسمون".

عادت إلى غرفة المعيشة تحمل كوبين يتصاعد البخار منهما، أعطت واحـداً إلى فلين وجلست مجدداً على ذراع الأريكة. أطبق الصمت آنذاك. وراحت فريـا تحدق إلى الأرضية، محاولةً استيعاب كل ما قد أخبرتها كيرنان به للتو. نظـرت إلى عيني كيرنان مباشرة، وطرحت السؤال الذي كانت على وشك أن تقولـه قبـل خمس دقائق: "لا أفهم ما علاقة أيٍّ من هذا بشقيقتي. مع قضية الواحـة الخفيـة هذه؟".

قالت كيرنان: "حسناً، نصل الآن إلى هذا. علمنا بالعملية كلها منذ وقـت مبكر جداً، من مخبرَين في كلتا منظمتي جرجس وكانونين، لكنها كانت معلومات عامة. عرفنا ما كان يُخطط له، ومن هم المتورطون؛ ما لم نستطع الحصول عليـه هو التواريخ والأماكن والأوقات الدقيقة. قبل ساعتين فقط من الموعـد في ألبانيـا استطعنا أخيراً معرفة التفاصيل بشأن طريقة نقل اليورانيوم، والمكان الذي سـيُنقل إليه".

"بحلول ذلك الوقت، كان الوقت قد تأخر كثيراً لاعتراض الأنتونوف قبل أن تقلع. كان هناك احتمال ضئيل أن يتمكّنوا من إيقافها حين تحط للتزوّد بالوقود في بنغازي، لكن، نظراً إلى طبيعة علاقاتنا بالقذافي في ذلك الوقت كان الأمر مملـوءاً بالتعقيدات. بدا من الأفضل أن نراقب الطائرة عن كثب ونعترضها في الخرطـوم، قبل أن تبدأ رحلتها النهائية إلى بغداد. كانت لدينا وحدة قوات خاصة موجـودة على الطرف الآخر من البحر الأحمر، وقد أُبلغ الإسرائيليون لتقديم المساعدة. كان يجب أن يكون الأمر في منتهى السهولة، وهو كـذلك لـو لم تتـدخل الطبيعـة بحكمتها".

هزّت فريا رأسها وسألت: "الطبيعة؟".

قالت كيرنان بتنهيدة: "الشيء الوحيد الذي لم نخطط له. ضـربت عاصـفة رملية الأنتونوف وهي تطير فوق الصحراء الكبرى، وفقدت كلا محركيها. التقطت

إحدى محطّات تنصّتنا رسالة استغاثة من مكان ما فوق هضبة الجلف الكبير، ثم تلاشت الطائرة عن شاشات الرادار واختفت".

التقطت فريا أول مرة خيطاً باهتاً من الضوء، وفهمت شيئاً، فقالت: "تحطمت في الواحة، أليس كذلك؟ هذا ما هو عليه الأمر، وسبب رغبة جرجس بالحصول على الصور. تحطمت الطائرة في الواحة الخفية".

ابتسمت كيرنان بالرغم من أنه لم تكن هناك دعابة في التعبير وقالت: "لم نكتشف ذلك على الفور. كل ما عرفناه أن الأنتونوف قد سقطت في مكان ما قرب الجلف، وهي منطقة كبيرة جداً؛ 5000 كيلومتر مربع من الصخور والصحراء. لكن بعد نحو ست ساعات من أول رسالة استغاثة، التقطنا رسالة لاسلكي ثانية، أرسلها هذه المرة الطيّار المساعد، رجل يدعى رودي شميدت، بدا أنه الناجي الوحيد من الحطام. كان الإرسال مشوشاً ولم يستغرق إلا ثلاثين ثانية. لكن في ذلك الوقت استطاع شميدت تقديم وصف مبهم عن المكان الذي تحطّمت فيه الطائرة. في وادٍ ضيق يمتلئ أشجاراً، كما قال، والآثارُ في كل مكان. آثار قديمة، ومن بينها معبد ضخم من نوعٍ ما ورمز مسلّة غريب عليه نقوش".

تمتمت فريا: "بنبن". بالرغم من دفء الغرفة، شعرت بقشعريرة تسري في ذراعيها.

قال فلين متابعاً القصة: "حتى من دون ذلك النبأ السار، لم يكن يعقل أن يكون مكاناً آخر *إلا ويت سيشتات*. ليست هناك مواقع أثرية معروفة أو مشهورة في نطاق مئتي كيلومتر من الجلف الكبير، وبالتأكيد، ولا أيّ واحدٍ منها داخل نوع الوادي الذي كان يصفه. بدا معقولاً أن يكون موقعاً غير معروف، لكن رمز بن بن أزال أي شك".

هزّ فلين رأسه ومال إلى الأمام ممسكاً الصور التي كان قد ألقى بها على الأرض.

قال وهو يقلّب الصور: "احتمال واحد في المليون، واحد في المليار. على امتداد الصحراء الكبرى الشاسع، سقطت الأنتونوف بعنف وسط الواحة الخفية. الأمر مثل إلقاء قطعة قطن فوق نيويورك لتدخل مصادفة في سَمِّ إبرة. لا يمكنك فعل ذلك، لا أحد يستطيع فعل ذلك فحسب".

كانت كيرنان تجلس على ذراع الأريكة بجانبه تحدّق أيضاً إلى الصور للمـرّة الأولى، وعيناها تلمعان.

قالت ورأسها مائل إلى الجانب لترى الصور على نحو أفضل: "لقد كنا نبحث عن تلك الطائرة منذ نحو ثلاث وعشرين سنة. ساند فاير: كـان ذلـك الاسـم العملياتي الذي استخدمناه لعملية البحث. كانت سرية جداً بالطبع... حتى ضمن الوكالة لم تكن هناك إلا مجموعة صغيرة منا تعرف بشأنها، ومنذ البداية اتُّخذ قرار بعدم إعلام السلطات المصرية خوفاً من قيام أحدهم بإبلاغ جرجس أننا نلاحقـه. بالرغم من ذلك، وبفضل التقانة المتوافرة - صور الأقمـار الصـناعية، طـائرات الاستطلاع، الطائرات من دون طيّار - كان يجب أن نتمكّن من تحديد موقع ذلك الشيء في أيام".

جلست مشدودة القامة مجدداً ناظرةً إلى فريا، متابعةً حديثها: "قمنا بمسح كل بوصة من الجلف الكبير ودائرة قطرها مئة وخمسون ميلاً في الصحراء حولـه، ولم نعثر على شيء. لقد بحثنا من الجو، وقلبنا كل قطعة حجارة من أبو بلاس - تـل الفخار - إلى بحر الرمال الكبير وصولاً إلى جبل عوينات وتلة يرجوهدا. وبعد كل ذلك...".

شخرت بيأس ثمّ تابعت: "لا شيء. طائرة يبلغ طولها ثمـانين قـدماً وتـزن عشرين طناً سقطت واختفت. صدّقيني، لا تعجبني المعتقدات الخرافية، لكن حـتى أنا بدأت أظن أن كل تلك الأشياء في بردي إمتي-خنتيكا عن اللعنات وأنشـودتي الإخفاء ربما تتضمن بعض الحقيقة. أنا واثقة ألاّ أحد يستطيع تقـديم أي تفسـير آخر".

بدأ بوق سيارة يصدح في الخارج، وتوقف على الفور. وقفت كيرنان وألقت نظرة أخرى عبر الستائر قبل أن تعود ضامة ذراعيها إلى صدرها.

قالت: "في السنوات القليلة الأولى، جرّبنا كل ما لدينا لحل المشكلة، لكننـا بعد ذلك بدأنا نتراجع. قرّرنا أنه إذا لم نستطع العثور على الواحة، فلن يسـتطيع العثور عليها جرجس أو أي شخص آخر. أبقينا بوضوح عيوننا مفتوحـة علـى الأشياء، خاصة بعد هجوم 9/11؛ لا يمكن أن نحتمل التفكير في ما يمكن أن يحدث إن عرفت مجموعة مثل القاعدة أن هناك خمسين كيلوغراماً من اليورانيـوم عـالي

التخصيب موجودة من دون حماية في وسط الصحراء. لا نـزال نقوم بعمليات استطلاع وتصوير بأقمار صنعية منتظمة، ولدينا وحدة عمليات خاصة في المقر الدائم في الخارجة تحسباً لظهور أيّ شيء. لكن على الأغلب كنا نعتمد على من ندعوهم أشخاصاً ليّني العريكة: وهم مدنيّون يمتلكون معرفة خاصة، أو لديهم نشاط في المنطقة الجغرافية التي هي موضوع الاهتمام، ويُحتمل أن يعثروا مصادفة على شيء قد غفلنا عنه".

أومأت نحو الأريكة وقالت: "عرفتُ فلين في التسعينيات، حين كان مع أم آي 6، بعد أن...".

ترددت قليلاً؛ كأنها تختار الكلمات الصحيحة، ثمّ تابعت: "أنهى ارتباطه بالاستخبارات البريطانية وعاد إلى علم الآثار المصرية، حيث انتقل إلى هنا. فاتصلت به وطلبت منه المساعدة. خيار واضح نظراً إلى العمل الذي كان يقوم به".

سألت فريا: "وألكس؟".

"مجدداً، كانت شقيقتك خياراً واضحاً. لقد تقاطع دربانا في لانغلي حين كانت تعمل في قسم تصوير وكالة الاستخبارات الأمريكية. عندما سمعت أنها ستستقر في الداخلة، اتصلت بها وأوضحت لها الموقف. وباستثناء زاهر الصبري، لم ألتقِ شخصاً قط يعرف الجلف مثل ألكس. وافقت على الاشتراك، مقابل دعم بحثها ببعض المال. ولأكون صادقة، أظن أن التحدّي هو الذي جذبها أكثر من التمويل أو الرغبة بحماية العالم الحر. ونظراً إلى طبيعة ألكس، كان لدي انطباع أنها تُعدّ الأمر مغامرةً مثيرةً".

هزّت فريا رأسها بحزن. كان ذلك بالتحديد السبب الذي جعل ألكس تتورط في الأمر، كما اعتقدت، لأنه شيء مختلف، شيء غامض. لم يكن بمقدورها مقاومة الغموض قطّ، وجعلتها تلك المغامرة تلقى حتفها. ألكس المسكينة، ألكس العزيزة المسكينة.

كانت كيرنان تقول: "... أبقينا الأمر بسيطاً قدر المستطاع. هم يقدمون تقاريرهم إلي؛ وذلك كل شيء، ولا يتورّطون مع الوكالة *بحدّ ذاتها*. كنا على وشك أن نقنع أنفسنا أنه لن يُعثر على الطائرة أبداً، وأنها أحد تلك الأسرار من

نوع مثلث برمودا التي لا يمكن تفسيرها. وفجأة، وبعد ثلاث وعشرين سنة، تظهر جثة رودي شميدت في مكان ناءٍ ويُفتح الأمر كله على مصراعيه مجدداً".

تنهّدت وفركت صدغيها. بدت، كما ظنّت فريا، أكثر قلقاً مما كانت عليه حين وصلا الشقة.

قالت: "لا يُصدّق. وواضح أنه مبعث قلق كبير. ربما يكون صدّام قد رحل، لكنّ هناك آخرين كثراً سيكونون سعداء جداً لإتمام هذه الصفقة. وروماني جرجس ليس رجلاً من النوع الذي يعترض على هوية من يتعامل معهم".

استدارت إلى الخلف، وألقت نظرة أخرى إلى خارج النافذة، رأسها يميل إلى الخلف والأمام قبل أن تستدير مجدداً.

أطبق الصمت قليلاً، ثمّ سألت فريا: "ماذا الآن؟ ماذا ستفعلين؟".

هزّت كيرنان كتفيها وقالت: "لا يمكننا فعل الكثير. سنحلل هذه في الحواسيب" - أشارت إلى الصور في يد فلين - "نبحث في ما لدينا عن الجلف وجرجس. باستثناء ذلك...".

رفعت رأسها إلى الأعلى وتابعت: "نراقب، ننتظر، نضيع الوقت سدى. هذا ما نفعله".

قالت فريا: "لكن جرجس قتل شقيقتي، قتل ألكس".

تقطب حاجبا كيرنان عبوساً من ذلك، ونظرت إلى فلين، الذي هزَّ رأسه قليلاً كأنه يقول: "دعيها تتابع".

كرّرت فريا ووجهها يتورد: "جرجس قتل شقيقتي. لن أجلس مكتوفة اليدين. هل تفهمين؟ لن أترك الأمر يمر ببساطة".

كان صوتها قد بدأ يرتفع. اقتربت كيرنان منها وجلست القرفصاء أمامها. مدّت يدها، وضغطت على ذراعها.

قالت: "سينال روماني جرجس الجزاء الذي يستحقه. إذا لم تثقي بي في أي شيء آخر، فثقي بي في هذا".

أطبق الصمت وقتاً قصيراً، وكيرنان تنظر إلى عيني فريا، ثم أومأت ونهضت مجدداً.

قالت: "الآن، أظن أننا قد تكلمنا بما يكفي ويجب أن تذهبي لتستحمي؛ لأن رائحتك من حيث أقف ليست جيدة".

ابتسمت وفعلت فريا الشيء نفسه رغماً عنها، ثم وقفت فجأة، مرهقة وقالت: "قلتِ إن هناك ثياباً نظيفة".

قالت كيرنان: "أول غرفة نوم إلى اليمين، على السرير. ستجدين مناشف هناك أيضاً، واحذري جهاز التحكم بالحرارة المرشاش، إنه يعمل كما يحلو له".

مشت فريا نحو الباب، خرجت إلى الممر، فقط لتستدير وتضع رأسها داخل الغرفة مجدداً.

قالت لفلين: "آسفة بشأن المسدس، في سيارة الأجرة. لم أكن لأطلق النار عليك قطّ".

لوّح بيده وقال: "أعرف. لقد تركت زناد الأمان عالقاً. حاولي ألا تستهلكي كل المياه الساخنة".

بعد أن غادرت، جلست كيرنان على الكرسي ذي الذراعين الذي نهضت عنه فريا للتو. وتردد صوت مياه المرشاش من الطرف البعيد للشقة.

"إنها مثل ألكس تماماً، ألا تظن ذلك؟".

كان فلين مستغرقاً في النظر إلى الصور مجدداً، ولا يزال يرتدي قميصه وجينزه المتسخين.

قال من دون أن ينظر إليها: "مختلفة أيضاً. أكثر غموضاً. لديها بالتأكيد شيء تخفيه".

رفع صورة فوق رأسه محدّقاً إليها وأضاف؛ كأن الفكرة قد خطرت على باله: "لم تخبرني ألكس قط عمّا حدث بينهما. كان ذلك الشيء الوحيد الذي لم تتكلم قطّ عنه".

خفض الصورة ورفع أخرى. راقبته كيرنان وهي تنقر بأصابعها على ذراع الكرسي وقالت: "هل ترى شيئاً؟".

هزَّ فلين رأسه، ثم قال: "بالرغم من أن هذه تبدو مثيرة للاهتمام".

أعطاها فلين الصورة التي ينظر إليها؛ تمثال إنسان برأس تمساح. كان يقف على قاعدة ضخمة مكعّبة الشكل على سطحها نص هيروغليفي منقوش ضمن لفّات أفعى ظاهر تماماً للعيان.

سألت كيرنان: "سوبك وأبيب؟".

أومأ فلين وقال: "صيغة اللعنة نفسها في بردي إمتي-خنتيكا: *ليسحق فاعلو الشر بين فكّي سوبك، وليبتلعوا إلى بطن الأفعى أبيب*. لكن يوجد شيء آخر هنا. انظري".

مال إلى الأمام ونقر بإصبعه على أسفل الصورة وترجم: "*وداخل بطن الأفعى، لتصبح مخاوفهم حقيقية، وريسوت بينو - أي: أحلامهم الشريرة - عذاباً حياً*. لا يوحي بشيء محدد، لكنه مثير للاهتمام من وجهة نظر أكاديمية. قطعة صغيرة أخرى من فسيفساء".

"هل تقرّبنا ولو قليلاً من الواحة الحقيقية؟".

همهم. "ولا حتى ملليمتراً واحداً".

استعاد الصورة، وتصفّح باقي الكومة مرة أخرى، ثم ألقاها على الأريكة ووقف قائلاً: "اجعليهم يحسّنونها بكل الوسائل، لكنني أخبرك منذ الآن ألاّ شيء فيها. أنت تضيعين وقتك يا مولي. إنها عديمة الفائدة".

أمال عنقه ومشى نحو خزانة خشبية على الطرف البعيد من الغرفة، فتحها، وأخرج قارورة شراب وكأساً صغيرةً.

قال، ملاحظاً نظرة الاستنكار على وجه كيرنان: "علاجي".

ملأ الكأس وشرب محتواها بجرعة واحدة ثمّ ملأها مجدداً، وضع القارورة في الخزانة وعاد إلى الأريكة. جلس هناك بعض الوقت محرّكاً الكأس، والسائل يدور فيها مثل لسان ذهبي متسخ. كان لا يزال صوت الماء المتدفق من المرشاش مسموعاً. تناول فلين بعد ذلك نصف الشراب، وثبّت ناظريه على كيرنان وقال: "هناك شيء آخر يا مولي".

رفعت حاجبيها، وأمالت رأسها قليلاً.

"أظن أن شخصاً ربما يتنصّت على هاتفك الخلوي".

لم تقل كيرنان شيئاً، بالرغم من أن الطريقة التي توقفت فيها أصابعها عن النقر فجأة أشارت إلى أن ملحوظة فلين قد فاجأتها.

تابع قائلاً: "عندما وصلت فريا إلى القاهرة، تركت رسالة على بريدك الصوتي تُعلمك فيها أنها ستذهب لرؤيتي في الجامعة. بعد ثلاثين دقيقة، ظهرت مجموعة من

المرتزقة واتجهوا إلى مكتبـــي مباشرة. يبدو محتملاً أن يكون هناك شخص في الحرم الجامعي يبحث عنها، لكن عندما كنا في المتحف، تركت أنا أيضاً رسالة لـــك في بريدك الصوتي. النتيجة: ظهرت المجموعة نفسها من المرتزقة فجأة وحُزَّ عنق صديق عزيز علي. إنها أكثر من مجرد صدفة. لا بد من أن جرجس يتنصّت على هاتفك".

كان فلين قد عرف كيرنان منذ نحو خمس عشرة سنة، وطوال تلك المـــدة لم يرها مرة تبدو غاضبة؛ حتى ذلك الوقت.

قالت وهي تقف: "ذلك ليس ممكناً. ذلك ببساطة مستحيل".

"لا أرى أي تفسير آخر، إلا إن كانت فريا تكذب أو أنت تعملين لمصـــلحة جرجس، وأشك في كلا الأمرين".

مشت كيرنان بخطوات واسعة نحو الطاولة حيث توجـــد حقيبـــة الكتـــف خاصتها، وأخرجت هاتفها النوكيا ملوّحةً به وقالت: "هذا هاتف الوكالة يا فلين. ولا يمكن اختراقه. هناك كلمات سر، أرقام تعريف شخصية، أرقام هوية خاصة... إنه محمي تماماً. حتى الروس اللعينون لا يستطيعون اختراقه".

مرة أولى أخرى: لم يسمع فلين كيرنان تتلفّظ بكلمة نابيةٍ قطّ. تناول رشـــفة أخرى من الشراب وقال: "شخص من الداخل؟".

فتحت فمها، وأغلقته وعضّت شفتها.

قالت أخيراً: "لا"، ومجدداً: "لا، ليس ممكناً. الاستخبارات المركزية لا تتنصّت على اتصالات عملائها الخاصة. التقانة موجودة بالتأكيد، لكـــن أن يســـتخدموها ضد موظف في الوكالة... أنت تتكلم عن إذن عالي المستوى هنا. إنه لـــيس... لا يمكنني تصديق هذا. لا أستطيع تصديقه فحسب. يجب أن يكون هنـــاك تفســـير آخر".

هزَّ فلين كتفيه وتجرّع باقي الشراب. مدَّ يده إلى داخل جيـــب جينـــزه. وأخرج البطاقة التي كان أنغلتون قد أعطاه إياها في مشرب وندسور ودفعها إليهـــا قائلاً: "على أيّ حال، أظن أنه يجب عليك أن تتحقّقي من هذا الرجل".

أخذت كيرنان البطاقة.

تابع: "كان يراقبني، ويظهر في أماكن يجب ألاّ يذهب إليها، في المتحف مثلاً حين أخرجنا مرتزقة جرجس منه. لا يمكنني إثبات أي شيء، لكنني سأراهن أنـــه

كتشف أننا هناك بالطريقة التي اكتشفوا بها هم ذلك. أياً تكن مهمته، هذا الشخص لا يعمل بالتأكيد في العلاقات العامة".

كانت كيرنان تتفحّص البطاقة، وعيناها تحدّقان إليها، وقد خلا وجهها فجأة من اللون؛ كأن هذه المعلومة الأخيرة قد أغضبتها أكثر من أي شيء آخر عرفته قبلها. توقف صوت الماء في الحمام، وأطبق الصمت على الشقة. مشت كيرنان بعد ذلك نحو حقيبتها، وألقت البطاقة والهاتف الخلوي فيها وعادت لتواجه فلين.

قالت بنبرتها الحازمة والآمرة: "يجب أن تخرجا من القاهرة، من مصر، كلاكما. الليلة. الوضع خطر جداً. الأمور تخرج عن السيطرة، وقد خرجت فعلاً من أيدينا".

"من دون إساءة يا مولي، لكنني مدني ولا يمكن أن تأمريني. أفعل ما أريده".

"هل تريد أن ينتهي الأمر بك ميتاً؟".

قال وعيناه قاسيتان ولا تطرفان: "أريد أن أعثر على الواحة، ولن أذهب إلى أي مكان حتى أفعل ذلك".

بدا للحظة أن كيرنان ستستشيط غضباً منه، لكنها اقتربت ووضعت يدها على كتف فلين وقالت: "هل هذا بشأن الواحة فقط؟".

قال: "المعنى؟".

"المعنى: هل هناك أكثر من مجرد اهتمام بالآثار المصرية ورغبة في إيقاف حرجس؟".

"تبدين على نحو خطر مثل محلل نفساني يا مولي".

"كنت آمل أن أبدو مثل صديقة تهتم بك ولا تريد أن تصاب بأذى".

تنهّد ووضع يده على يد كيرنان قائلاً: "آسف، كان ذلك فظاً. إنه فقط، تعرفين...".

أحجم عن الكلام، فحرّكت كيرنان رأسها وعانقته وهي تقول: "ما حدث مع الفتاة انتهى يا فلين. إنه من الماضي، الماضي البعيد. وأياً يكن الثمن الذي تظن أنك تدين به، فقد دفعتَ أكثر منه حتى الآن. حان الوقت لتترك ذلك وراء ظهرك".

لم يقل أيّ كلمة، فتابعت كيرنان حديثها: "أعرف مدى أهمية هذا الأمر لك، لكن أشياء كثيرة تؤرقني ولا أريد أن أقلق بشأنك أنت وفريا أيضاً. أرجوك، أوقف

نشاطك الآن، وحقق رغبة لسيدة عجوز وغادر. على الأقل حتى تهدأ الأمور وأتعامل مع كل ما اتضح في الساعات الأربع والعشرين الماضية، وصدّقني أنها ستكون بالغة الأهمية".

رفع فلين كأسه إلى فمه بالرغم من أنها فارغة وتمتم قائلاً: "يمكنني فعل المزيد".

هزّت كيرنان رأسها ساخطة وقالت: "آه! أرجوك يا فلين! ما الذي يمكنك فعله أكثر مما قد فعلته أصلاً في السنوات العشر التي كنت تعمل فيها على *ساند فاير*؟ ماذا؟ أخبرني؟".

"يمكن أن أراجع ملحوظاتي مجدداً. صور الأقمار الصنعية. بيانات مقياس المغناطيسية... ربما فاتني شيء ما".

ظهر اليأس في صوته، مثل طفل يحاول إقناع والده بالسماح له بالسهر إلى وقت متأخر، ومشاهدة برنامج تلفازي ممنوع.

أصرَّ قائلاً: "لا بد من أن هناك شيئاً. يجب أن يكون".

"فلين، لقد راجعت تلك المواد ألف مرة. عشرة آلاف مرة ولم تجد شيئاً. إنه طريق مسدود".

"يمكن أن أذهب إلى الجلف... يمكنني... يمكنني...".

"المكان الوحيد الذي ستذهب إليه هو مطار القاهرة الدولي حيث ستكون على متن أول رحلة...".

صرخ قائلاً: "يمكنني الذهاب لرؤية فدوي".

كرّر وهو ينظر إلى كيرنان: "يمكنني الذهاب لرؤية حسن فدوي. كان يقول إنه يعرف شيئاً عن الواحة. ذلك ما سمعته. ذلك هراء على الأرجح، لكن على الأقل يمكنني أن أذهب وأتحدّث إليه".

فتحت كيرنان فمها لتجادل، ثم أغلقته مجدداً. حدّقت إلى فلين بعينين ضيقتين مقيِّمةً الأمور في ذهنها.

قالت أخيراً: "قلت إنه لن يتحدّث إليك، وإنه يفضّل أن يقطع لسانه".

"إذاً، سيطلب مني أن أغرب عن وجهه. الأمر يستحق المحاولة بالتأكيد. إن كانت المخاطر كبيرة، فالأمر يستحق محاولة، وأنت تعرفين ذلك".

أحس بأنها بدأت تضعف، فضغط لتعزيز أفضليته وتابع حديثه: "سأذهب وأراه. إذا ردّني خائباً، فسأفعل ما تريدينه... سآخذ إجازة، وأذهب إلى إنكلترا بضعة أسابيع. أرجوك يا مولي، دعيني أحاول. لقد قطعت شوطاً طويلاً، لا توقفيني الآن. ليس في حين لا تزال هناك خيارات مفتوحة أمامنا. ليس الآن، ليس بعد".

وقفت في مكانها، وارتفعت يدها إلى رمز النصارى الديني حول عنقها وقالت: "ماذا بشأن فريا؟".

ردّ: "حسناً، في عالم مثالي، كانت ستستقل أول رحلة تخرج من هنا، لكن مما قد رأيته منها حتى الآن، فإنّها لن تذهب بهدوء".

شبكت كيرنان ذراعيها، وصمتت مجدداً.

بعد فترة صمت قالت بتردد: "لا بأس. اذهب وتحدّث إلى فدوي. توثّق إن كان يعرف شيئاً. لكن، إذا لم تحظَ بشيء...".

"فسأخرج من هنا. كلام شرف".

مسَّ بيده جبينه في تقليد لتحية.

ابتسمت ثمّ ضغطت على كتفه ومشت في الغرفة. أمسكت هاتفاً لاسلكياً كان موضوعاً على قاعدته فوق خزانة بجانب الباب، واختفت في المطبخ، وزوّدت شخصاً بتعليمات لتحضير جوازَي سفر بسرعة والتوثق من وجود مقاعد شاغرة على كل الرحلات التي ستغادر القاهرة في الاثنتي عشرة ساعة القادمة.

كان فلين محقاً، ففريا لم تغادر بهدوء.

ظهرت مجدداً بعد عشر دقائق مرتديةً الثياب التي كانت كيرنان قد أحضرتها لها، وهي: سروال جينز، قميص، سترة صوفية، حذاء ذو نعل مطاطي. كانت مناسبة على نحو مفاجئ، بالرغم من أنها اضطرت إلى رفع طرفي سروال الجينز، وكان القميص والسترة الصوفية ضيّقَين قليلاً. ولم تزعج نفسها بارتداء الصدرية التي كانت أكبر بثلاث مقاسات.

عندما شرحت كيرنان ما قرّراه، وأنها ستوضع من أجل سلامتها على الرحلة التالية التي تغادر مصر، رفضت ذلك رفضاً قاطعاً. كانت تدين لشقيقتها بالبقاء، كما قالت، ولن تذهب إلى أي مكان حتى ترى جرجس إما في زنزانة الشرطة

أو في تابوت. حاولا إقناعها، وإخبارها ألاّ شيء يمكن أن تفعله و لم يُنجز من قبل. لكنها لم تقتنع بأيٍّ من ذلك، وأصرّت على الذهاب مع فلين.

قالت وهي تقف وسط الغرفة ويداها على وركيها: "إليكما الاتفاق. إما أن نعمل معاً، أو سأذهب إلى الشرطة، أو أن تبقياني هنا رغماً عن إرادتي، وهذا ما أود رؤيتكما تحاولان فعله".

ثبتت قدميها وشدّت قبضتيها؛ كأنها على وشك أن تخوض نزال ملاكمة. هزّت كيرنان رأسها بنفاد صبر، فابتسم فلين.

"أظن أننا نخوض معركة خاسرة يا مولي. سأذهب وفريا لرؤية فدوي معاً. وإذا لم يتمخض شيء عن ذلك، فسنطير معاً".

لم تكن كيرنان مسرورة - "بحق الله، نحن لا نساوم في سوق هنا!" - لكن فريا كانت عنيدة، وفي النهاية اضطرت المرأة الأكبر سناً إلى التراجع.

تمتمت: "مثل التعامل مع طفلين مشاغبين. يصبح الأمر صعباً حين أضطر إلى التفاوض بشأن طريقة إدارة عمليتي الاستخباراتية".

بدت أكثر صلابة مما هي عليه في الواقع، وبالرغم من حدّة صوتها، كان هناك وميض في عينيها.

قالت: "أرجوكما لا تجعلاني أندم على هذا".

استحم فلين وبدّل ملابسه، لكن ثيابه بدت مزيجاً أقل نجاحاً من ثياب فريا. همهم وهو يشير إلى قميصه الوردي الفضفاض وجينزه المزركش: "أبدو مثل أولئك الذين يرتادون نوادي الشاذين". أمسكت كيرنان حقيبتها، وقادتهما نزولاً على السلالم إلى خارج المبنى. كان جيب شيروكي فضّيّ متوقّفاً على بعد مبنيين في الشارع نفسه بجانب ساحة لعب للأطفال.

قالت وهي تسلّم فلين المفاتيح وتنقر على بطاقة عبور داخل الزجاج الأمامي: "يمكن أن تأخذا الشيروكي. عليه بطاقة السفارة؛ وهذا سيعبر بكما أي نقاط تفتيش من دون أسئلة كثيرة. هل لديكما مال كافٍ؟".

أومأ فلين.

"إذا كان ما أخبرتني به صحيحاً، فسيكون من الأفضل على الأرجح ألاّ تتصل بي عبر هاتفي الخلوي من الآن فصاعداً، أو أيٍّ من أرقامي الأرضية أيضاً".

"إذاً، كيف أتصل بك؟".

أخرجت كيرنان دفتر ملحوظات صغيراً وقلماً من حقيبتها، وفصلت ورقةً منه وكتبت رقماً عليها.

"حتى أتوثق من كل هذا يمكن أن تترك رسائل لي على هذا الرقم. إنها خدمة مؤمنة، ولا أحد غيري يعرف شيئاً عنها، لهذا، إن لم يكونوا يتنصّتون على كل مكالمة صادرة من مصر وواردة إليها، يجب أن يفي هذا بالغرض".

أعطته الرقم وصعدا إلى الجيب. جلس فلين خلف المقود وعدّل مقعد السائق، ثم شغّل المحرك، وأنزل زجاج نافذته.

قالت كيرنان: "ابقيا على اتصال، وانتبها إلى نفسيكما".

قال فلين: "انتبهي أنتِ إلى نفسك".

بدا ألاّ شيء آخر يقولانه، وبإيماءة منه نقل مبدل السرعة الآلية إلى وضعية حركة وبدأا يتحركان. نادتهما كيرنان:

"يجب ألاّ يكون لهذا علاقة بالفتاة يا فلين. لا تدين بأي شيء لأحد. تذكر ذلك. هذا من الماضي".

أطلق بوق السيارة فقط، ومن دون أن ينظر إلى الخلف انطلق في الشارع وانعطف عند منعطف، متجاهلاً عمداً نظرة الاستفسار التي ترمقه فريا بها.

انتظرت كيرنان حتى اختفت السيارة قبل أن تبحث في حقيبتها وتخرج هاتفها الخلوي.

تمتمت: "تباً. كيف بحق الله...؟ تباً!".

كان لدى سي أنغلتون مسدس؛ كولت 70؛ سلاح جميل، مطلي بالنيكل، مقبضه من خشب الورد المرصّع بمُعيَّنات صغيرة من البلاتينيوم واللآلئ. كان رجل أعمال خليجي قد أهداه إياه منذ سنوات طويلة مقابل خدمات أدّاها له. وكما يحب بعض الناس تسمية سياراتهم أو منازلهم، ولا يعدّونها أشياء جامدة وإنما يعدُّونها أشخاصاً حقيقيين، أطلق أنغلتون اسماً على مسدسه أيضاً. كان يدعوه ميسي، تيمناً بالفتاة صاحبة الوجه النَّمِش التي جلست بجانبه في الصف حين كان

صغيراً والشخص الوحيد الذي أظهر أي نوعٍ من اللطف تجاهه، ولم يزعجه بشأن حجمه وصوته وكل نقاط ضعفه الطبية المتنوعة.

بالرغم من أنه يتدرّب بانتظام مع ميسي - يطيح بعلب معدنية عن أسوار. يُحدث ثقوباً في دريئة حقل الرماية المحلي - ويأخذه دائماً معه إلى حيث يسافر في العالم، إلا أنه لم يستخدمه مرة في وضع عملياتي، ولم يقترب حتى مرة من استعماله، مفضلاً تركه مخبّأً في أسفل حقيبته مثل طفل في مهده، قانعاً بمعرفة أنه موجود هناك إن احتاج إليه.

كانت تلك الليلة مختلفة، فقد أخرج ميسي من مخبئه، ونظّفه وزيّته، ووضع فيه مخزناً جديداً وثبّته في قراب الكتف المصنوع من جلد الغزال تحت سترته. كان يستقر هناك آنذاك، مرتاحاً على كتلة اللحم تحت قلبه مباشرة، يرافقه في رحلته في سيارة مستأجرة وهو يراقب برودي والفتاة وهما يصعدان الشيروكي وينطلقان في الشارع أمامه.

كان قد لحق كيرنان إلى هناك في وقت باكر من المساء، وتعقّبها بسهولة بالرغم من ازدحام حركة مرور القاهرة، وحافظ على مسافة خلفها كل الطريق. يسير وراء ثلاث سيارات أو أربع، وتوقف في شارع جانبي حين اختفت في المبنى السكني. لم يكن يعرف أنها ذكية ومراوغة. ظهر برودي والفتاة بعد عشرين دقيقة، كما كان قد توقع، وبقي الثلاثة في الشقة ساعة تقريباً قبل أن يظهروا جميعاً مجدداً ويستقل الشابان الشيروكي. تركه ذلك في حيرة من أمره. هل يبقى هناك ويرى ما تفعله كيرنان، أم يلحق السيارة؟ شغّل المحرك وربت على ميسي، مدركاً أنه يجب أن يتخذ قراراً بسرعة.

كان أنغلتون مقتنعاً أنهم يفعلون شيئاً، وإلا لماذا سيكتب برودي رسالته النصّية الأولى إلى كيرنان بشيفرة من نوعٍ ما إن كانت تلك هي المرّة الأولى التي يفعل فيها ذلك؟ لم يكن أنغلتون متأكّداً ممّا يسعون إليه، لكن تخمينه كان شكاً عاماً وليس حقائق محددة.

كان الأمر لا يزال مزعجاً، وبغيضاً جداً، إن لم يكن غير متوقع إطلاقاً. بدأت الأشياء تتسارع وتضيق، كما هي دائماً في هذا النوع من العمل. أولاً، التعقّب خلسة في لعبة القط والفأر، ثم المطاردة المكشوفة، وأخيراً، الإمساك والقتل؛ بالرغم

من أنه لا يبدو واضحاً من سينتهي به الأمر ميتاً في هذه الحالة. لهذا السبب أراد ميسي أن يكون معه، فالوضع، كما أحسّ، على وشك أن يسوء، وقد أصبح خطراً فعلاً.

انعطف الشيروكي عند منعطف واختفى عن الأنظار. أراد أنغلتون بقوة أن يعرف ما يجري مع كيرنان. كانت لا تزال هناك أجزاء كثيرة مفقودة، لكن في تلك اللحظة جعلته فطرته يشعر بأنه يجب أن يبقى مع برودي وهانين. ألقى نظرة أخيرة على الشارع المضاء بالمصابيح: هل كان يتخيل أم إن كيرنان تعبس حقاً على هاتفها الخلوي؟ وانطلق خلف الجيب، واضعاً إحدى يديه على المقود في حين ضغط بالأخرى رقماً عبر هاتفه ورفعه إلى أذنه.

في مكتبه المكسو بألواح خشبية، وضع جرجس سمّاعة الهاتف ومال إلى الأمام شابكاً يديه على مكتبه.

"استريحوا أيها السادة. أظن أننا سنمضي ليلة طويلة".

كان يجلس أمامه بطرس صلاح، وأحمد عثمان، ومحمد قصري على كراسٍ جلدية عالية الظهر؛ صلاح يمسك كأساً من الشراب، وعثمان وقصري يحتسيان الشاي.

قال صلاح بصوته الأجش الأبحّ من التدخين: "إذاً، هكذا؟ أنجلس وننتظر؟".

رد جرجس: "هذا كل شيء. أفترض أن المروحيات قد زوّدت بالوقود؟ المعدّات جاهزة للتحميل؟".

أومأ صلاح.

"إذاً، لا شيء آخر يمكننا فعله".

"وإذا كانوا يخدعوننا؟".

قال جرجس وهو يومئ نحو إحدى شاشات تلفاز الدارة المغلقة المعلّقة على الجدار الجانبي: "حينها نسمح للتوأم بفعل ما يجيدانه". كان التوأم ظاهرين على الشاشة وهما يلعبان السنوكر في غرفة في الأسفل.

تمتم صلاح: "لا أحب هذا. لا أحبه يا روماني. يمكن أن يهربا".

"هل لديك اقتراحات أفضل؟".

همهم صلاح، وقد تناول رشفة من الشراب، ومجَّ من لفافة تبغ يحملها بيده الأخرى.

قال جرجس، وهو يميل إلى الخلف ويشبك ذراعيه: "إذاً، ننتظر. نجلس وننتظر".

قبل تسعين دقيقة، بعد فرار برودي والفتاة من منشية ناصر، كان على وشك الإصابة بسكتة قلبية، وكان يصعب التعرّف إليه، إذ كان يصرخ ويصيح، ويخدش نفسه كأن ألف حشرة صغيرة تزحف على جلده. بدا آنذاك هادئاً، ورابط الجأش. ويركّز على ما يفعله. كان أولئك المحيطون به يجدون تلك الصفة من شخصيته مربكة: الطريقة التي يتحول فيها غضبه البركاني فجأة إلى رباطة جأش قبل أن ينقلب أخيراً وفجأة أيضاً بالاتجاه المعاكس. كان من المستحيل توقع تصرفاته. ومعرفة طريقة التعامل معه، وذلك يترك موظفيه متحفّزين دائماً، وهذا بالتحديد ما يحبّه جرجس.

أحضر خادمٌ مزيداً من الشاي، وناقش الرجال الأربعة مرة أخرى التفاصيل اللوجستية، وتأكدوا من أن كل المشتركين في العملية جاهزون للانطلاق إن انبثقت أي معلومات جديدة. غادر قصري وعثمان بعد ذلك - قصري إلى المكتبة ليعمل على حاسوبه المحمول، وعثمان ليمتّع نفسه مع إحدى الفتيات اللواتي يحتفظ بهن جرجس جاهزات دائماً لخدمة ضيوفه وشركائه - وتركا جرجس وصلاح وحدهما في المكتب.

همهم صلاح وهو يطفئ لفافة التبغ ويشعل أخرى على الفور بالقدّاحة المعلّقة في سلسلة حول عنقه: "لا أزال لا أحب ذلك. هذا يترك مجالاً كبيراً للصدفة".

ابتسم جرجس، فقد قطع مع بطرس طريقاً طويلاً. كان قصري يعمل معه منذ عشرين سنة، وعثمان منذ سبعة عشر عاماً. وعمل معه صلاح، من ناحية أخرى، منذ البداية، وقد كبر الاثنان معاً في المبنى نفسه في منشية ناصر. كان هناك منذ البداية، ولا يزال هنا الآن، وهو أوثق المؤتمنين على أسراره، والشخص الوحيد في العالم الذي يمكن أن يعدّه صديقاً، بالرغم من أنه لن يفكر مرّتين في دقّ عنقه إن اضطر إلى ذلك؛ لم يكن هناك مجال للعواطف في هذا العمل.

قال: "كل شيء تحت السيطرة يا بطرس. إذا اكتشف بـروددي أي شـيء، فستكون أول من يعرف".

"قضى على أربعة من رجالنا، بحق الله. لا أحد يفعل ذلك. لا أحدا يجب أن نقتلع عيني الوغد، لا أن نجلس هنا نضرب بأقدامنا الأرض".

ابتسم جرجس مجدداً، ودار حول المكتب وربت على كتف زميله وقال: "ثق بـي يا بطرس، سنقتلع عينيه ونبتر أصابعه، ونجعله يتذكر بحسرة الأيام التي كـان بعد فيها من الرجال، وعيني الفتاة أيضاً، لكن ليس قبل أن نجد الواحة. حالياً ذلك هو المهم. ما رأيك الآن بلعبة طاولة النرد؟".

استمر صلاح بهمهم لحظة، قبل أن يبتسم هو الآخر ويقول: "مثـل الأيـام الخوالي".

جلس جرجس على أحد الكراسي الجلدية وسحب علبة خشبية مـن تحـت الطاولة الصغيرة بينهما وردّد قائلاً: "مثل الأيام الخوالي".

قال صلاح وهو يشاركه في ترتيب الحجارة: "هل تتذكر تلك الرقعـة الـتي اعتدنا اللعب عليها حين كنا صغيرين؟ تلك التي أعطانا إياها الأب فرانسيس".

سأل جرجس وهو يرتب حجارته: "ماذا حدث للأب فرانسيس؟".

"بحق الله يا روماني! اضطررنا إلى تصفيته، ألا تتـذكر؟ بعـد أن اكتشـف المخدرات، وقال إنه سيبلغ عنا".

"طبعاً، طبعاً. رجل سخيف".

عندما أنهيا ترتيب الحجارة، ألقى جرجس النردين في علبة جلدية: دبل شيش (ستة مزدوجة). ضحك بصوت خافت؛ بدا أنها ستكون ليلة حظه.

كانت الساعة 8:30 حين غادر فلين وفريا الشقة. قاد فلين الشيروكي مـدّة عشر دقائق، مرتاباً أن يكون جرجس قد تعقّب أثرهما بطريقة ما، ينعطف فيه فجأة يميناً ويساراً، وهو ينظر باستمرار عبر مرآة الرؤية الخلفية الداخلية ليتوثق من أنّ لا أحد يلحق بهما. أخيراً، بعد كثير من اللف والدوران عادا إلى الأتوسـتراد نفسـه الذي سارا عليه سابقاً في سيارة أجرة؛ أو على الأقل هذا ما بدا لفريا، فلم يكـن

بمقدورها أن تتوثق من ذلك. تابعا على الطريق نفسه بضع دقائق أخرى قبل أن يُدير الإنكليزي فجأة، ولرعب فريا، المقود بقوة إلى اليسار.

صرخت وهي تتشبّث بلوحة القيادة حين انـزلقا عبر ثغـرة في الحاجز الوسطي، وانضما إلى المسلك المعاكس من حركة المرور، والمصابيح الأمامية تندفع نحوهما مثل رصاصات خطّاطة. سمعا أصواتاً مزعجة من أبواقٍ غاضبة حين انحرفت سيارات وشاحنات صغيرة بعيداً عن دربهما. كشّر فلين وهو يقود الجيب عبر سيل المركبات المعاكس وعلى طريق زلق. خرجا إلى طريق عام مزدحم آخر، واجتازا مساحةً من العشب المقصوص عائدَين إلى تيار مروري يتحرك في الاتجاه نفسه مثلهما. خفف فلين السرعة وانتقل إلى المسرب الداخلي، وهو ينظر عبر المرآة.

قال، وهو يرمق فريا بنظرة اعتذار: "آسف. أردت التوثق فحسب".

لم ترد خوفاً من أن تفتح فمها فتتقيأ.

شقّا طريقهما عائدين إلى وسط القاهرة وعبرا النيل، وعَبَرا شارعاً عريضاً مزدحماً بحركة المرور على الطرف الآخر. أخيراً، بعد توقفات عديدة، تجاوزا الأهرامات وابتعدت المدينة خلفهما، وأفسحت المجمعات السكنيّة والأبنية العالية المجال للرمل والأشجار المتفرّقة، والأضواء والنيون الساطع للصحراء الشاسعة ذات اللون الواحد والتي يغمرها ضوء القمر. أصبح كل شيء هادئاً وساكناً، وكانت الأصوات الوحيدة المسموعة هي هديرَ المحرك الخافت وهسيس العجلات على الإسفلت. تجاوزا لوحة تعلن أن المسافة إلى الإسكندرية 213 كيلومتراً، وزاد فلين السرعة.

قال فلين، وهو ينقر على علبة أقراص مضغوطة تحت مسجل الجيب: "ربما ترغبين في الاستماع إلى بعض الموسيقى. أمامنا طريق طويل نقطعه".

بحثت فريا في محتويات العلبة، وتجاهلت تراتيل وعظات متنوعة - بدا أن هناك عدداً كبيراً منها - قبل أن تستقر على *قطار بطيء قادم* لبوب ديلان. وضعت القرص في المسجل، وتردد صوت خافت وبطيء لغيتارٍ ومغنٍ من الجهارَين، يمتزجان معاً في المقطع الافتتاحي.

سألت مسترخية إلى الخلف، واضعةً قدميها على لوحة القيادة: "إذاً، من هو حسن فدوي؟". امتدت الأضواء الخلفية للسيارات بعيداً أمامهما؛ نقاط حمراء صغيرة في الليل الحالك.

رد فلين وهو ينقر المشيرة، ويتجاوز شاحنة صغيرة متهالكة: "كما أخبرتك في المتحف، إنه الرجل الذي عثر على بردي إمتي-خنتيكا. أعظم عالم آثار مصرية أنجبه هذا البلد على الإطلاق. أسطورة حية".

"هل هو صديقك؟".

بدا أن يدا فلين قد اشتدتا قليلاً على المقود.

قال بعد أن صمت قليلاً، وقد توتر صوته؛ وكأن الموضوع آلمه: "صفة صديق سابق أكثر دقة. الآن يريد أن يفقأ بؤبؤيَّ ويقتلني. للعدل، لديه ما يدفعه لذلك".

نظرت فريا إليه رافعةً حاجبيها بإشارة منها إلى إخبارها المزيد. لكنه لم يفعل ذلك، على الأقل ليس على الفور، إنما شغّل المشيرة مجدداً، وتجاوز هذه المرة سيارة أجرة تجلس فيها نساء يرتدين ثياباً سوداء على المقعد الخلفي. ملأ صوت ديلان الحاد والحزين مقصورة الشيروكي. تجاوزا لوحات ضخمة، تعلن عن مصرف الإسكندرية، والفرعونية للتأمين، جينز تشيرتكس، مصابيح أوسرام التي لاحت لحظة في ضوء مصباحي السيارة الأماميين قبل أن تختفي مجدداً. كانت قد بدأت تفكر في أن الحديث قد انتهى حين تنهّد فلين ومدَّ يده ليخفض صوت الموسيقى.

قال: "حتى الآن، لم أقترف إلا خطأين جسيمين فقط في حياتي؛ ثلاثة إذا أخذت في الحسبان معاشرة زوجة مديري في المدرسة. وآخر تلك الأخطاء كان التسبب في زج حسن فدوي في السجن".

تراجع عن المقود إلى الخلف، ومدَّ ذراعيه وهو يطرف بعينيه قليلاً. لم تعرف فريا إن كان ذلك من اشمئزازه من الذكرى أو لأن ذراعه المجروحة تؤلمه. اندفعت شاحنة بسرعة في الاتجاه المعاكس، وجعل هواؤها الشيروكي يهتز. أطبق الصمت مرة أخرى.

وأخيراً، قال بصوت خافتٍ وهو ينظر بثبات إلى الطريق أمامهما: "التقينا حين كنت طالباً في كامبردج. وللمفارقة، حدث ذلك في الوقت نفسه تقريباً الذي حطّت فيه شحنة يورانيوم جرجس في الواحة الخفية. كان حسن في الجامعة، إذ نال منحة دراسية لمدة سنة وتعرّفنا إلى بعضنا. شملني برعايته، وأصبح معلّمي نوعاً

ما؛ علّمني كل ما أعرفه عن علم الآثار الميداني. نظراً إلى فارق العمر، لم تكن أبداً علاقة بين ندّين، ويستطيع أن يكون وغداً صعباً حين يريد ذلك لكن المرء يسامحه؛ لأنه أستاذ رائع. لم أكن لأنهي دراسة الدكتوراه قطّ من دون مساعدته. وعنـــدما تعثرت وظيفتي مع أم آي 6 كان حسن فدوي من وجّهني إلى إلقاء محاضـــرات في الجامعة الأمريكية، وأقنع المجلس الأعلى للآثار بمنحي ترخيص تنقيب في الجلـــف؛ أنقذ حياتي المهنية أساساً".

"إذاً، لماذا تسببت بإرساله إلى السجن؟".

رمقها فلين بنظرة انـــزعاج وقال: "حسناً، لم أفعل ذلك متعمداً بالتأكيـــد. كان الأمر...".

لوّح بيده، محاولاً العثور على الكلمة المناسبة، لكنه لم يفلح في ذلك، وبـــدلاً من ذلك مدَّ يده وأنـــزل زجاج النافذة الجانبية بضع سنتيمترات، فتطاير شـــعره وتموّج في الهواء.

تابع: "حدث ذلك قبل ثلاث سنوات. كنت أعمل مع حسن علـــى أحـــد مشروعاته في أبيدوس، ننقّب مجدداً في مقبرة خـــع ســـخ وي... لـــن أزعجـــك بالتفاصيل. في منتصف الموسم تقريباً، طُلب منه تقديم مساعدة في بعـــض أعمـــال الصيانة في معبد ستي الأول، الصرح الأول في أبيدوس. كان المجلس الأعلى يحتـــاج إلى تقرير عن حالة الحرم الداخلي للمعبد وكان حسن متواجداً آنذاك في الموقـــع، وهو خبير بذلك النوع من الأشياء...".

توقف عن الكلام، وخفف السرعة ثمّ أطلق البوق حين ظهر جملان في ضوء مصباحَي الشيروكي، كانا يتجولان على الطريق مباشرة. فزع الحيوانان وتراجعـــا إلى الخلف وانطلقا يهرولان عائدين إلى الصحراء.

تابع فلين حين تجاوزاهما: "لأختصر قصة طويلة وكئيبة، ذهب حسن ليعمـــل في معبد ستي، وتولّيت إدارة الأعمال اليومية في موقع خع سخ وي. بدأت ألاحظ على الفور أن أشياء تُفقد من مستودع الآثار: كوخ التخزين الذي نحتفظ فيه بكل ما نكتشفه في الموقع. أبلغت مفتش موقعنا، فوضع حراساً على المستودع، أمسكوا بعد أربع ليالٍ بشخص يعبث في الداخل ويضع أشياء في جيوبه".

تحرّكت فريا في مقعدها حتى تستطيع أن تنظر إليه مباشرة.

سألت: "فدوي؟".

أومأ فلين، ووهج أضواء لوحة القيادة ينير وجهه بلمعان باهت.

قال: "زعم حسن إنه يأخذ الأغراض للدراسة فقط، وإنه سيعيدها عند الانتهاء منها. لكن عندما فتّشوا مسكنه عثروا على كثير من الأشياء الأخرى مخبّأة في حقائبه، وهكذا، تعقّد الأمر. بدا أنه كان يسرق أغراضاً منذ عقود، من كل موقع عمل فيه. مئات الأشياء اللعينة؛ بل الآلاف منها. كانت لديه بعض قطع توت عنخ آمون التي اختلسها في أثناء عمله في متحف القاهرة".

هزَّ رأسه، وضغط على المقود جيّداً حين مرّت شاحنة أخرى تهدر في طريق عودتهما إلى القاهرة، إذ كانت إضاءة مصباحيها الأماميّين قوية، فبهرتهما وقتاً قصيراً. ظهر بعيداً إلى يمينهما ما بدا أنه معسكر للجيش: صفٌّ بعد آخر من أكواخ يغمرها الضوء تحيط بها أسلاك شائكة وعدد من الدبابات بلون الرمل متوقفة بجانب البوابة الرئيسة، ومدافعها تتجه على نحو مرعب إلى الطريق.

تابع فلين: "سواء أكان أسطورة أم لا، تتخذ السلطات المصرية موقفاً متشدداً جداً تجاه سرقة الآثار. كانت هناك محاكمة، وأدليت بشهادتي، وقرروا جعله عبرة لغيره. حكموا عليه بالسجن ست سنوات، وحرمانه من التنقيب مجدداً. صدر ذلك بحق رجل كان علم الآثار كلَّ حياته".

هزَّ رأسه مجدداً، وهو يمرر يده على شعره ويفرك الجزء الخلفي من عنقه. ثمّ تابع قائلاً: "وكأن كل ذلك لم يكن كافياً؛ لأن حسن أقنع نفسه بطريقة ما أنني قد دبّرت الأمر كله. خذلته لأنني أريد الاستيلاء على عمله. حاولت الذهاب ورؤيته في السجن، وتوضيح بعض الأمور، وإخباره عن مدى أسفي، لكن، في اللحظة التي رآني فيها جنَّ جنونه، وبدأ يصرخ ويصيح، ما اضطر الحرّاس إلى مرافقتي إلى الخارج. لم أره أو أسمع عنه منذ ذلك الوقت. واكتشفت أنه قد خرج من السجن قبل بضعة أيام فقط؛ مفلساً، بكل المعايير".

خفف السرعة حين لاح حاجز للشرطة يغمره ضوء قوي في مرمى البصر أمامهما، يتكوّن من بضعة براميل مصفوفة على الطريق مع نقطتي حراسة على الجانبين. كان شرطي يدير الحاجز يلوح لسيارة أن تتقدم. اقترب فلين خلفها

وتوقف، أنــزل زجاج النافذة بالكامل، وتكلم إلى الحارس بالعربية، ثمّ أشـــار إلى بطاقة السفارة على النافذة الأمامية. تبادلا الحديث ثم لوّح الشرطي لهما أن يتابعـا طريقهما، وسجّل رقم لوحة التسجيل على دفتر كان يحمله.

سألت فريا حين تجاوزا الحاجز متابعةً الحديث من حيث انتهى: "وتظن أنـه سيساعدنا؟ بعد كل ما حدث؟ هل تظن ذلك حقاً؟".

"بصدق؟".

"بصدق".

"ولا لحظة واحدة. أفسدت حياة الرجل، بحق الله! لماذا سيرغب في أن يقـدم لي معروفاً؟".

"إذاً، لماذا سنذهب لرؤيته؟".

"لأن حسن فدوي أخبر أحد زملائي أنه يعرف شيئاً عن الواحة. وبوجـود خمسين كيلوغراماً من اليورانيوم عالي التخصيب لمن يعثر عليها، أظن جازمـاً أن الأمر يستحق المحاولة".

نظر إليها، ثم إلى الأمام مجدداً، أطلق البوق وتجاوز السيارة التي كانت أمامهما عند نقطة التفتيش. أنــزلت فريا قدميها من على لوحة القيادة، ومـدّت يـدها ورفعت صوت مشغّل الأقراص المضغوطة. ملأ صوت ديلان الحاد مقصورة الجيب مجدداً، وهو يغني شيئاً عن العنف ومصر، وهو ما بدا في تلك الظـروف ملائمـاً تماماً. نظرت إلى ساعة لوحة القيادة؛ 9:35 مساءً، وقد بقيا على الطريق أكثر مـن ساعة تقريباً، ثم أسندت رأسها إلى زجاج النافذة. *اندفعت الصحراء التي يضـيئها القمر بجانبهما، مبهمة ورتيبة. بعيداً، رفرفت شعلة برتقالية صغيرة قـرب الأفـق؛* نوعٌ من شعلة نفط أو غاز، كما خمّنت.

"ماذا كانت الغلطة الأولى؟".

"همم؟".

"قلتَ إنك اقترفت غلطتين جسيمتين في حياتك. ماذا كانت الأولى؟".

لم يرد فلين، إنما زاد فقط الضغط على دواسة السرعة، واندفع عدّاد سـرعة الشيروكي إلى أكثر من 140 كم/سا.

قال: "لم يبقَ إلا خمس عشرة دقيقة".

القاهرة

وقع النبأ بشأن أنغلتون - أنه بعد ثلاث وعشرين سنة يتبين أن ساند فاير السرية جداً مخترقة - مثل الصاعقة على مولي كيرنان؛ لأنها وزملاءها قد اتخذوا كلّ إجراء احترازي ممكن لضمان بقاء العملية كلها عصيّة على أي اختراق.

بعد أن زالت الصدمة الأولى، وهذا ما حدث بسرعة كبيرة، انصرفت إلى العمل باجتهاد وتصميم: بصلابة وتركيز ورباطة جأش. مولي الرخامية، كما كان تشارلي يدعوها مازحاً. *قاسية مثل الصخر وجميلة مثله!*

أجرت الاتصالات الضرورية إلى الولايات المتحدة - لم يكن هاتفها الخلوي إلا إحدى وسائل الاتصال العديدة المتوافرة لها - أخبرت كلّ من يلزم بما يحدث، وأرسلت اسم أنغلتون لإجراء المزيد من التحقيقات عنه. وبالرغم من أن أفكارها وتضرعاتها كانت مع فلين وفريا، إلا أن أنغلتون هو من استحوذ على تفكيرها حين جلست على المقعد الخلفي لسيارة الأجرة في طريقها إلى منزلها في منطقة المعادي في المدينة. من هو؟ لماذا يتدخل؟ ماذا يريد؟ رفعت البطاقة التي كان فلين قد أعطاها إياها، ولفظت الاسم لنفسها. بحثت بعد ذلك في حقيبتها، وأخرجت نسخة الجيب من الكتاب المقدس للملك جيمس التي تحملها دائماً - هدية ذكرى مولدها الحادية والثلاثين من حبيبها تشارلي - وقلّبت الصفحات حتى وصلت إلى المزمور 64.

قرأت، وأضواء الشارع التي تتجاوزها تلقي على الصفحة الضوء والظل معاً: "احفظ حياتي من خوف العدو. استرني من مؤامرة الأشرار السرية، من جمهور فاعلي الإثم الذين صقلوا ألسنتهم كالسيف".

قرأته مجدداً، ثم قلّبت مزيداً من الصفحات، إلى بداية كتاب ناحوم

أومأت، ثم أغلقت الكتاب المقدّس وضمّته إلى صدرها.

همست: "صحيح جداً".

الطريق إلى الإسكندرية

كانت البيئة على طرفي الطريق 11 - الدرب المحوري الرئيس بين القاهرة والإسكندرية - صحراوية تماماً تقريباً، وهي مساحة منبسطة من الرمل والحصى

يشقّها الطريق مثل خطّ من الغرزات على قطعة كبيرة من الخيش. أحياناً، تظهر فجأة بقع متنافرة من لون أخضر نضر - ملعب غولف، بستان نخيل، حديقة منسّقة على نحو جميل - تزيح جانباً الخواء مسافة قصيرة قبل أن تختفي فجأة أيضاً؛ كأن موجة صحراوية عارمة قد اكتسحتها.

عندما أصبحا على مستوى إحدى تلك البقع الخضراء - في هذه الحال بستان موز كبير - خفف فلين سرعة الشيروكي وانعطف يميناً على درب ترابي يمتد مستقيماً من الطريق الرئيس. اقتربت منهما جدران من أوراق خضراء لينة مثل ستائر، وثريات من فاكهة يانعة تتدلى وسط الأغصان.

شرح وهما يهتزان على طول الطريق، والظلام ينجلي أمامهما في وهج مصباحَي الجيب: "كانت أسرة حسن تمتلك أكبر عمل تصدير موز في مصر. باعته قبل عقود مقابل ثروة كبيرة، ولهذا استطاع دائماً تمويل أعمال التنقيب التي يقوم بها. أياً كان الذي خسره، فإنه على الأقل لن يجوع".

كانا يهتزان في طريقهما، واختفى الدرب خلفهما في عاصفة من الغبار. وارتطم عثٌ وحشرات ليلية أخرى بالنافذة الأمامية، تلطّخُ الزجاج. بعد نحو كيلومتر أفسحت نباتات الموز المجال لأشجار مانغا انتهت فجأة، عند سور أوتاد منخفض، امتدت خلفه مرجة مشذّبة ومرتّبة تغرق في بحر غريب من ضوء القمر. بعيداً نحو منزل كبير مطلي بماء الكلس، نوافذه مغلقة بمصاريع خشبية، شاهدا دوّارة على سطحه. سلك فلين الدرب حول المرجة وتوقف في ساحة أمام المبنى. وأوقف عمل المحرك. كان هناك ضوء في إحدى غرف الطابق الأرضي، وخيوط رفيعة من النور تظهر من بين شقوق المصاريع.

جلس هناك بعض الوقت، أصابعه تنقر على المقود؛ كأنه يتردد بمغادرة أمان مقصورة الشيروكي، ولم يكن مسموعاً إلاّ صرير زيز وطقطقة معدن يبرد ورنينه. فتح الباب بعد ذلك، وترجّل من الشيروكي، وقدماه تصرّان على الحصى.

قال وهو ينظر إلى فريا: "ربما من الأفضل أن تنتظري هنا. سأذهب وأتحدّث إليه، وإذا نجحت الأمور، فسآتي وأصطحبك".

"وإذا لم تنجح؟".

"أظنّ أننا سنسلك الطريق المؤدّي إلى المطار".

ضرب بقبضته سقف الشيروكي، يشدُّ أزر نفسه، ثم استدار وبدأ يمشي نحو الباب الأمامي، واجتاز نصف المسافة تقريباً قبل أن يغمره فجأة وهج ضوء حين أُنيرَ كشّاف قوي. في اللحظة نفسها تقريباً دوّت فرقعة إطلاق نار في الليل وثارت الأرض عند قدمي فلين إلى الأعلى برذاذ من التراب والحصى. تجمّد مكانه للحظةٍ، ثم تراجع خطوة حذرة إلى الخلف. مزّقت رصاصة أخرى الأرض خلفه مباشرة، فتجمّد مكانه مجدداً. سمع طقطقة بندقية تُفتح، ثم صوتاً قوياً، وحاداً، ومضطرباً قليلاً.

"آه يا الله! هذه عدالة رائعة! آه يا الله، هذه عدالة رائعة جداً!".

ظهر شخص من الظلام إلى جانب المبنى، لا يرتدي إلا سروال لباس نوم فضفاضاً، يضع خرطوشتين في ماسورتي بندقية تبدو عتيقة. تقدم إلى الأمام إلى حافة دائرة الضوء التي يرسمها الكشّاف وتوقف، وهو يغلق البندقية بقوة ويرفعها إلى كتفه مسدّداً إيّاها مباشرة نحو رأس فلين.

"على ركبتيك يا برودي! كالجرذ الوغد الذي أنت عليه!".

"حسناً، أرجوك...".

"اخرس واجثُ على ركبتيك!".

ألقى فلين نظرة نحو الجيب، ورفع راحتي كفّيه قليلاً ليشير إلى فريا أن تبقى حيث هي ولا تقوم بأي حركة مفاجئة. جثا بعد ذلك ببطء على الأرض، يداه ثابتتان إلى جانبيه. ضحك الرجل بصوت خافت - صوت أجش وقاسٍ، ومضطرب مثل كلب يلهث - وتقدم خطوة أخرى إلى الأمام ليصبح ضمن وهج الكشّاف الساطع.

"لقد انتظرت هذا ثلاث سنوات. وأخيراً... انبطح أرضاً يا قطعة الغائط الخائن!".

كان سابقاً شخصية مميزة من دون شك بجبينه العالي وعينيه الزرقاوين اللامعتين وجسر أنفه الطويل والضيق، لكنه كان يشبه آنذاك فزّاعة محطّمة، فبدا شعره غير مسرّح وأشيب، ووجهه منهكاً ومتغضّناً، يختفي تقريباً تحت ستارٍ من لحية كثّة.

قال: "برودي"، وكرّر مجدداً: "برودي"، ومرة ثالثة، وصوته يرتفع في كل مرة حتى دفع نفسه في الأخيرة إلى إطلاق صرخة ثاقبة، مثل صيحة حيوان يتعذّب.

همسَّ فلين، والعرق يظهر على جبينه، وهو يثبت عينيه على البندقية والطريقة التي تهتز بها بين يدي فدوي: "بالله عليك يا حسن! أبعد هذه القذارة... اللعينة!".

انبطح وهو يرفع ذراعيه أمام وجهه حين جأرت البندقية مرتين بتعاقب سريع. أزّت كريات رصاصية فوق رأسه واختفت في ظلام بستان المانغا. بقي ساكناً عدّة ثوانٍ حين فتح فدوي البندقية واستبدل الخرطوشتين المستعملتين، ثم خفض فلين ذراعيه ببطء وتردد، وجثا على ركبتيه مجدداً.

قال وهو يكافح لإبقاء نبرته هادئة ومتزنة، محاولاً تجاهل الماسورتين اللتين كانتا مصوّبتين مرة أخرى نحوه مباشرة: "أرجوك يا حسن. ضع البندقية جانباً. قبل أن تفعل شيئاً تندم عليه؛ شيئاً يندم كلانا عليه".

كان فدوي يلهث لهاثاً منهكاً بأنفاس قصيرة، وعيناه مكتئبتين ومتسعتين.

كرّر فلين: "أرجوك".

لم يتلقَّ رداً.

"حسناً؟".

لا شيء.

"ماذا تريد مني أن أقول بحقّ الله؟".

حدّق فدوي إليه فحسب، كاشفاً أسنانه.

"أنني آسف؟ أنني أتمنى لو فعلت ذلك على نحو مختلف؟ لم ينقضِ يوم لم أتمنَّ فيه ذلك. هل تظن أن ما حدث أسعدني؟ نوعٌ من ضربة شريرة لإفساد حياة شخص فعل الكثير ليساعدني؟".

لم يرد فدوي بالرغم من ذلك. حرّك فلين عينيه ساخطاً، ينظر إلى الأعلى نحو قرص القمر الفضي الساطع؛ وكأنه يزوّده بعلامة ما عن طريقة مواصلة ذلك.

حاول مجدداً: "اسمع، لا يمكن أن أعيد عقارب الساعة إلى الوراء. لا يمكنني تغيير الماضي. وأعرف ما قد خَبِرته...".

"تعرف!".

تقدم فدوي خطوتين أخريين إلى الأمام وأصبح يقف فوق الإنكليزي مباشرة؛ وفوهة البندقية على بعد بوصات فقط من صدغه. بدأت فريا تمدُّ يدها إلى مقبض

الباب داخل الجيب، تنوي الخروج؛ لتحاول المساعدة. رأى فلين ما كانت تفعله، وحرّك رأسه هزّة بالكاد محسوسة. اشتدّت إصبع فدوي حول الزناد.

همسً: "تعرف ما معنى أن تشترك في زنــزانة مع قتلــة ومغتصـبين، ألـيس كذلك؟ أن تخلد إلى النوم كل ليلة لا تعرف إن كنت ستبقى حياً في الصباح؟".

كان فلين من التزم الصمت آنذاك.

"أن تُمضي اثنتي عشرة ساعة يومياً تخيط أكياس بريد؟ أن تصاب بالإسـهال ثلاث سنوات؛ لأنك لا تستطيع الحصول على أي مياه نظيفة للشرب؟ أن تتعرض للضرب المبرّح حتى تتبول دماً طوال أسبوع؟".

كان فلين يعرف في الواقع ماهية آخر تلك الأشياء، لكنه أبقى ذلك لنفسـه. حدّق إلى الأرض حين استشاط فدوي غضباً منه، وفوهة البندقية تمس أذنه مثـل مُنخُرَين يشمّانه.

"لا فكرة لديك عمّا يعنيه الجحيم يا برودي؛ لأنك لم تذهب إلى هناك مـن قبل. أما أنا، ففعلتُ ذلك...".

ضرب المصري بقدمه الأرض، وداس بنعله على الحصـى كأنـه يحـاول أن يسحق شيئاً.

"وأنت من أرسلني إلى هناك! كانت غلطتك، كل ذلك خطـأك! دمّـرت مسيرتي المهنية، وسمعتي، وحياتي. أنت... دمّرت... حياتي... اللعينة... كلها!".

شدّد على كل كلمة من هذه الجملة الأخيرة، يلفظها بعنف في وجـه فلـين وكأنها قذائف، وصوته بخلاف السابق ينخفض، بدءاً من صرخة ثم ازداد بحّة حتى خرجت كلها في نهاية الأمر في هذر ممطوط خافت. بقي فلين ينظـر إلى الأرض، وسمح لفدوي أن يعبّر عمّا يجول في خاطره، ثم نظر إليه.

"أنت دمّرت حياتك يا حسن".

"ماذا؟ ماذا كان ذلك؟".

كانت عين المصري اليسرى قد بدأت ترتعش.

كرّر فلين وهو يمد يده ويدفع برفق فوهة البندقية بعيداً: "أنت دمّرت حياتـك، وبما أنك بقيتَ حياً، فسأندم؛ لأنني لم أتحدّث إليك قبل أن أذهب إلى السلطات، وأنـا آسف جداً لما قد مررت به، لكن في النهاية لم أكن أنا من سرق تلك الأغراض".

تغضّن وجه فدوي، وبدا أن معالمه تجمع نفسها حول فمه حين أعاد البندقية إلى رأس فلين، وصوّبها مباشرة بين عينيه. أطبق الصمت، وبدا أن صرير الزيز قد توقف. رفع فلين بعد ذلك يده مجدداً، ووكز بحرص ماسورة البندقية جانباً.

"لن تطلق النار علي يا حسن، مهما كنت تريد ذلك، ومهما كنت تلومني على ما حدث. ربما تريد إخافتي - وثق بي، أنت تفعل ذلك... لكنك لن تضغط على ذلك الزناد. وهذا، لماذا لا تضع البندقية جانباً وتدعنا على الأقل نتحدث؟".

تابع فدوي التحديق إليه، وعينه ترتعش، ووجهه يتلوّى كأنه يحاول رسم تعبير مناسب، قبل أن يستقر أخيراً، على نحو غير متوقع، على ابتسامة.

"أعرف ما تريد أن نتحدث بشأنه".

فجأة أصبحت نبرته لطيفة، مرحة تقريباً، ومعاكسة تماماً لما كانت عليه قبل بضع ثوانٍ. بدا أن شخصاً آخر يتكلم. "لقد رأيت بينش، أليس كذلك؟".

كافح فلين لإبقاء وجهه خالياً من أي تعبير، لكن بدا مستحيلاً إخفاء حقيقة أن كلمات فدوي قد ضربت وتراً حساساً، فاتّسعت ابتسامة المصري.

"أخبرك عن الواحة، أليس كذلك؟ أنني قد اكتشفت شيئاً. وتريد أن تعرف ما هو. تحتاج إلى معرفة ماهيته. لهذا السبب جئت إلى هنا".

كان يكشّر آنذاك شاعراً بالتأثير الذي تحدثه كلماته، مستمتعاً به وضاغطاً عليه.

"عرفت أنك ستأتي في النهاية، طبعاً، لكن ليس بهذه السرعة؟ لا بدّ من أنك يائس؛ وبأمسّ الحاجة إلى ذلك حقاً".

عضّ فلين شفته، والحصى تؤلم ركبتيه.

"ليس الأمر كما تظن يا حسن. هذا ليس من أجلي فقط".

"بالله عليك، لا! إنه من أجل الغاية الأسمى للبشرية! لإنقاذ العالم! لطالما كنت تُؤثر الآخرين على نفسك".

ضحك بصوت خافت، وأشار إلى فلين أن يقف.

صرخ: "كان شيئاً رائعاً، استثنائياً؛ شيئاً سيخبرنا عن ويت سيشتات أكثر من تجميع كل قطع الدليل المبعثرة. أعظم اكتشاف في حياتي المهنية. وهل تعرف ما جعل الأمر أكثر إرضاءً؟".

ابتسم ابتسامة واسعة ثمّ تابع: "حقيقة أنك لن تكتشف ذلك أبداً. ليس من هاتين الشفتين. أهم اكتشاف منذ إمتي-ختنيكا وكله هنا".

رفع البندقية، ونقر بأخمصها على صدغه.

"وسيبقى هنا بالتحديد".

كان فلين قد وقف آنذاك، وأخذ يشدُّ قبضتيه بوهنٍ إلى جانبيه. لم يعرف ماذا يقول، أو كيف يقلب الوضع لمصلحته.

تمتم: "أنت تخادع".

"أحقاً؟ على أيّ حال، لن تعرف أبداً. ليس الليلة، ولا غداً، ولا أبداً".

نقر فدوي البندقية مجدداً على رأسه.

"كله هنا، بأمان وسلامة، في صندوق مغلق. الآن، إذا لم يكن لديك مانع، لقد أمضيت ثلاثة أيام صعبة، ولم أعد شاباً كما كنت، وبالرغم من أنني سعيد برؤيتك، إلا أنني سأوقف لمَّ الشمل هذا. تصبح على خير يا صديقي القديم، وأتمنى أن تعود بالسلامة إلى منزلك".

وضع البندقية على مثنى ذراعه، ثم ربت على كتف فلين، وبتكشيرة أخيرة استدار وهمّ بالتوجّه نحو الباب الأمامي لمنزله.

"أرجوك ساعدنا".

كان صوت فريا، وقد بقيت حتى ذلك الوقت صامتة في جيب الشيروكي، وتركت الرجلين يؤديان المشهد بينهما. آنذاك، وهي غير قادرة على إيقاف نفسها، فتحت الباب، وخرجت لتقف على الحصى.

كرّرت كلامها وهي تتقدم إلى جانب فلين: "أرجوك، نحتاج إلى مساعدتك".

توقف فدوي واستدار، ثم أمال رأسه. بالرغم من أنه كان واقفاً على بعد بضعة أمتار فقط من الشيروكي، إلا أن تركيزه انصبَّ تماماً على فلين ولم يلحظها. قال مستهجناً وهو يهزُّ رأسه حين نظر إليها من أعلى رأسها حتى أخمص قدميها: "يا للهول! كنت أعرف أنك تفتقر إلى احترام الذات يا فلندرز، لكن أن تجعل سيدة شابة تتورط في هذا العمل القذر... وشابة جميلة جداً أيضاً!".

فجأة أصبح سلوكه لطيفاً ومهذباً؛ هذا التحوّل بدا لها - وهو يقف هناك لا يرتدي إلا سروال لباس نوم - محبباً لكنه في الوقت نفسه مفزع.

قال لفلين: "ألن تعرّفنا؟".

قال الإنكليزي بحدّة، غير مسرور بتغير مجرى الأحداث: "دع عنك ذلك يا حسن".

"فريا، اسمي فريا هانين".

ابتسم فدوي من ذلك، لكن تجهّماً باهتاً ظهر على جبينه في الوقت نفسه.

"لست...".

قال فلين وهو يرمق فدوي بنظرة فولاذية: "شقيقتها. يبدو أنك لم تسمع بموت ألكس".

بالرغم من أن تجهّم فدوي ازداد تغضناً إلا أنه ظل مبتسماً؛ وكأن أجزاء مختلفة من وجهه تظهر مشاعر مختلفة، أحدها يناقض الآخر.

قال وهو ينقّل نظره بين فريا وفلين ثمّ يعود ويستقرّ عندها مجدداً: "آسف جداً لسماع هذا. آسف حقاً. كانت شقيقتك امرأة رائعة".

رفع يده وأبعد بعوضة كانت تطن حول رأسه. أوحى شيء في عينيه، وفي توتر ابتسامته، ببعدٍ يقين من جانبه، لحظة فقط، مثل ممثل نسي فجأة ما يقوله في مناجاة. كان ذلك عابراً، واتسعت ابتسامته على الفور واختفى العبوس.

"نعم، نعم، امرأة رائعة حقاً، وجميلة أيضاً. لكن، يمكنني القول إن شقيقتها أكثر جمالاً".

كرّر فلين مهدداً آنذاك: "دع عنك ذلك فحسب".

تجاهله فدوي، إذ كان يصبّ اهتمامه على فريا.

قال وهو يبعد البعوضة مجدداً قبل أن ينزل يده إلى رأسه ويمرر أصابعه عبر شعره: "آسف جداً؛ لأننا اضطررنا إلى اللقاء في مثل هذه الظروف غير السعيدة. لو أنني عرفت أنك قادمة لكنت بذلتُ جهداً أكبر في ما يتعلق بمظهري. كما ترين، لا أرتدي أفضل ملابسي. هل تسمحين لي؟".

تقدم إلى الأمام، أمسك يد فريا، ثم رفعها إلى شفتيه وقبّل أطراف أناملها.

تمتم قائلاً: "فاتنة، جميلة جداً".

"ذلك كافٍ يا حسن!".

أبعد فلين يد فدوي، وأمسك ذراع فريا.

"هيا، لقد فعلنا كل ما في وسعنا هنا".

حاول أن يحيدها إلى الشيروكي، لكنها شدّت ذراعها وحررتها منه، وبقيت حيث كانت.

توسّلت إليه قائلةً: "أرجوك، نحتاج إلى مساعدتك. لا يمكن أن أتخيل ما اختبرته في تلك السنوات الثلاث الأخيرة، وأعرف أنه ليس من حقنا أن نطلب ذلك منك، لكنني أطلبه على أي حال. ساعدنا. أخبرنا عن الواحة، أرجوك".

بدا أن فدوي لا يصغي جيداً، إذ كانت عيناه ثابتتين على صدرها.

قال وعيناه تتحركان نــزولاً إلى ساقيها ثم صعوداً إلى شعرها الأشقر: "فاتنة. لا أتذكر حقاً متى وجدت نفسي آخر مرة بصحبة شابة جذّابة مثلك. كان الشيء الذي افتقدته كثيراً في طرة، كما تعلمين، بهجة رفقة النساء: صحبتهن، ضحكاتهنّ، جمالهن. أحب كثيراً السيدة الجميلة. أقرب شيء إلى ذلك في السجن كان بطاقة بريدية أرسلها أحدهم إلي تصوّر راقصة، وأؤكّد لك أنها لم تكن إلا بديلاً سيئاً للشيء الحقيقي".

رمق فلين بنظرة خاطفة، وبدا أن هناك شيئاً ماكراً فيها، مثل صيّاد يجذب حيواناً إلى فخّ، مسروراً بمعاناة فريسته الوشيكة.

تابع وهو يمرّر لسانه على الجانب الداخلي من شفته العليا، ومنخراه ينتفخان قليلاً: "نعم، نعم، لقد مضى وقت طويل منذ رأيت امرأة...".

صرخ فلين: "هذا يكفي! هل تسمعني؟ كفّ عن هذا الآن. لا أعرف ما الذي تظن أنك فاعل، لكننا لن نقف هنا ونستمع...".

خرخر المصري: "تعجبك، أليس كذلك؟".

"ماذا؟".

"تعجبك".

كان فدوي مكشّراً، والنظرة الماكرة أصبحت أكثر وضوحاً آنذاك.

"تعجبك حقاً".

"لا أعرف ما الذي تتكلم عنه".

"تشعر بشيء تجاهها؛ تنجذب إليها، أنت...".

"لنذهب".

أمسك ذراع فريا مجدداً، بقوة أكبر هذه المرة، ودفعها عائدَين نحو الشيروكي. صرخ فدوي خلفهما.

"سأخبركما ما تودّان معرفته عن الواحة، وعمّا اكتشفته. سأخبركما كل شيء".

توقف فلين واستدار، ويده لا تزال تمسك بذراع فريا.

قال المصري: "أين هي، ما هي، كل ما تريدانه. لكن أولاً...".

سكت عن الكلام وهو يبتسم بتكلّف ومكر، ثم أغلق المصيدة: "... أريد فاريا أن تعوض عليّ جزءاً مما أفتقد إليه".

اتسعت عينا فلين غضباً واشمئزازاً. وعندما فتح فمه، استعداداً لإطلاق سيل من الشتائم، انتزعت فريا ذراعها من قبضته حتى قبل أن يستطيع قول أي شيء.

"لك ما تريده".

حدّق فلين إليها مشدوهاً وقال: "لن تفعلي أبداً!".

سألت متجاهلة إياه وهي تخاطب فدوي: "هنا أم في المنـزل؟".

"فريا، لن أسمح لك أبداً...".

كرّرت: "هنا أم في الداخل؟".

أمسك فلين ذراعها مجدداً.

"أنت لن...".

قالت بحدّة، محررة ذراعها ومهاجمة فلين: "إياك أن تجرؤ على أن تملي عليّ ما أفعله أو أمتنع عنه، هل تفهم؟ لا شأن لك بهذا".

"هذا من شأني تماماً! لو أنني لم أخبرك عن الأمر، فلم تكوني لتسمعي قطّ بالواحة اللعينة. لن أدعك تبيعين نفسك لمنحرف عجوز بسبب شيء أنا ومولي...".

"لا علاقة لهذا بك، أو بمولي، أو بالواحة، أو بأيٍّ من ذلك". كان وجهها قد بدأ يتورّد. "إنه من أجل ألكس، شقيقتي. شقيقتي الميتة القتيلة. سأفعل هذا من أجلها؛ لأنها هي أرادت أن تعرف".

"إذا كنت تظنين حقاً...".

"ما أظنّه ليس من شأنك! إنه بيني وبين ألكس، ونقطة انتهى!".

"فريا هذا آخر شيء ستود ألكس...".

صرخت في أثناء توجهها نحو فدوي: "نقطة انتهى. إذاً، أين سنفعل هذا؟".

كان المصري قد توقف صامتاً في أثناء الجدال، مكشّراً، ومستمتعاً بانزعاج فلين.

ضحك: "آه! في المنزل، كما أظن. نعم، سيكون الأمر في الداخل أفضل بالتأكيد. بعيداً عن العيون المتطفلة. هل نذهب؟".

مدَّ يده نحو الباب الأمامي.

صاح فلين: "لن أسمح لك بأن تفعلي هذا!".

تجاهلته فريا وهي تومئ إلى فدوي وتسير على الحصى.

كرّر فلين وهو يكزها بإصبع: "لن أسمح لك بفعل هذا! هل تسمعينني؟ نتذهب الخطة والواحة إلى الجحيم. لن تفعلي هذا!".

لم ترد، إنما تابعت طريقها إلى المنزل. فتح فدوي الباب لها ودفعها إلى الداخل.

قال وقد أدار ظهره إلى فلين: "ربما نتأخر قليلاً، لهذا تجول في أرجاء المكان، وجرّب إحدى ثمار الموز، لكنني سأطلب منك احترام خلوتنا وألاّ تسترق النظر من النوافذ".

كشّر مبتهجاً، ومستمتعاً بغضب الرجل الأصغر سناً، ثم غمزه ولوّح له واستدار إلى المنزل وأغلق الباب خلفه بعنف.

لم يعد قتل الناس ممتعاً كما كان في السابق؛ كانت تلك هي الخلاصة التي توصل التوأم إليها وهما يضربان الكرات على طاولة سنوكر جرجس، ينتظران إبلاغهما بالتوقيت والمكان عند الحاجة إليهما. حتى التعذيب لم يعد يجعلهما يشعران بالرضا عن عملهما، كلاعبَي كرة قدم أحرزا كل نصر ممكن، وحقّقا كل ما يصبوان إليه، ولم يعودا عطشَين إلى تحقيق شيء. كان الأمر كله، كما اتفقا، قد أصبح مملاً جداً.

كان الوضع سابقاً مختلفاً جداً. وقد اعتادا على أن يفخرا حقاً بعملهما. محترفان؛ تلك هي الطريقة التي يريان نفسيهما بها: إنهما محترفان ماهران. وكما

سيشعر نجّار بالفرح بعد إنجاز قائمة كرسي متقنة، ونافخ زجاج بعد إنجاز آنية منتهية، كانا شغوفان أيضاً بما يقومان به، ويشعران بإثارة كبيرة منه. إرغام تاجر الممنوعات ذاك على أكل مقلة عينه، إطعام الدببة القطبية في حديقة حيوانات الجيزة صحفي *الأهرام*، القضاء على أربعة أشخاص مختلفين في اليوم نفسه في الإسكندرية. الوصول إلى المنزل في وقت مناسب لتحضير العشاء *لأمهما*... كانت تلك أشياء قد منحتهم إحساساً حقيقياً بالإنجاز.

كانت اللذة تتلاشى منذ بعض الوقت، على أيّ حال، ومع هذه المهمة الجديدة بلغت خيبة أملهما أوجها. كانت المطاردة بالسيارة ممتعة بالتأكيد، وقد استمتعا بتقطيع ذلك المنحرف في الداخلة، لكن الطيران فوق الصحراء بحثاً عن كومة آثار عتيقة، وتحمّل صراخ جرجس الحقير... ما كانت فائدة ذلك بحق الله؟ كانا يخاطران بنفسيهما، ولا شك في ذلك. يخاطران بنفسيهما ومواهبهما.

لهذا السبب، عندما أسقطا الكرة السوداء الأخيرة وبدأا يجمعان الكرات لنعبة جديدة، قررا أن ذلك سيكون عملهما الأخير لمصلحة جرجس. لقد حان الوقت للانفصال عنه وافتتاح المطعم. كانا قد فكّرا ربما في الاستمرار وقتاً أطول، على الأقل حتى بداية موسم كرة القدم الجديد، لكن بعد التفكير ملياً في كل شيء آنذاك بدت تلك اللحظة مناسبة جداً. هذه المهمة الأخيرة وسينتهي الأمر: سيتقاعدان بعمر الثلاثين.

سأل صاحب أنف الملاكم الأفطس، وهو يخشخش الكرات الحمراء في مثلثه الخشبي، ويضعها بعناية أسفل البقعة الوردية تماماً: "هل يجب أن نقتله؟ جرجس. لإبقاء الأمور مرتّبة".

قال الشقيق: "ربما تكون فكرة جيّدة".

"لا نريد أن يسبب لنا أي متاعب".

"بالتأكيد لا".

"سننهي المهمة...".

"لن يكون احترافياً ألاّ...".

"... ثم نقضي عليه".

"يبدو الأمر جيداً لي".

ضربا راحتَي كفيهما ببعضهما، ثم وضعا طباشيرَ على رأسي العصوين وانحنيا كثيراً فوق الطاولة. ضرب الشقيق صاحب شحمة الأذن اليسرى الممزقــة الكــرة البيضاء بالكرات الحمراء، وجعلها تندفع في كل الاتجاهات. ربت شــقيقه علــى الطاولة بأصابعه المغطاة بخواتم وأقرّ بما ظنَّ أنها ضربة جيدة.

قالت فريا في قرارة نفسها حين أسند فدوي بندقيته بجانب الباب وقادها على طول رواق: *فكّري في الأمر على أنه تسلق فحسب. تنفيذ حركة صعبة بالتحديد. هذا كل شيء... حركة صعبة واحدة فقط. ركّزي، ابدأي العمل، افعلي ما يجب أن تفعليه، ثم اخرجي من هنا. وإذا فكّر في أن يمسّك فقط...*

فتح فدوي باباً في نهاية الرواق ودفعها إلى غرفة معيشة ومكتب كبيرة يغمرها ضوء ساطع. كانت هناك أرائك وكراسٍ ذات ذراعين عند أحد طرفيها، وطاولــة وخزائن في الطرف الآخر. شاهدت مسجّل شرائط محمولاً على الطاولــة. مشــى فدوي إليه وضغط زر التشغيل قبل أن يأخذ فريا إلى الطرف البعيد مــن الغرفــة. انطلق صوت أنثوي شجي حولهما، يشتد ويخفت، وينوّم مغناطيسيًّا.

شرح المصري وهو يعدّل مفتاحاً على الجدار لتخفيف الإضــاءة: "فــيروز. إحدى أعظم المطربات العربيات. لحن رائع، ألا تظنين ذلك؟".

هزّت فريا كتفيها، ودفعت يديها في جيبــي سروالها، وراحت تنقل وزنهــا من قدم إلى أخرى.

"هل أقدم لك شيئاً تشربينه؟".

رفضت، ثم غيّرت رأيها على الفور موافقةً، ستود تناول شيء. فتح فــدوي خزانة مشروبات - عتيقة، كما يبدو من مظهرها، تكسوها طبقة جميلة من ألواح طولية من خشب داكن وفاتح اللون - وأخرج قارورة في داخلها ســائل أخضــر لامع، ثم سكب كأسين. قال، وهو يعطيها إحدى الكأســين: "بيزانــغ أمبــون، مصنوع من موز إندونيسي أخضر. أظن أنكِ ستجدينه لذيذاً جداً، بالرغم من أن اسمه غير جذّاب".

"أليس لديك شراب شعير؟".

هزّ رأسه معتذراً. أمسك الكأس الأخرى وجلس على إحدى الأرائك، يرتاح على وسائد وردية فاتحة، وجذعه يعكس لون القماش نفسه، لهذا لم يتضح على الفور أين تنتهي الوسائد ويبدأ جلده.

قال وهو يرتشف شرابه وينظر بخبث إليها: "حسناً، حسناً، هذا مريح. في الوقت الذي يناسبك".

ارتشفت فريا شرابها، واشمئزت من المذاق الحلو قليلاً. شعرت فجأة بأنها مكشوفة وبخجل شديد. ربما كان يجب أن تصغي إلى فلين.

سألت محاولةً أن تبدو أكثر استرخاءً مما تشعر به: "إذاً، كيف تريد أن نفعل هذا؟".

وضع فدوي ذراعه على ظهر الأريكة.

"بأي طريقة تريدينها... سأكون سعيداً بترك التفاصيل التقنية لك".

قالت: "أنا لا أرقص".

"لم أتخيل لحظة واحدة أنك ستفعلين".

"وأنا لا... أفعل شيئاً آخر. سأتعرّى، وهذا كل شيء".

بدا فدوي منزعجاً حين قال: "سيدتي العزيزة، ربما أكون أحب العري. لكنني لست مغتصباً. أتمنّى أن يعجبني جسدك، لا أن أنهشه".

أومأت وتناولت رشفة أخرى من الشراب، كارهةً المذاق لكنها بحاجة إلى شيء تفعله؛ عمل ما لتهدّئ من روعها.

"وستخبرنا ما تعرفه عن الواحة، بعد أن أنتهي".

قال المصري: "أنا رجل يفي بوعده، ولم تغير ثلاث سنوات في السجن ذلك. التزمي بجانبك من الصفقة، وسألتزم أنا بجانبي. ستعرفين كل شيء، إن رأيتُ كل شيء".

ابتسم واسترخى أكثر في الأريكة، وعيناه لا تفارقانها أبداً. نظرت فريا إلى السقف، ثم إلى الباب، ثم إلى السجادة؛ أي مكان عداه، تستجمع شتات نفسها. وتطيل المدة. هزّت رأسها بعد ذلك وتمتمت "هيا"، وتجرّعت باقي شرابها ثم وضعت الكأس على نضد جانبي.

قالت: "حسناً، لننتهِ من هذا".

بدأت من حذائها، ففكت الرباطين ونـــزعتهما وأتبعت ذلك بجوربها. دفعت بهما داخل حذائها، ورتّبت النعلين، على نحو غير ضروري، بأناقة جنباً إلى جنب، ومقدمتهما تتجه نحو فدوي. نـــزعت بعد ذلك السترة الصـــوفية، الـــتي طوتهـــا ووضعتها على الحذاء؛ متفاديةً بحرص في أثناء ذلك كله نظرة المصـــري، ومحاولـــةً التفكير في أي شيء آخر غير الذي تفعله. بالرغم مـــن صـــعوبة الموقـــف، إلا أن حركاتها كانت رشيقة ولبقة؛ وصوت المطربة لا يزال يتردد من المســـجّل علـــى الطاولة.

كان ذلك الجزء السهل. لم تعد ترتدي إلا القميص والســـروال، القطعـــتين الأخيرتين؛ الكشف الحسّي. سحبت نفساً عميقاً، محاولةً أن تعزل ذاتها أكثر، تأخذ نفسها إلى خارج الغرفة وتتخيل سيناريو مختلفاً تماماً. لسبب لا يمكن تفسيره، كان أول شيء خطر على بالها الأصيل الذي أمضته مع مجموعة من الأصـــدقاء وهـــم يتزلجون على الماء قبالة خليج بوديجا شمالي سان فرانسيسكو حين ظهـــرت سمكـــة قرش بيضاء ضخمة بينهم، زعنفتها الظهرية تشق الماء مثل نصل سكين. تعلّقـــت بتلك الذكرى العشوائية، انسحبت إليها حين أدارت ظهرها لفدوي وبدأت تفك أزرار القميص، تتذكر كيف تجمّعت مع أصدقائها لحماية أنفسهم وسبحوا الأمتار المئة الأخيرة عائدين إلى الشاطئ، وسمكة القرش تدور على نحو خطـــر حـــولهم. شُغلت تماماً بذلك المشهد، على نحو تأملي تقريباً. أنـــزلت القميص عن كتفيهـــا لتكشف ظهرها الأملس الجميل، وانحنت إلى الأمام قليلاً ثم دفعت إبهاميها في حزام سروالها الأبيض، مستعدة لنـــزعه. عندما بدأت تفعل ذلك، وكانـــت لا تـــزال ضائعة في أفكارها، سمعت صوتاً خلفها. بقيت ذاهلة لحظة، لا تعـــرف إن كـــان حقيقياً أم من مخيلتها، ثم تبددت الذكرى وعادت إلى الغرفة.

جاء الصوت: "كفى. توقفي، أرجوك توقفي".

شدّت السروال إلى الأعلى مجدداً، وأخفت صدرها بـــذراعيها، واســـتدارت قليلاً نحو الأريكة، ناظرةً من فوق كتفها، غير واثقة بما يحدث، وما يريده منـــها. كان فدوي يميل إلى الأمام، يرفع إحدى يديه إلى الأعلى، وقد فتح راحـــة كفـــه نحوها، ويضع الأخرى على جبينه، يحجب عينيه. كانت ابتسامته قد اختفت وقـــد حلّت مكانها تكشيرة ارتباك من نوعٍ ما؛ كأنه قد استيقظ للتو من حلم سيئ.

همهم، وقد اختفى الابتهاج الساخر الذي كان موجوداً قبل لحظات قليلة من صوته، وأصبح آنذاك ضعيفاً ومرتعشاً: "لا أعرف ما كنت أفكّر فيه. هذا لا يُغتفر من قبلي، لا يُغتفر. أن أجعلك... أرجوك، من فضلك، غطّي نفسك".

نهض على قدميه، يشيح ببصره بعيداً عنها، ومشى في الغرفة نحـو الطاولـة وأوقف مشغّل الشرائط، ووقف هناك يدير ظهره لها.

ظل يكرّر: "لا أعرف فحسب ما كنت أفكّر فيه. هذا عمـل لا يُغتفـر، لا يُغتفر".

تردّدت فريا، ثم بدأت ترتدي ثيابها مجدداً. بالرغم من ارتياحهـا؛ لأنها لم تضطر إلى تعرية نفسها، إلا أنها شعرت بأن كبرياءها قد جُرحت؛ كأن جزءاً منها قد أراد في الواقع أن تمضي قدماً في التعرّي. وقد أحسّت بالقلق أيضاً؛ لأنه إذا كان فدوي قد غير رأيه بشأن هذا، فربما يكون قد فعل الشيء نفسه بشأن الواحة.

بدا أن كل ما يستطيع قوله: "لا أعرف ما كنت أفكّر فيه. هـذا عمـل لا يُغتفر، لا يُغتفر".

ارتدت فريا جوربها وانتعلت حذاءها ورفعت السترة الصوفية فوق كتفيهـا. وبدأت تدخل يدها في أحد الردنين، لتنـزع السترة مجدداً. ذهبـت إلى فـدوي، وضعتها على كتفيه، وهي تشعر فجأة بالأسى عليه، بالرغم مما قد حـدث. تمتم شاكراً إياها، ومدَّ يده وشدَّ السترة حوله. وقفا في صمت مرتبك، وفدوي يحـدّق إلى الطاولة، وفريا تحدّق إلى فدوي.

قال أخيراً: "لا بدّ من أنك تهتمين لأجله كثيراً". كان صوته خافتـاً جـداً وبالكاد مسموعاً. "فلندرز. أن تكوني مستعدة لتفعلي شيئاً مثل ذلك من أجله. لا بدّ من أنه يعني الكثير لك".

"كما قلت في الخارج، لا علاقة لهذا بفلين. كان من أجل شـقيقتي. كنـت أهتم لأمرها كثيراً".

نظر فدوي إليها - نظرة ندم وخجل في عينيه - قبل أن يتحرك حول الطاولة ويتوجّه نحو خزانة كتب خلفها. مرّر إصبعاً إلى الأمام والخلف على طول إحـدى الرفوف، وعثر على المجلّد الذي يريده، أخرجه وسلّمها إياه. عرفت فريا الغـلاف على الفور: شخص يرتدي ملابس زرقاء يمشي على قمة كثيب، وتبـدو شمـس

ياقوتية ضخمة مثبّتة على رأسه: تين هينان الصغيرة، كتاب شقيقتها عن السنة التي أمضتها في العيش مع بربر الطوارق شمالي النيجر. قلّبت الكتاب، وحدّقت إلى صورة ألكس على الكتاب. بدت يافعة جداً، ووجهها مفعماً بالنشاط.

شرح فدوي وهو يجلس على الكرسي إلى الطاولة ويشدُّ السترة الصوفية بإحكام أكبر حول نفسه: "عرّفنا فلندرز، قبل خمس سنوات أو ست من الآن إلى بعضنا. بقينا على اتصال. أرسلت إلي نسخة من كتابها. امرأة رائعة؛ استثنائية. أنا آسف جداً حقاً لسماع نبأ موتها".

نظر إلى الأعلى، ثم أخفض عينيه مجدداً، وفتح درجاً وبحث داخله.

قال: "أنا آسف أيضاً بشأن، تعرفين... إنه عمل لا يُغتفر مني أن أجعلك تختبرين ذلك. لا يُغتفر".

لوّحت فريا بيدها بإشارة منها إلى أنه لم يحدث أي مكروه والاعتذار غير ضروري.

تابع، وهو لا يزال يبحث: "عرفت أنه سيزعج فلندرز، كما رأيتِ؛ يستفزّه. به رجل مهذّب. أردت أن... بعد كل ما حدث، المحاكمة، السجن... أردّ له الصاع صاعين. لكن أن أستغلك...".

هزّ رأسه، ثمّ رفع يده، ومسح بها عينيه.

أرادت فريا أن تشجّعه على الحديث عن الواحة، لكنه بدا عجوزاً وبائساً جداً، وذاهلاً، ولم يبدُ ذلك مناسباً، ليس تلك اللحظة على الأقل. لذلك، اجتازت الغرفة وجلبت كأسه، ملأتها مجدداً من القارورة في الخزانة، وأعادتها معها ووضعتها أمامه. ابتسم ابتسامة باهتة وارتشف.

قال: "أنت لطيفة جداً معي. حقاً، لطيفة جداً".

تناول رشفة أخرى، ثمّ أغلق الدرج الأول وفتح الذي تحته، يميل إلى الجانب والأسفل حتى لم يعد مرئياً فوق سطح الطاولة إلا أعلى رأسه.

جاء صوته يرافقه صوت خشخشة أوراق: "كان محقاً طبعاً، فلندرز. كانت تلك غلطتي، وأنا من دمّرت حياتي. أظن أن ذلك هو سبب غضبي الشديد منه؛ لأن الأمر سيكون أسهل إن لم يعرف المرء على من يقع اللوم فعلاً. الألم أقل كثيراً".

شدَّ قامته، ودفع الدرج ليغلقه. كان يحمل علبة شريط تسجيل بلاستيكية.

"أحب أشياء كما ترين، ولطالما فعلت. أحبّ أن أضعها حـــولي، أمتلكهـــا: أجزاء من الماضي، نوافذ صغيرة على عالم مفقود... إدمان، ينخر المرء مثل الشراب أو الممنوعات. لم أستطع منع نفسي، فهي تجعلني أشعر بسعادة غامرة".

تنهّد تنهيدة كآبةٍ وإحباط، ثمّ فتح العلبة وتوثّق من الشريط في الـــداخل، ثم انحنى فوق الطاولة وسلّمها إياها.

"يجب أن تعيديه إلى البداية، لكن هذا ما تريدينه. كل شيء هناك: أبيدوس. الواحة، ما وجدته. سيفهم فلندرز. هل لديك مشغّل شرائط في سيارتك؟".

قالت: "مشغّل أقراص مضغوطة".

"آه! إذاً، من الأفضل أن تأخذي هذا أيضاً".

طقطق المسجّل المحمول على الطاولة حين فتحه وأخرج شـــريط فـــيروز. ثم أغلقه مجدداً ودفعه إليها، رافضاً اعتراضاتها.

"خذيه من فضلك، ولا داعيَ لإعادته. هذا أقل ما يمكنني فعله بعد...".

طأطأ رأسه.

"وكتاب شقيقتك، يمكنك أخذه أيضاً".

شكرته، لكنها قالت إن لديها عدّة نسخ منه. أومأ وتناول الكتـــاب منـــه، وأعاده إلى مكانه في الخزانة.

"وأظن الآن أن الوقت قد حان على الأرجح لتنطلقي في طريقك. لقد كانت ليلة قاسية وسيكون فلندرز قلقاً، ويخطط لمهمة إنقاذ. لا يمكنه أن يقاوم أبداً إغراء فتاة في ورطة. الإنكليزي المثالي".

توثّق من أنها تحمل المسجّل والشريط، وقادها عائدَين على طول الـــرواق إلى الباب الأمامي. أبعد السترة الصوفية عن كتفيه وأعطاها إياها.

قالت وهي تعرف تمام المعرفة أن مولي كيرنان ستتفهّم الوضع: "احتفظ بهـــا. ردّها إلي حين نلتقي المرة القادمة".

"ينتابني شعور أن ذلك لن يحدث قبل وقت طويل، إن حدث أصـــلاً. مـــن الأفضل أن تأخذيها الآن".

وقفا هناك لحظة، ثم مالت فريا إلى الأمام وقبّلته على وجنته.

قالت: "شكراً لك".

ابتسم وربت على ذراعها قائلاً: "على العكس، شكراً لك. لقد جعلتِ سجيناً سابقاً عجوزاً يشعر بسعادة غامرة".

التقت عيونهما لبعض الوقت، ثم أمسك مقبض الباب. قبل أن يستطيع فتح الباب مدّت يدها وأمسكت يده.

"إنه ينظر إلى العالم من خلالكَ. فلين. حتى بعد كل ما جرى، لا يزال ينظر إليك على أنك قدوة. يريدك أن تعرف ذلك".

قال فدوي: "في الواقع، أنا من ينظر إليه على أنه قدوة. أعظم عالم آثار التقيت به على الإطلاق. عبقري، نابغة. أفضل رجل ميداني في هذا العمل".

سكت قليلاً ثم أضاف: "اعتني به. يحتاج إلى ذلك. وأخبريه أنه يجب ألاّ يشعر بسوء، فما حدث كله غلطتي أنا".

حرّر يده بهدوء من يدها، وفتح الباب ودفعها إلى الخارج نحو الممر المفروش بالحصى.

كرّرت: "شكراً لك. شكراً جزيلاً لك".

ابتسم مجدداً، ربت مرة أخرى على ذراعها وأغلق الباب. أمسك البندقية التي كان قد أسندها بجانبه، وكوّر إصبعاً حول الزناد.

تنهّد: "لنفكّر الآن كيف سنفعل هذا".

كان فلين يتحرك نحو فريا في اللحظة التي خرجت فيها من المنزل. انطلق يهرول ووصل إليها حين أُغلق الباب الأمامي بعنف.

"أخبريني! ماذا فعل بك، ذلك القذر...".

قالت وهي تمشي بخطوات واسعة نحو السيارة، وفلين يسير بجانبها، ويشير بإصبعه غاضباً إلى الباب: "لم يفعل شيئاً".

"سأقتله! سأقتله!".

"لن تفعل شيئاً مماثلاً. كان رجلاً مهذباً تماماً".

"هل جعلك...؟".

"لا، لم يجعلني أتعرّى. بدّل رأيه".

"إذاً، ماذا كنت تفعلين في الداخل كل ذلك الوقت؟".

قالت وهي تفتح باب الراكب في الشيروكي وتصعد إليه: "نتحدث. قد تكون مهتماً بسماع أنه يظنك أعظم عالم آثار التقى به على الإطلاق. عبقري. ذاك ما دعاك به. نابغة تماماً".

جعل ذلك فلين يصمت، وتعبير وجهه يتغير من الغضب إلى الاندهاش. وقف هناك لحظة يحدّق إلى المنزل، ويمعن التفكير على ما يبدو في عودته والتحدث إلى فدوي بنفسه. ثمّ قرّر ألاّ يفعل ذلك، وفتح باب السائق وصعد إلى الشيروكي بجانب فريا.

"أفترض أنني لن آمل أن يكون قد أخبرك ما يعرفه؟".

رفعت الشريط.

"كل شيء هنا، على ما يبدو. قال إنك ستفهم ما يعنيه".

أمسك الشريط وراح يقلّبه في يده.

قال وهو يشير إلى الجهاز في حجرها: "أفترض أن ذلك لتشغيله؟". أومأت فريا.

"أعطانا إياه. قال إن بمقدورنا الاحتفاظ به".

فكّر في الأمر، وعيناه تنتقلان من المسجل إلى المنزل، ثم أعطاها الشريط وشغّل المحرك.

قال: "سنستمع إليه في طريقنا". أدار محرّك السيارة، ومع نظرة أخيرة إلى الخلف انطلق على الممر، والعجلات تصرُّ على الحصى، والمسجّل يخشخش ويئز حين أعادت فريا الشريط إلى البداية. وفقاً لساعة لوحة القيادة كان الوقت آنذاك 10:40 مساءً.

قالت: "فلندرز؟".

"همم؟".

"فلندرز. هل فلين اختصار لذلك الاسم؟".

بدا أنها على وشك أن تبدأ القهقهة. نظر إليها، وهزَّ كتفيه محرجاً.

"تيمناً بفلندرز بتري، عالم الآثار المصرية. لسبب ما، ظنَّ والداي أن ذلك سيمنحني دفعة كبيرة في الحياة".

ابتسمت بتكلّف.

"اسم لطيف، مميز".

"لا تُدهشي. لو أنني كنت فتاة لكانا سيدعوانني نفرتيتي".

عبرا سور الأوتاد الأبيض واهتزا على الدرب نحو الطريق الرئيس، وتردد صوت عيار ناري واحد من المنزل خلفهما، مكتوماً جداً بالنسبة إليهما، ولم يستطيعا سماعه بسبب هسيس المسجّل وهدير المحرك.

القاهرة

جلس سي أنغلتون على شرفة محطة تنصّته في سميراميس إنتركونتيننتال، يأكل شوكولاته مارس ويحدّق شارد الذهن إلى ليل القاهرة الذي يبدو مثل فسيفساء متلألئة من الضوء تمتد إلى مسافة بعيدة. كانت السيدة معلوف قد ذهبت منذ وقت طويل، وبالرغم من أن المحطة تبقى عادة خاوية حتى عودتها في الصباح، إلا أنه أراد تلك الليلة البقاء هناك؛ تحسباً فقط لقيام برودي باستخدام الهاتف، ومحاولته إجراء اتصال بكيرنان.

نال الرجل إعجابه، بالطريقة التي تخلّص بها منه على تلك الحال، بتغيير مسلكه على الأتوستراد نحو حركة المرور المعاكسة، واختفى على الطريق المنزلقة. قيادة رائعة، وذكاء منه. كان أنغلتون يفخر منذ وقت طويل بقدراته في تعقّب السيارات - لقد تبع كيرنان من دون أن تلاحظ شيئاً، وكانت ماكرة جداً - لكن في هذه الحال اضطر إلى الاعتراف بالهزيمة. كانت محاولة تقليد مناورة برودي تعني إعلان *أنت مطارد!* بلوحة نيون ساطع في سماء الليل.

أحجم عن فعل ذلك، وعاد أولاً إلى الشقة في عين شمس على أمل أن يجد كيرنان، ثم بعد أن اكتشف أنها قد غادرت المكان، جاء إلى هنا بدلاً من ذلك. كان ذلك على الأرجح مضيعة للوقت، لكنه يحتاج إلى استجماع أفكاره والتخطيط لحركته التالية.

لكل عمل من هذا النوع نقطة محورية؛ لحظة فاصلة تكون فيها أمام خيار إما الخوض في الماء، وإما نقل الأمور إلى مستوى آخر تماماً. حانت تلك اللحظة آنذاك، وعرف أنه لم يحصل بعد على الصورة كاملة - كانت لا تزال هناك متغيرات كثيرة - لكنه يجب أن يتعقّب أثر برودي وينبغي له أن يفعل ذلك

بسرعة، قبل أن تخرج الأحداث عن سيطرته تماماً. كان قد أحكم قبضته على الأمر حتى ذلك الوقت، ولا أحد يعرف ما يفعله إلا هو والسيدة معلوف، وأصحاب العمل بالتأكيد. آنذاك، جالساً على الشرفة يحدّق إلى الضوء الضبابي المتعرّج للأهرامات - المرئي على طرف المدينة تماماً - قرر أن الوقت قد حان لتوسيع الدائرة، وكشف الغطاء. كان قد حصل آنذاك على الموافقة من لانغلي، وجعلهم يقومون بالإجراءات المناسبة. وسواء اتّصل برودي بكيرنان باستخدام قناة لم يكتشفها بعد أم لم يتّصل، فقبلَ ألاّ خيار لديه إلا أن يتصرف. كان عليه أن يتعقّبهما؛ برودي والفتاة، وأن يصل إليهما قبل أن يفعل أي شخص آخر ذلك.

نظر إلى الخارج وقتاً أطول، أنهى الشوكولاته بعد أن حشَرَ القطعة كلّها فعلاً في فمه، ثم دفع نفسه ليقف على قدميه. دخل الغرفة وأمسك هاتفه الخلوي وأجرى اتّصالاً. خمس رنّات، ثم أُجيب عن الاتّصال.

"اللواء تانر؟ سايروس أنغلتون، السفارة الأمريكية. أظن أن أحد زملائي في الولايات المتحدة قد... جيد، جيد، شكراً لك، ذلك لطف كبير. إذاً، دعني أشرح ما أحتاج إليه بالتحديد".

قال كل شيء ببطء وحرص، يلفظ الكلمات بوضوح ليتوثّق من أن المصري لا يفهم فحسب، إنما يقدّر أهمية الموقف أيضاً: الاتصال بكل نقطة تفتيش للشرطة ضمن شعاع مئة ميل من القاهرة ليرى إن كان أيٌّ منها قد سجّل مرور جيب غراند شيروكي أبيض مسجّل لمصلحة السفارة، تحمل لوحة رقم 21963. سيكون وقت التسجيل واتّجاه الرحلة ذا أهمية بالغة أيضاً.

عندما توثّق أن الرجل على الطرف الآخر قد فهم المراد، وسيعاود الاتصال به في اللحظة التي يحصل فيها على أي معلومة، أنهى أنغلتون الاتصال وخرج مجدداً. أخرج إصبع شوكولاته آخر من جيبه وفتحه، ثم مزق الغلاف ورمى به من الشرفة. تناول قضمة وبدأ يغني لنفسه، بهدوء، على أنغام مايكل فينيغان:

"أين أنت يا أستاذ فلين-فلين؟
اختفيت في الهواء مثل فص ملح-ملح،
لكن أنا من سيفوز-يفوز،
وأمسك بك مجدداً، يا أستاذ فلين-فلين".

بين القاهرة والإسكندرية

"السبت، الحادي والعشرون من كانون الثاني. بدأت العمل في معبد حورس، وتقضي الخطة بتمضية ثلاثة أيام إلى أربعة في كل حرَم، مع أسبوع لكتابة تقريري في النهاية. أقوّم الأمور، أصوّر الجدران، أسجل ملحوظات عن حماية النقوش، والسقف، والباب الزائف... وغير ذلك. جاءت امرأة أمريكية لعينة وبدأت تغني، وبدت مثل جمل يتقيأ. سخيفة".

طقطق فلين أصابعه، وأشار إلى فريا أن توقف الشريط، والشيروكي تقفز وتهتز في أثناء عودتهما على الدرب نفسه نحو طريق القاهرة-الإسكندرية الرئيسة، والغبار يندفع حولهما.

سألت فريا: "ماذا يعني هذا؟".

بدا عابساً حين قال: "حسناً، يجب أن أصغي إلى المزيد، لكن مما قد سمعناه حتى الآن يبدو أنها ملحوظات عمل حسن فدوي، من الموسم الأخير في أبيدوس. عندما ألقي القبض عليه وهو يسرق...".

سكت عن الكلام، وانحرف ليتفادى حفرة عميقة، وصفعت أوراق الموز هيكل الجيب مثل أيدٍ عملاقة.

استأنف كلامه: "احتفظ حسن دائماً بتسجيلات لما كان يقوم به. مفكّرة تنقيب تفصيلية، لكنها تعليقات مسجّلة غير رسمية: أفكار، انطباعات، أشياء عامة، أقاويل. إنها بالإنكليزية لسبب ما، بالرغم من أن لغته الأم هي العربية".

انحرف مجدداً، هذه المرة ليتفادى كلباً كان يسير متمهلاً في وسط الدرب.

سألت فريا: "ما الذي يتكلم عنه هنا؟".

"في منتصف ذلك الموسم الأخير - ذكرت هذا في طريقنا إلى هنا - طُلب من حسن المساعدة على القيام ببعض أعمال الصيانة في معبد ستي الأول. كان المجلس الأعلى يحتاج إلى تقرير عن حال حجرات المعبد الداخلية السبع، التي تشكّل إحداها معبد حورس. انتهى بي الأمر وأنا أشرف على التنقيب في موقع خع سخ وي، وغاب حسن أربعة أسابيع للقيام بالعمل المطلوب وكتابة تقرير النتائج".

حكَّ رأسه ثمّ تابع: "لكنني لا أعرف ما علاقة أيٍّ من ذلك بالواحة. لقد بُنِيَ معبد ستي بعد ألف سنة من آخر إشارة موثّقة عن *ويت سيشتات*، ولا يوجد أي شيء على صلة بها ولو من بعيد في أيٍّ من نقوشه أو رسوماته".

سألت حين وصلا إلى نهاية الدرب، وانعطفا يساراً عائدَين نحو القاهرة: "إذاً. لماذا أعطانا الشريط؟".

هزَّ فلين كتفيه وقال: "أظن أنّه علينا الإصغاء إليه وحسب".

مال إلى الأمام، وضغط على زر التشغيل، فتردد صوت فدوي المميز والقوي والعميق والمهذّب مرة أخرى من المسجّل.

"الأحد، الثاني والعشرون من كانون الثاني. لم أستطع النوم، لذا جئت إلى المعبد باكراً، بعد الخامسة فجراً بقليل. لم يزعج أحد نفسه بإبلاغ الحراس الليليين أنني أعمل هناك، وكاد أحدهم يطلق النار علي - ظن أنني إسلامي يزرع قنبلة أو شيئاً مماثلاً. انقضت تسع سنوات على مجزرة حتشبسوت، ولا يزال الجميع يتخوّفون كثيراً من إرهابيين. رسمت نقش ملابس الملك حورس والتقطت مزيداً من الصور للقنطرة السقفية التي لم تكن في حال جيدة على الإطلاق. بعد الظهر. تناولت الشاي مع "أبو جمعة" الذي يعمل في بناء المحكمة الأولى، ويبلغ من العمر ثمانين عاماً ولا يزال أفضل بنّاء حجر في مصر. قال أفظع دعابة عن هاورد كارتر وتوت عنخ آمون، التي لا أظن أن بمقدوري تكرارها حتى هنا!".

استمر الأمر على ذلك المنوال. لم تحظَ بعض الأيام إلا بعدد قليل من التعليقات العابرة، وموجز عام لما كان فدوي يقوم به، في حين حظيت أخرى بمعلومات أكثر، وأوصاف عن عمله يرافقها مونولوج مطوّل عن كل شيء من هندسة مقبرة المملكة الجديدة إلى: هل عالمات الآثار الفرنسيات أجمل من البولنديات؟ (نعم، كما ظنَّ فدوي).

بعد عشرين دقيقة، وقد وصلا آنذاك إلى نقطة التفتيش التي عبراها سابقاً في المساء وتجاوزاها مجدداً - سجّل الشرطي الذي يدير الحاجز رقم لوحة التسجيل مرة أخرى - طلب فلين من فريا تسريع الشريط إلى الأمام، متجاوزة أقساماً من

المسجل على أمل الوصول إلى الجزء الذي يهمهما حقاً. ولكن، وبـالرغم مـن ذلك، لم يستطيعا العثور على ما يريدانه مع استمرار صوت فدوي في الثرثـرة، في جمس موجزة آنذاك، وينتقل من كانون الثاني إلى شباط، في أثناء عمله من حرم إلى آخر، مخصصاً كلاً منها للحديث عن حورس، آيزيس، أوزيـريس، آمـون-رع، رع-هوراختي. وصل الشريط إلى نهايته، فقلباه وشغّلاه علـى الجانـب الآخـر، وكلاهما ينتظران قانطين على نحو متزايد مع فشلهما في التقاط أي ذكـر للواحـة الخفية.

قال فلين حين تحدث المصري وقال شيئاً عن ضرر تعفّن في قنطـرة سـقف رع-هوراختي: "ينتابني شعور بغيض هنا. إنه يضيع وقتنا سدًى، ويجعلنـا نطـارد إوزة برّية من دون طائل".

قالت فريا متذكّرة كيف بدا فدوي في المنـزل: "لن يفعـل ذلـك. كـان صادقاً. هناك شيء هنا، أنا...".

لم تُنهِ الجملة؛ لأن فلين طقطق فجأة أصابعه ووكز المسجّل مشيراً إليهـا أن تعيد الشريط. أوقفته، أعادته قليلاً إلى الوراء، وضغطت على زر التشغيل مجدداً.

"... مع أختام وأشكال قرابين. عندما انحنيت مقترباً منها شـعرت بشـيء غريب... نفحة هواء على...".

طقطق فلين أصابعه مجدداً، وحرّك يده دائرياً ليشير إلى أنها يجـب أن تُعيـده أكثر إلى الوراء. خشخش الشريط وهسَّ حين دار حول بكرته. تركه فلين يـدور خمس ثوانٍ قبل أن يشير إليها بتشغيله مجدداً.

"... وجدت شيئاً مبهماً جداً. كنت في الأعلى على السقالة على الطـرف الأمامي من معبد رع-هوراختي، أكشطُ العفن عن السقف، في المنطقة التي تلتقـي فيها القنطرة مع جدار المعبد الشمالي. توجد كتلة حجرية هناك، تكـوّن الزاويـة العليا اليمنى من الجدار؛ خمس عشرة بوصة في خمس عشرة بوصة، مزخرفة بأختام وأشكال قرابين. عندما انحنيت مقترباً منها شعرت بشيء غريب... نفحـة هـواء

على وجهي. ظننت في البداية أنها تأتي من بوابة الحرم، لكن عندما ألقيت نظرة متفحّصة - ولا تلاحظ هذا حقاً من مستوى الأرض - رأيت أن هناك شقاً رفيعاً جداً، لا يزيد عرضه على ملليمترٍ واحدٍ، يمتد على طول أعلى الحجر، وشقوقاً مشابهة أضيق منه على كلا جانبيه وفي الأسفل. كانت حجارة الجدران مثبّتة بإحكام في كل مكان آخر في المعبد، ولا يمكن وضع دبوس بينها، لكن في هذه الحال الخاصة يبدو أن هناك شرخاً من نوعٍ ما. ليس ذلك فقط، إنما تشير حقيقة أنك تشعر بالهواء يأتي منها إلى وجود نوع من التجويف خلفها. تأخر الوقت كثيراً على فعل أي شيء بشأنها اليوم، لكنني تحدّثت إلى "أبو جمعة" وسنعود في الصبح لنتفحّصها كما ينبغي، ونرى إن كان بمقدورنا ربما تحريك الحجر. لن يتمخض شيء على الأرجح عن ذلك، لكن مع ذلك...".

ضغطت فريا زر الإيقاف المؤقت.

سألت: "هل تظن أن هذا ما يقصده؟ ما أراد أن يخبرنا عنه؟".

مدَّ فلين يده، وشغّل الشريط مجدداً.

"الأحد، الثاني عشر من شباط. لم أستطع أن أتمالك نفسي، وقد جئت باكراً لأنظر إلى الكتلة الحجريّة مجدداً، حتى إن كان ذلك يعني تلقي عيار ناري من حرّاس يفرحون بالضغط على الزناد! كلما أمعنت التفكير في الأمر - ولم أفعل شيئاً غير ذلك منذ مساء الأمس - بدا لي أنني قد أكون عثرت مصادفة على شيء بالغ الأهمية. سماكة الجدران بين المعابد عشر أقدام على الأقل، وقد افتُرض دائماً أنها صلبة تماماً. إذا تبين أنها فارغة في الواقع، وتوجد تجاويف بينها، فسيبدّل ذلك مفهومنا لا للمعبد نفسه فقط، إنما لطريقة بنائه أيضاً. الحق أنه ينبغي لي الحصول على إذن من المجلس الأعلى، لكنهم سيؤخرون الأمور أسبوعاً على الأقل، وأريد فعلاً أن أكتشف ما يوجد خلف ذلك الحجر. سيصل "أبو جمعة" إلى هنا بعد بضع دقائق ويمكننا تحريك الكتلة الحجرية، وأخذ فكرة عمّا يوجد خلفها، ثم إبلاغ السلطات المعنية. أنا أشعر بإثارة كبيرة حقاً".

كان الشيروكي يسير آنذاك خلف صهريج نقل نفط يقعقع بسرعة تقل عن 60 كم/سا. بالرغم من أن المسرب الثاني كان خالياً، إلا أن فلين بقي هناك وحسب، مستغرقاً تماماً في الاستماع إلى التسجيل، وغافلاً عن تجاوز الصهريج.

"... 4 بعد الظهر وقد وصل "أبو جمعة" للتو؛ لقد كان مشغولاً طوال اليوم بأمور أسرية؛ بشيء له علاقة بأشقائه، ويجب أن أقول إنّ ذلك كان محبطاً جداً. كنت أعرف أنه لا يمكن تفادي مثل تلك الأشياء، لكن اليوم من بين كل الأيام! على أيّ حال، إنه هنا الآن، مع حفيده لطيف، ونحن جميعاً على السقالة. أحضرا عتلات حديدية معهما، وحصيراً لوضع الكتلة الحجرية عليها إن استطاعا إزاحتها، وقد بدأا العمل للتو... *خلي بالك أبوا*... السقالة تتمايل، لذا أظن أنه من الأفضل وضع المسجّل...".

سمعا قعقعة مكتومة، على ما يبدو حين وضع فدوي مسجّله جانباً. بدا في إثارته أنه قد نسي إيقافه عن العمل؛ لأنه بالرغم من عدم تكلّمه مباشرة اتجاهه، إلا أن التسجيل استمر. ردّد الشريط همهمات وتعليقات مكتومة، وصرير السقالة، ورنين معدن على حجر وخدشه. كان بالإمكان سماع صوت فدوي بين الحين والآخر وهو يصدر تعليمات بالعربية - *خلي بالك أبوا! حارس، حارس* - أصبحت نبرته مرهقة وملحّة على نحو متزايد، وهمهمات الخلفية مجهدة أيضاً، حتى سمعا، بعد عشر دقائق تقريباً، ثرثرة وصوت كشط حاد؛ كأن حجراً يفت آخر، تبعه صوت مكتوم؛ كأن شيئاً ثقيلاً قد هبط على شيء طري. أطبق الصمت، ثم سُمِعَ صوت فدوي مجدداً، خافتاً، غير مصدّق: *"يا الله! يا الله! إنه مملوء..."*.

خفف الصهريج أمامهما سرعته فجأة. لم يلاحظ فلين ذلك إلا في اللحظة الأخيرة وكان عليه أن ينحرف يساراً إلى المسرب الخارجي ليتفادى الاصطدام به. صدح بوق سيارة أجرة كانت تحاول تجاوزهما بغضب حين أُرغم سائقها على الضغط بقوة على مكابحه. بحلول الوقت الذي تجاوز فلين فيه الصهريج ولوّح لسيارة الأجرة أن تتجاوزه، كان فدوي قد استأنف كلامه مباشرة نحو مسجّله، وصوته عصبي ويرتعش آنذاك:

"... تجويف ضخم مملوء كتلاً حجرية، كلها مكوّمة معاً مثـــل... نقـــوش. كتابات هيروغليفية، أجزاء من تماثيل... أصف هذا في أثناء رؤيتي إياه، إنها فوضى من... يا الله؟ هل ذلك... ختم، نعم، إنه ختم، مهلاً، نفر... هل ذلك رمز كـــا؟ نفر-كا-رع بيبـــي، يا الله! يا الله! نفر-كا-رع بيبـــي؛ بيبـــي الثاني. لا يمكنني تصديق ما أراه! آثار المملكة القديمة... يجب أن أدخل إلى هناك. ينبغي لي أن...".

سمعا هسيساً وتشويشاً وطقطقة حين أوقف فدوي الشريط. مـــال فلـــين إلى الأمام، وعيناه تلمعان، راغباً في أن يُستَأنَفَ الكلام، وهذا ما حدث بعد توقـــف قصير. بدا صوت فدوي أكثر هدوءاً، ويرافقه صرير أقدام على الحصى.

"الوقت منتصف الليل، وقد أعدنا الكتلة الحجرية إلى مكانها، وها أنا ذا أشق طريقي عائداً إلى منـــزل التنقيب، لا أزال غير مصدّق ما قد وجدناه. كنت قـــد قبلت وقتاً طويلاً أنه لن يكون هناك أبداً شيء يضاهي إمتي-ختنيكا، وأن ذلـــك سيكون ذروة حياتي المهنية، والآن، فجأة، من دون سابق إنذار... مثل ذلك الشيء الرائع... من كان بمقدوره أن يفكّر في شيء مماثـــل؟ مـــن كـــان يســـتطيع أن يخمّن...؟".

أحجم عن الكلام، وغصَّ صوته بالمشاعر. كان الصوت الوحيد الذي سُـــمِع لبعض الوقت وقع قدميه قبل أن يبدو أنه استجمع شتات نفسه واستأنف التعليق.

"كما ظننت، هناك تجويف كبير خلف جدار الحرم، عرضه ثلاثة أمتار تقريباً وبارتفاع المعبد نفسه. ما لم أتوقعه - لم يكن بمقـــدوري أن أتوقعـــه - هـــو أن التجويف مملوء آثاراً من بناء أقدم كثيراً، ويبدو في هذه الحال معبداً يعود تاريخه إلى عهد بيبـــي الثاني. كان ذلك شيئاً فعله المصريون القدماء طوال الوقـــت، طبعـــاً. وهو استخدام بقايا أحد الصروح لبناء آخـــر - خطـــرت *تالاتـــات* (حجـــارة استُخدمت في بناء المعابد) أخناتون في الكرنك على الفور في ذهـــني - لكـــن لا يمكنني التفكير في أي شيء موغل في القدم ومهم مثل هذا. لم يتسنَّ لي إلا إلقـــاء

نظرة خاطفة هناك، لكن، حتى مع ذلك... الألوان استثنائية حقاً، والنقوش فريدة تماماً، وفيها على الأقل واحدة، وربما عدد منها، على صلة ببنبن والواحة الخفية... لا يمكنني الانتظار حتى أخبر فلندرز!".

عندما ذُكر الاسم نظرت فريا إلى الرجل الإنكليزي الذي كان يحدّق إلى الأمام مباشرة، ورطوبة بالكاد ملحوظة في عينيه. شعر بأنها تنظر إليه وأشار إلى الأسفل إلى الشريط، موضحاً أنها يجب أن تركز على ذلك لا عليه.

"... باكر جداً القول، طبعاً، لكنّ تخميني أننا لن نجد هذا التجويف فقط مملوءاً بهذه الطريقة، إنما كل التجاويف الموجود خلف جدران الحرم، وربما أجزاء أخرى من المعبد كذلك. ربما نكون جالسين على أعظم مجموعة من آثار العمارة المصرية على الإطلاق... لا يمكنني تصوّر ذلك، لا أستطيع فحسب تخيّل ذلك. سأعود في الصباح الباكر غداً؛ لأبدأ دراسة أكثر تفصيلاً عن النقوش. جعلت أبو جمعة ولطيف يقسمان على حفظ السر في الوقت الحالي. وفي هذه اللحظة سألقي نظرة سريعة على مستودع التنقيب، وأرى ما فعلوه اليوم، ثم أتوجّه نحو السرير لأرتاح جيداً: في عمري هذا، لا يمكن أن يكون ذلك النوع من الإثارة صحياً! لا يُصدّق! لا يمكن تصديقه!".

طقطق التسجيل متوقفاً مجدداً. انتظرت فريا أن يعود صوت فدوي، ويصف ما قد اكتشفه في اليوم التالي. لم يكن هناك شيء، إنما مجرد هسيس خافت لشريط يلتف على بكرة. بدأت تسرّعه إلى الأمام محاولةً أن تجد التسجيل مجدداً، لكن الهسيس استمر حتى تكتك الشريط ووصل إلى نهايته.

قالت: "لا بدّ من أنه تابع ذلك على شريط آخر. يجب أن نعود...".

قال فلين: "ليس هناك من شريط آخر".

"لكنه قال إنه...".

"انتهى الأمر. ذلك كل شيء".

نظرت إليه وقالت: "كيف تعرف؟".

كان وجهه قد أصبح شاحباً جداً.

"لأنها كانت ليلة الأحد 12 شباط، وهي الليلة التي أُلقي فيها القبض على حسن وهو يسرق من مستودع التنقيب. لم يحظَ قطّ بفرصة العودة إلى المعبد. كان حبيساً في سجن".

لاحظت فريا أن الرطوبة في عينيه قد أصبحت أكثر وضوحاً، وقالت:

"يا الله! لا عجب أنه شعر بمرارة كبيرة. كأن السجن مدّة ثلاث سنوات ليس سيئاً بما يكفي، إنما الحرمان أيضاً من فعل الشيء الوحيد الذي تحب القيام به، وحدث ذلك حين كنت على مشارف أكبر اكتشاف في حياتك المهنية...".

هزّ رأسه وقاد بصمت. بدأت منازل تظهر على كلا جانبي الطريق؛ متفرّقة في البداية، مثل علامات ترقيم بمفردها على صفحة صحراوية فارغة بخلاف ذلك، ثم أكثر تواتراً؛ مساكن وحيدة تجمّعت في قرى، والقرى تضخّمت إلى مجموعة كبيرة من الأبنية حين خرجت ضواحي المدينة لملاقاتهما. ظهرت محطة وقود موبيل مضاءة بقوة أمامهما. خفف فلين السرعة، قاد الشيروكي إلى الساحة، وأوقف عمل المحرك. خرج عامل يرتدي رداءً سروالياً أزرق وينتعل حذاءً مطاطياً أبيض وبدأ يملأ الخزّان. خرج فلين وهرول إلى الهاتف العمومي بجانب الكشك. استطاعت فريا رؤيته يرفع السمّاعة ويتصل. عاد بعد ثلاثين ثانية، وأصبحا على الطريق مجدداً بعد ثلاث دقائق من ذلك.

قال: "سأعرض إيصالك إلى المطار، لكن أظن أنني سأضيع وقتي سدًى".

لم ترد.

"آخر فرصة للتراجع".

جلست فريا هناك ساكنةً، ولاحت الأهرامات أمامهما، وقرأت على لافتة طرقيّة أن القاهرة، الفيوم، المنية، أسيوط أمامهما تماماً.

قال: "لا بأس، سنذهب معاً".

"إلى أبيدوس؟".

خفف فلين السرعة، وشغّل المشيرة وانعطف يميناً.

"إلى أبيدوس".

جلست مولي كيرنان على الكرسي الهزّاز في حديقة منـــزلها، تتأرجح بهدوء إلى الأمام والخلف. كانت تضم كوب قهوة بيديها، وتلف بطانية بإحكام حول كتفيهـــا؛ لأن الوقت متأخر وهواء الليل قد أصبح بارداً. كانت قد استلمت لتوّها الرسالة مـــن فين، وبدا أنه دليل جيد، لكن كان عليها الانتظار بضع ساعات لتكتشـــف مـــدى أهميته. كان على الأقل دليلاً، وهو أكثر مما حظوا به طوال العقدين الماضيين.

عرفت أنها يجب أن تشعر بتفاؤل أكبر، وكانت ستشعر بتفاؤل أكـــبر لـــولا قضية أنغلتون التي تبين أنها أخطر مما تخشى. كان العاملون معها قد وضعوا اسمه في النظام، قاموا بقليل من البحث عنه وتبين أنه يتمتع بسمعة؛ "كابوس" كما وصـــفه بيل شولتز: "أسوأ كوابيسنا على الإطلاق. الرجل بطلينوس بشري".

دفعت الكرسي الهزّاز دفعة أخرى. كان حاسوبها المحمـــول يتـــوازن علـــى ركبتيها، وشاشته مملوءة بصور أنغلتون التي أرسلوها إليها عبر البريد الإلكتروني من الولايات المتحدة. بدين، أصلع، لمعان خافت من العرق يظهر على قوسي وجنتيـــه الحمراوين بلون التفاح. كان يجب مواجهته، طبعاً، ولا يمكن تركه علـــى هـــواه، لكن السؤال: متى؟ وكيف؟ لقد عملت على هذا الموضوع ثلاثاً وعشرين ســـنة، وتشعر الليلةَ، ولأوّل مرة، برعشة خوف حقيقي على ساند فاير وعلـــى نفســـها أيضاً. لم يكن أنغلتون، بكل المقاييس، شخصاً يمكن العبث معه.

ألقت رأسها إلى الخلف، ونظرت إلى النجوم. تنشّقت شذا الياسمين والجهنّميـــة مرهفة السمع إلى صرير الهزّاز والحفيف الخافت لأوراق شجرة اللهب حـــين تهتـــز في النسيم، وتمنّت أكثر من أي وقت مضى أن يكون تشارلي معها، وأن تستطيع التكـــوّر فحسب وتلمُّس الدفء على ذراعه كما اعتادت أن تفعل على شـــرفة منــــزلهما في الولايات المتحدة، فتختفي كل همومها وتزول من دفئه وقوته ويقين إيمانه.

لكن تشارلي لم يكن معها، ولا فائدة من تمني ذلك. لقد وصـــلت إلى ذلـــك الحد من دونه، وهي واثقة أنها لن تنهار الآن. نظرت إلى الأعلى بعـــض الوقـــت، وتركت الكرسيّ الهزّاز يتباطأ حتى توقف تماماً، ثم أنهت قهوتها، وأغلقت الحاسوب المحمول، ثمّ أمسكت مسدس بريتا من المقعـــد بجانبـــها وعـــادت إلى المنـــزل، وأوصدت الباب خلفها، وأغلقت الرتاج.

تمتمت: "هيا. ألهمني شيئاً مفيداً. أرجوك. ألهمني شيئاً مفيداً".

لسبب ما، كانت فريا قد ثبّتت في ذهنها أن أبيدوس جنوب القاهرة تماماً. كانت في الجنوب، لكن ليس تماماً: بل على بعد 500 كيلومتر، بالتحديد، هي أقل بقليل من منتصف طول البلاد بأسرها، وهي مسافة سيستغرق منهما قطعها بتقدير فلين، حتى في الليل مع خلو الطرقات نسبياً من حركة المرور، خمس ساعات وربما أكثر.

قال: "لا يترك لنا هذا وقتاً طويلاً. مما أتذكره، يُفتح المعبد للجمهور عند الساعة السابعة صباحاً، لذا يجب أن نخرج من هناك بحلول، لنقل، 6:45 على الأكثر وإلا سيروننا، وصدّقيني لن يكون ذلك نبأ جيداً. لا يتعامل المصريون بلطف مع أشخاص يتسللون خلسة إلى آثارهم ويفككون قطعاً منها".

ألقى نظرة إلى ساعة لوحة القيادة؛ 11:17 مساءً.

"سيكون ذلك وشيكاً".

قالت فريا: "إذاً، من الأفضل أن تضغط بقدمك إلى الأسفل".

فعل ذلك، وجعل عدّاد السرعة يرتفع إلى 100كم/سا، وتجاوز مسرع الشاحنات والصهاريج المتفرّقة التي كانت المركباتِ الوحيدةَ على الطريق في ذلك الوقت. قطعا نحو عشرين كيلومتراً، ثم فجأة، انعطف فلين إلى جانب الطريق. وركن السيارة أمام صفٍّ من متاجر متهالكة كانت لا تزال فاتحةً أبوابها حتى في تلك الساعة المتأخرة. شاهدا خارج أحدها، المضاء بمصباح نيون واحد، أدوات تستخدم في البناء والزراعة: مكانس، مناجل، مطارق، *طوريات*. أسرع فلين بدخول المتجر، وخرج بعد دقيقة حاملاً عتلتين حديديتين تبدوان ثقيلتين. ومصباحين يدويّين، ومقصاً ضخماً للحديد.

قال وهو يلقي الأدوات على المقعد الخلفي في الجيب ويدفع نفسه خلف المقود مجدداً: "سيكون علينا أن نتضرّع أن يكون هناك في الموقع برج سقالات أو سلم".

"وإذا لم يكن هناك لا هذا ولا ذاك؟".

"عندها سنرتجل، إلا إن كانت مهارات تسلقك تسمح لك بالطيران في الهواء".

شغّل المحرك، ثمّ عاد ببطء إلى الطريق وانطلق في الليل.

لم يتكلما كثيراً في أثناء الرحلة. أصغى فلين إلى شريط فدوي بضع مرات أخرى، ليثبّت المعلومات الضرورية في ذهنه، وتبادلا بضعة أحاديث فاترة. أخبرته فريا قليلاً عن تسلقها، ووصف فلين عمله في الجلف الكبير، وبعض رحلات الاستكشاف المشتركة التي قام وألكس بها. لم يخض أي منهما في تفاصيل كثيرة، ولم يكونا في مزاج ملائم لذلك، وبحلول وقت وصولهما إلى بني سويف على بعد 120 كيلومتراً جنوب القاهرة، صمتا، ولم يعد مسموعاً إلا هدير محرك الشيروكي وصرير الإطارات التي تدور على إسفلت غير مستوٍ.

نامت فريا على نحو متقطّع، فكانت تغفو ثم تستيقظ عندما يتجاوزان أخدوداً عميقاً، أو حين يخفّف فلين السرعة للمرور بنقطة تفتيش للشرطة. لم تنتبه كثيراً إلى البيئة التي يخترقانها باستثناء حقيقة أنها رملية قفرة تتناثر فيها حقول قصب سكر، وأشجار نخيل، وقرى متداعية مبنية من آجر طيني. عند الساعة 1:15 بعد منتصف الليل تقريباً، توقفا في بلدة مضاءة بقوة للتزوّد بالوقود وشراء بعض الماء؛ إنها المنية، في منتصف الطريق تقريباً، كما أخبرها فلين. بعد ذلك بوقت قصير، كادا يصطدمان بحافلة قادمة من الاتجاه المعاكس حين أساء فلين الحكم بتنفيذ مناورة اجتياز صهريج نفط. وباستثناء ذلك، لم يكن هناك شيء يذكر في الرحلة، وعدّاد السرعة يتأرجح حول علامة 110 كم/سا، والعالم يندفع معتماً إلى الخلف على كلا جانبيهما، والكيلومترات تتناقص مع انطلاقهما جنوباً.

"فريا".

"همم".

"فريا".

طرفت عينيها حين فتحتهما، مرتبكة، غير واثقة بمكان وجودها أو ما يجري حولها.

"هيا، لقد وصلنا".

كان فلين يترجّل آنذاك من الجيب. بقيت في مكانها لحظة، تتثاءب، لا يُسمع إلا نباح كلاب بعيدة وتكتكة معدنية خافتة لمحرك الشيروكي الذي يبرد. نظرت

بعد ذلك إلى ساعة لوحة القيادة؛ 4:02 فجراً، كانا قد وصلا في وقت قصير. ثم فتحت بابها وترجّلت أيضاً.

كانا في قرية كبيرة، عند سفح تلة، وطريق مضاء بمصابيح يمتد إلى الأعلى أمامهما نحو برج هاتف خلوي في أعلى المنحدر. كان طريق موازٍ يرتفع 300 متر إلى اليمين، يبرز أمامها، مثل الذي تقف عليه، وهناك صفٌّ كئيب من متاجر ومساكن إسمنتية، وبين الطريقين مثلث ضخم من مساحة مكشوفة تمتد إلى الخلف في سفح التلة. كان على قمتها - محتضَنةً بين ذراعي القرية كأنها بين شوكتي ملقط عملاق - واجهة رائعة يغمرها الضوء لما افترضت أنه يجب أن يكون معبد ستي الأول: طويلة، مسطّحة، مهيبة، يصطف أمامها اثنا عشر عموداً تذكارياً، مثل قضبان قفص هائل.

قال فلين، وهو يقترب ويقف بجانبها: "منزل ملايين السنين للملك من-مات-رع، في قلب أبيدوس. مدهش، أليس كذلك؟".

"بالتأكيد".

"كنت سأعرض عليك القيام بجولة كاملة، لكن، نظراً إلى ضيق الوقت...".

أمسك ذراعها ودفعها إلى الجزء الخلفي من الشيروكي. فتح الباب الخلفي، وأمسك الأدوات من المقعد. أعطى فريا المصباحين اليدويّين وعتلة واحدة، في حين أمسك العتلة الأخرى ومقص الحديد بنفسه، أقفل الجيب. بدأت تتحرك نحو المعبد، لكنه أثار انتباهها من الخلف بطقطقة أصابعه، وقادها بدلاً من ذلك إلى اليسار، نزولاً على شارع جانبي، وتجاوزا حماراً يأكل من كومة علف واتجها نحو القرية.

شرح بنبرة خافتة وهو يلوّح لها أن تسلك شارعاً آخر: "المنطقة كلها تغص بالحراس. يجب أن نبقى خارج مرمى البصر قدر المستطاع".

اتخذا سبيلاً متعرجاً بين المنازل، وكل شيء هادئ جداً باستثناء الكلاب التي لا تزال تنبح بعيداً، وسمعا مرة صوت شخص يشخر. ارتفعت الأرض تدريجياً، ثم بدأت تصبح مستوية. استدارا نحو زقاق ضيق، وخرجا إلى الطريق التي ركنا الشيروكي عليها. كانا قد أصبحا على قمة التلة تقريباً آنذاك، وبرج الهاتف الخلوي يبدو واضحاً إلى يسارهما، والشيروكي مرئياً عند أسفل المنحدر إلى يمينهما. امتدت

أمامهما أرض قفرة تتناثر فيها الأنقاض نحو سياج أسلاك شائكة متداعٍ، يوجد خلفه ركام من أعمدة محطّمة وأسوار من آجر طيني، أعلاها لا يتجاوز ارتفاع الصدر، ووراء تلك يظهر سور أكثر صلابة مبني من مزيج من الكتل الحجرية؛ جانب بناء معبد. كانت كشّافات تغمر كل شيء بضوء برتقالي، ويمكن رؤية حرّاس يرتدون ملابس سوداء يتجوّلون حول السور.

قال فلين وهو يشدّها عائدَين إلى الظلال: "كما قال حسن في الشريط، يطلق هؤلاء الرجال النار أولاً ويطرحون الأسئلة لاحقاً. يجب أن نتوخى الحذر، وإلا سينتهي الأمر بهم يقومون بعمل جرجس نيابة عنه".

حدّق إلى الأرض أمامهما معايناً إياها، وراقب الطريق الذي يتحرك الحرّاس عبره، مستوعباً نمط دوريتهم.

قال بعد وقت قليل وهو يشير إلى أحد الأشخاص الذين يرتدون زياً رسمياً: "هناك بقعة عمياء حين يستدير ذلك الرجل. يمكننا الوصول إلى أسفل السور بين مستودعات الآثار. عندما يستدير مجدداً ندخل عبر تلك البوابة الصغيرة عند الزاوية وننزل إلى رواق المعبد. مفهوم؟".

"ماذا إن رأونا؟".

لم يرد، إنما أمال رأسه فحسب ورفع حاجبيه؛ كأنه يقول: "لنأمل ألاّ يفعلوا". مرّت ثلاثون ثانية، ثم وكز فريا بمرفقه، وبدأ يتحرك إلى الأمام. تبعته، وأسرعا عبر مساحة الأرض القفرة. مرّا عبر ثغرة في السور وشقّا طريقهما إلى متاهة الجدران الطينية. جثما خلف صفٍّ من قواعد الأعمدة وشعرا بأنهما ظاهران للعيان على نحو فظيع، فالكشّافات تغمر المنطقة بالضوء، ونوافذ المباني التي تطل على المكان تكشفها تماماً. حبسا أنفاسهما متوقّعَين أن يسمعا صرخات ووقع خطوات أقدام تجري. لم يلحظ وجودهما أحد، وبعد ثلاثين ثانية أخرى رفع فلين رأسه، وألقى نظرة سريعة حوله ولوّح لفريا أن تتقدم. بقيا منخفضين، ينتقلان بسرعة بين الآثار، ثم مرّا عبر بوابة ضيقة في جدار حرم المعبد. نقلتهما أربع خطوات إلى رواق معمّد يمتد على طول مقدمة البناء المغمور ضوءاً.

همس وهو يسحبها خلف أول الأعمدة التذكارية التي تصطف أمام الواجهة، رافعاً إصبعاً إلى شفتيه: "التزمي الهدوء".

تمتمت: "ماذا تظن أنني سأفعل؟ أبدأ الغناء؟".

توقفا مجدداً وهما يلصقان نفسهما بالحجر، ويصغيان إلى إشارات تدل على أن أحداً رآهما. بدأا بعد ذلك يتحركان على طول الرواق المعمّد نحو المستطيل الأسود لمدخل المعبد، يركضان من عمود إلى آخر، وظلاّهما - متطاولان، ضخمان، مشوّهان - ينزلقان على الجدران المضاءة بقوة إلى يسارهما قبل أن يختفيا مجدداً حين يتواريان عن الأنظار خلف كل عمود. كانت هناك لحظة عذاب عندما تعثّرت فريا، حين وصلا إلى العمود المجاور للبوابة، ورنّت العتلة التي كانت تحملها على الأرض الحجرية. تردد صدى الصوت في الأرجاء، وبدا أنه ملأ الليل كلّه. انكمشا إلى الظل، متجمّدين، يرهفان السمع إلى وقع خطوات تقترب عبر الساحة أمام المعبد، وتصل إلى طرف الرواق المعمّد.

سُمِع صوت، لا يبعد أكثر من بضعة أمتار، ترافقه خشخشة وطقطقة؛ كأن أحدهم ينزل بندقية عن كتفه: "مين؟".

وقفا ساكنَين تماماً، لا أحد منهما يجرؤ على التنفس، يعرفان أنه إذا صعد الحارس إلى المنصة نفسها سيعثر عليهما بالتأكيد. ارتاحا عندما بقي في الأسفل. يذرع المكان جيئة وذهاباً قبل أن يتحرك مبتعداً أخيراً، راضياً ألاّ شيء مفقود. وتلاشى وقع خطواته ببطء. انتظر فلين حتى اختفى تماماً، ثم نظر بحذر من خلف العمود، ورأى أن الطريق خالٍ. أعطى فريا العتلة التي كان يحملها، ثم أمسك مقص الحديد بقوة وتقدم إلى البوابة الحديدية التي تحمي مدخل المعبد وعمل على قفلها؛ قطع المقصُّ الحلقة المعدنية كأنها مصنوعة من جبن. فتح البوابة بأن دفعها إلى الخلف، تقدم عبرها، وألقى نظرة أخرى على الساحة، ثم لوّح لفريا أن تتبعه، وأغلق البوابة خلفها وسحبها إلى اليسار، خارج بركة الضوء التي تكوّنها الكشّافات في الخارج.

وقفا هناك لحظة، يلتقطان أنفاسهما، وعيونهما تتلاءم مع العتمة، ويرهفان السمع. أسند فلين بعد ذلك مقص الحديد إلى الجدار، وأخذ عتلة ومشعلاً من فريا، ثم أضاء المصباح اليدويّ، وقادها إلى الأمام.

كانا في قاعة كهفية أرضيتها من الحجارة، وصفّان من الأعمدة يمتدان إلى اليسار واليمين، وارتفاع كل عمود ثمانية أمتار وعرضه مثل جذع شجرة، وعلى

كل سطح هناك - جدران، أعمدة، سقف - نقوش متداخلة من الهيروغليفية. أضاءت فريا مصباحها اليدويّ وجالت به في الأرجاء وهي تحدّق ذاهلة. كانت قد ذهبت قبل عدّة سنوات للغوص ليلاً في حيدٍ مرجانيٍ قبالة ساحل تايلاند، وبدا أن الشعور الغامض نفسه للوجود تحت الماء ينتابها مجدداً. شق شعاع ضوئها الظلامَ، وسقط على أشكال وصور غريبة: أشخاص لهم أجساد بشرية ورؤوس حيوانات - صقور وأسود وبنات آوى - رجل يركع ويداه مرفوعتان تضرعاً، ثلاثة رؤوس تماثيل مثبّتة في فجوات في الجدار، عيونها الخاوية تحدّق إلى الظلال. كانت هناك ألوان أيضاً: حمراء وخضراء وزرقاء تلوح لحظات قبل أن تتلاشى حين توجّه ضوء مصباحها اليدويّ إلى مكان آخر؛ كأن الشعاع نفسه هو الذي يكوّن التدرّجات اللونية المختلفة.

وصلا إلى الطرف البعيد من القاعة - و لم يكن يسمع إلاّ وقع أقدامهما المكتوم على الحجارة - وعبرا من خلال جدار إلى مساحة ضخمة ثانية، مملوءة أيضاً بغابة من الأعمدة المزخرفة. كان واضحاً حتى لعين فريا غير الخبيرة أن النقوش هناك تتمتع بجودة أعلى كثيراً، والهيروغليفية أكثر دقة من نحوتٍ عادية، والصور أكثر تفصيلاً ودقة. كان سلم من أشعة ضوء القمر يهبط عبر كوّة في السقف العالي فوقهما. بدا كل شيء بخلاف ذلك داكناً جداً، والظلام حالكاً.

تابعا طريقهما عبر تلك الغرفة وصعدا منحدراً إلى منصة منخفضة على طرفها البعيد. وجه فلين الضوء إلى جدار التلة الخلفي، كاشفاً عن صفٍّ من سبعة أبواب مستطيلة الشكل؛ على ما يبدو، هناك فجوات خلفها. اتجه نحو الباب الثالث إلى اليسار، وتبعته فريا، ومرّا تحت عتبة متهالكةٍ جداً إلى غرفة مستطيلة طويلة. كان سقفها المقنطر ملطخاً بالعفن الأسود، وجدرانها المغطاة بالنقوش مرقّعة هنا وهناك بلطخات تشبه الأكزيما من إسمنت حيث تفككت القطع الحجرية وتم إصلاحها.

تمتم فلين، وصوته لا يزال خافتاً حتى بعد أن توغلا عميقاً في المعبد آنذاك باحتمال أن يسمعهما أحد في الخارج ضئيل جداً: "معبد رع-هوراختي".

جال بضوء مصباحه اليدويّ في الأرجاء؛ ثم استدار إلى اليمين ورفع المصباح، ووجهه إلى الزاوية العليا في الجهة اليمنى من الغرفة إلى النقطة التي يندمج فيها الجدار بقوس قنطرة السقف. شاهد هناك، كما وصف فدوي بالتحديد، كتلةً حجرية

مربعة صغيرة، لا تزيد على أربعين سنتيمتراً في أربعين سنتيمتراً، وبقيّةً باهتة من نص هيروغليفي بالكاد مقروء تحت العفن الذي يغطيه.

قال: "الآن، كل ما علينا فعله هو الوصول إليها".

عادا إلى قاعة الأعمدة المزخرفة وافترقا. ذهبا في اتجاهين مختلفين، وشقّا الظلاء بنور مصباحيهما اليدويّين، يبحثان عن شيء - أي شيء - يمكنهما استخدامه للوصول إلى الحجر، ولا أحد منهما يريد أن يتكلم عن الخوف من أنهما بعد أن قطعا كل تلك المسافة ربما لا يستطيعان في الواقع الوصول إلى الحجر المنشود. سمعت فريا في أقل من دقيقة صفيراً خافتاً. عادت أدراجها، ووجدت فلين واقفاً عند بوابة المعبد بجانب تلك التي دخلاها، وعلامة ارتياح بادية على وجهه. في الداخل، مقابل الباب الزائف في جدار المعبد الخلفي ومحاطة بأكياس إسمنت. شاهدت سقالة ألمنيوم محمولة، قوائمها مزوّدة بعجلات صغيرة تسهل تحريكها.

قال وهو يتحرك إلى السقالة ويهزّها فتقعقع: "من الجيد أننا وجدناها هنا. هذا حرم بتاح، السيد المبجل للبنّائين والحجّارين. لنأمل أنها بشارة خير".

كانت السقالة أعلى كثيراً من أن تمر عبر باب المعبد على حالها، ما أرغمهما على نزع طبقتها العليا ونقلها إلى معبد رع-هوراختي قطعتين منفصلتين قبل إعادة تجميعها مجدداً، وهذا ما أفقدهما وقتاً ثميناً. عندما انتصبت هناك أغلق فلين أقفال العجلات، ثم أمسك العتلتين والمصباحين اليدويّين، وصعدا؛ فريا بسرعة، وفلين بثقة أقل قليلاً.

تمتم وهو يرتاح على المنصة في الأعلى: "يا للهول! إنها غير ثابتة تماماً. أشعر بأنها مصنوعة من الهلام".

أنّبته قائلةً: "توقف عن إحداث ضجّة. نحن على ارتفاع ثلاثة أمتار فقط".

رمقها بنظرة وكأنه يقول: *ثلاثة أمتار ارتفاع عالٍ جداً*، ومال إلى الأمام مصوّباً الضوء إلى زاوية الجدار.

كانت الكتلة الحجرية قد بدت من مستوى الأرض مثبّتة بإحكام مثل كل الكتل الأخرى التي يتكوّن منها الجدار. بعد أن أصبحا في الأعلى آنذاك، وضوء مصباحيهما اليدويين على بعد سنتيمترات فقط، استطاعا رؤية ما شاهده فدوي بالتحديد: شرخ رفيع يمتد على طول أعلى الحجر وشروخ أرفع تحته وإلى جانبيه.

لا يزيد عرض كل منها على خط قلم رصاص. مال فلين إلى الأمام، ووضع وجنته قرب الجدار.

قال بعد فترة وجيزة، وعيناه تلمعان إثارة: "كان حسن محقاً. هناك بالتأكيد هواء يتحرك في الخلق هنا. هيا".

نظر إلى ساعته - 4:24 فجراً - وثبّت مصباحه اليدويّ على المنصة حيث يتوجه شعاعه مباشرة نحو الكتلة، ثم بصق في راحتي يديه وأمسك العتلة.

"لا بأس، لنباشر العمل".

واحة الداخلة

وقف زاهر الصبري فوق سرير ابنه، يبتسم وهو يحدّق إلى الأسفل إلى الشخص النائم المكوّر، الذي يطوي إحدى ذراعيه تحت رأسه، ويمد الأخرى إلى جانبه، فاتحاً راحة كفه؛ كأن الفتى يريد الإمساك بشيء ما. تذكر اليوم الذي ولد فيه محسن - كيف يمكن أن ينسى؟ - والذهول الذي شعر به، ونوبة الفرح الغامر التي جعلته يغص. بصفته بدوياً لم يكن يُعدُّ إظهار مشاعره للعلن مقبولاً، ولهذا أقنع نفسه بتقبيل الصغير المتغضن ومعانقة زوجته قبل أن يقود سيارته إلى الصحراء حيث رقص من فرط السعادة، وصرخ مثل رجل مجنون لا تشاهده إلا الكثبان والسماء.

كان يود إنجاب مزيد من الأولاد، دستةً منهم، وتساءل إن كان هناك شعور أعظم بالرضا من تكوين حلقات جديدة في سلسلة الحياة، ومدّها إلى الأمام نحو المستقبل. ولكن، وعلى أيّ حال، لم يحصل ذلك، فقد كانت الولادة صعبة، ورافقتها مضاعفات، ونزيف. لم يفهم التفاصيل، وأدرك فقط أن محاولة ذلك مجدداً سيعرض حياة زوجته للخطر، ولم يكن ذلك شيئاً يسمح بحدوثه. الله يعطي، والله يأخذ. تلك هي الحال، لديه محسن وذلك كافٍ.

استمر ينظر إلى الأسفل، وضوء القمر يكوّن هالة فضية حول رأس الصبي. مال إلى الأمام، قبّل وجنته، تمتم: *"أنا تحبك يا نور عينيَّ"*، ودفع نفسه في السرير بجانب زوجته. حدّق إلى السقف، واستلقى هناك بعض الوقت، يعض شفته ولا

يشعر بنعاس كما كانت حاله قبل أربع ساعات. انقلب بعد ذلك إلى جنبه، ومدّ يده تحت السرير، ومسَّ فوهة البندقية التي يحتفظ بها هناك، ومرر إصبعاً على طول ماسورتها الفولاذية الباردة.

كان مستعداً. ومهما يحدث، أو يُطلب منه، كان جاهزاً له، وفي ذلك على الأقل سيرقى إلى مستوى ذكرى أسلافه.

همس: *"أنا بحبك يا محسن. أنا بحبك يا نور عينيّ"*.

أبيدوس

سألت فريا حين أدخلا العتلتين في الشقين حول الكتلة الحجرية، فلين في الأعلى وفريا في الجانبي: "هل تظن حقاً أن فدوي لم يخبر أحداً آخر عن هذا؟ أو ذلك الرجل الآخر، "أبو..." أياً يكن اسمه؟".

هزَّ فلين رأسه وهو يدفع عتلته محاولاً تحريك الكتلة وقال: "كنت سأسمع بالأمر لو أنهما فعلا ذلك. كما قال فدوي في الشريط، إذا كان معبد بيبي الثاني مفككاً في الخلف هناك، فسيكون ذلك أحد أعظم الاكتشافات في الخمسين سنة الأخيرة. كان الجميع سيسمعون بالأمر. هيا، أيتها الحمقاء".

زاد الضغط على القضيب المعدني، وفعلت فريا الشيء نفسه بعتلتها، وأطبق الصمت على الاثنين حين ركّزا كل طاقتهما على العمل الذي يقومان به، مدركين أن الوقت يمر ومتشوّقين إلى تحريك الكتلة. رطّب العرق وجهيهما، وتردد في الغرفة صدى همهمة أنفاسهما المجهدة ورنين المعدن على الحجر. بعد بضع دقائق غيّر فلين زاوية هجومه، سحب القضيب المعدني من الشق في أعلى الكتلة ودفعه في الشرخ الجانبي بدلاً من ذلك، مقابل فريا. هزّا عتلتيهما إلى الأمام والخلف، يدفعان ويسحبان. وبالرغم من ذلك، بقي الحجر صامداً، وبدأت فريا تتساءل إن كانا سيقدران على إزاحته حقاً حين شعرت أخيراً بحركة خفيفة، مجرد ارتعاش بسيط يكاد لا يُلاحَظ. عدّلا وضعيّتيهما، يلويان القضيبين ملليمترات قليلة أخرى ويدفعانهما إلى الداخل. أصبحت الحركة أكثر وضوحاً. أخرج فلين عتلته ووضعها تحت الكتلة، ودفعها إلى الأعلى، فتحرّكت الكتلة الحجرية قليلاً.

لهث، وعيناه متسعتان من جهد تحريك الحجر وإثارة ما قد يوجد خلفه: "نكاد ننجح".

استمرا يدفعان حول الأطراف، أحياناً يعملان على الكتلة من الجانبين، وأحياناً من الأعلى والأسفل، حتى بدأت أخيراً تتحرك إلى الأمام وتخرج من الجدار - جزئياً في البداية، ملليمتراً بعد آخر؛ كأنها مترددة في إظهار نفسها، ثم بسرعة أكبر حين استطاعا إمساكها على نحو أفضل، وترافق رنين عتلتيهما آنذاك بصريف حجر يكشط على حجر. عندما أخرجاها نحو خمسة عشر سنتيمتراً من محجرها وضعا العتلتين جانباً وأمسكاها بيديهما، وحرّراها إلى الخارج بحرص، وبدّلا المكان الذي يمسكان الكتلة منه حين انبثق مزيد منها. أخيراً، وبحركة سحب نهائية، استطاعا إخراجها من الجدار وتحميل وزنها الكامل على ذراعيهما وكتفيهما. كانت ثقيلة على نحو لا يصدّق، أكثر مما قد توقع أي منهما، وتحريكها صعباً جداً، خاصة مع اهتزاز السقالة تحتهما والمساحة المحدودة المتوافرة على المنصة. نقلا أقدامهما مسافة قصيرة بعيداً عن الجدار وبدآ ينـزلانها، والعرق يخز عيونهما، وأنفاسهما تصبح سريعة ولاهثة على نحو متزايد. أوصلاها إلى منتصف الطريق إلى الأسفل قبل أن يشعرا في الوقت نفسه بأن الحجر بدأ ينـزلق من بين أيديهما.

لهثت فريا: "لا يمكنني حملها. إنها...".

زلّت قدمها إلى يمينها، وحاولت أن تتشبث بشيء قبل أن تدرك ألاّ فائدة من ذلك وتترك الكتلة تفلت من يديها، وتقفز بعيداً عن طريقها لتتفادى أن تسحق قدميها. ترنّح فلين إلى الأمام وأفلت قبضته أيضاً، بعد جزء من الثانية من فريا، ودفع زخمه الحجر إلى طرف المنصة تماماً ثم إلى الفراغ. بدا أن الغرفة - المعبد كله - تردد صدى صوت مكتوم خافت يشبه المطرقة حين وقعت الكتلة الحجرية على الأرضية في الأسفل، وحطّمت قوة التأثير قطعة كبيرة من زاويتها.

تأوه فلين وهو ينتزع المصباح ويوجّه شعاعه إلى الأسفل: "يا للهول!". تموّجت أشعة كثيفة من الغبار عبر ضوء المشعل. "ألفان وخمس مئة سنة...".

قالت فريا: "تباً للكتلة! ماذا إن سمعنا أحد؟".

وقفا صامتين، وبدا أن صدى الحجر الذي تحطم يتردد عن سقف الغرفة المقنطر، وفلين ذاهل كأنه دهس عن غير قصد صديقاً حميماً. على أيّ حال، لم

يسمعا صرخات أو وقع خطوات، ولم تكن هناك إشارة إلى أن الحادثة قد أثارت انتباه حرّاس المعبد، ومع نظرة أخيرة متأنّية إلى الأسفل نحو الكتلة المحطّمة، حوّل فلين اهتمامه إلى الثغرة المفتوحة حديثاً في الجدار. صعد إليها، ووجّه الضوء نحو المساحة خلفها.

سألت فريا وقد أمسكت مصباحها اليدوي وتتحرك خلفه: "ماذا ترى؟".

لم يرد، إنما حرّك الضوء يميناً ويساراً، يستكشف التجويف، وظهره وكتفاه تحجب الرؤية عن فريا.

كرّرت محاولةً أن تنظر إلى حيث ينظر: "ماذا ترى؟".

لم يقل شيئاً بالرغم من ذلك، وشعرت بنوبة خوف مفاجئة من احتمال عدم وجود شيء هناك، وأن فدوي كان يخدعهما بالمحصلة. استدار فلين بعد ذلك ليواجهها، وتعبير الرعب الذي كان يلوح على محيّاه قبل لحظة قد تحول آنذاك إلى اندهاش وذهول.

قال وهو يرفع إبهاميه: "أشياء رائعة. أرى أشياءَ رائعة".

تحرك قليلاً إلى اليسار، ما سمح لها أن تندس بجانبه وتوجّه ضوء مصباحها اليدوي في الفتحة. وجدت فريا نفسها تنظر إلى تجويف ضيق يشبه سرداباً، لا يزيد عرضه على مترين وطوله ربما على اثني عشر متراً؛ إنه ممر سرّي محصور بين جدران المعابد. بدا سقفه - المشيّد من ألواح حجرية ضخمة - على مستوى سقف المعبد نفسه وأرضيته، كما افترضت، وأشبه أيضاً بامتداد لأرضية المعبد. بدا التوثق من ذلك مستحيلاً؛ لأنه على طول التجويف ووصولاً إلى نقطة أقل من متر تحت الفتحة كان المكان مملوءاً بخليط غريب من الكتل الحجرية، أصغرها أكبر حجماً مرتين على الأقل من التي أزاحاها منذ قليل. كانت بعض الكتل مربّعة، والأخرى مستطيلة، وبعضها خالية من أي شيء، وأخرى مزيّنة بصور وكتابات هيروغليفية. بدا أن النقوش - مثل تلك في القاعات المعمّدة في الخارج - لا تزال تحمل آثاراً من أصباغها الأصلية: أخضر وأحمر وأصفر وأزرق. كانت هناك أجزاء من عمود أيضاً، وقطع متناثرة من تمثال - أجزاء من جذع غرانيتي، الطرف الأمامي من أبي الهول - كلها مرمية في التجويف عشوائياً كما يبدو، وكل شيء يتداخل مع كل شيء آخر. كان الانطباع أنها تنظر إلى صندوق ضخم مملوء قطع ألعاب للأطفال.

قال فلين وهو يميل رأسه إلى الداخل حتى كادت وجنته تمس وجنة فريا: "لا يُصدّق، أليس كذلك؟".

وجّه ضوء مصباحه اليدويّ إلى التجويف، محرّكاً الشعاع في أرجائه حتى استقر على وجه إحدى الكتل خاصة، يضيء ما بدا أنهما شكلان بيضاوان متطاولان، أحدهما بجانب الآخر، يحيط كل منهما بسطر من علامات هيروغليفية.

قرأ، وشعاع مصباحه اليدوي يرتعش قليلاً؛ كأنه ذاهل مما يراه ولا يستطيع أن يثبّت يده: "نفر-كا-رع بيبي. اسم العرش للفرعون بيبي الثاني. كما قال حسن، كان يوجد بالتأكيد أحد معابد المملكة القديمة في هذا الموقع، وقد فُكّك واستخدمت حجارته في ملء الجدران حين بنى ستي معبده بعد ألف سنة".

هزّ رأسه.

"يا للهول يا فريا! لا يمكنني حتى أن أبدأ... أعني هذه حِقبة من التاريخ لا توجد لدينا بقايا مادية تقريباً عنها. يمكن لشيء كهذا أن يعيد كتابة... مدهش، مدهش تماماً!".

حدّقا إلى التجويف وقتاً أطول، ثم أدرك فلين أن الوقت قصير فضغط ذراعه وكتفيه إلى داخل الثغرة في الجدار وبدأ يدفع نفسه عبرها إلى المساحة خلفها، واختفت ساقاه وقدماه بعد أن تلوّى إلى الأسفل نحو كومة الحجارة. تبعته فريا، ببراعة أكبر، وفلين يساعدها على المرور إلى الطرف الآخر وينزلها برفق إلى السطح غير المستوي.

حذّر: "احذري أين تضعين يديك. المكان مملوء على الأرجح عقارب".

فزعت وأبعدت يدها بسرعة عن رأس التمثال الذي تضعها عليه.

أصبحا في الداخل آنذاك، وبدا التجويف أضيق وأكثر إثارة للخوف. كان السقف منخفضاً جداً بالنسبة إليهما و لم يستطيعا الوقوف منتصبين تماماً، والمبنى يضغط عليهما من كل الاتجاهات، وبالرغم من وجود أثر ضئيل للرطوبة، وحركة هواء بالكاد ملحوظة، إلا أن فريا لم تعرف من أين تأتي. انتظرا لحظة، يجلسان القرفصاء بجانب الفتحة في الجدار. ويديران ضوءَي مصباحيهما اليدويّين في الأرجاء، يستوعبان أبعاد المكان. ألقى فلين بعد ذلك نظرة أخرى على ساعته - 4:51 فجراً - وبدأ يتجول في المكان. متفحّصاً النقوش. باحثاً عن أي شيء قد

يقدم دليلاً عن مكان الواحة. وجّهت فريا ضوء مصباحها اليدوي في اتجاهه لتمنحه مزيداً من الضوء، لكنها بخلاف ذلك تركته يعمل بمفرده. لم يكن بمقدورها قراءة الهيروغليفية، لذا، لم يكن هناك ما يمكنها تقديمه.

انقضت عشرون دقيقة، لم يتكلم أي منهما، و لم يكن يُسمَع غير كشط حذاء فلين على الحجر وتمتمته بين الحين والآخر وهو يقول: "رائع، يا الله! هذا رائع حقاً!". فجأة، طقطق أصابعه ولوّح لها أن تتقدم إليه.

"تعالي وانظري إلى هذا".

تقدمت فريا ببطء إليه، ورأسها يحتكُّ بالسقف، وجثمت إلى جانبه. وجّه فلين ضوء مصباحه اليدويّ إلى الخلف على طول حجر أسود مائل إلى الخَضَار. أدركت بعد لحظة أنها مسلّة صغيرة، ملقاة أفقياً ومدفونة جزئياً تحت كومة من كتل أخرى.

قال مشيراً إلى النص الهيروغليفي المنقوش على الحجر: "يبدو أنه نوعٌ من التراتيل أو التضرّع لبنبن".

سألت: "تلك صخرة إنديانا جونز، أهذا صحيح؟ التي تمتلك قوى خارقة للطبيعة؟".

أومأ مبتسماً من وصفها، ثمّ مسَّ بإصبع مغبرة الزاوية العليا اليمنى من النقش، وبدأ يقرأ، بصوتٍ - كما حدث حين قرأ بردي إمتي-خنتيكا - بدا أنه يصبح أعمق وأكثر كآبة كأنه يتردد من زمن موغل في القدم.

رتّل: "*إنر-وير إنر-إن رع إنر-إن-سدجت إنر سوسر-إن خيرو-ب* سخمت. أيها الحجر العظيم، يا حجر النار، أيها الحجر الذي تجعلنا أقوياء. يا صوت سخمت الذي نحمله إلى المعركة أمامنا وتحقق لنا انتصارات لا يمكننا عدّها...".

"أي شيء عن الواحة؟".

"لا، لكنّ هذه تذكر بنبن أيضاً...".

وجّه فلين ضوء مصباحه اليدوي إلى الجانب، مضيئاً كتلة من الحجر الكلسي تغطيها كتابات هيروغليفية، فبرز نصها بظلال متذبذبة من الأحمر والأصفر والأخضر.

"... وهذه...".

انتقل ضوء مصباحه اليدوي آنذاك إلى ما بدا أنه قطعة من عمود محطّم.

"... ما يشير إلى أن المواد في هذا التجويف جاءت كلها من الجزء نفسه من معبد بيبي. نوعٌ من الضريح المكرّس لبنبن كما يبدو. وكما قلت في المتحف، حيثما تجدي ذكراً لبنبن، تجدي عادة الواحة أيضاً. ويجب أن ننظر في هذا المكان؛ لأنها ستكون موجودة هنا".

همهم راضياً واستأنف بحثه، يفحص كل قطعة من المبنى تباعاً، متجاهلاً نصيحته عن العقارب ومثبّتاً مصباحه اليدوي عميقاً في الفتحات بين الكتل في جهدٍ لإضاءة تلك الأقسام من النصوص المحجوبة جزئياً أو الملقاة بزوايا صعبة.

سألت فريا: "ماذا إن كان النقش الذي نريده موجوداً في الأسفل تماماً؟ لا بدّ من أن هذه الأشياء تتكدّس مترين آخرين. لا يمكننا تحريكها كلها".

لم يجب فلين؛ لم تعرف إن كان ذلك بسبب انشغاله الشديد في ما يقوم به، أم ببساطة لأنه لا يريد التفكير في هذا السيناريو. انقضت خمس عشرة دقيقة أخرى. شعرت فريا، جالسةً على رأس تمثال، أنها عديمة الفائدة تماماً، في حين استمر الإنكليزي في عمله وسط كومة من الأنقاض. أطلق بعد ذلك صرخة حادة ولوّح لها مجدداً أن تأتي إليه.

كان آنذاك قد قطع ثلثي الطريق على طول التجويف، وضوء مصباحه اليدوي يُسلّط على كتلة صغيرة محصورة بين مجموعة من كتل أخرى وجهها إلى الأسفل، ولهذا لم يستطع الوصول إليها إلا بالاستلقاء على ظهره والنظر إلى الأعلى. كان يبتسم من الأذن إلى الأذن.

سألت وهي تمدُّ عنقها فوقه، محاولةً الحصول على رؤية أفضل: "ما الأمر؟".

قال وهو يحبس أنفاسه، ويمرّر أصابعه ذهاباً وإياباً على الحجر؛ كأنه يداعب جلد محبوبة: "إنه جزء من نص يناقش طريقة الدخول في الواقع إلى الواحة. بكل تأكيد تقريباً من داخل حرم معبد بيبي، حيث لا يستطيع أحد رؤيته إلا الفرعون والقس الأعظم وحدهما. لا يمكنني البدء بوصف مدى أهمية هذا الشيء".

استمر يحدّق إلى النقش، وإحدى يديه توجّه ضوء المصباح اليدويّ يميناً ويساراً، في حين يتابع بالأخرى السطور بالهيروغليفية. ثمّ أخذ يترجم ببطء بعد ذلك.

"*سيباوي*: بوابتان ينبغي لهما أن تنقلاك إلى *انيت دجرست*، الوادي المبجـــل. *خيري إن-إنيت* - في بداية الوادي، *رن-إن ويسر*، فـــم أوزيـــريس. هـــيري *إن إنيت* - في نهاية الوادي - *ماكت إن نوت*، سلم نوت، الواقع تحت *مو نو بـــت*، الماء في المساء. وتلك البوابتان وحدهما ستأخذانك إلى هناك، ووحدهما الاثنتان، في البداية والنهاية، ولا يمكن العثور على بوابة أخرى؛ لأنها إرادة رع...".

سكت، إذ انتهى النقش عند ذلك الحد.

قال بصوت أكثر هدوءاً آنذاك: "نعرف بشأن *فم أوزيريس* سلفاً. بالرغم من أن ما يشير إليه بالتحديد...".

هزَّ رأسه.

"كان أوزيريس السيد المبجل للعالم السفلي، لذا ربما يكون هذا رمزيـــاً... لا نعرف ببساطة. على أيّ حال، سلم نوت هذا شيء جديد تمامـــاً، وهـــو لـــيس مذكوراً في أي نص موجود آخر، أو على الأقل لم أرَ ذلك على الإطـــلاق، وأنـــا واثق تماماً أنني قد رأيتها كلها... استثنائي تماماً".

سألت وهي تشعر بالإثارة بالرغم من أن النص لم يعنِ شيئاً لها: "ماذا يعـــني ذلك؟".

شرح فلين وهو يدفع نفسه من تحت الكتلة، ووجهه وشعره يغطيهما الغبار: "*حسناً، كانت نووت السيدة المبجلة للسماء. وربما مثل مو نـــو بـــت*، المـــاء في السماء، تشير عادة إلى منحدرات شاهقة؛ في *أثناء* فيضانات مفاجئة ينسكب الماء من فوق حافة المنحدر؛ كأنه كان ينهمر من السماء. السلم... مجدداً، يســـتحيل معرفة إن كان يشير إلى شيء مادي أم إنه مجرد استعارة، لكن المعنى أن المصـــريين القدماء اعتادوا على الوصول إلى الواحة من أعلـــى الجلـــف الكـــبير إضـــافة إلى الجانب".

جلس القرفصاء إلى جانب فريا، ونفض الغبار عن شعره.

سألت: "هل يساعدنا أي من ذلك؟".

"عندما تتوفّر معلومات قليلة مثل التي لدينا عن الواحة، فإن كل دليل صـــغير مهم، لكن لا، لا تقرّبنا إطلاقاً من الموقع الدقيق. ما أحمّنه - *ما أتمنـــاه* - هـــو إذا كان هناك نص يشرح طريقة الدخول إلى الواحة في مكان ما هنا، فسيكون هذا

شرح لطريقة العثور عليها في الواقع. نحن نقترب، ويمكن أن أشعر بـذلك. نحـن نقترب".

مدَّ يده وضغط على ذراعها، ثم بدأ يتابع طريقه في التجويف مجدداً، متفحّصاً كل قطعة حجر في دقيقة. كان يتمتع بطاقة كبيرة من قبل، لكن بدا آنذاك لفريـا أنه أصبح مهووساً ولكن على نحو إيجابـي، يدفع جانباً تلك الكتل وقطع التماثيل التي لا تبدو ثقيلة جداً من أجل الوصول إلى كل ما يقع تحتها، ينظر باسـتمرار إلى ساعته، يتمتم لنفسه، غافلاً كما يبدو عن وجودها. أثمر إصراره نتـائج سـريعة. وجد بتعاقب سريع ثلاث إشارات أخرى لبنبن، ونصاً يصف المعبد العظيم الـذي يخثم على ما يبدو في قلب الواحة، ونقشاً آخر يكرّر العقوبات التي ستحلّ بأولئك الذين يدخلون الواحة بنية شريرة: *ليُسحق فاعلو الشر بين فكّي سوبك ويبـتلعهم بطن الأفعى أبيب! وداخل بطن الأفعى لِتصبح مخاوفهم حقيقية، وأحلامهم الشريرة عذاباً حياً.*

لم يكن هناك شيء يمنح أي إشارة على مكان وجود الواحة، ولا حتى دلالـة مبهمة. انقضت ثلاثون دقيقة مؤلمة أخرى، وازداد غضب فلـين، فأخـذ يشـتم ويضرب بقبضتيه على الكتل؛ كأنه يحاول إرغامها على الكشف عن أسـرارها. لم تعد فريا تستطيع تحمّل التوتر وقتاً أطول، والجو الخانق المملـوء غبـاراً، فتركتـه وخرجت من التجويف ونـزلت على السقالة. وقفـت لحظـة تمـد ذراعيهـا وساقيها - والصرير المكتوم لتحريك الحجارة يتردد من التجويـف فوقهـا - ثم عادت عبر المعبد نحو البوابة الأمامية، تستنشق هواءً نظيفاً بارداً في أثناء ذلك.

كان الوقت قد تجاوز السادسة صباحاً، وبدا المبنى مكاناً مختلفاً تماماً. دخلت أشعة شمس الصباح بزوايا حادة جداً من فتحات في أعلـى الجـدران، وغمـرت القاعات المعمّدة بضباب رقيق يشبه الحلم، ودفعت الظـلال إلى أقصـى الزوايـا والأماكن المنعزلة. تحركت فريا بحذر، وشقّت طريقها إلى بوابة الدخول ونظـرت عبرها، وباستثناء بضعة حراس يرتدون زياً أسود ويتشاركون لفافة تبـغ، كانـت الساحة في الخارج خاوية. استطاعت أن ترى بعيداً إلى الأسفل حافلات تقتـرب، وأشخاصاً يتحركون على غير هدى، وباعة بطاقات بريدية وحلي صغيرة ينـادون على بضاعتهم. شعرت بصدمة وقتاً قصيراً من أن يكون توقيت فلين غير مناسـب

وأن المعبد على وشك أن يفتح أبوابه، لكن لم يبدُ أن أحداً قد اقترب منه، ثم استرخت بعد لحظة. راقبت ما يجري بعض الوقت، ثم استدارت وعادت أدراجها، والطيور ترفرف فوق رأسها، سالكةً مساراً متعرجاً بين أعمدة عملاقة؛ كأنها تمر عبر غابة. عندما عادت إلى المعبد نادت فلين بصوت خافت وسألت كيف تجري الأمور. كانت إجابتُه الوحيدة همهمةً قانطة. صعدت على السقالة وحشرت نفسها إلى داخل الفتحة مجدداً. كان فلين يجلس عند طرفها البعيد، ينحني فوق مصباحه اليدويّ، وضوؤه الضعيف يتجه نحو سقف التجويف، يضيء وجهه بوهج باهت وشاحب. وقد استطاعت أن تعرف من خلال تعبير وجهه وجلسته كل ما تحتاج إلى معرفته.

قال وهو على وشك أن ينشج: "لقد بحثت فيه جيداً، لكنني لم أعثر على شيء هنا يا فريا. إذا كان موجوداً، فهو مدفون تحت طنٍّ من الكتل الحجرية ولا يمكننا الوصول إليه".

زحفت إليه وجثمت بجانبه. كانت الأنقاض في نهاية التجويف مكدّسة على ارتفاع أعلى من الطرف الآخر، ولا تترك إلا متراً واحداً فقط من الفسحة فوقها، ما جعلهما ينحنيان كثيراً.

قالت: "يمكننا العودة الليلة، وأن نجرّب مجدداً".

هزَّ رأسه وقال: "في اللحظة التي يجدون فيها الفتحة في الجدار، سيضعون حراساً في هذا المكان أكثر من فورت نوكس. لن نستطيع الاقتراب منها. كانت هذه فرصتنا الوحيدة، ولن تكون هناك أخرى".

نظر إلى ساعته: 6:39 صباحاً. عشرون دقيقة فقط قبل أن يُفتح المعبد للجمهور.

اقترحت عليه قائلةً: "يمكن أن نحاول إعادة الكتلة الحجرية إلى مكانها مجدداً".

لم يزعج نفسه حتى بالرد، فكلاهما يعرفان ألاّ جدوى من ذلك. أطبق الصمت وقتاً طويلاً، ثم مع تنهيدة ونظرة أخرى إلى ساعته، قال إنهما يجب أن يفكرا في الخروج.

"يمكننا الاختباء في إحدى القاعات المعمّدة، وننضم إلى السيّاح حين يبدأون الدخول. هناك دائماً مئات منهم في الصباح الباكر. لا ينبغي أن يكون الأمر صعباً جداً".

لم يُظهر أي علامة على تنفيذ اقتراحه، إنما جلس ورأسه إلى الخلف ومرفقه يرتاح على ما بدا أنها شاهدة قبر صغيرة؛ قطعة مستطيلة من الحجر الكلسي مغطاة بكتابات هيروغليفية ومدوّرة الرأس. سألت فريا عن ذلك الحجر؛ رغبةً في قول شيء لا اهتماماً بذلك.

"همم؟".

أشارت إليه.

"آه! ود. نُصب تذكاري. نوعٌ من لوح كان المصريون القدماء يضعونه في القبور والمعابد، يسجّلون عليه تضرّعات، وأحداثاً، وقرابين، وأشياء مماثلة".

استدار ورفع الحجر - لم يكن ارتفاعه يزيد على أربعين سنتيمتراً - سحبه إليه ووضعه على ركبتيه، ووجّه ضوء مصباحه اليدويّ إليه.

"يجعلني أشعر بإثارة كبيرة، في الواقع. يتكلم عن *إرت نت خبري*؛ عين خبري. إحدى تلك الصيغ التي تبدو مرتبطة دائماً بالواحة، مثل فم أوزيريس".

مسح بيده وجه الحجر، وقرأ: "*ويبت إرت خبري ويبت ويت خيتم إرت نين ما-تو ويت إن إز إر-دجر بيك بيكي* - عندما تفتح عين خبري، ستفتح الواحة. عندما تغلق العين لا يمكن رؤية الواحة، حتى من قبل باز حاد البصر".

لف ذراعاً حول النصب، وبدا أنه يستمد الراحة منه، وشرح أن خبري كان سيداً مبجلاً برأس جُعلٍ، أحد تجلّيات رع، وجاء الاسم من كلمة خپر "الذي ينبعث حياً". لم تكن فريا تصغي إليه آنذاك، فقد تحول اهتمامها إلى الجزء الأعلى من النصب، المنطقة القريبة من القوس في أعلاها. رأت صوراً هناك، منفصلة عن أعمدة الهيروغليفية في الأسفل، وعلى الجانب الأيسر ما بدا مثل جدار أحمر أو وجه صخري، وعلى الجانب الأيمن كان الجدار نفسه لكن يظهر عليه مستطيل أخضر ضيق يمتد إلى وسطه. يمتد بين الصورتين شريط أصفر متموج، يخرج منه قوس أسود على شكل منجل، حافته مثلّمة ومسنّنة، وطرفه الأعلى ينتهي إلى عين كبيرة مرسومة بدقة مثل وردة في نهاية ساق. في البداية، كانت قد ظنّت أنه ببساطة تصميم مثير للاهتمام، لكن كلما أمعنت النظر فيه، على أيّ حال، ذكّرها...

"لقد رأيت ذلك".

كان فلين لا يزال يناقش خصائص خبري وبدا أنه لم يسمعها.

كرّرت بصوت أعلى: "لقد رأيت ذلك".

"رأيت ماذا؟".

قالت وهي تشير: "ذلك؟".

أومأ غير متفاجئ وقال: "محتمل جداً. عين وادجت رمز شائع...".

"ليس العين. ذلك".

مسّت بإصبعها الخط الأسود المقوّس.

"ماذا تعنين بأنك قد رأيته؟".

"لقد رأيته، أو رأيتُ شيئاً يشبهه كثيراً، في صورة".

"هل رأيت صورة لهذا الرسم؟".

"لا، لا، كان تشكيلاً صخرياً، في الصحراء. بدا مشابهاً تماماً، حتى الحواف المثلّمة".

ضاقت عيناه وسأل: "أين؟ أين رأيت هذه الصورة؟".

"في منزل زاهر الصبري، حين وصلت إلى مصر. كانت ألكس تظهر في الصورة، ولهذا أنا...".

قاطعها: "هل أخبرك عن مكانها؟".

هزّت رأسها وقالت: "بدا أنه لا يريدني أن أنظر إليها، وأخرجني بسرعة من الغرفة".

نظر فلين مجدداً إلى النصب، ينقر بأصابعه على جانبيه متمتماً: "عندما تفتح عين خبري، ستُفتح الواحة؟ عندما تغلق عينه لن تُرى الواحة، حتى من قبل باز حاد البصر". انقضت دقائق، وبالرغم من أن فريا كانت تعي تماماً أن نافذة وقتهما تعبر بسرعة، إلا أنها كرهت أن تقطع سلسلة أفكاره. جلس فلين هناك فحسب، ذاهلاً تماماً، ثم رفع النصب أخيراً عن ركبتيه، وأعاده إلى زاوية المكان، وابتسامة باهتة ترتسم على وجهه.

"لا بد من أن ذلك متوارث في الأسرة".

"آسفة؟".

"متوارث في أسرة هانين. موهبة لإنقاذ الموقف. كانت ألكس تفعل ذلك دائماً، ويبدو الآن أنك تحافظين على التقليد".

نهض على قدميه، وبدأ يتقدم بصعوبة على طول المكان.

قالت وهي تتبعه: "لا أفهم. هل هي مهمة، هذه الصخرة؟".

رد، وهو يصعد إلى الفتحة في الجدار ويدفع نفسه عبرها، ويعود إلى المعبد وراءها: "ربما نعم، وربما لا. بيني وبينك، لدي شك مريع في أنني قد أمضيت السنوات العشر الأخيرة أهدر وقتي مع كل هذه الأشياء، وسيتضح أنكِ أنت من حققت الاختراق المهم، وهذا أمر، بصراحة، لن أسامحك عليه أبداً".

خرج إلى السقالة، واستدار إلى الخلف، وكانت ابتسامته قد اتسعت آنذاك متحوّلةً إلى تكشيرة.

"يجب أن أتركك في الداخل هناك تكتشفين أشياء من دون إذني! فقط من أجل العلاقات الأنغلو-أمريكية، على أيّ حال...".

غمز بعينه ومدَّ يداً لمساعدتها على الخروج. أمسكت يده، لكن فلين سحبها فجأة مجدداً واستدار. لم تكن متأكّدة لحظة ممّا يجري، ثم سمعت ما قد سمعه بالتأكيد: سمعت أصواتاً. كانت لا تزال مكتومة وبعيدة، لكنها تأتي بالتأكيد من مكان ما داخل المعبد.

همسَ وهو يستدير إلى الخلف مجدداً، وقد اختفت الابتسامة آنذاك: "تباً. هيا، يجب أن نخرج من هنا".

مدَّ يده إلى الفتحة وسحبها إلى الخارج، وساعدها على الوقوف قبل أن يمسك إحدى العتلتين وينزل إلى الأرضية في الأسفل، والسقالة تصر على نحو ينذر بالخطر. تبعته فريا وأسرعا إلى أقرب القاعتين المعمّدتين. لم يكن هناك آنذاك مجال للشك في الأصوات التي تأتي من القاعة الخارجية عند بداية المعبد؛ على الأقل شخصان أو ثلاثة كما يبدو من الأصوات.

همست: "سيّاح؟".

أرهف فلين السمع لحظة، ثم هزَّ رأسه وقال: "حرّاس. لا بدّ من أنهم قد عثروا على القفل المحطّم. بسرعة".

قادها عبر الجزء الخلفي من القاعة، وتجاوزا آخر المعابد إلى ممر ضيق؛ عشرة أمتار على طول بوابة مغلقة بقضبان حديدية في الجدار إلى يمينهما، ووراءها مجموعة درجات ترتفع كثيراً إلى بوابة ثانية وضوء النهار.

شرح لها وهو يدفع العتلة في قفل البوابة الأولى: "الجزء الخلفي من المعبد. يجب فقط أن...".

دفع وعضلات عنقه تبرز وتلتوي، ووجهه يحمر من الجهد. نزع العتلة ودفعها بزاوية مختلفة، ووضع كل ثقله خلفها، يسند قدمه إلى الجدار لزيادة قوته. حاول جاهداً، لكنه لم يستطع تحطيم القفل. همهم يائساً، ثم استسلم وقاد فريا عائدَين إلى الممر وقاعة الأعمدة مجدداً. كانت لا تزال خاوية، والحرّاس كما يبدو لم يدخلوها بعد من القاعة الخارجية، لكن غمغمة الأصوات ووقع الخطوات المكتومة أشارت إلى وجود عدد كبير منهم.

صرخ أحدهم: *"إحنا عارفين إنكو جوا! اخرجوا وارفعوا إيديكوا!"*.

سألت فريا، وصوتها يهمس قلقاً: "هل هناك طريق آخر للخروج؟".

هزَّ فلين رأسه نافياً.

"هل يمكننا الاختباء؟".

"عددهم كبير".

"ماذا سيفعلون إن أمسكوا بنا؟".

"إذا حالفنا الحظ، فسيزجّون بنا في السجن مدّة خمس سنوات ثم يرحّلوننا".

لم تزعج نفسها بالسؤال عما سيحدث إن لم يحالفهما الحظ.

جاء الصوت مجدداً: *"إنتو متحاصرين! ما فيش مهرب!"*.

نظر فلين حوله محاولاً استنباط خطة ما؛ أيّ خطة. أصبح وقع الخطوات والأصوات آنذاك عند البوابة تقريباً بين القاعتين، فأمسك يد فريا وسحبها على طول الجزء الخلفي من المساحة مجدداً، وتجاوزا المعبد الذي كانا يعملان فيه إلى التالي. وبخلاف المعابد الأخرى، كان لهذا الحرم بوابة في جداره الخلفي أوصلتهما إلى قاعة أخرى، أصغر كثيراً من القاعتين الرئيستين. كان صفان من الأعمدة يمتدان في وسطها، وضوء النهار يدخل إليها عبر كوّتين مفتوحتين في السقف.

سألت: "إلى أين يقودنا هذا؟".

"لا يقودنا إلى أي مكان".

"إذاً لماذا...؟".

"لأنه لا مكان آخر نذهب إليه! لا يمكننا الخروج من الباب الأمامي، والباب الخلفي موصد...".

رفع يديه يائساً.

"نحن محاصران يا فريا. أحاول فقط كسب بضع دقائق إضافية، وآمل ألاّ يأتوا إلى هنا".

كانت الصرخات ووقع الخطوات المكتوم خارج الحُجرة تصبح أوضح مع اقتراب الحرّاس في المعبد نحوهما؛ يضيقون الخناق عليهما.

"سلّموا نفسكوا!".

قالت: "يجب أن يكون هناك طريق آخر للخروج. لا بدّ من ذلك".

"بالتأكيد، هناك باب سحري، وإذا لوّحت بصولجان وقلت *افتح يا سمسم...*".

مزيد من الصرخات، تقاطعها سلسلة من صفّارات حادة. جالت فريا ببصرها مسعورة في أرجاء القاعة باحثةً عن شيء قد يساعدهما. عشرة أعمدة قصيرة - صفّان من خمسة أعمدة - وغرف أصغر مفتوحة على الطرفين، وجدران تغطيها نقوش نُزعت من الجدار الأيمن لمنع السيّاح من مس الكتابات. لا شيء يقدم لهما أي أمل في الفرار.

قال فلين: "عندما يدخلون التزمي الصمت ودعيني أتولى الكلام، وأبقي يديك ظاهرتين للعيان".

تجاهلته، واستمرت في التحديق حولها. كان يرافق الصرخات والصافرات آنذاك نباح كلاب.

كانت الكوّتان - فتحتان مربّعتان زرقاوان في السقف الإسمنتي - خارج متناول اليد تماماً، بالرغم من أن السقف كان أكثر انخفاضاً هناك من القاعتين الرئيستين، ولا يرتفع أكثر من خمسة أمتار عن الأرض، لكن من دون سلم أو سقالة بدا أنه يرتفع خمسين متراً. صرفته من ذهنها، وحدّقت مجدداً إلى الجدران، الغرف الجانبية، الأعمدة، الأرضية المرصوفة بالحجارة، وعادت بنظرها إلى الأعمدة. الأعمدة. قصيرة، وتشبه الجذع. وتتكون من أقسام شبيهة بالبراميل مكدّسة فوق بعضها، وهناك ثغرات وصحة بينها. تقدمت خطوة إلى الأمام

ونظرت إلى الكوّتين مجدداً. كانت كل منهما تبعد متراً ونصفاً على الأقل عن أعلى أقرب عمود، ولا يمكن الوصول إليها من دون نقطة تثبيت، لكن كانت هناك واحدة؛ قضيب معدني صدئ يبرز من أبعد الكوتين مثل جذر ملتوٍ يشق طريقه نزولاً إلى الغرفة. وكان للعمود الأقرب إليها دعامة معدنية يلتف حول البرميل الأعلى كما يلتف رباط جورب حول أعلى الفخذ. الصعود على العمود بالاستفادة من الثغرات بين حلقاته لوضع القدم وتثبيت اليد، دفع الأصابع خلف الدعامة، الميل إلى الخارج، القفز إلى قضيب الإسمنت المسلح. كانت مناورة جنونية، ومستحيلة، "رجل ميت" في "تسلّق مستحيل"، وهو شيء لم تكن لتفكر فيه حتى في تسلق تدريبي بوجود حبال أمان وشبكة سقوط. جنونية، جنونية. لكن...

قالت: "يمكنني الخروج من هنا".

استدار فلين بسرعة نحوها وقال: "ما الذي تتكلمين عنه؟".

لم تضع الوقت في الشرح. قادته إلى الحبل الموجود أمام النقوش الجدارية. وطلبت منه أن يلفه، ثم جرت إلى العمود وبدأت تتسلقه. بالرغم من ضيقها، إلا أن الثغرات بين الأعمدة الحجرية قدمت لها مساحة كافية لتثبّت فيها أصابع يديها وقدميها، وبالرغم من أن الأمر سيكون أسهل مع طباشير وحذاء تسلق ملائم. لكنها وصلت إلى قمة العمود من دون مشقة كبيرة. دسّت أصابعها خلف الدعامة الحديدية، ووازنت أطراف أصابع قدميها على النقوش البارزة التي كان العمود مغطى بها وحدّقت إلى القضيب المعدني. بدت المسافة من هناك أكبر على نحو مرعب مما ظهرت عليه في الأسفل.

كان فلين يقف آنذاك أسفل العمود، والحبل ملتف على كتفيه. أخبره اتجاه عيني فريا كل ما يحتاج إلى معرفته عمّا كانت تخطط له.

"محال! ستدقين عنقك!".

تجاهلته وتسلقت العمود ببطء، ودفعت نفسها إلى أقرب نقطة ممكنة من الكوّة، تعدّل نقاط تثبيت أصابع قدميها ويديها لمنحها القوة الكافية للقيام بالقفزة.

"بالله عليك يا فريا!".

كانت الصرخات والنباح تقترب أكثر. أضحت كل ثانية آنذاك حاسمة، فألقت نظرة أخيرة إلى الكوّة، ثبّتت قدميها، ثم وثبت دافعةً نفسها بعيداً عن العمود في الهواء نحو القضيب المعدني.

كانت تخاف من عدم القدرة على الإمساك بالقضيب على نحو ملائم أو أن يتسبب عزم قفزتها في إفلات قبضتها وسقوطها إلى الأرضية في الأسفل. قامت، إن جاز التعبير، بحركة ممتازة مثل بهلوان متمرس، وأمسكت القضيب بكلتا يديها، تتأرجح بقوة إلى الأمام والخلف لحظة قبل أن تثبّت نفسها، وتتدلّى فوق أرضية الحجرة. نظر فلين إلى الأعلى من حيث يقف، وتعبير وجهه يظهر مزيجاً من الرعب والإعجاب. منحت نفسها بضع ثوانٍ، رأسها متراجع إلى الخلف، تحدّق إلى الفتحة في الأعلى، وتستجمع قوتها. سحبت نفساً بعد ذلك، وبدأت تدفع نفسها إلى الأعلى، يداً فوق يد، نحو الكوّة في السقف. كان متن ذلك الارتقاء بالنسبة إلى شخص لا يمتلك خبرتها في التسلق قريباً من المستحيل، ويتطلب عضلات قوية جداً في الكتفين وأعلى الذراعين. كانت سنوات من الشدّ متدلية على بعض أصعب الوجوه الصخرية في العالم، فضلاً عن ذكر مئة حركة شدّ إلى الذقن التي تقوم بها كل صباح لتحافظ على رشاقتها، قد عوّدت جسدها على مثل ذلك الجهد وأصبح بمقدورها القيام به من دون عناء. برزت عضلات ذات الرأسين والداليّة - أعلى الذراع والكتف - وتحركت الساقان وكأنها تحاول أن تسبح إلى الأعلى، ووصلت إلى الجانب السفلي من الكوّة. رفعت ساقها اليسرى وكوّرتها حول القضيب، ودفعت يداً عبر الفتحة، وأمسكت حافتها الخارجية. دفعت نفسها إلى الأعلى بضع بوصات إضافية، وأخرجت اليد الأخرى أيضاً، وشدّت وتسلّقت حتى خرج رأسها، ثم جذعها، وأخيراً جسدها كله إلى سطح المعبد.

راقبها فلين من الأسفل في الحجرة تختفي عبر الفتحة. أنزلت ذراعها مجدداً وطقطقت أصابعها فقذف الحبل إليها وهو ينظر بقلق من فوق كتفه. تردد صوت النباح في الحرم الذي يؤدي إلى الحجرة.

صرخ أحدهم: *"إحنا داخلين جوا! ما تحاولوش تعملو حاجة وإلا حنضربكم بالنار!"*.

همسَ: "هيا!".

جاء أحد طرفي الحبل يتدلّى إلى الأسفل. من دون حتى أن يــزعج نفســه بالتوثق من أنها تستند على نحو ملائم على الطرف الآخر، أمسك فلين الحبــل بكلتا يديه وتأرجح صعوداً، وبدا أن نباح الكلاب وزمجراتها تملأ المعبد كلــه. وصل إلى الكوّة السقفية، ودفع نفسه وتلوّى، وانقلب مبتعداً عن الفتحة، وترك لفريا وقتاً كافياً لتشد الحبل إلى الأعلى وخارج مرمى البصر قبــل أن يــدحم زوجٌ من كلاب الألزاسي بسرعة إلى الحجرة في الأسفل، يتبعهما مباشرة دستة من الحرّاس.

سُمِعت صرخات، ومزيد من النباح، ووقع خطوات مكتومة، لكنــهما لم يمكثا في مكانهما ليستمعا إليها. كان فلين لا يزال يلهث طالباً الهــواءَ، وردن قميصه كان ملطّخاً بالدماء حيث فُتح الجرح في ذراعه جزئياً، لكنه قادها عبر السطح إلى حافة نهايته. ولأن المعبد كان مبنياً على سفح تلة، لم يكن الســطح يبعد أكثر من بضعة أمتار عن الأرض. قفزا إلى الأسفل على الرمــل الطــري وانطلقا باتجاه هوائي الهاتف الخلوي الذي كانت فريا قد رأته حين وصــلا إلى هناك، وسارا على الدرب الذي ينــزل على التلة بجانب المعبد. عادا إلى الجيب بعد خمس دقائق، وبعد ذلك بثلاثين ثانية كانا ينطلقان مسرعَين على الطريــق إلى خارج أبيدوس، في حين كانت مجموعات من سيارات الشرطة تمر في الاتجاه المعاكس، وصفاراتها تصدح.

قالت فريا، وكانت تلك المرة الأولى التي يتكلم فيها أيّ منهما منذ هروبهما: "لم أدرك قطّ أن علم الآثار المصرية قد يكون مثيراً جداً".

رد فلين بالمثل: "لم أدرك قطّ أن تسلق الجبال يمكن أن يكون مفيداً جداً".

نظرا إلى بعضهما بعضاً وكشّرا.

قال: "أمامنا طريق طويل نقطعه. هل أنت متأكّدة من أنك ما زلت تــرغبين بمواصلة هذا الأمر؟".

"لم أكن لأفوّته مقابل العالم كله".

نظر إليها مجدداً، ثم أومأ وضغط دواسة البنــزين حتى آخرها.

"نحن قادمان أيتها الداخلة".

كان محمد شبرا قد عمل في مكتب الاستقبال في وكالة الولايات المتحدة للتنمية الدولية مدّةً طويلة خلال السنوات العشرين الماضية، ولا يذكر خلال كلّ تلك المدّة أنّه رأى السيّدة كيرنان أكثر بهجة. كانت دائماً تبتسم في وجهه، بالطبع، وكانت مهذّبة دائماً، إلاّ أنّها بدت هذا الصباح وهي تعبر البوّابة لدخول المبنى في غاية السرور.

قال لها حين اقتربت منه، وأخرجت بطاقة الأمن الخاصّة بها: "حدث شيء جيّد، أرى ذلك على وجهك".

ابتسمت وهزّت إصبعها قائلةً: "ألا يفوتك شيء يا محمد؟".

"سيّدة كيرنان، على المرء أن يكون أعمى ليفوّت ذلك! وصلتك أخبار عن العائلة، على ما أظنّ؟".

هزّت رأسها نافية وقالت: "بل عمل. دائماً عمل يا محمد".

لكان توقّف عند هذا الحدّ، فهو ليس مخوّلاً لأن يسألها عن أعمالها، ولكن لدهشته، وسروره، ألقت حولها نظرة سريعة، ثمّ مالت إلى الأمام عبر المكتب وقالت: "وصلتني أنباء عن أحد مشاريعي. لم أكن أعتقد أنّه سينجح، ولكن يبدو أنّ الأمر ممكن".

لم يسبق لها أن تحدّثت إليه هكذا من قبل، أو باحت له بشيء على هذا النحو، فشعر بالإثارة وكأنّه أُطلع على سرّ عظيم.

سألها محاولاً أن يبدو طبيعيّاً، كما لو كان يتحدّث عن هذه الأمور طيلة الوقت: "وهل كنتِ تعملين على هذا المشروع منذ مدّة طويلة؟".

أجابته وهي تلمس رمز النصارى الديني المعلّق برقبتها: "آه! أجل، منذ مدّة طويلة جدّاً، حتّى قبل أن تبدأ بالعمل هنا، مدّة طويلة جدّاً".

"أهو مشروع كبير؟ مشروع هام؟".

مع أنّها ظلّت محافظة على ابتسامتها، إلاّ أنّ شيئاً ما في عينيها تصلّب فجأة، كما لو أنّها كشفت ما فيه الكفاية بالنسبة إليها، وأرادت الآن إغلاق الموضوع.

"جميع مشاريعنا هامّة يا محمد. كلّها تجعل العالم مكاناً أفضل. والآن، لديّ يوم حافل، لذا، من بعد إذنك...".

رفعت يدها مودّعة، وتوجّهت إلى المصاعد، ثمّ عادت مجدّداً، وهي تبحث في حقيبتها.

"لدي سؤال. هل سبق لك أن رأيت هذا الرجل؟". وضعت على المكتب أمامه صورة لرجل سمين، أصلع، خدّاه متورّدان، وشفتاه كبيرتان.

أجابها المصري، وقد شعر أنّه ربما تجاوز حدوده، وسرّه أن تتوفّر له فرصة الآن لتصحيح الخطأ: "كان هنا صباح أمس، رافقه المدير في جولة".

هزّت كيرنان رأسها، وأعادت الصورة إلى حقيبتها وقالت: "هل أستطيع أن أطلب منك خدمة يا محمد؟ إن رأيته مرّة أخرى اتّصل بي، أبلغني أنّه في المبنى".

"بالطبع يا سيّدة كيرنان. حالما أراه، فستكونين أوّل من يعرف".

شكرته، وعبرت البهو، ثمّ دخلت المصعد، واختفت فيه.

قال محمد شبرا لزوجته عندما اتّصل بها في وقت لاحق من صباح ذلك اليوم: "إنّها سيّدة لطيفة جدّاً، ولكنها قاسية مثل حذاء جلدي قديم. بالتأكيد لا أحبّ أن أخطئ معها".

الداخلة

خرج الكائن البشري من بين الشجيرات، ثم توقّف للحظة وكأنه يصغي، قبل أن يسرع إلى جانب المبنى الإضافي الذي كان عبارة عن بناء عادي مغلق، ذي سقف من قشّ النخيل، وباب حديدي ثقيل مثبّت بقفل وسلسلة. كان رجلاً، بدا ذلك واضحاً من مشيته. باستثناء ذلك، استحال التعرّف إليه لأنّ جسده كان مخبّأ برداء أسود فضفاض، بينما اختفى رأسه ووجهه تحت شال من اللون نفسه، حتّى لم تظهر منه سوى عينيه.

بحث في جيبه، وأخرج شيئاً معدنياً بدا وكأنّ مغناطيساً قد عُلّق في أسفله. قلّبه في يديه، ثمّ أعاده إلى جيبه. تسلّق العربة الخشبية القديمة المتوقّفة بجوار المبنى. ثمّ دخل بسرعة عبر نافذة عالية كانت عبارة عن فتحة مربّعة بسيطة من دون إطار أو زجاج. سُمع صوت مكتوم وهو يسقط على الأرض في الداخل، تلته حركة خفيفة وقعقعة منخفضة نتجت عن انجذاب المغناطيس لشيء ما. خرج بعد دقيقة.

وشقّ طريقه عائداً بين الشجيرات خلف الحظيرة. بعد ثلاث دقائق، سُمع هدير محرّك درّاجة نارية، ثمّ انحسر الصوت ببطء إلى أن اختفى، و لم يعد يُسمع سوى تغريد الطيور وضجّة خفيفة صادرة عن مضخّة للريّ.

القاهرة

منظّمة فوضوية، كان هذا أفضل وصف استطاع أن يأتي به أنغلتون. أو *الفوضى المنظّمة*. في كلتا الحالتين، بدا النظام المصري لمراقبة حركة المرور متثاقلاً على نحو ميئوس منه. إذ يقف عناصر الشرطة شبه الملمّين بالقراءة والكتابة بضجر عند حواجز الطرقات يدوّنون أرقام سيارات المارّة وتفاصيل عن سائقيها، ومع ذلك، يتبيّن في النهاية أنّه نظام فعّال جدّاً.

بعد منتصف الليل بقليل، عاد رجال اللواء تانر إليه بالدفعة الأولى من النتائج: عبرت سيّارة برودي وهانين نقطة تفتيش على الطريق السريع رقم 11، عند الساعة 9:33 مساءً، متّجهة شمالاً نحو الإسكندرية، ثمّ عادت إلى نقطة التفتيش نفسها عند الساعة 10:54 مساءً، متّجهة هذه المرّة نحو القاهرة. لم يكن أنغلتون يملك أيّ فكرة عمّا كانا يفعلانه بالتحديد هناك، ولكن أيّاً يكن ذلك، فقد كان مجرّد مقدّمة لرحلتهما الرئيسة. فقد وردت المعلومات باطّراد خلال الليل، وبيّنت كلّها أنّهما كانا متّجهين جنوباً. أوّلاً على الطريق السريع رقم 22 إلى الفيّوم، ومن ثمّ على الطريق السريع 2 إلى وادي النيل. اجتازا منطقة بني سويف عند الساعة 12:16 ليلاً، ومغاغة عند الساعة 12:43، والمنية عند الساعة 1:16 - وفي هذا الوقت طلب من المصريين تركيز كلّ جهودهم على ذلك الطريق ومتفرّعاته - أسيوط عند الساعة 2:17، سهاج عند الساعة 3:21، وأخيراً، عند الساعة 3:56، نقطة تفتيش خارج أبيدوس.

بعد ذلك، لم يصله شيء عنهما لأكثر من ثلاث ساعات. وقرابة الساعة 5:30 صباحاً، طلب إجراء مسح هاتفي لجميع الفنادق ودور الضيافة المسجّلة رسمياً في محيط أبيدوس لمعرفة ما إذا كانا قد توقّفا لتمضية الليل في مكانٍ ما. لا شيء، راح يشتم ويثور غضباً - وهذا ليس من طبعه - مقتنعاً أنّهما أفلتا منه. لم

تصله أيضاً أيّ مكالمة على هاتفه الخلويّ، ولا أيّ اتّصال من أيّ نوع على أجهزته، وكان عليه أن يتقبّل أنّه فقد أثرهما. ثمّ فجأة، عند الساعة 7:07 صباحاً، بلغه أنّ الشيروكي بمَن فيه، عبر مجدّداً نقطة التفتيش في أبيدوس. ليس هذا فحسب، بل تزامن رحيل فريا وبرودي مع حادث أمني في المعبد؛ اقتحام، وتخريب، ومطاردة. ودّ معرفة المزيد، لكنّ التفاصيل ما زالت شحيحة، فاكتفى بمعرفة أنّ برودي وهانين أصبحا تحت المراقبة مجدّداً. لوّح قبضته في الهواء تعبيراً عن راحته. وفاجأ السيّدة معلوف العجوز المسكينة بعناق كاسح وهي تدخل من الباب لبدء مناوبتها، وطبع قبلة على خدّها.

صاحت بصوتها الناعم عالي النبرة: "كفى! كفى، أيّها الأنذال!".

حالما هدأ أنغلتون، وانتهت السيّدة معلوف من ترتيب فستانها وشعرها وهي تتذمّر بجدّية قائلة: "رجاءً، لا تفعل ذلك مرّة أخرى. أنا سيّدة متزوجة ومحترمة!". تركها واستقلّ سيّارة أجرة متوجّهاً إلى مكتبه في السفارة الأمريكية. تابع مراقبته من هناك (وحصل على وجبة إفطار كاملة أرسلها إليه الطاهي باربي من المطبخ: فقلّة النوم تشعره دائماً بالجوع).

عند الساعة 7:46، بلغه أنّ سيارة الشيروكي عبرت نقطة تفتيش سوهاج مجدّداً، متّجهة شمالاً، ووصلت بعد ثمانين دقيقة إلى نقطة تفتيش أسيوط. من الواضح أنّ برودي وهانين في طريق عودتهما إلى القاهرة.

ثمّ، المفاجأة الكبرى: فعلى أساس اتّجاه رحلتهما، وكون حركة المرور أكثر ازدحاماً على الطريق خلال النهار ممّا سيجعل تقدّمهما أكثر بطئاً، قدّر أنغلتون أنّهما سيصلان إلى المنية قرابة الساعة 10:30 صباحاً. حلّت الساعة 10:30 وانقضت. ومن ثمّ الساعة 11:00، و11:30. كان غضبه قد بدأ يثور مجدّداً عندما تلقّى مكالمة بعد الساعة 11:45 تفيد أنّه عوضاً من التوجّه شمالاً، تمّ رصد الشيروكي في ثلاث نقاط تفتيش منفصلة على الطريق الصحراوي، جنوب غرب أسيوط، وكان آخرها على بُعد 20 كلم خارج الخارجة. وفي ذلك الوقت. تسرّبت معلومات إضافية عن الأحداث التي وقعت في أبيدوس. إذ قام أحدهم - ومن الصعب أن تشاء الصدفة ألاّ يكونا برودي وهانين - باقتحام المعبد، وفتح فجوة في أحد الجدران، واكتشفا غرفة سرّية من نوع ما. كما حدث من قبل.

ظلّت التفاصيل غامضة، ولكنّ أيّاً يكن ما وجداه أو شاهداه، يبدو أنّه يقودهما الآن إلى الصحراء الغربية. هذا مثير للاهتمام. جدّاً، جدّاً.

اقترب من الخريطة المعلّقة على الجدار، وحدّق إليها لبعض الوقت قبل أن يتّجه إلى النافذة. كان جزء منه يميل إلى التماسك لفترة أطول قليلاً، والاستمرار بتعقّبهما من بعيد، من نقطة تفتيش إلى أخرى. ولكنّ المشكلة أنّ هذا الخيار يجعله متأخّراً عنهما خطوة على الدوام، ومع اقتراب أزمة الدراما بأكملها - وهو يشعر أنّها تقترب بسرعة - فإنّ التأخّر خطوة يعني أنّك خارج اللعبة تماماً. لم يكن ثمّة جدوى في الطلب من المصريين تعقّبهما، لأنّه إن لم يكن قادراً على ذلك، فلن يتمكّنوا هم بكلّ تأكيد من تحقيق ذلك. داعبته فكرة طلب توقيفهما عند نقطة التفتيش التالية إلى أن يصل بنفسه إلى هناك، إلاّ أنّه أبعدها بسرعة. فالمعركة لن تكون متكافئة إطلاقاً بين عميل مخابرات سابق يتمتّع باللياقة وبحافز قوي، ومجموعة من المجنّدين السذّج والخُرق.

حدّق من النافذة مدّة أطول مراقباً الناس وهم يروحون ويجيئون في المجمّع في الأسفل. صفق كفّه على الزجاج، بعد أن توصّل إلى قرار، وعاد إلى الخريطة. حان الوقت ليقوم بخطوته؛ ليدخل ويكتشف ماذا يعرف برودي وهانين، ثمّ يخرجهما من الصورة. لكنّ السؤال كان: كيف؟ والأهمّ: أين؟ مرّر إصبعه على الصحراء من أسيوط إلى الخارجة، والداخلة، ومن ثمّ يساراً، وإلى الأسفل وصولاً إلى الجلف الكبير. كان ذاك هو المكان الذي يتوجّهان إليه في نهاية المطاف. لا بدّ من ذلك، ففي هذه القصّة، يبدو أنّ كلّ الطرق تقود في هذا الاتجاه. ولكن قبل الجلف... جرّ إصبعه عائداً إلى الطريق الصحراوي، وحرّكه بين الداخلة والخارجة، جيئة وذهاباً وكأنّه يلعب حزّر فزّر قبل أن يستقرّ أخيراً على الداخلة. كان احتمالاً بالطبع، ولكنّ هذه اللعبة مليئة بالاحتمالات. فهو لم يخطئ كثيرًا حتّى الآن، وشعر في أعماقه بأنّه لن يُخطئ هناك. كانت الداخلة هي وجهتهما التالية، وكان واثقاً من ذلك، والداخلة هي التي سيسبقهما إليها. طرق قبضته على الخريطة بقوّة، وكأنّه يطرق على باب، ثمّ توجّه إلى الهاتف. انتزع السمّاعة، وطلب رقماً. انتظر قليلاً، ثمّ أتاه الردّ.

قال أنغلتون من دون مقدّمات: "أحتاج إلى السفر إلى الداخلة بأسرع وقت ممكن، وإلى سيارة هناك. أنا في طريقي إلى المطار".

أعاد السماعة، وتناول قِراب الكتف الذي كان قد علّقه على ظهر كرسيه. أخرج مسدسه، ثمّ قبض على الزناد ونظر إلى الماسورة، مستهدفاً الخريطة المعلّقة على الجدار المقابل.

"سايروس آتٍ!".

الداخلة

كان الوقت قد تجاوز الظهر بقليل عندما مرّا أخيراً بين شجرتي النخيل المعدنيّتين العملاقتين اللتين تشيران إلى الحدود الشرقية لواحة الداخلة. أمضيا خمس ساعات متواصلة على الطريق، وتولّى فلين القيادة معظم الوقت، مع أنّ فريا قادت الشيروكي مسافة طويلة في منتصف الطريق بين أسيوط والخارجة كي يتمكّن من أخذ قسط من النوم.

كانت رحلة خالية من الأحداث، وإن تكن مثيرة للأعصاب أحياناً، بسبب قيادة فلين. أوّلاً، عادا أدراجهما على طول وادي النيل، بحقوله الخصبة وقراه المبنيّة من الطين. ثمّ انعطفا إلى الصحراء؛ رمال، وصخور، وحصى، وبعض الأشياء الأخرى القليلة، وكانت إشارات تحديد المسافة ونقاط التفتيش العرَضية هي العلامات الوحيدة للتأثير البشري. هذا بالإضافة بالطبع إلى الطريق نفسه: خطّ من الإسفلت الأسود اللامع الممتدّ عبر الرمال مثل شقّ هائل يقسم ذلك المنظر الطبيعي.

بعد خمس عشرة دقيقة من دخول الواحة، وصلا إلى مووت، وهناك تولّت فريا تحديد الاتّجاهات، ذلك أنّ فلين لم يسبق له زيارة منزل زاهر. تجاوزا المستشفى ومركز الشرطة - لم يمضِ سوى 48 ساعة على وجودها هناك، إلاّ أنّها شعرت وكأنّ ما حدث كان جزءاً من حياة مختلفة - وسلكا طريقاً من الجانب الآخر من البلدة، ليسرعا عبر حقول الذرة والأرزّ باتجاه الجدار الأبيض البعيد لجرف الصحراء. وصلا في نهاية المطاف إلى قرية زاهر، وتوقّفا في الشارع أمام منزله. أوقف فلين عمل المحرك وهمّ بفتح الباب. إلاّ أنّ فريا وضعت يدها على ذراعه، وأوقفته.

"أنت تعرف زاهر، أليس كذلك؟".

نظر إليها فلين من فوق كتفه وقال: "في الواقع، التقيتُ به بضع مرّات. نحـن نسنا صديقين بالتحديد، إن كان هذا ما تقصدينه. فأنا أستخدم مرشـداً سـياحيّاً آخر عندما أذهب إلى الصحراء. لماذا؟".

أجابت وهي تحدّق إلى مدخل المنـزل: "لا أستطيع أن أشرح حقّاً. شـعرت شيء... لم يكن ودوداً جدّاً عندما كنتُ معه".

ابتسم فلين وقال: "ما كنتُ لآخذ ذلك على محمل شخصي. إنّـه أسـلوب ندو وحسب، فهم يميلون إلى إخفاء عواطفهم. فقد تعرّفتُ مرّة إلى رجل....".

"كان الأمر أكثر من ذلك".

أفلت مقبض الباب، واستدار نحوها. كانت عيناها حمراوَين من قلّة النـوم، وشعرها الأشقر أشعث وغير مرتّب، وما زال الغبار عالقاً عليه من تجويف المعبد.

سألها: "ماذا تعنين؟".

"كما قلت، لا يمكنني أن أشرح حقّاً. كان ثمّة شيء ما فيه، في سلوكه... أنا لا أثق به يا فلين".

قال: "لكنّ ألكس فعلت. ائتمنته على حياتها".

ارتعشت قائلة: "أعتقد وحسب أنّه يجدر بنا... أن نكون حذرَين، وعدم قول نكثير له".

"كانت ألكس حكماً جيّداً...".

كرّرت قائلة: "أعتقد وحسب أنّه يجدر بنا أن نكون حذرَين، وعـدم قـول نكثير له. لا يعجبني، إنّه مراوغ".

نظر إلى عينيها، ثمّ هزّ رأسه موافقاً، وترجّل من السيارة. تبعته فريا، وسـارا معاً عبر المدخل المبني من الطوب إلى الباحة أمام المنـزل. مرّا بالقرب من سـيارة زاهر من طراز لاند كروزر، بمصباحها الأمامي المحطّم، ووصلا إلى باب المنـزل، الذي كان مفتوحاً على مصراعيه.

كانت فريا تمنّي نفسها بأمل عدم وجود زاهر في المنـزل. فتستقبلهما زوجته وتتركهما ينظران إلى صورة التكوين الصخري ويتمكّنان من معرفة ما يحتاجان إليه من دون أيّ اتّصال مباشر مع ذلك الرجل. ولكن، حتّى قبل أن يتمكّن فلين مـن

طرق الباب، ظهر زاهر في الممرّ أمامهما. لدى رؤيتهما، ارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة سرعان ما تبدّدت ليستعيد عبوسه الذي بدا أنّه تعبيره الأساسي.

قال متّجهاً نحوهما: "آنسة فريا، شعرتُ بالقلق عليك فقد اختفيتِ".

تمتمت باعتذار، واحتجّت إنه كان عليها إنجاز عمل ملحّ في القاهرة. لم تبدُ مقنعة جدّاً، ومن الواضح أنّه لم يصدّقها، إلاّ أنّه لم يعلّق. قادهما إلى داخل المنزل، وصاح بشيء ما في الممرّ خلفه. التقطت فريا كلمتَي *أمريكانية وشاي*.

قال فلين: "أنا آسف يا سيّد زاهر، ولكن لا وقت لدينا لتناول الشاي. نودّ أن نطرح عليك سؤالاً".

تحوّل اهتمام زاهر إلى الرجل الإنكليزي، وأقرّ للمرّة الأولى بوجوده. ومع أنّ تعبيره ظلّ مبهماً، إلاّ أنّ شيئاً ما في عينيه وفي وضعيّة كتفيه أشار، إن لم يكن إلى العداء، فعلى الأقلّ إلى عدم الارتياح.

سأله وقد بدا عليه الارتياب: "تطرحان سؤالاً؟ عمّ؟".

قالت فريا: "عن الصورة، تلك المعلّقة في الغرفة في الجزء الخلفي من منزلك. صورة الصخرة".

هزّ زاهر رأسه، وكأنّه لم يفهم عمّا تتحدّث.

"ألا تذكر؟ عندما جئتُ إلى هنا من قبل، بحثتُ عن الحمّام، ودخلتُ غرفة أخرى عن طريق الخطأ. كان ثمّة صورة هناك، لشقيقتي وهي تقف بجوار صخرة".

أشارت بإحدى يديها، محدّدة الشكل، وطريقة التفاف الصخرة إلى الأعلى من الصحراء، مثل سيف هائل مقوّس يطعن الرمال.

"كانت معلّقة على الجدار فوق مكتبك، وقلتَ لي إنّ الغرفة خاصّة".

قال فلين: "نحتاج إلى سؤالك عنها. أين تقع هذه الصخرة. إنّها بقرب الجلف، أليس كذلك؟".

انتقلت عينا زاهر من فريا إلى فلين، وعادتا إليها مجدّداً. بدا متردّداً في الإجابة. خيّم الصمت، ثمّ لوّح المصري بيده باستخفاف.

"لنشرب الشاي أوّلاً، ثمّ نتحدّث".

استدار نحو غرفة المعيشة التي وُضِعَ فيها تلفاز، ومقعد طويل تعلوه وسائد. وخنجر معلّق على الجدار. بقي فلين وفريا عند المدخل.

قال فلين: "رجاء، نحن نحتاج إلى رؤية الصورة. ليس لدينا الكثير من الوقت".

التفت زاهر إليهما وسألهما، وقد شابت صوته نبرة عدائية بالكاد ملحوظة: "لماذا تريدان رؤية هذه الصورة؟ إنّها مجرّد صخرة".

تبادل فلين وفريا نظرة.

قال فلين: "الأمر يتعلّق بعملي. فأنا أعرف الجلف جيّداً، لكنّني لم أرَ هذا التكوين من قبل، وأعتقد أنّه قد يكون مهمّاً، قد... يؤثّر في فهمنا لأنماط الاستيطان في العصر الحجري القديم في الهولوسين الأوسط".

إن كان يأمل خداع المصري بكلامه التقني، فقد أخطأ. إذ بقي زاهر على موقفه، ولم يتأثّر. خيّم الصمت مجدّداً على نحو مزعج، إلى أن نفد صبر فريا.

قالت: "رجاء يا زاهر، أريد رؤية الصورة"، وربما كانت نبرتها أكثر حدّة ممّا أرادت، إلاّ أنّها شعرت بالإرهاق، وكان الوقت يمرّ. "لقد ظهرت شقيقتي فيها، وأريد أن أعرف عنها".

عبس زاهر وقال: "يقول السيّد برودي إنّه يريد أن يعرف عن الصورة من أجل العمل، وأنت تقولين إنّك تريدين أن تعرفي عنها لأنّ الدكتورة ألكس تظهر فيها. أنا لا أفهم".

زمّت فريا شفتيها، وكانت على وشك أن تفقد أعصابها. لكنّها أخذت نفساً عميقاً عوضاً من ذلك، وتقدّمت خطوة باتّجاه زاهر، وفتحت يديها بحركة استعطاف.

كرّرت قائلة: "أرجوك، إن لم يكن من أجلي فمن أجل ألكس، أخبرنا عن الصورة. لكانت أرادت منك أن تساعدنا، أنا واثقة من ذلك. أرجوك".

وقفا أمام بعضهما، ولم تُسمع سوى أصوات الإوزّ المكتومة من الخارج. حدّقت فريا إلى زاهر، بينما تجنّب هو النظر إلى عينيها. كان كلّ شيء حوله يثير الشكّ وعدم الارتياح. مرّت ثوانٍ، ثمّ هزّ كتفيه بتردّد، ومشى أمامهما عائداً إلى الممرّ.

قال بنبرة أشارت إلى أنّه غير مسرور بذلك على الإطلاق: "تريدان رؤية الصورة؟ سأريكما إيّاها. تعاليا".

قادهما عبر الممرّ، والباحة، إلى الجزء الخلفي من المنـــزل. لمحت فريا زوجتــه وابنه عند باب المطبخ المقابل، قبل أن تختفي المرأة مجدّداً في الظلال. توجّه زاهر إلى الباب الأقرب في الجدار الأيمن، ولوّح لهما ليتبعاه إلى الغرفة.

قال بخشونة: "ها هي الصورة". مشى نحو المكتب وهو يشير بإصبعه إليهـــا، وفتح ذراعيه وكأنّه يُثبت أنّ ليس لديه ما يخفيه. تأمّلا القمّة الضخمة المقوّسة مـــن الصخر الأسود بأطرافها المثلّمة، والجسد الصغير الواقف في الظلّ عند أسفلها. بدا فلين، بوجه خاص، مفتوناً بالصورة، وقد انحنى فوق المكتب للتدقيق فيهـــا عـــن كثب، وأومأ برأسه بخفّة وكأنّه اكتشف فجأة، إن لم يكن جواب لغز فكّـــر فيــه طويلاً، فعلى الأقلّ هو أمل باكتشاف الجواب.

سأله: "أنت التقطتَ هذه الصورة؟".

ردّ زاهر بالإيجاب.

"أين؟".

"في الصحراء، هذا واضح".

تجاهل فلين السخرية وسأله: "بالقرب من الجلف الكبير؟".

أتى ردّ إيجابـــي آخر على مضض.

"الجلف مكان كبير. هل تستطيع أن تكون أكثر تحديداً؟".

لم يحصل على جواب.

ألحّ فلين: "في الجزء الشمالي أم الجنوبـــي؟".

اعترف المصري، وقد بدا واضحاً أنّه لا يستسيغ استجوابه بهذه الطريقة: "في الجنوب. لا أذكر المكان بالتحديد، فقد مضى وقت طويل جدّاً".

تأمّل فلين الصورة أكثر، ثمّ التفت إلى زاهر.

"يا صاحبـــي، أنا أحترمك لأنّني في منـــزلك، ولكن عليك أن تحترمني أنت أيضاً. هذه الصورة التُقطت خلال الأشهر الخمسة الماضية. انظر هنا...".

طرق بإصبعه على الصورة، مشيرًا إلى عصا فضّية مسندة إلى الصخرة قـــرب شقيقة فريا.

"هذه عصا ألكس. لم تبدأ باستخدامها إلاّ عندما مرضت في شـــهر تشـــرين الثاني الماضي".

نظر زاهر إلى قدميه، وبدا عليه الانـــزعاج.

تابع فلين، محاولاً الحفاظ على مستوى صوته، ولكن من الواضح أنّه لم يكن في مزاج للمراوغة: "لا أعرف ما الذي تحاول إخفاءه، أو لماذا لا تريد إخبارنا عن هذه الصورة. ولكنّني أسألك بصفتك مضيفنا وبصفتك بـــدوياً أن تتوقّـــف عـــن المراوغة وتعطيني جواباً مباشراً".

رفع زاهر رأسه، وبدا حانقاً، ثمّ قال بغضب: "لا تـــتكلّم معـــي علـــى هذا النحو. لا في منـــزلي، ولا في أيّ مكان آخر، هل تفهـــم؟ لا تهنّـــي وإلاّ ستندم".

"هل تهدّدني يا زاهر؟".

"أنا لا أهدّدك، بل أخبرك وحسب. لا تتكلّم معي على هذا النحو".

ارتفع صوتاهما، فتدخّلت فريا قبل أن يخرج الوضع عن السيطرة.

قالت بنبرة مهدّئة وحازمة على السواء: "زاهر، نحن لم نأتِ إلى هنا لإهانتك. كلّ ما نريده هو معرفة المكان الذي التُقطت فيه الصورة. لقد وثقت أختـــي بـــك كثيراً، وكما قلت، إن لم يكن من أجلنا، فمن أجلها. رجاء، أخبرنـــا أيـــن تقـــع الصخرة وسنرحل".

هذه المرّة، نظر زاهر إلى عينيها. بدا أنّ غضبه تبدّد بالسرعة التي ثار بها، وحلّ مكانه... لم تستطع فريا أن تحدّد تماماً ما الذي حلّ مكانه: بدا لهـــا مزيجـــاً مـــن الاستسلام والخوف، وكأنّه تقبّل أنّ عليه إخبارهما بما يريدان معرفته، ولكنّه كـــان يخشى العواقب.

توسّلت إليه مجدّداً: "أرجوك يا زاهر".

صمت للحظة ثمّ قال: "تريدان الذهاب إلى هذا المكان؟".

نظر فلين وفريا إلى بعضهما، ثمّ هزّا رأسيهما.

قال: "أنا آخذكما. سنذهب معاً".

قال فلين: "كلّ ما نريده معرفة المكان وحسب".

"الجلف الكبير بعيد. وهو خطر، خطر جدّاً. لا يجدر بكما الذهاب من دون مرشد، سآتي معكما".

"نحن نحتاج فقط...".

"الطريق طويل، طويل جدّاً. إن ذهبتما بمفردكما، فستحتاجان إلى ثلاثة أيّام لبلوغ المكان. أمّا معي، فستصلان خلال أقلّ من يوم واحد. أنا أعرف الجلف، أعرف الصحراء. سأصطحبكما".

استمرّ الجدل لبعض الوقت بينهم، زاهر يصرّ على مرافقتهما، وفلين وفريا يصرّان على أنّ موقع الصخرة هو كلّ ما يريدانه، إلى أن أقرّ المصري أخيراً بالهزيمة. ارتمى على كرسي قرب المكتب، وشبك ذراعيه، وركّز نظره يائساً على الأرض.

تمتم قائلاً: "هل تعرفان وادي البخت؟".

أجاب فلين أنّه يعرف.

"تقع الصخرة على بُعد ثلاثين كيلومتراً جنوب وادي البخت، عند ثلاثة أرباع المسافة الفاصلة بين البخت *والجرس الثامن*. ثمّة جرف كبير هناك، مرتفع جدّاً. الصخرة الرابعة، على بُعد 500 م في الصحراء. اذهبا جنوب البخت، ولن تفوّتاها.

نظر إلى الأعلى وهو يهزّ رأسه وكأنّه يقول: *أنتما لا تعرفان بماذا تقحمان نفسيكما*. لم يكن ثمّة سبب لإطالة الحديث أكثر، فشكراه وودّعاه، وتوجّها إلى الباب. عندما وصلا إليه، ناداهما.

"أنا أحاول مساعدتكما. الجلف بعيد جدّاً، يقع على بُعد ثلاث مئة وخمسين كيلومتراً، وسط الصحراء، إنّه في غاية الخطورة. أنا أحاول مساعدتكما، ولكنّكما لا تفهمان".

وقف مجدّداً، ومدّ إحدى يديه نحوهما، وبدت في عينيه نظرة توسّل تقريباً. وقف الثلاثة للحظة وخيّم عليهم صمت محرج. أخيراً، شكراه مجدّداً، وخرج فلين وفريا إلى الباحة، وأغلقا الباب خلفهما.

بعد ذهابهما، وقف زاهر لمدّة طويلة يتأمّل الصورة المعلّقة على الجدار. ثمّ توجّه نحو غرفة النوم. مدّ يده تحت السرير، وأخرج البندقية التي يحتفظ بها هناك. جلس ووضعها على ركبتيه. مرّر يده على طول الماسورة ذهاباً وإياباً، ثمّ أدخل يده في جيب جلبابه وأخرج هاتفه الخليوي. طلب رقماً، ورفع الهاتف إلى أذنه.

قال عندما تمّ الردّ على المكالمة: "كانت هنا، مع برودي. إنّهما يعرفان بأمر الصخرة، وهما في طريقهما إلى هناك".

تردّد صوت من الطرف الآخر.

قال زاهر: "لا خيار لدينا، إنّه واجبنا. هل أنت معي؟".

تردّد الصوت من الطرف الآخر مجدّداً.

"تمام. سأصطحبك خلال ثلاثين دقيقة".

أنهى المكالمة ووقف حاملاً بندقيته.

صاح قائلاً: "ياسمين! محسن! عليّ الذهاب! تعاليا لأودّعكما!".

أنــزلت الطائرة أنغلتون في مطار الداخلة، قبل الساعة الواحدة ظهــراً بقليــل، وخلال خمس دقائق أصبح في الخارج، واستقلّ السيارة المستأجرة، التي كانــت مــن طراز هوندا سيفيك خضراء اللون، وكما هو واضح، انقضت أفضل أيّامها. كان قــد فكّر في الأمور خلال الرحلة، وراجع الخرائط، وعرف بالتحديد أين يقــع منــزل أنكس الذي لا بدّ من أن يكون نقطة الانطلاق، وبعدما أعطى تعليمات للشرطة المحلّية لإبلاغه بالمعلومات التي تصلهم، لم يعد ثمّة سبب للتأخير. مسح العــرق عــن رقبتــه وجبينه - يا الله كم الجو حار هنا! - ثمّ شغّل محرّك الهوندا، وانطلقت العجلات فوق الإسفلت الملتهب، لتعبر موقف السيارات. قفز الحرّاس الذين يقفون عند بوّابة المطــار مبتعدين عن طريقه وهو يمرّ أمامهم للخروج إلى الطريق باتّجاه مووت.

كان أمراً غريباً، ولكن من اللحظة التي سمعَت فيها فريا للمــرّة الأولى عــن الواحة الخفيّة - هل مضى فعلاً أقلّ من أربع وعشرين ساعة؟ - شعرت بشكل ما بأنّها ستتوجّه إلى آثار الصحراء الغربية الحارقة بحثاً عنها. ومع أنّ ذلك الإحســاس ازداد قوّة مع مرور الساعات، وأخذت الواحة تسيطر علــى الأحــداث بشــكل متزايد، إلاّ أنّها ظلّت مفهوماً مجرّداً.

سألته وهي تتمسّك بلوحة القيادة، بينما كانت السيارة تعلو وتهــبط علــى الطريق الوعر: "ألا نحتاج إلى مؤونة؟ وقود وما إلى ذلك؟ فثلاث مئــة وخمســين كيلومتراً مسافة طويلة جدّاً".

"الأمر سهل، ثقي بـــي". كان هذا كلّ ما استطاع فلين قوله.

وصلا إلى الواحة، وبدت شجيراتها الكثيفة المتشابكة مخيفة على نحو أقلّ ممّا كانت عليه عندما أتت إلى هنا في المرّة الأخيرة، ثمّ سلكا الطريق الذي راح يلتـف وينعطف عبر الأشجار. أخيراً، وصلا إلى منـــزل ألكس، وأوقفا السيارة في موجة من الغبار. تساءلت فريا ما إذا كانت ستجد دماءً في الداخل، وما إذا كانت جثّة الفلاح العجوز ممدّدة على الأرض. غير أنّ المبنى كان خالياً؛ بارداً، ونظيفاً، ومرتّباً. تماماً كما كان في أوّل زيارة لها.

قال فلين مشيراً إلى غرفة نوم ألكس: "أريد منك إحضار بعض الملابس الدافئة؛ سترات، معاطف، أيّ شيء من هذا القبيل، لأنّ الصحراء تصبح باردة جدّاً في الليل. وسنحتاج إلى الماء أيضاً، لا بدّ من وجود قـوارير في المطـبخ. املأيها من الصنبور، فمياهه صالحة للشرب تماماً. وإن استطعتِ إيجـاد ميـاه وقهوة، فهذا عظيم، ولكن لا تسرفي. ليس من المتوقع أن نبقى هناك لأكثر من أربع وعشرين ساعة".

"لكنّ زاهر قال إنّ وصولنا إلى هناك سيستغرق ثلاثة أيّام".

كانت تتحدّث إلى نفسها في ذلك الوقت لأنّ فلين سبق واختفى في مكتـب ألكس.

تجوّلت للحظة وهي تتساءل، متأخرة على الأرجح، ما إذا كان الإنكليـزي مؤهّلاً فعلاً لهذا النوع من الرحلات، وما إذا كان يجدر بهما قبول عرض زاهـر. صرفت الفكرة عن ذهنها، فرفقة شخص غير مؤهّل أفضل من رفقة شخص لا تثق به. ذهبت إلى غرفة نوم أختها، وعثرت على حقيبة سفر من النايلون تحت السرير. بحثت في الأدراج والخزائن، وأخرجت سترتين، وقميصاً قطنياً، وشـالاً صـوفياً سميكاً. ضغطت الملابس على خدها، وأحسّت بوجود أختها في كلّ منها، قبل أن *تدسّها في الحقيبة. أضافت إليها سترة السفر السويدية الخاصّة بألكس، والتي كانت* معلّقة خلف الباب، ثمّ حملت الحقيبة على كتفها وهمّت بالذهاب إلى غرفة المعيشة. عندما التفتت فجأة وعادت إلى غرفة النوم. اقتربت من إطار الصور الموضوع على الطاولة بجوار السرير، وأخرجت منه صورة شمسية لهـا ولألكـس حـين كانتـا مراهقتين، ودسّتها في جيب سروالها.

قالت وهي تربّت على جيبها: "أنتِ لم تظنّي أنّني سأتركك خلفي، أليس كذلك؟".

في المطبخ، وجدت قارورتين بلاستيكيتين سعة خمسة ليترات موضوعتين على المائدة. كما طلب منها فلين، ملأتهما مباشرة من الصنبور قبل أن تبحث عن أشياء أخرى: مرطبان قهوة سريعة التحضير، بعض الشوكولاته، علبة كبيرة من الحبوب المحمّصة، وفتّاحة علب. أضافتها إلى محتويات الحقيبة، ثمّ حملتها إلى الخارج، وألقتها على المقعد الخلفي للشيروكي.

في أثناء ذلك، ظلّ فلين غائباً في مكتب ألكس، وكانت قعقعة الأدراج التي تُفتح وحفيف الأوراق الدليلَين الوحيدَين على أنّه ما زال في المنزل. خرج وهي تُغلق الباب الخلفي للجيب، وكان يحمل محفظة سوداء مكتنزة بإحدى يديه وكتاباً وخريطتين باليَد الأخرى.

سألته وهو يصعد الجيب، ويلوّح لها لتتبعه: "هل تعرف إلى أين نحن ذاهبان؟".

أجاب: "إلى حدّ كبير. هل أحضرتِ كلّ شيء؟".

أشارت بإبهامها إلى الحقيبة وقارورتَي المياه في الخلف. فهزّ رأسه وشغّل المحرك.

قال: "أيها الجلف الكبير، ها نحن ذا قادمان".

انعطف بالشيروكي، وعاد عبر الواحة. عندما وصلا إلى الطريق، التفّ حول مساحة ترابية واسعة، ثمّ انعطف إلى اليمين ليسلك طريقاً أقصر لم تلحظه فريا من قبل. كان أوسع بقليل من طريق للسير على الأقدام، وبالكاد كان الجيب قادراً على المرور بين الأشجار الكثيفة التي طوّقته من الجانبين، بينما صدر صوت صرير حادّ ناتج عن احتكاك الجهة السفلية للسيارة بالأعشاب العالية. تقدّما لمدّة دقيقة أخرى، وبالكاد تجاوزت سرعتهما 20 كلم في الساعة، ومرّا من أمام حظيرة ماعز وحوض من الإسمنت يتمّ ضخ المياه فيه، قبل أن تختفي الشجيرات فجأة. لقد وصلا إلى طرف الواحة، قرب الحظيرة المغلقة التي لجأت إليها فريا قبل ليلتين. امتدّت أمامهما مساحة مسطّحة من الرمال كانت قد انطلقت عبرها هاربة، وكانت آثار قدميها لا تزال بادية نوعاً ما على السطح.

افترضت أنّ هذا ما سيفعلانه، أنّ فلين سيقود السيارة ببساطة إلى الصحراء، وسيتّجهان إلى الجلف الكبير. ولكن عوضاً من ذلك، أوقف الشيروكي بجوار الحظيرة، وأوقف عمل المحرك، وترجّل منه. أخرج المحفظة، والخريطتين، والكتاب. وحقيبة الظهر، وطلب منها إحضار قارورتي المياه، ثمّ توجّه نحو باب المبنى الحديدي، وأخرج مفتاحاً من جيبه، وفتح القفل. فتح الباب واختفى في الداخل.

لا بدّ من أنّنا ذاهبان بسيارة أخرى، هذا ما فكّرت فيه وهي تتناول قارورتي المياه من المقعد الخلفي وتتبعه. كان داخلُ الحظيرة عابقاً برائحة البنزين ومغموراً بالضوء التوأم الذي تسرّب جزء منه من النوافذ الموجودة في أعلى الجدران، إلاّ أنّ معظمه أتى من فجوة السقف، بعد أن خرّبت مروحية التوأم جزءاً من سعف النخيل الذي يغطّيه. رأت صفاً من صفائح الوقود البلاستيكية سعة 20 ليتراً على الجدار إلى يسارها، وكانت مليئة بسائل شفّاف، افترضت من الرائحة المنتشرة في المكان أنّه بنزين. بالقرب منهما، كان ثمّة صندوق برتقالي صغير للتبريد، وكومة من البطانيات الصوفية السميكة، وعلبة مليئة بالمفكّات والمفاتيح وغيرها من الأدوات. ولكن ما لفت انتباهها فعلاً، وبشكل حتمي، كان شيئاً موجوداً وسط الحظيرة، يحتلّ الجزء الأكبر من طول المبنى، وعرضه، وارتفاعه. لم تستطع أن تحدّد ماهيته بالتحديد، لأنّه كان مغطّى بمشمّع ثقيل، ولكنّه لم يبدُ شبيهاً بأيّ سيارة رأتها من قبل. ولا أيّ عربة من أيّ نوع.

سألته: "ما هذا بالله عليك؟".

أجاب بغموض: "الآنسة بيغي"، ومرّ بصعوبة بجانب الشيء الغامض وذهب إلى الطرف الآخر من الحظيرة. كان جدار هذا الطرف من المبنى عبارة عن باب فولاذي لفّاف ثقيل الوزن. أمسك بالسلسة المتدلية من البكرة في الأعلى، وبدأ يشدّها. ارتفع الباب والتف حول نفسه مصدراً صريراً عالياً إلى أن انفتح، لتتصل أرض الحظيرة الإسمنتية بسجادة الصحراء الصفراء المتلألئة. سألته فريا مجدّداً عمّا يجري، ولكنّ فلين أومأ إليها ببساطة، ثمّ أمسك بإحدى زوايا المشمّع وأشار إليها كي تمسك بالزاوية الأخرى. بدءا يسحبانه معاً ببطء عن ذلك الشيء الغامض إلى أن انكشف تماماً.

قال: "رحّبي بالآنسة بيغي. اسمها الأصلي هو بيغاسوس كوانتوم 912 فلكسوينغ ميكرولايت. عابرة الصحراء، النمط التنفيذي".

تمتمت فريا وهي تقف فاغرة فمها: "لا بدّ من أنّك تمزح. مستحيل".

كانت ترى أمامها ما بدا وكأنّه خليط بين طائرة شراعية، وعربة مكشوفة، ومزلقة. كانت مزوّدة بقمرة مخروطية تضمّ مقعدين، مصنوعة من مادّة معدنية وردية لامعة، ومنها أخذت اسمها حسب ظنّها، مع ثلاث عجلات، ومروحة، كما عُلّق بذيلها شراع ضخم مثلث الشكل بدا وكأنّه يحوم فوق القمرة مثل طائر أبيض عملاق.

"مستحيل"، كرّرت تعليقها وهي تدور حول الميكرولايت محاولة استيعاب كلّ شيء. "هل يمكنك الطيران فعلاً بهذا الشيء؟".

أجاب فلين: "في الواقع، كانت ألكس هي الطيّار. ولكن أجل، أعرف تقريباً ما عليّ فعله. أعرف ما فيه الكفاية لنطير، بالتأكيد. أمّا ما إذا كنتُ أستطيع الهبوط مجدّداً...؟".

غمزها وبدأ يُصدر التعليمات، ويبيّن لفريا كيف تُعلّق صفيحتين من سعة عشرين ليتراً بالأكياس المتدلية من جانبَي القمرة، بينما يملأ الخزان الموجود تحت المقعد الأمامي من الصفائح الباقية.

سألته وهما يعملان، عاجزة عن تصديق ما هما على وشك فعله: "هل هذا الوقود سيكون كافياً؟".

أجاب: "تقريباً. فالخزان يتسع لنحو 49 ليتراً. وهي تستهلك حوالى 11 ليتراً في كلّ ساعة طيران، ونحن بحاجة إلى أربع ساعات للوصول إلى الجلف، لذا، سيكون الوقود شحيحاً، لا سيّما وأنّنا نستخدم الوزن الأقصى. يمكننا التزوّد بكمّية إضافية في أبو بلاّس، وهذا سيتيح لنا إنهاء الرحلة من دون مشاكل كثيرة".

سألته مرتابة: "ثمّة محطة وقود في الصحراء؟".

ابتسم، وبدا في تعبيره شيء من المكر، وكأنّه يستمتع بحيرتها. ثمّ قال وهو يغمزها مرّة أخرى: "ستعرفين كلّ شيء عندما نصل".

بعدما تمّ تزويد الميكرولايت بالوقود، وضعا أغراضهما داخل القمرة: الخريطتين، والكتاب، والمياه، والحقيبة، والبطانيات، وصندوق التبريد، ومحفظة فلين السوداء - وبالكاد تمكّنا من إيجاد متّسع لها جميعاً. ثمّ دفعا الطائرة إلى الخارج، وأصدرت إطاراتها المطاطية صوتاً ناعماً عندما تدحرجت على أرض الصحراء.

كان ثمّة خوذتان على المقعدين، مع سمّاعتين مدمجتين وجهاز اتّصال داخلي. رمى واحدة لفريا، وساعدها على الجلوس على المقعد الخلفي، ثمّ ثبّت لها الحزام، ووصل سماعة الخوذة بمقبس بجانب ركبتها.

حشر نفسه في المقعد الأمامي، واعتمر خوذته، بينما مدّت فريا ساقيها إلى جانبيه، وكأنّها تركب خلفه دراجة نارية. قال: "المكان ضيق بعض الشيء، وأخشى عدم وجود مطعم على الطائرة. ولكن، إن استطعتِ التأقلم مع هذا الوضع، فستجدين أنّها ليست طريقة سيّئة للسفر".

قالت، وقد انتابها شعور بالتوتر والحماسة على حدٍّ سواء: "طالما أنّك لن تقتلنا، سأكون مسرورة".

نظر فلين إلى ساعته، كانت تشير إلى 1:39 بعد الظهر. ضغط على عدّة أزرار، وحرّك مفتاحاً في لوح القيادة، ثمّ ضغط على زر التشغيل. انتفض المحرك مرّة، ثمّ اثنتين، قبل أن يعمل، وأخذت المروحة تدور خلف رأس فريا. راح قميصها يخفق من تأثير الهواء الناتج عنها، مع أنّ خوذتها حجبت الجزء الأكبر من الضوضاء. نادته قائلة: "أأنت متأكّد من أنّك تعرف إلى أين سنذهب؟".

حرّك فلين يده اليمنى، وتناهى إليها صوته عبر الخوذة قائلاً: "إلى الجنوب الغربي، حتّى نصل إلى الجلف الكبير، ومن ثمّ جنوباً على طول الطرف الشرقي إلى أن نعثر على الصخرة. ينبغي ألاّ يكون الأمر شديد الصعوبة".

"وهل أنت متأكّد تماماً من أنّك تعرف كيف تحلّق بهذا الشيء؟".

أجاب وهو يدفع رافعة مثبّتة على المقعد بجانبه: "أظنّ أنّ علينا اكتشاف ذلك". ارتفعت عجلات الطائرة وبدأت تتحرك، لتنزلق بسلاسة فوق الرمال باتّجاه أعشاب الصحراء التي اختبأت خلفها فريا في أثناء هروبها من الواحة. بعد مئة متر، انعطف فلين، وهو يوجّه الطائرة بقدميه، وعاد نحو المخزن مجدّداً. شرح قائلاً، وهو يطرق على إحدى الإبر الموجودة على لوح القيادة أمامه: "علينا رفع حرارة الزيت إلى 50 درجة، وإلاّ سيتوقف المحرك عن العمل".

كرّر الدورة لبضع دقائق، يروح ويجيء فوق الرمال، إلى أن أشارت الإبرة أخيراً إلى الحرارة المناسبة. قام فلين بدورة أخيرة أمام الحظيرة، ثمّ توقّف ليتحقّق للمرّة الأخيرة من بعض الأمور، قبل أن يلتفت إليها ويقول: "هل أنت جاهزة؟".

رفعت فريا إبهاميها. هزّ رأسه، ثمّ التفت إلى الأمام مجدّداً، وقبض على ذراع التحكّم المتدلية من الشراع فوقه، ووجّه الصمام الخانق إلى الأمام.

قال ممازحاً: "خطوط بيغي الجوية ترحب بكم على متن هذه الرحلة غير المقرّرة إلى الجلف الكبير. سنطير على ارتفاع...".

لم يستطع قول المزيد. فما أن بدأت الطائرة تسرع، حتّى سمعا حركة إلى يمينهما. مثل فلينة تُنتزع من زجاجة شراب، خرجت سيارة هوندا سيفيك خضراء اللون، ملوثة بالوحل، تظهر عليها بشدّة آثار الصدمات، من بين الشجيرات، وأخذت تنزلق بجنون فوق الرمال قبل أن تصحّح مسارها وتتوجه مباشرة نحوهما، بينما ضغط سائقها على البوق بغضب عارم. كان من الصعب رؤيته بوضوح، مع أنّه حتّى من هذه المسافة بدا رجلاً طويل القامة، وبدا أنّ جسده يملأ مقدمة السيارة بأكملها. توتّرت عضلات فلين وشدّ يديه حول ذراع التحكّم، وصدر صوته من خلال السماعات.

"أنغلتون!".

لم يكن سايروس يتحدّث العربية بطلاقة، ذلك أنّ اللغات لم تكن قط من إحدى مهاراته، لذلك كان محظوظاً لأنّ الشابّة في متجر كوداك في قرية القصمون كانت تجيد الإنكليزية إلى حدّ معقول. لا بل كان حظّه مضاعفاً، لأنّ المرأة لم تتمكّن من التواصل معه فحسب، بل زوّدته أيضاً ببعض المعلومات المفيدة. فقبل خمس عشرة دقيقة، وبينما كانت تفتح متجرها بعد الغداء، مرّ جيب أبيض اللون وانعطف على الطريق المؤدّي إلى الواحة الصغيرة. وكان فيه شخصان، على حدّ قولها، رجل وامرأة. وهي متأكّدة من أنّ المرأة كانت الشابّة الأمريكية التي زارت المتجر قبل ليلتين. سألها أنغلتون ما إذا كانا قد رجعا، فأجابت صاحبة المتجر بالنفي، على حدّ علمها. وسألها ما إذا كان ثمّة طرقات أخرى تؤدّي إلى الواحة ومنها. إلاّ أنّها نفت ذلك وأكّدت أنّ ثمّة طريقاً واحداً فقط مؤدياً إليها.

قال لها: "ممتاز!".

استقلّ السيارة المستأجرة مجدّداً، وأسرع عبر الصحراء، بينما راحت سيارة الهوندا تعلو وتهبط على الطريق الوعر، وتثير سحباً من الغبار خلفها وكأنّها مشتعلة. وصل إلى الواحة، وضغط على دوّاسة السرعة، وتوقف أمام منزل الكس. لم يجد أثراً للشيروكي. فخرج، وقام بجولة حول المبنى، لكنّه لم يجد شيئاً.

نادى قائلاً: "برودي!"، وأدخل يده إلى سترته، ليقبض على زناد ميسي. "هل أنت هنا؟".

لم يأته أيّ ردّ.

"تبّاً!".

عاد إلى واجهة المنزل، وفتح الباب ودخل. رأى أدراجاً مفتوحة في غرفة النوم، والمطبخ، والمكتب. لا بدّ من أنّ أحدهم كان يحزم حقائبه، وبسرعة، كما يبدو.

قال بصوت عال: "لا يمكن أن يكونا... ليس بمفردهما، مستحيل".

عاد إلى الخارج، ونظر إلى ساعته. كان متأخّراً عنهما خمس عشرة دقيقة. ولا بدّ من أنّهما أمضيا عشر دقائق منها على الأقلّ في المنزل. إن كانا متوجهَين فعلاً إلى الصحراء، يجب أن يكون ما زال قادراً على إيجادهما. مع ذلك، كان بحاجة إلى الصعود إلى نقطة مشرفة يستطيع رؤية المكان منها. نظر حوله، ورأى سلّماً خشبياً بالياً مسنداً على جانب المبنى. فاتّجه نحوه وبدأ يصعد. تهاوت الدرجة الأولى تحت ثقله، أمّا الثانية فصمدت، مصدرة أنين احتجاج، فتابع صعوده، بينما أخذ وجهه يتصبّب عرقاً، وأصبحت أنفاسه قصيرة تصدر بصعوبة. لم يكن يمارس رياضة من أيّ نوع، ولم يسبق له أن فعل. وما كان بالنسبة إلى الشخص العادي صعوداً طبيعياً، يتطلّب منه مجهوداً جسدياً كبيراً ينطوي على وقفات متكرّرة ليريح رئتيه وعضلاته من مجهود رفع كلّ هذا الثقل إلى الأعلى.

ظلّ يكرر وهو يلهث: "يا الله! يا الله!".

نجح في نهاية المطاف، ووصل إلى السطح، وتوجّه إلى طرفه. حجب عن عينيه أشعة شمس ما بعد الظهيرة الساطعة، وحدّق إلى الصحراء، يمسح الرمال بحثاً عن الشيروكي؛ لا شيء.

تمتم قائلاً: "أين أنت أيّها النذل؟".

لدقيقة من الزمن، ظلّ نظره يتنقّل جيئة وذهاباً فوق كثبان الرمال. وفجـأة، وكأنّه تلقّى ضربة على رأسه، استدار.

"ما هذا...؟".

من مكان ما خلفه، سمع هدير محرك يمزّق صمت ما بعد الظهيرة. فأسرع قدر استطاعته إلى الطرف المقابل من السطح، وأجال نظره عبر أرجاء الواحة محاولاً تتبّع مصدر الصوت. رأى في البداية حظيرة في الطرف الجنوبـي للمساحة المزروعـة، وبعد جزء من الثانية، وقع نظره على شراع كبير مثلث الشكل يتحرك فوق الرمال مسطحة وراء الحظيرة.

صاح قائلاً: "أيّها النذل! أيّها النذل الإنكليزي الأحمق!".

انتزع ميسي من تحت سترته، وفتح صمّام الأمان، ووضع إصبعه حول الزناد، مستهدفاً الميكرولايت. ثمّ فكّر مجدّداً، وأعاد المسدس إلى قِرابه. فإطلاق النار مـن هذه المسافة هو عمل خطر. ليس هذا فحسب، بل إن عرفا أنّ شخصاً ما يُطلـق عليهما النار، فسيقلعان على الفور، وستضيع فرصته. عليه النـــزول إلى هنـاك، والاقتراب أكثر.

كانت الميكرولايت قد استدارت، وبدأت تنـزلق باتجاه الحظـيرة. إنّهمـا يرفعان حرارة زيت المحرك، هذا ما يفعلانه، وسيستغرقان بضع دقائق على الأقـلّ. عاد أدراجه على السطح، ونـزل السلّم وهو يلهث. عنـدما وصـل إلى الأرض، اتّجه نحو السيارة المستأجرة وحشر نفسه بداخلها. إن كان ثمّة طريق أو ممرّ يؤدّي من المنـزل إلى الحظيرة، فهو لم يره من الأعلى، ولن يُضيع الثواني الثمينة بحثاً عنه الآن. عوضاً عن ذلك، وضع مبدّل السرعة على السرعة الأولى، وبينمـا راحـت العجلات تدور فوق الأرض الرملية، اندفعت السيارة أمام المنـزل واتّجهت مباشرة بين الحقول خلفه، تشقّ طريقها إلى الصحراء. حالما وصل إلى الرمال، حوّل المقود يساراً، فانحرفت السيارة على شكل قوس كبير، قبل أن تستقيم وتُسرع بمحـاذاة محيط الواحة. قطع مسافة خمس مئة متر قبل أن يظهر أمامه فجأة خنـدق عميـق أجبره على الانحراف يساراً عبر الأشجار من جديد. دخل حقلاً آخـر، وسـلك طريقاً للماشية قاده حول بستان زيتون، قبل أن يدخل عبر سـتارة صـلبة مـن الشجيرات التي يصل ارتفاعها إلى الرأس. دفع الزخم بالسيارة عبرها بطريقـة مـا

حتّى وصل إلى الجهة المقابلة ليخرج إلى الصحراء مجدّداً. رأى إلى يساره الحظيرة، وأمامها شراع الميكرولايت الأبيض. أعاد إحكام سيطرته على الهوندا وأسرع نحوهما، موجّهاً عجلة القيادة بإحدى يديه، بينما سحب ميسي باليد الأخرى، وضغط على البوق.

صاح قائلاً: "آه! كلاّ، لا تفعل هذا أيّها الوغد! العم سايروس يريد التحدّث إليك".

داخل قمرة القيادة المفتوحة، دفع فلين الصمّام الخانق إلى الأمام بالكامل. وقبض على ذراع التحكّم بكلتا يديه، بينما راح نظره يتنقّل من السيارة إلى مؤشّر السرعة على لوحة أجهزة القياس، ومنه إلى السيارة مجدّداً. كانت الهوندا متّجهة إلى نقطة أمامهما مباشرة بهدف إعاقة خطّ الإقلاع كما بدا واضحاً. فحوّل مقدمة الطائرة يساراً، في محاولة منه لاكتساب مسافة إضافية. سرعان ما بدأت سرعة الطائرة تتضاعف، وتندفع فوق الرمال، ولكنّ السيارة كانت أسرع، أسرع بكثير. حيث التهمت المسافة الفاصلة بينهم، واقتربت منهما أكثر فأكثر.

صاحت فريا، وامتدّت يداها بشكل تلقائي لتمسكا بكتفَي فلين: "لن ننجح!".

صرّ على أسنانه، وركّز على المساحة الرملية الممتدّة أمامه. إلاّ أنّ السيارة ظلّت تلوح وتزداد حجماً في مجال رؤيته المحيطية إلى أن بدا محتوماً أنّ الآليّتين ستصطدمان.

صاحت قائلة: "سيصطدم بنا".

ظلّ في مكانه لبضع ثوانٍ أخرى مثيرة للأعصاب، ثمّ في اللحظة الأخيرة، دفع ذراع التحكّم إلى الأمام، وارتفعت الميكرولايت برشاقة في الجو، فوق سيارة الهوندا التي مرّت مباشرة من أمامهما. مرّت عجلات الطائرة فوق السيارة من على مسافة لا تتجاوز بضعة سنتيمترات كما بدا.

صاح فلين: "تبّاً لك أيّها السمين!" ثمّ دفع الذراع أكثر إلى الأمام، وأمالها يساراً لترتفع الميكرولايت وتميل جانبياً. تحتهما، توقّفت السيارة، وترجّل سائقها وهو يصيح فيهما، ويلوّح بمسدسه. طغى هدير المحرك على صوته، ومع أنّه أطلق

بضع رصاصات، إلاّ أنّها كانت بفعل الإحباط كما بدا وليس بنيّة إصابتهما. طارت الرصاصات لمسافة بعيدة، وأخذ شكله المستدير ينخفض مبتعداً، بينما ارتفعا في السماء، وحلّقا فوق الصحراء.

سألته فريا وهي تُطلّ للنظر إلى الرجل الذي كان يطاردهما، والذي ما زال يلوّح بيديه: "من كان ذلك الرجل بالله عليك؟".

أجاب فلين: "رجل يدعى سايروس أنغلتون، يعمل في السفارة الأمريكيّة. يبدو أنّه كان يتعقّبنا ويزوّد جرجس بالمعلومات".

"وهل تظن أنّه سيلحق بنا؟".

"بسيارة هوندا سيفيك؟ أودّ رؤيته يحاول".

أمال الطائرة يساراً، ثمّ مدّ يده ورفع إصبعه نحو أنغلتون.

صاح قائلاً له: "أراك في الجلف!"، قبل أن يستقيم مجدّداً، ويوجّه الطائرة نحو الجنوب الغربي فوق رمال الصحراء. السيارة، والحظيرة، والواحة، والداخلة تراجعت جميعها خلفهما إلى أن اختفت و لم تعد تظهر سوى كثبان الصحراء اللامتناهية.

على الأرض، راقب أنغلتون الميكرولايت، إلى أن تضاءلت إلى بقعة دقيقة غير محدّدة. فهزّ رأسه، وأعاد ميسي إلى قِرابه، وحشر نفسه في السيارة. جلس للحظة يحدّق إلى الصحراء، ووجّه لكمة إلى لوحة أجهزة القياس وهو يكرّر: "أيّها الأحمق، أيّها الإنكليزي الأحمق المغفّل". ثمّ شغّل المحرك، وعاد أدراجه إلى مطار الداخلة. حان الوقت للكفّ عن اللهو. حان الوقت لتولّي أمر مولي كيرنان.

القاهرة

وضع روماني جرجس الهاتف اللاسلكي جانباً وشبك ذراعيه، وهو يتأمّل الحديقة الممتدّة خلف قصره.

"إذاً، هكذا؟ أصبحا في الجو".

بجانبه، سعل بطرس صلاح بقوّة ثمّ تابع تدخين سيجارته.

"هل أنت متأكد من أنك تريد فعل ذلك، روماني؟ لماذا لا تدع...".

"أنا لم أنتظر ثلاثة وعشرين عاماً لأجلس الآن على المقعد الخلفي. أريد أن أكون هناك، وأن أرى هذا الشيء بأمّ عيني".

أومأ صلاح برأسه، وأخذ نفساً آخر من سيجارته.

قال: "سأخبر عثمان وقصري".

"التوأم؟".

همهم صلاح.

"ما زالا يلعبان السنوكر. سأرسل بطلبهما. أيّ خبر عن...".

قاطعه جرجس مجيباً: "يجري حلّ الموضوع ونحن نتحدّث. لن يسبّب مشكلة لوقت أطول".

هزّ صلاح رأسه موافقاً، واختفى داخل المنزل. وقف جرجس مكانه للحظة مفكّراً في الرحلة التي قطعها حتّى وصل إلى هذه المرحلة، وكم صعد للابتعاد عن تلك السنوات القاهرة والمعذّبة في منشية ناصر. وبابتسامةٍ مَن أوشك حلمه أخيراً على التحقّق، بدأ ينزل درج الشرفة باتجاه المروحية التي تنتظره عند الأعشاب.

فوق الصحراء الغربية

عرفت أنّ شقيقتها قُتلت. هي نفسها تعرّضت للمطاردة، وإطلاق النار. وأوشكت على أن تُشوّه. ولكن مع ذلك، كانت الرحلة فوق الصحراء من أروع التجارب التي مرّت بها فريا في حياتها، وتركت فراغ الصحراء العارم يشتّت همومها ومخاوفها الأخرى، ويتركها في هدوء وسلام غريبين.

طارا على مسافة منخفضة، لا تتجاوز مئتي متر فوق الرمال. كان الهواء على تلك المسافة أكثر برودةً من على مستوى الأرض، لكنّه ظلّ دافئاً، يهبّ على وجهها وصدرها وكأنّها تقف أمام مجفّف شعر عملاق. حولهما، امتدّت الصحراء على مرمى النظر؛ برية، شاسعة، مترامية الأطراف، من الصخور والرمال، قاحلة على نحو غريب. شعرت وكأنّهما انتقلا إلى عالم آخر، أو زمن مختلف تماماً في عالمنا: حقبة بعيدة عن

نحو لا يمكن تصوّره، ذبلت فيها الحياة على الكوكب و لم يبقَ سوى هيكل الأرض العظمي الأجرد. كان ثمّة شيء فظيع فيه، كاسح، كيلومتر تلو آخر من الأراضي المقفرة. إلاّ أنّ المشهد كان جميلاً، جميلاً على نحو يخطف الأنفاس، بأمواجه الرملية الشاهقة، وتكويناته الصخرية الملتوية التي امتازت بعظمة لا يمكن حتّى لأروع التحف البشرية أن تجاريها. ومع أنّ المشهد بدا خالياً من الحياة، إلاّ أنّهما كلّما طارا لمسافة أبعد، شعرت فريا أنّ القصّة لم تنتهِ في الواقع. شعرت بأن الصحراء كانت بحدّ ذاتها مفعمة بالحياة. إنها كائن عملاق واعٍ، تشير ألوانه المتغيرة، الصفراء الباهتة تارة، والحمراء الشاحبة تارة أخرى، هنا أبيض ساطع، وهناك أسود قاتم، إلى تغيّر الأمزجة وأنماط التفكير. كما أنّ تنوّع الأشكال - كثبان تنخفض إلى مسطّحات من الحصى، ومسطّحات ملح ترتفع إلى تلال صخرية - يعطي إحساساً مثيراً للأعصاب أنّ المشهد يتحرك، ينقبض ويتمدّد، ويمرّن عضلاته.

تعاقبت المشاعر في نفس فريا؛ العجب، والرهبة، والخوف، والنشوة. والأهمّ من ذلك كله أنّها أحسّت بشعور قوي من الارتباط بأختها والتوق إليها. كان هذا عالم ألكس، والبيئة التي اتخذتها لنفسها، وكلما غاصا فيها، شعرت فريا أنّها تقترب من شقيقتها المُبعدة. مدّت يدها إلى جيبها، وأخرجت الصورة الشمسية التي أخذتها عن الطاولة الموضوعة قرب سرير ألكس، وآخر رسالة من شقيقتها، وكانت قد نقلتها من سروالها القديم حين غيّرت ملابسها في الليلة السابقة. أمسكت بهما في حضنها وابتسمت، فيما راحت الصحراء، بألوانها الكئيبة، تمرّ ببطء تحتها.

بعد نحو ساعتين من الطيران، وكانت الشمس قد بدأت تنزلق تدريجيّاً باتّجاه الأفق الغربي، هبط بهما فلين على بقعة مسطّحة مكسوّة بالحصى بجوار تلّة صغيرة مخروطية الشكل. لاحظت فريا وهما يتقدّمان أنّ سفوح التلّة السفلية كانت مغطّاة بكِسَر كبيرة من الفخار.

أوضح لها فلين وهو يوقف عمل المحرك، وينزع خوذته، قبل أن يترجّل من الميكرولايت: "أبو بلاّس، وتُعرف أيضاً لأسباب بديهية بتلّ الفخار".

نزعت فريا خوذتها ونفضت شعرها. وبدا لها أنّ الحرارة ترتفع على نحو كبير مع تباطؤ المروحة خلفها. مدّ فلين يده وساعدها على الخروج.

قال وهو يومئ برأسه نحو تلال الفخار المحطّمة: "لا أحد يعـرف مصـدرها بشكل دقيق. من المتفق عليه عموماً أنّها كانت جزءاً من خزّان مياه لغزاة تيبو من جنوب ليبيا. وثمّة نقوش صخرية مثيرة للاهتمام ترجع إلى ما قبل التـاريخ علـى الجانب الآخر، ولكن، أظنّ أنّ علينا تركها لزيارة أخرى".

أخذت فريا تمدّد عضلاتها وتنظر حولها، وهي تتأمّل كِسَر الفخار، والتـلّ، والكثبان الممتدّة خلفها، وكان كلّ شيء أجرد، وساكناً، وقاحلاً تماماً.

"أعتقد أنّك قلت إنّنا سنتزوّد هنا بالوقود".

"بالفعل".

"إذاً، أين...؟".

"مضخّة الوقود؟"، ابتسم، وأشار بيده إلى كومة من كِسَر الفخار على مسافة قريبة من التلّ. بدت وكأنّها جُمعت بشكل متعمّد في كومة صـغيرة، ووُضـعت على قمّتها صفيحة معدنية مقلوبة.

قال: "محطّة أبو بلاّس للوقود". ركع على ركبتيه، وأخرج كسرة كبيرة على شكل مجرفة من الكومة. استعان بها لإبعاد الرمال جانباً، وحفر إلى أن ارتطم بشيء معدني.

أوضح قائلاً: "إنّها خدعة تعلّمناها أنا وألكس من مستكشفي الصحراء في القرن العشرين"، مسح الغبار عن الشيء بيده، وكشف الجزء العلـوي مـن صفيحة معدنية كبيرة. "نتركين خزّانات وقود على خطّ سفرك، احتياطـاً في حال بدأ الوقود ينفد من الطائرة. ثمّة ثلاث صفائح سعة عشرين ليتـراً هنـا. سنستخدم واحدة، ونترك الصفيحتين الأخريَين في حال نفد منّا الوقود في رحلة العودة، مع أنّه بما لدينا أساساً من وقود احتياطي لا ينبغي لنـا أن نواجـه أيّ مشاكل".

أخرج الصفيحة من تحت الرمال، ونقلها إلى الطـائرة. أفـرغ محتوياتهـا في الخزّان، وعبق الهواء بأبخرة البنـزين اللاذعة. فور انتهائه، أعطى فريـا الصـفيحة الفارغة، وطلب منها دفنها مجدّداً، قائلاً لها: "سأعيد ملأها عندما أمرّ من هنا مـرّة أخرى"، وانشغل بتفحّص الخريطتين اللتين أحضرهما من منـزل ألكس. فتحهمـا على الأرض ووضع أحجاراً على زواياهما، ثمّ انكبّ عليهما.

قال عندما انضمّت إليه: "أبو بلاّس"، وأشار إلى الخريطة الأكبر، إلى مثلث أسود صغير وسط مساحة صفراء خالية. "وهذا هو المكان الذي سنتوجّه إليه".

مرّر إصبعه بشكل منحرف فوق الخريطة، إلى مساحة تحوّل فيها الأصفر إلى بنّي شاحب، تحت عبارة "هضبة الجلف الكبير"، وأعطى فريا الوقت للاستيعاب قبل أن يضع الخريطة الثانية فوق الأولى. كانت هذه الخريطة تصوّر الجلف نفسه على مقياس: 1:750.000، فبدا أشبه بجزيرتين كبيرتين، واحدة إلى الشمال الغربي من الأخرى، يربط بينهما برزخ ضيق، وعدد من الجزر الصغيرة المبعثرة عائمة حولهما. وكانت سواحلهما، إن أمكن تسميتها كذلك، خشنة ومكسورة، منقوبة بوديان عميقة وملتوية، ومحاطة بمجموعات صغيرة من الكلمات التي تحدّد أسماء أشكال وتكوينات غريبة: النهدين، القلاع الثلاث، بيتر وبول، حفّارو كلايتن، فجوة العقبة، جبل العوينات.

قال فلين، مشيراً إلى سلسلة من الأودية التي تنحدر كالسلّم على طول الواجهة الشرقية للكتلة الواقعة إلى الجنوب: "وادي البخت. إن كان زاهر على صواب، ينبغي ألاّ يكون العثور على الصخرة صعباً جدّاً؛ ثلاثون كيلومتراً جنوب البخت، عند ثلاثة أرباع المسافة الفاصلة بين ذلك المكان والأجراس الثمانية".

لمس بإصبعه ما بدا وكأنّه سلسلة من ثماني حزر صغيرة تمتدّ قبالة الجهة السفلية من الجلف.

سألته فريا وهي تنظر إليه: "وإن لم يكن على صواب؟".

ثنى فلين الخريطتين ووقف قائلاً: "سنعبر ذلك الجسر عندما نصل إليه. في الوقت الحاضر، لنذهب إلى هناك وحسب".

تحقّق من ساعته: 3:50 بعد الظهر.

"علينا فعل ذلك بسرعة، فأنا لا أريد أن أُضطرّ إلى الهبوط في الظلام. هل تريدين الذهاب إلى غرفة السيدات؟".

رمقته بنظرة وهزّت رأسها نافية.

"إذاً، لننطلق".

حلّقا لمدّة ثمانين دقيقة أخرى، وكانت الشمس تغوص سريعاً في الأفق، والجو يزداد برودة على نحو ملحوظ. سُرّت فريا بالطبقة الإضافية من الملابس التي ارتدياها قبل مغادرة أبو بلاّس. بدت الصحراء أكثر جمالاً ممّا كانت عليه في الجزء الأوّل من رحلتهما، إذ ولّدت أشعة الشمس الغاربة ترسانة كاملة من الألوان الصفراء والبرتقالية وعدة درجات مختلفة من الأحمر، لتُضفي الظلال التي راحت تزداد طولاً جواً أكثر حدّة ودراماتيكية على المشهد. مرّا فوق بحار من الكثبان الرملية الشاهقة، وبحيرات شاسعة من الحصى الأبيض المسطّح، وغابات بدائية وغريبة من الصخور المحطّمة، وراحا يسبران أغوار تلك الصحراء الغامضة. أخيراً، ومع توازن الشمس فوق خط الأفق تماماً، لاح حزام ضبابي أحمر اللون أمام خط طيرانهم، وحام أمامهما مثل بخار يتصاعد من سطح الصحراء، فأشار إليه فلين.

تناهى صوته عبر سماعة الخوذة: "الجلف الكبير. كان معروفاً باسم دجر لدى المصريين القدماء؛ الحدود، نهاية العالم".

عدّل مسار الطائرة قليلاً، وارتفع بها على علو أكبر، ووجّهها أكثر نحو الجنوب. اقترب الضباب أكثر، وبدا أنّه يتمدّد ويزداد كثافة كلّما اقتربا منه. وألوانه تهتزّ وتتغيّر تحت شمس الغروب ليتحوّل الأحمر إلى البنّي، والبنّي إلى أصفر برتقالي باهت. أخيراً، ومثل جنّيّ يخرج من فانوس، اجتمعت لتكوّن شكلاً واضحاً: هضبة هائلة ترتفع ثلاث مئة متر فوق سطح الصحراء وتترامى على مدّ النظر باتّجاه الشمال، والجنوب، والغرب. في بعض الأماكن، كان وجهها شديد الانحدار، جداراً منيعاً من الصخور الصفراء المغبرّة، بينما تجمّعت الرمال بلطف عند القاعدة مثل أمواج ترتطم بسفينة. وانقبضت في أماكن أخرى، واخترقتها وديان وخنجان عميقة، لتتحوّل الجروف إلى رفوف صخرية ومنحدرات من الحصى. وتصبح بدورها أرخبيلات مختلطة من الهضاب وتلال الحصى. بدا أنّ الهضبة بأكملها تتعثّر في الصحراء في سلسلة من الخطوات الهائلة وغير المتوازنة. استطاعت فريا رؤية بقع بعيدة من النباتات - لطخات من الأخضر على خلفية صفراء - ومع اقترابهما أكثر، رأت طائراً أيضاً. بالكاد يمكن القول إنّ الجلف يعجّ بالحياة، ولكن مقارنة بالمساحات الجرداء التي حلّقا فوقها، بدا أكثر حيوية.

كانت خريطة الجلف مطوية في حضن فلين حيث لا يظهر منها سوى الجزء الجنوبي الغربي من الهضبة. اقترب بالطائرة أكثر من الجروف، ثمّ استدار جنوباً، وطار على خط موازٍ للكتلة الصخرية وفوقها بعض الشيء، وراح يحرّك ذراع التحكم بيده اليمنى وهو يحمل الخريطة باليسرى، ويرسم مسارهما بإصبعه على سطحها. مرّت عشر دقائق، غاصت خلالها الشمس في الأفق إلى أن لم يعد يبدو منها سوى طرفها الأعلى، وتلوّنت السماء الغربية بدوّامات خضراء وأرجوانية لامعة. ثمّ أشار فلين إلى الأمام والأسفل، إلى وادٍ عريض ومسدود بالرمال ظهر فجأة على سطح الجلف.

وصلها صوته وهو يقول: "وادي البخت". مال يميناً واتّجه مباشرة إليه. امتدّ الوادي شرقاً وبعيداً عن الأنظار، يشقّ سطح الجلف وكأنّ أحدهم حفر شقاً في الصخر. "لم يبقَ الكثير، مجرّد ثلاثين كيلومتراً أخرى، أقلّ من عشرين دقيقة. أبقي عينيكِ مفتوحتين".

ابتعد مجدّداً عن الجلف، وهبط حيث أصبحا تحت قمّة النجد. تابع الطيران جنوباً، بينما ارتفعت الجروف الصخرية إلى يمينهما، لتبدو الطائرة وكأنّها يعسوب يطنّ بجوار ناطحة سحاب. كانت الصحراء أمامهما ناعمة وخالية، تتموّج بلطف بكثبان الرمال، مجرّدة من المعالم. كان ينبغي لهما أن يريا التكوين الصخري بسهولة، حتّى مع غروب الشمس وازدياد الشفق كثافة حولهما. مرّت عشرون دقيقة، خمس وعشرون، وعندما بدا أمامهما إلى الجنوب خط من التلال مخروطية الشكل، هزّ فلين رأسه وبدأ يعود أدراجه.

"هذه هي الأجراس الثمانية، لقد ابتعدنا جدّاً. لا بدّ من أنّنا فوّتناها".

قالت فريا وهي تغلق أزرار سترة أختها حتّى العنق، اتّقاءً للبرد المتزايد: "غير ممكن، فالصحراء خالية تماماً، لكنّا رأيناها".

هزّ فلين كتفيه وعاد شمالاً، يحلّق على ارتفاع أكثر انخفاضاً. مسح الاثنان الصحراء الممتدّة تحتهما مسحاً، بحثاً عن أيّ لمحة للصخرة مقوّسة الشكل مع انحسار الضوء المتبقّي وتلاشي النجد الممتد إلى يسارهما إلى كتلة رمادية ضبابية بلا معالم.

مرّت عشر دقائق أخرى وبدا لهما أنّه من الأفضل إيقاف عملية البحث لتلك الليلة والهبوط قبل أن يخيّم الظلام التام. وفجأة، أطلق فلين صيحة حماسة.

صاح وهو يلوّح بيده يميناً: "هناك!".

لم تعرف فريا كيف فاتتهما من قبل. عرفت الصخرة من ذاك المكان، ومع أنّ الظلام بدأ يلفّها الآن، إلاّ أنّها ما زالت ترتفع أعلى من أيّ نقطة أخرى في الخلف. لم يكن ثمّة أيّ أثر للصخرة في المرّة الأولى التي مرّا فيها من ذلك الطريق. مع ذلك، ها هي الآن تحتهما، واضحة تماماً فوق سطح الصحراء الشاحب: برج مقوّس شاهق من الصخر الأسود يرتفع من الرمال الخالية حوالى عشرة أمتار، مهيمناً على ما يحيط به. لم تستطع حتّى أن تخمّن أيّ قوى جبّارة في هذه الطبيعة شكّلته ورفعته، وتركته هناك وحيداً، وسريالياً، مثل ضلع عملاق خرج من الصحراء. إلاّ أنّها لم تكترث بمعرفة الجواب. فكلّ ما يهمّ هو أنّهما عثرا عليها. ربتت على كتف فلين لتُعلِمه بأنّها رأتها، ونظرت إلى الأسفل وهو يوجّه الطائرة في قوس حول الصخرة، يمسح الصحراء بحثاً عن مكان يهبط فيه. كان من المستحيل الحكم على وضع السطح الممتدّ تحتهما بدقّة، بعد أن تحوّل العالم إلى ضباب قاتم. بدا المكان مسطّحاً تماماً وصلباً، وبعد أن قام فلين بعدّة دورات بحثاً عن أيّ عوائق واضحة. أوقف المحرك عن العمل، وأغلق الصمام الخانق، وهبط حتّى ارتفاع بضعة أمتار عن الأرض. دفع ذراع التحكّم بلطف إلى الأمام، وحطّت الطائرة من دون صدمات تقريباً، لتنزلق فوق الرمال وتتوقّف أمام الصخرة مباشرة.

قال وهو يضغط على أزرار الكهرباء: "أهلاً بكِ وسط المجهول. نتمنى أن تكوني قد استمعت برحلتك".

اكتفيا بالجلوس مكانهما لبرهة، بينما توقّفت المروحة ببطء خلفهما، ليخيّم عليهما الصمت؛ لم يسبق لفريا أن عرفت صمتاً عميقاً، وثقيلاً، وكاسحاً إلى هذا الحدّ. وبعدما فصلا أسلاك الاتصال الداخلي ونزعا خوذتيهما، ترجّلا من القمرة، ومشيا نحو مقصدهما.

لاحت قمة الصخرة المقوّسة والمستدقّة بلطف فوقهما، وبدت الصخرة السوداء التي تكوّنت منها - سبج؟ بازلت؟ - أكثر غرابة ورهبة بعد أن اقتربا منها.

تمتم فلين وهو يتأمّل القمّة على بُعد عشرة أمتار فوقهما، والتي بدت تحت سماء الليل أشبه بطرف ناب عملاق: "لا أصدّق أنّني لم أرَ هذه من قبل. لا بدّ من

ّني حلّقت فوق هذه المنطقة عشر مرّات، وقدتُ السيارة فيها مرّات عديدة أيضاً. من المستحيل أن تكون قد فاتتني، مستحيل".

تجوّلا حول الصخرة، ومرّرا أيديهما على سطحها الذي كان لا يزال دافئـاً مع أشعة شمس النهار، وناعماً على نحو غريب، تقريبـاً كالزجـاج. عـادا إلى الطائرة، ووقفا يحدّقان إلى الأعلى، الجلف إلى يسارهما، والقمر البرتقـالي الـذي يصعد ببطء إلى يمينهما.

سألته فريا: "إذاً، ماذا سنفعل الآن؟".

"ننتظر".

"ننتظر ماذا؟".

"الشروق. شيء ما يحدث هنا عند شروق الشمس".

نظرت إليه؛ بالكاد كان وجهه مرئيّاً، بارز العظام ووسيماً ومظلّلاً.

سألته: "ماذا يحدث؟".

عوضاً من الشرح، استدار نحو الميكرولايت، وبحث في القمرة، ثمّ عاد بمصباح يدويّ من ماركة ماغليت والكتاب الذي أخذه من منـزل ألكس. كان قد وضع علامة على صفحة في منتصف الكتاب تقريباً. فتح الكتاب، وأعطى فريـا إيـاه، وأضاء المصباح.

قال وهو يسلّط ضوءه على الصفحة: "خِبري، السيّد المبجّل لشروق الشمس. هل لاحظتِ شيئاً؟".

كانت ترى أمامها صورة لشخص جالس، مصوّر جانبياً، يحمل رمـز عـنخ بإحدى يديه وعصا باليد الأخرى. ومع أنّ الجسد كان بشرياً، إلاّ أنّ الكـتفين لم يكن يعلوهما رأس ووجه، بل خنفساء جُعل سوداء كبيرة، يبلغ جسدها البيضاوي ذروة ارتفاعه في زوج من...

"الساقان"، قالت ذلك وهي تلمس بإصبعها الأطراف المقوّسة التي ترتفع من جانبي رأس الخنفساء. "تبدو تماماً مثل...".

"بالتحديد"، قال فلين وهو يرفع المصباح ويمـرّر ضـوءه علـى طـول القوس الحجري الذي ينحني فوقهما: "الله أعلم كيف، لكنّ هـذه الصـخرة تمكنت لتصبح مطابقة تقريباً لشكل قائمة الخنفساء الأمامية. أمر لا يصـدّق،

انظري، حتّى إنّ لديها الأشواك التي تستخدمها الخنفساء للحفر والقبض على الأشياء".

مرّر ضوء المصباح على الجزء العلوي من الصخرة. كان سطحها خشناً ومسنّناً على نحو شبيه بالنتوءات الشائكة البارزة من قوائم الجعل في الصورة.

تابع قائلاً: "أيّ مصري قديم رأى هذه الصخرة سيربط بينها وبين الصورة على الفور. ونحن نعلم أساساً بوجود علاقة وثيقة بين خبري والواحة؛ تذكّري النص المنقوش على الحجر في أبيدوس: *عندما يفتح خبري عينه، تُفتح الواحة! وعندما يُغمض عينه تصبح الواحة غير مرئية، حتى بالنسبة إلى باز حاد البصر*. غير أنّه كان ثمّة شيء مفقود، جزء حيوي في المعادلة. وجدتِه أنت عندما عرفتِ صورة الصخرة على اللوح الحجري. يبدو أنّه حين تتحدّث النصوص القديمة عن عين خبري، فهي لا تستخدمها بمعنى مجازي فحسب، بل تشير إلى شيء محدد جداً: هذا".

نقل ضوء المصباح مجدّداً من أعلى الصخرة السوداء المنحنية إلى أسفلها.

"ليس لديّ فكرة كيف تترابط كلّ هذه الأمور ببعضها، كلّ ما أعرفه هو أنّه ثمّة تفاعل ما بين الصخرة، وشروق الشمس، والواحة. جميعها مترابطة بشكل ما. وهذا الترابط سيكشف مكان الواحة، أو على الأقلّ هذا ما آمله. لقد قطعنا مسافة طويلة لأكتشف في النهاية أنّني مخطئ".

تلاعب بضوء المصباح على الصخرة مجدّداً لبعض الوقت، ثمّ أطفأه.

قال: "هيّا، فلننصب خيمة".

القاهرة

واجهت طائرة ليرجيت مشكلة في أثناء التزوّد بالوقود، فحلّ الظلام قبل وصول أنغلتون أخيراً إلى القاهرة. أغرته فكرة التوقّف أو المرور بالسفارة للاستحمام وتناول الطعام، فقد تناول وجبته الملائمة الأخيرة عصر اليوم الفائت. لكنّ الوقت لم يكن في صالحه، فاستقلّ عوضاً من ذلك سيارة أجرة متوجّهاً مباشرة إلى منزل مولي كيرنان في ضواحي المدينة الجنوبية. لم يجد لها أثراً، فعله

سيارة الأجرة واتجه إلى مبنى وكالة الولايات المتحدة للتنمية الدولية، وهناك أخبره الحارس في مكتب الاستقبال - محمد شبرا، استناداً إلى البطاقة المعلّقة على قميصه - أنّ السيّدة كيرنان ما زالت بالفعل في المبنى، تعمل لساعة متأخّرة في مكتبها في الطابق الثالث.

همس أنغلتون: "أمسكتُ بكِ"، ودسّ يده في سترته وهو يتجه إلى المصاعد، من دون أن يلاحظ الحارس خلفه وهو يرفع هاتفه، ويطلب رقماً، ويهمس في السماعة.

كان الطابق الثالث مظلماً وخالياً، وكانت العلامة الوحيدة على وجود حياة فيه هي الخيط الرفيع من الضوء الصادر من تحت باب في نهاية الرواق. كان باب مكتب كيرنان. أخرج ميسي من قِراب الكتف، وتحقّق من أنّ صمام الأمان كان مغلقاً، ثمّ توجّه نحو الضوء، والعرق يتصبّب من جبينه بالرغم من أنّ نظام التكييف في المبنى لا يزال يعمل. وصل إلى الباب، ثمّ تحقّق مجدّداً من صمام الأمان، ورفع يده ليطرق، ثمّ خفضها. وعوضاً من ذلك، أمسك بقبضة الباب، وفتحه بعنف، ثمّ مدّ ميسي أمامه وخطا إلى داخل الغرفة. كانت مولي كيرنان جالسة إلى مكتبها أمامه. وهمت بالوقوف عندما رأته.

"هل أستطيع مساعدتك...؟".

صاح أنغلتون وهو يصوّب المسدس إلى صدرها: "اخرسي وارفعي يديكِ لأستطيع رؤيتهما. أظنّ أنّ الوقت قد حان لنتحدّث قليلاً".

مهبط الطائرات العسكرية في مساوي، واحة الخارجة

وقف روماني جرجس يراقب السيل المستمرّ من صناديق الألمنيوم التي يتمّ نقلها على العربات من الحظيرة إلى صفّ من مروحيات تشينوك سي إيتش 47. كان ثمّة رجل يرتدي بذلة بيضاء يدوّن كلّ صندوق على لائحة قبل أن يشير إلى المروحية التي ينبغي تحميله عليها. وكان كلّ شيء معموراً بضوء جليدي صادر من عدد من المصابيح المقوّسة الموزّعة في أرجاء المدرج. كما كان متوقعاً، كان كلّ

شيء يتحرك وكأنّها عملية عسكرية، إذ قام صفّ من الأشخاص بنقل الصناديق من الحظيرة إلى المروحيات، بينما انحنى آخرون فوق طاولات يتحقّقون من مجموعة كبيرة من الأسلحة؛ مسدسات براونينغ أم 1911، بنادق هجومية من طراز إكس أم 8، بنادق رشاشة صغيرة من طراز هاكلر أند كوخ أم بي 5، SAWS م 249، وحتّى مدفعا هاون من طراز أم 224. وكانت تلك هي الأسلحة التي تعرّف إليها وحسب. تساءل جرجس أكثر من مرّة ما إذا كانت لازمة حقّاً، وما إذ كانوا يبالغون: كلّ هذه القوة النارية، كلّ هذه المبتكرات التقنية. ولكن، بعد كلّ هذه السنوات، وبوجود اعتبارات كثيرة على المحك، قبل أنّه من الأفضل التزام جانب الحذر. على أيّ حال، خرج الأمر من بين يديه الآن. يمكنهم إحضار جيش كامل معهم إن شاؤوا، ما دام سيتقاضى الثمن. وهذا ما سيحصل قريباً. ستتمّ تحويل 50 مليون دولار مباشرة إلى حسابه المصرفي في سويسرا. لقد حان الوقت.

أخرج منديلاً معطّراً من علبة في جيبه، وحدّق حوله باحثاً عن رجاله. كان أحمد عثمان في الموقف، يتحدّث إلى مزيد من الرجال الذين يرتدون زياً أبيض. وكان محمد قصري يروح ويجيء قرب المروحيات، يتحدّث بحيوية عبر هاتفه الخلويّ، وهو يعطي تفاصيل خطّة رحلتهم للواء زاوي كي لا يواجهوا أيّ مشاكل مع الجيش المصري. والتوأم؟ يبدو أنّهما في الحمّام. أمر لا يصدّق: حتّى إنّهما يتبوّلان معاً.

سأل وهو يكوّر المنديل ويلقيه جانباً: "كم بقي للإقلاع؟".

قربه، أخذ بطرس صلاح مجة أخيرة من سيجارته، حتّى وصلت إلى طرف المرشح.

قال بصوت كالأزيز: "أربعون دقيقة، ساعة على الأكثر. لدينا أساساً رجال على الأرض، لذا، لن يفوتنا شيء. القاهرة؟".

أجاب جرجس وهو يمسك هاتفه الخلوي: "أجل. الليرجيت في الطريق الآن. أقلعت منذ خمس عشرة دقيقة".

"يبدو أنّنا جميعاً مستعدّون".

"يبدو ذلك".

رمى صلاح عقب سيجارته، وأشعل أخرى.

"وهل تظن فعلاً أنّ الأمر سيكون كما يقولون؟ أنّ كلّ شيء صحيح؟".

رفع جرجس كتفيه، ومرّر يده على شعره قائلاً: "عثمان يعتقد ذلك بالتأكيد. وبرودي أيضاً، من دون شكّ. لذلك يتعيّن علينا أن ننتظر ونرى".

"أمر لا يصدّق، لا يصدّق إطلاقاً".

"خمسون مليون دولار، بطرس، هذا لا يصدّق. أمّا الباقي فهو مجرّد...".

هزّ جرجس كتفيه مجدّداً ولوّح بيده غير مكترث، ووقف الاثنان يراقبان مزيداً من صناديق الألمنيوم التي يتمّ جرّها من الموقف إلى المروحيات المنتظرة.

الصحراء الغربية

من بعيد، بدت مثل خنفساء بيضاء صغيرة تمشي في الصحراء، وتزحف على كثبان الرملية، وتتعثّر فوق الحصى، تحدّق بعين مضيئة واحدة إلى المشهد النحاسي المحيط بها. فقط عندما اقتربت، تبيّن شكلها الحقيقي؛ تويوتا لاند كروزر بيضاء بالية، تسير بشكل متعرّج عبر الصحراء. كان سقفها محمّلاً بصفائح وقود سعة عشرين ليتراً، بينما صدر شعاع حادّ من الضوء من مصباحها الأمامي الوحيد السليم، لينير بقعاً عشرة على الطريق هنا وهناك. ومع أنّ الأرض كانت غير مستوية، توزّعت فيها جدران الرملية الشاهقة والتكوينات الصخرية الخشنة، إلاّ أنّ السائق بدا وكأنّه يعرف تماماً كيف يشقّ طريقه المليء بالمنعطفات والالتواءات. وحتّى في أكثر المناطق تعرّجاً، ظلّ محافظاً على سرعة معقولة، نادراً ما انخفضت عن خمسين كيلومتراً في الساعة، وتضاعفت في المناطق الرملية أو المكسوّة بالحصى التي توزّعت في المكان مثل بحيرات هائلة. لم يكن من الممكن معرفة عدد الأشخاص الموجودين داخل السيارة، لأنّها كانت مظلمة تماماً، مع أنّها توقّفت في إحدى اللحظات، وترجّل شخص ما من المقعد المجاور للسائق، ثمّ رفع طرف جلابيته وقضى حاجته، ما يعني أنّ السيارة تحتوي على شخصين على الأقلّ. بخلاف ذلك، بالإضافة إلى أنّ السائق بدا مستعجلاً بوضوح، لم يُعرف شيء آخر عن السيارة، بل مجرّد بقعة بيضاء وحيدة تشقّ طريقها عبر المساحات القاحلة، ويتردّد صدى محركها عبر الرمال، بينما يميل أنفها جيئة وذهاباً، وكأنّها تتبع رائحة تجذبها على نحو لا يقاوَم باتّجاه الجنوب الغربي.

وجدا كومة من الحطب الموضوع بعناية تحت حافّة عند أسفل التكوين الصخري. كانت تقليداً بدوياً كما شرح فلين، يقوم على ترك أشياء كهذه عند معالم صحراوية واضحة. أخذ منها بعض الحطب، وأشعل ناراً صغيرة. ارتديا مزيداً من الملابس اتقاءً لبرد الليل القارس، وفرشا بطانيات على الأرض. فتح فلين صندوق التبريد، وأخرج عدداً من الأواني والمقالي التي سوّدها النار، وبدأ بتحضير بعض القهوة وتسخين الحبوب التي وجدها فريا في مطبخ أختها.

قالت وهي تقترب أكثر من النار وتحيط ساقيها بذراعيها لتحدّق إلى القمر البرتقالي الذي يعلو الكثبان شرقاً: "يذكّرني ذلك بطفولتنا أنا وألكس. كان والدي يصطحبنا للتخييم دائماً. فنُشعل النار، ونأكل الفول، ونتظاهر بأنّنا هنود أو روّاد أوائل. كنّا ننام في الهواء الطلق أكثر ممّا ننام في الداخل".

ارتشف فلين قهوته، وانحنى إلى الأمام لتحريك المقلاة التي يسخّن فيها الحبوب.

"كم أحسدكِ. كانت فكرة أبي عن المرح تنحصر في إرسالنا أنا وأخي إلى أشموليان لرسم الأواني القديمة".

"ألديك أخ؟".

لسبب ما، فوجئت فريا بذلك.

"كان لديّ أخ. فقد توفي هوي عندما كنتُ في العاشرة".

"أنا آسفة، لم أكن...".

هزّ رأسه، وواصل التحريك.

"سُمّي على اسم هاورد كارتر، الرجل الذي اكتشف توت عنخ آمون. شاركه اسمه، ومن سخرية القدر أنّه توفي بنوع السرطان نفسه، مع أنّ كارتر عاش على الأقلّ حتّى بلغ العقد السادس من عمره. أمّا أخي فلم يتجاوز السابعة من عمره. أفتقد إليه أحياناً، لا بل غالباً في الواقع".

حرّك المقلاة مرّة أخيرة، ثمّ رفعها عن النار.

"أعتقد أنّها أصبحت جاهزة".

سكب الحبوب في طبقين بلاستيكيين، ثمّ أعطى فريا أحدهما واحتفظ بالآخر لنفسه. أكلا بصمت، وهما يحدّقان إلى النار، وفي بعض الأحيان كانت نظراتهما تلتقي. عندما انتهيا، نظّف فلين الطبقين - مسحهما بالرمل، ثمّ غسلهما ببعض الماء - وجلسا مجدّداً يشربان القهوة ويأكلان الشوكولاته التي جلبتها فريا. اتّكأ هو على الصخرة، وتمدّدت فريا من الجهة الأخرى من النار.

كانت أولى النجوم قد بدأت تظهر عندما كانا في الجو، والآن أصبحت سماء الليل مرصّعة بشبكات من الضوء. نامت فريا وهي مستلقية على ظهرها، ونظرت إلى الأعلى، وقد انتابها الإحساس نفسه الذي شعرت به خلال الرحلة إلى الصحراء: السكينة، والسلام، وحتّى الرضى، صمت وسكون يلفّانها مثل غطاء. فكّرت في سرّها: *أنا سعيدة لأنني هنا، بالرغم من كلّ شيء. سعيدة لأنني في هذا المكان الذي أحبّته أختي كثيراً، أنا والرمال والنجوم، وفلين أيضاً. أنا سعيدة لأنني هنا مع فلين.*

سألته: "من هي الفتاة؟".

"عفواً؟".

نظرت إليه، ومن ثمّ إلى الأعلى مجدّداً. لمعت نجمة لفترة وجيزة في السماء، قبل أن تتلاشى بالسرعة التي ظهرت فيها، ثمّ قالت: "عندما كنّا في القاهرة، وبينما كنّا نغادر الشقة، ذكرت مولي فتاة. *ليس للأمر علاقة بالفتاة.* كنتُ أتساءل وحسب من تكون".

ارتشف قهوته، وهو يمدّ حذاءه باتجاه الجمرات.

قال: "إنّه شيء حدث منذ مدّة طويلة، عندما كنتُ مع أم آي 6".

أوحت نبرته أنّه لا يرغب في متابعة الحديث عن الموضوع، فصمتت فريا. حسست، ثمّ أحاطت كتفيها ببطانية. بدت الصخرة التي تعلوهما مخيفة ومطمئنة في الوقت نفسه على نحو غريب، وكأنّ يد عملاق تحتضنهما. حلّ صمت لم يقطعه سوى حسيس النار وفرقعة الحطب، ثمّ رفع فلين مغلاة القهوة وأعاد ملء فنجانه.

"يبدو الأمر بالغ السذاجة الآن، ولكنّني انضممتُ إلى الخدمة في الواقع لأنني أردت القيام بعمل جيّد. أردت أن أساعد على جعل العالم... حسناً، إن لم يكن مكاناً أفضل، فعلى الأقلّ أن يكون مكاناً أكثر أمناً بعض الشيء".

انخفض صوته حتّى كاد لا يُسمَع، وكأنّه يتحدّث إلى نفسه وليس إليها، بينما تركّزت عيناه على النار.

"مع أنّني أعترف أيضاً أنّ جزءاً من السبب يرجع إلى رغبتي في إغاظـة والـدي أيضاً؛ فهو لم يكن يوافق على أشياء مثل أم آي 6. لم يكن يحب شيئاً خـارج المجـال الأكاديمي".

ابتسم ساخراً وهو يرسم أشكالاً على الرمال بإصبعه. لم تفهم فريـا مـا علاقة ذلك بسؤالها، لكنّها شعرت بأن الموضوع مهمّ بالنسبة إليه، لـذلك لم تقاطعه.

قال بعد صمت وجيز: "انضممتُ إليها بعدما أنهيت الدكتوراه، عام 1994. فخدمت عامين في مكتب في لندن، ثمّ تمّ إرسالي إلى الخـارج. أوّلاً إلى القـاهرة. وهناك التقيت بمولي، وبعدها إلى بغداد، في محاولة لجمع معلومات حـول صـدّام وبرامج أسلحته. لم تكن مهمّة سهلة، فأنتِ لا تصدّقين مستوى الخوف والـذعر الذي ولّده صدّام، ولكن بعد أن أمضيت هناك عاماً تقريباً، التقيت رجـلاً مـن وزارة الصناعة والتصنيع العسكري. أتى إليّ، وقال إنّه يرغب في كشف معلومات على مستوى عالٍ من السرية؛ وهذا بالتحديد ما كنّا نحتاج إليه".

نظر إلى فريا، ومن ثمّ إلى الأسفل مجدّداً. عوى ذئب في مكان بعيد.

"كما تتخيلين، لم يعطِ تفاصيل دقيقة حول الموضوع، وأصرّ على اسـتخدام ابنته كوسيط قائلاً إنّ ذلك سيقلّل الشكوك. عارضتُ الموضوع منذ البداية، فهي لم تكن قد تجاوزت الثالثة عشرة من عمرها بعد، ولكنّه لم يقبل بإتمام العمل بـأيّ طريقة أخرى وكانت فرصة جيّدة لا يمكن تفويتها، فوافقتُ في نهاية المطاف. نسخ أوراقاً من الوزارة، وأخذتها معها في طريقها إلى المدرسة، ثمّ مرّرتهـا لي في أثنـاء عبورها حديقة وسط بغداد. كانت عملية بسيطة، لم تستغرق سوى بضع ثوانٍ".

أصبح يُسمع عواء ذئبين الآن، يناديان بعضهما عبر الكثبان شـرقاً. بالكـاد انتبهت فريا إليهما، إذ كانت مستغرقة بقصة فلين.

"لفترة من الوقت، سار كلّ شيء على ما يرام، ووضعنا أيدينا علـى مـواد جيّدة. ثمّ، بعد نحو خمسة أشهر، فاتني موعد. فهذه الأمور تحدث بالطبع، ولكن في تلك المرّة، كنت في مشرب في الليلة السابقة واستغرقتُ في النوم. كنت أفـرص في

شراب في ذلك الوقت، وأستيقظ في حال يرثى لها... ربّاه! كنتُ لأشرب الكاز لو أنّ شخصاً ما صبّه لي ووضع فيه قطعتين من الثلج".

هزّ رأسه وهو يفرك صدغيه. ارتفع عواء الذئبين، وتحوّل إلى عويل يبعث على الكآبة أكثر من الخوف، حيث لاءم تماماً القصّة التي يرويها.

تابع يقول: "كان لدينا قاعدة تنص على أنّه في حال لم يجد أحدنا الآخر في الحديقة، فإنّه يتابع طريقه، ولا ينتظر. فالمخابرات في كلّ مكان، تراقب على الدوام، وكان من المهمّ عدم فعل شيء قد يبدو خارجاً عن المألوف. لا أدري لماذا خرقت أميرة - ذاك كان اسم الفتاة - القاعدة، وقرّرت الانتظار، ولكن هذا ما فعلته. فتمّ رصدها، وقُبض عليها، وأُخذت، وكذلك والدها وبقية أفراد أسرتها".

صدرت عنه تنهيدة عميقة، وهو يضغط فنجانه في الرمل قربه. صمت الذئبان فجأة، وخيّم الصمت التامّ.

"الله أعلم ما حلّ بهم، ولكنّهم لم يذكروا اسمي قط. خرجت سليماً، بينما اختفوا جميعاً في "أبو غريب"، ولم يرهم أحد مجدّداً على قيد الحياة. يبدو أنّ جثّة أميرة ظهرت بعد شهر، في مكبّ خارج المدينة، بعد أن تعرّضت للاغتصاب، وخلعت أسنانها، وأظفارها... لا يمكنك أن تتخيلي".

أرجع رأسه إلى الخلف وتأمّل الصخرة، وخرج صوته رتيباً، فاتراً، خالياً من العواطف، وكأنّه يحاول إمساك ما يتحدّث عنه بعيداً عن جسده وتجنّب الإحساس بكلّ الرعب الذي يحيط به. إلاّ أنّ محاولاته باءت بالفشل كما اتضح. إذ لاحظت فريا أنّ يديه بدأتا ترتعشان.

"جرى تحقيق داخلي بالطبع. فقدّمت استقالتي، وعدت للعمل في مجال علم الآثار المصرية، أتيت إلى هنا، وبدأت أشرب *بالفعل*. كنت سأستمرّ على هذه الحال لو لم ألتقِ بألكس، التي سحبتني من حافة الهاوية وجعلتني أُقلع عن تلك العادة. بتعبير آخر، لقد أنقذت حياتي، مع أنّها لم تكن تستحق الإنقاذ. ثلاثة عشر عاماً، حباً بالله! لا يمكنك أن تتخيي.

رفع ركبتيه، وأسند مرفقيه عليهما. ثمّ ضغط جبهته على كفيه، بينما غمر القمرُ الذي ارتفع في كبد السماء الصحراء بوهج فضي باهت. لم تعرف فريا تماماً

لماذا فعلت ذلك، حتّى إنّها بالكاد أدركت ما تفعله، إذ وقفت ومشت حول النار، وجلست قربه، ثمّ وضعت يدها على كتفه.

قال: "مولي على حق، بالطبع. هذا هو السبب الفعلي: ساند فاير، جرجس. الواحة، كان هذا هو السبب دائماً. أنا أحاول التكفير عن ذنبي بشكل من الأشكال، واستعادة احترامي لذاتي بعد أن أرسلتُ فتاةً صغيرة في الثالثة عشرة من عمرها إلى غرف تعذيب. لا يمكنني إعادتها هي أو أسرتها، أو إلغاء الويلات التي كابدتها، لكنني أستطيع على الأقلّ... أنت تعرفين... أن أحاول...".

ضعف صوته وصمت. أخذ فلين يتنفس بصعوبة، ثمّ رفع رأسه ونظر إليها قائلاً: "فريا، مهما يكن رأيي بغزو العراق، وهو ليس جيّداً بالتأكيد، إلاّ أنّني لا أدين بسوء على إسقاط صدّام، مهما يكن عمله مريعاً. فقد كان الرجل وحشاً، وحشاً حقيقياً".

نظر بعيداً، ثمّ مدّ ساقيه، وسحب فنجانه من الرمال وشرب محتوياته. أرادت فريا قول شيء، شيء يريحه بشكل ما، ولكن كلّ ما خطر في بالها بدا سطحياً وتافهاً على نحو مثير للشفقة، لا يتلاءم إطلاقاً مع فظاعة القصّة التي رواها لتوّه. عوضاً من ذلك، قامت بالشيء الوحيد الذي ظنّت أنّه سيُظهر له أنّها فهمت ما يشعر به، وأنّها هي أيضاً تعرف ما معنى أن يعيش المرء كلّ لحظة من وعيه، ونومه أيضاً، مع شعور الذنب والندم.

سألته، وهي ترفع يدها عن كتفه وتلفّ جسدها بذراعيها: "هل أخبرتك شقيقتي يوماً بما حدث بيننا؟ ولماذا لم نتكلّم مع بعضنا كلّ هذه الفترة؟".

نظر إليها مجدّداً وقال: "كلاّ، لم تتكلّم قطّ عن هذا الموضوع".

هزّت فريا رأسها. حان الآن دورها لتركّز نظرها على الجمرات، بينما أخذ الحطب المحترق ينتفض ويتلألأ وكأنّه حيّ. خيّم الصمت مجدداً، فهي لم تحدّث أحداً عن هذا الأمر يوماً، لأنّه مؤلم جداً. أخيراً، أخذت نفساً، وأخبرته.

روت له كيف انتقلت ألكس وخطيبها غريغ، بعد وفاة والديهما بحادث سيارة، إلى منزل العائلة للعناية بشقيقتها الصغرى. أخبرته كيف كان غريغ يهتمّ كثيراً بفريا، يحدّثها ويمازحها، وكيف ازداد هذا المزاح بعد انتقاله للعيش معهما تحت سقف واحد. في البداية، كان غريغ هو المبادر، ولكن بعد فترة من الوقت، شعرت فريا بالإطراء وأصبحت هي المبادِرة. وما بدأ بالقبلات والمداعبات - وهو

خطأ بالطبع، ولكن يمكن إصلاحه - سرعان ما تصاعد ليتحوّل إلى علاقة أكثر دناءة. فأصبحت تقفز هي وغريغ إلى السرير فور ذهاب ألكس إلى العمل كلّ صباح، ويبقيان هناك حتّى قبل عودتها إلى المنزل في المساء. أخبرته كيف استمرّ ذلك حتّى بينما كانت ألكس وغريغ يخطّطان لزفافهما، إلى أن عادت أختها باكراً في أحد الأيّام وقبضت عليهما حتماً بالجرم المشهود، ما جعل الخيانة تبدو أكثر فظاعة ومذلة، مع أنّها حذفت ذلك التفصيل من روايتها لفلين، ذلك أنّ ذكراها ما زالت مؤلمة جداً حتى بعد مرور كل تلك السنوات.

قالت وهي تمسح دموع عينيها بذراعها: "لم تغضب، عندما دخلت غرفة نوم. صحيح أنّها صُدمت، لكنّها لم تغضب. لكان أفضل لو فعلت، لو صاحت، وصرخت، وصبّت جام غضبها عليّ، لكنّها بدت وحسب حزينة جدّاً، ووحيدة جدّاً...".

خنقتها العبرات، ومسحت عينيها مجدداً. مدّ فلين يده وأمسك بيدها، في حركة تلقائية، مطمئنة، وجلس الاثنان هناك بصمت، وقد خدّرتهما ألسنة اللهب المتراقصة. ارتفع عواء الذئبين من جديد، وقد أصبح خلفهما الآن، شمالاً، وتناهى نحيبهما إليهما عبر الليل مثل لحن حزين.

سألها بعد برهة: "هل هذا يفسّر حادثة حسن؟ موافقتك على التعرّي أمامه، هل كانت طريقة...".

هزّت فريا كتفيها وقالت: "موازنة الأمور؟ أظنّ أنّ كلاً منا لديه أمور يحاول وضعها في نصابها".

شدّ قبضته.

"أختك أحبّتك يا فريا. كانت تتحدّث عنك طيلة الوقت، وعن مهارتك في تسلّق الجبال؛ كانت فخورة بك. مهما يكن ما حدث، فهو من الماضي. كانت تريدك أن تعرفي ذلك، كانت تريدك أن تعرفي كم كنتِ تعنين بالنسبة إليها".

عضّت على شفتها، ولمست جيبها بيدها، وتحسّست الرسالة التي أرسلتها إليها ألكس.

همست: "أعرف ذلك. ما يؤلمني هو أنّ الفرصة لم تسنح لي قطّ لإخبارها الشيء نفسه".

تنهّدت ونظرت إليه. هذه المرّة التقت نظراتهما. للحظة، بقيا على هذه الحال، وظلّت يد فلين ممسكة بيديها. ثمّ بدأ وجهاهما يقتربان ببطء، وتلامست شفاههما للحظة عابرة، قبل أن يبتعدا. مدّت فريا يدها ولمست وجهه، ومدّ فلين يده ومرّرها عبر شعرها، قبل أن يبتعدا في اللحظة نفسها ويقفا، وقد أدركا أنّ الزمان والمكان غير مناسبين. ليس الآن، ليس بعد كلّ ما قيل.

قال: "علينا أن نحاول أخذ قسط من النوم، فنهارنا سيبدأ باكراً".

أشعلا النار معاً، ثمّ نفضا البطانيات وفرشاها مجدّداً على الأرض، من جهتَي النار. التقت نظراتهما مجدّداً لفترة وجيزة، ثمّ أشاحا وجهيهما مومئين إلى بعضهما. وغاب كلّ منهما في أفكاره، فيما واصل الذئبان نداءهما في البعيد.

على بُعد أربع مئة متر، عدّل الرجل منظار الرؤية الليلية. راقب عبره مدّة من الوقت قبل أن يهبط خلف الكثيب، ويُعمِل جهاز الإرسال، ويتحدّث. لم يستغرق منه الأمر سوى لحظة: لقد خلدا إلى النوم، لا حركة ولا أيّ شيء آخر يفيدهم به. بعد دقيقة، استأنف المراقبة؛ رفع المنظار إلى عينيه، ووضع بندقية قنص من طراز أم 25 قربه على الرمال. كان غافلاً عن كلّ شيء باستثناء الجسدين الساكنَين المتكوّرَين ببراءة تحت القوس الصخري الشاهق. احترق الحطب المشتعل بينهما إلى أن انطفأ تقريباً، ولم يعد يبدو منها سوى لطخة برتقالية صغيرة في الصحراء الشاسعة المغمورة بنور القمر.

مضت ثلاثة أيّام منذ أن أخذت فريا قسطاً مناسباً من الراحة، فكان نومها عميقاً وخالياً من الأحلام، ومن الأفكار والمخاوف، مجرّد فراغ أسود خالٍ غرقت فيه بامتنان، كما لو كان عقلها مقمّطاً بغطاء مخملي أسود كثيف. لم تستفق من سُباتها سوى مع انبلاج خيوط الفجر الأولى التي بدأت تلوّن السماء شرقاً بضوء رمادي ووردي باهت راح يسبغ الأفق. ليس لأنّها أخذت قسطاً وافياً من النوم. فقد كانت قادرة على الاستمرار لبضع ساعات إضافية، بل لأنّها بدأت تسمع صوت تحليق غريب شعرت - حتّى في ضباب النوم - بأنّه كان متنافراً مع أجواء الصحراء النائية.

للحظة، ظلّت متمدّدة ترهِف السمع وهي شبه مستيقظة، تشدّ البطانيات حولها اتقاءً لبرد الصباح، محاولة أن تتبيّن ما يجري. تلاشى الصوت، ثمّ اشتدّ، وكأنّه صادر عن شيء يروح ويجيء، تارة يقترب، وتارة يبتعد. استدارت إلى جانبها، ثمّ نظرت إلى فلين لترى ما إذا كان قد لاحظه هو أيضاً، إلاّ أنّه لم يكن في مكانه. استدارت بالاتجاه الآخر، تبحث عن الميكرولايت، فوجدت أنّها اختفت هي الأخرى. فانتفضت وقد استيقظت تماماً، وقفزت على قدميها، ثمّ راحت تدور في مكانها وتتأمّل السماء.

في الدقائق القليلة التي مرّت منذ استيقاظها، أصبح العالم أكثر وضوحاً بشكل ملحوظ، ورأت الميكرولايت على الفور وهي تحلّق فوق الجلف مثل طائر أبيض ضخم. لم تعرف كيف أقلع فلين من دون أن يوقظها - لا بدّ من أنّها كانت غارقة فعلاً في النوم - وللحظة وجيزة جدّاً شعرت بالخوف، واعتقدت أنّه تركها. إلاّ أنّ الفكرة اختفت قبل أن تستقرّ تماماً، لأنّها رأت بوضوح أنّه يطير في دائرة ولا ينوي الرحيل. كان يدور وينخفض فوق النجد المسطح عند أعلى الجلف، يتجه شمالاً ومن ثمّ جنوباً في دائرة عريضة بدا أنّ محورها المركزي هو على خط يتجه غرب التكوين الصخري الذي كانت تقف تحته.

وقفت تراقب الميكرولايت وهي تبتعد عن نظرها، لتصبح مجرّد نقطة صغيرة في السماء الرمادية قبل أن تكبر ببطء وتستعيد شكلها مجدّداً. مرّت عشر دقائق، ثمّ ابتعدت الطائرة عن الهضبة وانخفضت فوق الصحراء، لتحلّق مباشرة فوق رأسها. في أثناء ذلك، أمال فلين الشراع قليلاً، وصاح وهو يشير إلى شيء ما على الأرض. رفعت فريا ذراعيها لتظهر له أنّها لم تفهم، ما اضطرّه إلى الاستدارة والعودة مجدّداً. انخفض أكثر، وأشار إلى النار، وهو يلفظ كلمة قهوة. فابتسمت، ورفعت إبهاميها. رفع فلين يده وبسط أصابعه، مشيراً إلى أنّه يحتاج إلى خمس دقائق أخرى، ثمّ ارتفع مجدّداً، وعاد باتجاه الجلف. فابتعد هدير محرك الطائرة ببطء وهو يستأنف مسح الكتلة الصخرية.

جمعت الحطب، وأشعلت النار، وبدأت بتسخين المياه. حلّق فلين حول الهضبة بضع دورات قبل أن يبتعد ويهبط بالطائرة، ليتوقّف قرب الصخرة في اللحظة التي بدأت فيها المياه بالغليان وصبّتها فريا في كوبين.

سألته وهو ينـزل من القمرة: "هل رأيت شيئاً؟".

هزّ رأسه نافياً.

"ذهبتُ مسافة عشرين كيلومتراً شمالاً، وجنوباً، وغرباً، ولم أجد شيئاً سوى الرمال، والصخور، وبقع متناثرة من شوك الجمل. مهما يكن ما يحدث هنا عند الفجر، فأنا واثق تماماً أنّنا لن نجد الواحة".

أومأ شاكراً، وتناول منها الكوب وارتشف منه.

"لا أفهم. بكلّ بساطة، ليس هناك من طريقة أخرى لتفسير النص. عندما *يفتح خبري عينه، تُفتح الواحة*. الواحة قريبة من هنا، وعند شروق الشمس تشير الصحراء بشكل ما إلى الطريق. لا بدّ من أنّ هذا هو المعنى، لا يمكن قراءتها بشكل آخر. إلاّ إذا...".

ابتعد خطوة إلى الخلف وراح يحدّق إلى الصخرة المقوّسة التي ترتفع فوق رأسيهما.

تمتم وكأنّه يحدّث نفسه: "هل ثمّة شيء على الصخرة نفسها؟ نقش، إشارة إلى اتجاه؟ أهذا ما يحاول النصّ توضيحه لنا؟".

مرّر نظره من أسفل السطح إلى أعلاه، وضاقت عيناه. مشى ببطء حولها وبحث عن علامات، أو نقوش، أو أحرف هيروغليفية، أيّ إشارة إلى تدخّل بشري، إلاّ أنّه لم يجد شيئاً. كانت الصخرة ملساء، وسوداء، وخالية من أسفلها إلى أعلاها، وكان واضحاً أنّ ما عليها من خدوش هو طبيعي المصدر وليس من صنع الإنسان. شيء واحد جعله يتوقّف ويفكّر، شيء فاتهما خلال تفحّصهما الصخرة على ضوء المصباح في الليلة السابقة: عدسة صغيرة بحجم القبضة، مكوّنة من الكريستال الأصفر الأكمد، تخترق الصخرة من جهة إلى أخرى، عند نقطة تقع على مسافة ثلاثة أرباع ارتفاعها، وكأنّها كوّة صغيرة. كان أمراً غريباً، شذوذاً جيولوجياً يتناقض مع المحيط الصخري. حدّق إليها فلين للحظة قبل أن يستنتج على مضض أنّها هي أيضاً مجرّد جزء طبيعي من التكوين. هزّ رأسه وابتعد، وذهب لإعادة ملء كوبه.

قال: "تبّاً لي إن كنتُ أعرف! يجب أن تكون الواحة هنا، وينبغي أن تشير هذه..."، وأشار بإبهامه فوق كتفه، "... باتجاهها. أنا لا أفهم".

اقترحت فريا وهي تنحني فوق النار وتعيد ملء كوبها: "ربّما كانت الصخرة زنكة حمراء، ولا علاقة لها بالواحة بعد كلّ شيء".

هزّ فلين كتفيه وتحقّق من ساعته ثمّ قال: "ستشرق الشمس بعد دقائق وسنرى ما يحدث حينذاك، لكن، استناداً إلى الأدلة الحالية، أظنّ أنّك محقّة وأنّني مخطئ. علماً أنّها ليست المرّة الأولى، أؤكّد لك".

ارتشف قهوته ونظر شرقاً. امتدّت الصحراء مسطحة أمام ناظريه لبضع مئات من الأمتار، قبل أن يضطرب سطحها بمجموعة من الكثبان، وتزداد المنحدرات الرملية ارتفاعاً وحدّة على نحو تدريجي كلّما ابتعدت. انضمت إليه فريا، لمشاهدة الفجر وهو يبزغ وينتشر، ويُغرق السماء بخيوط خضراء ووردية، ويسطع فوق الصحراء بنور تحوّل من الرمادي إلى الأصفر الباهت والبرتقالي. مرّت بضع دقائق، أخذت خلالها السماء تزداد حمرة. ثمّ، شيئاً فشيئاً، مثل فقاعة من الحمم البركانية المنصهرة، بدأ طرف الشمس يظهر فوق قمم الكثبان الرملية؛ قوس رقيق أرجواني اللون يرتفع عبر الأفق، وبدت الصحراء المحيطة به أنّها تميل وتتلألأ وكأنّها تذوب من شدّة حرارته. ارتفعت حرارة الهواء بسرعة مع تحوّل القوس إلى قبّة، والقبّة إلى دائرة. تنقّل نظرهما ذهاباً وإياباً، من الشمس إلى الصخرة المقوّسة، ومنها إلى الشمس مجدّداً، وكأنهما ينتظران حدوث شيء، أيّ شيء، وظهور علامة ما. إلاّ أنّ الصخرة ظلّت على حالها، سوداء ومقوّسة، من دون تغيير أو تحوّل، ومن دون أن تكشف شيئاً، بينما تابعت الشمس صعودها، إلى أن تحرّرت من الأفق، وتلاشى الفجر في الصباح الباكر. حدّق فلين وفريا لمدّة أطول، ولفحت حرارة الشمس وجهيهما بشدة في تلك الساعة المبكرة، ثمّ نظرا إلى بعضهما وهزّا رأسيهما. لم يحدث الاكتشاف الذي كانا يأملانه. ضاعت رحلتهما سدًى.

قالت فريا بكآبة: "على الأقلّ، شاهدنا مناظر خلابة".

رشّا الرمال على النار وبدأا يجمعان عدّة التخييم استعداداً لرحلة العودة إلى الحياة المدنيّة.

قال فلين وهو يغلق غطاء الصندوق ويضعه في قمرة الميكرولايت: "ما زال لدينا كمية كافية من الوقود. لذا يمكننا أن نحلّق قليلاً، لنرى ما إذا كان قد فاتنا شيء. برأيي، سنتوجّه...".

لم يستطع قول المزيد، لأنّ فريا أطلقت صيحة تعجّب وأمسكت برسغه.

"انظر! هناك!".

مدّت ذراعها الأخرى باتجاه الغرب، نحو واجهة الجلف. نظر حيث تشير، وقد بهر نور الشمس عينيه، وأخذ ينقّل نظره لبرهة قبل أن يرى ما كانت تشير إليه. على جدار الجلف الشاهق، على ارتفاع نحو عشرة أمتار من أرض الصحراء، ظهر قرص صغير من الضوء، وكان مرئياً بوضوح على الصخرة الصفراء البرتقالية المحيطة به.

"ما...؟".

تقدّم خطوة إلى الأمام. رافقته فريا، ويدها ما زالت ممسكة بذراعه، وظلا يحدّقان إلى القرص المضيء، في محاولة لمعرفة ماهيته، ومصدره.

سألته: "أهو شيء في الجرف، يعكس النور باتجاهنا؟".

وقف فلين ورفع يده فوق عينيه، وقطّب جبينه محاولاً التركيز، قبل أن يسحب ذراعه من يدها فجأة، ويمشي مبتعداً عنها، محوّلاً نظره من الجرف إلى الصخرة المقوّسة. قال بعد صمت وجيز: "يا الله! هذا رائع!".

تراجعت فريا هي الأخرى، ثمّ وقفت قربه، وشهقت حين رأت ما رآه: رأيا حوضاً صغيراً من الذهب الذائب عند ثلاثة أرباع ارتفاع الصخرة، كانت أشعة الشمس تتدفّق من العدسة الكريستالية، التي التهبت وراحت ترسل شعاعاً شفافاً من الضوء نحو الغرب باتجاه واجهة الكتلة الصخرية.

همس فلين بصوت منخفض وقد ملأته الرهبة: "ها هي ذا عين خِبري".

حدّقا مشدوهَين إلى العين الكريستالية التي بدت وكأنّها مشتعلة في الصخرة المحيطة بها مثل شعلة في ورقة سوداء، واشتدّ وهجها تدريجيّاً، قبل أنّ يبدأ بالشحوب ببطء، وتلاشى الشعاع إلى أن انطفأت العدسة الكريستالية وعادت إلى لونها العنبري الأكمد.

صاح فلين: "تبّاً!".

استدار وبدأ يعدو، وراح يضرب الرمال بقدميه متجهاً إلى واجهة الجلف. وعيناه مركّزتان على بقعة الضوء المتلاشية التي أصبحت باهتة على الصخرة. صاح من فوق كتفه إلى فريا، التي كانت تجري خلفه: "لا بدّ من أنّها تظهر عندما تكون

الشمس على زاوية معيّنة. واصلي النظر إليها، علينا أن نرى مكانها. هذا ما يعنيه النقش. الشمس الشارقة تشير إلى شيء على واجهة الجرف. لا ينبغي لنا أن نفقدها!".

كانت الصخرة تبعد أربع مئة متر عن الجلف، وكان قد قطع أقلّ من نصف تلك المسافة عندما تلاشى الشعاع تماماً، واختفت بقعة الضوء، مخلّفة جداراً خالياً من الحجر الأسود المغبرّ.

عاد يمشي، ورفع يده مشيراً وهو يصيح: "هناك، كانت هناك، فوق تلك الحافة".

كانت فريا تنظر إلى البقعة نفسها، وكانت عيناها مركّزتين على واجهة الصخرة. تابعا سيرهما إلى الأمام إلى أن أصبحا عند أسفل الجلف، الذي انتصب على ارتفاع شاهق فوقهما.

قال فلين: "ثمّة شيء ما هناك. فجوة ما، هل ترينها؟".

كانت تراها: فتحة مستطيلة صغيرة، لا تزيد على خمسين سنتمتراً تقريباً يبلغ ارتفاعها ضعف عرضها، وتقع تماماً فوق نتوء صخري على ارتفاع عشرة أمتار، إلاّ أنّها بالكاد تبدو ملحوظة ما لم تكن تحدّق إليها مباشرة، وحتّى في تلك الحال، تصعب رؤيتها. ممّا لا شكّ فيه أنّها من صنع الإنسان، إذ كانت جوانبها منحوتة بدقّة، ومتماثلة إلى حدّ كبير لتكون طبيعية المنشأ، كما أنّها بدت محشوّة بمادة من نوع ما ساعدت على ذوبانها في الصخرة المحيطة بها. همّت فريا بسؤال فلين عن ماهيتها، لكنّه كان قد بدأ بالتسلّق. أدخل أصابعه في الشقوق الضيقة، ورفع نفسه إلى الأعلى، أدخل إصبع قدمه في جيب صخري قليل العمق، وراح يبحث عن موطئ فوق الصخرة الجرداء بالقدم الأخرى. اختلّ توازنه وسقط إلى الخلف، وهو يشتم. حاول مجدّداً، وكانت النتيجة هي نفسها، وحدث الأمر نفسه مرّة أخرى. انتقل يساراً، وحاول طريقاً آخر، ووصل هذه المرّة إلى ضعف الارتفاع السابق، قبل أن يختلّ توازنه مجدّداً ويسقط مصطدماً برمال الصحراء. جاهد للوقوف على قدميه، وهو يبصق الرمال، وكان على وشك المحاولة مجدّداً عندما تقدّمت فريا ودفعته جانباً برفق.

"هل تسمح لي؟".

تفحّصت الجدار بسرعة، ثمّ رسمت طريقاً في ذهنها. ربطت شعرها إلى الخلف، ثمّ وضعت أصابعها في الشقوق نفسها التي جرّها فلين سابقاً، وأدخلت قدميها في الجيب الصخري نفسه، وانطلقت. بعد دقيقة، وصلت إلى الفتحة. وتوازنت على الحافة الممتدة على بُعد متر تحتها.

تمتم فلين متذمّراً: "أظنّ أنّني سألتزم بعلم الآثار المصرية. ماذا ترين؟".

صاحت مجيبة: "ما رأيناه من الأسفل تقريباً. إنّها حفرة محشوّة بالكتّان، وهي قطعاً من صنع الإنسان".

"هل ثمّة نقوش؟".

قرفصت - كانت الحافة كافية لذلك - وتفحّصت الصخرة المحيطة بالفتحة. كانت خالية من أيّ شيء يشبه الحروف ولو من بعيد، سواء أكانت هيروغليفية أم غير ذلك.

أجابته: "لا شيء. سأسحب القماش، لأرى ما يوجد في الداخل".

ناداها قائلاً: "احذري من الأفاعي، فوجودها شائع هنا، ولم نحضر مضاداً للسموم".

تمتمت: "رائع"، وراحت تشدّ القماش بتوتّر لإخراجه من التجويف. كان النسيج خشناً، مصبوغاً بلون المغرة المائل إلى الاصفرار، وهو لون الصخرة المحيطة به نفسه. كان محشواً بإحكام شديد لمنع أيّ شيء من دخول الفتحة. افترضت أنّه قديم، إلاّ أنّه بدا محفوظاً جيّداً، وكلما أزالت منه فريا، ازدادت قناعة أنّه وُضع حديثاً، ولا علاقة له بمصر القديمة على الإطلاق. أخبرت فلين بشكوكها، إلاّ أنّه لم يكترث بها.

صاح قائلاً: "الأقمشة تُحفظ جيّداً في الصحراء على الدوام، بفضل الهواء الجاف. رأيت أقمشة لُفّت بها مومياء ترجع إلى خمسة آلاف عام، وتبدو وكأنّها رُفعت للتو من النَول. ألم تخرجيها بعد؟".

"أوشكتُ على ذلك".

تابعت السحب، وأخرجت المزيد والمزيد من القماش، إذ تبيّن وجود عدّة قطع منفصلة وليس قطعة واحدة كبيرة. أخيراً، خرجت آخر قطعة ثقيلة من القماش محدثة صوتاً مكتوماً وأصبحت الفتحة خالية. دفعت كومة القماش بطرف

حذائها، وكانت لا تزال خائفة من وجود ثعابين في طيّاها، ثمّ قرفصت ووضعت يديها من جانبي الفتحة. عدّلت وقفتها قليلاً كي لا تحجب ضوء الشمس، وحدّقت إلى الداخل. تناهى إليها صوت فلين من الأسفل مترقّباً: "هل ترين شيئاً؟".

حلّ الصمت إلى أن تعوّدت عيناها على الظلام داخل الفجوة، ثمّ قالت: "أجل".

صمتا من جديد.

"إذاً، ماذا ترين؟ حبّاً بالله".

"وكأنّها...".

سكتت محاولة إيجاد الكلمة المناسبة، ثمّ قالت: "مقبض".

"ماذا تعنين بمقبض؟".

"مقبض، ذراع. مثل ذراع الفرامل في *تلفريك*".

لوّح بيديه محبطاً: "لم يسبق لي أن صعدت *التلفريك*! صفيها لي".

كانت ذراعاً خشبية، هذا كلّ ما استطاعت رؤيته، تقع في آخر الفجوة تماماً، التي يبدو أنّ عمقها يبلغ متراً داخل الجرف. كان ثمّة شريط جلدي يحيط بالمقبض الموضوع في فتحة أفقية عميقة في أرض الفجوة، التي يبدو أنّها تشكّل قناة يتمّ شدّ الذراع فيها، ولكنّها لم تستطع أن تخمّن مفعولها. كان مشهداً سريالياً، مثيراً للأعصاب على نحو غريب، مثل العثور على مفتاح نور على سطح المريخ، ولم تستطع منع نفسها من الشعور بشيء من الفزع.

صاح فلين: "إذاً؟".

وصفت له ما تراه. فقطّب جبينه، وعضّ على شفته مفكّراً. ثمّ صاح قائلاً: "اسحبيها".

"هل تظنّ ذلك؟". كان ثمّة شيء من عدم الارتياح في صوتها وهي تقول: "لا أعرف ما إذا كان يجدر بنا...".

"إذاً، لماذا أتينا إلى هنا بالله عنيك؟ هيّا اسحبيها".

لم تتحرّك، إذ شعرت... لم تستطع أن تفسّر حقّاً ما شعرت به. إنه إحساس منذرٌ بالخطر؛ تحذير داخلي أنّها إن نفّذت ضب فبن، ستُطلق سلسلة من الأحداث

التي لن يستطيعا السيطرة عليها، سيعبران حضاً ما كان ينبغي عبوره. ولكن، كما قال، هذا ما قطعا كلّ تلك المسافة من أجله. والأهمّ، أنّ هذا ما كانت ألكس لتفعله، لا شكّ في ذلك. كانت أختها لتشدّ الذراع من دون لحظة تردّد، وعلى الأرجح قبل أن يُطلب منها ذلك. توقّفت للحظة أخرى، ثمّ طرقت بعُقد أصابعها مرتين على سطح الصخر - وهي حركة استعداد تستخدمها قبل قيامها بمناورة تسلّق صعبة جدّاً - وأدخلت ذراعها في الفجوة.

كان الجو بارداً في الداخل، وبالكاد كان المقبض في متناول يدها، عند أقصى ما استطاعت الوصول إليه. كان عليها أن تضغط كتفها داخل الفجوة لتتمكّن من إحاطة المقبض بأصابعها، والضغط بكفّها بقوة على الشريط الجلدي، مكوّرة إبهامها لإحكام قبضتها. تحرّكت قليلاً، وتأكّدت من إحكام قبضتها، ثمّ بدأت تسحب.

كان المقبض متصلّباً، واحتاجت إلى كلّ قوّتها لتحريكه، وراحت عضلات عنقها وكتفها تنقبض وتتمدّد. حرّكته بضعة سنتمترات، ثمّ توقّفت لالتقاط أنفاسها وتعديل قبضتها، قبل أن تعود للسحب مجدّداً. بدأ المقبض يتحرّك بسهولة أكبر، وينزلق ببطء في الفتحة، ورافق تقدّمه صوت صرير وطحن غريب، وكأنّ ثمّة حبالاً تتحرّك وعجلات تدور. كان الصوت يصدر من مكان بعيد في الأسفل، وكأنّه يأتي من الصخرة نفسها. شدّت القبضة نحوها بقدر ما استطاعت، حتّى وصلت إلى مقدّمة الفجوة. ضغطت عليها مرّة أخيرة للتأكّد من عدم وجود أيّ فراغ، ثمّ انحنت ونظرت إلى فلين، ورفعت يدها الخالية وكأنّها تسأله، "هل حدث شيء؟".

كان قد ابتعد قليلاً عن الجرف، وأخذ ينقّل نظره على واجهة الصخرة.

أجاب بصوت عالٍ: "لا شيء. هل أنت متأكدة من أنّك سحبته حتّى النهاية؟".

صاحت فريا مؤكّدة أنّها فعلت.

قال: "لا أعرف. كلّ ما أستطيع قوله هو أنّني لم أرَ أبواباً خفية تُفتح".

تابعا المراقبة، فلين في الأسفل وفريا في الأعلى، وظلّ صوت الصرير يتردّد. بالرغم من كونه أكثر انخفاضاً الآن، وأكثر بُعداً. باستثناء ذلك، بقي كلّ شيء

على حاله تماماً، إلاّ أنّ الشمس بدت أكثر حرارة وإشراقاً، وتلوّنت السماء بلون أزرق باهت. انتظرا بضع دقائق، تلاشى فيها صوت الصرير حتّى اختفى نهائيًّا. لم ترَ فريا جدوى من البقاء على الحافة، فبدأت بالهبوط متّبعة الطريق نفسه الذي استخدمته للصعود. في أثناء ذلك، بدأت تتبيّن صوتاً جديداً يكاد لا يُسمَع، أشبه بهسهسة ناعمة. توقّفت في مكانها، وقدماها مدسوستان في شقّ ضيق، ونظرت حولها، محاولة معرفة مصدره. كان فلين قد سمعه هو أيضاً، واقترب من الجرف، وقد أمال رأسه مرهفاً السمع. لم تتلاشَ الهسهسة ولم تشتدّ، بل ظلّت تُسمع بشكل متواصل.

سألته: "ما هذا؟".

قال: "لا أدري. يبدو وكأنّه...".

"أرجوك لا تقل إنّ هناك أفاعيَ".

"لا، لا، بل أقرب إلى...".

صمت، واقترب إلى أسفل الجرف تماماً.

"انظري إلى هذا!".

عدّلت فريا وضعية قدميها، وانحنت وهي تتمسّك بعقدة صخرية، لتحدّق إلى الأسفل. في البداية، لم ترَ شيئاً. ثمّ لاحظت ما أشار إليه. عند أسفل واجهة الصخرة تماماً، وعند النقطة التي تشكّل فيها زاوية قائمة تماماً مع الصحراء، كانت الرمال تنزلق إلى الأسفل، تسيل على طول عشرين متراً من الجدار، كما تفعل عند عنق ساعة رملية. قرفص فلين قربها وضغط راحته على الأرض، وراقب الرمال وهي تختفي حول أنامله.

سألته: "ما هذا بالله عليك؟! رمال متحركة؟".

أجابها: "لا تشبه أيّاً من تلك التي رأيتها سابقاً". بدأت حبات الرمل تنزلق بسرعة أكبر، وكأنّ شيئاً ما يمتصها من الأسفل، ثمّ تحوّل التسرّب إلى تدفّق، وانفتح خط واضح عند أسفل الجرف.

سألته: "أين تذهب الرمال؟".

أجاب، وهو يحدّق كالمنوّم إلى الخط الذي راح يطول ويتّسع: "ليس لدي أدنى فكرة".

"ربّما يجدر بك الابتعاد قليلاً".

هزّ رأسه، ووقف، ثمّ تراجع بضع خطوات. واصلت الرمال انـــزلاقها، وبدا الجدار الصخري ينكشف تدريجيّاً، مثل جذر سنّ ضخم.

"يبدو وكأنّه يقطع الجزء الأدنى...".

لم ينهِ جملته. بضجّة مكتومة، هبط جزء كامل من الصحراء تحـــت قدميـــه. أصبحت المسهسة أعلى، بينما راحت الرمال تنجرف إلى الأسفل، مع أنّ اتجاههـــا ما زال غير واضح. تعثّر فلين واختلّ توازنه وسقط إلى الخلف، ثمّ وقف مجدّداً وبدأ يتراجع بسرعة بينما أخذت الصحراء تتآكل أمامه، تختفي مثل ميـــاه في بالوعـــة. وراحت الفجوة تتّسع وتزداد عمقاً من الجرف باتجاهه.

صاحت فريا: "اركض!".

لم يكن بحاجة إلى التحذير. فقد استدار، وراح يعدو على الرمال. بدا وكأنّ الحفرة تجري في أعقابه، تطارده بعيداً عن الجلف. اتّسعت نحو خمسين متراً بدءاً من الواجهة الصخرية، قبل أن تتباطأ تدريجيّاً، وكأنّها أبعدته بما فيه الكفاية، ثمّ توقّفت. مخلّفة حفرة هائلة عند قاعد الكتلة الصخرية.

توقّف فلين وهو يلهث، واستدار، مستعداً للركض مجدّداً إن قرّرت الحفـــرة استئناف اندفاعها نحوه. باستثناء بعض انـــزلاقات الرمال هنا وهنـــاك، يبـــدو أنّ الحفرة استقرّت، وبعد بضع دقائق من الانتظار، نـــزلت فريا جانبياً وهبطت على سطح الصحراء، عند حافة الحفرة. مشت بحذر حول الحافة، حتّـــى وصـــلت إلى جانب فلين وأخذا يحدّقان إلى المنخفض الذي ظهر تحتهما.

تمتم فلين: "يا الله!".

تحتهما، كان ثمّة شلال شديد الانحدار، نصف دائري من الرمال التي تدفقت نحو واجهة الجرف. وعند أدنى نقطة فيها، ظهر في الصخرة مدخل أسود ومخيـــف مثل فم يتثاءب، تحيط به من الجانبين تماثيل ضخمة منحوتة؛ أذرع مكتوفة علـــى الصدر، ورؤوس تعلوها تيجان طويلة مخروطية الشكل، ولحى تتدلّى من ذقونها مثل هوابط حادة. تحت الخصر، كانت التماثيل ما زالت مدفونة في الرمال، شأنها شأن الجزء الأسفل من المدخل، الذي راحت رمال الصحراء تجري عبره إلى الظلام مثل مياه شاحبة تصب في حلق العالَم السفلي.

تمتم فلين: "فم أوزيريس". كان وجهه خالياً من التعابير على نحو غريب وكأنّ ما رآه صدمه إلى حدّ أنّه فقدَ مؤقتاً قدرته على تغيير تعابيره. "أمضيتُ عمراً في علم الآثار المصرية و لم يسبق لي... لا أصدّق ذلك. إنّه مجرّد... مجرّد...".

اختفى صوته، ووقفا هناك لبرهة ينظران إلى الأسفل بذهول صامت، بينما لفحت حرارة الشمس ظهريهما، وحلّق باز وحيد فوقهما، تحت سماء الصباح الشاحبة. استجمع فلين أفكاره، وطلب من فريا الانتظار، ثمّ هرول باتجاه الميكرولايت، وعاد بالمصباح اليدويّ والحقيبة السوداء اللذين أحضرهما من منزل ألكس. ركع على إحدى ركبتيه، ووازن الحقيبة على الأخرى، ثمّ فتحها. في الداخل، كان ثمّة شيء يشبه ترمس برتقالي، مزوّد بهوائي في أعلاه.

شرح قائلاً وهو يسحب ذلك الشيء من غلافه الإسفنجي المحيط به: "إنّها منارة لتحديد المواقع. ستُرسل إشارة على الفور إلى رجال مولي في الولايات المتحدة، وهم سيبلّغون فريقهم على الأرض هنا في مصر. سيأتينا الدعم خلال ثلاث ساعات".

ضغط على زر في جانب الجهاز، ثمّ ثبّته على الأرض ووقف.

سألته فريا: "هل سننزل إلى الأسفل؟".

"لا، فكّرتُ في البقاء هنا وبناء قصور من الرمال".

كانت السخرية لطيفة، فابتسمت فريا، وقد أدركت أنّ سؤالها كان سخيفاً، وأنّه من المستحيل أن يجلس فلين هنا مكتوف اليدين.

"هل تظنه آمناً؟".

هزّ كتفيه وقال: "على الأرجح، لا يزيد أماناً عن منشية ناصر وأبيدوس".

"حسناً، أظنّ أنّنا خرجنا من هناك بخير".

حان دوره للابتسام.

"ربّاه! أنت مثل أختك".

لم تردّ عليه، بل اكتفت بحلّ عقدة شعرها، ثمّ هزّت رأسها ومدّت ذراعها باتجاه الفتحة.

"علماء الآثار المصرية أوّلاً".

اتسعت ابتسامته، وبدأ يشق طريقه باتجاه المدخل، متمسّكاً بجانبي المنحدر للحفاظ على توازنه، بينما غرقت قدماه في الرمال حتّى مستوى فخذيه تقريباً.

تبعته فريا. كان في منتصف الطريق تقريباً عندما توقّف، ونظــر إليهـــا. كانــت ابتسامته قد تلاشت، وأصبحت تعابيره جادة وعملية.

"قد يبدو لك ذلك سخيفاً، ولكن ثمّة أشياء عن هـــذا المكـــان، عناصـــر لا نودّ...".

صمت هنيهةً محاولاً إيجاد الكلمات المناسبة، ثمّ قال: "كوني حـــذرة عنـــدما ندخل. حاولي عدم إزعاج شيء، اتفقنا؟".

نظر إلى عينيها للتأكد من أنّها استوعبت كلامه، ثمّ أومأ وواصل النـــزول.

حلّقت مروحيات فوق الصحراء، طارت ستٌّ منها فوق الكثبان: خمس من طراز تشينوك بلون الرمل، وخلفها مروحية أغوستا. توجهت بسرعة نحو الجنوب الغربـــي، بعكس الشمس المشرقة، وقادها خط طيرانها قليلاً شمال صخرة وحيـــدة شاهقة، ما يعني أنّهم أغفلوا سيارة اللاند كروزر البيضاء المتوقّفة في الظـــل تحـــت نتوء عند أسفل الجرف. فقط عندما عبرت المروحيات المنطقة، وتلاشى ضجيجها في البعيد، خرجت السيارة إلى ضوء الشمس. توقّفت للحظة وكأنّها تشتمّ الهواء. ثمّ اندفعت إلى الأمام فوق الرمال، وسلكت اتجاه المروحيات نفسه، فيما راحـــت عجلاتها تنـــزلق فوق الرمال وكأنّها حريصة على ألاّ تُترك في الخلف.

قال فلين: "ربّاه!".

كانا قد وصلا إلى المدخل. وقفا من جهتيه، وحدّقا إلى الداخل المظلم الـــذي ينحدر بشكل حاد. تحتهما، انحدرت الرمال مسافة عشرة أمتار تقريبـــاً قبـــل أن تنحسر تدريجيّاً، لتكشف سلسلة من الدرجات الصخرية التي اختفت في الظـــلام وكأنّها في حوض من المياه السوداء العميقة.

أضاء المصباح اليدويّ، وحرّك ضوءه في الداخل متفحّصاً السقف والجـــدران المقطوعة بعناية، وكان الحجر ما زال يحمل علامات الإزميل القديمة. لم يستطع أن يتبيّن آخر الفجوة، فخفض الضوء وبدأ يهبط، حتّى بلغ الدرجات واستقام.

سألته فريا، التي راحت تتقدّم خلفه: "هل ترى شيئاً؟".

أجابها، وهو يوجّه ضوء المصباح إلى الظلام في الأسفل: "مجرّد درجات، عدد هائل من الدرجات. لا بدّ من أنّها تهبط إلى ما تحت الجلف، ولكن إلى أين بالتحديد...".

ابتعد قليلاً ليسمح لفريا بالسير قربه، إذ كان الممرّ عريضاً بما يكفي ويتسع لهما. كان ثمّة إحساس مزعج، يُنذر بالخطر حيال المكان - الظلام، والصمت، والطريقة التي تضغط بها الصخرة عليهما من جميع الاتجاهات - وللحظة وقفا هناك، وبدا فلين نفسه متردّداً في السير قُدماً.

قال: "ربّما يجدر بك الانتظار في الأعلى. دعيني أتحقّق إلى أين تودّي هذه الدرجات. في هذه الحال، إن حدث شيء...".

هزّت رأسها رافضة اقتراحه، وأخبرته أنّه إمّا أن يذهبا معاً أو ألاّ يذهبا على الإطلاق. هزّ رأسه قائلاً: "تماماً مثل أختك"، وبعد أن جال بالضوء حولهما مرّة أخيرة. بدأ بالنزول وفريا إلى جانبه، وكانا يتوقّفان كلّ بضع خطوات للتحقق مجدّداً من الدرجات، محاولَين معرفة المكان الذي تودّي إليه. تواصلت الدرجات نحو الأسفل، وغاصت أكثر في أعماق الصخرة، فيما كان الهواء يزداد برودة، والمدخل يتضاءل خلفهما إلى أن أصبح بحجم ثقب إبرة، فجوة صغيرة جدّاً في الظلام المحيط بها. أحصيا خمسين درجة، مئة، مئتين، وبدأت فريا تتساءل ما إذا كانا سيبلغان آخر الدرجات أم إنها تمتدّ إلى ما لا نهاية في أحشاء الأرض، عندما سقط ضوء مصباح فلين اليدوي على صخرة مسطّحة في الأسفل وهما ينزلان الدرجات الثلاث مئة. وبعد 15 متراً أخرى، أصبح الممرّ مستقيماً.

وجدا مدخلاً آخر في الأسفل، تحيط به التماثيل المنحوتة نفسها الموجودة عند المدخل في الأعلى. دخلا عبره، ووجدا نفسيهما في نفق طويل، وأضفت جدرانه المقوّسة وسقفه المقنطر على المكان شكلاً مستديراً أشبه بالأنبوب، وكأنّهما يقفان داخل أمعاء ضخمة. خلافاً للممرّ الذي هبطا عبره للتو، والذي كانت جدرانه وسقفه من الحجر العاري، كان الصخر هنا مكسوّاً بالجص ومطلياً باللون الأبيض، ورُسم عليه شكل ملتفّ أدركت فريا بعد لحظة أنّه يصوّر عدداً من الثعابين المتشابكة.

تمتم فلين، وقد أضاء مصباحُه رأساً ذا فكَّين مفتوحَين، ولسانٍ متشعِّب يخفق مهدِّداً: "*فليتلع الثعبان أبيب الأشرار في أحشائه*".

قالت فريا: "لا ينتابني إحساس مريح بخصوص ذلك".

قال: "أصبحنا اثنين. ابقي بقربـــي، وحاولي عدم لمس أيّ شيء".

بدءا يسيران، بينما أصدرت أقدامهما صوتاً جافاً علـــى الأرض الحجريـــة. ورافقتهما الثعابين المتشابكة، التي التفّت على الجدران والسقف. وساهم تـــأرجح أشعة الضوء في جعل الثعابين تبدو وكأنّها تلتفّ وتنـــزلق، كما لو أنّها تتحـــرّك. وضاعف الظلام من هذا التأثير، شأنه شأن شكل النفق والجو الساكن والخـــانق. فتوقّفا أكثر من مرّة والتفتا، ظنّاً منهما أنّ الصور تتحـــرّك *بالفعـــل*، منـــزلقة خلفهما، فاتحة فكّيها. إلاّ أنّها كانت مجرّد صور، وما إن اقتنعا أنّ خيالهمـــا هـــو الذي ولّد ذلك الإحساس، وأنّه مجرّد ســـراب تحـــت الأرض، اســـتدارا وتابعـــا طريقهما. امتدّ النفق مسطحاً لمسافة خمس مئة متر، على خط مستقيم عبر الصخر العالي، قبل أن يبدأ بالتوجه صعوداً، بلطف في البداية، ومن ثمّ أكثر انحداراً باتجـــاه السطح. اجتازا بضع مئات أخرى من الأمتار - وكان النفق والسلّم قد أخـــذاهما لمسافة تتجاوز الكيلومتر في باطن الجلف - عندما توقّف فلين فجأة. أمسك بذراع فريا، وأطفأ المصباح.

تردّد صوته عبر النفق: "هل لاحظت شيئاً؟".

في البداية لم تفعل، ذلك أنّ الظلام غلّفها تماماً. ولكن، مع اعتياد عينيها عنيه. بدأت ترى خيطاً شاحباً من الضوء فوقها وأمامها، بالكاد كان مرئياً، وكأنّه شـــقّ عمودي دقيق جدّاً في الظلام الذي يكتنفهما.

سألته: "ما هذا؟ أهو باب؟".

أجاب: "في الواقع، إمّا أن يكون باباً ضيقاً جدّاً، أو بعيداً جدّاً. تعالي".

أضاء المصباح مجدّداً واستأنفا سيرهما، على نحو أسرع الآن، وكلاهما توّاقـــان إلى التخلّص من الظلام الخانق. قادهما الممرّ صعوداً، وكانت الجـــدران والســـقف تتسع وترتفع على نحو تدريجي، وبعد أن كان الممرّ بالكاد يتّسع لهما معاً، أصـــبحا يسيران الآن مع مساحة إضافية. حثّا خطاهما، ثمّ بدأا يهرولان بسرعة إلى الأمـــام. يتوقان إلى الشمس والهواء النقي، غير عابئين إلى أين يقودهما النفق ولا ما يوجد في

آخره، بل كلّ ما أراداه هو الخروج. ومع أنّ الممرّ واصل اتساعه، وأصبح تقدّمهما أسرع، إلاّ أنّ خيط الضوء لم يشتدّ ولم يقترب، بل ظلّ يحوم بعيداً، مثل بقعة رمادية تجذبهما، لكنّها تبقيهما بعيدَين.

تذمّر فلين: "ما هذا...؟". وحثّ خطاه بشكلٍ أسرع. بدأ يبتعد عن فريا، موجّهاً ضوء المصباح إلى الأرض ليرى العوائق قبل أن يصل إليها. مع ذلك، ظلّ الضوء بعيداً، محيّراً، ساخراً، فشعر فلين بالإحباط، وانطلق يجري فجأة باتجاه الضوء وكأنّه يحاول مفاجأته، والوصول إليه قبل أنّ يبتعد مجدّداً. للحظة، تردّد صوت وقع خطواته في النفق، ثمّ سُمع صوت تحطّم مفاجئ وارتطام، وكأنّ شيئاً ليّناً سقط على شيء قاسٍ. تدحرج المصباح على الأرض محدثاً رنّة معدنية، واهتز ضوءه على جدران الصخرية. أبطأت فريا سيرها، وحدّقت إلى الظلام.

"فلين؟".

سمعت أنيناً.

"هل أنت بخير؟".

صدرت عنه آنّة أخرى، ثمّ قال من دون تركيز: "تبّاً!".

اقتربت فريا من المصباح، ثمّ حملته وسلّطت ضوءه إلى الأمام. كان فلين ممدّداً على ظهره يحدق إلى السقف، ويطرف بعينيه، وقد بدا الذهول على وجهه، مثل ملاكم سقط على الأرض بضربة مفاجئة. خلفه، رأت سبب توقّفه المفاجئ، إذ كان النفق مسدوداً بباب خشبي شديد المتانة. وبين مصراعيه، بدا خيط رقيق من ضوء النهار، وكان هو مصدر الضوء الذي رأياه وهما داخل النفق.

سألته وهي تسرع إليه وتساعده على الوقوف: "هل أنت بخير؟".

تمتم وهو يمسك بكتفها ويتكئ عليها: "ليس تماماً. فقد اصطدمتُ بهذا الشيء اللعين. ربّاه! يبدو وكأنّني أصبتُ...".

لم يستطع تشبيه إصابته بشيء. عوضاً من ذلك، وقف، ولمس جبينه بحذر محاولاً استجماع حواسه المشتّتة. بقي على هذه الحال لبعض الوقت، ثمّ أخذ منها المصباح، وكان لا يزال يبدو مربكاً، وسلّطه على الباب.

كان مصراعا الباب مثبّتَين على جداري النفق بمفاصل برونزية، وكانا ضعف طوله ومنحوتَين ومثبّتَين بعناية - طرفهما العلوي مقوّس ليتناسب مع انحناء

سقف النفق - حيث إنّه باستثناء المسافة الضيقة الرمادية بينهما، لا يمكـــن رؤيـــة شيء على الإطلاق خلفهما.

سألها: "هل سمعت ذلك؟".

كانت قد سمعت زقزقة طيور خافتة وخرير مياه جارية أكثر خفوتاً. ضـــغط فلين وجهه على الشقّ، محاولاً الرؤية عبره، لكنه كان ضيّقاً جدّاً. تراجع، وســـلّط ضوء المصباح على الترباس الممتدّ وسط المصراعين، والذي يقفلهما. كان قد لُـــفّ حبل رفيع وخشن حوله، وثُبّت بختم من الطين مدموغ بصورة ما كانت لتعرفهـــ فريا قبل ثلاثة أيّام، لكنّها أصبحت الآن مألوفة للغاية. كانت على شكل مســـنّة. وبداخلها علامة سدجت التي تظهر على شكل حلقة.

قال فلين وهو يتحسّس الختم: "ما زال سليماً. أيّاً يكن ما يوجد خلف هـــذا الباب، فإنّ أحدًا لم يدخل من هذا الطريق منذ أربعة آلاف عام".

"هل تظن أنّها الواحة؟".

"لا أفهم كيف يمكن أن تكون، علماً أنّني حلّقتُ فوق هذه المنطقة بالتحديد قبل ساعة و لم أرَ شيئاً. ولكن ممّا عرفته عن ويت سيشتات، لا شيء كما تخيّلتـــه. أظنّ أنّه ثمّة طريقة واحدة لنعرف".

مدّ يده إلى جيبه الخلفي، وأخرج مطواة صغيرة، وضغط شفرتها على الحبـــل. تردّد للحظة، وبدا متمنّعاً عن إتلاف الأربطة القديمة، ثمّ بدأ يقطع الحبل، ويبعده.

سألها وهو يزيح الترباس ويضع يده على المصراع الأيمن: "أأنتِ جاهزة؟".

أجابت وهي تضغط بثقلها على المصراع الأيسر: "كما لم أكن يوماً".

"في هذه الحال... افتح يا سمسم!".

دفعا الباب، فانفتح مصدراً هسهسة ناعمة، وتدفّق ضوء النهار لاســـتقبالهم. فجأة، أصبحت أصوات زقزقة العصافير وخرير المياه أعلى بكثير.

في اللحظة التي هبطت فيها المروحيات، فتحت أبوابها ولفظت رجالاً يرتدون بذلات صادة للأشعة. تقدّموا بصعوبة إلى المدخل الموجود في الصخرة، وتفحّصوه بمجموعة من المبتكرات الإلكترونية، واستمرّوا على ذلك لبضع دقائق قبل أن يُسمع

رجال المنتظرين في مروحيات التشينوك عبر اللاسلكي أنّ المكان خال. خرج لآخرون إلى الصحراء؛ فقام بعضهم، وكانوا رجالاً مدجّجين بالسلاح يضعون نظارات الشمسية ويرتدون السترات الواقية من الرصاص - بإنشاء طوق أمني حول مدخل الحفرة الرملية. وبدأ آخرون بتفريغ صناديق الألمنيوم، وحملها عبر فتحة إلى النفق الممتدّ خلفها. وعندما اختفت آخر الصناديق، توجّه جرجس ورملاؤه نحو الباب. وقفوا قليلاً قربه، ثمّ استدار جرجس يحدّق إلى الشخص لواقف عند حافة الحفرة في الأعلى. وبعد أن أومأ ولوّح له، استدار وبدأ مع مجموعة نزولهم نحو الظلام في الأسفل، وتبعهم التوأم. دسّا أيديهما في جيوبهما، وبدوا غير مكترثَين على الإطلاق بالمسألة برمّتها.



عندما كانت فريا وشقيقتها صغيرتين، كانتا تتخيلان أنّ وراء القمر يوجد عالم سري: مكان لم تطأه قدم إنسان مليء بالأزهار، والشلالات، وموسيقى لعصافير. كانت ألكس قد ألمحت إليها في رسالتها الأخيرة إلى فريا، وإن في سياق مختلف، وكانت تلك هي الفكرة التي قفزت إلى ذهنها آنذاك على الفور وهي تحدّق إلى ما لا يمكن وصفه سوى بأجمل مكان على الأرض.

كانا يقفان عند طرف ممرّ طويل وعميق، تطوّقه منحدرات شاهقة تتدفّق منها شلالات خفيفة من المياه مثل خيوط فضية. عند ذلك الطرف الأضيق، كان عرض لممرّ لا يتجاوز العشرين متراً. ولكن مع ابتعاده إلى الوراء في الخلف، بدأ يتسع بسرعة، مثل شق فأس في الصخرة العارية، وأرضه ترتفع بشكل طفيف، بينما انفرجت جدرانه عن بعضها مثل فتحة مقص. خمّنت فريا أنّ عرض الوادي في نهايته يبلغ أربع مئة أو خمس مئة متر، مع أنّه من الصعب التأكد بسبب بُعده. حلّقت الطيور وانخفضت فوق رأسيهما، وامتدت شبكة من أقنية المياه الجارية بكلّ اتجاه عبر أرض الوادي، ترطّب الرمل وتروي حياة نباتية غنية: من أشجار، وأجمات، وسجادات من الأزهار الملونة. وحتّى الجروف الصخرية استوطنتها كتل كثيفة من النباتات التي تدلّت على الحواف ومن الشقوق مثل فيضان من الشعر الأخضر.

تمتم فلين وهو يهزّ رأسه عجباً: "غير ممكن. حلّقتُ فوق هذا المكان و لم أجد شيئاً، مجرّد صخور وصحراء".

تقدّما، وامتدّت يداهما تلقائياً وتشابكتا وهما يتأمّلان شبكة الأوراق والأغصان أمامهما. استغرقا بعض الوقت لتعتاد أعينهما على تلاعب الضوء والظلّ، وبدأا يلاحظان أشكالاً بين النباتات؛ منحنيات وزوايا من الحجر، أجزاء من جدران، أعمدة، تماثيل "أبو الهول"، وتماثيل عملاقة ذات أجسادٍ بشرية ورؤوس حيوانات. وقع نظرهما هنا على عينين حجريتين فارغتين تحدّقان إليهما خلف قناع من الطحالب، ورأيا قبضة ضخمة مضمومة بارزة من وسط بستان من أشجار النخيل. إلى اليسار، وجدا بقايا شارع مرصوف يختفي بين الشجيرات. وإلى اليمين، صفاً من المسلاّت التي برزت عبر مظلّة من الأوراق مثل صحراء من الرماح.

همست فريا: "كيف استطاعوا بناء كلّ هذا؟ هنا وسط الصحراء؟ لا بدّ من أنّه استغرق منهم قروناً من الزمن".

قال فلين وهو يتقدّم إلى المساحة الرملية أمام مدخل النفق: "لا بل وأكثر. فهذا يتجاوز كلّ ما... أعني أنّني قرأت النصوص، وشاهدت صور شميدت، ولكن أن تكون بالفعل...".

لم يستطع إتمام جملته، بل غاب صوته في صمت حالم مليء بالرهبة. مرّت خمس دقائق، وقفا خلالها هناك يتأملان المكان. كانت الشمس قد ارتفعت في كبد السماء، وهو أمر غريب، لأنّه استناداً إلى ساعة فلين، لم تكن الساعة قد تجاوزت 8:09 صباحاً. رفع رأسه وحجب نور الشمس عن عينيه وهو يهزّ رأسه وكأنّه يقول: *لا شيء يفاجئني في هذا المكان*. مرّت دقيقتان، ثمّ أفلت فلين يد فريا ورفع ذراعه.

قال مشيراً إلى البعيد، نحو الطرف الأعلى للوادي، إلى ما بدا مثل منصة صخرية طبيعية شاسعة تعلو قمم الأشجار: "لا بدّ من أنّه المعبد". كان يعلوه قرص ثقيل منحوت، يتضمن بناءً خمّنت فريا أنّه قد يكون البوّابة في صورة رودي شميدت.

سألته: "هل سنذهب إلى هناك؟".

مع أنّ تعابير فلين أوحت أنّه يودّ ذلك، إلاّ أنّه هز رأسه نافياً.

قال: "علينا العثور على الأنتونوف أوّلاً، والتحقّق من حالتها، وبعد ذلك يمكننا الاستكشاف".

نظرت إليه فريا.

"ألا نملك عدّاد غايجر، أو شيئاً من هذا القبيل؟ هذا في حال كان أيّ من عبوات اليورانيوم قد تضرّر أثناء التحطّم".

ابتسم فلين.

"أيّاً يكن ما يدعونا إلى القلق، فإنّ التسمّم بالأشعة ليس على اللائحة. فاليورانيوم - 235 ليس أكثر سمّية من سطح الغرانيت الموجود في المطابخ. يمكنني الاستحمام به من دون أن أصاب بأيّ أذى. مع أنّه إن كنتِ تعرفين متجراً يبيع عدّادات غايجر في الجوار، سيسرّني شراء جهاز، فقط ليرتاح بالك. هيّا".

غمزها ممازحاً، ثمّ قادها عبر الفسحة إلى غابة عميقة من أشجار الأكاسيا والطرفاء بمعظمها، بالرغم من وجود أشجار نخيل، وتين، وصفصاف أيضاً، وشجرة جمّيز وحيدة باسقة. كان الهواء دافئاً، ولكن ليس على نحو غير مريح، وعابقاً برائحة الصّعتر والياسمين، يعجّ بالعصافير، والفراشات، وحشرات اليعسوب الأكبر والأكثر لمعاناً التي رأتها فريا. تسلّلت أشعة الشمس عبر الأغصان مثل ستائر من الذهب الخالص، وتدفّقت الجداول البرّاقة بين جذوع الأشجار، لتتلاشى ببساطة في بعض الأماكن، أو تصبّ في أماكن أخرى في برك من المياه الصافية محاطة بضفاف مزينة بأزهار النرجس، تتخلّلها زنابق الماء الزرقاء والبيضاء.

قالت، وقد ملأها جمال المكان دهشة: "لا يبدو حقيقياً، وكأنّه خرج من قصّة خيالية".

كان فلين يتجول في الواحة، وقد اكتسى وجهه بمزيج من النشوة وعدم التصديق.

قال: "أعرف ما تعنينه. ثمّة جزء من نقش معروض في متحف اللوفر يسمّي الواحة ويت ريسوت، أي واحة الأحلام. وبعد أن أصبحنا هنا، فهمت السبب".

تابعا تقدّمهما، وظلّ الوادي يرتفع ويتسع باطّراد، والجدران، والتماثيل، والألواح المكسوة تلوح بالنقوش الهيروغليفية في كلّ مكان. كانت بعضها محفوظة

بشكل كامل، بينما ظهرت الشقوق والصدوع على ألواح وتماثيل أخرى، وكساها اجتياح بطيء من جذوع الأشجار والسيول. وكلما شاهدا المزيد، تأكد لهما أنّ ما بدا من مدخل النفق بناء عشوائياً، لم يكن كذلك بالفعل، بل على العكس من ذلك، لا شكّ في أنّ الحجر كان في الماضي بيئة هندسية منظّمة من الشوارع، والطرقات، والمباني، والساحات، وشكلها الأساسي ما زال واضحاً وسط الأدغال التي اجتاحته.

قال فلين، وصوته يرتعش إثارة: "ربّاه! لا بدّ من أنّها كانت خلاّبة. لطالما ظننتُ أنّ النصوص التي تصف زرزورة كمدينة مبالغ فيها، ولكن هذا هو بالتحديد ما كانت عليه. وهذا يطيح بكلّ ما عرفناه عن التكنولوجيا المصرية القديمة".

وصلا إلى مرج مليء بأزهار الخشخاش والقنطريون، بينما راحت طيور "أبو منجل" والبلشون الأبيض تتنقّل هنا وهناك، تزقزق وتنقر الأرض. أصبحت المنصة الصخرية التي رأياها من أسفل الواحة أقرب بكثير الآن، مع أنّها ما زالت بعيدة. ترتفع فوق قمم الأشجار مثل مسرح عملاق، وأصبحت البوابة الضخمة التي تظهر في صورة رودي شميدت واضحة للعيان. توقّفا وحدّقا إليها، ثمّ تابعا طريقهما. متّبعَين رصيفاً رخامياً مكسوّاً بالأعشاب، يمتد وسط المرج، ويحيط به من الجانبين صفّان متشابهان من تماثيل "أبو الهول" والمسلاّت؛ فكّر فلين في أنّها كانت طريقاً لمرور المواكب.

كانا قد قطعا نصف المرج تقريباً، عندما توقّفت فريا وأمسكت بذراع فلين.

قالت: "هناك"، وأشارت إلى اليمين، نحو بستان كثيف من أشجار النخيل يقع إلى جانب الوادي. من فوق سعف النخيل المقوّسة، ومثل زعنفة بيضاء بالية في ظهر سمكة، بالكاد بدا ذيل الطائرة، وبدت لمحات من بدنها بين الجذوع في الأسفل.

قال فلين: "ها هي".

عبرا طريقاً مرصوفاً آخر، أضيق من الأوّل، إلاّ أنّه لا يقلّ عنه كثافة، ويمتد على خط عمودي معه. بدا أنّه يؤدّي مباشرة إلى البستان، فسلكاه، ومرّا أمام سلسلة من خنافس الجعل العملاقة المصنوعة من الغرانيت، قبل أن يصلا إلى شجر النخيل. شقّا طريقهما بينه، حتّى وصلا إلى فسحة صغيرة تتسلّل إليها أشعة خفيفة

من ضوء الشمس. كانت طائرة الأنتونوف ملقاة أمامهما: بيضاء، وبالية، وصامتة على نحو مخيف، تظلّلها شباك من اللبلاب والبوغنفيلية.

مع أنّ الطائرة هبطت اضطرارياً ثمّ هوت نحو مئة متر في الوادي - ما زالت آثار هبوطها بادية بوضوح على سطح الصخرة فوقها - إلاّ أنّها ظلّت بحالة جيدة على نحو مدهش. تحطّم جناحها الأيمن تماماً و لم يظهر له أثر، كما اختفى نصف جناحها الأيسر، وكانت مراوح محرّكها الباقي ملتوية ومشوّهة. بدت فجوة خشنة الأطراف في وسط الجهة السفلية للطائرة، وكأنّ حيواناً ضخماً ومفترساً نهش قضمة منها. مع ذلك، كان طريقاً مناسباً إلى الأعلى، لكون الطائرة قد حطّت على بطنها. بالرغم من الكدمات والإلتواءات الكبيرة، إلاّ أنّها ما زالت قطعة واحدة، ذيلها يرتفع بتحدّ عبر الأشجار، وأنفها مضغوط على وجه تمثال ضخم "لأبو الهول".

تأمّلا المشهد جيّداً، ثمّ اقتربا من الجزء الخلفي للطائرة، وتوقّفا أمام ثلاث تلات مستطيلة اصطفّت عند ظلّ ذيلها. غُرز على رأس كلّ منها في التراب رمز النصارى الديني بدائي الصنع.

قال فلين: "لا بدّ من أنّ شميدت دفنهم. من الصعب الشعور بالأسف عليه نظراً إلى أنّه كان يهرّب خمسين كيلوغراماً من اليورانيوم إلى صدّام حسين، ولكن مع ذلك... ربّاه! لا بدّ من أنّه واجه وقتاً عصيباً".

وقفت فريا بجانبه، وحاولت أن تتخيّل ما مرّ به شميدت: وحيداً، خائفاً، وعلى الأرجح جريحاً، يحفر قبوراً ضحلة، ويجرّ الجثث من الطائرة...

سألته: "كم بقي هنا برأيك؟".

أومأ فلين إلى بقايا نار مخيّم تبعثرت حولها علب معدنية فارغة: "لمدّة من الزمن، بحسب ما يبدو. أظنّ أنّه انتظر أسبوعاً على الأقلّ حتّى تمّ إنقاذه، وربّما أكثر. وعندما لم يأتِ أحد لنجدته، قرّر المحاولة، وعاد سيراً إلى الحياة المدنية. مع أنّني لا أمتلك أيّ فكرة عن كيفيّة تمكّنه من الخروج من هنا؛ بالتأكيد ليس عبر الطريق التي جئنا منها".

حدّقا إلى القبور لمدّة أطول، ثمّ مشيا بجانب بدن الطائرة نحو المخرج الأمامي. أدخل فلين رأسه عبر الباب المفتوح قبل أن يدخل إلى الطائرة ويساعد فريا لتتبعه.

كان الداخل مظلماً، واحتاجت فريا لبعض الوقت لتعتاد على الظلام. حين فعلت، شهقت ووضعت يديها على فمها.

"يا الله!".

على بُعد عشرة مقاعد منهما، كان ثمّة رجل. بالأحرى بقايا رجل. كان جالساً بشكل مستقيم، وقد تحنّط تماماً بفعل جو الصحراء الجاف. كان محجرا عينيه فارغين، وبشرته صلبة كالجلد وسوداء اللون، وفمه مسدوداً بخيوط العنكبوت وقد فُتح على وسعه وكأنّه يجاهد لأخذ أنفاسه. لم يتّضح لهما على الفور سبب تركه هناك وعدم دفنه مع الآخرين. ولكن عندما اقتربا، تبيّنا السبب. فقد دفعت قوّة الحادث جميع مقاعد الجهة اليمنى للمقصورة إلى الأمام وعلى بعضها، فانضغطت واحتجزت ساقَي الرجل فوق الركبتين تماماً، وحاصرته. بدا المشهد مؤلماً على نحو لا يُحتمل، إذ سُحقت ركبتاه وكأنّهما بين فكَّي حيوان مفترس. مع ذلك، لم يكن هذا هو السبب الذي أودى بحياته، وإنّما كان الصندوق المعدني الكبير الذي كان يحمله على حجره، ودفعته حركة المقاعد إلى الخلف باتجاه بطنه، فسحق أعضاءه الداخلية، وضغط حجابه الحاجز حيث أصبح عرضه أقلّ من عشرة سنتمترات.

سألته فريا وهي تشيح بنظرها: "هل تظنّ أنّ موته كان سريعاً؟".

أجاب فلين: "فلنأمل ذلك، من أجله".

انحنى وبدأ يتفحّص الصندوق بعناية. كان لا يزال مقفلاً ولا يبدو أنّه تعرّض للتلف أو العبث. وبعد بحث سريع، اكتشف وجود ثلاثة صناديق مشابهة على الأرض بين المقاعد في الجهة المقابلة للممرّ. كانت هي أيضاً لا تزال مقفلة وبحالة جيّدة.

قال: "كلّها موجودة وسليمة. هيّا بنا نخرج. سيصل رجال مولي في غضون ساعتين، وسيتولّون أمر كلّ هذا. لقد قمنا بواجبنا".

لامست يَده ذراع فريا، واستدارت جاهزة للخروج. ولكن في أثناء ذلك ألقت نظرة أخيرة مجدّداً على وجه الجثة المحنّط. وللحظة خاطفة، ولكنّها كانت كافية، لاحظت شيئاً يتحرّك داخل أحد محجريه، ويدور حول نفسه. في البداية ظنّت أنّها تخيّلت ذلك، ثمّ غمرها شعور بالاشمئزاز حين فكّرت أنّها لا بدّ أن

تكون دودة أو يرقة. فقط عندما أجبرت نفسها على النظر عن كثب، أدركت بفزع أنّه كان دبّوراً: سميناً، وأصفر، بسماكة إصبعها، يخرج من رأس الجثة ويسير على عظم الأنف. تبعه آخر، ومن ثمّ آخر، ومن ثمّ اثنان. وفجأة، بدأ يعلو صوت طنين منخفض من الجمجمة.

كانت تستطيع التعامل مع أيّ شيء آخر، عدا الدبابير التي تسبّب لها رعباً بدائياً، منذ أن كانت طفلة. أطلقت صرخة، وبدأت تتراجع، وتلوّح بيديها أمامها. أدّت حركتها إلى إثارة الحشرات. فطارت تلك التي خرجت في الهواء مهدّدة، وبدأت أعداد أخرى تتدفّق من العش، وهي تطنّ بغضب. علق أحدها في شعر مريا، وارتطم آخر بخدها، ما ضاعف حالة الهستيريا التي أصابتها، والتي أهبت بدورها قفير الدبابير.

أمرها فلين قائلاً: "ابقي ساكنة. قفي مكانك وحسب!".

ولكنها تجاهلته، واستدارت مندفعةً باتجاه المخرج وهي تلوّح بذراعيها. ولكن ما إن وصلت إلى منتصف الطريق، حتّى تعثّرت بغصن نبتة معترشة وسقطت على الأرض، فأثارت الضجة جنون الدبابير.

قال فلين بصوت منخفض: "حبّاً بالله، ابقي ساكنة"، ثمّ لحق بها عبر الممرّ وارتمى فوقها، محاولاً حمايتها بذراعيه وجسده. ثم قال: "كلّما تحرّكتِ، اهتاجت أكثر".

صاحت وهي تتلوّى تحته: "يجب أن أخرج! أنت لا تفهم، لا أستطيع...". وأطلقت صيحة مدوّية.

شعرت بألم حارق في الجهة الخلفيّة من عنقها.

"أبعدها، أرجوك، أبعدها!".

إلاّ أنّه اكتفى بإمساك رسغيها وتثبيت ساقيها بساقيه وكأنّهما يتصارعان، بينما ضغط خده على رأسها، وضغط بثقله عليها لتثبيتها إلى الأرض. شعرت بدبور يزحف في ساق سروالها، وآخر يمشي على جفنها المغلق، واثنين آخرين على شفتيها. لقد تحوّل أسوأ كوابيسها إلى حقيقة. لا بل تجاوز ما تعيشه أسوأ كوابيسها. إلاّ أنّها لم تُصب بمزيد من اللسعات، ومع أنّ الإحساس بالحشرات على بشرتها كان لا يطاق، إلاّ أنّها تمكّنت بجهد جهيد، وبمساعدة فلين، من البقاء بلا

حراك. استمرّ هجوم الدبابير عليهما من كلّ حدب وصوب - كيف أمكن وجود هذا العدد منها في جمجمة واحدة؟ - ثمّ بدأ القفير يتبدّد على نحو غير متوقّع، تماماً كما ظهر. تلاشى الطنين، واختفت الحشرات عن وجهها وساقها. ظلّت ممـددة على الأرض، جامدة، وعيناها وفمها مغلقة، خائفة من أن تتسبّب أقلّ حركة مـن جانبها بإثارة تلك الكائنات مجدّداً. ولا بدّ من أنّ فلين فكّر في الشيء نفسـه لأنّ وقتاً طويلاً قد مرّ قبل أن تشعر به يرفع رأسه وينظر حوله. وبعد قليل، ابتعد عنها.

قال وهو يمدّ يده لمساعدتها على الوقوف: "كلّ شيء على ما يـرام، لقـد ذهبت".

ضغطت نفسها على صدره وهي ترتجف، وكانت اللسعة التي أصابت عنقها تؤلمها بشدّة.

كرّر لها بصوت هادئ ومطمئن وهو يحيطها بذراعيه: "كلّ شيء علـى مـا يرام، أنت بأمان، فقد زال الخطر".

للحظة، للحظة فقط، بدا أنّه على حقّ، ثمّ تناهت إليهما من الخارج ضحكة منخفضة خبيثة، ثمّ صوت أحدهم يقول: "لسوء الحظ، بروفسور برودي، هذا غير صحيح تماماً، غير صحيح على الإطلاق، من وجهة نظرك على الأقلّ. أمّـا مـن وجهة نظري...".

تنقّل الرجلان عبر الشجيرات. تحرّكا بسرعة على طول سفح الوادي. كانـا يتوقّفان كلّ خمسين متراً تقريباً، وينحنيان خلف ما يصـادفانه مـن أشـجار أو أجمات، أو جدران، أو تماثيل لإرهاف السمع والتقاط أنفاسهما، قبل أن ينطلقـا مجدّداً. اندمجت ملابسهما البنّية بسهولة مع المحيط حيث لم تلحظ مرورهما حتـى الطيور، ولم تتنافر معه سوى ومضات بيضاء لحذاءيهما الرياضيّين من ماركة نايكي كانت تظهر كلّما رفعا عباءتيهما لتسلّق الصخور أو عبور الجداول. لم يتحدّثا، بل تواصلا بالإشارات والصفير، وبدا أنّهما يعرفان تماماً وجهتهما. فتابعا تقدّمهما عبر الواحة إلى أن وصلا إلى منتصفها، وهناك انحرفا باتجاه وسط الوادي. تقدّما بحـذر أكبر بينما كانا يشقّان طريقهما من غطاء إلى آخر، فيلوحان لفترة وجيزة قبـل أن

يذوبا في المنظر الطبيعي. وصلا إلى نخلة عملاقة، تسلّقها أحدهما برشاقة، واختبأ تحت أوراقها في الأعلى. أمّا الآخر فابتعد قليلاً، قبل أن يختبئ هو أيضاً خلف ذراع ضخمة من الغرانيت. أطلاّ وأومأا برأسيهما نحو بعضهما، ثمّ رفعا بندقيتيهما. وعندما ظهر في الأسفل صف من الرجال الذين يسيرون بين الأشجار نحوهما، نزلا واختفيا، وكأنّه لم يكن لهما وجود إطلاقاً.

للحظة، ظلّ فلين وفريا جامدَين، وقد شلّتهما المفاجأة. ثمّ انخفضا معاً خلف المقاعد، وأطلاّ من أقرب نافذة. كان المشهد خالياً من النباتات على نحو أتاح لهما رؤية روماني جرجس واقفاً في الفسحة في الخارج، مرتدياً ملابس في غاية النظافة، وقد رسم ابتسامة على وجهه. أحاط به التوأمان بشعرهما البني. كانا يرتديان بنطلين، وقميصَي كرة قدم باللون الأبيض والأحمر لفريق الأهلي. كما كان ثمّة رجلان آخران، كان أحدهما طويل القامة وملتحياً، والآخر سميناً يحمل سيجارة بين أسنانه، بدا شاربه كثيفاً ملوثاً ببقع النيكوتين. كما كان ثمّة آخرون في الخلف، مع أنّهما لم يستطيعا معرفة عددهم بشكل دقيق أو ما يفعلونه.

همست فريا: "كيف تمكّنوا من إيجادها؟".

قال فلين محاولاً رؤية ما يجري في الخارج بشكل أفضل: "الله أعلم. ربّما كان لديهم أساساً رجال يراقبون الصخرة، وربّما أرسلوا أشخاصاً منذ أن رآنا أنغلتون ونحن نقلع... لا فكرة لديّ إطلاقاً".

"ماذا سنفعل؟".

أتتها الإجابة بصوت جرجس، مع أنّه لا يمكن أن يكون قد سمعها: "انزلا من فضلكما وارفعا أيديكما".

تذمّر فلين قائلاً: "تبّاً!".

نظر حوله بجنون، وجابت عيناه المقصورة، قبل أن تثبتا على الجثة المحنّطة. كانت لا تزال بكامل ملابسها، وقد تنافر القميص والسترة بقوّة مع الجسد المتقلّص والمسودّ. ظهر من تحت السترة عقب مسدس. فزحف فلين، وسحبه من قرابه، ثمّ تحقّق من فعاليته. يبدو أنّه ما زال يعمل، على نحو مثير للدهشة.

علا صوت جرجس مجدّداً: "اخرجا رجاءً، فأنتما لا تستطيعان فعل أيّ شيء؛ فما جدوى المناورة؟".

سألته: "هل يمكننا الصمود؟ حتّى وصول رجال مولي؟".

"ساعتان مع مسدس غلوك واحد وخمس عشرة طلقة؟"، ضحك ساخراً ثمّ تابع: "لا أمل لدينا على الإطلاق. فهذا ليس أحد أفلام هوليوود".

"إذاً؟ ماذا سنفعل؟".

هزّ رأسه عاجزاً، وأجال نظره مجدّداً داخل طائرة الأنتونوف. استقرّ نظره على الصناديق المعدنية الثلاثة الموضوعة بين المقاعد خلفه. تردّد قليلاً قبل أن يضع المسدس على الأرض، ويتمدّد، ثمّ يمسك بقبضة الصندوق الأقرب ويجرّه نحوه، وهو يكافح مع ثقل وزنه.

"ماذا تفعل؟".

تجاهل سؤالها، وراح يعبث بقفلَي الصندوق محاولاً فتح الغطاء، ولكن، عبثاً.

كرّرت: "ماذا تفعل؟".

لم يجبها فلين؛ وعوضاً من ذلك، استعاد المسدس، ومال إلى الخلف، ثمّ حمى فريا بإحدى ذراعيه، وأطلق رصاصتين محطّماً الأقفال. وضع المسدس جانباً من جديد، وفتح الغطاء. في الداخل، وفي حشوةٍ من الإسفنج، كان ما يشبه خفّاقتَي كوكتيل فضّيّتين. أخرج إحداهما، ثمّ حملها بكلتا يديه لثقل وزنها، ووقف.

تردّد صوت جرجس من الخارج، وبدا أكثر حيرة وقلقاً: "بروفسور برودي، أخبرني أرجوك أنّك لن تطلق الرصاص على نفسك. لديّ رجال هنا سيخيب أملهم جدّاً إن لم تسنح لهم فرصة...".

مال فلين من فوق المقاعد وطرق الحاوية على النافذة، محدثاً صوتاً صاخباً. فصمت المصري في منتصف حديثه.

صاح وهو يطرق مجدّداً، ليلفت انتباه من هم في الخارج، ويتأكد من أنّهم رأوا ما يحمله: "هل ترى هذا يا جرجس؟ هذه عبوة تحتوي على يورانيوم شديد التخصيب. اليورانيوم المخصّب الذي تبحث عنه. تقدّم خطوة واحدة، وسأفتحها وأفرّغها داخل هذه الطائرة، هي والعبوات الأخرى. هل تسمع؟ اقترب شبراً واحداً، وسأحوّل هذا المكان إلى فرن مشعّ!".

كانت فريا قد لحقت به، وضغطت بأصابعها على كتفه.

همست: "ظننتُ أنّك قلتَ إنّ اليورانيوم ليس خطراً".

أجابها بصوت منخفض: "ليس كذلك. ولكنّني أعوّل على جهل جرجس بذلك، فهو رجل أعمال وليس فيزيائياً. وحتّى إن كان يعرف، فرجاله لا يعرفون على الأرجح. على الأقلّ، سيجعلهم هذا يتردّدون قبل الدخول والقضاء علينا".

طرق مجدّداً على النافذة، وخضّ العبوة فعلاً هذه المرّة، ثمّ أمسك الغطاء، وبدأ يديره، وبالغ في حركته حيث بدا بوضوح ما كان يفعله.

"هل تشاهد يا جرجس؟ هل تريد رؤية بعض اليورانيوم؟ أتريد معرفة رائحته؟ لأنّك على وشك أن تفعل إن لم تتراجع! تعالَ، تعالَ لمشاهدة العرض الرائع المتسمّم الإشعاعي!".

مجدّداً، أدار الغطاء مرّة، ومرتين، وثلاث، بانتظار ردّ فعل من الخارج. ولكن، عبثاً. فقد وقف جرجس ورجاله هناك، وبدا على وجوههم مزيج من التسلية والدهشة. خيّم الصمت لبرهة، ولم تُسمَع سوى زقزقة العصافير المرحة التي تنافر لحنها مع هذه المواجهة، ثمّ علت فجأة ضحكة مدوية. لم تصدر عن جرجس، بل صدرت من بين الأشجار خلفه. ضحكة ناعمة، وأنثوية إلى حدّ ما.

"بروفسور برودي، أنت مستهتر حقّاً! لماذا لا تضع ذلك الشيء من يدك وتخرج كي نتحدّث. جميعنا أصدقاء هنا".

القاهرة

كان إبراهيم كمال يبلغ الثالثة والسبعين من عمره، وخلال خمسة وستين عاماً من تلك الأعوام، اصطاد في البقعة نفسها من نهر النيل، شمال القاهرة تماماً. وخلال كلّ تلك السنوات الخمس والستين، لم يسبق له قطّ اصطياد سمكة كبيرة كهذه السمكة التي تشدّ الآن خيط صنارته.

سأله حفيده: "ربّاه! ما هذا؟"، وأحاط خصر الرجل العجوز بذراعيه لتثبيته في أثناء اهتزاز قاربهما. "سلّور؟ فرخ؟".

صاح العجوز: "بل هي أقرب إلى حوت"، وأغمض عينيه، بينما راحت الصنارة تحزّ على راحتيه (كان يستخدم خيطاً من النايلون مع صنارة في طرفه، وليس عصاً أو شيئاً من هذا القبيل). "اصطدتُ عندما كنت بسنّك سمكة فرخ تزن 150 باونداً، إلاّ أنّها لم تكن بوزن هذه السمكة. إنّه حوت، صدقني، حوت!".

أرخى الخيط قليلاً، متيحاً للسمكة بعض الحركة، ثمّ بدأ يشدّ مجدّداً. اهتزّ قاربهما الخشبي البسيط على نحو مخيف، وارتطمت أمواج النهر بحواف القارب. قال الشابّ: "ربّما يجدر بنا تركه وشأنه، سيغرقنا".

قال إبراهيم وهو يشدّ الخيط بيديه الاثنتين، وقد جحظت عيناه من شدّة الضغط: "لن آبه حتّى لو جرّنا إلى قعر النهر! لم يسبق لي أن فقدتُ سمكة، ولن أبدأ الآن".

أرخى الخيط مجدّداً، محاولاً تهدئة خصمه، ثمّ عاد يشدّ، والقارب يهتزّ أكثر بفعل التيّار والأمواج التي تُصدرها عبّارة تشقّ طريقها عكس التيّار، على طول الضفّة المقابلة.

أخذ إبراهيم يهاودها قائلاً: "هيّا يا حلوتي، هيّا، كوني مطيعة".

بدأ الخيط يرتفع بسهولة أكبر الآن، ولم يعرف إبراهيم ما إذا كانت السمكة قد استسلمت، أم إنّها تلعب لعبتها. لفّ جزءاً آخر من الخيط، ثمّ توقّف لالتقاط أنفاسه وتعديل وقفته، قبل أن يعاود السحب مجدّداً مُخرجاً الوحش من الأعماق. ليسحبه ببطء إلى السطح، إلى أن أطلق حفيده صيحة وهو يشير نحو المياه.

"ها هي! ها هي! ربّاه! إنّها هائلة!".

بعيداً إلى اليسار، بينهما وبين طوف من أعشاب النيل المنجرفة مع التيار. ظهر شكل سمكة تحت السطح تماماً، مع أنّها لم تكن تشبه أيّ سمكة رأياها من قبل، إذ كانت منتفخة، وشاحبة، وساكنة على نحو غريب. تابع إبراهيم السحب. ببطء أكثر، وقد علت وجهه الحيرة. أفلت حفيده خصره، وانحنى على طرف القارب، حاملاً شبكة بإحدى يديه، وخطّافاً باليد الأخرى، جاهزاً لسحب السمكة حالما تصبح قريبة بما فيه الكفاية. في أثناء ذلك، صفعت موجة قوية جانب السمكة، ودفعتها نحوهما، وقلبتها على ظهرها، ليتمكّنا للمرّة الأولى من رؤية صيدهما بوضوح. لم تكن سلوراً، ولا فرخ نيل، ولا حتّى حوتاً، بل رجلاً. كان

سميناً جداً، يضع ربطة عنق، ويرتدي سترة قشدية اللون راحت تتمايل مع تموجات النهر. كان ثمّة ثقب واحد نظيف أحدثته رصاصة وسط جبينه.

انجرف إلى جانب القارب وارتطم به، محدّقاً إليهما بعينيه المطفأتين. التقى نظر إبراهيم بنظر الميت، ثمّ هزّ رأسه.

تمتم قائلاً: "أظنّ أنّنا لن نبيع هذا في سوق السمك".

داخل الواحة

"مولي! لا أصدّق ذلك!".

للحظة، واصل فلين التحديق من النافذة، مذهولاً، ومقتنعاً أنّ سمعه يخدعه. ولكن، عندما تأكّد أنّ كيرنان هي بالفعل التي تحدّثت، أعاد عبوة اليورانيوم إلى الصندوق، وأومأ إلى فريا كي تتبعه، ثمّ أسرع باتجاه مخرج الطائرة.

صاح وهو يقفز إلى الخارج ويستدير لمساعدة فريا على النزول: "كيف وصلتِ إلى هنا بهذه السرعة؟ ظننتُ أنّك ستحتاجين على الأقلّ إلى ساعتين إضافيتين. وكأنّك الفارس الذي وصل في الوقت المناسب".

شعر بسرور بالغ. أنزل فريا على الأرض ثمّ التفت مجدداً نحو كيرنان، وقد ارتسمت ابتسامة عريضة على شفتيه.

"حقاً، مولي، لا أصدّق. أعني، أنا أعرف أنّك دائماً في المقدّمة، ولكنّني لم أشغّل الجهاز سوى منذ تسعين دقيقة. لا يمكن أن تصلي إلى هنا بهذه السرعة، مستحيل. هذا... هذا... هذا...".

انخفض صوته حتّى صمت، وجمدت ابتسامته، ثمّ تلاشت، مع استيعابه للمشهد أمامه: مولي كيرنان، تحمل جهازاً لاسلكياً أسود بيدها، وتقف جنباً إلى جنب مع روماني جرجس. كلاهما مسترخيان ومبتسمان، ولا يبدو أيّ منهما منزعجاً على الإطلاق من وجود الآخر، لا بل على العكس. إن كانا لا يبدوان تماماً مثل صديقين حميمَين، فهما ليسا بالتأكيد عدوّين لدودَين. كانا شريكَي عمل، هذا هو الانطباع الذي أحسّت به فريا؛ شريكَي عمل قديمَين أبرما، كما يبدو من ملامح الرضى على وجهيهما، صفقة كبيرة ومربحة للغاية.

"مولي؟".

أصبحت نبرة فلين متشكّكة فجأة، وتنقّلت عيناه بين كيرنان وجرجس، ثمّ نظر إلى الأشجار خلفهما، ليرى رجالاً يتنقّلون في البعيد، يحملون ما بدا أشبه بصناديق ألمنيوم كبيرة.

"ماذا يجري يا مولي؟".

اتّسعت ابتسامة كيرنان وقالت: "ما يجري يا فلين، أنّه بفضلكما أنتما الاثنين...".

أومأت نحو فريا.

"... وجدنا الواحة الخفية. تمّ تحقيق هدف ساند فاير، وأصبح بالإمكان إنهاء المشروع، فقد أصبح العالم أكثر أماناً. ابتسما، أنتما بطلان!".

حملت جهاز اللاسلكي، وضغطت إصبعها عليه وكأنّها تلتقط صورة، قبل أن تتقدّم وتربّت على كتفيهما.

تابعت وهي تمرّ بينهما باتجاه طائرة الأنتونوف، وتطلّ برأسها عبر الباب: "أمّا بالنسبة إلى سؤالك السابق، فقد وضعنا جهاز تعقّب بالأقمار الصناعية على طائرة الميكرولايت، وكنّا خلفكما منذ لحظة إقلاعكما. وقامت وحدة مراقبة بتتبّعكما طيلة الليل، فقد خيّمنا على بُعد أربعين كيلومتراً منكما، وهكذا تمكّنا من الوصول إلى هنا بهذه السرعة. يا الله!".

كانت قد رأت الجثة المحنّطة، فتجعّد وجهها اشمئزازاً. خلفها، كان فلين لا يزال يحاول استيعاب الوضع.

سألها: "هل فاتني شيء ما؟".

همهمت كيرنان، ثمّ أخرجت رأسها من مدخل الطائرة والتفتت نحوه.

"هل فاتني شيء يا مولي؟ من *أنتم* بالتحديد؟".

"ظننتُ أنّ الجواب بديهي".

قال فلين بنبرة قاسية ولاذعة: "كلاّ، ليس بديهياً. ليس بديهياً على الإطلاق. لماذا لا تشرحين لنا من تكونون؟".

"أنا وروماني، بالطبع".

بدت وكأنّها أمّ تشرح شيئاً بديهياً لطفلها.

"أنت تعملين لحساب جرجس؟".

نظر إليها بعينين جاحظتين غير مصدّق.

"بالأحرى، جرجس هو الذي يعمل لحسابنا، مع أنّه مثل أيّ علاقة على مرّ السنوات...".

"على مرّ السنوات! ماذا تقولين بالله عليك، مولي. منذ متى بدأ هذا الأمر؟".

"تريد تواريخ محدّدة؟".

توتّر جسد فلين بأكمله، وارتفعت يده وهو يشير بإصبعه نحو كيرنان وقال: "لا تثيري غضبي يا مولي. هذا القوّاد القذر وتاجر المخدّرات ذبح صديقة لي، وأوشك على قتلنا نحن الاثنين...".

ولوّح بيده نحو فريا.

"أنا لستُ في مزاج للعب. أريد أن أعرف ما يجري ومنذ متى، أريد أن أعرف الآن. هل تسمعين؟".

تصلّب فم كيرنان، وكأنّها غير معتادة على أن يتحدّث إليها أحد بهذه الطريقة التي لم تعجبها. حدّقت إلى فلين، بعينين فولاذيتين، ثمّ هزّت رأسها، وهندمت ملابسها، وجلست عند مدخل الطائرة، ثمّ شبكت ذراعيها.

"روماني جرجس يعمل لحسابنا منذ العام 1986. تحديداً، منذ نيسان 1986، حين طلبنا منه تزويدنا بكمية من المواد الانشطارية لمساعدة حلفائنا العراقيين في نضالهم ضدّ إيران".

نظر فلين إلى فريا، ثمّ التفت إلى الخلف نحو جرجس الذي كان يبتسم باعتداد عند الطرف الآخر من الفسحة، ثمّ حوّل نظره مجدّداً إلى كيرنان.

قال بصوت مرتاب: "حكومتكم هي وراء هذا؟ حكومتكم هي التي كانت سترسل القنبلة إلى صدّام؟".

تصلّب فم كيرنان أكثر، وتجعّد حتّى أصبح أشبه بعقدة.

أجابت: "أتمنّى لو أنّ ذلك هو ما حدث، ولكن مع الأسف. كنّا سعداء بتمويل العراقيين، وتزويدهم بالمعلومات الاستخبارية، والأسلحة، وحتّى المواد الكيميائية، ولكن عندما أصبحنا قادرين على تزويدهم بالوسائل الفعلية لإنهاء

العمق - للقضاء على الإيرانيين - كبح ريغن محاولاتنا. لا بل أسوأ من ذلك، كان نصف إدارته يزوّد *إيران* بالأسلحة".

هزّت رأسها استنكاراً، ثمّ تابعت قائلة: "لهذا السبب، قرّرت مجموعة منا التدخل والسيطرة على الوضع، من أجل صالح أمريكا، ومن أجل صالح العالم بأكمله".

كان ذهن فلين يعمل بسرعة محاولاً استيعاب كلّ ذلك، فقال: "مجموعة منكم؟ مجموعة ممّن؟ السي آي أيه؟".

لوحت بيدها، رافضة الإجابة.

لن أخوض في هذا الحديث هنا. إنّهم أشخاص يفكّرون بالطريقة نفسها من الجيش، والبنتاغون، والمخابرات؛ هذا كلّ ما تحتاج إلى معرفته. وطنيون، واقعيون. أشخاص عرفوا الشرّ عندما رأوه".

نظر إليها فلين غير مصدّق.

"وهذه المجموعة من الواقعيين ذوي التفكير المتشابه، قرّرت أنّ أفضل طريقة لضمان استقرار الخليج هي إسقاط قنبلة ذرية على إيران؟".

أجابت كيرنان، إمّا من دون أن تلاحظ سخرية فلين، أو متجاهلة إيّاها: "بالتحديد. وبالنظر إلى ما يحدث الآن مع أحمدي نجاد، أظنّ أنّه ثبت أنّنا محقّون أكثر من أيّ وقت مضى".

هزّت رأسها وكأنّها تؤكّد صحة رأيها، ثمّ فردت ذراعيها، وهندمت فستانها مجدّداً، من دون أن تحوّل نظرها عن فلين. كان الإنكليزي يبدو في حالة ذهول تام. تماماً كما بدا عندما ارتطم بالباب الخشبي في النفق، يفتح فمه ويغلقه، وكأنّ لديه مئة سؤال ولا يعرف من أين يبدأ. وقفت فريا بجانبه صامتة، وخلا وجهها من التعابير، غير قادرة هي أيضاً على تصديق ما يجري، وقد نسيت تماماً الألم الذي سبّبته لدغة الدبور في عنقها.

أخيراً، سألها فلين وهو يكافح للسيطرة على صوته: "ولماذا تكبّدتم عناء التعامل مع جرجس، ما دام لديكم جميع أولئك الأشخاص في الجيش. والحكومة... لماذا لم تمرّروا لصدّام اثنين من رؤوسكم الحربية اللعينة؟ لا يبدو الأمر وكأنّكم تفتقرون إلى الأشخاص المناسبين".

"آه! رجاءً!". هزّت كيرنان رأسها، وبدت نبرتها مجدّداً أقرب إلى نبرة أمّ غاضبة من حماقة ابنها. "لدينا النفوذ، ولكن ليس هذا القدر من النفوذ. فهي ليست مسألة ملء استمارة أو شيء من هذا القبيل: *المعذرة حضرة الممّون، هل يمكنك أن تضع قنبلتين ذريتين جانباً؟ سآمرّ لآخذهما بعد ظهر اليوم*". هذا موضوع سرّي تماماً، وينبغي إبقاؤه خارج القنوات المعتادة. بالطبع، رتّبنا الصفقة، وأمّنا المعلومات الاستخبارية، وموّلناها مناصفة مع صدّام، ولكنّنا كنا نعمل وراء الكواليس، لا، بل ربّما على مسرح آخر. وفي ما يتعلّق بالإدارة اليومية، فقد تولاّها روماني إلى حدّ كبير".

قال فلين: "ولكن، أنتم من تعطون الأوامر".

أقرّت قائلةً: "ولكن نحن من نعطي الأوامر".

هزّ رأسه ومرّر يده في شعره. بدا وكأنّ وجهه عاجز عن الاختيار بين تعابير عدم التصديق، أو الغضب، أو الصدمة، أو التسلية.

"كلّ ذلك الهراء حول تتبّع جرجس، واعتراض الطائرة...".

قالت كيرنان: "في الواقع، كنا *بالفعل* نتعقّبه. ولكن، ليس للأسباب التي أعطيتك إيّاها".

هزّ رأسه مجدّداً، ثم سألها مشيراً بإصبعه إلى حطام الأنتونوف: "ثمّ ساءت الأمور؟".

هزّت كيرنان كتفيها وقالت: "مجدّداً، بالطبع، تحتّم علينا التصرف ببراعة ودفن أدلة تورطنا. لم نستطع أن نقول بالتحديد: *نحن آسفون، يا جماعة، ولكننا فقدنا خمسين كيلوغراماً من اليورانيوم التي كنا نمرّرها إلى صدّام حسين*. ولكن عموماً، كانت الرواية قريبة من تلك التي قصصتها في الليلة الماضية. قمنا بأبحاثنا من جهة، وقام روماني بأبحاثه من جهة أخرى، والفرق الوحيد الحقيقي أنّ كلتا الجهتين كانتا تعملان للوصول إلى الغاية نفسها، إن كنتَ تفهم قصدي. ونظراً إلى تعقيد الوضع، أظنّ أنّنا قمنا بعمل جيّد للغاية".

"تباً لكم. وتظنّين أنّ الإيرانيين مجانين؟".

للحظة، لم تجبه كيرنان، بل ثبّتت نظرها عليه، وظلّت في مكانها متصلّبة الفكّين، ومستقيمة الظهر. ثمّ وقفت، ونقلت جهاز اللاسلكي إلى اليد اليسرى، قبل أن تتقدّم وتصفع فلين على وجهه.

قالت بنبرة حادّة، وقد احمرّ وجهها غضباً، وتحوّل فمها إلى خطٍّ حادٍّ: "إيّاك أن تتجرأ على شتمنا. وإيّاك أن تحكم عليّ. أنت لا تفهم، لا تفهم إطلاقاً مدى خطورة هؤلاء الناس. أرجوك، أرجوك...".

رفعت ذراعها وكأنّها تحاول لفت انتباه أستاذ، وبدأت تحاكي بشكل ساخر صوت فتاة صغيرة، خجولة، وبريئة وهادئة وهي تقول: "... أريد أن يكون العالم مكاناً جميلاً وأن يكون جميع الناس أصدقاء، وألاّ يتواجد فيه أيُّ أشرار. حاول أن تعيش في الواقع، أيّها الأحمق!".

خفضت ذراعها مجدّداً، وظهرت فقاعات لعاب من زاويتي فمها، كما بدا شيء وحشي في عينيها وهما مسمّرتان على فلين.

"أوتظنّ أنّ صدّام كان شريراً؟ صدقني، كان رجلاً صالحاً مقارنة بأولئك الذين يحكمون إيران. هل نسيت حصار سفارة طهران؟ وتفجير سفارة بيروت؟ وتفجير ثكنات بيروت؟ لقد مات زوجي في ذلك الهجوم، حبيبي تشارلي. وكانت إيران خلفه، مثلما تقف الآن خلف المجموعات في المنطقة: حزب الله، حماس، الجهاد الإسلامي...".

مع كلّ اسم، كانت تطقطق بأصابعها أمام وجه فلين، ثم تابعت: "إيران هي إحدى أكثر الأنظمة شراً، لوّث وجه الكوكب في أواسط الثمانينيات، عندما كنتَ لا تزال تلميذ مدرسة تلعب بعلم الآثار المصرية المثير للشفقة، بينما كنّا نحن، بمسؤولياتنا الكبيرة، نواجه حقيقة أنّ هؤلاء القتلة لديهم فرصة حقيقية لهزم العراق، ليصبحوا القوّة المهيمنة في منطقة الخليج بأسرها. فقد سبق واستولوا على جزر المجنون، وشبه جزيرة الفاو، وكانوا يغرقون ناقلات النفط...".

طقطقت أصابعها مجدّداً أمام وجه فلين، لإيصال وجهة نظرها وهو متنبهاً إلى كل ما تقوله، وتابعت: "كانت كارثة لا يمكن تصوّرها، أن تقع المنطقة الأساسية المنتجة للنفط في العالم أسيرة ملالي إيران. كان ينبغي فعل شيء. ومن كان منّا يتمتّع بالجرأة الكافية، قرّر القيام بذلك. وصدّقني، لو أنّنا نجحنا، لكان العالم مكاناً أكثر أماناً ممّا هو عليه اليوم، ثق بي، أكثر أماناً بكثير".

توقّفت، وراحت تتنفّس بصعوبة. مسحت فمها بظاهر يدها، وعيناها لا تزالان مثبّتتين على فلين، الذي اكتفى بالوقوف أمامها، خدّه محمرّ من أثر الصفعة.

حلّ صمت طويل لم تقطعه سوى زقزقة العصافير، وطنين دبور من وقت إلى آخر بينما كان مرافق جرجس البدين يدخّن سيجارة. ثمّ لمست كيرنان رمز النصارى الديني المعلّق حول رقبتها، وابتعدت عن فلين لتجلس مجدّداً عند باب الأنتونوف.

قالت وهي تهندم فستانها مجدّداً وكأنّها تهدّئ نفسها، وأصبحت نبرتها أكثر ليونة واسترضاءً: "يؤسفني ما مررتَ به مؤخّراً، ما مررتما به أنتما الاثنان".

قالت ذلك وهي تنظر إلى فريا، التي حدّقت إليها بوجه جامد من دون أن يرفّ لها جفن: "وأنا آسفة لأنّني استخدمتك يا فلين، وهذا ما فعلته خلال السنوات العشر الأخيرة، مثلما استخدمتُ الكثيرين من الناس غيركما. كنتُ أعرف تاريخك يا فلين، وما حدث مع الفتاة في بغداد، كنتُ أعرف أنّك ستستغلّ الفرصة لتعوّض عمّا قمتَ به، وستنفّذ كلّ ما يُطلب منك. استغللتُ تلك النقطة، ولست فخورة بذلك، لكنّ أموراً كثيرة جدّاً كانت على المحكّ حيث إنّه لم يكن بالإمكان السماح للاعتبارات الشخصية بإعاقتها. لقد فعلتُ ما كان يتحتّم فعله، من أجل خير أعظم".

قال فلين، وبدا متعباً أكثر ممّا بدا غاضباً: "كنتِ أنت من زوّدتِ جرجس بالمعلومات، أليس كذلك؟ أنتِ من أخبرته أين كنّا؟ في الجامعة، وفي المتحف".

"كما قلت، فعلتُ ما كان يتحتّم علي فعله".

"ولكنك كنتِ تنوين ترحيلنا، حين كنّا في الشقة؛ *وأنا* من أصررتُ على البقاء".

"بالله عليك! كان ساند فاير كلّ شيء بالنسبة إليك، فرصتك الكبرى لإعادة حياتك إلى الطريق القويم! لم أكن بحاجة إلى طبيب نفسي لأعرف أنّه إن كان ثمّة محطات لم تتوقّف عندها، وأماكن لم تبحث فيها، فبالتأكيد ستفعل إن هدّدتُ بإرسالك في أوّل طائرة متوجّهة إلى إنكلترا. وقد نجحَت الخدعة بالفعل".

رفعت يدها مشيرة إلى الواحة المحيطة بهم. تنهّد فلين والتفت موجّهاً نظره أوّلاً إلى جرجس ومرافقيه، ومن ثمّ إلى الرجال الذين يتنقّلون بعيداً وراء البستان. لمح صناديق معدات، وبنادق، ورجالاً يرتدون ما بدا أشبه ببدلات واقية من الأشعة، وهو أمر وجده مبالغاً فيه نظراً إلى الظروف. لم يتابع الفكرة، إذ كان ذهنه مشغولاً بكلّ ما سمعه لتوّه.

عاد يسأل كيرنان: "وماذا عن أنغلتون؟ أفترض أنّه كان صلة وصل بينك وبين جرجس؟ وقام بالجري وراءنا في حين لعبتِ دور سيّد الدمى خلف الكواليس".

حدّقت إليه وقد ضاقت عيناها. للحظة بقيت صامتة، ثمّ انفجرت بالضحك فجأة على نحو غير متوقّع، ثمّ قالت: "بارك الله فيك يا فلين، ولكنّ تصريحات كهذه هي التي تقنعني أنّك قد تبرع في علم الآثار المصرية، ولكنك لن تذهب بعيداً على الإطلاق في عالم الاستخبارات".

ضحكت مجدّداً، ثمّ مسحت عينيها بمنديل ورقي وتابعت قائلة: "لا علاقة لسايروس أنغلتون بي، ولا بروماني، أو بساند فاير، أو بأيّ من هذا". ثمّ أخذت نفساً واستجمعت أفكارها وأضافت: "إنّه من قسم الشؤون الداخلية في السي آي أيه".

فتح فلين فمه، ثمّ أغلقه مجدّداً.

تابعت كيرنان قائلةً: "الله وحده يعلم كيف، لأنّ ساند فاير كان مُحكَم السرية حيث يستحيل حتّى على بعوضة اختراقه. إلاّ أنّ شخصاً ما في مكان ما في الوكالة اكتشف خطباً؛ مدفوعات غير اعتيادية، وأحداثاً غريبة في مصر...".

رفعت يديها وتابعت قائلةً: "من يدري من زوّدهم بالمعلومات؟ تمّ إرسال أنغلتون للتحقيق، بإذنٍ على مستوى عالٍ. وكان أفضل رجل لديهم على جميع الأصعدة، أسطورة في عالم التطفّل الداخلي. حصل على أوسمة عديدة، ولم يفشل قطّ في أيّ قضيّة".

ابتسمت وهي تكوّر المنديل وتعيده إلى جيبها قائلةً: "الأمر مثير للسخرية. حقّاً، لأنّه من وجهة نظرك كان الرجل الخيّر الذي حاول مساعدتك. اكتشف أنّ ساند فاير ليس تماماً كما يبدو، وأنّني لستُ تماماً كما بدوت، وحاول اللحاق بكما إلى الداخلة لتحذيركما، وأخذكما إلى مكان آمن. نعم، لقد توصّل بالتأكيد إلى أعماق المسألة. ولا يزال هناك على ما أظنّ، في الأعماق".

نظرت إلى جرجس، فضحك المصري، ويبدو أنّ الاثنين تشاركا مزحة لا يعرفها فلين أو فريا.

قالت كيرنان: "هيّا، اعترف أنّ الأمر مثير للضحك".

تمتم فلين بمرارة قائلاً: "مضحك جداً". ألقى نظرة أخرى من فوق كتفه عبر الأشجار، ولم يكن يرى حينذاك سوى بضعة رجال، إذ إنّ الباقين انتقلوا إلى أعلى الوادي، مكوّنين طوقاً حول الطائرة كما بدا له، مع أنّه كان مشغولاً جداً بأفكار أخرى للتركيز على هذه النقطة هذه المرّة أيضاً. كلّ شيء فيه - كتفاه المنخفضتان، تعبيره الذليل، عيناه الجامدتان - جعله يبدو مثل شخص اكتشف لتوّه أنّه وقع ضحية مزحة كبيرة وكريهة للغاية.

أخيراً، سأل كيرنان: "إذاً، ماذا ستفعلون به؟".

بدت وكأنّها لم تفهم ما يتحدّث عنه، فكرّر السؤال.

قال بسأم، وهو يومئ نحو الطائرة: "اليورانيوم، ماذا ستفعلون باليورانيوم؟ بما أنّ صديقكم صدّام لم يكن صديقاً جيّداً في النهاية".

هزّت كتفيها وقالت: "لن نفعل به شيئاً".

"ماذا تعنين بقولك إنكم لن تفعلوا به شيئاً؟".

"ما قلته بالتحديد، سنتركه هنا".

"أرجوك يا مولي، لا مزيد من الخدع".

"أنا لا أقوم بأيّ خدعة يا فلين. سنترك الصناديق في مكانها، ولن نلمسها".

"أمضيتم ثلاثة وعشرين عاماً، والله أعلم كم من الملايين أنفقتكم وأنتم تجوبون الصحراء الغربية، قتلتم صديقيّ، وأوشكتم على قتلي أنا وفريا، والآن بعدما وجدتم ما تبحثون عنه، ستتركونه هنا؟".

هزّت رأسها إيجاباً.

تابع فلين قائلاً: "تبّاً، ولكن ماذا تعنين؟". انفجر غضبه، وشدّ قبضتيه، وراح يصبّ في وجهها كلّ الإحباط والحيرة اللذين سيطرا عليه في الدقائق العشر الأخيرة، مثل زبد يتدفّق من نبع ماء حار. "ثلاثة وعشرون عاماً وستتركونه هنا؟ خمسون كيلوغراماً من اليورانيوم اللعين عالي التخصيب، وبعد كلّ هذا ستتركونه هنا وحسب!".

حدّقت إليه، من دون أن تتأثّر بفورة غضبه. وبعد فترة وجيزة من الصمت، تبادلت خلالها كيرنان وجرجس نظرة أخرى قالت: "لا يوجد يورانيوم يا فلين".

كان صوت كيرنان هادئاً وطبيعياً على نحو غريب.

"ماذا؟ ماذا قلتِ؟".

رفع فلين يده إلى أذنه، ظناً منه أنّه لم يسمع بوضوح.

كرّرت قائلة: "لا يوجد يورانيوم. لم يكن ثمّة يورانيوم قطّ".

اكتفى بالوقوف أمامها، مذهولاً.

"ليونيد كانونين، الروسي الذي كان ينفّذ الجزء الآخر من الصفقة، أخذ الخمسين مليون دولار، وسلّم ثماني عبوات مليئة بكرات الفولاذ. أخبرنا شخص ما في منظّمته بذلك بعد يومين من سقوط الطائرة". خلفه، أصدر جرجس ضحكة مكتومة أخرى.

"واجهنا السيّد كانونين، وتحدّثنا على العشاء. مع الأسف، لم يبدُ أنّه استمتع بطعامه".

تمتم بشيء لمرافقيه، فانفجروا ضاحكين هم أيضاً. تابعت كيرنان: "أقدّر اهتمامك يا فلين، حقّاً، ولكن حتّى لو أنّ القاعدة أو مجموعة أخرى عثرت مصادفة على الطائرة، وهو أمر غير مرجّح نظراً إلى المشقّة التي واجهناها لإيجادها... حسناً...".

ابتسمت ثم تابعت: "لا أظنّ أنّ جبروت الآلة العسكرية الأمريكيّة سيهتزّ إن قام أحدهم بإطلاق حفنات من الكرات المعدنية الصغيرة عليهم".

اختفى اللون من وجه فلين، وتدلّت ذراعاه إلى جانبيه. بدا وكأنّه كبر عشرة أعوام خلال عشر دقائق.

وقفت كيرنان ومدّت ذراعيها باتجاه باب الطائرة. "ألا تصدّقني؟ انظر بنفسك".

هذا ما فعله، إذ مرّ من أمامها وصعد إلى طائرة الأنتونوف. تردّد صدى حركته من داخل الطائرة قبل أن يظهر مجدّداً وهو يحمل إحدى القنابل المعدنية بيده. فكّ الغطاء وقلبها رأساً على عقب، فتدفّقت منه كرات معدنية راحت تقفز على الرمل عند قدميه مصدرة صوت رنين ناعم. شحب وجهه حتّى ظنّت فريا أنّه سيفقد وعيه.

تمتم بصوت ذاهل، وغير مستقرّ: "ولكن لماذا؟ لا أفهم. لماذا أمضيتم ثلاثة وعشرين عاماً في البحث عن شحنة يورانيوم غير موجودة أصلاً؟".

قالت كيرنان بينما كانت تعبر الفسحة لتقف بجانب جرجس: "ولكنّنا لم نكن نبحث عنه. لم يكن اليورانيوم هو ضالّتنا. لم يتعلّق الأمر قط باليورانيوم".

"إذاً، بِمَ يتعلّق؟".

"كنّا نبحث عن بنبن يا فلين".

اتّسعت عيناه من شدة الذهول، في حين تابعت كيرنان حديثها: "هذا ما كنّا نبحث عنه طيلة هذه السنوات، منذ أن التقطنا آخر بثّ من رودي شميدت، واكتشفنا أنّ الطائرة قد سقطت في الواحة الخفيّة. لم يكن اليورانيوم سوى غطاء، وما كان يهمّنا بالفعل هو بنبن. كان هذا هو هدفنا دائماً".

بدا صوتها ناعماً، مغرياً تقريباً، بينما ومضت عيناها وهي تقول: "ما الذي كُتب على ورق البردي القديم؟ ذاك الموجود في متحف هيرمتاج. *سلاح على شكل صخرة. وبهذا السلاح دُمّر أعداء مصر في الشمال، ودُمّروا في الجنوب، وسُحقوا في الشرق والغرب حيث أصبح ملكهم يحكم جميع الأراضي ولا يقف أحد ضدّه أو يواجهه أو يهزمه أبداً، لأنه يحمل صولجان الأسياد المبجّلة*".

حملت اللاسلكي فوق رأسها وكأنّه سلاح، وبدت مسرورة ومنتصرة. تابعت قائلةً: "صدّقني يا فلين، إن كان هذا الشيء قوياً كما تصفه المصادر، ما من شرير في العالم سيجرؤ على الوقوف في وجهنا، لا الإيرانيون، ولا الروس، ولا أيّ مغفّل؛ ولا أيّ من غريبي الأطوار الأفارقة أو جنوب الأمريكيّين، لا أحد. سلطة مطلقة، وأمن مطلق، ونظام عالمي جديد. نظام صحيح. عندما تنظر إلى الأمر من هذه الزاوية، تبدو ثلاثة وعشرون عاماً من البحث، وخمسون مليون دولار من التكاليف ثمناً زهيداً. ألا تظن ذلك؟".

أمامها، تقدّم فلين خطوة، وفتح فمه كي يتكلّم، ولكن قبل أن يفعل، مزّقت الصمت ضحكة صاخبة وصوت أحدهم يقول: "صخرة! صخرة لعينة!".

كانت المرّة الأولى التي تتكلّم فيها فريا. فقد ظلّت صامتة حتّى تلك اللحظة، ووقفت بجانب فلين تستمع إلى القصّة، من دون أن تقلّ عنه صدمة، وغضباً، فيما صدرت عنها من وقت إلى آخر شهقة أو تمتمت بكلمة بذيئة، وبخلاف ذلك، بقيت صامتة. غير أنّها لم تستطع إمساك نفسها أكثر من ذلك.

صاحت، وبدا من صوتها أنّها على شفير الهستيريا: "قتلتِ شقيقي من أجل صخرة سخيفة؟ كنتِ على وشك أن تقطعي ذراعي بسبب أسطورة لعينة؟ أيّ امرأة مجنونة أنت؟ أيّتها الحمقاء الحقيرة...".

اندفعت نحو كيرنان، وقطعت نصف المسافة بينهما قبل أن تشعر بقبضة فين حول ذراعها، تدفعها إلى السكون، وتعيدها بحزم إلى جانبه. قبل ثلاثين ثانية، بدا وكأنّه رجل محطّم. أمّا الآن، فقد تغيّر كلّ سلوكه، وانتفض جسده وتصلّب. وتركّزت نظرته على كيرنان.

قال، وبدت لهجته حادّة وحازمة: "كوني حذرة يا مولي، مهما يكن ما ستفعلينه بهذا الشيء، فأنا أرجوك، كوني حذرة".

انتزعت فريا ذراعها من قبضته، وحدّقت إليه مذهولة وقالت: "لا تقل إنّك تصدّق هذا الهراء!".

تجاهلها وظلّت عيناه مركّزتين على كيرنان، وقال: "أرجوك يا مولي، ثمّة أشياء هنا لا نفهمها، قِوًى... عليك أن تكوني حذرة".

صاحت فريا: "ما هذا الهراء؟".

"مولي، أتوسّل إليك، هذه ليست لعبة. لا يمكنك ارتكاب أخطاء هنا...".

قالت كيرنان: "أنا لا أرتكب أخطاء في أيّ مكان. لقد أمضينا ثلاثة وعشرين عاماً نعدّ لذلك. لدينا أفضل خبراء الأسلحة وأنظمة المسح الضوئي الأكثر تطوّراً...".

"حبّاً بالله يا مولي! هذا ليس شيئاً تستخدمينه بمجرّد الضغط على زر وتفجيره. ثمّة أمور تجري هنا، عناصر مجهولة... تتجاوز كلّ ما...".

كان يجاهد لإيجاد الكلمات المناسبة، ثمّ قال أخيراً: "نحن لا نفهمها، لا نفهمها وحسب. عليك أن تكوني حذرة".

وقفت فريا بجانبه، غير واثقة ما إذا كان عليها أن تصرخ من شدّة الإحباط أم أن تضحك ساخرة. لم يتسنَّ لها فعل شيء، لأنّه في تلك اللحظة صدر صوت من جهاز اللاسلكي الذي تحمله كيرنان؛ صوت أحدهم وهو يتكلّم بلهجة أمريكيّة.

"أعلمينا يا سيّدة كيرنان. نحن على أهبة الاستعداد".

هزّت رأسها، ثمّ رفعت الجهاز إلى فمها، وضغطت على أحد الأزرار قائلة: "شكراً يا دكتور ميدوز. نحن في الطريق".

بدأ فلين يعترض مجدّداً، لكنّها رفعت يدها لإسكاته قائلةً: "أنت طيّب يا فلين، وصدّقني، أنا متأثّرة لاهتمامك، لا سيّما بعد كلّ ما أخبرناك به. ولكن، بدءاً من هذه اللحظة، مَن عليهم فعلاً التزام الحذر هم أعداء أمريكا. فهو يحمينا، أنا أشعر بذلك. لطالما شعرتُ بذلك. ودعني أخبرك يا فلين، أنّ الوقت قد حان منذ زمن طويل ليتلقّى الأشرار عقابهم الذي يستحقّونه. والآن، إن كنتَ لا تمانع، فقد انتظرتُ هذه اللحظة لسنوات طويلة، وأودّ حقّاً الذهاب إلى هناك لرؤية ما يجري. وبالطبع، ستنضمّ إلينا".

صدر تعليقها الأخير وكأنّه أمر، وليس طلباً. ألقت نظرة قاسية، وحاقدة على فريا، وبدا بوضوح أنّها مستاءة من سلوكها، ثمّ استدارت، وعبرت بستان النخيل الذي يحيط بالطائرة.

نادت من فوق كتفها: "آه يا رومانى! ربّما كنتَ ترغب في تفتيش البروفسور برودي بشكل سريع. أظنّ أنّه أخفى سلاحاً تحت قميصه عندما عاد إلى الطائرة".

تمتم فلين قائلاً: "تبّاً!".

عادوا إلى طريق المواكب المرصوف بالرخام الذي تخلّلته الأعشاب، وتماثيل "أبو الهول"، والمسلاّت، والذي يرتفع بدرجة خفيفة نحو وسط الواحة. سارت كيرنان، وجرجس ومرافقاه في المقدّمة، بينما لحق بهم التوأم في الخلف، حاملَين مسدسين، وحوصر فلين وفريا في وسط المجموعة.

سألته بصوت منخفض: "إنّها مجرّد خدعة، أليس كذلك؟ كلّ هذا الهراء عن الصخرة. أنت تخدعهم، أليس كذلك؟".

قال فلين، وقد ركّز نظره على منصّة الصخرة، والبوّابة الضخمة التي تلوح من فوق قمم الأشجار أمامهم: "أنا جادّ تماماً".

"هل تعني أنّك تصدّق هذه الخرافات؟".

"ثمّة كثير من المصادر المختلفة من كثير من الأماكن المختلفة تفيد الشيء نفسه عن بنبن بشكل دقيق، ما يوحي أنّ ثمّة شيئاً من الحقيقة في ذلك".

"ولكن هذا هراء! صخرة ذات قوى خارقة! هراء!".

"قبل ساعتين، حلّقتُ فوق الجلف و لم يكن ثمّة واحة هنا، ثمّ فجأة..."، لوّح بيده حولهم، "حدثت أشياء غريبة. وإن صدّقنا النصوص القديمة، فإنّ أموراً سيّئة تنتظر من يسيئون استخدام بنبن".

كرّرت: "هراء. هراء محض".

نظر إليها، ثمّ حوّل نظره عنها من جديد وقال: "بعد كلّ ما قالته مولي، أشكّ في أن تسمح لنا بالذهاب من هنا. وحتّى لو فعلَت، فإنّ جرجس لن يوافق بالتأكيد. لذا، علينا اغتنام أوّل فرصة للهرب، اتفقنا؟ أوّل فرصة".

التقت نظراتهما.

"وسواء أكنتِ تعتقدين أنّ كلامي هراء أم لا، عندما نصل إلى المعبد لا تلمسي أيّ شيء، ولا تفعلي أيّ شيء قد...".

"يثير غضب بنبن؟ أو يؤذي مشاعره؟".

كانت نبرتها ساخرة.

قال: "كوني حذرة وحسب. أعلم أنّ هذا يبدو جنوناً، ولكن أرجوك، كوني حذرة".

نظر إلى عينيها للتأكّد من أنّ الرسالة قد وصلت، ثمّ حوّل نظره إلى الأمام من جديد.

تمتمت في سرّها: *هراء، هراء محض.*

قادهم الطريق إلى مسافة أعمق داخل الوادي، وغاصت أقدامهم في الطحالب الإسفنجية التي غطّت الجزء الأكبر من الأرض مثل سجّادة، بينما انفرج جانب الوادي تدريجيّاً مثل قمع. توهّجت أشعة الشمس، وغمر ضوءها الغطاء النباتي الأخضر، حيث ابيضّ كلّ شيء وامتزج ليبدو الوادي عموماً أقلّ جمالاً ممّا كان عليه عندما دخلاه للمرّة الأولى. كانت الحرارة أشدّ أيضاً؛ لم يكن الجو خانقاً كذاك الذي يسود الصحراء، إلاّ أنّه لم يعد مريحاً أيضاً. طنّ الذباب حول رؤوسهم، وبدأوا يتصبّبون عرقاً.

في مناسبات عدّة، كانت فريا على يقين أنّها لمحت أشخاصاً بين الأشجار. كانوا غامضين وغير واضحين، وبالسرعة التي مشت بها كيرنان في المقدّمة، لم تجد الوقت للتوقّف والنظر عن كثب. بدأ الطريق يرتفع على نحو أكثر حدّة، والأشجار

تزدحم حولهم، والمعبد يظهر ويختفي بين أوراق الأشجار أمامهم. وصلوا إلى عدد من الدرجات الحجرية المتصدّعة؛ كانت متباعدة في البداية، ثمّ أصبحت أكثر تواتراً مع تحوّل الممرّ إلى سلّم عريض مكسوّ بالجذور، حملهم إلى الأعلى على نحو تدريجي، إلى أن وصلوا إلى قمّة المنصّة الصخرية. أمامهم، ارتفعت البوّابة الضخمة التي رأوها من بعيد، مكسوة بعباءة ثقيلة من اللبلاب والنباتات المتعرّشة، ونُقش على كلّ من أبراجها شبه المنحرفة مسلّة وإشارة سدجت، كما نُقِشت على عتبتها العلوية صورة لطائر بنو المبجّل. كانت تشبه تماماً الصور التي وُجدت في حقيبة رودي شميدت، مع فارق واحد فقط: ففي الصور، كان الباب الخشبي مقفلاً بإحكام، أمّا الآن، فهو مفتوح على مصراعيه.

أبطأ فلين سرعته، إلى أن توقّف، وراح يتأمّل المشهد. إلاّ أنّ كيرنان والمصريين لم يكونوا في مزاج للتمهّل. فتوجّهوا نحو البوّابة، وأسرعوا للدخول من دون إلقاء نظرة على المحيط الهندسي، بينما اقتاد التوأم فلين وفريا أمامهما. مرّوا بين البرجين الشاهقين المبنيين من الحجر الجيري الأبيض، ودخلوا باحة واسعة، ازدحمت جدرانها بالكتابات الهيروغليفية، بينما افترشت الأعشاب والطحالب والحشائش أرضها، تماماً مثل الطريق الذي سلكوه قبل قليل. وفي بعض الأماكن، شقّت أشجار النخيل، والأكاسيا، والجمّيز طريقها بين الألواح الحجرية، وأزاحتها جانباً، ليبدو المكان محطّماً، ومجعّداً على نحو غريب، كما لو كان يُطوى على نفسه ببطء.

تمتم فلين وهو يحدّق حوله مذهولاً رغماً عنه: "رائع، لا يُصدَّق".

عبروا الباحة، والعشب يُلامس أقدامهم، ثمّ وصلوا إلى بوّابة ضخمة أخرى من الجهة المقابلة. كانت هذه البوّابة أكبر من الأولى ومزخرفة أيضاً بالصور. على البرج الأيسر، نُحت شكل بشري برأس باز يحمل بكفّ يده مسلّة ويرفعها عالياً، وتحته صفّ من الرجال الأصغر حجماً بكثير بدوا وكأنّهم يتعثّرون إلى الخلف، ويضعون أيديهم على أعينهم. على البرج الأيمن، نُحت شكل مشابه تقريباً، باستثناء أنّ الشكل البشري يعلوه هنا رأس أسد، والرجال المصوَّرون تحته يضعون أيديهم على آذانهم.

شرح فلين وهم يقتربون، مشيراً يساراً ومن ثمّ يميناً: "رع وسخمت، وكلّ يصوّر شكلاً مختلفاً لقوى بتنن: رع، ضوء ساطع يُعمي العيون، وسخمت، صوت يصمّ الآذان".

تمتمت فريا: "آه! بالله عليك!" و لم تكن أكثر استعداداً لتصديق شيء من ذلك مما كانت عليه قبل عشر دقائق.

عبروا البوّابة الثانية، ووصلوا إلى باحة أخرى تزدحم بعشرات وعشرات المسلاّت، بعضها خالٍ من الرسوم، وأخرى منحوتة، بعضها لا يزيد طوله على طول رجل، وبعضها الآخر يبلغ ارتفاعه عشرة أضعاف، إلى أن وصلوا إلى بوّابة ثالثة. عندما عبروها، توقفت كيرنان وجرجس فجأة. حتّى هما وقفا الآن مذهولَين.

ظهرت أمام المجموعة باحة ثالثة، كانت مساحتها تعادل ضعف مساحة الباحتين السابقتين اللتين كانتا كبيرتين أساساً، واصطفّت على جدرانها تماثيل ضخمة لأسياد مبجلة ورجال. وفي الجهة المقابلة، ارتفعت واجهة معبد ضخم نحو السماء، وكان كلّ شبر منه - جدرانه، وأعمدته، وعتباته، وأفاريزه - مطلية بألوان برّاقة من الأحمر، والأزرق، والأخضر، والأصفر، ألوان غنية ونابضة بالحياة حتّى في ضوء الشمس الساطع، وبدت وكأنّها لا تزال على حالها التي كانت عليها عندما طُليت قبل آلاف السنوات.

غير أنّ ما خطف أنفاسهم لم يكن المعبد بحدّ ذاته، بل المسلّة العملاقة التي ارتفعت كالصاروخ وسط الباحة أمامه. كان طولها يتجاوز الثلاثين متراً، وقد طُليت من أسفلها إلى أعلاها بالذهب، وراحت تلمع تحت أشعة الشمس، وتملأ الباحة بضوء باهر وكأنّ الهواء نفسه مشتعل.

قال جرجس: "يا الله!".

للحظة، وقفوا جميعاً يحدّقون إليها مبهورين. وحتّى التوأمان اللذان تبقى تعابيرهما جامدة عادة، حدّقا إليها مدهوشَين. فجأة، طقطقت كيرنان بأصابعها لإعادتهم إلى رشدهم، وقادتهم من جديد. مرّوا بالقرب من قاعدة المسلّة، وعندما اقتربوا منها اكتشفوا أنّ جهاتها الأربع كانت منقوشة بخطوط دقيقة تناوب فيها رمز سجدت وطائر بنو، ثمّ اقتربوا من مدخل المعبد.

وقف ثلاثة رجال مفتولي العضلات، يضعون نظارات شمسية، ويرتدون سراويل قتالية وسترات واقية من الرصاص بين الأعمدة المحيطة بواجهة المبنى.

سألها فلين: "من هؤلاء؟ أهُم من القوات الخاصّة؟ أم أنّك قمتِ بهذه الرحلة الخاصّة سرّاً؟".

لم تجبه كيرنان، بل ألقت عليه نظرة سئمة وتابعت طريقها إلى داخل المعبد. أتى لاستقبالهم رجل برداء مختبر أبيض، يعتمر ما بدا أشبه بقبعة جرّاح، وتحدّث بصوت منخفض إلى كيرنان قبل أن يقودهم إلى الأمام. عبروا سلسلة من القاعات، وبدت كلّ منها لفريا بحجم داخل معبد أبيدوس. بعضها كانت مليئة بأعمدة شاهقة على شكل ورق البردي، بينما كانت الأخرى خالية، جدرانها مزينة بنقوش رائعة متعددة الألوان. كانت إحداها مغطاة بجذور متشابكة من الأشجار البرية، بينما اصطفّت طاولات المرمر في قاعة أخرى وعُرضت عليها آلاف وآلاف من مسلات الطين المصغّرة، كتلك التي رأتها فريا في حقيبة رودي شميدت وفي خزانة العرض في متحف القاهرة.

تمتم فلين وهو يُجيل نظره حوله: "ربّاه! إنّه يجعل الكرنك يبدو وكأنّه كوخ في الأرياف".

تقدّموا أكثر، وغاصوا في أعماق البناء، وكانت الأصوات الوحيدة المسموعة تصدر عن وقع أقدامهم وأنفاس زميل جرجس الذي يدخّن سيجارة، إلى أن وصلوا إلى باحة بدت وكأنّها قلب مجمّع المعبد. كان مكاناً منعزلاً، أصغر من الباحات الموجودة في مقدّمة البناء، في وسطه بركة مليئة بأزهار اللوتس، وقد نبتت في الأرض المرصوفة شجرة أوكاليبتوس عملاقة، إلى جانب الجدار الأيسر. أمامها، من الجهة الأخرى من القاعة، كان ثمّة بناء حجري منخفض؛ كان عادياً وغير مزخرف، مبنياً من أحجار نُزعت من دون عناية وبشكل غير متساوٍ، وبدا غير متناسب إطلاقاً مع الهندسة المهيبة المحيطة به. ومع أنّ فريا لم تكن واثقة، إلاّ أنّها شعرت بأنّ البناء أقدم بكثير، وأكثر بدائية من بقية قاعات المعبد، وموجود في الأساس منذ مدّة غير معروفة، قبل أن تُحفر أساسات البناء الملحق به.

قال لها فلين: "بير بنبن، بيت بنبن".

بالرغم من اهتمامه الواضح، إلاّ أنّ فريا لاحظت أنّ صوته مشوب بالقلق.

مشوا حول البركة، ووصلوا إلى الباب المنخفض الوحيد في البناء، والذي كان مكسواً بستارة من القصب. خرجت مجموعة متشابكة من الأسلاك من الباب نحو صفّ من المولّدات المحمولة التي تهدر في زاوية الباحة. قام الرجل الذي يرتدي رداء المختبر الأبيض بإزاحة الستارة جانباً، ليكشف عن ممرّ قصير مع ستارة أخرى تحجب الطرف المقابل. مجدّداً، تحدّث إلى كيرنان بصوت خافت قبل أن يلوّح لهم.

همس فلين لفريا، بينما حثّهما التوأم من الخلف: "مهما يحدث في الداخل، فابقي بجانبي وافعلي كما أفعل، ولا تلمسي شيئاً".

أمسك بيدها، ثمّ خفضا رأسيهما، ودخلا عبر الستارتين. غمرهم ضوء حاد، فيما غاب صوت المولّدات لتحلّ محله قرقعة وصرير المعدات الإلكترونية.

رأت فريا كثيراً من المشاهد غير العادية في حياتها، وشاهدت نسبة كبيرة منها خلال الأيام القليلة الماضية، ولكن لا شيء يجاري المشهد الذي استقبلها للتو.

كانوا في غرفة كبيرة، مربّعة، أساسية جدّاً، أرضها ترابية مضغوطة، وجدرانها وسقفها من الحجر العاري، على عكس القاعات المزخرفة التي مرّوا بها من قبل. أقرب إلى كهف منه إلى بناء من صنع الإنسان. غمرت أربعة مصابيح هالوجين المكان بضوء بارد وحاد، بينما جلس اثني عشر رجلاً وامرأة، كلٌّ منهم يرتدي رداء المختبر الأبيض ويعتمر القبعة الجراحية، وقد بدوا منكبّين على مجموعة من شاشات المراقبة وشاشات الكمبيوتر التي راحت تُصدر أصواتاً وتعرض رسوماً بيانية وأعداداً متسلسلة ورسوماً متناوبة ثلاثية الأبعاد لأشكال هندسية غريبة.

استوعبت فريا كلّ هذا في بضع ثوانٍ، قبل أن يتركز انتباهها على العنصر الأكثر غرابة في السيناريو بأكمله، والذي كان واضحاً أنّه مركز كلّ ما يجري: شيء بدا أشبه بغرفة حجر صحي موجودة في وسط الغرفة. مكعّب ثقيل أشبه بالحوض، مصنوع من زجاج بلون العنبر، برز من أحد جانبيه أنبوب تهوئة ومن الجانب الآخر كوّة ذات بابين للوصول إلى الداخل. في داخله، كان ثمّة مزلجة خشبية كبيرة وُضع عليها شيء غير محدّد الشكل، ملفوف بأشرطة سميكة من الكتان. وقام رجلان يرتديان بذلتين واقيتين من الأشعة تغطيان جسدهما بالكامل بفحصه بأدوات تشبه عصي الماشية، يبدو أنّها تُرسل معلومات إلى شاشات المراقبة خارج الحجرة، بينما ركع رجل ثالث، يرتدي هو أيضاً بذلة واقية من الأشعة. على الأرض يتفحص المزلجة.

كان كلّ ما يجري سريالياً جدّاً وغير صحيح جدّاً، ومخيفاً وغير متناسب مع المكان على الإطلاق، بل أشبه بإطار لفيلم خرافي منه بالواقع، إلى حدّ أنّ الفكرة الأولى التي خطرت في ذهن فريا هي أنّها كانت تحلم؛ وأنّها كانت تحلم منذ

البداية، وأنّها لا تزال نائمة في شقتها في سان فرانسيسكو، مرتاحة وآمنة، وشقيقتها لا تزال على قيد الحياة. وللحظة، اقتنعت بالفكرة. ثمّ اشتدت يد فلين حول يدها. فأدركت أنّ ما تراه يحدث بالفعل، أنّها بالفعل في معبد في واحة مفقودة، وبينما هي لا تزال تحاول تصديق نص بنبن من أساسه، فإنّ كلّ من في الغرفة يأخذ الأمر على محمل الجد.

كرّرت في سرّها: *هراء، هراء محض.*

للمرّة الأولى كان ثمّة شك في صوتها، وكأنّها لا تؤكّد واقعاً، بل تحاول الآن طمأنة نفسها.

سألت مولي كيرنان: "إذاً، ماذا يوجد لدينا هنا بالتحديد يا دكتور ميدوز؟".

رفع الرجل الذي قادهم عبر المعبد رأسه عن الشاشة التي ينحني فوقها، وبدا أنّه المسؤول عن كلّ ما يجري؛ عن العمليات العلمية على الأقلّ. مشى نحوهم، وأشار إليهم للتقدّم حيث أصبحوا يقفون على مقربة من الحجرة الزجاجية ذات الجدران السميكة.

قال بصوت رتيب بدا وكأنّه يصدر من أنفه: "تُظهر عمليات المسح الأوّلي نواة صلبة ترتفع فيها معدلات الإريديوم، والأوزميوم، والروثينيوم، ما يدعم فرضية أن يكون من أصل نيزكي. هذا كلّ ما نستطيع تأكيده في هذه المرحلة. ولمعرفة المزيد، نحن بحاجة إلى اتّصال فيزيائي كامل".

قالت كيرنان: "إذاً، أقترح أن نقوم باتصال فيزيائي كامل. سيّد عثمان، بما أنّ عالم الآثار المصرية هنا... العالم الآخر...".

ألقت نظرة جانبية على فلين وأضافت: "...ربما تودّ منحه الشرف".

رفع الرجل الذي كان راكعاً بجانب المزجة يده موافقاً، ونهض، ثمّ دار حول الشيء الملفوف بالأشرطة الكتانية إلى أن أصبح يقف أمامهم مباشرة. الآن أصبح بإمكان فريا رؤية وجهه من خلال البدلة الواقية، واكتشفت أنّه كان يرافق جرجس تلك الليلة في منشية ناصر: الخدّان الممتنئان، وقصة الشعر، والنظارة البلاستيكية السميكة.

توسل إليها فلين قائلاً: "موني. أتوسل إليك. أنت لا تعرفين إطلاقاً بماذا تعبثين".

قالت كيرنان وهي تضحك ساخرة: "آه! وأنت مَن يعرف؟ أصبحتَ فجأة فيزيائياً عظيماً؟".

"أنا أعرف ما يعتقده المصريون القدماء عن بنبن، وأعرف أنّهم أخفوه هنا لسبب وجيه جدّاً".

"تماماً مثلما وجدناه لسبب وجيه جدّاً. والآن إن كنت لا تمانع يا بروفسور برودي...".

كان صوتها مشوباً بالسخرية وهي تلفظ اسمه.

"... لدينا مستقبل العالم أمامنا وأودّ إلقاء نظرة عليه. دكتور ميدوز؟".

أشار الرجل الذي يرتدي رداء المختبر الأبيض إلى أحد زملائه. فتمّ خفض إضاءة مصابيح الهالوجين الأربعة فجأة، قبل أن تنطفئ، ولا يبقى سوى وهج الشاشات وشعاع واحد ضعيف موجّه إلى الشيء الغامض الملفوف بالأشرطة الكتانية والموجود على المزلجة. تناول أحد العلماء كاميرا فيديو وبدأ يصوّر.

قالت كيرنان، وهي تشبك ذراعيها: "تفضّل يا سيّد عثمان".

أومأ عثمان، ثمّ خطا يميناً حتّى وصل إلى المزلجة، ثمّ مدّ يديه، وتركهما تحومان فوق الشيء للحظة، قبل أن تبدأ أصابعه بالضغط على الكتان. كان ملفوفاً بإحكام، ولم يساعده قفّازه الواقي على الإمساك جيّداً بتلك المادة. ثمّة شيء كوميدي في الطريقة التي راح يُمسك بها الكتان ويشدّه، ويتأفّف ويغمغم بينه وبين نفسه، وهو يكافح لفكّها. مرّت بضع دقائق، وبدأ كلّ من كيرنان وجرجس يفقدان صبرهما، قبل أن يتمكّن أخيراً من فكّ طرف الأشرطة الكتانية، ليبدأ بنزعها بسهولة أكبر، في سلسلة من الأشرطة الطويلة وكأنّها ضمادة مومياء. بدأ يعمل على نحو أسرع، مستخدماً كلتا يديه اللتين راحتا تدوران وهما تنزعان الأشرطة، لتنسكب على المزلجة والأرض مثل جلد يُطرح، بينما راح الرجل الذي يحمل الكاميرا يتنقل في الغرفة لتصوير المشهد من زوايا مختلفة. بدأت تظهر حشوات كتانية واقية مربوطة بين الأشرطة، أعطت حجماً للشيء الغامض، حيث إنّ ما بدا في الأساس كبيراً، راح يتضاءل تدريجيّاً مع زوال غلافه. راح يرتد صغراً، ويقلّ تأثيره وهو ينكمش أمام أعينهم مع زوال الكتان طبقة تلو أخرى. إلى أن سقط الغلاف بأكمله وانكشف ما كان يخفيه: كتلة قبيحة من الحجر الأسود

المائل إلى اللون الرمادي، قصيرة وعريضة يبلغ ارتفاعها أقلّ من متر، سطحها مستدير غير حاد، أقرب إلى عمود منها إلى مسلة تقليدية. بعد كلّ هذه الحماسة، كانت خيبة أمل كبيرة برأي فريا. ونظراً إلى تعابير جرجس وكيرنان غير الإيجابية، فإنّهما يشاركانها الرأي على ما يبدو.

تمتم أحد مرافقي جرجس: "تبدو مثل روث كلب".

صمت الجميع وهم يحدّقون إلى الصخرة، فيما عبست كيرنان، وراحت تهزّ رأسها ببطء وكأنّها تقول: *أهذا هو؟* ثمّ أُضيئت مصابيح الهالوجين مجدّداً، وأصبح المكان يعجّ بالحركة. انضمّ مزيد من الرجال الذين يرتدون البذلات الواقية إلى أولئك الموجودين أساساً داخل الغرفة الزجاجية، واحتشدوا حول الحجر الأسود، ثُبِّتت عليه الأقطاب الكهربائية، والأسلاك، والقطع اللاصقة. فجأة، أصبحت الأصوات الصادرة عن الشاشات أسرع وأعلى، وازدادت الصور حركة مع تدفّق معلومات جديدة إليها. بدأت آلة طابعة تعمل بجنون، تقذف أعداداً من الأوراق المليئة بالأرقام، بينما راحت الأصوات تثرثر، وتنادي، وتتحدّث بلغة لم تتمكّن فريا من فهمها أو تفكيك رموزها. من داخل الحجر، أصدرت مكبرات الصوت أزيزاً عالياً عندما تمّ تثبيت أداة شبيهة بأداة حفر أسنان مصغّرة على قاعدة الحجر، وراحت تخدش سطحه، وتُنتج بقايا رملية جُمعت في أكياس عينات معقمة، تمّ تمريرها عبر الكوة لإخضاعها لمزيد من التحليل.

صدر أنين عن فلين، وقال: "ليكن الله في عوننا". وبدا مرعوباً وهو يشدّ على يد فريا إلى حدّ أنّها بدأت تؤلمها. "لا يعرفون ماذا يفعلون".

إن كان يتوقّع حدوث شيء - كما يبدو بوضوح، إذ أنّ كلّ ما فيه جعله أشبه برجل أُجبر على الوقوف بقرب قنبلة موقوتة - فإنّ شيئاً لم يحدث. فقد تابع الرجال ذوي الرداء الأبيض أخذ العينات والإصغاء والمراقبة، بينما كان عثمان يداعب بلطف سطح الحجر وكأنّه يحاول بثّ الراحة والطمأنينة فيه، وهو يُنشد بصوت شبه مسموع: *إينر-وير إينر-إن رع إينر-نون سدجت إينر سويسر-إن خيرو-إن سخمت. إينر-وير إينر-إن رع إينر-نون سدجت إينر سويسر-إن خيرو-إن سخمت.*

خلال ذلك، ظلّ الحجر في مكانه، كما كان ليتوقّع منه في ظروف أخرى. ظلّ صامتاً، وساكناً. ولم ينفجر، أو يصرخ، أو تنبعث منه إشعاعات سامة، أو أيّاً

يكن ما يخشاه فلين. كان مجرّد قطعة من الحجر الأسود المائل إلى اللون الرمادي، لا أكثر ولا أقلّ. بعد عشرين دقيقة، استأذن مرافق جرجس البدين وخرج لتدخين سيجارة. وبعد عشر دقائق، انضمّ إليه مرافق جرجس الآخر والتوأم، ومن ثمّ جرجس، مع فلين وفريا. أخيراً، لحقت بهم مولي كيرنان. راحت تمشي ذهاباً وإياباً قرب البركة، تكلّم نفسها، عابسة، شابكة ذراعيها أحياناً، وناظرة إلى السماء كأنها تتضرع. حاول فلين وفريا الخروج من الباحة مرتين، وتمّ رصدهما في المرّتين، حيث اقترب منهما التوأم ولوّحا لهما للعودة.

قالت كيرنان بصوت خشن خالٍ من المزاح الذي سيطر عليه سابقاً: "لا تفكّرا في ذلك، هل تسمعان؟ لا تفكّرا في ذلك".

استأنفت سيرها، بينما جلس الاثنان في ظلّ شجرة الأوكاليبتوس العملاقة، لعدم وجود شيء أفضل يفعلانه. كانت ساعة فلين تشير حينها إلى الساعة 10:57 صباحاً، مع أنّه، وكما لاحظا عند دخولهما الواحة، فإنّ موقع الشمس في السماء يوحي أنّ الوقت قد تجاوز ذلك، وأنّهما في أواسط فترة العصر.

قال: "وكأنّ الوقت يمضي بشكل مختلف هنا".

كانت تلك هي الكلمات الوحيدة التي تبادلاها. سطعت الشمس، ومرّت الدقائق، وهدرت المحركات، ولم يحدث شيء.

مرت ساعة قبل أن تتم دعوتهم إلى الغرفة مجدّداً. كان صبر كيرنان وجرجس قد نفد.

سألت كيرنان بنبرة لاذعة، من دون مقدّمات: "إذاً؟".

بدأ الدكتور ميدوز يشرح بصوته الكئيب الصادر من أنفه وهو يقودهم نحو الحجرة الزجاجية: "في الواقع، لا شكّ في أنّها نيزك، أو جزء من نيزك. بالإضافة إلى الإيريديوم، والأوزميوم، وغير ذلك، وجدنا آثاراً كثيرة للزبنجد الزيتوني والبروكسين التي توحي بوضوح أنّه يحتوي على مكونات كوندريتية بدائية...".

"اترك التفاصيل السخيفة، وأخبرني ماذا تستطيع أن تفعل".

بدا التوتر على العالِم، فتمتم قائلاً: "نحتاج إلى إجراء المزيد من الاختبارات. الكثير من الاختبارات، وسنبدأ بها فور أخذها إلى مختبر مناسب يحتوي على آلات أكثر تطوّراً..."، ألقت عليه كيرنان نظرة، فصمت على الفور.

قال بعد صمت غير مريح: "إنّها كوندريت بدائي، نيزك".

"أجل، ولكن ماذا تستطيع أن تفعل؟ هل تفهم ما أقوله؟ ماذا تستطيع أن تفعل؟".

من الواضح أنّ كيرنان تحاول السيطرة على أعصابها.

"ماذا يستطيع النيزك أن يفعل؟ ماذا يوجد بداخله؟ ماذا توحي إليك كلّ هذه الأشياء؟". ولوحت بيدها نحو الآلات المصطفّة حول الغرفة. أخذ الدكتور ميدوز يعبث بطرف الدفتر الذي يحمله، ولكنّه لم يجب.

قالت كيرنان بنبرة بدأت تعلو تدريجيًّا: "أهذا كلّ شيء؟ هل تعني أنّ هذا كلّ شيء؟ أهذا ما تحاول قوله لي؟".

هزّ العالم كتفيه بعصبية، ثمّ كرّر بلا حول ولا قوة: "إنّه كوندريت بدائي، نيزك، حجر من الفضاء".

فتحت فمها، ثمّ أغلقته مجدّداً، ووقفت هناك، يد على رمز النصارى الديني المتدلي من عنقها، ويد مشدودة في قبضة خانقة. خيّم الصمت على الجميع. وحتّى أصوات الآلات الإلكترونية بدأت تتباطأ وتهدأ وكأنّها تشارك في الشعور العام بالصدمة. حلّ صمت طويل، ثمّ بدأ الرجال داخل الحجرة الزجاجية بنزع القبعات الواقية من الأشعة، وإزالة الأسلاك والأقطاب المتشابكة التي تغطّي الحجر. هنا، بدأ فلين يضحك بصوت خافت.

قال ساخراً: "آه! لا يُقدَّر بثمن. ثلاثة وعشرون عاماً، وقتلى، الله وحده يعلم بعددهم، وكلّ هذا من أجل قطعة من الحجر لا قيمة لها. يا له من موقف لا يُقدَّر بثمن!".

كان قلقه قد تبخّر، وبدت ديناميكية المشهد مناقضة تماماً لما جرى على الطائرة. الآن، شعرت فريا بأنّ فلين هو الذي كان يستمتع باللحظة، وأنّ كيرنان وجرجس يكافحان لاستيعاب الوضع.

تمتمت كيرنان: "لكنّ النصوص، أفادت... الخبراء، الجميع قالوا...".

استدارت، ولوحت بيدها نحو فلين وتابعت: "أنت قلت! أنت قلت لي. قلت إنّ هذا حقيقي، وإنّ المصريين استخدموه... أنت قلت لي! وعدتني!".

رفع يديه إلى الأعلى وقال: *"الذنب ذنبي يا مولي.* كنتُ جاسوساً فاشلاً، ويبدو أنّني عالِم آثار فاشل أيضاً".

"ولكنّك قلت، قلت لي، كلّهم قالوا لي... إنّه يتمتّع بقوى، وإنّه دمّر أعداء مصر... صولجان الأسياد المبجلة، أفظع سلاح عرفه الإنسان!".

بدأ غضبها يثور، وعيناها تتوسّعان، واللعاب يتجمّع في فقاعات صغيرة عند زاويتي فمها.

"كوني حذرة، هذا ما قلتَه! لا تعبثي به، ثمّة أشياء لا نفهمها، عناصر مجهولة! قوى، قلت لي إنّه يتمتّع بقوى!".

قال فلين: "أظنّ أنّني كنت مخطئاً". وصمت قليلاً قبل أن يضيف: "هيّا مولي. اعترفي أنّ الموقف مضحك".

كانت تلك هي العبارة التي استخدمتها سابقاً، ومن الواضح أنّها لم تستمتع بسماعها تُرمى في وجهها مجدّداً. حدقت إليه بنظرة شرسة وكاوية لم يسبق لفريد أن رآها. ثمّ رفعت إصبعها وكأنّها تقول: *سأتولّى أمرك لاحقاً*، قبل أن تستدير نحو الدكتور ميدوز، وتمطره بالانتقادات، مطالبة برؤية النتائج التي توصّل إليها. والحصول على شرح لها، قائلة إنّه لا بدّ من أن يكون قد ارتكب خطأً وإنّ عليه إعادة إجراء الاختبارات.

ظلّت تصرخ قائلة: "قالوا لي! كلّهم قالوا لي إنّه يتمتّع بقوى، هذا ما قالوه. إنّه يتمتّع بقوى!".

انضمّ إليها جرجس ورفاقه، وراحوا يثرثرون بمزيج من الكلمات العربية والإنكليزية، يصيحون بوجه العلماء، وبوجه عثمان الذي كان يقف بمفرده في الحجرة العازلة، ينظر يائساً من خلف نظارته البلاستيكية السميكة، وبوجه كيرنان أيضاً، مصرّين على أنّه سواء أكان الحجر يتمتّع بقوى أم لا، فإنّهم لا يزالون يتوقعون الحصول على كامل المبلغ الذي تدين لهم به. أشعل الرجل ضخم الجثة ذو الشاربين سيجارة، وبدأ الدكتور ميدوز، الذي وقف بخنوع يتلقّى اللوم، يفقد أعصابه هو الآخر، فطلب منه إطفاء السيجارة على الفور لأنّها تؤثّر في المعدات الإلكترونية. تقدّم اثنان من زملائه لدعمه، وفجأة بدأ الجميع يصرخون ويتعاركون، واشترك التوأم، ليس لسبب معيّن إلاّ لأنّ هذا هو

نوع الأعمال التي يقومان بها، وأخذت أصداء الشجار والصراخ تتردّد في المبنى بأكمله.

همس فلين وهو يمسك فريا من ذراعها ويدفعها عبر الغرفة: "حان وقت الذهاب". وصلا إلى الباب، وتوقّفا للتأكّد من أنّ أحداً لا يراقبهما، ثمّ همّا بالخروج. في أثناء ذلك، رفع واحد يرتدي الرداء الأبيض يده فجأة - كان شاباً أجعد الشعر يقف بجوار الباب، ظلّ بالرغم من الفوضى منحنياً فوق شاشته - وقال: "مهلاً، انظروا!".

لم تكن الكلمتان هما اللتين دفعتا فريا وفلين إلى التوقّف والالتفات، بل الإلحاح الذي بدا في صوت المتكلّم.

كرّر الرجل وهو يلوّح بيده لجذب الانتباه: "انظروا!". على الشاشة أمامهم، رأت فريا سلسلة من الخطوط العمودية التي كانت ترتفع وتنخفض مثل صمّامات بوق. مع ذلك، احتدم الصراخ، وضاع صوت الرجل بين صياح الموجودين، واضطرّ إلى مناداتهم مرّة ثالثة قبل أن يهدأ الهرج والمرج ببطء ويستأثر على اهتمام الجميع.

قال: "ثمّة شيء يحدث، انظروا".

تقدّم الجميع إلى الأمام، واحتشدوا حول الشاشة. حتّى فلين وفريا اقتربا، وأجّلا هربهما مؤقتاً لمعرفة ما يجري.

سأل جرجس، وكانت الإشارات الظاهرة على الشاشة أمامه تزداد نشاطاً: "ما هذا؟ ماذا يعني؟".

انحنى الدكتور ميدوز من فوق كتف زميله، وقطّب حاجبيه وهو يشاهد الخطوط تعلو وتنخفض، تبلغ أعلى الشاشة قبل أن تنخفض إلى الأسفل مجدّداً.

تمتم قائلاً: "نشاط كهرومغناطيسي، نشاط كهرومغناطيسي كبير".

قالت كيرنان: "من أين؟ أمن الحجر؟".

قال ميدوز: "غير ممكن، فنحن نراقبها منذ ساعتين ولم يحدث أيّ... هذا غير...".

استدار وتوجّه نحو الحجرة الزجاجية، ومشى الباقون في أعقابه. ظلّ فلين وفريا قرب الباب، من دون أن يلاحظهما أحد، إذ كانت كلّ العيون مركّزة الآن

على بنبن. كان عثمان لا يزال يقف داخل الحجرة، واضعاً إحدى يديه على سطح الحجر بحركة حمائية وكأنه يضعها على رأس طفل؛ بينما تشابكت الأسلاك والأقطاب حول قاعدته بعد أن نزعها الرجال ذوو البذلات الواقية من الأشعة. لم يبدُ الحجر مختلفاً عمّا كان عليه بعدما تمّت إزالة الأشرطة الكتانية عنه: كتلة منخفضة على شكل قطع مكافئ من الصخر المحبَّب ذي اللون الأسود المائل إلى الرمادي.

نادى الدكتور ميدوز زميله: "هاركر؟".

قال الشاب ذو الشعر الأجعد: "إنّه خارج النطاق، سيّدي. لم يسبق لي رؤية شيء...".

صاح عالم آخر: "أرى ارتفاعاً في أشعة ألفا، وبيتا، وغاما، ارتفاعٌ ملحوظاً".

أسرع ميدوز، وانحنى لدراسة هذا الاكتشاف الجديد، عندما صاحت امرأة أخرى في الجهة المقابلة من الغرفة بشيء حول التأيّن غير المتسلسل، ما اضطُرّه إلى التوقّف والذهاب للنظر إلى شاشتها. علت أصوات أخرى حينها، متحمّسة. وملحّة، تُعلن أنّها تحصل هي الأخرى على نتائج غير متوقعة، وراحت تتقاذف كلمات وجملاً لا تعني شيئاً على الإطلاق بالنسبة إلى فريا. أخذ الدكتور ميدوز يتنقل من شاشة إلى أخرى، ويهز رأسه وهو يكرّر: "غير ممكن، هذا غير ممكن". والطابعة التي كانت صامتة خلال الدقائق الأخيرة، عادت إلى نشاطها المحموم. وامتدّ من فمها لسان طويل جدّاً من الورق. عادت الأصوات الإلكترونية تملأ الغرفة بسيمفونية من الرنين والقعقعة والخشخشة. وتوهّجت الشاشات بدوّامات متعددة الأشكال والألوان، بعد أن عاد إليها نشاطها.

صاح جرجس: "ماذا يجري؟".

تجاهله الدكتور ميدوز. سار نحو الحجرة الزجاجية، وأمر عثمان بالخروج. إلاّ أنّ المصري لم يتحرّك من مكانه، بل وقف هناك يحدق إلى الحجر مذهولاً، وعلى وجهه تعبير مربك وفارغ. كرّر الدكتور ميدوز الأمر مرتين، وبإلحاح متزايد. ثمّ رفع ذراعيه عاجزاً وأومأ لأحد زملائه الذي ضغط على أحد الأزرار. فصدرت هسهسة عن باب الحجرة وهو يُغلَق، محتجزاً عثمان في الداخل.

قال الدكتور ميدوز: "أنا آسف لاضطراري إلى فعل ذلك يا سيّدة كيرنسان، لكنني لا أستطيع المجازفة...".

قاطعه جرجس: "اللعنة عليه، ماذا عنّا نحن؟ هل نحن في خطر؟ هل المكان آمن؟".

حدق إليه الدكتور ميدوز مصدوماً من قلّة اكتراثه، ثمّ ضرب كفّه على الزّجاج.

"هذا زجاج مصفّح متعدد الطبقات مدعّم بأنابيب النانو الكربونية، تبلغ سماكته ثلاثة إنشات. وهذا يعني أنّه ما من شيء يخرج منه ما لم نرغب في ذلك. بالتالي، للإجابة عن سؤالك، أجل، نحن بأمان تام. ولكن للأسف، لا يمكنني قول الشيء نفسه عن زميلك".

كان عثمان قد بدأ يتأرجح إلى الأمام والخلف، فتمسك بالحجر بإحدى يديه للحفاظ على توازنه. كان يتمتم بينه وبين نفسه، وعيناه بدت تائهتين كما لو أنّه في حالة ذهول، شبه غافل كما يبدو عمّا يجري.

سأل الرجل السمين: "ما خطبه، أهو ثمل؟".

لم يجب أحد. ظلّ عثمان يتأرجح، ورفع يده الأخرى يتحسّس زمام البذلة المضادة للأشعة محاولاً فتحه.

"*أنا حرّان*". تردّد صوته عبر جهاز الاتّصال الداخلي، وبدا مشوّشاً ومربكاً. "*أنا عيّان*".

ترجم فلين كلامه لفريا بصوت منخفض: "يقول إنّه يشعر بالحرّ، وإنّه ليس بخير".

سألته مذعورة ومندهشة في الوقت نفسه: "ما الذي يحدث له؟".

هز فلين رأسه عاجزاً عن الإجابة. ترنّح عثمان، ثمّ استعاد توازنه، وأمسك بالزمام وبدأ ينزع السترة عن جسده. كاشفاً سرواله الأزرق وقميصه الأبيض تحتها.

غمغم: "*أنا حرّان، أنا عيّان*".

خلع القميص أيضاً، والسروال. ووقف هناك بسرواله الداخلي وجوربه وحذائه. لكان المشهد بدا هزلياً لولا أنّه يواجه محنة خطيرة كما هو واضح. فقد راح يكافح للتنفس، ويداه ترتعشان بقوة.

أخذ يئنّ وهو يضغط على فخذيه وبطنه: "حقيقي بتوجع، حقيقي بتوجع".

ترحم فلين: "إنّه مؤلم حقّاً".

همست فريا: "آه! ربّاه! لا يمكنني مشاهدته".

لكنّها ظلّت في مكانها، شأنها شأن كلّ من في الغرفة، بعد أن شلّهم المشهد الذي يدور داخل حجرة العزل الزجاجية. راحت الطابعة تعمل بصخب أكبر، مع احتشاد القوى الغامضة بوتيرة أسرع. وبالرغم من تأكيد الدكتور ميدوز على أن كلّ شيء آمن، إلاّ أنّ جرجس وبقية المصريين ابتعدوا عن الحجرة، خلافاً لكيرنان التي اقتربت منها، وضغطت إحدى كفّيها على الزجاج، بينما أمسكت رمز النصارى الديني المعلق بعنقها باليد الأخرى، وعيناها تومضان إثارة.

همست: "هيّا، هيّا يا عزيزي، أرِنا ما يمكنك فعله. حجر النار، صوت سخمت. هيّا، هيّا".

كان عثمان يترنّح في مكانه، ويئنّ ألماً؛ يفرك عينيه، ويشدّ أذنيه.

أخذ يئنّ قائلاً: *أنا هراجع، أنا لازم أروح التواليت*".

تمتم فلين: "يا الله! يقول إنّه سيتقيأ، ويحتاج إلى...".

انحنى عثمان على نفسه، وسقط على ركبتيه أمام كيرنان تماماً. ثمّ سال قليل من القيء المائي من فمه، وتحوّل لون ملابسه الداخلية البيضاء إلى بنّي شاحب.

ضحك الرجل السمين قائلاً: "لقد لوّث نفسه! انظروا! هذا الأحمق القذر لوّث نفسه!".

"*إينر-وير إينر-إن رع إينر-نوف سدجت إينر سويسر-إن خيرو إن* سخمت..."، ردد عثمان وهو يترنّح، محاولاً النهوض على قدميه مجدّداً، ليقف هناك، وجهه وبطنه مضغوطان على الزجاج، ويداه متدليتان إلى جانبيه. مرّت ثلاثون ثانية، وبدأت ردود الفعل الإلكترونية تخفّ وكأنّ العملية التي سبّبتها بدأت تتضاءل وتهدأ. ثمّ فجأة، حدث شيئان متلاحقان على نحو سريع سبّبا صدمة للجميع. فقد صدرت نبضة مدوية وعميقة، بدت أنّها أتت من داخل الحجر نفسه، وتردّدت مثل نبضة قلب مضخّمة، حيث اهتزّ البناء بأكمله مع أنّ الصوت بحدّ ذاته لم يكن مرتفعاً جدّاً. وفي الوقت نفسه تقريباً، شعّ ضوء باهر أيضاً من داخل الحجر، مثل مصباح يشعّ فجأة بشكل أقوى وأكثر حدّة. دام ذلك لجزء من

الثانية فقط وحماهم الزجاج العازل من الجزء الأكبر من الوهج. مع ذلك، أعمى الوهج عيونهم جميعاً بشكل مؤقت. فرفعوا أذرعهم وغطّوا عيونهم، وتوقفت الطابعة وشاشات المراقبة عن إصدار أيّ صوت، كما توقفت شاشات الكمبيوتر والمصابيح، وغرقت الغرفة في ظلام دامس. سُمعت صيحات، وحركة، وعلا صوت جرجس مطالباً بمعرفة ما يجري. ثمّ فجأة عادت الآلات الكهربائية للعمل فجأة تماماً كما توقفت. فأُضيئت الشاشات ومصابيح الهالوجين. وصمت الجميع وقد بهرهم الضوء، إلى أن تكيّفوا مجدّداً معه، ثمّ علت صرخات مرعوبة.

قالت فريا بصوت مختنق وهي ترفع يدها إلى فمها: "ليكن الله في عونه".

أمامهم، وقف عثمان بالوضعية نفسها بالتحديد، تماماً مثلما كان قبل ومضة الضوء، وهو لا يزال يضغط جسده على الزجاج، ولا يزال بسرواله الداخلي وجوربه وحذائه. الفرق الوحيد هو أنّ جلده قد اختفى. وأصبح جسده - أطرافه، ووجهه، وصدره - عبارة عن خليط زلق ولامع من الأوتار، والعضلات، والعظام، والأنسجة الدهنية. وما يثير الرعب، هو أنّه لا يزال على قيد الحياة كما يبدو، لأنّ أنيناً خشناً بدأ يتصاعد من حلقه، بينما تحرّكت عيناه من دون أجفان إلى الأسفل والأعلى خلف نظارته وكأنّه يحاول فهم ما يجري. تمتم بشيء وحاول الرجوع خطوة إلى الخلف، ولكنّ جسده من الخصر إلى الأعلى - بطنه، وصدره، وخدّه الأيمن، بدا ملتصقاً بالزجاج. حاول مجدّداً، وتحرّكت مقلتاه بغضب، وارتفعت أضلاعه صعوداً وهبوطاً وهو يكافح للتنفس. ثمّ رفع ذراعيه، ولم تعرف فريا كيف وجد القوة لذلك، ووضع يديه على الزجاج، وشدّ على أسنانه المكشوفة، وضغط لإجبار نفسه على الابتعاد عن الجدار الزجاجي. سمع صوت تمزّق رطب وترنّح إلى الخلف، بينما بقيت أشلاء من اللحم ملتصقة بجدار الحجرة. للحظة مثيرة للغثيان، لمحوا عظم فكّه، وقولونه، وما قد يكون جزءاً من كبده. سُمعت نبضة أخرى، وصدرت ومضة جديدة من الضوء، ثمّ خيّم الظلام مجدّداً.

قال فلين: "لنخرج من هنا". أمسك بذراع فريا، ودفعها عبر الستارة الأولى المعلّقة على مدخل الغرفة. في أثناء ذلك، صدح صوت كيرنان في الظلام خلفهما.

"هل ترون ماذا تستطيع أن تفعل؟! آه يا الله! إنّها معجزة! معجزة جميلة! تواضعوا أمام عظمة الله! الحمد لله، الحمد لله!".

ما إن خرجوا إلى الباحة، حتّى بدأا يركضان، وكانت الظلال أكثر طولاً مع انخفاض الشمس غرباً. قاومت فريا حاجة ملحّة إلى التقيؤ. لم تعد تأبه بما يحدث لجرجس أو للآخرين أو بالثأر لمقتل أختها. كلّ ما أرادته هو الخروج.

لم يسلكا الطريق المباشر للخروج من المعبد، بل خرجا من الباحة من بوابة جانبية، وعبرا متاهة من الممرات والشرفات والأروقة في محاولة لتجاوز الحرّاس الواقفين عند مقدمة المبنى ببذلاتهم الواقية. في نهاية المطاف، حالفهما الحظ وليس التخطيط في الخروج إلى الباحة الثانية التي دخلا منها مسبقاً، والتي تزدحم بعدد كبير من المسلات متعددة الأحجام. توقّفا لالتقاط أنفاسهما، وأصغيا للتأكد من أنّ أحداً لا يتبعهما، ثمّ استأنفا الركض. كانا قد عبرا لتوّهما البوابة الضخمة عند أوّل الباحة ودخلا الباحة الأولى والمربّع الخارجي عندما تردّدت النبضة الغامضة مجدّداً خلفهما، بالصوت نفسه الذي سمعاه عندما كانا في الغرفة. شعرا وكأنّ مجمّع المعبد بأكمله يهتزّ بفعلها.

صاح فلين وهو يلوّح لها عبر الباحة، ويتعثر فوق الأرض غير المستوية المكسوة بالطحالب: "علينا الخروج من الواحة! أيّاً يكن ما بدأوه، فهذه هي البداية وحسب. علينا الخروج!".

صاحت فريا وهي تسرع قربه: "ماذا سيحدث؟".

"لا أدري، ولكن استناداً إلى ما رأيناه للتو، لن يكون ما سيحدث رائعاً. وهذا قبل أن يبدأ مفعول جميع اللعنات التي يُفترض أن تكون قد صُبّت على الواحة".

قبل ثلاثين دقيقة، كانت فريا لتسخر من هذا التعليق. أمّا بعد الأحداث التي جرت في الغرفة، فقد أصبحت تأخذها على محمل الجدّ.

صاح في وجهها: "هيّا! علينا التحرّك!".

وصلا إلى البوابة الأولى، الواقعة عند واجهة مجمّع المعبد، وبدأا بعبورها، بينما ارتفعت أبراجها شبه المنحرفة فوقهما، وانتشر بحر من قمم الأشجار في البعيد أمامهما.

قالت وهي تتذكر الخيالات التي رأتها تختبئ بين الأشجار وهم يشقون طريقهم عبر الوادي في وقت سابق: "ماذا لو كان ثمّة مزيد من أولئك الرجال؟ من أولئك الرجال ذوو النظارات الشمسية".

"ستتعامل معهم عند ظهورهم. فلننـــزل وحسب...".

شعرا بحركة، ثمّ خرج رجل قصير أسمر من كوة في جدار البوابة، ووجّه لكمة بيده المزينة بخاتم إلى وجه الإنكليزي، فشقّ شفته وأسقطه على الأرض. ثمّ خـــرج رجل مطابق الشبه للأوّل من كوة في الجدار المقابل، ودفع فريا وأسقطها بجانـــب فلين، ليرتطم رأسها بالأرض، وتحتكّ يداها على الحجر العاري.

قال صوت أجش: "مرحباً أيّها الإنكليزي، ستذهب إلى البيت؟".

صدر صوت آخر، يشبه الصوت الأوّل على نحو مخيف، وقال: "ستذهب إلى القبر".

سمعا ضحكاً، ثمّ شعرا بأيادٍ خشنة ترفعهما عن الأرض ليقفا على أقدامهما.

من اللحظة التي عادت فيها الأضواء لتنير الغرفة ولوحظ غياب فريا وفلـــين، أرسل جرجس التوأم خلفهما، وهو أمر مؤسف لأنّه بعد يومين من الملل، بـــدأت الأمور تصبح مثيرة للاهتمام أخيراً، مع عثمان الذي شُوي على هـــذا النحـــو. لم يسبق لهما رؤية مشهد مضحك كهذا، لكنّ جرجس هو السيّد، حاليّاً على الأقلّ، فنفّذا الأمر، واتجها مباشرة إلى مدخل المجمّع وسبقا الغربيّين. تمركزا عنـــد البوابـــة الأمامية، وانقضّا على فريستيهما فور ظهورهما، ووجّها ضربة قوية إلى الإنكليزي اللعين.

أجبراهما على الوقوف، ومسح الإنكليزي الدم عن ذقنه وهو يتمتم، أوّلاً بلغته الأمّ كما افترضا، ومن ثمّ باللغة العربية، يروي سخافات عن نقوش ولعنات. وجّها إليه لكمتين أخريَين، وقاما بجرّه هو والفتاة عبر الباحة الضخمة الأولى، ثمّ أجبراهما على الركوع جنباً إلى جنب، وراحا يناقشان أفضل طريقـــة للـــتخلّص منـــهما. رصاصة في الرأس؟ الذبح؟ الدوس عليهما حتّى الموت؟ كانـــت هـــذه مهمتـــهما الأخيرة قبل التقاعد وأرادا القيام بها على أكمل وجـــه. أرادا الخـــروج مرفـــوعَي الرأس.

قال التوأم ذو الأذن المشقوقة: "أقترح وضعهما مع عثمان".

أجاب شقيقه: "لا أظنّ أنّهم سيسمحون لنا"، وبدا أنّه يشـــعر بخيبـــة أمـــل واضحة. "إن كنتَ لا تعلم، ثمّة أشياء نخرج. مع أنّها فكرة جيّدة".

سُمع صوت مجلجل آخر مع تردّد بضة جديدة في أرجاء المعبد، جعلت الأرض تهتز تحت أقدامهم. لوح بارودي، أو أيّاً يكن اسمه، بيديه بجنون، وراح يثرثر مجدّداً عن لعنات وقوى لا يستطيعون السيطرة عليها. فوجّها إليه لكمة بين ساقيه - حرّب هذه القوة! - فسقط وهو يلهث. صاحت فريا واندفعت نحوهما، فوجّها إليها صفعة هي أيضاً. سخيفة، قبيحة. نحيلة، نحيلة جدّاً.

تراجعا بضع خطوات واستأنفا جدالهما، بينما نهض الإنكليزي ببطء على ركبتيه.

توسّل إليهما وهو يساعد فريا على النهوض ويتحقّق من أنّها بخير: "صدّقاني، هذه البداية وحسب. علينا الخروج من الواحة. يمكنكما فعل ما شئتما في الخارج، ولكن، إن بقينا هنا فسنموت. هل تفهمان ما أقوله؟ سنموت، جميعنا، وأنتما أيضاً".

حاولا تجاهله، ولكنّه ظلّ يلحّ عليهما، فاستنتجا أنّ رصاصة في الرأس ستكون أفضل حلّ في النهاية لأنّها ستكون أسرع طريقة لإسكاته. اتُّخذ القرار، فتراجعا بضع خطوات، وأخرجا مسدسين من طراز غلوك. أحاط الإنكليزي فريا بذراعيه، وضمّها إليه ليحميها وهو يواصل سخافاته.

سأل التوأم ذو الأنف الأفطس: "تريده هو أم الفتاة؟".

"ما خطبكما؟".

أجاب شقيقه: "كلاهما سهلان".

"هذا المكان سينفجر وأنتما تناقشان مَن سيقتل مَن!".

قال التوأم الأوّل: "إذاً، أنا سأقتله".

أجاب شقيقه: "لا مشكلة عندي".

"اتركاها تذهب على الأقلّ!".

قالا معاً وهما يرفعان مسدسيهما: "سنعدّ حتّى الثلاثة. واحد... اثنان...".

قال غاضباً: "أيّها الجاهلان السخيفان، كم تشبهان الشياطين الحمر الذين يعتنون دائماً ببعضهم".

"ثلاثة".

لم يتمّ إطلاق أيّ رصاصة. وقف التوأم هناك، بذراعيهما الممدودتين، حاملَين المُسدسين، وبدا تعبير غامض على وجهيهما.

سألا معاً: "هل تشجّع الأهلي؟".

"ماذا؟".

بدا فلين منذهلاً، ومربكاً، وهو لا يزال يحيط فريا بذراعيه.

قال أحدهما: "قلت، الشياطين الحمر يعتنون دائماً ببعضهم".

قال الآخر: "لماذا تقول ذلك ما لم تكن من أنصار الأهلي؟".

قالا معاً: "هل أنت *أهلاوي*؟".

بدا وكأنّه لا يفهم ما إذا كانا يعبثان معه أم لا، ويمزحان مزحة سخيفة. بين ذراعيه، كانت فريا ترتجف، ونظرها يتنقل بينهما بذهول.

كرّرا: "هل أنت *أهلاوي*؟".

تمتم: "لديّ بطاقة موسمية".

عبس التوأم. كان هذا غير متوقع، ومربك، ثمّ خفضا سلاحيهما قليلاً.

"أين تجلس؟".

"ماذا؟".

"في الملعب، أين تجلس؟".

"أنتما على وشك قتلي، وتسألان أين أجلس لمشاهدة كرة القدم؟".

رفعا السلاحين مجدّداً.

قال فلين: "من الجهة الغربية، على المدرج الأدنى. فوق خط التماس مباشرة".

تبادل التوأم نظرة. يحمل بطاقة موسمية، ويجلس في الجهة الغربية، فوق خط التماس مباشرة. هذا مثير للإعجاب، مع أنّه ربّما كان يكذب.

"كم عدد ألقاب الدوري التي فزنا بها؟"، نظر إليهما الإنكليزي غير مصدّق.

"أهذه لعبة سخيفة...؟".

"كم؟".

"ثلاثة وثلاثون".

"والكؤوس المصرية؟".

"خمسة وثلاثون".

"وبطولات الدوري الأفريقي؟".

أخذ يعدّ على أصابعه، بينما ركعت فريا بقربه، وحمنقت به مذهولة.

قال: "أربع بطولات. كلاّ، خمس!".

تبادل التوأم نظرة أخرى؛ الشابّ يعرف بالتأكيد عمّا يتكلّم. صمتا قليلاً، ثمّ سأل أحد التوأمين لمجرّد التأكّد: "من سجّل هدف الفوز في نهائيات كأس 2007؟".

"حبّاً بالله! أسامة حسني، من تمريرة أحمد صدّيق. كنتُ هناك. فقد أعطاني محمد أبو تريكة بطاقة مجانية بعدما اصطحبتُ أولاده في جولة في المتحف المصري".

جوابه الأخير حسم الموضوع. بأوامر أو من دون أوامر، وسواء أكانا غريبَين أم لا، يستحيل أن يتعرّضا لشخص ينتمي إلى الشياطين الحمر، لا سيّما إن كان قد أدّى خدمة لمحمد أبو تريكة. خفضا سلاحيهما، وأعاداهما إلى داخل سترتيهما، ثمّ أشارا إلى الغريبَين كي يقفا، وغمغما باعتذار، قائلَين إنّهما لم يعرفا أنّهما ينتميان إلى الشياطين الحمر، لا ضغائن بعد اليوم، ربّما يلتقون في إحدى المباريات. نظروا إلى بعضهم بإرباك، وتردّدت نبضة عميقة أخرى في أرجاء المعبد، فبدأ فلين يشدّ فريا إلى الخلف قبل أن يستديرا ويستأنفا الركض. عندما وصلا إلى البوابة الواقعة عند أوّل المعبد، أبطأ الإنكليزي من سرعته، وصاح من خلف كتفه.

"*إنتو عارفين إن جرجس زملكاوي*. تعرفان أنّ جرجس يؤيّد فريق الزمالك، أليس كذلك؟".

ثمّ اختفيا من البوابة متوجّهَين إلى الواحة الممتدّة خلفها.

سأل أحد التوأمين مذعوراً: "هل قال إنّ جرجس يؤيّد الزمالك؟".

أجاب شقيقه مصدوماً: "هذا بالتحديد ما قاله".

"هل كنّا نعمل لحساب فارس أبيض؟".

"*زملكاوي*؟".

نظرا إلى بعضهما مشدوهَين. باستثناء أبيهما، لم يكن ثمّة ما يمقتانه في العالم أكثر من مؤيّد للزمالك؛ حثالة، جميعهم حثالة. وها هما يكتشفان الآن أنّهما يعملان لحساب أحدهم. عملوا لحسابه طيلة العقد الماضي.

"لنخرج من هنا".

"جرجس؟".

"سنتولّى أمره في القاهرة. سنعلّمه درساً لن ينساه أبداً".

"النذل!".

"النذل!".

عبسا وهمّا بالتوجّه إلى البوابة الرئيسة، عندما مدّ التوأم ذو الأذن المشقوقة يده فجأة وأمسك بذراع أخيه.

قال: "يمكننا أخذ قليل من ذاك الذهب معنا، أعني ذاك العمود الكبير".

سحب مطواة من جيبه، وفتحها، ثمّ قام بحركة نشر.

"ننــزعه ونبيعه في خان الخليلي".

وافقه شقيقه قائلاً: "قد تكون فكرة جيّدة".

"ونشتري شيئاً جميلاً لماما".

"نفتح كشك *تورلي* آخر".

"ليصبح العمل يستحق العناء".

تردّدا، بينما ارتعدت الباحة إثر نبضة أخرى ملأت المكان. أومأا موافقَين، واستدارا وبدأا يسيران عائدَين عبر المعبد، يتحدّثان حول الذهب، والتورلي، وكيف أنّهما يودّان حشر كلّ مؤيّدي الزمالك في العالم في تلك الغرفة الزجاجية، والضغط على الزر، ورؤيتهم وهم يشوَون.

قالت فريا وهي تلهث في أثناء هروبهما هي وفلين عبر البوابة الضخمة إلى الباحة الضيقة أمام المعبد: "ماذا قلتَ لهما بحق الله؟".

"قلتُ إنّني من الشياطين الحمر".

"ماذا؟".

"قصّة طويلة. في هذه اللحظة كلّ ما أريده هو الخروج من هنا. هيّا!".

قفزا على الدرجات المؤدية إلى منصة المعبد، وعندما وصلا إلى الأرض لمسطّحة، انطلقا يعدوان بين الأشجار، ينـزلقان ويتعثّران على الأرض غير لممهّدة، بينما راحت النبضات تصدر على فترات منتظمة حينذاك، وكلّ منها زلزل الواحة، وكأنّ الحجر نفسه يرتجف بفعل الصوت.

"ألم يكن ثمّة شيء عن تمساح؟ وثعبان".

أجاب فلين وهو يثب من فوق جذر عملاق شقّ طريقه عبر الممرّ: "اللعنتان. *يسحق الأشرار بين فكّي سوبك ويبتعهم الثعبان أبيب في أحشائه*".

"وما معنى ذلك؟".

"ليس لديّ أدنى فكرة. هيّا!".

واصلا انحدارهما، بين تماثيل "أبو الهول" والمسلات المصطفّة على جانبي الطريق الضيّق. كان صوت خفقان بنبن ملحّاً إلى حدّ أنّ فريا لم تلاحظ إلاّ في تلك اللحظة أنّ أصوات زقزقة العصافير التي كانت تملأ الواحة سابقاً قد اختفت. وكذلك طنين الحشرات. نظرت حولها وإلى الأعلى، ولكن باستثناء ما بدا وكأنهما بازين يجوبان السماء في الأعلى، أصبح الوادي فجأة خالياً من الحياة البرية. ولا بدّ من أنّ فلين لاحظ ذلك هو الآخر لأنّه أبطأ من سرعته فجأة ثمّ توقّف، وراح يتأمل الأشجار والمنحدرات قبل أن يبدأ بالعدو مجدّداً، ويسرع بإلحاح أكبر من ذي قبل. يبدو أنّ غياب الحيوانات أثار خوفه بقدر الحجر النابض، لا بل وأكثر.

قالت فريا بصوت عالٍ وهي تركض خلفه: "على الأقلّ، يبدو أنّ جميع أتباع مولي قد اختفوا هم أيضاً". فقد كانت تراقب الشجيرات في أثناء نزولهما ولم ترَ أيّاً من الأشخاص الذين لحقتهم في طريقهم عبر الوادي. فتضاعفت آمالها في النجاح فعلاً بعبور النفق والخروج من الواحة من دون عوائق. "لا بدّ من أنّهم...".

توقّف فلين فجأة. كان ثمّة نخلة عملاقة إلى يسارهما، وذراع غرانيت ضخمة إلى يمينهما. أمامها، وقف في منتصف الطريق رجل يرتدي سترة واقية من الرصاص وسروالاً حربياً بلون الرمال، ويحمل مدفعاً رشاشاً من طراز هيكلر أند كوخ أم بي 5 بإحكام على كتفه، ويصوّب فوّهته مباشرة إليهما. خرج رجل ثانٍ بسترته الواقية من خلف النخلة، ووجّه رشّاشه نحوهما هو الآخر. مدّ فلين يده وأمسك بيد فريا، بينما تردّدت رعشة أخرى عبر الوادي. وللمرة الأولى، بدا وكأنّه لا يعرف ما يقوله.

لطالما أحبّت مولي كيرنان الألعاب النارية، منذ أن كانت تشاهد احتفالات اليوم الرابع من تموز في مدينتها الأمّ شمال بلات، نيبراسكا، حيث تجتمع مع أسرتها لمشاهدة سماء الليل وهي تضيء بمختلف الألوان فوق المهرجانات التي تقام في مقاطعة لينكولن، على أطراف البلدة. منذ ذلك الحين، شهدت عروضات أكثر

جمالاً - وكان ذلك الذي يقام عند الأهرامات احتفالاً بذكرى الاستقلال المصري مثيراً دائماً للإعجاب - ولكن لا شيء يقارن بما تشاهده الآن داخل غرفة العـــزل الزجاجية.

ففي كلّ مرّة تصدر فيها نبضة عميقة رنّانة من بنبن - وكانت قد أصـــبحت أكثر تواتراً خلال الدقائق العشرين الأخيرة - كان يرافقها انفجـــار رائـــع مـــن الأضواء. وأصبحت الومضات أكثر إشراقاً وحدّة مع كلّ مرّة، الأمر الذي جعـــل الدكتور ميدوز يصرّ على أن يضعوا جميعاً النظارات الواقية من الأشـــعة، لتـــأمين حماية إضافية مع الطلاء الواقي الذي يغطّي الجدران الزجاجية المصـــفّحة. كانـــت الألوان قد بدأت تظهر داخل الحجر، باهتة في البداية، وبالكاد ملحوظة، بريق دقيق من الأحمر، والأزرق، والفضي، والأخضر، يتوهّج للحظات داخل الكتلة الداكنـــة قبل أن يختفي مجدّداً. ولكن مع زيادة تواتر النبضات وتضاعف حدّة ومضة الضوء، أصبحت الألوان أقوى وأكثر روعة. فتحوّلت النقاط إلى خطوط، والخطـــوط إلى دوّامات، وأصبح الحجر بأكمله ملتهباً بمشكال من الألوان الرائعة، وبدا وكأنّ هالة كثيفة ترتفع فوق سطحه كالبخار، وتغلّفه بضباب ذهبـــي كثيف.

صاحت كيرنان وهي تصفّق بيديها طرباً: "كم هي جميلة! إنّها أجمـــل مـــا رأيت! ألا توافقونني؟ ألست على حق؟ إنّها الأجمل على الإطلاق!".

لم يجبها أحد، بل وقف الجميع يحدّقون مخطوفي الأنفاس، مع ازدياد العـــرض حدّة، بينما توقّفت شاشات المراقبة والآلة الطابعة عن إصدار أيّ صوت، وتوقفت شاشات الكمبيوتر، وانقطع التيار الكهربائي منذ وقت طويل.

ظلّ جرجس يسأل: "هل نحن بأمان؟". بنظارته المطاطية اللامعـــة، وشـــعره الأملس المسرح إلى الخلف، وفمه رقيق الشفتين، بدا شبيهاً بحيوان زاحف أكثر من أيّ وقت مضى. "هل أنت متأكد من أنّنا بأمان؟ لا أريد أن تكون نهايتي هكذا!".

كان يعني بكلامه عثمان، أو ما كان يوماً ما عثمان. لم يتبقَّ الكثير من عـــالم الآثار المصري، ذلك أنّ كلّ ومضة ضوء سلبته قليلاً من جسده، قلّصته طبقة تلـــو أخرى مثل بصلة، إلى أن لم يتبقَّ منه سوى كومة من العظام البيضاء الملقاة علـــى الأرض أسفل بنبن، والتي ظلّت، على نحو سريالي، معلقة بحذائه، وجوربه، وسرواله الداخلي، ونظارته.

أكّد له الدكتور ميدوز قائلاً: "نحن بأمان تامّ يا سيّد جرجس. فكما سبق وقلتُ لك، الجدار الزجاجي عازل تماماً. ما يحدث داخل منطقة المراقبة يبقى داخلها. لا يخرج شيء ما لم نرغب في ذلك".

لكن مع استمرار الحجر بحشد قوّته، وازدياد سرعة النبضات، وتضاعف حدّة الومضات الضوئية، بدا الدكتور ميدوز نفسه غير متأكد. راح يذرع الغرفة ذهاباً وإياباً وهو يحكّ رأسه الأصلع، ويتحدّث بصوت خافت وقلق مع أحد زملائه من ذوي الرداء الأبيض، وجميعهم يتساءلون كما هو واضح إلى أين سيؤدّي ذلك، وما إذا كانوا قد أساؤوا تقدير الشيء الذي يتعاملون معه.

وحدها كيرنان لم تزعجها الألعاب النارية، إذ وقفت أمام الآخرين بمسافة لا بأس بها، وبدت سعيدة وهي تصفّق طرباً مثل تلميذة مدرسة مفرطة الحماسة، وتمدّ إصبعها من وقت إلى آخر للمس الزجاج، وكأنّها تحاول الاتّصال بما يجري خلفه، وإقناع نفسها أنّه يجري بالفعل.

همست: "انظر إليه يا تشارلي! هلاّ نظرتَ إلى الحجر وحسب! أبقيتَني قوية كلّ هذه السنوات، لم أكفّ عن الاعتقاد بوجوده! والآن... هلاّ نظرتَ إليه! جميل! جميل!".

كانت مستغرقة تماماً بما يجري، منوّمة تماماً بعرض الصوت والضوء الباهر الذي يدور أمام عينيها، إلى حدّ أنّها لم تلاحظ عندما بدأ أحدهم يناديها؛ بصوت خشن ذي لكنة أمريكية. فقط عندما تقدّم ميدوز وأعطاها جهاز اللاسلكي الذي تركته قرب إحدى شاشات المراقبة، أبعدت انتباهها أخيراً عن الحجر. رفعت الجهاز إلى أذنها، وأصغت، بينما تحوّل نظرها إلى جرجس، وراحت تهزّ رأسها وكأنّها غير موافقة. أخيراً، قالت باقتضاب: "اقضِ عليهما"، ثمّ أعادت الجهاز إلى ميدوز، وحوّلت انتباهها مجدّداً إلى بنبن.

بينما تردّد من جهاز اللاسلكي صوت قعقعة، تبعته طلقات رصاص مكتومة.

من شأن الصدمة أن تلعب حيلاً غريبة على العقل، وللحظة وجيزة، اعتقدت فريا أنّها ماتت وأنّها تعيش تجربة خارج الجسد.

لم يكن السبب وحسب أنّها سمعت صوت كيرنان وهي تأمر بقتلهما، ليتبعه صوت إطلاق نار وجثتان تسقطان على الأرض، بل لأنّ كلّ شيء أصبح هادئاً وساكناً، كما لو أنّ العالم توقّف فجأة و لم يتبقّ منه سوى صورة جامدة للحظته الأخيرة.

استغرقت لحظة قبل أن تدرك أنّ أيّاً يكن ما حدث فهي لم تتعرّض بالتأكيد لإطلاق نار. طرفت بجفنيها ونظرت حولها. كان كلّ شيء على حاله تماماً، مثلما كان قبل بضع دقائق؛ الواحة، وطريق تماثيل "أبو الهول" والمسلات، والنخلة العملاقة، وذراع الغرانيت الضخمة. كان الفرق الوحيد هو أنّ صوت بنبن قد توقّف، وغرق الوادي في صمت مطبق، أكثر عمقاً من حدّة الضوضاء التي سبقته. بالإضافة إلى ذلك، كان الرجلان اللذان يرتديان السترتين الواقيتين، واللذان كانا على وشك إطلاق النار عليهما قبل ثوانٍ، ممدّدَين على الأرض. أحدهما كان ممدّداً على بطنه، وقد أصيب الجزء العلوي من جمجمته، وتلوّث شعره، وعنقه، وياقة سترته الواقية بسائل لزج من الدماء، والعظام، وأشلاء الدماغ. بينما كان الآخر مستلقياً على ظهره، مفتوح الذراعين، وقد حلّ ثقب دامٍ داكن اللون محلّ عينه اليسرى.

تمتمت: "يا الله!"، و لم تكن واثقة ما إذا كانت تشعر بالرعب إزاء هذه المذبحة، أم بالراحة لأنّ مهاجميهما لقيا حتفهما، أم بالخوف من كونها مقدّمة لهجوم جديد غير متوقع.

نظرت إلى فلين، الذي بدا أنّه يكافح مع الأفكار نفسها. رفع حاجبيه وكأنّه يقول: *أنا مثلك تماماً لا أعرف ما الذي جرى*، ونظر حوله، محاولاً معرفة المكان الذي أُطلق منه الرصاص، ومن أطلقه. فسُمعت في أثناء ذلك خشخشة أغصان، وسقط شيء ما - شخص ما - من النخلة من فوق رأسيهما، وحطّ إلى يسارهما مع ضجّة مكتومة. في الوقت نفسه، سُمع حفيف جلباب من الطرف الآخر من الممرّ. ثمّ هبط شخص من أعلى ذراع الغرانيت العملاقة، وأسرع نحوهما حاملاً بندقيته. وقف فلين أمام فريا، وضمّ قبضتيه جاهزاً للقتال. إلاّ أنّ الرجل توقّف، وحمل البندقية إلى جانبه، ثمّ نزع باليد الأخرى الوشاح الملفوف حول رأسه ووجهه. شهق كلّ من فلين وفريا لدى رؤيته.

"زاهر؟".

مع أنّ الإثبات كان ماثلاً أمام عينَي فريا، إلاّ أنّها لم تصدّق.

كرّرت: "زاهر؟ كيف وصلت...؟".

صمت، وحلّ الريب محلّ المفاجأة والارتياح. عادت إليها جميع شكوكها حول المصري، وذكريات ذلك اللقاء الأخير المتوتّر في منزله في الداخلة. لاحظ التغيير في تعابيرها، وخفض بندقيته مجدّداً ليريها أنّ نواياه ليست سيّئة. فعل الرجل الآخر الشيء نفسه مع بندقيته، وكشف عن وجهه هو أيضاً؛ إنه سعيد، شقيق زاهر الأصغر. استرخت قليلاً، وكذلك فلين الذي خفض يديه وتراجع ليقف بجانبها.

سألتهما وهي تهزّ رأسها حائرة: "ماذا تفعلان هنا؟ كيف وجدتماها؟".

إن كانت تنتظر تفسيراً، فإنّه لم يأتِ. عوضاً من ذلك، وبعد وقوف الشقيقين هناك للحظة، بتعبيرهما الجدّي والعنيد الذي بدا وكأنّه متوارث في الأسرة، تقدّم زاهر بضع خطوات ووضع يده على صدره.

"أنا آسف يا آنسة فريا".

عبست من دون أن تفهم ما يتحدّث عنه.

كرّر بأسلوبه الرسمي، والجدّي، وكأنّه يقوم بتصريح علني: "أنا آسف. أنت ضيفتي في مصر، وأختك الدكتورة ألكس كانت صديقتي. من واجبي رعايتك، وحمايتك من كلّ المخاطر. لكنني لم أحمِك، وحدث كثير من الأمور. أنا آسف. آسف جدّاً. سامحيني".

من بين جميع الأمور التي حدثت خلال الأيّام القليلة الماضية - مطاردات بالسيارات، تبادل لإطلاق النار، واحات مفقودة، كتل صخرية ذات قوى خارقة - شعرت فريا أنّ هذا المشهد هو الأكثر غرابة؛ أن تقف هناك بجانب جثتين داميتين وذراع غرانيت عملاقة، لتتلقّى اعتذاراً من دون سبب وجيه من قِبل الرجل الذي أنقذ حياتها للتو من موت محقّق.

قال مجدّداً، وبدا شيء طفولي تقريباً في نبرته الجادّة: "سامحيني". ورغماً عنها، بالرغم من كلّ شيء، انفجرت ضاحكة.

"زاهر، لقد أنقذت حياتي للتو. عليّ أن أشكرك لا أن أسامحك! أنتم البدو...".

حرّكت يدها قرب رأسها، مشيرة إلى أنّها تظنّه مجنوناً. عبس زاهر محاولاً أن يعرف ما إذا كانت الحركة مزاحاً أم إهانة. ويبدو أنّه استقرّ على الـرأي الأوّل، لأنّه أومأ وظهرت على فمه شبه ابتسامة، مجرّد التواء بسيط نحو الأعلى عند زاويتَي فمه.

قال وهو يقترب ويركل إحدى الجثتين بقدمه: "كلّ شيء على ما يـرام الآن يا آنسة فريا. أنتما بأمان، كلاكما بأمان. لم يعد ثمّة خطر، كلّ شيء علـى مـا يرام".

الغريب هو أنّها كانت بالتحديد الكلمات نفسها التي استخدمها فلين بعـد هجوم الدبابير في طائرة الأنتونوف. فشعرت الآن، كما حدث في تلك اللحظـة، بموجة من الراحة والدفء، وفكّرت في أنّ الأمور قد تجري في صـالحهما، وقـد يخرجان على قيد الحياة من هذه المحنة.

كما حدث على الطائرة، تبيّن أنّ تفاؤلها كان قصير الأمد. فهـي لم تكـد تسمح لنفسها بالنظر إلى ذلك البصيص من الأمل، حتّى تردّد الصوت مجدّداً مثـل صفعة على الوجه. بوم... بوم... بوم... تردّد صداه في الوادي، مزلزلاً الصـخور والأشجار، بوتيرة أسرع الآن وكأنّه أعاد شحن نفسه وأراد أن يعوّض عن الوقت الضائع.

جمد الأربعة في مكانهم، وراحوا ينظرون حولهم. شعروا بأنّ الأرض تهتز تحت أقدامهم مع كلّ نبضة، وكانت اهتزازاتها عنيفة إلى حدّ أنّ فريا أصـبحت علـى قناعة بأنّ الصوت لا يزلزل جدران الوادي فحسب، بل يحرّكهـا، ويـدفعها إلى الاقتراب من بعضها. هزّت رأسها، واثقة بأنّها تتخيّل مجدّداً، وأنّـه مجـرّد وهـم بصري. ولكن كلّما حدّقت أكثر، بدا لها أنّ جدران الـوادي تتحـرك بالفعـل، تزحف ببطء نحو بعضها مثل كتاب عملاق يُغلق، وكأنّ الجيولوجيـا تـنعكس، وتنضغط خلال ثوانٍ. أصبح من الممكن الآن سماع صوت الصخور المنخفض وهي تُطحن على بعضها، والذي يمكن تمييزه بوضوح عن صـوت النبضـات، ثمّ راح يرتفع تدريجيّاً إلى أن طغى على صوت نبض.

سألتهم وهي ترفع ذراعيها، مشيرة إلى المنحدرات عن اليمين واليسار: "هـل ترون هذا؟".

من الواضح أنّ فلين لاحظ ما يجري لأنّه أسرع باتجاه ذراع الغرانيت العملاقة،

ولحق به زاهر وأخوه. تسلّق الثلاثة سطح الحجر لرؤية ما يجري بشكل أفضل.

صاحت فريا: "ما هذا؟ ماذا يحدث؟".

كان فلين يحمي عينيه من نور الشمس، وينظر إلى الأمام والخلف، وهو يثبّت ساقيه فوق الذراع التي ترتجف تحته.

تمتم قائلاً: "فكّا سوبك". ثمّ كرّر بصوت أعلى: "فكّا سوبك! يا الله! هذا هو معنى اللعنة! *ليسحق الأشرار بين فكّي سوبك!* الواحة تُغلق مثل فم تمساح. هذا ما تعنيه. انظروا! هل ترون كيف يُطبقان على بعضهما!".

رأت فريا ذلك بالفعل، حتّى من مكانها المنخفض. فشكل الواحة الضيّقة من طرف، والواسعة من الطرف الآخر، حيث تشكّل منحدراتها شكل V عملاقة، أعطتها انطباعاً الآن وكأنّها فم تمساح عملاق يُطبق فكّيه تدريجيًا، ويسحق كلّ ما بينهما. كانت الصخور وغيرها من الحطام قد بدأت تتساقط أسفل المنحدرات، وسُمع صوت تشقّق بعيد ناتج عن جذوع الأشجار التي تُقتلع وتُنتزع.

صاحت: "ولكن هذا مستحيل! كيف يمكن لوادٍ أن يُغلق على نفسه؟ هذا غير معقول".

صاح فلين وهو يلوح بذراعه: "لا شيء معقول هنا، لا شيء، من البداية إلى النهاية! لا يهم، إنّه يحدث، وعلينا الخروج. علينا الخروج الآن!".

زحف للهبوط، وتبعه زاهر وشقيقه، وتطاير جلباباهما في أثناء ذلك. ومع أنّ وجهيهما كانا خاليَين من التعبير كالعادة، إلاّ أنّ الخوف بدا في أعينهما بوضوح.

أمسك فلين بذراع فريا وبدأ يتوجّه عبر الواحة إلى النفق. لكنّ زاهر لحق بهما وأوقفهما.

"ليس من هذا الطريق، فثمّة كثير من الرجال في الأسفل. لنذهب باتجاه آخر، نحو أعلى الوادي".

وأشار بيده نحو المعبد.

"علينا الصعود. هكذا نأتي إلى الواحة. دائماً نأتي هكذا".

فتح فلين فمه ليسأل زاهر عن معنى تعليقه الأخير، لكنّ المصري وشقيقه بدأا يركضان وهما يلوحان للغربيّين للحاق بهما.

صاح زاهر: "هيّا! لا وقت لدينا!".

انطلق فلين وهو يصيح قائلاً: "أتيتَ إلى هنا من قبل! هل قلت إنّك أتيت إلى هنا من قبل؟".

ضاع صوته وسط هدير الصخور مع اقتراب الجروف من بعضها، فيما بدأت سحب من الغبار ترتفع من جانبَي الوادي كما لو أنّ الواحة تحترق.

عمل فيرنون ميدوز - الدكتور فيرنون ميدوز الحائز على بكالوريوس في العلوم، وماجستير، ودكتوراه، وشهادة فيزيائي مصادق، زميل في الأكاديمية الأمريكية للفنون والعلوم، زميل في معهد الفيزياء، عضو بارز في معهد مهندسي الكهرباء والإلكترونيات - على ما كان يحبّ تسميته "خط المواجهة الباطني" لأبحاث وزارة الدفاع الأمريكية لسنوات عديدة خلال الأربعين عاماً الماضية. وشمل عمله كلّ شيء، من التخاطر الكمّي إلى برامج التأثير في الطقس، ومن الدروع الخفية إلى رؤوس إيزومير الصاروخية المضادّة للمادة. وخلال ذلك الوقت، أيّاً يكن المشروع الذي يعمل عليه، وفي أيّ بقعة من العالم كان- وما من بقع كثيرة في العالم لم يزرها خلال سعيه إلى تطوير تكنولوجيا الأسلحة - اعتمد قاعدتين أساسيتين: حافِظ على هدوئك وأمسك بزمام الأمور، مهما كان الوضع غريباً؛ وإن لم تستطع البقاء هادئاً وممسكاً بزمام الأمور، فانجُ بنفسك على الفور.

كانت القاعدة الثانية هي التي طرحت نفسها الآن بعدما استأنف بنبن نبضاته - من دون ومضات ضوئية هذه المرّة، وهو أمر مثير للاهتمام - وبدأ يصدر من الخارج هدير قوي، أخبره أحد زملائه بعدما هرع إلى الخارج أنّه صادر عن جدران الوادي التي تُطبق على بعضها ببطء. كان الدكتور ميدوز قد شهد كثيراً من الظواهر المريعة على مرّ السنوات، ولكن لا شيء يقارَن بهذا. خرج بنفسه لتقييم الوضع، ثمّ عاد إلى الغرفة وطلب إيقاف كلّ شيء، وأمر الجميع بترك ما بين أيديهم، والتخلّي عن المشروع والنجاة بأرواحهم.

لم يجادله أحد. حتّى جرجس سمح بإخراجه من الباب من قِبل زملاء ميدوز، مع أنّه ظلّ يصيح: "ماذا عن المال؟ لقد نفّذت جانبـــي من الصفقة وأريد مـــالي! الآن، هل تسمع؟ الآن!".

وحدها مولي رفضت المغادرة. ظلّت واقفة في مكانها أمـــام غرفـــة العـــزل الزجاجية، غافلة عن حركة النـــزوح المحمومة خلفها، تحدّق إلى الحجر وهو ينبض ويمتلئ مجدّداً بدوّامات الألوان. كانت الأشكال أغنى وأعمق من ذي قبل؛ أكثـــر الألوان التي رأتها في حياتها حيوية، وغرابة، وروعة، وكأنّ الحجر كان مجرّد نافـــذة على واقع أسمى وأكثر كمالاً.

صاح الدكتور ميدوز، وهو يلوّح لها بغضب من المدخل، تشدّانه ســـاقاه إلى الخلف عبر الباب وكأنّهما تعملان بشكل مستقلّ عن بقية جسده: "سيّدة كيرنان، علينا الذهاب! رجاءً! علينا الذهاب. الأمر خرج عن السيطرة".

لوّحت بيدها بتكبّر، من دون أن تكلّف نفسها عناء الالتفات نحوه.

"هيّا، اذهب! اهرب إلى البيت واحتمِ بأمّك. يا لكم من فئـــران! جمـــيعكم فئران وديدان! لا مكان لكم هنا!".

"سيّدة كيرنان...".

"هذا زمن الأقوياء! زمننا! هيّا، اخرجوا! سنتولّى الأمر بدءاً من هنا! سنتولّى العالَم بدءاً من هنا!".

لمعت عيناها، ولوحت مجدّداً بيدها وكأنّها تصرف شخصاً يحاول بيعها حلية غير مرغوب فيها. هزّ ميدوز رأسه عاجزاً، ثمّ استدار على عقبيه وخـــرج. تـــردّد صوت كيرنان خلفه، وكان مسموعاً بالرغم من صوت بـــنين وهـــدير جـــدران الوادي، وبدا منتشياً، ومنتصراً وهي تقول: "انظر إليه يا تشارلي! آه! هلاّ نظـــرتَ إليه وحسب يا عزيزي! انظر إلى قوّته! سنسحقه! سنسحق الأشرار! سنحوّلهم إلى غبار! آه! هلاّ نظرتَ إليه وحسب!".

"كنتَ تعرف، أليس كذلك؟ كنت تعرف بمكان الواحة طيلة الوقت. ســـبق وأتيتَ إلى هنا".

كان فلين يكافح ليلحق بزاهر الذي اندفع بسرعة يقودهم عبر الطريق المؤدّي إلى أعلى الوادي. تبعتهما فريا وسعيد على مقربة منهما، وكانت الأرض تعلـو وتهبط، والمنحدرات تتحرّك من الجانبين، وتزحف إلى الداخل من دون توقّف. ملأ الغبار الهواء، وبدأت التماثيل والجدران المبنية تهتز وتتحطم. كان الضجيج يصمّ الآذان.

صاح فلين، وهو يكافح للتنفس ولرفع صوته فوق الضوضاء: "متى؟ متى وجدتها؟".

صاح زاهر من فوق كتفه: "ليس أنا، بل أحد أجدادي. محمد وِلد يوسف إبراهيم صبري الرشايدة. كان يعرف الصحراء كلّها، كلَّ كثيب، وكلَّ حبة رمل فيها. عثر على الواحة منذ ست مئة عام".

"أسرتك تعرف بأمر الواحة منذ ست مئة عام!".

"نمرّرها من جيل في الرشايدة إلى آخر، من الأب إلى الابن، من الأب إلى الابن، ولا نخبر أحداً".

"ولكن، لماذا بالله عليك؟ لماذا أبقيتموها سرّاً؟".

توقّف زاهر والتفت لمواجهة فلين. كانت فريا وسعيد يقتربان منهما.

رفع زاهر يده إلى صدره قائلاً: "نحن بدو. نفهم الواحة، ونحترمها. نأتي، نشرب الماء، نبيت ليلة، وليس أكثر. لا نلمس شيئاً، ولا نأخذ شيئاً، ولا نؤذي شيئاً. بقية الناس... لا يفهمون. الواحة قوية".

لوّح المصري بذراعه حوله وأضاف: "إنّها خطرة إن لم نحترمها، مثل كلّ الصحراء. ليست آمنة للناس الآخرين الذين يأتون إلى هنا. تحدث فيها أمور سيّئة. الواحة تعاقِب. تعالوا الآن، ليس لدينا وقت!".

بدأ يركض مجدّداً، ولحق به فلين وفريا وسعيد. وصلوا إلى أولى الدرجات التي تؤدي إلى المعبد في الأعلى. ولكن عوضاً عن متابعة الطريق، انحرف زاهر يميناً، وقادهم خارج الطريق الرئيس إلى ممرّ يلتفّ حول قاعدة المنصة الصخرية التي يقبع عليها المعبد. كان أضيق من الطريق الممتد وسط الوادي، وتسدّه الجذور والأبنية المحطّمة، ممّا أبطأ تقدّمهم.

صاح فلين مُبعداً أحد الأغصان الذي ظهر أمامه: "وماذا عن الطائرة؟ كنتم تعرفون بأمر الطائرة؟".

قال زاهر: "بالطبع نعرف بأمر الطائرة. عثرنا عليها بعد أربعة أو خمسة أسابيع من سقوطها. وعرفنا أنّ رجلاً بقي على قيد الحياة من القبور التي حفرها. بحثنا عنه، ولكنّنا لم نجده. بعد ذلك، أتينا عدّة مرّات لنراقب ونحرس".

"ولكنك كنتَ تنتمي إلى ساند فاير! كنت تساعد ألكس على البحث عن الواحة!".

ألقى زاهر على فلين نظرة كان معناها واضحاً حتّى من دون أن يتكلّم: ربّما ساعدها على البحث عنها، ولكن ليس على إيجادها.

قالت فريا وهي تعدو قرب فلين: "كنتَ تحاول حمايتنا، أليس كذلك؟ عندما أتينا إلى منزلك بالأمس، وسألناك عن الصخرة. لهذا السبب لم ترد إخبارنا. أردتَ حمايتنا".

قال زاهر، وهو يبطئ من سرعته حين رأى عموداً ضخماً محطماً أمامهم، يبلغ قطره ثلاثة أمتار، وطوله بطول مقصورة قطار، وقد غُلّف بطبقة كثيفة من النباتات المتعرّشة وسدّ الطريق تماماً: "حاولتُ تحذيركما من خطورتها. الواحة خطرة، الأشرار خطرون، كلّ شيء خطِر. لم أرد أن يلحق بكما الأذى".

وصل إلى العمود، وأمسك بإحدى النباتات، وبدأ يحاول تسلقه. ولكن عندما وصل إليه فلين، أمسك بذراعه، وشدّه إلى الخلف.

"نحن من يدين لك باعتذار يا زاهر. لا بل أكثر من اعتذار. لم نثق بك، وأهنّاك في منزلك. أنا آسف، يا *صاحبي*، آسف حقّاً".

لاحت شبه ابتسامة أخرى على شفتَي المصري الذي أبعد ذراع فلين قائلاً: "لا بأس، سأقتلك لاحقاً. أما الآن، فلنتابع التحرّك، ونخرج من الواحة. أرجوكم، بسرعة".

ربت على كتف الإنكليزي، ثم استدار، وتسلق العمود، وركع ليمدّ ذراعه لمساعدة فريا. تسلقت هي أيضاً، وكان العمود يهتز مع حركة جدران الوادي وكأنّه لعبة ضخمة قابلة للنفخ وليس عموداً من الصخر يزن أكثر من أربعين طناً. استغرقت لحظة لتستعيد توازنها، ثمّ استدارت لمساعدة الآخرين. في تلك الأثناء، لاحظت حركة من زاوية عينها، في الأعلى إلى اليمين.

أشارت قائلة: "انظروا!".

كانوا الآن بموازاة واجهة المعبد، مع أنّهم أكثر انخفاضاً بكثير. كان ثمّة فتحة واسعة بين أغصان الأشجار أتاحت لهم رؤية البوابة الأولى ببرجيها المكلّلين بالنباتات المتعرّشة وبابها المفتوح. نظروا إلى حيث أشارت فريا، ورأوا أشخاصاً يخرجون من البوابة إلى الباحة أمام المعبد: رأوا رجالاً يرتدون سترات واقية ويضعون نظارات شمسية، والعلماء ذوي الرداء الأبيض، وجرجس ومرافقيه، وميدوز، يلحق بهم التوأم، ببذلتي أرماني. ولكن لم يكن ثمّة أثر لمولي كيرنان.

قال زاهر: "إنّهم يسلكون طريقاً غير صحيح. سيموتون، وسنعيش. هيّا".

مدّ يده لمساعدة أخيه على تسلق العمود، بينما ساعدت فريا فلين. تسلّق سعيد، ولكنّ فلين ظلّ في مكانه.

صاح: "مولي لم تخرج، لا تزال في الداخل".

صاحت فريا: "ومن يكترث بها! هيّا".

"لا أستطيع تركها هناك!".

"ماذا تعني بذلك؟ بعد كلّ ما فعلته بنا؟ اللعنة عليها، فلتحترق!".

شدّ فلين على قبضتيه، وصاحت فريا مجدّداً وهي تنظر يميناً ويساراً بجنون نحو الجروف التي تُطبق شيئاً فشيئاً: "هيّا!".

كرّر فلين: "لا أستطيع تركها، فقد ساعدتني بالرغم من كلّ شيء. عرّفتني إلى ألكس، وأعطت لحياتي معنىً، وإن كانت دوافعها سيّئة. لا أستطيع تركها تموت".

"أنت مجنون، مجنون تماماً!".

تجاهلها، وتراجع نحو مجموعة أخرى من الدرجات التي تؤدي إلى بوابة المعبد من جانبه، وليس من واجهته.

صاح: "اذهبوا، سألحق بكم".

"كلاّ!".

استدارت فريا، وأمسكت بحلقة سميكة من النباتات، جاهزة للهبوط مجدّداً واللحاق به، ولكنّ زاهر أمسكها من ذراعها.

قال: "سننتظره في الأعلى. هذا أفضل".

أبعدت ذراعه ووقفت وهي تصيح على فلين قائلةً: "ماذا تفعل؟ لقد قتلت ألكس! كانت متورّطة في ذلك. كيف تريد إنقاذها؟ قتلت شقيقتي".

ولكنّه كان قد اندفع صاعداً الدرجات اثنتين اثنتين، بينما ضاع صوتها بين نبض بنبن وهدير الصخور المحطّمة.

"أتمنّى أن تنشقّ الأرض وتبتلعك يوماً، لقد أخزيتني".

كانت تلك هي الكلمات الأخيرة التي قالتها أمّ روماني جرجس له، وها هو الآن يركض عبر الواحة، والحروف تُطبق حوله مثل فكّي كماشة، وكأنّ العالم بأكمله ينطوي وينهار على نفسه، فشعر أنّ رغبتها الأخيرة على وشك أن تتحقّق.

كان ينبغي له أن يعرف أنّها صفقة خاسرة. منذ البداية، منذ ثلاثة وعشرين عاماً، عندما طلبت منه تلك المجنونة كيرنان أن ينسى أمر الطائرة، وأنّ بنبن هو ما يسعون خلفه. مومسات، مخدّرات، أسلحة، يورانيوم؛ كانت تلك أمور يستطيع فهمها، أشياء يستطيع الاعتماد والسيطرة عليها. ولكن، صخور متفجرة، ولعنات قديمة؟ كان عليه أن يعرف، إن لم يكن منذ ثلاثة وعشرين عاماً، فبالتأكيد في ذلك الصباح، عندما حلّقوا مرّات ومرّات فوق الجلف ولم يجدوا شيئاً على الإطلاق، ومع ذلك، من اللحظة التي خرجوا فيها من ذلك النفق المقرف، وجدوا الواحة أمامهم، وكأنّها كانت هناك طيلة الوقت. كان ثمّة قوى لم يستطع فهمها، وعوامل لم يستطع استباقها، قوى لم يستطع أن يُخضعها لمشيئته. كلّ هذا بالإضافة إلى صاحبة جميع القرارات السيّئة.

صاح وهو يحكّ ساعديه وعنقه بغضب وهو يركض: "أريد مالي، هل تسمعون؟ أريد مالي! أعطوني إيّاه! أعطوني إيّاه حالاً!". بينما راحت المسلات المصطفّة على طول طريق المواكب تتحطّم حوله مثل قطع البولينغ المتساقطة.

كان يصيح على نفسه. فمعظم أفراد المجموعة التي هربت من المعبد معه إمّا اختفوا بعيداً أمامه أو، كما حلّ بذلك العالِم الأحمق ميدوز، سُحقوا تحت الأحجار المتساقطة، ولم يكن معه آنذاك سوى مرافقيه المصريين؛ قصري، والتوأم، وخلفهم بطرس صلاح، الذي كان يلهث وهو يركض. إنّه أقدم زميل له، والشخص الوحيد في العالم الذي قد يفكّر باعتباره صديقاً. كان يلوّح يائساً.

"لا تتركني، روماني! انتظر أرجوك. لا أستطيع مواكبتكم!".

صاح جرجس، وهو يلتفت قليلاً ويشير بإصبعه نحوه: "إنّه خطأك! كان ينبغي لك تحذيري من أنّها صفقة خاسرة. كان ينبغي لك إقناعي بعدم الدخول فيها! وكذلك أنت! وأنتما!".

كان يعني بذلك قصري والتوأم.

"كان عليكم جميعاً تحذيري! كان عليكم إقناعي بعدم الدخول فيها. أريد أموالي! هل تسمعون؟ أريد أموالي الآن، أيّها اللصوص السفلة".

تابع تذمّره وهم يركضون متعثّرين، يلوّح بذراعيه، ويصبّ جام غضبه على ازدواجية الأمريكيين وخيانة أبناء شعبه. تجاوزوا حطام الأنتونوف، وكان الحجر يدفع الطائرة ببطء نحوهم، يجرفها مع موجة عنيفة من الأحجار والصخور والأشجار المقتلَعة، إلى أن انقلبت في النهاية، ودُفعت تحت الجرف مثل لعبة على شكل قارب تُدفع تحت سفينة في المحيط.

صاح جرجس: "كيف يحدث هذا؟ أوقفوه! هل تسمعون؟ لهذا السبب أدفع لكم! أوقفوه!".

ضاع صوته في صخب الصخور المتحطّمة الذي يصمّ الآذان. وحتّى لو سمعوه، ما كان أحد منهم ليكترث، إذ كانوا جميعاً يسعون إلى الوصول إلى قعر الواحة والعودة إلى النفق بأسرع ما يمكن.

واصلوا عدوهم، بينما ازداد العالم ظلاماً مع تضيّق الوادي، وتصاعدت سحب الغبار والركام الذي يتساقط أمام وجوههم. في النهاية، أصبحوا يركضون من دون أن يروا شيئاً، وكان الدليل الوحيد على أنّهم يسلكون الاتجاه الصحيح هو سواد الجدران التي تلوح من الجانبين، والانخفاض الطفيف للأرض تحت أقدامهم.

كان الظلام دامساً، وهدير الصخور المتساقطة مربكاً إلى حدّ أنّ جرجس اجتاز ثلاثين متراً من النفق قبل أن يُدرك أنّه أصبح بالفعل في داخله. تبدّدت سحابة الغبار ببطء حوله، وبدأ يتبيّن تدريجيّاً الضوء الصادر عن المصابيح المحمولة التي وُضعت على مسافات منتظمة داخل النفق عندما أتوا عبره في وقت سابق من صباح ذلك اليوم.

أبطأ من سرعته، وتوقّف، ليعاود الركض مجدّداً، ويبتعد قدر الإمكان عن مدخل النفق والفوضى التي تعمّ في الخارج، وقطع خمسين متراً أخرى قبل أن يتوقّف ويستند إلى جدار النفق المقوّس الذي رُسمت عليه صور الثعابين الملتفّة. أخذ يشهق لالتقاط أنفاسه، وينفض الغبار والرمال عن شعره وملابسه. كانت المجموعة قد تفرّقت خلال محاولتها الأخيرة للهرب إلى أمان النفق، وكان قصري حينذاك خلفه بعشرة أمتار. أمّا صلاح، فكان أبعد من ذلك، وقد خرج لتوّه من سحابة الغبار وهو يسعل ويصفر. لم يظهر التوأم على الفور، وللحظة ظنّ جرجس أنّهما لا يزالان في الواحة، ثمّ رآهما إلى يمينه، بعيداً في النفق، مثل كرتين تمشيان في البعيد. صاح: "إلى أين تظنّان نفسكما أنّكما ذاهبان؟".

تابعا المسير.

"توقّفا مكانكما وانتظراني! هل تسمعان! انتظراني!".

تردّد صوت أحدهما عبر النفق قائلاً: "الزمالك أنذال! *والزملكاوية* حثالة!".

"ماذا؟ ماذا قلت؟".

لم يجيبا، بل تابعا طريقهما، واختفيا تدريجيّاً في الظلام.

صاح جرجس خلفهما: "سأراكما في الخارج! أتسمعان؟ سأراكما في الخارج، أيّها الوغدان!".

أخذ يحكّ رأسه وعنقه وهو يتمتم بالشتائم، ثمّ ابتعد عن الجدار وبدأ يلحق بهما عبر النفق، ملوّحاً لقصري وصلاح ليتبعاه. تلاشى هدير الصخور ببطء خلفهم، وأصبح أكثر انخفاضاً وهم يغوصون في أعماق الأرض، إلى أن اختفى ولم يعد يُسمع منه سوى أنين بعيد لا يعلو على وقع أقدامهم على أرض النفق وصفير صلاح الأجش وهو يتنفّس.

وصلوا إلى أسفل المنحدر، وكان جرجس لا يزال متقدّماً على زميليه. أصبحت الأرض مسطّحة، وكذلك النفق، الذي امتدّ أفقياً في باطن الجلف مثل جحر دودة ضخمة. وكانت مصابيح الكريبتون لا تزال تضيء طريقهم؛ مثل جزر أشباح مضيئة لم تساهم سوى في مضاعفة كثافة الظلام بينها.

صاح جرجس الذي بدا أنّ مزاجه يتحسّن كلّما ابتعدوا عن الواحة: "لم يتبقَّ الكثير، عشر دقائق أخرى ونخرج من هذا الجحر اللعين ونعود إلى القاهرة. سنتبارى في لعبة طاولة، أليس كذلك يا بطرس! كما في الأيّام الخوالي!".

أشعل صلاح سيجارة، وتمتم متذمّراً من تركه في الخلف عندما كانوا في الوادي. فلوّح جرجس بيده بلا اكتراث.

"سأعوّض عليك. سأشتري لك سيارة جديدة أو شيئاً من هذا القبيل. هيّا، تعالَ".

حثّ خطاه، وأسرع عبر النفق محاولاً تجاهل الثعابين المرسومة التي بدت وكأنّها تزحف وتتلوّى في الضوء الخفيف، كما لو أنّها تلتفّ حول الجدران والسقف مهدِّدة. مشى لدقيقة، ثمّ توقّف، وراح يحدّق إلى الظلام.

مع أنّ ذاكرته ليست دقيقة مئة بالمئة، وهذا ليس غريباً نظراً إلى كلّ ما مرّوا به، إلاّ أنّه كان متأكّداً من أنّهم عندما عبروا النفق في ذلك الصباح كان مستقيماً تماماً. أما الآن، فثمّة منعطف أمامهم، إذ إنّ جدار النفق مقوّس بحدّة إلى اليمين.

تمتم: "ما هذا؟". وبدأ يتقدّم مجدّداً قبل أن يتوقّف مرّة أخرى بسبب حدوث شيء غريب جدّاً. فقد سمع حفيفاً وكأنّ أياديَ تحتكّ بالخشب، ثمّ استقام النفق أمام عينيه ببطء قبل أن ينعطف بالاتجاه الآخر. هزّ رأسه، متأكّداً من أنّه يتخيّل. كان متعباً، بعد كلّ شيء، وسريع التأثّر، بعد أن خسر خمسين مليون دولار. ثمّ حدث ذلك مجدّداً.

صاح: "بطرس! هل رأيت ذلك؟ محمد؟".

استدار التماساً للاطمئنان من مرافقيه، ولكنّه رأى منعطفاً خلفه أيضاً، لم يكن موجوداً من قبل بالتأكيد.

أتاه صوت صلاح من الزاوية، وهو يرتعش خوفاً: "روماني! النفق يتحرك!".

"ماذا تعني؟ كيف يمكن أن يتحرك؟". عاد الاستياء إلى صوت جرجس؛ الاستياء الشديد.

صاح قصري: "الجدران تتحرك، إنّها تتلوّى".

"كيف يمكن لصخر الصلب أن...".

قاطعه صوت حفيف آخر. ومع أنّه يسمعه للمرّة الثالثة، إلاّ أنّه كان أقرب إلى زحف حية هذه المرّة، حيث أثار رعبه. رأى مذهولاً قصري وصلاح وهما يظهران ثمّ يختفيان مع تموّج النفق يميناً ويساراً. التوت الجدران والأرض والسقف وتمدّدت وكأنّها لم تكن مصنوعة من الحجر، بل من شيء أكثر ليونة ومرونة؛ من الجلد أو الأوتار.

صاح جرجس: "أوقفاه! أوقفاه حالاً! آمركما بإيقافه!".

بدا للحظة أنّ طلبه نُفّذ، إذ سكن كلّ شيء، ولم يعد يُسمع سوى صفير أنفاس صلاح، ومن مكان ما، صرخة مكتومة افترض جرجس أنّها صادرة من أحد التوأمين. مرّت خمس ثوانٍ، ومن ثمّ عشر، وبدأ يعتقد أنّ القوى الجيولوجية التي تسبّبت بذلك قد هدأت واستقرّت. فجأة، بدأ الممرّ يتلوّى ببطء. هذه المرّة، استمرّ في التحرك والالتواء من جهة إلى أخرى، وإلى الأمام والخلف، حيث سقطت المصابيح وتدحرجت على الأرض، واختلط كلّ شيء في ضباب من الضوء والظلام والثعابين الملتفّة. سقط جرجس على الأرض، ثمّ حاول الوقوف، لكنّه سقط مجدّداً وبدأ يزحف. لم يعرف بأي اتجاه يذهب، بل جلّ ما أراده هو الخروج. أصبحت حركة النفق أكثر عنفاً، وراحت الأرض تهتزّ وتزحف، وبدا أنّ النفق بأكمله يتلوّى. ملأ الجو صوت هسهسة خبيثة، واجتاحت رائحة لحم متعفّن شبه مهضوم خياشيمه، مسبّبة له الاختناق.

صاح جرجس وهو يرى المصريَين يلوحان أمامه فجأة، كان قصري ممدّداً على بطنه، وصلاح راكعاً على يديه وركبتيه، والسيجارة لا تزال تتدلّى من زاوية فمه: "ساعداني! ساعداني بالله عليكما".

كافح للوصول إليهما، ومدّ يده بيأس. مدّ صلاح وقصري أيديهما هما أيضاً. وكانت أصابعهم على وشك أن تتلامس، قبل أن يبدأ النفق بالانقباض والتضيّق. ومثل فم مجعّد، أطبقت الدائرة ببطء على زميليه، وعصرت سيقانهما وجذعيهما في قبضة صخرية، وسحقتهما. قاوما للحظة، وهما يلوّحان بأذرعهما، بينما احمرّ وجهاهما مع اشتداد الصخر حولهما بشراسة، قبل أن يبتلعهما. ظلّت يد صلاح بارزة لبضع ثوانٍ، وأصابعه الملوّثة بالنيكوتين معقوفة في لحظات احتضاره، قبل أن تُبتلع هي الأخرى وتختفي. تمايل النفق بعنف مرّة أخرى قبل أن يهدأ. كما تلاشت الهسهسة وخيّم الصمت.

ركع جرجس هناك للحظة وهو يحدّق مذهولاً إلى الفتحة الضيقة التي اختفى فيها صديقاه، وهو يرتعش وينشج. ثمّ مدّ يده المرتجفة، وتناول مصباح الكريتون الذي سقط على الأرض تحت الفتحة، قبل أن يقف بصعوبة ويستدير. قال بينه وبين نفسه: *انسَ ما حدث للتو. انسَ صلاح وقصري. ابقَ هادئًا، وابدأ السير، واخرج من هذه الحفرة اللعينة*. لكنّ الممرّ كان قد تقلّص وانغلق أمامه أيضاً، بعد أن ابتلع كما يبدو التوأم، مثلما حلّ بقصري وصلاح. أصبح عالقاً بمفرده، مدفوناً في جزء من النفق بحجم حافلة صغيرة.

صرخ بضعف: "هل من أحد هنا؟ هل يسمعني أحد؟".

كان صوته ضعيفاً حيث كان بالكاد يملأ الفضاء المحيط به، فما بالك باختراق الصخر الصلب. نادى مرّة تلو أخرى، حاملاً المصباح بيده، المصباح الوحيد، الذي بدأ يضعف. أصبح الظلام أكثر كثافة وتهديداً، وتراكم حول زر المصباح الذي أخذ وهجه يضعف مثل قطيع من الذئاب يحيط بنار معسكر.

أنّ قائلاً: "أرجوكم! أرجوكم ساعدوني. سأدفع، أنا غني، غني جدًا. ساعدوني!".

بدأ يبكي، ثمّ أطلق صرخة عالية، أشبه بعواء الضباع، وهو يطرق بقبضتيه على الحجر الأصمّ، داعيا الله لنجدته، وإنقاذه من محنته. ظلّ كلّ شيء على حاله، حدّة الصمت، وصلابة الصخر، وفي النهاية، سقط منهكاً على الأرض وظهره إلى الجدار. فوقه، حام رأس ثعبان ضخم مرسوم على السقف، بالكاد كان مرئيًّا في الضوء الخافت، وكان فكّاه مفتوحَين على وسعهما.

قال وهو يئنّ، ويحكّ عنقه وأطرافه، وقد أصبح إحساسه بالصراصير على جلده أكثر حدّة وإزعاجاً من أيّ وقت مضى: "ابتعدي عنّي، ابتعدي عنّي! مقرفة! مقرفة!".

أخذ يحكّ بغضب أكبر، ينهش نفسه بأظفاره، وأصبح إحساسه بالحشرات التي تدبّ على جلده واقعياً على نحو كريه إلى حدّ أنّه لم يحتمل الجلوس بلا حراك بالرغم من إرهاقه ويأسه، بل قفز واقفاً على قدميه. في أثناء ذلك، لمح شيئاً يسيل على الجدار الذي كان مستنداً إليه. وكأنّها رقائق من الحجر والرمال، سيل كامل من المواد، مع أنّ الضوء كان خافتاً جدًّا حيث لم يكن متأكداً. اقترب محاولاً تبيّن

ما يجري، وخشيَ أن يكون النفق قد بدأ ينهار. ولكنّ ما رآه كان أسوأ من ذلك، أسوأ من أيّ شيء يمكن أن يتخيّله، إنه كابوس تحوّل إلى حقيقة. كانت صراصير، عشرات وعشرات من الصراصير، لا بل مئات وآلاف منها، تخرج من فم الثعبان على الجدار مثل فيضان من المياه البنية القذرة. نظر إلى الأسفل، ورآها على سترته، وذراعيه، وساقيه، وحذائه.

راح يصرخ، ثمّ تراجع بجنون محاولاً سحق الحشرات، بينما أصدرت أقدامه صوتاً طاحناً على الأرض. ارتطم بالجدار المقابل وسقط منه المصباح، ليسطع ضوءه مؤقتاً، ويضيء المكان بأكمله بوضوح. رأى أفواه ثعابين أخرى، إلى يمينه، ويساره، وفوقه، وأمامه، وجميعها تقذف جحافل من الصراصير. أصبح التجويف بأكمله يعجّ بالحركة، واندفعت موجة من الحشرات باتجاهه، واجتاحت جسده، وغلّفته بكفن لامع من الأجنحة، والقوائم، وقرون الاستشعار. لم يدم الضوء سوى ثوانٍ، فقط لينير لجرجس فظاعة مصيره. ثمّ خفتَ وانطفأ، تاركاً خلفه الظلام، وحفيف ملايين القوائم الصغيرة، وصياح روماني جرجس الجنوني.



عندما وصل فلين إلى أعلى الدرج، توقّف، وأتاح له مكانه رؤية أفضل لما يجري في الواحة بأكملها.

كان مشهداً مروّعاً من الدمار المتعاظم. فالجمال الخلاّب الذي رأوه قبل ساعات اختفى آنذاك مع استمرار الجروف الصخرية بالتحرك، وسحق كلّ ما في طريقها: بساتين النخيل، ومروج الأزهار، والأشجار والبرك، وكذلك الطرقات والتماثيل... كلّها اختفت ببطء مثل أوساخ تحت زوج من المكانس الكهربائية الصناعية. بدا أنّ جدران الوادي أطبقت على نفسها في الأسفل، مع أنّه يصعب التأكد بسبب الغبار. أمّا إلى الأعلى، فلا تزال ثمّة مساحة واضحة من الخضرة بينهما، أكثر اتساعاً، أو بالأحرى أقلّ ضيقاً، كلّما اقتربت من أعلى الوادي، مع أنّها هي الأخرى تُبتلع بسرعة مع اقتراب المنحدرات من بعضها بلا رحمة، مبتلعة كلّ ما في طريقها. قدّر فلين أنّ لديه حوالى خمس عشرة دقيقة قبل أن يصل الدمار إلى جوانب المنصة الصخرية ويبدأ بهدم المعبد. وربّما بعد عشر دقائق منها، يكون

الوادي قد أطبق على بعضه واختفت الواحة. خمس عشرة دقيقة في الخارج. الوقت غير كافٍ، غير كاف تقريباً. استدار وبدأ يركض.

عبر الباحة الأولى، ورأى الجدران الصخرية الشاهقة إلى يمينه ويساره. كانت قوّة اقترابهما تتسبّب بارتفاع وانخفاض الأرض تحت قدميه. عبَر الباحة الثانية، ورأى نصف المسلات ملقاة على الأرض مثل الجذوع الطافية. أخيراً، عبَر الباحة الثالثة؛ كانت المسلة العملاقة في وسطها لا تزال منتصبة تتحدّى الفوضى الزاحفة نحوها، بالرغم من اختفاء بقعة من الغلاف الذهبي من زاويتها اليسرى في الأسفل، وهو عمل تخريبي بالكاد لاحظه لشدّة تركيزه على الوصول إلى كيرنان.

وصل إلى المعبد، وأسرع عبر قاعاته وغرفه الضخمة. أصبح نبض بنبن، الذي غطّى عليه هدير الواحة المتفكّكة، مسموعاً أكثر مع اقترابه تدريجيّاً منه؛ إنه نبض متكرّر يتعارض مع الحطام والهدير الناتجَين عن الصخور المنهارة.

صاح: "هيّا!"، محاولاً حثّ نفسه على الإسراع أكثر، واستهلاك كلّ الطاقة الموجودة في ساقيه. أمطرته السماء بزخّات من الغبار والحصى المتساقطة من الأعلى، وبدأت أجزاء من البناء بالتشقّق والتفكّك، وكلّ هذا حتى قبل أن تصل الجروف إلى منصة المعبد وتبدأ بالضغط بكلّ قوّتها عليها.

عبَر القاعة المليئة بجذور الأشجار الضخمة، وتلك التي تحتوي على طاولات القرابين المصنوعة من المرمر، وبدأت أجزاء أكبر من البناء تتشقّق وتتساقط حوله، إلى أن وصل إلى الباحة الصغيرة في قلب المعبد. كانت البركة حينذاك فارغة من الماء، وفي قعرها شقّ عميق، بينما حطّت أزهار اللوتس الوردية والزرقاء بيأس على الأرض الحجرية الجافة. صاح: "مولي!"، وأخذ يركض مباشرة عبرها، واجتاز مدخل البناء الحجري المنخفض من الجهة الأخرى، ليمرّ عبر ستارتَي القصب إلى القاعة الواقعة وراءهما. فجأة، تلاشت الأصوات الخارجية، ليسيطر صوت نبض بنبن الصاخب ويملأ أذنيه. "مولي، عليك الخروج! علينا الذهاب! هيّا!".

كانت الغرفة خالية. وقف فلين عند العتبة، ونظر إلى شاشات المراقبة المهجورة، والغرفة الزجاجية العازلة، وبنبن نفسه، وكان ملتهباً بدوّامات من الألوان، بينما ارتفع ضباب ذهبي ناعم فوق سطحه. كان على وشك أن

يستدير ليغادر، ظنّاً منه أنّها هربت، وأنّها كانت مع المجموعة التي رأوها تسرع عبر بوابة المعبد ولكنّهم لم يروها، عندما أحسّ بحركة داخل الغرفة. التفت وحدّق مذهولاً إلى مولي كيرنان التي راحت تنهض ببطء من خلف الحجر.

"مرحباً، فلين".

بدت وكأنّها ترحّب بوصوله إلى حفلة شاي.

"يا الله يا مولي! هل أنت مجنونة؟ اخرجي من هناك!".

ابتسمت له وبدت في غاية الهدوء والاسترخاء.

صاح بجنون وهو يلوّح لها: "ألم تري ما حلّ بعثمان؟ اخرجي! هيّا! علينا الذهاب!".

اتسعت ابتسامتها وقالت: "قل لي بصراحة يا فلين، هل أبدو مثل عثمان؟".

فتحت ذراعيها، مثل لاعب خفة يدعو الجمهور إلى تأمله، للتأكّد من أنّه بالرغم من رؤيته وهو يقطع نفسه، أنّه لا يزال سليماً.

"أرأيت؟ إنه لا يؤذيني. لا يفعل لي شيئاً".

حرّكت ذراعيها إلى الأعلى والأسفل، ثمّ مالت إلى الأمام، واحتضنت بنبن. ووضعت خدها عليه، بينما نظر إليها فلين مرعوباً. لم يبدُ عليها أيّ أذى، وبعد أن بقيت ساكنة للحظة لتثبت له وجهة نظرها، استقامت مجدّداً.

"لن يؤذي أحداً لا يريد إيذاءه يا فلين. إنه مجرّد أداة، لا أكثر ولا أقلّ. ومثل أيّ أداة، عليك أن تحسن استخدامها".

مدّت يدها ووضعتها على سطح الحجر، وبدا أنّ النبض يتباطأ ويهدأ وكأنّها قادرة بالفعل على إخضاعه لإرادتها. نظر إليها فلين غير مصدّق.

قالت مسرورة: "إنه صديقنا، تماماً كما كان صديق المصريين القدماء. ماذا كانوا يسمّونه؟ إينر سويسر-إن، هل ألفظه بشكل صحيح؟ الحجر الذي يجعلنا أقوياء. والآن سيجعلنا أقوياء نحن أيضاً. لهذا السبب ظهر لنا، ولهذا السبب وصلنا إلى هنا. إنه هدية يا فلين، هدية من الله".

حولهما، بدأت جدران المبنى ترتعد، عشرة أطنان من الأحجار ترتعش وتهتز وكأنّها مصنوعة من النايلون.

"أرجوك يا مولي، لا وقت لدينا! علينا الخروج حالاً!".

قالت متجاهلة توسّلاته، وبدا صوتها هادئاً ومتماسكاً على نحو مثير للقلق، وكأنها تعيش في واقع مختلف تماماً عن ذاك الذي وجد فلين نفسه فيه: "وهذه البداية وحسب، مجرّد لمحة صغيرة عن قوّته. فكّر في ما سيفعله من أجلنا عندما نُطلق له العنان فعلاً، ما سيساعدنا على تحقيقه".

"أرجوك يا مولي!".

"عالَم جديد، نظام جديد، ونهاية الشرّ. ملكوت الله على الأرض، مع بنبن كضمان، ومن دون أيّ شرير معنا!".

بدأت أحجار السقف تتشقّق، وأصبحت السماء الزرقاء مرئية في خطوط مغبرّة فوقه.

تابعت كيرنان حديثها: "ويمكنك أن تكون جزءاً منه يا فلين". مدّت يدها إليه، وقد نسيت على ما يبدو أنّها أمرت بإعدامه منذ مدّة قصيرة، ثمّ أضافت: "لماذا لا تعمل معنا؟ أنت تعرف عن الحجر أكثر من أيّ شخص كان، حتّى أنا. يمكنك أن تقدّم لنا النصح، وتساعدنا على فهم قدراته الكاملة. الباقون ضعفاء، ولكن ليس أنت. تعالَ معنا. ساعدنا على بناء عالم جديد. ما رأيك يا فلين؟ هل أنت معنا؟ هل ستساعدنا؟".

صاح وهو يتراجع، وينقّل نظره من كيرنان إلى السقف والجدران التي كانت تهتز بعنف متزايد، وتتكسّر مثل قشرة بيضة: "أنت مجنونة! هذا ليس شيئاً يمكن التحكّم به! إنّه يتجاوز قدراتك، يتجاوز قدراتنا جميعاً!".

ضحكت وهي تلوّح له بإصبعها، مثل معلمة مدرسة توبّخ تلميذاً مشاغباً وتقول: "آه! يا لقلّة إيمانك! كم هذا مخجل! هل تظن حقّاً أنّه يرسل إلينا هدية لا يمكننا استعمالها؟ لا نستطيع السيطرة عليها؟ هل يبدو لك أنّني لا أستطيع السيطرة عليه؟".

فتحت ذراعيها مجدّداً، وبسطت كفّيها، ووضعتهما ببطء على بنبن. ذُعر فلين وهو يسمع صوت النبض يتباطأ ويهدأ أكثر، إلى أن توقّف تماماً، وانطفأت الألوان بداخله واختفت. توقّفت الجدران والسقف عن الاهتزاز. سكن كلّ شيء وصمت على نحو مخيف. نظر فلين حوله عاجزاً عن التصديق.

تمتم قائلاً: "يا الله! كيف أمكنك... يا الله!".

ابتسمت كيرنان قائلة: "كما قلتُ لك، لا يعطينا شيئاً لا نستطيع استخدامه. وصدّقني، سنستخدمه، بمساعدتك أو من دونها".

أخذت نفساً عميقاً، ثمّ زفرت، وأرجعت رأسها إلى الخلف، وأغمضت عينيها.

تمتمت: "شيء ما..."، لم تكمل عبارتها إذ قاطعها هدير قصير يصمّ الآذان. وبدأ المبنى يهتزّ بعنف مجدّداً. في الوقت نفسه، استأنف بنبن نبضاته، بصوت أشرس من قبل بكثير، أكثر غضباً، مثل زئير أسد. التهب قلب الحجر مجدّداً، ولكن بلون واحد هذه المرّة: أحمر قانٍ، كالنار، وكأنّ كلّ ما حدث من قبل - دوّامات الألوان، والومضات الساطعة، والهالة الذهبية - لم يكن سوى مقدّمة، تمرين تحمية. أخيراً، يكشف بنبن طبيعته الحقيقية.

فتحت كيرنان عينيها فجأة، واندفع رأسها إلى الأمام، بينما تقلّصت الابتسامة على فمها، وجمدت يداها وكأنّها مكهربة.

صاح فلين: "اخرجي! اخرجي!".

لم يبدُ عليها أنّها قادرة على رفع يديها عن الحجر. بدأت ترتجف، واتسعت عيناها، وفُتح فمها حتّى بدا وكأنّ فكّها السفليّ سيسقط. تقدّم فلين خطوة، وفكّر في محاولة مساعدتها وسحبها خارج الغرفة الزجاجية، ولكن قبل أن يتمكن من ذلك، بدأت بقعة من خدها تصطبغ باللون الأصفر، ومن ثمّ البني، مثل ورقة محمولة قرب شمعة، ثمّ اتسعت البقعة واسودّت قبل أن تشتعل فجأة. ظهرت بقع أخرى على يديها، وعنقها، وجبينها، وشعرها، وذراعيها، وأصبح لونها بنياً ثمّ اشتعلت، قبل أن تتسع بقع النار وتتصل ببعضها لتغلّفها بكفن ناري. التهب جسدها بأكمله، وتحوّل إلى كرة من النار، في وسطها شيء بدا شبيهاً بشكل بشري.

للحظة، وقف فلين جامداً في مكانه، وقد شلّته الصدمة. ظنّ أنّه سمعها تصرخ: "تشارلي! تشارلي حبيبي!". وعندما انطلقت أشعة من الضوء من سطح بنبن، واخترقت الزجاج الذي يفترض أن يكون عازلاً ومصفّحاً، لترتطم بسقف الغرفة، مبخّرة كلّ ما في طريقها، استدار وفرّ هارباً.

في الخارج، تواصل دمار الواحة على نحو أسرع ممّا كان يخشاه، أسرع بكثير. كانت الجروف تحيط الآن بالمنصة الصخرية، تضغط عليها وتسحقها، وتعلو فوقها مثل قوّتين جبّارتين تحاولان الاتحاد ببعضهما. بدأت أبنية المعبد تنهار، والأعمدة.

والبوّابات، والجدران، والسقوف تتمايل، وتتلوّى، ثمّ تسقط ببطء في سيل من الغبار والحطام. وتبخّر معها كلّ أمل كان لديه بالخروج من الطريق الذي أتى منه، أو عبر بوابة أخرى في جانب المعبد. لم يعد لديه خيار آخر سوى الاستدارة ومحاولة الهرب من الجزء الخلفي للمبنى، وهو يدعو أن يكون ثمّة مخرج خلفي يستطيع الفرار منه.

راح يركض ويقفز جانبياً محاولاً تجنّب الأحجار المنهارة حوله، وبدا وكأنّ موجة من الحجارة المحطّمة تلاحقه وهو يسرع عبر سلسلة أخرى من الباحات والقاعات ذات الأعمدة. واصل عدوَه عبر البناء، وبدأ يتساءل ما إذا كان سيجد نهايته عندما وصل إلى باحة أخرى. رأى أمامه جداراً بارتفاع خمسة عشر متراً، مصنوعاً من الكتل الحجرية الصلبة. لم يكن فيه بوابة أو فتحة، وكان محاطاً بجدران مشابهة إلى اليمين واليسار، فأدرك أنّه وقع في فخّ كبير؛ كان محاصراً.

راح يصيح محبطاً، وهو يركض على طول الجدار ويضرب بيديه يائساً عليه، وقد أدرك أنّ هذه هي النهاية، ولن يتمكن من العودة أدراجه، مع كلّ الفوضى التي تسود وراءه.

صاح وهو يضرب الجدار تكراراً: "أيّها الأحمق! أيّها الأحمق الغبي...".

اهتزّت الأرض تحته بعنف، وكأنّها مصنوعة من لعب الأطفال، واختفى الجدار ببساطة، مبتعداً عنه ليختفي عن الأنظار في أسفل المنحدر عند الجهة الخلفية لمنصة المعبد. وفي دوّامة من الغبار، لاح الطرف العلوي للواحة أمامه مباشرة؛ جرف شاهق من الصخر العمودي تزحف إلى واجهته جدران الوادي ببطء. وبدت الشمس فوقه مثل كرة نارية حمراء.

تسلق فلين مذهولاً ما بقي من الجدار وبدأ يهبط بين الأشجار خلفه. رأى شخصين راكعَين بعيداً أمامه عند أسفل الجرف، وكأنّهما يتفحّصان شيئاً على الأرض.

صاح بهما: "ماذا تفعلان! تسلقا! ابدأا بالتسلق!".

بالكاد كان يستطيع سماع صوته، فما بالك بإسماع شخص آخر. لم يستطع فعل شيء سوى الركض إلى الأسفل، شاقًّا طريقه بين الكتل الحجرية المنهارة، بينما راحت الواحة تُضيّق الخناق حوله، واندلع حزام ناري آخر من بين وراءه.

منذ اللحظة التي اختفى فيها فلين عبر الدرجات المؤدية إلى المعبد، قاد زاهر فريا وأخاه قُدماً، حول أسفل المنصة الصخرية، وإلى الأمام عبر الأشجار نحو الطرف العلوي للواحة، وهو عبارة عن هاوية عمودية ترتفع 200 متر تربط بين جانبَي الوادي مثل قاعدة مثلث. عندما دخلت فريا الوادي في وقت سابق من ذلك النهار - ربّاه! وكأنّ دهراً قد انقضى منذ ذلك الحين - بدا أنّ طرفه العلوي بعرض 400 أو حتّى 500 متر. أمّا الآن، فكانت المسافة تقرُب من نصف ذلك، وتضيق باستمرار.

صاحت: "كم بقي لدينا من الوقت برأيك؟".

رفع زاهر يده، وبسط أصابعه، ثمّ ضمها وفتحها أربع مرّات.

"ولكن هذا مستحيل! كيف سنصل إلى هناك خلال عشرين دقيقة؟ أنا متسلّقة محترفة ولا يمكنني القيام بذلك في أقلّ من ساعتين!".

واصل زاهر عدوه نحو الجرف. كانت الأشجار حولهم تُقتلع وتسقط تدريجيًا، حيث أصبحوا يركضون في أرض مكشوفة. إلى اليمين واليسار أصبح جانبا الوادي واضحَين تماماً، بينما ارتفعت أمواج من الغبار من قاعدتهما خلال تقدّمهما الحثيث. وأمامهم انتصبت واجهة الجرف الذي يتعيّن عليهم تسلّقه، وقد حجبت الشمس، ملقية على الوادي ظلاً عميقاً. كان عبارة عن مساحة شاهقة من الحجر الأملس على نحو مخيف، وكانت ميزته الوحيدة الملحوظة - باستثناء بعض النتوءات والشقوق القليلة جدًا - وجود شقّ متعرّج يمتدّ في وسطه تماماً. في البداية، افترضت فريا أنّه مجرّد شريان من الصخر مختلف اللون، ممتد عبر الجدار الجيري. إمّا هذا أو أن يكون نتوءاً صخرياً رقيقاً يبرز بفخر على سطح الجرف المسطّح. ولكن عندما اقتربوا أكثر، أدركت أنّه لم يكن لا هذا ولا ذاك، وأنّه ليس ميزة طبيعية على الإطلاق، بل أنه سلّم هائل، أو بالأحرى سلسلة كاملة من السلالم. كانت عبارة عن درجات خشبية، متهالكة المظهر، اتّصلت ببعضها بحبال، وامتدّت على الجدار الصخري من قاعدته وحتّى قمّته، مثل موكب من حشرات أمّ أربع وأربعين. اتّصلت السلالم ببعضها بشكل متعرّج، من حافة إلى أخرى، ومن شقّ

إلى آخر، ومن نتوء إلى آخر، مستخدمة كلّ المراسي الطبيعية لشقّ طريقها إلى الأعلى، وربط الأرض بالسماء. حدّقت فريا إليها بعجب.

تمتمت وهي تتذكّر النقش الذي وجدته هي وفلين في أبيدوس: "سلّم نوت".

قال زاهر حين وصلوا إلى قاعدة الجرف: "متين جدّاً"، وشدّ بقوّة على الدرجات ليُظهر لها كيف تمّ تثبيت الإطار بمسامير برونزية أُدخلت عميقاً في الصخر. "تستخدمه أسرتي منذ مئات السنين. نُصلحه، ونحافظ عليه. طريق طويل، ولكنّ الصعود آمن. والآن هيّا!".

وقف بعيداً عن السلّم، ولوّح لفريا وهو يشير بإصبعه إلى الأعلى، كي تبدأ الصعود.

"وماذا عنك؟".

"سأنتظر سي برودي. سنصعد معاً، هيّا، هيّا".

حاولت الاعتراض، ولكنّه لم يُتح لها المجال، بل أصرّ قائلاً: "أنا أتسلق بسرعة، كالقردة". هكذا نفّذت طلبه، وبدأت صعودها. تبعها شقيق زاهر، الذي حمل بندقيته على كتفه، وصعدا معاً من درجة إلى أخرى، وابتعدا تدريجيّاً عن أرض الوادي. ارتجف سطح الجرف واهتز مثل بطن حيوان متألّم، ولكنّ الدرجات كانت ثابتة. ومع ازدياد ثقة فريا بمتانتها، راحت تصعد بسرعة أكبر، ليبتعد شكل زاهر في الأسفل، وينكشف المزيد من الوادي أمام عينيها. مزيد من الفوضى والدمار.

كانت قد ارتفعت حوالى عشرين متراً، وجتازت أربعة سلالم. وكانت على وشك أن تبدأ بالسلّم الخامس، عندما تمايل المنحدر بعنف. لمحت من زاوية عينيها حركة في الأعلى. كانت سنوات خبرتها في التسلق قد شحذت ردود فعلها، فضغطت نفسها تلقائياً بشكل مسطّح على السلّم، وحشرت رأسها بين درجتين لحمايته قدر الإمكان. فجأة، انهمر وابل من الحجارة الصغيرة والحصى على كتفيها، تبعته ثلاث أو أربع قطع أكبر من الحجارة التي نجحت منها بمسافة سنتمترات. ظلّت بلا حراك متشبّثة بالسلّم، لرؤية ما إذا كان انهيار الحجارة سيتواصل. باستثناء بضع زخّات أخرى من الحصى، بدا أنّ هذا هو كلّ شيء. ابتعدت بحذر إلى الخلف، ونظرت أوّلاً إلى الأعلى ومن ثمّ إلى الأسفل.

صاحت لسعيد الذي كان يقف تحتها ببضعة أمتار: "هل أنت بخير؟".

رفع يده ليريها أنّه لم يتعرّض للأذى. بدأت تحوّل نظرها بعيداً لاستئناف الصعود، ثمّ التفتت مجدّداً إلى الأسفل، وانحنت بعيداً عن الجرف، وقد تركّز نظرها على شيء على الأرض.

"آه كلاّ! أرجوك يا الله كلاّ!".

لا بدّ أنّ سعيد رأى ما رأته لأنّه بدأ بهبوط السلّم، وهو يلوّح لها لمتابعة الصعود. تجاهلته، ولحقت به إلى الأسفل بأسرع ما يمكن. لم تعد تأبه بهدير الجروف، ولا باهتزاز سطح الصخر، ولا بانهيار الواحة، بل ضاق عالمها بأكمله لينحصر في البقعة الصغيرة على الأرض تحتها، حيث تمدّد زاهر تحت لوح من الصخر بحجم غطاء محرك سيارة.

عندما أصبحت على ارتفاع بضعة أمتار من الوادي، قفزت، وحطّت على الرمال، ثمّ هرعت باتجاه سعيد الذي كان راكعاً قرب شقيقه. كان محتجزاً تحت الصخر من الصدر إلى الأسفل، وحياً، ولكنّه في وضع حرج. أمسكت أصابعه بضعف بسطح الصخرة، بينما سال خط من الدماء من زاوية فمه.

صاحت فريا وهي تضع يديها تحت اللوح الصخري وتجاهد لرفعه: "علينا إخراجه من تحته".

ركع سعيد بجانب شقيقه، وأخذ يفرك جبينه، إلاّ أنّ وجهه ظلّ متماسكاً وخالياً من التعابير. وحدهما عيناه سجّلتا انفعاله، وبدت فيهما لمحة من العذاب الذي يشعر به لرؤية شقيقه مسحوقاً ومحتجزاً على هذا النحو.

قالت فريا بصوت معذّب: "ساعدني يا سعيد. أرجوك، علينا رفع الصخرة عنه. علينا إخراجه".

كان ذلك بلا جدوى، وكانت تعرف، لا بل عرفت منذ اللحظة التي رأت فيها ما حدث. فقد كانت الصخرة ثقيلة جداً، وحتّى إن تمكنا من تحريكها، فمن من وسيلة لحمل زاهر عبر منحدر عمودي يبلغ ارتفاعه 200 متر وإخراجه من الواحة، ليس مع الإصابات التي تعرّض لها. بالرغم من ذلك، واصلت رفع الصخرة، وترقرقت عيناها بالدموع، إلى أن زحفت يد زاهر على سطح الصخرة ليمسك بيدها ويُبعدها. هزّ رأسه بخفّة وكأنّه يقول: *لا جدوى من ذلك. لا تهدري طاقتك سدًى.*

قالت وقد خنقتها العبرات: "يا الله! زاهر".

ضغط على يدها بضعف، ثمّ نظر إلى الأعلى نحو شقيقه، وتحدّث إليه بالعربية بصوت يكاد لا يُسمَع، بينما ظهرت فقاعات الدم من أنفه. مع أنّها لم تفهم ما يقوله، إلاّ أنّها سمعت كلمة "محسن"، وهذا اسم ابنه، وكرّرها عدّة مرّات، فعرفت أنّه يقوم بالتوصيات الأخيرة، ويكلّف سعيد بالعناية بأسرته.

كرّرت عاجزة وهي تمسك يده بيديها، وتضغط عليها بحنان: "يا الله يا زاهر!". كانت الدموع تسيل على وجهها؛ دموع العجز، والحزن، والذنب إزاء كلّ الشكوك التي ساورتها حوله، وكلّ أفكارها السيئة تجاهه، بينما كان طيلة الوقت رجلاً طيباً وصادقاً. كان رجلاً بذل حياته لإنقاذ حياتها. لقد أخطأت في حقه، تماماً كما أخطأت في حق أختها. وتماماً كما فشلت في مساعدة ألكس في محنتها، قد بدا حينها أنّها تفشل في مساعدة زاهر هو الآخر، إذ لم يكن بيدها حيلة سوى التربيت على يده والبكاء. شعرت بأنّها تكره نفسها لسبب الأذى الذي تسبّبه دائماً لمن يبذلون جهدهم لمساعدتها.

فكّرت في سرها قائلة: *لماذا أخطئ دائماً على هذا النحو؟ ولماذا يدفع الأشخاص الطيبون ممن أخطائي في النهاية؟*

بدا أنّ زاهر فهم ما يدور في خلدها لأنّه رفع رأسه قليلاً وقال بصوت متحشرج وخافت: "لا بأس يا آنسة فريا، أنت صديقتي. أنت صديقتي الطيبة".

بكت قائلة: "أنا آسفة يا زاهر. سنخرجك من هنا. أعدك بأنّنا سنخرجك من هنا".

بدأت ترفع الصخرة مجدّداً، ليس لأنّها اعتقدت أنّه ثمّة إمكانية لتحريكه، بل لأنّها لم تُطق الجلوس مكتوفة اليدين، ورؤيته وهو يموت ببطء أمام عينيها. إلاّ أنّ زاهر هزّ رأسه مجدّداً ودفع يدها جانباً، وهو يتمتم بشيء ما. كان صوته ضعيفاً جدّاً، والضوضاء عالية حولها حتّى إنّها لم تفهم ما قاله. ركعت، وقرّبت أذنها من فمه الدامي.

"سعيدة".

"ماذا؟".

اشتدّت يده حول يدها.

كرّر: "سعيدة"، وبدا شيء من الإلحاح في صوته، وكأنّه يحشد ما بقي لديه من طاقة لإسماعها وجعلها تفهم. "سعيدة جدّاً".

"من يا زاهر؟ من هي السعيدة؟".

أجاب بصعوبة: "الدكتورة ألكس. الدكتورة ألكس سعيدة جدّاً".

فكّرت في سرّها قائلةً: *إنّه يهذي، ينجرف إلى عالم وهمي بين الحياة والموت.* شدّ زاهر قبضته أكثر وكأنّه يريها أنّ هذا ليس صحيحاً، وأنّه يعرف تماماً ما يقوله. حولهم، بدا وكأنّ الواحة تسكن تدريجيّاً وتصمت، مع أنّها لم تكن متأكدة ما إذا كان هذا يحدث بالفعل، أم أنّ حواسها كانت مركّزة جدّاً على الرجل المستلقي بجانبها حيث إنّها طردت كلّ شيء آخر بعيداً عن هامش وعيها.

توسّلت إليه قائلة: "لا أفهم، ماذا تعني بقولك إنّ ألكس سعيدة؟".

قال وهو يئنّ ألماً وينظر إلى عينيها، محاولاً أن يشرح لها: "في الداخلة، سألتني إن كانت الدكتورة ألكس سعيدة. عندما أتيتِ في المرّة الأولى، سألتني ما إذا كانت سعيدة؟".

عصف ذهن فريا عائداً عبر كلّ الأحداث الأخيرة إلى ذلك الصباح الأوّل في الداخلة، قبل أن يبدأ كلّ هذا. كان زاهر قد اصطحبها إلى منزله لتناول الشاي. ودخلت إلى الغرفة غير المقصودة، ورأت صورة ألكس معلّقة على الجدار، وفاجأها هناك.

سألته: "هل كانت سعيدة؟ في النهاية، هل كانت شقيقتي سعيدة".

همس زاهر، وهو يجاهد للفظ كلماته: "كانت سعيدة جدّاً. أحضرناها إلى هنا، إلى الواحة، عندما كانت مريضة. استعملنا حبلاً، وأنزلناها، ورأيتها بأمّ عينها". بالرغم من آلام احتضاره، ابتسم وأضاف: "كانت سعيدة جدّاً، أسعد إنسانة على الأرض".

الآن، بدأ ذهن فريا يعصف مجدّداً، وراح شيء ما يضغط عليه، ذكرى مبهمة، ربط للأحداث يفرض نفسه. دارت أفكارها وتعثّرت قبل أن يتردّد صوت ألكس فجأة في رأسها، واضحاً وقوياً كما لو أنّها كانت تقف بجانبها. الكلمات التي كتبتها إلى فريا في رسالتها الأخيرة، تلك التي أرسلتها قبل وفاتها تماماً:

هل تذكرين تلك القصة التي كان يقصها علينا والدنا؟ أن القمر في الواقع باب، وإن صعدت إلى هناك وفتحته، فستعبرين من السماء إلى عالم آخر؟ هل تذكرين كيف كنا نحلم بـذلك العـالم الســري، مكان جميل مليء بالأزهار والشلالات والعصافير التـي يمكنهـا الكلام؟ لا أستطيع شرح ذلك يا فريا، ليس بوضوح، ولكنني نظرت مؤخراً من ذلك الباب ورأيتُ لمحة للجانب الآخـر، وهـو جميـل تماماً كما تخيلناه. في مكان ما، يا أختي الصغرى، ثمة باب دائماً، وخلفه ضوء، مهما بدت الحياة مظلمة.

أدركت فريا أنّ هذا هو ما كانت تتحدّث عنه ألكس طيلة الوقت. ليس مجرّد ذكريات مبهمة لتخيّلاتهما من أيام الطفولة، بل عن شيء حقيقي، شيء ملمـوس؛ زيارتها إلى الواحة مع زاهر. رحلتها العظيمة الأخيرة. ومع أنّ ألم مقتل شقيقتها لا يزال كبيراً، إلاّ أنها أصبحت ترى بجانبه شيئاً آخر، بصيص نور. فقـد أدركـت حجم الفرحة التي شعرت بها ألكس لرؤية هذا المكان، وكم جعلها سعيدة وراضية في أيامها الأخيرة. فكما قالت لها بنفسها: *عندما ترين هذا العالم السرّي، لا يمكنك إلاّ أن تشعري بالأمان.*

قالت وهي تنتحب: "شكراً لك يا زاهر". أمسكت بيده بقوّة، ومرّرت يدها على جبينه، وبالكاد لاحظت هدير الصخور وهي تستأنف حراكها مجدّداً حولهم. "شكراً لك على مساعدتها، شكراً على كلّ شيء".

صمتت قليلاً ثمّ أضافت: "أنت بدوي عظيم، تماماً مثل جدك محمـد ولـد يوسف إبراهيم صبري الرشايدة".

لا تعرف إطلاقاً كيف تذكّرت الاسم، ولكنّ ابتسامته اتسعت، وبدت مرئية خلف قناع الدماء الذي أصبح يغطّي الجزء السفلي من وجهه. شدّ علـى يـدها مجدّداً، مستنفداً قواه، وبدأت عيناه تنطفئان. بمجهود أخير، حرّر يده وبدأ يشـدّ جلبابه ببطء من تحت الصخر، إلى أنّ عثر على جيبه. بحث فيه وأخـرج شـيئاً، وضغطه في راحة فريا. كانت بوصلة معدنية خضراء، مشقّقة ومستخدمة بكثـرة، مع غطاء قابل للفتح وسلك نحاسي في أعلاها. عرفت على الفور أنّهـا كانـت لشقيقتها، أخذتها معها في نـزهاتها حول مقاطعة ماركهام، وكانت تنتمي قـديماً إلى أحد البحّارة الذين خاضوا معركة أبوا جيما.

همس زاهر: "أعطتني إيّاها الدكتورة ألكس قبل موتها، وهي الآن لك".

حدّقت إليها غافلة عن الواحة التي تستشيط غضباً حولهم. فتحت غطاء البوصلة، ورأت حرفين منقوشَين داخل الغطاء: أيه. إيتش: ألكسندرا هانين. ابتسمت ونظرت إلى زاهر، وبدأت تشكره مجدّداً، ولكن في الثواني القليلة التي حوّلت انتباهها عنه، سقط رأسه جانباً وتوقّف عن التنفّس.

قال سعيد ببساطة: "لقد رحل". ثمّ مدّ يده ومرّرها فوق وجه أخيه، مغمضاً عينيه.

راحت فريا تشهق باكية: "آه يا زاهر!".

بقيا راكعَين هناك للحظة، والأرض تهتز تحتهما، مع اقتراب جدران الوادي منهما تدريجيّاً، بينما انطلقت أحزمة برق قرمزية من سطح منصة المعبد. وقف سعيد، وأشار إليها لاستئناف الصعود.

قالت فريا: "ولكنّنا لا نستطيع تركه ببساطة، ليس هكذا".

"إنّه بأمان، وهو سعيد. فهذا مكان جيّد للبدوي".

مع ذلك، ظلّت واقفة في مكانها، ممّا اضطرّ سعيد إلى شدّها من ذراعها لإجبارها على الوقوف.

"أتى أخي إلى هنا لمساعدتك، لم يشأ أن تموتي، أرجوك، هيّا اصعدي. إكراماً له".

لم تستطع فريا مجادلته بذلك، وبعدما حدّقت إلى جثّة زاهر لبضع ثوانٍ أخرى، استدارت وأسرعت إلى أسفل الجرف. كان سعيد قد بدأ يتسلق السلم السفلي ويشقّ طريقه أمامها.

صاح قائلاً: "سأسبقك للتأكد من أنّه غير محطّم".

صاحت: "وماذا عن فلين؟".

مال وأشار إلى الأرض المكشوفة أمام الجرف. كان الإنكليزي يركض نحوهما، ملوّحاً بذراعيه بجنون، لحثّهما على البدء بالصعود.

صرخ سعيد: "اتبعيني، اتفقنا؟".

أجابت: "اتفقنا".

أومأ المصري، ثمّ التفت وبدأ يصعد السلالم، بخفّة ومرونة، بالكاد تلامس قدماه ويداه الدرجات في أثناء طيرانه إلى الأعلى. ظلّت فريا في مكانها بضع

لحظات أخرى، غير راغبة في ترك فلين خلفها طويلاً. ألقت نظرة أخيرة على جثة زاهر، ثمّ تمتمت: "ألّيه"، وأمسكت بالسلّم وبدأت بالصعود.

طوال الطريق من منصة المعبد كان فلين يصيح على الشخصين اللذين رآهما راكعَين في الأسفل، يحثّهما على التحرّك، من دون أن يفهم سبب تلكّوهما هناك. ولكن عندما اقترب من أسفل الجرف، ورأى جثّة زاهر المحتجزة تحت الصخر، فهم السبب. أبطأ من سرعته، ونظر إليه وهو يهز رأسه، وقد اجتاحته الأحاسيس نفسها التي شعرت بها فريا؛ الحزن، والعجز، والذنب، من الطريقة التي تحدّث بها إلى زاهر في منزله في الداخلة. لم يكن الوقت يسنح لكثير من التأمل أو للقيام بواجبه كما كان يودّ. فركع على ركبة واحدة، ووضع يده على جبين زاهر، وتمتم بترنيمة وداع بدوية تقليدية. ثمّ وقف مجدّداً، وأسرع نحو الجرف، وبدأ الصعود. كانت المسافة الفاصلة الآن بين جدران الوادي تقلّ عن 150 متراً، والهواء يمتلئ بسحب الغبار والحصى، والواحة تزداد ظلاماً باطّراد.

كانت المسافة التي تفصله أساساً عن الاثنين الآخرَين لا بأس بها، فحثّ خطاه قدر استطاعته، محاولاً تغطية المسافة الفاصلة، بينما راحت الأرض تنهار تحته، والسلالم تئنّ وتُطقطق تحت ثقله. بين الحين والآخر، كانت فريا تتوقّف لتميل وتنظر إلى الأسفل. فيلوّح لها ويتابع الصعود، محاولاً تجاهل الجروف المقتربة واهتزاز سطح الصخر، وألم رئتيه وذراعيه وساقيه، لتركيز كلّ طاقاته على متابعة الطريق.

خلال الأمتار الثلاثين الأولى تقريباً، امتدّت السلالم في خطّ عمودي تامّ، سلّم تلو آخر، حيث أحرز تقدّماً سريعاً. ولكن عند أعلى السلّم الثامن، انقطع خطّ السلالم فجأة. وكان ثمّة حبل أفقي ممتدّ إلى يساره، يقوده على طول حافّة ضيّقة، لا يزيد عرضها عن عرض علبة سجائر، إلى قاعدة سلّم آخر. تسلّقه لمسافة خمسة عشر متراً أخرى قبل أن يتوقّف مجدّداً، وينتقل عبر حبل آخر، وحافّة أضيق، إلى اليمين هذه المرّة، إلى سلّم قصير آخر. هكذا تابعوا الصعود، وأصبح طريق السلالم متعرّجاً يميناً ويساراً عبر واجهة الجرف. فكانت الدرجات تمتدّ على طول

ثلاثة أو أربعة سلالم متواصلة، قبل أن تنقطع لتبدأ مجدّداً من مكان آخر، فيجتاز بينها مسافة مثيرة للذعر، على طول حواف وشقوق، بمساعدة الحبال.

لم يفهم فلين لماذا وزّع المصريون القدماء السلالم على هذا النحو عوضاً من مدّها في خطّ عمودي متواصل. خمّن أنّه كان عليهم على الأرجح تجنّب مساحات من الصخر غير المتين، لا يمكن لمسامير البرونز أن تُثبَّت فيه. أيّاً يكن السبب، وهو لم يفكّر فيه سوى بشكل عابر، تباطأ صعوده على نحو كبير لاضطراره إلى عبور سلسلة من التحويلات يميناً ويساراً، والانتقال على نحو مثير للأعصاب من سلسلة سلالم إلى أخرى.

بدا أنّ انهيار الواحة خلفه يتسارع؛ فمنصة المعبد لم تعد سوى وتد صخري متداعٍ يكتنفه الغبار، وتحول البناء الخلاّب إلى كومة من الأنقاض، فيما استمرّ بنبن بإطلاق أعمدة برق قرمزية شبيهة باللايزر من وسطه. كان المشهد مروّعاً. بالكاد لاحظ ذلك، إذ كان كلّ تركيزه منصبّاً على اجتياز الجرف، وراحت يداه وقدماه تنزلق وهو يندفع بسرعة أكبر، مغامراً أكثر في غمرة يأسه للفرار من الجدران التي تُضيّق الخناق عليه من الجانبين.

في إحدى المرات، انزلق وهو يعبر حبلاً بين السلالم، فتدلّى للحظة فوق مئة متر من الفراغ المسبّب للدوار قبل أن يتمكّن من استعادة توازنه والوصول إلى السلّم التالي. وفي مناسبة أخرى، تحطّمت إحدى الدرجات القديمة، وجرح الخشب ساقه، فصاح متألّماً بينما سالت الدماء على ساقه وفي حذائه.

أوشك على فقدان الأمل، مقتنعاً أنّه لا سبيل له إلى النجاة، وأنّ فكّي الوادي سيُطبقان عليه قبل أن يتمكّن من بلوغ القمّة والوصول إلى برّ الأمان. إلاّ أنّه تابع التقدّم، رافضاً الهزيمة، متعالياً على الألم والإرهاق وشعوره الخانق بالدوار، وشحذ كلّ ما بقي لديه من طاقة لدفع نفسه قُدماً. انهارت أرض الوادي تحته أكثر، وضاعت تماماً في ضباب من الركام، بينما اقتربت قمة الجرف فوقه، وأخيراً، حلّ الأمل محلّ اليأس، وهو يجتاز سلّماً قصيراً آخر ليجد فوقه درجات تمتدّ مباشرة عبر خمسة سلالم لتنقله مباشرة إلى السطح.

كانت فريا وسعيد لا يزالان على الجزء العلوي من السلالم، غير راغبَين في تركه خلفهما بعيداً. أصبحا الآن تحت القمّة مباشرة، يصيحان ويلوّحان له

لتشجيعه على الاستمرار. صاح بهما طالباً منهما المتابعة، وبعدما توقّف للحظة وجيزة لالتقاط أنفاسه، بدأ صعوده الأخير. أصبحت جدران الوادي قريبة على نحو خانق. اجتاز السلّم الأوّل من السلالم الخمسة، بينما كانت عضلات جسده تصرخ ألماً. قطع السلّم الثاني، ومن ثمّ الثالث. عندما أصبح في منتصف السلّم الرابع، أيّ على بُعد خمسة أمتار فقط من القمّة، اجتاحته موجة من الحماسة وهو يُدرك أنّه أوشك على العودة إلى بيته. أصبحت صيحات تشجيع فريا مسموعة بوضوح من الأعلى، ولكن في تلك اللحظة ارتجفت واجهة الجرف بقوّة. عقد فلين ذراعيه حول السلّم، بانتظار مرورها ليتمكّن من معاودة الصعود. في أثناء ذلك، شعر أنّ السلّم يتمايل تحته، مع بدء انحلال أحد المسامير الذي يُثبّت الطرف العلوي للسلّم بواجهة الصخر، ليتبعه مسمار آخر. توقّف، إلى أن استقرّت الدرجات، ثمّ تابع صعوده عبر بضع درجات أخرى، قبل أن يتمايل السلّم مجدّداً. أصبح بإمكانه أن يرى الآن المسامير البرونزية وهي تنزلق خارج الصخر، والسلّم العلوي يتحرّك معها، مبتعداً ببطء عن الجدار. اندفع، ولكن من دون أمل. تمسّك يائساً بالدرجة السفلية للسلّم التالي، ولكنّ المسامير انحلّت تماماً ولم يعد ثمّة ما يُثبّت الدرجات في مكانها. للحظة وجيزة وسريالية، بدا وكأنّ كلّ شيء يتوقّف في مكانه، وتولّد لديه انطباع غريب أنّه في أحد تلك الأفلام الصامتة القديمة التي يقوم فيها هارولد لويد أو باستر كيتون بتحدّي الجاذبية بحركات مثيرة فوق الأرض. أخيراً، تمايل السلّم على نحو مثير للغثيان، ثمّ تقوّس إلى الخلف، وانتُزع عن الجدار، وراح فلين يسقط عاجزاً في الفضاء، وهو ممسك بالدرجة الخشبية، بينما دوت صرخة هستيرية من فوقه.

كان على فريا أن تُدرك أنّه في اللحظة التي تبدو فيها الأمور أنّها تسير على ما يرام، يحدث دائماً شيء ما لضمان العكس.

ما إن أصبحت هي وسعيد في القمّة، وزحفا حتّى وصلا إلى أعلى الجرف، التفتت ونظرت إلى الأسفل لتتحقّق من تقدّم فلين. كان عرض الوادي الآن لا يتجاوز عرض معصمي تمس. ولم تعد أرضه مرئية، لم يعد أيّ شيء مرئيًا باستثناء صخرة بنبن العنبرية المضيئة وهي تواصل إطلاق أشعة حمراء ضارية عبر سحب

الغبار في السماء فوقها. في ظروف أخرى، كان المشهد ليذهلها، بسبب استحالته التامّة. ولكنّ عينيها كانتا مثبّتين على فلين، تراقبه وهو يصعد السلالم الأخيرة، وثقتها تزداد مع كلّ درجة يجتازها.

راحت تصرخ وأملها بنجاته يتضاعف: "استمرّ بالصعود! ستنجح! أوشكتَ على الوصول! استمرّ بالصعود!".

حتّى وهي تصرخ، شعرت بالأرض تهتز فجأة تحت قدميها بعنف، بينما بدأ السلّم الذي يتسلّقه فلين بالانفصال عن الجرف؛ يا الله! أصبح قريباً جدّاً، بضعة أمتار فقط تفصله على القمّة! للحظات وجيزة ومريعة، بدا وكأنّه لا يزال قادراً على الصعود إلى الأمام. لكنّ المسامير التي تُثبّت أعلى السلّم في مكانه انفصلت عن الجدار مطيحة بالسلّم بأكمله في الهاوية، ومعه فلين.

صرخت وهي تدفن وجهها بين يديها: "كلاّ! يا الله! كلاّ".

كانت مذهولة، ومحطّمة، وعاجزة عن التصديق أنّه بعد كلّ ما عانياه خلال الأيّام الأخيرة، وكلّ المخاطر التي تغلّبا عليها، ينتهي الأمر على هذا النحو، قبل أن يتمكّن من اجتياز الدرجات الأخيرة. كانت مصدومة ومنهارة إلى حدّ أنّها عندما سمعت بعد لحظات قليلة شخصاً يصيح من بعيد: "فريا!"، ظنّت أنّها من نسج خيالها. ولكن عندما تردّدت الصرخة، بإلحاح أكبر هذه المرّة، مدويّة عبر حطام الصخور المنهارة، وعندما أمسك سعيد كتفها في اللحظة نفسها، أدركت أنّ عقلها لا يخدعها. أبعدت يديها عن وجهها، ونظرت من فوق حافّة الهاوية.

"فلين! فلين!".

كان يقف تحتها، على مسافة عشرة أمتار تقريباً، متمسّكاً بأحد السلالم، بينما تدلّى السلّم الآخر الذي سقط عن الجرف قربه مثل ذراع مكسورة. فهمت على الفور ما حدث: فبينما سقطت المسامير التي تُثبّت أعلى السلّم، ظلّت تلك التي تُثبّت طرفه السفلي، أو على الأقلّ أحدها، مغروزاً في الصخر، حيث التوى السلّم إلى الخلف على واجهة الجرف.

لم يؤدّ ذلك إلى إسقاط فلين، بل تمكّن من التمسّك بالسلّم السفلي الآمن نسبياً. شعرت فريا بموجة من الفرح والراحة. ولكنّها لم تدم سوى لبضع ثوانٍ، ثمّ

تبخّرت عندما فهمت الصورة أمامها. كان حيّاً، ولكنّه لن يتمكّن بالتأكيد من الصمود طويلاً.

لم يكن السبب ببساطة أنّ جدران الوادي تقترب أكثر بمرور كلّ ثانية، وتضغط حوله مثل يدين عملاقتين تسحقان ذبابة. فالوقت لا يزال كافياً كي يجتاز تلك المسافة ويخرج من الواحة. لكنّ المشكلة هي أنّه لا يملك شيئاً يصعد عليه. فبين قمّة السلّم الذي يتمسّك به فلين وأسفل السلّم الذي سيرفعه إلى قمّة الجرف ثمّة خمسة أمتار من الفراغ. للحظة وجيزة فكّرت في أنّه ربما بإمكانهم إعادة السلّم إلى مكانه لردم الهوّة، ولكنّها رأت المسمار الأخير الذي يثبّته بواجهة الجرف وهو يسقط ومعه بالسلّم.

قالت بصوت منخفض: "تبّاً".

حلّ الصمت، ووقف الثلاثة جامدين، من دون أن يعرفوا ما يقومون به. هزّ فلين رأسه وكأنّه يقول: *لا جدوى، لن أتمكّن من الصعود*. وكانت الآمال تتضاءل مع مرور كلّ ثانية. مع علم فريا أنّ محاولتها غير مجدية، ولكن عليها أن تحاول على الأقلّ مساعدته، عادت إلى السلّم العلوي وبدأت بالهبوط. حاول سعيد إيقافها مصرّاً على أنّه هو من يجب أن يذهب، ولكنّها عرفت أنّ فرصتها بإنقاذ فلين أكبر. فأبعدت يده، وواصلت الهبوط.

حتّى أمهر المتسلّقين يشعر بالخوف، وفريا لم تكن تشكّل استثناءً. في بعض الأحيان، يكون خوفها ضئيلاً، لا يتجاوز تسارع دقّات قلبها أو وخزاً في أحشائها. إلاّ أنّه في مرّات أخرى يكون أكثر حدّة، حيث تشعر وكأنّ كيانك بأكمله يتقلّص ويذبل وأنت تترنّح على حافّة الموت. عرفت فريا هذين الإحساسين المتناقضين ومعظم الأحاسيس المتراوحة بينهما. ولكن لم يسبق لها إطلاقاً أن شعرت بهذا الخوف، والسلّم يرتجّ تحتها، والجروف تقترب منها. إلاّ أنّها استطاعت بشكل ما طرد الخوف إلى أبعد ركن من وعيها ودفع نفسها على مواصلة الهبوط، منتقلة من درجة إلى أخرى حتّى وصلت إلى أسفل السلّم.

راح فلين يصيح وهو يلوّح لها للابتعاد: "لا تكوني سخيفة! ارجعي! هيّا ارجعي!".

لكنّها تجاهلته. وقفزت مرتين لتتأكّد من أنّ السلّم لا يزال ثابتاً، ثمّ تشبّثت بدرجته السفلية بساقيها. وأمسكت بالدرجة الثانية، ومالت إلى الأسفل، حيث

أصبحت معلّقة رأساً على عقب، ومدّت يدها نحوه. قام فلين بحركة معكوسة وهو لا يزال يصرخ في وجهها لتبتعد، فتسلّق حتّى وصل تقريباً إلى أعلى السلّم، ومـدّ يده نحو يدها. بالرغم من ذلك، ظلّت مسافة متر تفصل بين أصـابعهما. حـاولا مجدّداً، وعدّلا وضعيّتيهما، ومدّدا أذرعهما إلى أنّ شعرا وكأنّ أوتارهما سـتنقطع، ولكن بلا جدوى. أخيراً، اضطُرّا إلى الإقرار بالهزيمة. نـزل فلين بضع درجـات، ورفعت فريا نفسها إلى الأعلى مجدّداً. صاح وهو يلتفت إلى اليمين واليسار: "ليس بإمكانك فعل شيء". كانت الجدران الصخرية قد وصلت إلى الحدود الخارجيـة للسلالم، وبدأت الدرجات الخشبية تتحطّم تحت ضغط ملايين الأطنان من الصخر الصلب. "أرجوك يا فريا، لقد انتهى كلّ شيء. اذهبـي. أنقذي نفسك. هيّـا! اذهبـي أرجوك!".

تجاهلته مجدّداً، ومالت إلى الأسفل محاولة تفحّص واجهة الصخر تحتها لرؤيـة ما إذا كان ثمّة طريقة للاقتراب منه أكثر وتغطية مسافة المتر المتبقية.

عثرت على موطئ قدم واضح تحتها تماماً، فجوة مسنّنة في الصخر في المكـان الذي انتُزع منه مسمار السلّم المفقود. إن تمكّنت من الوصول إليهـا والإمسـاك بالدرجة السفلية من السلّم، فستقترب منه أكثر.

مع ذلك لم يكن ذلك كافياً. تفحّصت بجنون واجهة الصخر خلفها وأمامها، بحثاً عن شيء، أيّ شيء قد يساعد. كان ثمّة شقّ أفقي يمتدّ عبر واجهـة الصـخر فوق سلّم فلين بمسافة مترين، وكان يصلح تقريباً للتمسّك به بأمان. ولكن حتّى لو تمكّن من الوصول إليه، تبقى مسافة عشرين سنتمتراً على الأقلّ بين الشقّ وأبعـد نقطة تستطيع مدّ يدها إليها. صاحت محبطة، وكأنّ كيلومتراً يفصل بينهما. ما من طريقة لإنقاذه.

صرخت: "أنا آسفة، آسفة جدّاً. لا أستطيع...".

صمتت عندما لاحظت شيئاً. فوق فلين وإلى يساره، كان ثمّة رقاقة بدت مثل حجر صوّان، برزت على بُعد بضعة سنتمترات من الجرف، وكانت بلون الصخر المحيط بها تماماً، لهذا السبب لم ترها من قبل. ربّما، ربّما...

صاحت محاولة رفع صوتها فوق هدير الصخر المنهار: "اسمع، افعل ما أقولـه بالتحديد. من دون أسئلة، ولا جدال، نفّذ وحسب!".

"حبّاً بالله يا فريا!".

"من دون جدال!".

"أنت تضيعين...".

"نفّذ وحسب!".

لوّح بذراعه غاضباً، ثمّ أومأ موافقاً.

صاحت قائلة: "عليك أنّ ترفع نفسك حتّى ذلك الشقّ"، وخفضت قدمها وأدخلتها في الفجوة التي خلّفها المسمار، ثمّ أمسكت بالدرجة السفلية من السلّم ومالت نحوه. "هل فهمت؟ أدخل أصابعك في ذلك الشقّ".

"مستحيل...".

"هيّا!".

حدّق إليها وهو يتمتم، ثمّ بدأ الصعود. وصل إلى الدرجة الرابعة من أعلى السلّم، ومن ثمّ الثالثة، والثانية، ومدّ ذراعيه ضاغطاً جسده على الصخر، محتضناً إيّاه، لينزلق فوق واجهته إنشاً تلو الآخر.

صاح: "سأسقط!".

"ستسقط على كل حال بعد دقيقة. تابع المحاولة!".

ظلّ في مكانه، وضغط خده بقوّة على الصخر، مغمضاً عينيه وبدا عاجزاً عن التحرّك. ثمّ بذل مجهوداً خارقاً، وأجبر نفسه على صعود الدرجة الأخيرة من السلّم وهو يمدّد ذراعيه باتّجاه الشقّ، ويضغط، ويهتزّ. لجزء من الثانية، بدا وكأنّه لن يتمكّن من الوصول، وأنّه سيفقد توازنه ويسقط. ثمّ عثر على الشقّ وتمكّن من إدخال أصابعه فيه، ثمّ تعلّق به متشبّثاً بالحياة، بينما تأرجحت قدماه بلا توازن فوق السلّم وكأنّه يقف على حبل.

صاحت فريا سروراً، بالرغم من إرهاقها، وذعرها، والغبار الذي يغطّيها.

قالت: "والآن، حان وقت الجزء الأصعب".

"لا بدّ من أنك تمزحين".

أخبرته ما عليه فعله، وهي تنظر باستمرار إلى اليمين واليسار مع اقتراب جدران الوادي، إذ لم يعد يفصل بينهما أكثر من عشرة أمتار. كان عليه أن يرفع قدمه إلى حافة نتوء ناتئة، كما شرحت له، واستعمالها لدفع نفسه إلى

الأعلى باتجاه يدها الممدودة. كانت المناورة التي استخدمتها في معبد أبيدوس جنونية، إلاّ أنّ هذه تفوقها جنوناً. حتّى إنّه ليس متسلّقاً محترفاً. ولكن ما من خيار آخر، إمّا هذا أو أن تُسقطه الجروف الصخرية، وهذا ما سيحدث بالتأكيد خلال دقائق. تأكّدت أنّه يعرف ما عليه فعله، ثمّ عدّلت وضعيتها، ومدّت ذراعها جاهزة لالتقاط يده، ومدّدتها بقدر ما استطاعت.

صاحت قائلة: "فلين، أمامك فرصة واحدة، لذا، تأكّد من استغلالها".

"حسناً، لم أكن أخطّط لإضاعتها".

ابتسمت رغماً عنها وقالت: "خذ وقتك، ولكن لا تتأخّر كثيراً".

نظر إليها، ومن ثمّ إلى الأسفل للتأكّد من موقع الحافّة، ثمّ تمتم بصلاة مع أنّه لم يزر باب دار عبادة سوى نادراً خلال العقدين الماضيَين، ورفع قدمه إلى النتوء. أخذ نفساً عميقاً، ثمّ دفع نفسه إلى الأعلى، مطلقاً صرخة عالية وهو يُفلت الشقّ ويرفع يده نحو يد فريا. أمسكت بها، وأحاطت يده بيدها، ثمّ رفع يده الأخرى وأمسك برسغها. ليتأرجح جسده إلى الأمام والخلف مثل رقّاص ساعة، وترتطم قدماه بواجهة الجرف. كان ثقيلاً، أثقل بكثير ممّا تذكر في أبيدوس، وأحسّت بأنّ قبضتها على درجة السلّم بدأت تنزلق، وكتفها تُطقطق كما لو أنّ ذراعها ستُقتلع من مكانها. لكنّها تمكّنت بشكل من الأشكال من التشبّث في أثناء تأرجح قدميه. وبعد ثوانٍ بدت وكأنّها ساعات تمكّن من إقحام إصبع قدمه، ومن ثمّ إصبع القدم الأخرى في الشقّ الصخري. استقام، وثبّت نفسه، فخفّ معظم الثقل عن ذراعها.

صاحت: "اصعد عليّ! استخدم قدميك لتصل إلى السلّم. هيّا، لا وقت لدينا!".

بدأ ينفّذ ما طلبته، ثمّ توقّف، يترنح على واجهة الصخر، يد تمسك بيدها، والأخرى تحيط بذراعها، وأصبعا قدميه محشورتان في الشقّ، بينما أصبح الوادي بعرض ستة أو سبعة أمتار فقط. تصاعد الغبار من الأسفل، وغلّفهما.

صاحت وهي تسعل: "لا وقت لدينا! هيّا يا فلين، اصعد عليّ. لقد قمت بالجزء الأصعب".

بدا وكأنّ كلّ طاقته التي احتدمت قبل لحظات قد تلاشت. بقي متدلياً هناك يحدّق إليها، وعيناه معلّقتان بعينيها، بينما ظهر تعبير غامض على وجهه: مزيج من القلق والتصميم.

صاحت: "هيّا! ما خطبك؟ علينا الخروج! لا وقت...".

صاح: "كنتُ أنا".

"ماذا؟".

"كنتُ أنا يا فريا. أنا من قتل ألكس".

جمدت في مكانها، وتقلّصت قصبتها الهوائية وكأنّها تختنق.

"أنا من حقنها. لا علاقة لمولي وجرجس بذلك. كنتُ أنا يا فريا. أنا من قتلها".

راحت تفتح فمها وتغلقه، عاجزة عن الكلام.

صاح متابعاً: "لم أشأ ذلك. أرجوك صدّقيني، كان هذا آخر شيء أردته. ولكنّها رجتني، توسّلت إليّ. فقد خسرت ساقيها، وذراعيها، وبدأ نظرها يخونها، وكذلك سمعها. كانت تعرف أنّ الأمر سيزداد سوءاً، وأرادت أن تملك بعض السيطرة على الأقلّ. لم أستطع أن أرفض. أرجوك حاولي أنّ تفهميني. لقد فطر ذلك قلبي، ولكنّني لم أستطع الرفض".

أربعة أمتار أصبحت تفصل الآن بين جدران الوادي التي ألقت ظلالاً شاهقة أخذت تلوح عبر سحب الغبار. لم يلاحظ أيّ منهما ذلك. ظلّت فريا متشبّثة بالسلّم وهي تمسك بيده، بينما توازن فلين على الشقّ متشبّثاً بذراعها، وقد غفل كلاهما عمّا يدور حولهما، محتجزَين في بُعد خاص هما.

قال بصوت أجش يكاد لا يُسمع: "قالت إنّها تحبّك. تلك كانت كلماتها الأخيرة. جلسنا على شرفتها، وشاهدنا غروب الشمس. حقنتها بالمورفين، وأمسكتُ يدها. وفي أثناء رحيلها، لفظت اسمك، وقالت إنّها تحبّك. لم أستطع عدم إخبارك يا فريا. هل تفهمين؟ لم أستطع عدم إخبارك. فقد أحبّتكِ كثيراً".

ظلّ ينظر إلى عينيها، ولمعت عيناه. تلاحقت الأفكار في رأس فريا، وتجاذبتها العواطف. بدا وكأنّ كلّ شيء يدور، وكأنّ عالمها الداخلي يعكس حالة الفوضى المحيطة بها. ولكن في صميمها، وبالرغم من الصدمة والألم والحزن، أحسّت بنواة صلبة من اليقين: كانت لتفعل الشيء نفسه لو أنّ ألكس طلبت منها. عرفت أيضاً، من نظرة عيني فين، ونبرة صوته، وكلّ ما رأته وعرفته عنه خلال الأيّام القليلة الماضية، أنّه فعل ما فعله من باب اللطف، والتعاطف، وحبّه لأختها، ولم تستطع

لومه ولا إدانته على ذلك. لا بل على العكس، شعرت على نحو غريب بأنّها مدينة له، لأنّه أخذ هذا العبء على عاتقه. لقد كان مع ألكس في محنتها؛ أمّا هي، شقيقتها، فلم تكن معها.

مرّ كلّ ذلك في ذهن فريا في غضون ثوانٍ، حيث بدا وكأنّ الوقت يتباطأ ويتمدّد للتكيّف مع أفكارها. ثمّ أومأت، وشدّت على يده وكأنّها تقول: "أنا أفهم. والآن، لنخرج من هنا"، وبدأت تسحبه عبر الجرف نحوها. للحظة، مرّ وجهه من أمام وجهها تماماً وتلاقت نظراتهما، فابتسم كلّ منهما ابتسامة تفاهم خاطفة، بالكاد كانت مرئية عبر ستارة الغبار الخانقة. ثمّ راح يصعد عليها حتّى وصل إلى أسفل السلّم، وأصبح جانبا الوادي يلامسانهما فعلاً.

صاحت: "هيّا! تابع طريقك!".

"أنت أوّلاً!".

"لا تكن إنكليزياً إلى هذا الحدّ! هيّا! أنا خلفك تماماً".

رفعت يدها الحرّة وصفعته على قفاه لحثّه على التقدّم. ما إن ارتفع، حتّى بدأت بتسلّق السلّم، وتبعته إلى الأعلى، وهي تصعد بأسرع ما أمكن، وتضع يديها على الدرجة التي يرفع فلين قدميه عنها، بينما أخذت الدرجات تهتزّ بعنف إلى حدّ أنّها استغربت كيف ظلّت ثابتة على واجهة الصخر. بدأ الغبار ينقشع قليلاً فلمحت سعيد فوقهما، منحنياً إلى الأسفل وذراعه ممدودة يلوّح لهما. صعدا باتجاهه، وهما يسعلان بفعل سُحُب الغبار الخانقة، والجدران تضيّق الخناق حولهما. حيث لم يعد يفصل بينها سوى متر واحد. تابعا المسير حتّى وصل فلين أخيراً إلى القمّة. فأمسك سعيد بقميصه وسحبه إلى الأعلى. كانت فريا خلفه مباشرة. وحين لامست الجروف كتفيها وجانبَي السلّم، وبدأت الدرجات تتحطّم تحت قدميها. والخشب يتكسّر، شعرت بيدَين ترفعانها من تحت إبطيها إلى سطح الجرف النظيف والخالي، والهواء العذب.

تراجعوا جميعاً إلى الخلف وهم يلهثون، وشاهدوا الجروف وهي تُطبق على السنتمترات الأخيرة المتبقّية من الوادي. ما كان قبل أقلّ من ساعة من الزمن وادياً عريضاً مليئاً بالأشجار، والأبنية، والشلّالات، تحوّل الآن إلى شقّ لا يزيد عرضه عن أربعين سنتمتراً، وما زالت ومضات من الضوء الأحمر تتصاعد من أعماقه.

أصبح عرضه الآن ثلاثين سنتمتراً، ومن ثمّ عشرين، وعشرة، وانخفض معه صوت هدير الصخور تدريجيّاً إلى أن تحوّل إلى صرير خافت.

حتّى مع انغلاق الوادي على نفسه، حدث أمر دراماتيكي أخير. إذ تردّد من أعماق الأرض زئير متفجّر، وكأنّه يتصاعد من رئتين صخريتين، كما ستصفه فريا لاحقاً، وانبعث شعاع ساطع من الضوء القرمزي من الشقّ، أطاحت بهم قوّته إلى الخلف، ورمت بهم على الأرض.

صاح فلين وهو يمسك بكتف فريا، ليقلبها ويضغط وجهها على الرمال: "لا تنظرا إليه، أغمضا أعينكما!".

في المرات السابقة، كانت أحزمة الضوء تظهر وتختفي، تشعّ للحظات وجيزة قبل أن تتلاشى مجدّداً، مثل المذنّبات. إلاّ أنّ الضوء استمرّ هذه المرّة، مثل خنجر ناري عملاق تصاعد وتمدّد، مجبراً جانبي الوادي على الانفصال مجدّداً ليشكّل مسلّة شاهقة من اللهب. بقيَ هناك، يتأرجح قليلاً، والزئير يتعالى. انتاب فريا إحساس غريب بأنّها تحترق ولكن من دون أنّ تشعر بأيّ ألم أو انزعاج. بعد ذلك، وكأنّ الضوء أثبت وجهة نظره، بدأ يتراجع وينسحب إلى داخل الأرض مثل شعلة تنطفئ. تصاعد زئير صخري أخير، ثمّ انغلق الوادي وبقيَ مغلقاً هذه المرّة. وخيّم صمت مطبق.

بقيت فريا ممدّدة هناك للحظة، ثمّ فتحت عينيها. رأت لوناً برتقالياً، وظنّت للحظة أنّ شبكيّتي عينيها تضرّرتا، قبل أن تُدرك أنّها تنظر إلى زهرة، زهرة رقيقة برتقالية نبتت بطريقة ما في تلك الأرض الجرداء.

الزهرة الموجودة في المغلّف هي سحلبية الصحراء. قيل لي إنّها نادرة جدًّا. احتفظي بها، وفكّري فيّ.

ابتسمت، ومدّت يدها لتمسك بيد فلين، وهي تعرف أنّ كلّ شيء سيكون على ما يرام.

لاحقاً، بعد أن نهض الثلاثة، ونفضوا الغبار عن ملابسهم، وملأوا صدورهم بالهواء النظيف، وبحثوا لبرهة عن أيّ أثر للواحة الخفية من دون جدوى، بدأوا يسيرون على سطح الجلف الكبير.

لسبب غير مفهوم، بدا وكأنّ الشمس قد تراجعت إلى الخلف في السماء. فعندما هربوا من الوادي، كانت الشمس تميل إلى الغروب. أمّا الآن، فهي فوقهم مباشرة، متزامنة مع ساعة فلين التي تشير إلى 2:16 ظهراً. لم يمضِ عليهم في الواحة سوى ستّ ساعات، ولكنّها بدت دهراً.

توجّهوا شمالاً، ثمّ انعطفوا في أُخدود ضيّق تملأه الرمال، ينحدر شرقاً، حملهم بلطف إلى سطح الصحراء.

قال سعيد وهو يضرب كفّيه على الجدران الصخرية من الجانبين: "إنّه آمن جدّاً، لن ينغلق تقريباً".

قال فلين: "يسرّني جدّاً سماع ذلك".

انفتح الأخدود عند نهايته على خليج صغير في واجهة الجلف الشرقية، وهناك كان زاهر قد ركن سيارة اللاند كروزر في الظلّ، تحت نتوء صخري شبيه بالمظلة. شربوا الماء، وتحدّثوا عن زاهر، وأخرج سعيد صندوق إسعافات أوّلية لتضميد جروح فلين. تمتم مستنكراً بينما راح الإنكليزي يئنّ ويغمض عينيه ألماً: "لا تكن كالنساء". ثمّ صعدوا في السيارة رباعية الدفع وانطلقوا عبر الصحراء، متّبعين خطّ الجرف جنوباً، باتجاه البرج الصخري والباب الذي فُتح في الرمال.

إلاّ أنّ أيّاً منهما لم يعد له وجود. عثروا بسهولة على الميكرولايت، التي برز لونها الوردي بوضوح في الصحراء المحيطة بها مثل بقعة طلاء على صفحة بيضاء. لكنّ الصخر الأسود المقوّس كان قد انهار وتحطّم، ولم يتبقَّ منه سوى حطام صخر بلا شكلٍ واضحٍ ومتناسق، لا صلة بينه وبين شكله السابق. وحيث كان فم أوزيريس، لم يعد ثمّة شيء، بل مجرّد سطح رملي خالٍ ومستوٍ تماماً. وحتّى الفتحة المستطيلة في واجهة الصخرة اختفت، وبدا أنّ ذلك الجزء من الجرف قد تحطّم وانهار، وتحوّل إلى كومة من الحجارة عند أسفل الجدار. كانت الإشارة الوحيدة على حدوث أمر غير اعتيادي هنا هي المستطيل المعدني الرقيق الذي برز فوق السطح مثل زعنفة سوداء صغيرة. استغرقوا لحظة ليدركوا أنّها طرف إحدى شفرات طائرة مروحية. على مقربة منها، كان ثمّة نظّارة كُسرت إحدى عدستيها.

تمتمت فريا قائلةً: "وكأنّه كان حلماً".

قال فلين وهو يلمس شفته المشقوقة: "يمكنني أن أؤكّد لكِ العكس".

تمتم سعيد: "لا تكن كالنساء".

وصلوا إلى الميكرولايت، وانتظر سعيد في سيارته، بينما صعد فلين إلى القمرة وتحقّق من المحرّك. بدا أنّه بحال جيّدة، فتركه شغّالاً، وترجّل عائداً إلى اللاند كروزر، ووقفت فريا بجانبه.

سأله فلين وهو ينحني فوق نافذة السائق المفتوحة: "هل أنت متأكّد من أنّك ستكون على ما يرام يا سعيد؟ طريق العودة إلى الداخلة طويل".

"أنا بدوي، وهذه صحراء. بالطبع سأكون على ما يرام، يا له من سؤال سخيف".

بالكاد كانت ملحوظة، لأنّها لم تتجاوز التواءً طفيفاً في الشفتين، ولكنّه ابتسم بكلّ تأكيد. مدّت فريا يدها ولمست ذراعه.

قالت: "شكراً لك. يبدو ذلك غير ملائم بعد كلّ ما فعلتماه أنت وشقيقك من أجلي، من أجلنا نحن الاثنين، ولكن، شكراً لك".

أومأ سعيد قليلاً، ثمّ مال إلى الأمام، وشغّل المحرّك، وغيّر مبدّل السرعة.

قال وهو ينظر إليها: "عندما تأتين إلى الداخلة، تعالي إلى منزلي لشرب الشاي. اتفقنا؟".

قالت فريا: "أحب المجيء إلى منزلك لشرب الشاي. يشرّفني ذلك".

أومأ مرّة أخرى، ثمّ رفع يده مودّعاً، وانطلق عبر الرمال وهو يضغط على البوق ويزيد من سرعة السيارة. راقباه وهو يذهب، وحدّقا إليه إلى أن أصبحت السيارة مجرّد بقعة بيضاء بعيدة تشقّ طريقها بين الكثبان، ثمّ استدارا عائدَين إلى الميكرولايت. انحنى فلين وتناول حفنة صغيرة من حطام البرج الصخري المقوّس.

أعطى فريا إيّاها قائلاً: "هذا تذكار، تذكار صغير لزيارتك الأولى إلى مصر".

ضحكت قائلة: "سأحتفظ به".

أعادا ملء خزّان الآنسة بيغي، ثمّ وضعا خوذتيهما، وصعدا إلى القمرة. بدأت الطائرة تتحرّك على المسطّح الرملي الذي حطّت عليه في الليلة السابقة. أخذ فلين يقودها ذهاباً وإياباً مدّة من الوقت من أجل رفع حرارة الزيت، ثمّ ضاعف الدورات، ودفع ذراع التحكّم إلى الأمام، لترتفع الطائرة في الهواء، وتحوم في الجو،

وتزداد ارتفاعاً. ارتفعت واجهة الجلف الشرقية من جهة، بينما امتدّ بحر غير متناهٍ من الرمال الصفراء من الجهة الأخرى.

تناهى صوته عبر جهاز الاتّصال الداخلي وهو يقول: "كنتُ لأعرض عليك رؤية بعض المشاهد، كجبل العوينات، وكهف السبّاحين. ولكن، نظراً إلى الظروف الراهنة، أظنّ أنّ كلّ ما ترغبين فيه هو العودة، والاستحمام، والخلود فوراً إلى النوم". صمت قليلاً، ثمّ توتّرت كتفاه.

"أنا آسف، لم أعنِ...".

التفت نحوها، وقد شعر فجأة بالإرباك. إلاّ أنّ فريا اكتفت بالابتسام، فغمزته، وخفضت رأسها جانبيّاً تحدّق إلى الصحراء الممتدّة في الأسفل.

حلّقا فوق منطقة الواحة التي لم يتبقَّ منها سوى الصخرة والحصى وبعض الشجيرات المتفرّقة. والطيور أيضاً. مئات ومئات من الطيور التي تنخفض وتحوم، وكأنّها تبحث عن شيء ما. قام فلين بدورتين، ثمّ مالت الطائرة، وحملتهما بالاتجاه الشمالي الشرقي، بينما ترامت الصحراء حولهما، واسعة، ومهيبة، ورائعة الجمال. حلّقا بصمت لبعض الوقت، ثمّ مدّت فريا يدها ووضعتها على كتف فلين.

سألته: "هل يمكننا التحدّث عن ألكس؟".

أمسك بيدها مجيباً: "أحبّ التحدّث عن ألكس".

وهذا ما فعلاه، بينما تراجع الجلف الكبير تدريجيّاً خلفهما، وانفتح أمامهما أفق جديد.

تلاشى هدير طائرة الميكرولايت واختفى. انتقلت الطيور هي أيضاً شمالاً، بحثاً عن مأوىً جديد، في وديان أخرى إلى أعلى الجلف. كانت الصحراء ساكنة تماماً وصامتة تماماً، وخالية تماماً. لم تكن فيها سوى الشمس، والسماء، والرمال، والصخور، وعند أسفل الجروف الصخرية، في ظلّ كومة من الحجار المنهارة حديثاً، قبعت حرباء صحراوية صغيرة، وراحت تحرك عينيها بكسل، وتمد لسانها ثم تخفيه. وحتّى هو اختفى بعيداً عندما بدأت بقعة من الرمال أمامه بالاهتزاز. بالكاد كانت مرئية في البداية، إلاّ أنّ الاهتزازات تضاعفت بسرعة وأصبحت أكثر عنفاً،

وارتفعت رمال الصحراء ودارت وتكوّرت، إلى أن تمزّق سطحها، مثـل كـيس منفجر. أخيراً خرجت يد سمينة مزيّنة بخاتم إلى نور الشمس. وإلى اليسار ظهرت يد أخرى، وخرجت من الرمال مثل نبتة فطر لامعة غريبة الشكل. هنـاك حركـة، ومزيد من دوّامات الرمال، وبدت لمحات خاطفة من رأسين، وأطراف وصـدرين، إلى أن خرج شخصان أسمران، ذوَا شعر بلون الزنجبيل من الأرض. وقفا، وراحت الرمال تتساقط منهما.

سأل أحدهما: "هل أنت بخير؟".

أجاب الآخر: "تقريباً، وأنت؟".

"تقريباً".

نفضا الرمال عنهما، ثمّ حدّقا حولهما.

"لقد رحلت المروحيات".

"هذا ما يبدو".

"أظنّ أنّه من الأفضل لنا السير".

"من الأفضل لنا ذلك".

"لا أريد لماما أنّ تقلق".

"بالتأكيد".

"هل ما زلتَ تحتفظ...؟".

بحثا في جيوبهما، ثمّ أخرجا حفنة من الرقاقات الذهبية. ابتسما، وصفقا كفّـاً بكفّ. ثمّ خلعا سترتيهما، وحملاهما على كتفيهما، وشبكا ذراعيهما، وبدأا يسيران شرقاً. نقطتان حمراوان صغيرتان تتنقّلان فوق مساحة صفراء شاسعة، بينما عـلا صوتهما بالغناء:

"الأهلي الأهلي
فريق كبير فريق عظيم
نلعبها قصيرة، نلعبها طويلة،
الشياطين الحمر أعظم فريق!".

زرزورة الحقيقية - ملاحظة المؤلّف

من بين جميع الأساطير والخرافات المقترِنة بالصحراء، قلة منها أسرت مخيّلات الناس كما فعلت واحة زرزورة الغامضة.

يقال إنّ زرزورة، التي يُفترض أن تكون فردوساً من أشجار النخيل والينابيع، تقع في بقعة ما من الصحراء الليبية الحارقة. قال كثيرون إنّها ليست سوى خرافة، سراب، إلدورادو الرمال، إلاّ أنّ هذا الأمر لم يمنع الناس من البحث عنها، وكثير من الرحلات الاستكشافية الأولى للصحراء قام بها أشخاص يأملون إيجاد هذه الواحة المنسية الغامضة.

من المؤكّد أنّ اسم زرزورةَ مشتقّ من الكلمة العربية *زرزَر*، أو زرزور وهو طائر صغير. ظهرت للمرّة الأولى في مخطوطة ترجع إلى القرن الثالث عشر كتبها عثمان النابلسي، حاكم الفيّوم الذي تحدّث عن واحة مهجورة في مكان ما في الصحراء، جنوب غرب الفيّوم. وحُكي عنها على نحو أكثر تفصيلاً بعد قرنين من الزمن، في كتاب الكنوز، كتاب اللؤلؤ المكنون؛ وهو دليل لصيّادي الكنوز يرجع إلى القرون الوسطى، ويذكر حوالى أربع مئة موقع في مصر يمكن العثور فيها على ثروات خفيّة، كما يذكر مختلف التعاويذ اللازمة لدرء الأرواح الشريرة التي تحرس تلك الثروات. واستناداً إلى الكتاب: "*مدينة زرزورة بيضاء كالحمامة، وعلى بابها نُحت طائر*. تناول بيدك المفتاح من منقار الطائر، ثمّ افتح *باب المدينة... ادخلها وهناك ستجد ثروات عظيمة، ستجد أيضاً الملك والملكة نائمَين في قصرهما. لا تقترب منهما، بل خُذ الكنز*".

أوّل أوروبي ذكر الواحة كان الرحّالة الإنكليزي وعالِم الآثار المصرية السير جون غاردنر ويلكينسون، الذي كتب في العام 1835 أنّه سمع عن "وادي زرزورة"، وهو مكان مليء بأشجار النخيل والأطلال، يقع في مكان ما في بحر الرمال العظيم. ويبدو أنّ بدوياً وقع عليه في أثناء خروجه للبحث عن جمل ضالّ، مع أنّ محاولاته السابقة لإيجاد الواحة باءت بالفشل (وهذان العنصران، أي الاكتشاف العرَضي وعدم القدرة على إيجاد الواحة مجدّداً، شائعان في كلّ قصّة تقريباً عن زرزورة).

في القرن التاسع عشر تزايد الاهتمام الأكاديمي بالصحراء وبفكرة الواحة الخفية، لا سيّما بعد رحلة المستكشف الألماني غيرهارد رولفس الريادية إلى بحر

الرمال العظيم عام 1874. إلاّ أنّ "حمّى زرزورة" لم تشتعل فعلاً إلاّ في أوائل القرن العشرين.

كان ذاك هو العصر الذهبي لاستكشاف الصحراء، مع أشخاص مثل حسنين بيه، والأمير كمال الدين، ولاديسلوس ألماسي، وباتريك كلايتون، ورالف ألجر باغنولد - على سبيل المثال لا الحصر - الذين سافروا ووضعوا خرائط لمساحات شاسعة كانت غير معروفة حتّى ذلك الحين في الصحراء. وشكّل سحر زرزورة حافزاً لتلك الرحلات الاستكشافية. ومع أنّ تلك الرحلات الاستكشافية لم يكن هدفها تحديداً العثور على الواحة، إلاّ أنّ تلك الإمكانيّة لم تفارق قطّ أذهان الناس. وقد نوقش الموضوع في العمق في الصحف والمجلات العلمية، حتّى إنّه تمّ تأسيس نادي زرزورة غير الرسمي الذي يضمّ أشخاصاً مهتمّين باستكشاف الصحراء (أُسّس في نادٍ في وادي حلفا عام 1930، وهو يجتمع سنوياً في جمعية لندن الجغرافية الملكية، ويعقب الاجتماع عشاء في مقهى رويال).

شكّلت جهود باغنولد، وألماسي، وغيرهما ثورة في مجال السفر عبر الصحراء، ووسّعت حدود الجغرافيا، والجيولوجيا، وعلم الآثار، والعلوم. وفي الواقع فإنّ كتاب باغنولدThe Physics of Blown Sand، وهو دراسة لعملية تشكّل الكثبان وتحرّكها، يبقى نصاً قياسياً حول هذا الموضوع، وقد استخدمته وكالة ناسا عند تخطيطها للهبوط على المريخ.

كان لمغامراتهم أيضاً تأثير هامّ في حملات شمال أفريقيا خلال الحرب العالمية الثانية، إذ استخدم كثير من أعضاء نادي زرزورة المنتظمين خبرتهم كأعضاء في مجموعة الصحراء طويلة المدى الأسطورية التابعة للجيش البريطاني (التي أسّسها باغنولد عام 1940). وساهم ألماسي بخبرته مع النازيين، وهو أمر لم يسامحه عليه إطلاقاً زملاؤه المستكشفون.

لكن خلال كلّ ذلك، ظلّت زرزورة بعيدة المنال على نحو مثير للإحباط. وقد قُدّمت نظريات عديدة حول مكانها؛ ففي العام 1932، عمّت موجة كبيرة من الحماسة عندما رأت بعثة بقيادة ألماسي وكلايتون من الجو واديين أخضرين في الجزء الشمالي من خنف الكبير (سُمّيا لاحقاً وادي عبد الملك ووادي الحمرا). ومع أنّ ألماسي أصرّ على أنّ أحد هذين الواديَين أو كليهما هما أساس أسطورة

زرزورة، لم يكن الآخرون متأكّدين، فاستمرّ البحث حتّى يومنا هذا.

بعدما وُضعت خرائط مفصّلة للصحراء وتمّ استكشافها بعمق، من الأرض والجو والفضاء، من المستبعد أن يُثمر البحث عن نتيجة يوماً ما، إلاّ أنّ هذا لم يقلّل بأيّ حال من الأحوال من روعة زرزورة الغامضة. لا بل ضاعفها، ورفع الواحة من العوالم الأرضية لتتحوّل إلى مكان أكثر رمزية.

كما قال رالف باغنولد في كتابه Libyan Sands، لا تكمن قوّة زرزورة في وجودها الفعلي الملموس بل في ما تمثّله؛ تشويق الاستكشاف، وروعة وغموض الأماكن السرّية، وإغراء المجهول. ففي عالم يخلو تقريباً من البقع المجهولة، تُعطينا زرزورة الأمل في أنّه لا يزال هناك ثمّة مغامرات لم تُخَض وألغاز تنتظر الحلّ. من تلك الزاوية، ستبقى زرزورة دائماً هناك، حتّى لو لم تبقَ أماكن لاستكشافها، لأنّ ما يُعتبر على أحد المستويات مجرّد واحة صحراوية مخفية، قد يكون على مستوى آخر شيئاً أكثر جوهرية، يكمن في أعماق كلّ منّا، ألا وهو التوق إلى روعة الاكتشاف.

(ملاحظة: لمعرفة المزيد حول قصّة زرزورة الكاملة والأشخاص المشتركين فيها، يُعتبر كتاب سول كيلي، *The Lost Oasis:The Desert War and the Hunt for Zerzura* أفضل مرجع).

النهاية

مسرد المصطلحات

محمد أبو تريكة	لاعب كرة قدم مصري، معروف باسم زين الدين زيدان المصري. يلعب لنادي الأهلي. ولد عام 1987.
أبيدوس	المركز الديني لأوزيريس ومدفن بعض الفراعنة المصريين الأوائل، ومقر أيضاً لمعبد الفرعون ستي الأول، الواقع على بعد 90 كيلومتراً شمال الأقصر.
محمود أحمدي نجاد	رئيس الجمهورية الإسلامية الإيرانية. ولد عام 1956.
التسلق بالمساعدة	طريقة تسلق تستخدم فيها معدّات خاصة مثل الأوتاد المعدنية والمسامير المصوملة والسلالم الشبكية... وغيرها؛ لمساعدة المتسلق على الصعود. التسلق بالمساعدة عكس التسلق الحر.
عيش بلدي	خبزٌ قاس شبيه بالخبز العربي، مصنوع من طحين القمح الكامل.
أخناتون	أحد فراعنة السلالة الثامنة عشرة (المملكة الجديدة). حكم بين عامي 1353 - 1335 قبل الميلاد. يعدُ عموماً أب توت عنخ آمون.
الأهرام	الصحيفة اليومية المصرية الأوسع انتشارا.
أليه allez	كلمة فرنسية تعني "امض"، يستخدمها المتسلقون لتشجيع بعضهم.
الكونت لاديسلوس (لاسزلو) ألماسي	أرستقراطي وطيّار ومحبّ للسيارات ورحّالة صحراء هنغاري. أحد روّاد استكشاف الصحراء الكبرى في بداية القرن العشرين. عاش بين عامي 1895 - 1951.
آمون-رع	أحد السادة المبجلين الرسميين للمملكة الجديدة، وكان مركزه الديني الرئيس في واسط؛ الأقصر حالياً. دمج بين السيدين المبجلين رع وآمون.
أنك	رمز الصليب. العلامة المصرية العتيقة عن الحياة.
أبيب	روح الشر والفوضى، وتعيش في ظلام سرمدي وتتخذ شكل أفعى ضخمة.
ARCE	"مركز الأبحاث الأمريكي في مصر". منظمة تموّل تدريبا وأبحاثا في علم الآثار والحفاظ عليها.
آرّيت Arete	موقع جبلي شاهق. بتعابير التسلق، يشير عموما إلى صخرة عمودية يمكن الاستفادة منها لمساعدة المتسلّق على الصعود.
آش	سيد الصحراء المبجل مصري قديم، يرتبط اسمه خاصة بالواحات.
أشموليان	متحف في أوكسفورد متخصص بالفن وعلم الآثار. يضم مجموعة واسعة من المصنوعات اليدوية المصرية.
أسترومان	ممنك تسلق.
أتوم	حرفياً "الكل". سيد مبجل مصري قديم، يرتبط غالبا بسيد الشمس رع، تحت اسم رع-أتوم.

البدرية	ثقافة من العصر الحجري الحديث، ازدهرت في الجزء الجنوبي من وادي النيل نحو 4500 قبل الميلاد. سُمّيت تيمناً بالبدري قرب أسيوط، الموقع الذي اكتُشفت فيه الحضارة أول مرة.
العميد رالف ألجر باغنولد	أحد أعظم الشخصيات الرائدة في استكشاف الصحراء الكبرى في أواخر عشرينيات القرن العشرين وثلاثينياته (قام بأول رحلة شرق-غرب لعبور بحر الرمال الكبير في العام 1932 من بين مغامرات ملحمية أخرى). أسّس "مجموعة المدى الطويل الصحراوية" الأسطورية في أثناء الحرب العالمية الثانية. كان أيضاً عالماً معروفاً عالمياً. ويبقى كتابه عن حركة الكثبان فيزياء الرمال المتحركة عملاً مرجعياً إلى يومنا هذا. عاش في الفترة الممتدة بين عامي 1896 - 1990.
د. جون بول	أحد أوائل المستكشفين الأوروبيين للصحراء الغربية. اكتشف أبو بلاس، أو تلّ الفخّار، في العام 1916. كتب مقالات كثيرة عن الصحراء وواحة زرزورة المفقودة. عاش في الفترة الممتدة بين عامي 1872 - 1941.
بنو سليم	قبيلة بدوية في شمالي أفريقيا.
أنطونيو بياتو	مصوّر أنغلو-إيطالي، التقط صورا كثيرة لأوابد وأشخاص في مصر. عاش في الفترة الممتدّة بين عامي 1825 - 1906.
بدجا	وعاء على شكل جرس، استخدمه المصريون القدماء لتخمير الخبز.
تفجير ثكنات بيروت	تفجير انتحاري مزدوج في لبنان في 23 تشرين الأول 1983، استهدف قوة حفظ السلام الدولية التي نُشرت في أثناء الحرب الأهلية اللبنانية (1975 - 1991). دخلت شاحنتان محمّلتان بالمتفجرات مقرّ قوات البحرية الأمريكية في مطار بيروت الدولي وثكنة الجيش الفرنسي القريبة منه، فقتلتا 241 جندياً أمريكياً، و58 مظلياً فرنسياً، وخمسة لبنانيين. يُظنُّ عموماً أن التفجيرين كانا من تدبير حزب الله المدعوم إيرانياً.
تفجير السفارة في بيروت	هجوم انتحاري في لبنان في 18 نيسان 1983، اصطدمت فيه شاحنة محمّلة بالمتفجرات بمبنى السفارة الأمريكية، وقتلت 63 شخصاً. وقد أعلنت جماعة تدعو نفسها منظمة الجهاد الإسلامي مسؤوليتها، لكن معظم المحللين يظنون أن حزب الله المدعوم إيرانياً كان خلف ذلك العمل.
بنبن	حجر مخروطي، أو على شكل مسلة، كان يُبجّل في معبد الشمس القديم إيونو.
بنو	طائر مبجل يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالسيد المبجل رع-آمون. كان يُصوّر إما كمالك الحزين أو ذُعرة صفراء. يعدّه علماء كثر نموذجاً للعنقاء.
برسيم	نوع من النبات يستخدم في تغذية الماشية في مصر.
ساحات إيرو المبجلة	تعبير مصري قديم للحياة الآخرة. كانت إيرو تنطق أحيانا "إيلو"، التي اقترح بعض العلماء أنها مشتقة من حقول الفردوس.

هانز بليكس	دبلوماسي سويدي شغل منصب رئيس "لجنة الأمم المتحدة للرصد والتحقق والتفتيش" بين عامي 2000 و2003، وهي لجنة كلّفت بالتحقيق في أسلحة الدمار الشامل العراقية. ولد عام 1928.
حفرة المراكب	عدد من المدافن الملكية المصرية، وفيها حفر تضم مراكب بالحجم الكامل. تحيط خمس من تلك الحفر بالهرم الأكبر خوفو في الجيزة، اثنتان منها - اكتُشفتا في العام 1954 - تضمان سفناً سليمة.
الباطنية	منطقة في القاهرة معروفة باللصوص ومروّجي الممنوعات.
حدبة	اختصار لأداة تثبيت. أداة مزوّدة بنابض تدق في شق صخرة لتثبيت حبل التسلق.
كارابينر	حلقة دائرية أو على شكل D، فيها ثقب مزوّد بنوابض يمكن تعليق حبل فيه. وهي إحدى أهم معدّات التسلق الأساسية.
هاورد كارتر	عالم آثار إنكليزي، اكتشف قبر الفرعون الفتى توت عنخ آمون في العام 1922؛ أعظم اكتشاف في تاريخ علم الآثار المصري. عندما نظر للمرة الأولى إلى القبر، وسأله مرافقه ومموّله اللورد كارنارفون إن كان بمقدوره رؤية شيء، تمتم كارتر كلمات خالدة: "نعم، أشياء رائعة!". عاش في الفترة الممتدة بين عامي 1874 - 1939.
خرطوشة (إطار مزخرف)	شكل بيضاوي متطاول يضم اسم فرعون.
المقدم باتريك كلايتون	مسّاح وجندي ومستكشف صحراء بريطاني. وضع خرائط لمناطق شاسعة من الصحراء الغربية في عشرينيات القرن العشرين وثلاثينياته. عاش في الفترة الممتدة بين عامي 1896 - 1962. لعب شخصان اخران يحملان لقب كلايتون دوراً بارزاً في استكشاف الجلف الكبير في فترة الثلاثينيات: الملاح الجوي البريطاني السير روبرت كلايتون-ايست-كلايتون (1908 - 1932)، الذي منح التضاريس الجغرافية فوّهات كلايتون اسمها، وزوجته الليدي دوروثي كلايتون-ايست-كلايتون (1908 - 1933)، التي كانت قدوة لشخصية كريستين سكوت توماس في فيلم المريض الإنكليزي The English Patient.
قبطي	نصراني مصري. الأقباط إحدى أقدم الطوائف النصرانية في العالم، ويعود تاريخهم إلى القرن الأول الميلادي، حين أحضر متّى الإنجيل إلى مصر. يمثّلون نحو 10 بالمئة من عدد سكان مصر الحديثة. وكلمة قبطي مشتقة من الكلمة الإغريقية القديمة إيجيبتوس، المشتقة بالمقابل من الكلمة المصرية القديمة هوت-كا-بتاح؛ منزل الروح بتاح.
مسمارية	كتابة قديمة إسفينية الشكل في بلاد ما بين النهرين.
ألكسندرا ديفيد-نيل	مستكشفة ومغامرة وكاتبة فرنسية، مشهورة برحلاتها في التيبت وهملايا. كانت أول امرأة أوروبية تدخل مدينة لاسا المحرّمة في العام 1924. عاشت في الفترة الممتدة بين عامي 1868 - 1969.

التعليق الثابت	هو التدلي من نقطة ثابتة والذراعان ممدودتان تماما.
الرجل الميت	مناورة تسلق يدفع فيها المتسلق ذراعه إلى الأعلى نحو نقطة تثبيت صعبة، ويمسها بأطراف أنامله.
المقدم نويل برنارد دي لانسي فورث	جندي ومستكشف صحراء أسترالي. خدم مع فيالق الجمال السودانية من العام 1907 وحتّى العام 1916. عاش في الفترة الممتدة بين عامي 1879 - 1933.
دشرت	حرفيا: الأرض الحمراء. استخدم المصريون القدماء الكلمة لوصف الصحراء القاحلة على كلا جانبي النيل.
دجد	رمز مصري قديم للاستقرار يُصوَّر على أنه عمود محاط بأربعة أغصان أفقية؛ وهو يمثّل العمود الفقري للسيد المبجل أوزيريس.
جدف-رع	فرعون من السلالة الرابعة (المملكة القديمة)، ابن خوفو. حكم في الفترة الممتدة بين عامي 2528 - 2520 قبل الميلاد. اسمه يُكتب أحياناً رع-جدف.
جلابية	ثوب تقليدي يرتديه الرجال والنساء المصريون.
زوسر	فرعون من السلالة الثالثة (سلالة باكرة). حكم في الفترة الممتدة بين عامي 2630 - 2611 قبل الميلاد. كان هرمه في سقارة شمال القاهرة أول بناء حجري تذكاري في العالم.
دوكو	نترات السيلولوز التي تلصق الإسمنت المستخدم حصرا في ترميم القطع الأثرية والحفاظ عليها.
السلالة	قسّم المؤرخ القديم مانثو التاريخ المصري إلى ثلاثين سلالة حاكمة، وتبقى تلك هي الأقسام الأساسية في التسلسل الزمني المصري القديم. جُمعت السلالات لاحقاً في ممالك وعصور.
السلالات المبكرة	أقدم عصور التاريخ المصري المدوّن، حين تم توحيد وادي النيل أول مرة في دولة واحدة. تتألف من السلالات الثلاث الأولى في مصر القديمة، واستمرت في الفترة الممتدة بين عامي 2920 - 2575 قبل الميلاد.
السلالة الثامنة عشرة	السلالة الأولى في المملكة الجديدة. تضم بعضا من أعظم فراعنة مصر وأشهرهم، وفيهم تحتمس الثالث، وأمنحوتب الثالث، وأخناتون، وتوت عنخ أمون.
الأهلي	نادي كرة قدم قاهري شهير، تأسس في العام 1907 (من قبل الإنكليزي ميتشل إنس). يُلقب الفريق بالشياطين الحمر، ويدخل في منافسة شرسة وعنيفة أحياناً مع الزمالك نادي كرة القدم القاهري الآخر.
القبطان	واجهة صخرية غرانيتية ضخمة بارتفاع 910 أمتار في متنزّه يوسمايت الوطني. أحد أماكن تسلق السور الكبير الصعبة في العالم. قهرها أول مرة عام 1958 وارين هاردينغ وواين ميري وجورج ويتمور، الذين كانوا روّاداً في سلوك طريق يدعى الأنف.

تساعي	مجموعة من تسعة أسياد مبجلين (جاءت الكلمة من تسعة الإغريقية) ترتبط بمعبد الشمس العظيم في إيونو. تتألف المجموعة من أتوم، شو، تفنت، جب، نوت، أوزيريس، إيزيس، ست، نيفثيس.
FAAAS	زميل الأكاديمية الأمريكية للفنون والعلوم.
فيروز	مطربة لبنانية شهيرة، اسمها الحقيقي نهاد حداد. ولدت عام 1935.
شبه جزيرة الفاو	شبه جزيرة مهمة استراتيجيا في أقصى جنوب العراق. شهدت صراعاً مريراً في أثناء الحرب العراقية-الإيرانية بين عامي 1980 - 1988.
فطير	نوعٌ من الفطائر المحلاة.
فلاح (الجمع فلاحون)	مزارع.
FInstP	زميل معهد الفيزياء.
الحقبة الوسطى الأولى	أول ثلاث حقب وسطى تتوزّع على ثلاث ممالك عظيمة في مصر القديمة، استمرت في الفترة الممتدة بين عامي 2134 - 2040 قبل الميلاد. وقد شهدت تجزئة الدولة المصرية بعد الحكم المركزي القوي في المملكة القديمة.
تسلق حر	تسلق من دون استخدام أي معدّات صنعية لمساعدة المتسلق. تستعمل الحبال والأوتاد المعدنية لتوفير الحماية فقط. وهو عكس التسلق بالمساعدة.
فري-رايدر	مسلك تسلق على القبطان في متنزّه يوسمايت الوطني.
نادي الجزيرة الرياضي	منشأة رياضية تشغل مساحة 150 فدانا على جزيرة الجزيرة في وسط القاهرة.
الجيزة	هضبة صحراوية (وبلدة) على الطرف الغربي للقاهرة، وهي موقع الأهرامات وأبو الهول ولوابد أثرية عدة أخرى.
بحر الرمال الكبير	منطقة شاسعة من الكثبان الرملية تغطي نحو 300.000 كيلومتر مربع في غربي مصر وشرقي ليبيا.
الإغريقي-الروماني	العصر الأخير من التاريخ المصري القديم، يبدأ باحتلال الإسكندر الكبير مصرَ في العام 332 قبل الميلاد ويستمر حتى عام 395 ميلادي. كانت كليوباترا آخر من حكم مصر من أبنائها، وتوفيت في العام 30 ميلادي، وخضعت البلاد بعد ذلك لحكم روما المباشر.
سيد عبد الحفيظ	لاعب كرة قدم مصري (خط الوسط). قائد سابق لفريق الأهلي. ولد عام 1977.
قاعة الحقيقتين	كانت القاعة، وفقا للأسطورة المصرية القديمة، المكان الذي يجري فيه وزن قلب الميت مقابل كفّة من ريش مات، أو الحقيقة. إذا حكم على المتوفى أنه لم يرتكب آثاماً، يُسمح له بالانضمام إلى أوزيريس في الحياة الأخرة.

حماس	حركة المقاومة الإسلامية الفلسطينية، تأسست في العام 1987. حماس كلمة عربية تعني الحماسة والحروف الأولى من اسم المنظمة الكامل.
الحمد لله	الشكر لله جل جلاله.
أحمد محمد حسنين بيه	من أعظم الشخصيات في مجالات السياسة والثقافة والاستكشاف في مصر في بداية القرن العشرين. قام برحلة استكشاف مثيرة، في عامي 1922 و1923، استغرقت ثمانية شهور قطع فيها 2200 ميل عبر الصحراء الكبرى من السلوم على ساحل البحر المتوسط في مصر إلى العبيد في السودان، واكتشف في أثناء ذلك جبل العوينات وجبل أركنو. عاش بين عامي 1889 - 1946.
حتشبسوت	ملكة من السلالة الثامنة عشرة (المملكة الجديدة)، حكمت مصر بين عامي 1473 - 1458 قبل الميلاد بصفتها فرعوناً مشتركاً مع ابن زوجها تحتمس الثالث. كان معبدها الجنائزي على الضفة الغربية للنيل في الأقصر - أحد أروع الأوابد في مصر - مسرحاً لمذبحة مروّعة عام 1997، حيث قتل متشددون 58 سائحاً وأربعة مصريين.
هليوبوليس	حرفيا: مدينة الشمس. اسم إغريقي لمدينة المعبد المصري القديمة إيونو.
حزب الله	حزب شيعي لبناني اشتهر بمقاومته للاحتلال الاسرائيلي لجنوب لبنان.
هيراكونبوليس	موقع أثري بالغ الأهمية في مصر العليا. كان معروفا للمصريين القدماء باسم نخن، وهو أحد أقدم المراكز الحضرية المعروفة في وادي النيل، وتعود دلائل الاستيطان فيه إلى 4000 عام قبل الميلاد.
هيري (هيروغليفي كهنوتي)	شكل مبسّط من الهيروغليفية، وتماثل في المصرية القديمة الكتابة بأحرف متصلة.
الهولوسين	حقبة جيولوجية تمتد من نحو 10,000 قبل الميلاد إلى يومنا الحاضر.
حورس	سيد مبجل مصري قديم، ابن إيزيس وأوزيريس. يُصوّر بجسد إنسان ورأس صقر.
قاعة معمّدة	قاعة ضخمة ذات سقف يرتكز على أعمدة.
عمامة (الجمع عمائم)	غطاء للرأس يعتمره الرجال في أنحاء مصر.
الحقبة الوسطى	تتوزّع الممالك الثلاث العظيمة في مصر القديمة على ثلاث حقب وسطى انهارت في نهاية كل منها السلطة المركزية وأصبحت مراكز القوة محلية، من دون ملك واحد يحكم وادي النيل كله.
إيزيس	سيدة مبجلة مصرية قديمة، زوجة أوزيريس ووالدة حورس.
الجهاد الإسلامي	مجموعة إسلامية فلسطينية مسلحة، تأسست في أواخر سبعينيات القرن العشرين.
إيترو	وحدة مصرية قديمة للقياس، تساوي 10,5 كيلومترات تقريبا، وهو أيضاً الاسم المصري القديم للنيل.

إيونو	إحدى المدن الثلاث العظيمة في مصر القديمة، إلى جانب منفر (ممفيس) وواسط (طيبة/الأقصر). تقع شمالي القاهرة الآن، وكانت موقعاً ذا أهمية دينية عظيمة، وموطناً لمعبد ضخم مكرّس لـ رع-أتوم.
جهاز أمن الدولة	وكالة الاستخبارات الحكومية في مصر.
كركديه	شراب غير كحولي يُصنع بنقع تويجات الخطمي.
الكرنك	معبد ضخم شمالي الأقصر تماما، شيّدت أبنيته على امتداد نحو 2000 سنة من التاريخ المصري. كان المعبد مكرّساً لأمون.
الأمير كمال الدين حسين	مليونير مصري سليل أسرة ملكية ومستكشف صحراء. اكتشف الجلف الكبير وسمّاه في العام 1926. لا يزال نصبٌ تذكاري له موجوداً على الطرف الجنوبي من الجلف، أقامه لاديسلوس ألماسي. عاش بين عامي 1874 - 1932.
كميت	حرفيا: الأرض السوداء. استخدم المصريون القدماء الكلمة للدلالة على بلدهم. كان الإغريق القدماء أول من استعمل إيجبت أو إيجيبتوس، وهي مشتقة من المصرية هوت-كا-بتاح ؛ منزل روح بتاح.
كنيم	الاسم القديم لواحة الخارجة.
خان الخليلي	سوق كبيرة في القاهرة يباع فيها كل شيء من المجوهرات، إلى النراجيل، إلى الأحجار الكريمة والملابس الجلدية.
خع سخ وي	فرعون من السلالة الثانية (سلالة باكرة). شيّد عددا من الأبنية، وفيها ضريح ضخم في أبيدوس. توفي عام 2649 قبل الميلاد.
خبري	السيد المبجل للتجديد والبعث وشمس الفجر المصري القديم. صُوّر بجسد إنسان ورأس جُعل أو خنفساء روث.
خيت	وحدة قياس مصرية قديمة تساوي 52,5 مترا.
آيـة الله روح الله العظمى الخميني	المرشد الشيعي الإيراني وقائد الثورة الإيرانية عام 1979. وهو القائد الديني والسياسي الأعلى لإيران من العام 1979 وحتى العام 1989. عاش بين عامي 1900 - 1989.
خوفو	فرعون من السلالة الرابعة (المملكة القديمة)، باني الهرم الأكبر في الجيزة. معروف أيضاً لدى الإغريق باسم شيوبس. حكم بين عامي 2551 - 2525 قبل الميلاد.
المملكة	يمتد تاريخ مصر القديم نحو 3000 سنة، منذ ظهور الدولة القومية الموحدة نحو 3000 قبل الميلاد حتى وفاة كليوباترا وفرض الحكم الروماني المباشر في العام 30 قبل الميلاد. في أثناء هذه الفترة الطويلة من الزمن، كانت هناك ثلاثة عهود طويلة تميّزت بالوحدة الوطنية وظهور حكومة مركزية قوية، تعرف بالممالك القديمة والوسطى والجديدة.
الكفرة	واحة صحراوية كبيرة في جنوبي - شرقي ليبيا.

الحقبة المتأخرة	كما يوحي الاسم، كانت تلك الحقبة التي تغطي السنوات الأخيرة من الدولة المصرية، حين أُعيد تأسيس السلطة المركزية إلى ما بعد فوضى "الحقبة الوسطى الثالثة".
الحبل الرئيس (ليد-لاين)	الحبل الذي يستخدمه المتسلقون.
مجموعة المدى الطويل الصحراوية	وحدة عمليات خاصة في الجيش البريطاني في أثناء الحرب العالمية الثانية. أسّسها رالف باغنولد في العام 1940، وكانت تعمل في الاستطلاع وجمع المعلومات وتنفيذ عمليات تخريبية في الصحراء الكبرى.
لوغال-زاغيسي	ملك أوما، دولة سومرية من مدينة واحدة. حكم بين عامي 2357-2350 قبل الميلاد.
نجيب محفوظ	كاتب مصري نال جائزة نوبل، يعزى الفضل إليه على نطاق واسع بنقل الأدب العربي إلى جمهور أوسع عالمياً. عاش بين عامي 1911-2006.
جزر المجنون	منطقة مهمة استراتيجيا في جنوبي العراق، وموطن حقول نفط وغاز عراقية كثيرة.
مانثو	قس إغريقي-مصري. يعدّ كتابه إيجيبتياكا، أو تاريخ مصر، مصدرا أساسياً لدراسة مصر القديمة. لم ينجُ العمل الأصلي، ويُعرف فقط من فقرات اقتبسها مؤلفون قدماء آخرون. لا يُعرف شيء تقريباً عن مانثو نفسه، باستثناء أنه عاش في مدينة سبنيتوس في دلتا النيل في القرن الثالث قبل الميلاد.
منشية ناصر	منطقة في القاهرة، على أقصى التخوم الشرقية للمدينة. موطن الزبّالين؛ جامعي القمامة في القاهرة. إنها أحد الأماكن القليلة في المدينة التي يمكن أن ترى خنازير فيها.
مشهد	ثاني أكبر مدن إيران.
مهنسو (الجمع مهنسوت)	وحدة قياس مصرية قديمة تعني الذراع الملكية، وتساوي 525 مليمترا.
ميدان التحرير	ساحة مكشوفة شاسعة في وسط القاهرة ومحور المدينة.
المملكة الوسطى	إحدى ثلاث ممالك عظيمة في مصر القديمة. تضم السلالات 11 وحتى 14، واستمرت بين عامي 2040 - 1640 قبل الميلاد.
ثور منفيس	ثور كان في معبد الشمس إيونو. يعد التجسيد الأسمى لرع-أتوم.
ملوخية	طبق مصري يحضّر من أوراق نبات مطبوخة. تشبه السبانخ.
حسني مبارك	رئيس مصر بين عامي 1981 - 2011. ولد في العام 1928. زوجته سوزان.
مؤذن	الشخص الذي ينادي المؤمنين المسلمين إلى الصلاة خمس مرات يوميا.
نخت	كاتب مصري قديم، زُيّن قبره على الضفة الغربية للنيل في الأقصر بلوحات جميلة من الحياة المصرية اليومية، وفيها نساء يعزفن الموسيقى ويرقصن.

نقادة	حضارة سبقت ظهور السلالات الحاكمة سُمّيت تيمنا ببلدة نقادة – نوبت القديمة – حيث عُثر على أول آثارها هناك (من قبل عالم الآثار الإنكليزي فلندرز بتري). استمرت حقبة نقادة بين عامي 4400 – 3000 قبل الميلاد؛ وكانت حاسمة لتطور مصر موحدة.
جمال عبد الناصر	الرئيس الثاني لمصر، بين عامي 1956 – 1970. كان أحد قادة الثورة المصرية في 23 تموز عام 1952، وشخصية رئيسة في السياسة العربية في القرن العشرين. عاش بين عامي 1918 – 1970.
نكروبوليس	حرفيا: مدينة الموتى. مدفن.
نفرتيتي	الزوجة الملكة العظيمة للفرعون أخناتون من السلالة الثامنة عشرة. الاسم يعني لقد جاءت الجميلة.
نيث	الزوجة الملكة – والأخت غير الشقيقة – للفرعون بيبي الثاني من السلالة السادسة. نيث اسم السيدة المبجلة للحرب، مصرية قديمة أيضاً.
نيوليثي (العصر الحجري الحديث)	حرفيا: الحجري الجديد. الحقبة الأخيرة والأحدث من العصر الحجري. استمرت في مصر بين عامي 6000 – 3500 قبل الميلاد، لكن يبقى الجدل قائماً بشأن التاريخ الدقيق.
السير دوغلاس نيوبولد	مستكشف بريطاني، سافر كثيرا في الصحراء الليبية في أثناء خدمته مع الجهاز السياسي السوداني في عشرينيات القرن العشرين وثلاثينياته. عاش بين عامي 1894 – 1944.
المملكة الجديدة	آخر ثلاث ممالك في مصر القديمة. تضم السلالات من 18 وحتى 20، واستمرت بين عامي 1550 – 1070 قبل الميلاد. حكم بعض أشهر فراعنة التاريخ المصري مثل توت عنخ أمون ورمسيس الثاني في أثناء المملكة الجديدة.
محافظة الوادي الجديد	إحدى المناطق الحكومية الإدارية في مصر، تغطي جنوبي-غربي البلاد، وتضم واحات الخارجة والداخلة والفرافرة إضافة إلى الجلف الكبير. عاصمتها الخارجة.
الأقواس التسعة	الأعداء التقليديون لمصر القديمة.
نيسو	استخدم المصريون القدماء الكلمة للدلالة على ملك أو حاكم. لم يبدأ استخدام فرعون – من بر-آ "المنزل الكبير" – إلا في عهد السلالة الثامنة عشرة فقط (1550 – 1307 قبل الميلاد).
نومارك	كانت مصر القديمة مقسّمة إلى اثنين وأربعين نوم، أو إقليما إداريا، يرأس كل منها نومارك. كان النومارك، في أوقات انهيار الحكومة، ينفصلون عن السلطة المركزية ويحكمون بصفتهم أمراء مستقلين.
الأنف	مسلك تسلق إلى أعلى القبطان في متنزّه يوسمايت الوطني. أحد أشهر مسالك التسلق الصخرية في العالم؛ إن لم يكن أشهرها على الإطلاق.
نوت	السيدة المبجلة للجنان والسماء. مصرية قديمة.

المملكة القديمة	أولى ثلاث ممالك في مصر القديمة. تضم السلالات من 4 وحتى 8، واستمرت بين عامي 2575 - 2134 قبل الميلاد. وقد بُنيت الأهرامات في عهد المملكة القديمة.
أوزيريس	السيد المبجل للعالم السفلي المصري القديم.
أوستراكون (الجمع أوستراكا)	قطعة فخارية أو من الحجر الجيري تحمل صورة أو نصاً. الشكل العتيق من دفتر ملحوظات أو ورق ملصقات.
أوكسيرينكوس (نجع حمادي)	موقع أثري فريد قرب البهنسا المعاصرة في وسط مصر. مكبُّ نفايات قديم استُخرج منه عددٌ من أوراق البردي الإغريقية من الحقبة المتأخرة من تاريخ مصر، وفيها أجزاء ضائعة أو غير معروفة من مسرحيات وقصائد قديمة وكتابات نصرانية باكرة.
باليوليثي (العصر الحجري القديم)	حرفيا: الحجريّ القديم. المرحلة الأولى من العصر الحجري في التطور الإنساني، حين كان البشر لا يزالون صيّادين وجامعي ثمار متنقّلين. استمر في مصر بين عامي 700,000 - 10,000 قبل الميلاد، لكن الجدال يبقى قائماً بشأن التاريخ الدقيق.
بيبي الثاني	فرعون من السلالة السادسة، وهو آخر حاكم عظيم للملكة القديمة. كان لقبه الملكي الكامل نيفر-كا-رع بيبي. حكم بين عامي 2246 - 2152 قبل الميلاد، وهي أطول مدة مسجلة لأي حاكم في التاريخ.
بيريت	أحد ثلاثة فصول كانت السنة المصرية القديمة مقسّمة إليها (الفصلان الآخران هما أخيت وشيمو). كان بيريت فصل الزراعة والنمو، ويمتد عادة من تشرين الأول إلى شباط.
ويليام ماثيو فلندرز بتري	عالم آثار متخصص بالعاديات المصرية. عمل في مصر وفلسطين، ووضع عدداً من القواعد الأساسية لعلم الآثار الحديث. يُلقّب بـأبي القدور؛ لاهتمامه بالفخار القديم. عاش بين عامي 1853 - 1942.
نقش صخري	صورة أو رمز منقوش على حجر.
قرش	الوحدة الأساسية في العملة المصرية. مئة قرش تساوي جنيها مصريا.
بقعة	قسم من التسلق بين وتدين أو نقطتي تثبيت.
رزّة	حلقة فولاذية أو من مزيج معدني تدفع في شق صخري لتثبيت المتسلقين وحمايتهم.
قبل السلالة	المدة التي سبقت مباشرة انبثاق مصر الفرعونية، حين تطوّرت العناصر الأساسية للحضارة المصرية تدريجياً.
بتاح	السيد المبجل للحرفيين والصناع، مُبجل في مدينة منفر (ممفيس). يُصوّر على أنه شخصية مومیائية ذات لحية وتعتمر قلنسوة ضيقة.
بيلون	مدخل أو بوابة ضخمة ذات برجين معينيّي الشكل ينتصبان أمام معبد.
رع	السيد المبجل للشمس مصري قديم.
رع-أتوم	دمج بين السيدين المبجلين رع وأتوم.

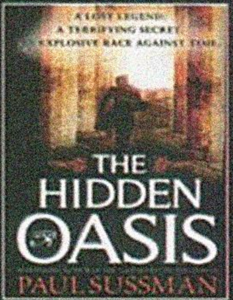
رع-حورس	سيد مبجل مصري قديم يجمع بين خصائص رع وحورس، أحد السادة المبجلين الرسميين للملكة الجديدة. يُصوّر عادة برأس صقر أو باز.
نقش	صورة أو نص يُنقش على سطح صخري مستوٍ. تبرز الصورة من الحجر في النقش النافر، وفي النقش الغائر تُحفر الصورة في الصخر.
فريدريك جيرارد رولفز	مصوّر ومغامر ومستكشف ألماني، سافر كثيرا في الصحراء الكبرى، وقام برحلة مميزة جنوب-شمال عبَر فيها بحر الرمال الكبير عام 1874. عاش بين عامي 1831 - 1896.
صعيدي	أحد سكان مصر العليا (أو الجنوبية). يتمتع أهل الصعيد ببشرة داكنة أكثر من قاطني مصر السفلى (الشمالية).
سي	كلمة توضع غالبا أمام الأسماء في العربية المصرية على أنها نوع من التخاطب المهذّب.
سنوسي	تنظيم ديني إسلامي تأسس في القرن التاسع عشر ويوجد أساسا في ليبيا.
الناووس (تابوت حجري)	حرفيا: آكل اللحم. حجر ضخم يُحفر لوضع جثة أو نعش داخله.
جُعل	خنفساء الروث. تعدُّ مبجلة في مصر القديمة.
منطقة سليمة الرملية	منطقة شاسعة من الرمال المسطحة تغطي نحو 60,000 كيلومتر مربع في جنوبي مصر وشمالي السودان.
سنوسرت الأول	فرعون من السلالة الثانية عشرة (المملكة الوسطى). حكم بين عامي 1971 - 1926 قبل الميلاد.
سيشات	السيدة المبجلة المصرية القديمة للكتابة والحساب والعمارة والفلك.
ست	السيد المبجل للعواصف والفوضى والظلام والصحراء، يُصوّر بجسد إنسان ورأس حيوان غير محدد.
ستي الأول	فرعون من السلالة التاسعة عشرة (المملكة الجديدة). والد رمسيس الثاني. حكم بين عامي 1306 - 1290 قبل الميلاد.
شال	وشاح كبير.
شيده	نوع من الشراب يصنع من العنب الأحمر، كان منتشرا في مصر القديمة.
شيبين	خشخاش الأفيون، استخدمه المصريون القدماء طبيا ليسبب النعاس.
شيشة	نرجيلة، توجد في المقاهي والمنازل الخاصة في مصر والشرق الأوسط.
SMIEEE	عضو بارز في معهد الهندسة الكهربائية والإلكترونية.
سوبك	سيد مبجل مصري قديم يُصوّر بجسد إنسان ورأس تمساح. إضافة إلى كونه السيد المبجل للنيل، يعد سوبك حامي الفرعون والسيدين المبجلين رع وست.
منفرد	التسلق وحيداً، من دون مرافقين.

فريا ستارك	رحّالة ومستكشفة وكاتبة، اشتهرت برحلاتها المثيرة في أرجاء الشرق الأوسط وشبه الجزيرة العربية. عاشت بين عامي 1893 – 1993.
لوح منقوش	كتلة عمودية من الحجر أو الخشب تحمل صورا أو نقوشا.
المجلس الأعلى للآثار	جزء من وزارة الثقافة في مصر، ومسؤول عن كل الآثار والأوابد والحفاظ عليها داخل مصر.
طعمية	نوع من الفلافل المصرية.
تالاتات	كتل موحدة من الحجارة المزخرفة استخدمت في بناء المعابد في عهد الفرعون أخناتون (1353 – 1335 قبل الميلاد). هدم فراعنة لاحقون معابد أخناتون واستعملوا كتل البناء في تشييد صروح خاصة بهم. تم إخراج نحو 4000 من التالاتات من داخل البيلون وأسفل أرضيات مبنى المعبد في الكرنك.
تمام	جيد.
تاسيان	حضارة زراعية من العصر الحجري الحديث، سُمّيت تيمنا بدير تاسا، موقع في مصر العليا حيث عُثر عليها لأول مرة. ازدهرت نحو 4500 قبل الميلاد.
تيبو	قبيلة من بدو الصحراء الكبرى توجد في ليبيا وتشاد.
حصار السفارة في طهران	في 4 تشرين الثاني من العام 1979، اقتحم 300 طالب إيراني السفارة الأمريكية في طهران، واحتجزوا 66 رهينة أمريكية. أطلقوا سراح عدد صغير منهم لاحقا، لكن 52 منهم بقوا في الأسر 444 يوما، وتم تحريرهم أخيراً في 21 كانون الثاني من العام 1981.
السلالة الثالثة	آخر السلالات الثلاث في عصر السلالات الباكر. استمرت بين عامي 2649 – 2575 قبل الميلاد.
تين هينان	ملكة أسطورية لقبيلة الطوارق.
تجاتي	وزير. أعلى مسؤول في مصر القديمة.
تورلي	وجبة مصرية من اللحم – عادة الحمل أو البقر – والخضار.
طورية	مجرفة. تستخدم على نطاق واسع في الزراعة والمواقع الأثرية المصرية.
طوارق	قبيلة بدوية تنحدر من بربر شمالي أفريقيا. يسكنون مناطق صحراوية في مالي، والنيجر، وجنوبي الجزائر، وتميّزهم أثوابهم الزرقاء.
طرّة	سجن كبير خارج القاهرة.
لائحة الملك في تورين	أوراق بردي هيري، يُظنُّ أن تاريخها يعود إلى عهد رمسيس الثاني (1290 – 1224 قبل الميلاد)، تضم لائحة بكل الفراعنة في مصر القديمة ما قبل المملكة الجديدة. وبالرغم من الضرر البالغ الذي أصابها وعدم اكتمالها، إلا أنها أداة أساسية لمعرفة التسلسل الزمني للملوك المصريين. اكتشفها الرحّالة الإيطالي برناردينو دروفيتي في العام 1822، ومعروضة في المتحف المصري في تورين.

توت عنخ آمون	الملك الفتى من السلالة الثامنة عشرة (المملكة الجديدة) الذي حكم بين عامي 1333 - 1323 قبل الميلاد. عثر عالم الآثار الإنكليزي هاورد كارتر على ضريحه السليم تقريباً في العام 1922، وهو أعظم اكتشاف في تاريخ الآثار المصرية.
UAV	مركبة جويّة من دون ملاحين.
USAID	وكالة الولايات المتحدة للتنمية الدولية. منظمة حكومية أمريكية تقدم مساعدات مادية وفي مجال البنى التحتية إلى دول العالم الأفقر.
وادي	كلمة عربية للوادي أو سرير النهر الجاف.
وادجت	رمز حماية مصري يمثل عين السيد المبجل-الصقر حورس.
جرذ الجدار	تعبير عامّي لمتسلق الصخور.
عمود واشنطن	برج صخري غرانيتي على شكل مقدّمة سفينة بارتفاع 350 متراً في متنزّه يوسمايت الوطني؛ وهو شهير جداً لدى المتسلقين.
السير جون غاردنر ويلكينسون	رحّالة وكاتب وعالم آثار مصرية إنكليزي، يُعرف بأنه "أب علم الآثار المصري البريطاني". عاش بين عامي 1797 - 1875.
اللواء أورد وينغيت	مغامر وجندي بريطاني. بدأ رحلة استطلاعية سيراً على قدميه في العام 1933 بحثاً عن زرزورة. عاش بين عامي 1903 - 1944.
متنزه يوسمايت الوطني	متنزّه بريّ وطني رائع يشغل مساحة 3081 كيلومتراً مربعاً في تلال سيرا نيفادا في شرقي كاليفورنيا. يضم عدداً من أروع مواقع التسلق في العالم.
زبّالون	مجتمع من النصارى الأقباط أساساً يجمعون نفايات القاهرة ويعيدون تدويرها. طريقتهم في العيش مهدّدة حالياً بعد أن أحضرت سلطات المدينة مقاولين أوروبيين لإدارة قمامة القاهرة.
الزمالك	حي في القاهرة يشغل الجزء الشمالي من جزيرة الجزيرة، وهو أيضاً اسم أحد أكبر ناديين لكرة القدم في المدينة. يُعرف الفريق باسم الفرسان البيض، وهو طرف في منافسة شرسة وعنيفة أحياناً مع فريق القاهرة الرئيس الآخر، الأهلي.
زاوتي	أسيوط حالياً. كانت في أوقات غابرة عاصمة النوم (منطقة إدارية) الثالثة عشرة من مصر العليا.

في العام 2135 قبل الميلاد في الصحراء الغربية، بدأت القصة، وعند قاعدة الجرف الصخري نطق إمتي المبجل تعويذتي الإغلاق والإخفاء، على أن تظلا ساريتين حتى تسود أيام أفضل وأكثر استقراراً.

في العام 1986 وفي الصحراء الغربية أيضاً سقطت طائرة أنتونوف محملة بمواد يفترض أنها بالغة الخطورة كانت متوجهة إلى إحدى دولتين متحاربتين في ذلك الحين في الشرق الأوسط، واختفى أثرها. حاولت السي آي أيه تقصي أثر الطائرة منذ ذلك الحين عبر عمل استخباراتي من خلف الستار. ولكن عندما يجتمع فساد البعض في الدول العظمى يتحول تقفي الأثر إلى معانٍ وأهداف مغايرة، حيث ستكون النتائج بالطبع مغايرة.

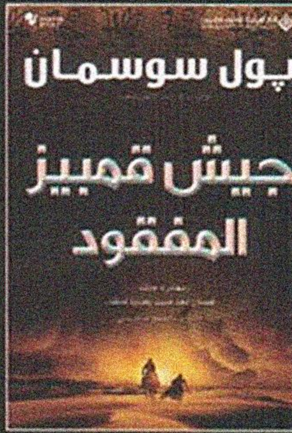


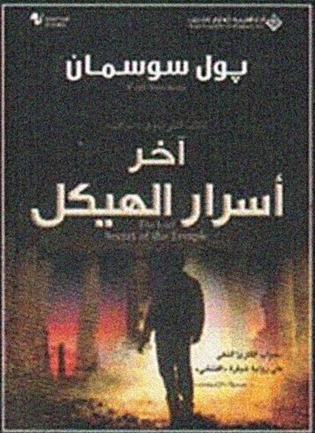
إلا أن موت ألكس عالمة الآثار في مصر وقدوم شقيقتها فريا لحضور مراسم دفنها، وتعرفها إلى رفاق شقيقتها وخصوصاً فلين برودي وهو عالم آثار وعميل سابق في جهاز الاستخبارات البريطانية، والشكوك التي ستراود فريا حول موت شقيقتها، ستفتح آفاقاً جديدة في تاريخ واحة زرزورة وربما في مستقبلها، مما سيضفي فهماً جديداً إلى ما حدث وسيحدث.

يعرض بول سوسمان في رائعته هذه النتائج المدمرة لالتقاء المصالح بين جشع رجل الأعمال المصري جرجس والسي آي أيه وستكون الحصيلة قتلاً، وتدميراً، ومطاردات تقطع الأنفاس. إلا أن أذى الأشرار لا حدود له، وسيبلغ السيل الزبى عندما توشك أقدس أقداس إمتي على الانتهاك، وعلى أي حال سيكون لبدو الصحراء وشهامتهم ودرايتهم دور مميز.

يقودنا بول سوسمان بإلمامه الكبير بمصر الحاضر والتاريخ عبر صفحات هذه الرواية في وصف قل نظيره وبمشهدية سينمائية رائعة. فهل ستحصل المأساة نتيجة عبث الإنسان بما لا يجب العبث به؟

صدر للمؤلف أيضاً:





ISBN 978-614-01-0390-0

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com

تصميم الغلاف: سامح خلف